من ذخائر التراث الإسلامي

مختصر

تفسير الطبري

للإمام المفسر أبي جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله المسمى

"جامع البيان عن تأويل آي القرآن"

مع تحقيقات علمية هامة

اختصار وتحقيق

الشيخ محمد علي الصابوني

أستاذ التفسير بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

الدكتور صالح أحمد رضا

الأستاذ المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية

المجلد الأول

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

آية (٢٩) سورة صٓ

﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

آية (٤٤) سورة النحل





كلمة سعادة الدكتور علي عبّاس الحكمي
عميد كلية الشريعة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله محمد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن آتبعهم واهتدى بهداهم إلى يوم الدين ، وبعد

فإن من أجلِّ نعم اللّه على العبد ، أن يوفّقه في اختيار العمل الذي يقضي فيه عمره ، ويكون نافعاً له في الدنيا والآخرة

ولقد كان من فضل الله العظيم ، على فضيلة الأخ الشيخ محمد علي الصابوني أن وفَّقه اللّه ويسَّر له ، خدمة كتاب الله العزيز ، دراسة ، وتدريساً ، وبحثاً وراء كنوزه الثمينة ، وكان من حصيلة ذلك أن أخرج بضعة كتب في التفسير وعلوم القرآن ، نذكر منها كتابه القيِّم المسمَّى « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن » و « مختصر تفسير ابن كثير » وكتاب « التّبيان في علوم القرآن » كما ألّف كتاباً مبسَّطاً ، سهل العبارة ، بديع الترتيب ، جامعاً لخلاصة آراء علماء التفسير وسمَّاه « صفوة التفاسير »

وقد قام أخيراً بالاشتراك مع فضيلة الدكتور صالح أحمد رضا باختصار التفسير الكبير المسمَّى « جامع البيان عن تأويل آي القرآن » لإمام المفسرين « أبي جعفر محمد بن جرير الطبري » الذي يُعتبر بحقٍّ موسوعة في علم التفسير ، لييسِّرا على طلبة العلم الرجوعَ إليه ، والانتفاعَ بكنوزه الثمينة ، فجزاهما الله خير الجزاء ، وقد أطلعني فضيلته على نماذج من هذا المختصر ، فوجدته نتيجةً مباركةً طيبةً ، لجهد غوَّاص ماهر في التقاط الدُّرر ، حاول الشيخان أن ينتزعاها من أعماق ذلك السِّفر الكبير ، ويضعاها بين يدي طلبة العلم ، سهلةً ميسورةً ، مصوغةً بعبارة المصنِّف أو تكاد ، ممَّا يعطي القارىء الثقة الكاملة ، بأن ما يقرأه هو أصيلٌ ، وحديثٌ في نفس الوقت ، أصيلٌ في مصدره ومنبعه ، وحديثٌ في عرضه ووضوحه

فكان بذلك من أحسن الكتب المختصرة ، وأكثرها أصالة ، وأعمها فائدة ، وأقربها إلى الكمال ، مع بعض التعليقات العلمية الهامة النافعة

نسأل الله أن ينفع به ، ويجزي الأخوين الكريمين على جهدهما الكبير خير الجزاء ، إنه سميع قريب مجيب ، وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

١٥ / ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ

وكتبه
الدكتور علي عباس الحكمي
عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة
جامعة أم القرى

إني لأعجب ممن يقرأ القرآن، كيف يلتذ بتلاوته ولم يفهم معناه

« الإمام الطبري »

كلمة معالي الدكتور راشد بن راجح بن محمد
مدير جامعة أم القرى

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ونصلّي ونسلم على أشرف خلقه ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

أما بعد

فلقد تصفحت بعض صفحات من كتاب « مختصر تفسير الطبري » اختصار وتحقيق فضيلة الشيخ محمد علي الصابوني ، وسعادة الدكتور صالح أحمد رضا

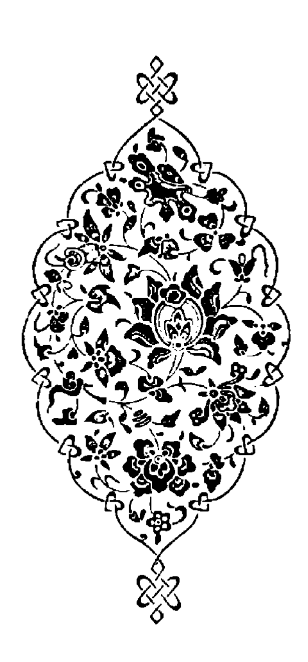
ولا شك أن القراء الكرام ، يعلمون منزلة كتاب « تفسير الإمام ابن جرير الطبري » ، المسمَّى - جامعَ البيان عن تأويل آي القرآن - وابن جرير معروف بفضله ، وعلمه ، وهو إمام المفسرين بلا منازع ، وتفسيرُه يعدُّ المصدر الأول لكتب التفسير بعده ، وهو إمام من أئمة السلف البارزين الذين ينفون عن عقيدة السلف الصالح تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وكذب المفترين وأتشرف بالإشراف على طالب بجامعة أم القرى لدرجة « الدكتوراه » يقوم ببحثٍ علمي في هذا الموضوع .

وما يقوم به صاحبا الفضيلة الشيخ محمد علي الصابوني ، وزميله الدكتور صالح رضا ، من جهدٍ نحو اختصار وتحقيق لهذا الكتاب ، هو جهدٌ يُشكران عليه ، ولهما من الله الأجر والثواب . ولا شك أنَّ كل محقِّق ، أو مؤلِّف ، أو مختصِرٍ لكتاب ، له منهجُه ورأيه ، وطريقته الخاصة والشيء الذي يمكن أن أقوله هنا هو الشكر الجزيل للأخوين الكريمين ، على هذا العمل الدائب ، والجهد المتواصل لخدمة كتاب الله ودعائي لهما بالتوفيق والسداد وحسن العاقبة والله الهادي إلى سواء السبيل . وهو حسبنا ونعم الوكيل

مدير جامعة أم القرى

راشد بن راجح بن محمد

السبت / ٢٦ من شهر ربيع الأول سنة ١٤٠٢ هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

● **أما بعد** : فإن تفسير الإمام ابن جرير الطبري يعتبر كنزاً من نفائس الكنوز العلمية ، ودُرَّة ثمينةً من آثار سلفنا الصالح ، وعلمائنا الأفْذاذ ، الذين خدموا الدين والعلم بما لم تصنعْه أمةٌ من الأمم ، ولم يبلغ غيرهم مِعْشارَ ما بلغوه ، وما قاموا به من جهود جليلة ، في خدمة الكتاب العزيز

● وإذا عُدَّ المفسرون كان الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ في مركز الصَّدارة ، طوداً شامخاً ، ومحققاً بارعاً ، وعَلَماً بارزاً من أعلام الإسلام ، يتربع على عرش العلم ، إماماً بلا مراء ، وأستاذاً رائداً لجهابذة العلماء في القديم والحديث ، قلَّ أن يجود الزمان بمثله ، نبوغاً ، وذكاءً ، وعلماً ، وصلاحاً

● وإذا ذُكرتْ كتب التفسير الشهيرة ، كان « تفسير الطبري » في مقدمة هذه الكتب ، لأن فيه مزايا يندر أن توجد في تفسير غيره ، حتى استحق مؤلفه الحجة أن يُسَمَّى بحقٍ « إمامَ المفسرين » وإذا كان الفقهاء في الفقه عِيالاً على الإمام « أبي حنيفة » النعمان كما يقول الإمام الشافعي رحمه الله فإننا نقول بكل ثقةٍ واطمئنان إنَّ المفسرين عيالٌ في التفسير على الإمام ابن جرير قدَّس اللّه روحه

● وهذا المختصر لتفسير الإمام الطبري ـ الذي نضعه بين يديك أيها القارىء الكريم ـ هو تفسير الشيخ الطبري نفسه ، بل يكاد يكون كلامه بالحرف الواحد ، ولكنه جاء مفرقاً متناثراً ضمن تفسيره الكبير ، تناثر الورود والأزهار في الحدائق والرياض لم نأتِ بشيءٍ جديد من عندنا وننسبه للشيخ الطبري ، وإنما لخصناه من تفسيره ، ونقلناه بأمانةٍ ودقة ، من خلال تفسيره الجامع الواسع ، غير ما دعت الحاجة إليه ، من زيادةِ كلمةٍ أو حرف للربط بين الجمل ، أو تغيير لفظةٍ غامضةٍ بكلمةٍ واضحة ، وأمثال ذلك مما يحتاج إليه أسلوب التنقيح والتهذيب

● ولقد وضعنا بعض التعليقات الضرورية في أسفل الكتاب ليتميز عن كلام الشيخ الطبري ، وذلك زيادة في التثبت وتحري الدقة ، والاطمئنان إلى أنَّ عملنا في غاية المستطاع من الجودة والإتقان

● وللشيخ الطبري طريقةٌ فريدة في تفسيره للقرآن الكريم ، يبدأ بذكر المعنى اللغوي ، ثم يستشهد على ذلك المعنى بالأشعار ، ثم يعقبه بذكر الآثار ويرجّح بينها ، وفي خلال ذلك يأتي ببعض معاني الآية الكريمة ممَّا قرَّره وتبناه ، ويُعَرِّج على بعض الأقوال الضعيفة فيفنّدها بالحجة والبرهان ، وفي نهاية المطاف يعود فيوضّح معنى الآية بأسلوب مسهب ، أوسع لفظاً ، وأوضح بياناً

● وهكذا نجد من لم يعرف طريقة الشيخ الطبري ، يظن أنَّ هذا المختصر ليس تفسير الطبري ، وإنما هو تفسير جديدٌ مسايرٌ لروح العصر ، نُسب إلى الإمام الطبري ليكسب الشُهرة والرَّواج ، مع أن الحقيقة أنه كلام الشيخ الطبري نفسه ، اختصرناه ، وهذَّبناه ، ورتَّبناه ، ليسهل الرجوع إليه ، والانتفاع بما فيه من كنوزٍ ثمينة ، ودررٍ نفيسة ، قلَّ أن توجد في غيره من التفاسير

● ولقد عهدتُ إلى أخي وصديقي ، العالم الفاضل اللامع الدكتور « صالح أحمد رضا » أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ليساعدني في هذا العمل الجليل ، فتفضَّل مشكوراً بقبول ذلك ، وتقاسمنا العمل بيننا ، فبدأت من أول القرآن الكريم ، من سورة البقرة إلى نهاية سورة الإسراء ، واشتغل أخي الكريم بالنصف الأخير منه ، بدءاً من سورة الكهف إلى نهاية سورة الناس

● وحتى يكون العمل ـ في هذا المختصر ـ قد جاء في غاية الدقة والإتقان أعدتُ النظر في القسم الذي اختصره فضيلة الدكتور « صالح رضا » حفظه الله ، ببعض الزيادة أو النقصان ، وبعض التعليقات العلمية الضرورية ، ليظلَّ العمل في المستوى المنشود ، الذي نحاول الوصول إليه وليبقى بروحٍ واحدة مترابطاً ، متناسقاً من بدايته إلى نهايته والكمالُ للّهِ وحده

● واللّهَ أسأل أن يسدِّد الخُطَى ، ويلهمنا السَّداد والرشاد ، ويجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم ، ويُبقيه ذخراً لنا يوم الدين ، يوم لا ينفع الإنسان إلا عمله الصالح ، الخالص لوجه الله الكريم « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير »

● وصلَّى الله وسلم على عبده ورسوله سيدنا محمد ، إمام المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتبه الفقير إلى عفو ربه

محمّد علي الصّابوني

تفسِيرُ الاسْتِعَاذة وَالبَسْمَلة

قال الشيخ الأجلّ ، العارف بالله ، إمامُ المفسرين ، وقدوةُ العلماء العاملين ، الشيخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رحمه الله ، وجعل جنة الفردوس مسكنه ومأواه

أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ

أي أستجير بالله ـ دون غيره من سائر خلقه ـ من الشيطان الملعون ، أن يضرني في ديني ، أو يَصُدَّني عن حقٍ يلزمني لربي ! والشيطانُ كلُّ متمردٍ عاتٍ من الإنس ،والجنِّ،والدواب وغيرها ،قال تعالى ﴿شياطينَ الإنسِ والجنِّ . . ﴾ سُمِّي شيطاناً لبعده من الخير ، والرجيمُ الملعونُ المشئومُ ، لأن الله جل ثناؤه طرده من سماواته ، ورجمه بالشهب الثواقب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

معناه أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيءٍ ، مستعيناً به جل وعلا في جميع أموري ، طالباً العون منه ، فإنه الإِلَهُ المعبود ، ذو الفضلِ والجود ، وتسميتُه « رحمن » لعموم رحمته جميع خلقه ، وتسميتُه « رحيم » لخصوص رحمته المؤمنين ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فربنا جلَّ ثناؤه رحمنُ جميع خلقه ، ورحيم المؤمنين خاصة في الدنيا والآخرة

قال ابن جرير إنَّ الله تعالى ذكرُه ، وتقدستْ أسماؤه ، أدَّب نبيه محمداً ﷺ بتعليمه تقديم ذكرِ أسمائِهِ الحسنى ، أمام جميع أفعاله ، وجعل ذلك سُنَّةً لجميع خلقه يستنُّون بها ، وسبيلاً يتبعونه عليها ، فقولُ القائل ﴿ بسم الله الرحمنِ الرحيمِ ﴾ إذا افتتح سورةً ، يُنْبِىءُ عن أن مراده بذلك أقرأُ باسم الله ، وكذلك عند القيام ، والقعود إذا قال « باسم الله » أن معناه أقومُ باسمِ الله ، وأقعد باسم الله ، وكذلك سائر الأفعال

---

(١) قال الخطابي : «الرحمنُ» ذو الرحمة الشاملة ، التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم ، وعمَّت المؤمن والكافر ، و «الرحيم» خاصٌ بالمؤمنين ، ولا يجوز إطلاق اسم «الرحمن» على غير الله تعالى ، بخلاف « الرحيم » فإنه يطلق على المخلوق أيضاً .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

* * *

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي الشكرُ والثناء خالصاً لله جلَّ وعلا دون سائرِ ما يُعبدُ من دونه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها عددُ ، ولا يحيط بعددها أحدٌ ، وقد قيل : ﴿الحمدُ لله﴾ ثناءٌ على الله بأسمائه وصفاته الحُسنى ، و « الشكرُ لله » ثناءٌ عليه بنعمِه وأياديه[1] ﴿ربِّ العَالمين﴾ أي ربِّ الإنس والجنِّ والملائكة ، وربِّ السمواتِ والأرضين ، والربُّ في كلام العرب يطلق على السيد المطاع ، والمصلح للشيء ، والمالكِ للشيء ، فربُّنا جلَّ ثناؤُه هو السَيدُ الذي لا شبيه له ولا مثيل في سؤدده ، والمصلحُ أمر خلقِهِ بما أسبغ عليهم من نِعَمِهِ ، والمالكُ الذي له الخلقُ والأمرُ ، و « العالَمُ » اسمٌ لأصناف الأمم ، فالإنس عالَمٌ ، والجنُّ عالَمٌ ، وكذلك سائر أجناس الخلق ﴿الرحمٰنِ الرحيم﴾ الرحمن أي الموصوف بعموم الرحمة لجميع الخلق ، الرحيم أي الموصوف بخصوص الرحمة للمؤمنين ﴿مالِكِ يوم الدِّينِ﴾ قُرِىء « مَلِكِ » من المُلْك ، وقُرِىء « مالك » من المِلْك ، ومعناه على الأول أنه تعالى المنفرد يومئذٍ بالمُلْك ، دون الملوك الجبابرة ، الذين كانوا في الدنيا ينازعونه المُلْك ، ويدافعونه العظمة والكبرياء كقوله « لمن المُلْكُ اليوم » ؟ ومعناه على الثاني أنه لا يملك أحدٌ في ذلك اليوم معه حكماً ، فهو جل وعلا الذي يملك الحكم بينهم وفصل القضاء[2] ، والدينُ في اللغة معناه : الحسابُ والجزاء أي إنَّه تعالى مالكُ حساب الخلائق يوم القيامة ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي لك اللهمَّ نخشع ونذل ونستكين لا لغيرك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي وإياك ربنا نستعين على عبادتنا وطاعتنا في جميع أمورنا ، لا أحداً سواك ﴿آهْدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ﴾ أي وفقنا للثبات على الطريق المستقيم ، الذي وفقت له من أنعمت عليه من

---

(١) قال ابن جرير: وإنما دخلت «أَلْ» في «الحمدُ لله» لإفادة الشمول لأن المعنى: جميعُ المحامدِ، والشكر الكاملِ إنما هو لله دون سواه.

(٢) رجح الإمام الطبري القراءة الأولى «مَلِك» لأنها أعم وأشمل وقال: كل مَلِكٍ مالكٌ، وقد يكون المالك للشيء ليس ملكاً. الخ وفي هذا الترجيح نظر لأن المراد من الآية أنه تعالى المالك للجزاء والحساب يوم القيامة، المتصرف في يوم الدين تصرُّفَ المالك في ملكه، ليس لأحد سواه تصرف ولا ملك، وهو قول ابن عباس.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

* * *

عبادك ، والصراطُ المستقيمُ هو الطريق الواضحُ الذي لا اعوجاج فيه ، وهو دينُ الإسلام الذي لا يقبل الله من العباد غيره ، ثم وضّحه وأبانه بقوله ﴿صِرَاطَ الذينَ أنعمت عليهم﴾ أي طريق من أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك ، من الملائكة والنبيّين والصِدّيقين والشهداء والصالحين ﴿غير المغضوبِ عليهم﴾ أي غير طريق المغضوب عليهم وهم «اليهود» الذين وصفهم الله بقوله « مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وغضب عليه وجعَلَ منهم القِرَدَةَ والخنازير»[1] ﴿ولا الضَّالين﴾ أي وغير طريق الضالين وهم «النَّصارى» ، الذين وصفهم الله تعالى بقوله « قد ضَلُّوا من قبلُ ، وأضلوا كثيراً ، وضَلُّوا عن سَوَاءِ السبيلِ »[2] وكلُّ حائدٍ عن قصد السبيل ، وسالك غير المنهج القويم ، فضالٌّ عند العرب ، فلذلك سمى الله النصارى ضُلَّالاً ، والمراد من الآية ألهمنا يا رب دينك الحقَّ ، حتى لا تغضب علينا كما غضبتَ على اليهود ، ولا تضلَّنا كما أضللتَ النصارى .

* * *

كلمة وجيزة حول فاتحة الكتاب

قال ابن جرير رحمه الله : « إن الله جل ثناؤه جمع لنبينا محمد ﷺ في القرآن معاني لم يجمعهنَّ بكتابٍ أنزله إلى نبيٍ قبله ، وذلك أن كل كتابٍ أنزله تعالى على نبي من أنبيائه ، فإنما أنزله ببعض المعاني التي يحوي جميعها كتابُه ، كالتوراة التي هي مواعظ وتفصيل ، والزبور الذي هو تحميدٌ وتمجيد ، والإنجيل الذي هو مواعظ وتذكير ، والكتابُ الذي أنزل على نبينا يحوي معاني ذلك كله ، ويزيد عليها كثيراً من المعاني التي سائر الكتب منها خالٍ ، ومن أشرف تلك المعاني - التي فَضَلَ بها كتابنا سائر الكتب - نظمُه العجيبُ ، ورصفُه الغريب ، وتأليفه البديع ، الذي عجزت عن نظم مثل سورةٍ منه الخطباء ، وكلَّت عن وَصْف شكل بعضه البلغاء ، وتحيَّرت في تأليفه الشعراء ، فلم يجدوا إلا التسليم والإقرار ، بأنه من عند الله الواحد القهار ، وفي سورة « أم القرآن » أراد الله أن يجمع الدلالة على نبوة نبينا محمد ﷺ ، لأنها جمعت معاني لم تجتمع في كتاب أنزل إلى الأرض من السماء ، فما فيها من تحميد وتمجيد وثناء عليه ، تنبيهُ للعباد على عظمته وسلطانه ، ليذكروه بآلائه ، ويحمدوه على نعمائه ، فيستحقوا به منه المزيد ، ويستوجبوا عليه الثواب الجزيل ، وبما فيها من نعت من أنعم عليه بمعرفته ،

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٠

(٢) سورة المائدة آية رقم ٧٧

وتفضَّلَ عليه بتوفيقه لطاعته ، تعريف عباده أن كل ما بهم من نعمةٍ في دينهم ودنياهم فمنه تعالى ، ليصرفوا رغبتهم إليه ، ويبتغوا حاجاتهم من عنده ، دون ما سواه من الآلهة والأنداد ، وبما فيها من ذكر ما أحلَّ بمن عصاه ، وأنزل بمن خالف أمره من عقوباته ، ترهيبُ عباده عن ركوب معاصيه ،والتَّعرضِ لما لا قبل لهم به من سخطه ، فيسلك بهم في النكال والعقوبات،سبيل من ركب ذلك من الهالكين ، وفيما كان نظيراً لها من سائر سور القرآن ، وذلك هو الحكمة البالغة ، والحجة الكاملة[١]

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة الفاتحة»

* * *

(١) هذا نص كلام الشيخ ابن جرير اختصرناه من تفسيره الكبير ، في مسألة طعن أهل الإلحاد في القرآن ١/٩٨



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ

* * *

﴿الٓمٓ﴾ قال بعضهم: لكل كتاب سرٌّ،وسرُّ القرآن فواتِحُهُ. وقال بعضهم: هي أسماء للسور، وقال آخرون: معنى ﴿الٓمٓ﴾ أنا الله أعلم، وقال غيرهم: ابْتَدِىءِ بهذه الحروف المقطَّعة أوائل السور، ليفتح لاستماع القرآن أسماع المشركين، لأنهم تواصوا بالإعراض عن القرآن «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآنِ والْغَوْا فيه» والصوابُ في تأويل مفاتح السور، التي هي حروف مقطعة، أن الله أراد بكل حرفٍ منه الدلالة على معانٍ كثيرة،شامل جميعها من أسماء الله عز وجل وصفاته ما قاله المفسرون[1] **﴿ذَٰلِكَ الكِتَابُ﴾** أي هذا الذي ذكرتُه وبيَّنتُه لك يا محمد هو الكتاب **﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾** أي لا شك في أنه من عند الله **﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾** أي هداية للمتقين، الذين اتقوا ربهم فأطاعوه فيما أمرهم به من فرائضه، وتجنبوا ركوب ما نهاهم عنه من معاصيه، وخصَّ الهداية بالمتقين،لأنه شفاءٌ لما في صدور المؤمنين،وعمًى لأبصار الجاحدين[2]، وحجةٌ بالغةٌ لله على الكافرين، فالمؤمن به مهتدٍ، والكافر به محجوج **﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ﴾** أي الذين يُصدّقون بكل ما غاب عنهم من الجنة والنار، والثواب والعقاب، وبما ذكر الله في القرآن، من التصديق بالله وملائكته،وكتبه،ورسله **﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾** أي يؤدونها بحدودها وفروضَها، كما فرضت عليهم بتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع كما قال ابن عباس **﴿ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾** أي ينفقون من طيِّب ما رزقهم ربهم ،من زكاة الأموال وسائر النفقات المحمود عليها، من الحلال الذي لم يَشُبْه حرام **﴿والذين يؤمنونَ بما**

---

(١) الراجح أن هذه الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن كما حققناه في كتابنا « صفوة التفاسير» وهو قولُ المحقِّقين من أئمة علماء التفسير، وما ذكره ابن جرير قول لبعض المفسرين مرجح والله أعلم

(٢) قال تعالى ﴿قلْ هو للذين آمنوا هُدًى وشفاءٌ والذينَ لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عَمًى . .﴾ فصّلت آية ٤٤

هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

* * *

أُنزلَ إليكَ وما أُنزلَ من قَبْلِكَ﴾ أي والذين يصدقون بما جئتَ به من الله عز وجل، وما جاء به من قبلك من المرسلين، لا يفرقون بينهم، ولا يجحدون بما جاءوهم به من عند الله ﴿وبالآخرةِ هم يوقنون﴾ أي وبالدار الآخرة التي تتلو هذه الدار الدنيا، وما فيها من البعث والنشور، والثواب والعقاب، والحساب والميزان يوقنون ﴿أولئكَ على هُدىً من ربِّهِمْ﴾ أي أولئك المؤمنون بالغيب والمؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ وعلى من قبله من الرسل، على نور من ربهم واستقامة وبرهان ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الناجحون، المدركون لما طلبوا من الفوز بالثواب، والخلود في الجنان

قال ابن جرير: أخبر جلَّ ثناؤه أن هذا الكتاب هدى لأهل الإيمان، المصدقين بما أنزل الله إلى محمد ﷺ وإلى من قبله من رسله من البينات والهدى، ثم أكد جل ثناؤه أمر المؤمنين من العرب ومن أهل الكتاب، بأنهم هم أهل الهدى والفلاح خاصةً دون غيرهم، وأن غيرهم هم أهل الضلال والخسار[1] ﴿إنَّ الذينَ كفروا﴾ أي جحدوا بالقرآن وبرسالة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿سواءٌ عليهم أأنذرتَهُمْ أم لم تُنْذِرهم لا يُؤْمنونَ﴾ أي متساوٍ ومتعادلٌ عندهم، الإنذارُ أم تركُ الإنذار، فإنهم لا يؤمنون. قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يحرصُ أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله جل ثناؤه، أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادةُ في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول[2] ﴿خَتَمَ الله عَلى قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ﴾ أي طبع الله على قلوبهم وأسماعهم، فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر منها مخلص، كما يُطبع ويختم على الأوعية والظروف ﴿وعَلى أَبْصارِهِمْ غِشَاوةٌ﴾ غطاءٌ فلا يبصرون سبيل الهدى ﴿ولهم عَذَابٌ عظيمٌ﴾ على تركهم طاعة الله وفرائضه.

﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ أي صَدَّقنا بالله وبالبعث يوم القيامة، سُمي يومُ القيامة اليومَ الآخِر، لأنه آخر يوم لا يوم بعده ﴿وما هم بمؤمنين﴾ أي وما هم بمصدقين، لأنهم يُبْدون بأفواههم خلاف ما في قلوبهم، وهؤلاء هم أهل النفاق من أحبار اليهود وغيرهم من العرب، ممن أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر[3] ﴿يُخَادِعونَ الله والذين آمنوا﴾ أي يظهرون بلسانهم

---

(١) تفسير الطبري ١/٢٤٦ تحقيق محمود شاكر. (٢) الطبري ١/٢٥٢

(٣) تناولت السورة الكريمة الفِرَقَ الثلاثة «المؤمنين، الكافرين، المنافقين» وقد تحدثت عن صفات المؤمنين في خمس آيات، فأثنت عليهم بما تحلَّوا به من الصفات الكريمة الحميدة، ثم تحدثت عن الكافرين في آيتين، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين، على طريقة القرآن في المقارنة بين الأبرار والفجار، ثم تناولت الصنف الثالث وهم المنافقون بالإسهاب، في ثلاث عشرة آية، لينبّه تعالى إلى عظيم خطرهم وكبير ضررهم

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا

* * *

من القول والتصديق ، خلاف الذي في قلوبهم من الشك والتكذيب ، ليتخلصوا من القتل بدعوى الإيمان ، سمي مخادعاً لأنه بفعله خادع لنفسه ولهذا قال ﴿**وما يخدعون إلا أنفسَهُمْ**﴾ أي وما يخدعون ـ على الحقيقة ـ إلا أنفسهم ، لأنه يعطي نفسه أمنيتها ، ويسقيها كأس سرورها ، وهو موردها حياض عطبها ، ومجرّعها كأس عذابها ﴿**وما يَشْعُرونَ**﴾ أي وما يدرون أنَّ هذا استدراج من الله تعالى لهم ﴿**في قلوبهِمْ مَرَضٌ**﴾ أي سُقْم وهو مرض الاعتقاد ، وهو شكهم في أمر محمد وأمر نبوته ﴿**فَزادهم الله مَرَضاً**﴾ أي فزادهم شكاً وحيرة ، كما زاد المؤمنين به إيماناً ﴿**ولهم عذابٌ أليمٌ**﴾ أي ولهم عذاب مؤلمٌ موجع ﴿**بما كانوا يكذبون**﴾ أي بسبب كذبهم بدعواهم الإيمان ، وإظهارهم ذلك بألسنتهم خداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿**وإذا قيلَ لهم لا تُفْسِدوا في الأرضِ**﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي ، والشك في دين الله ، وموالاة اليهود أعداء الله ﴿**قالوا إنَّما نحنُ مُصْلِحونَ**﴾ أي قالوا إنما نريد الإصلاح بين المؤمنين وأهل الكتاب ، وإنما نحن مصلحون لا مفسدون ، لأننا على رُشدٍ وهدى ﴿**ألَا إنهم هم المفسدونَ**﴾ أي إنهم هم المفسدون حقاً ، بتعدِّيهم حدود الله ، وركوبهم معصيتَه ، وتركهم فروضَه ، لا المؤمنون الذين ينهونهم عن الإفساد في الأرض ﴿**وَلَكِنْ لا يَشْعُرونَ**﴾ أي ولكنهم لا يدرون أنهم كذلك ، يفسدون من حيث يظنون أنهم يُصْلحون ، ويسيئون إلى أنفسهم من حيث يظنون أنهم يُحْسنون ﴿**وإذَا قيلَ لَهمْ آمنوا كما آمَنَ الناسُ**﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المنافقين : صدِّقوا بمحمد وبما جاء به من عند الله ، كما صدَّق به المؤمنون ﴿**قَالُوا أنُؤْمِنُ كما آمنَ السُّفَهاءُ**﴾ ؟ أي قالوا إجابةً لقائل ذلك : أنؤمن كما آمنَ أهلُ الجهل ، ونصدِّق بمحمد كما صدَّق به هؤلاء الذين لا عقول لهم ولا أفهام ؟ ! يعنون أصحاب رسول الله ﴿**ألَا إنَّهم هُمُ السُّفَهاءُ ولَكِنْ لا يَعْلَمونَ**﴾ أي ألا إنهم هم الجُهَّال في أديانهم ، الضعفاء في آرائهم واعتقاداتهم ، لإساءتهم إلى أنفسهم ، دون المؤمنين المصدِّقين بالله وبكتابه ، وبثوابه وعقابه ، ولكن لا يعلمون ذلك ﴿**وإذا لَقُوا الذينَ آمَنُوا قالوا آمَنَّا**﴾ أي وإذا لقي المنافقون المؤمنين قالوا لهم : آمنا وصدَّقنا بمحمد وبما جاء به من عند الله ، قالوا ذلك خِداعاً وخبثاً ﴿**وإذَا خَلَوْا إلى شَيَاطِينِهِمْ**﴾ أي وإذا انصرف المنافقون خالين إلى مردتهم من المنافقين والمشركين ، واختلوا برءوسهم في الكفر والشر ﴿**قالوا إنَّا معكم**﴾ قالوا لهم : إنا معكم على دينكم ، وعلى

نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾

* * *

مثل ما أنتم عليه ﴿**إنّما نحنُ مُسْتَهزِئونَ**﴾ إنما نحن ساخرون بأصحاب محمد .بقولنا لهم : آمنا بالله وباليوم الآخر ﴿**الله يَسْتَهزِئُ بِهِمْ**﴾ يعاملهم معاملة المستهزىء، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا ما يرضيهم به ظاهراً، من حقن دمائهم وأموالهم، مع ما أعدَّ لهم في الآخرة من أليم العقاب والنكال، جزاءً على ستهزائهم بالمؤمنين[١] ﴿**وَيَمُدُّهم في طُغْيانِهم يَعْمَهُونَ**﴾ ويزيدهم في كفرهم وضلالهم، يترددون حيارى، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً ﴿**أولئكَ الذينَ اشتَرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى**﴾ أي أخذوا الضلالة وتركوا الهُدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان ﴿**فما ربحتْ تجارتهُم**﴾ أي خسروا ولم يربحوا ﴿**وما كانوا مهتدين**﴾ أي وما كانوا رشداء في اختيارهم الضلالة على الهدى، واستبدالهم الكفر بالإيمان ﴿**مَثَلُهمْ كَمَثَلِ الذي استَوْقَدَ ناراً**﴾ أي مثل هؤلاء المنافقين في استضاءتهم بنور الإيمان، كمثل استضاءة موقد النار بناره ﴿**فلَمّا أضاءتْ ما حولَهُ ذهب الله بنورهم**﴾ أي فلما ارتفق بضيائها، وأبصر ما حوله مستضيئاً بالنور من الظلمة، خمدتِ النارُ وانطفأتْ، وعاد في ظلمةٍ وحَيْرة ﴿**وتركَهُمْ في ظُلماتٍ لا يُبْصِرُونَ**﴾ أي تركهم يتخبطون في ظلمات الشك والنفاق، كما انطفأت نار المستوقِد بعد إضاءتها له فبقي في ظلمته حيران تائهاً ﴿**صُمٌّ بكمٌ عميٌ**﴾ أي لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه، لأن الله قد طبع على قلوبهم بنفاقهم فلا يهتدون ﴿**فهم لا يرجعون**﴾ أي لا يرجعون عن غيِّهم وضلالهم ،ولا يتوبون من نفاقهم ﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ**﴾ أو مثلهم كمثل مطر غزيرٍ تحدَّر من السماء، تحمله سحابة ظلماء في ليلة مظلمة ﴿**فيه ظُلماتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ**﴾ أي في هذا المطر الذي سرى ليلاً في مُزْنة ـ أي سحابة ـ ظلماء، وليلة مظلمة، يحدوها رعدٌ، ويستطير في حافاتها برقٌ شديدٌ لمعانُه، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، ويختطفها من شدة ضيائه ونور شعاعه ﴿**يجعلونَ أصابعَهُمْ في آذانِهمْ من الصَّواعقِ حَذَرَ الموتِ**﴾ أي يضعون أصابعهم في آذانهم كما يتقي الخائف أصوات الصواعق حذراً على نفسه منها ﴿**والله محيطٌ بالكافرين**﴾ أي جامع الكافرين فمحِلٌ بهم عقوبته قال مجاهد: جامعهم في

---

(١) قال الطبري: ذهب بعض المفسرين إلى أن الاستهزاء والخداع والسخرية والمكر وأمثال ذلك إنما هو محمول على الإخبار عن الجزاء كقوله تعالى: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ وقوله ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ وقوله ﴿فيسخرون سخر الله منهم﴾ قالوا: هو إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فهما وإن اتفقا في اللفظ مختلفان في المعنى كقوله ﴿وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها﴾ ومعلوم أن الأولى سيئة لأنها معصية، والثانية عدل لأنها جزاء على المعصية، وإلى هذا وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. الطبري ٣٠٢/١، أقول: هذا يسمى عند علماء البلاغة بالمشاكلة وهي الاتفاق باللفظ دون المعنى

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

* * *

جهنم ﴿يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أبصارَهُمْ﴾ أي يكاد البرق يذهب بأبصارهم من شدة ضيائه ولمعانه، والخَطْفُ: السلبُ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لهم مَشَوْا فيهِ﴾ أي كلما أضاء لهم البرقُ مشوا في ضوئه، كما يمشي السائر في ظلمة الليل إذا برقت له بارقة أبصر طريقه فيها ﴿وإذَا أَظْلَمَ عليهِمْ قَامُوا﴾ أي وإذا ذهب ضوء البرق عنهم وقفوا عن المشي ﴿ولو شَاءَ الله لذهب بسمعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ﴾ أي ولو شاء الله لأذهبَ أسماعهم وأبصارهم ﴿إنَّ الله على كل شيء قديرٌ﴾ أي هو تعالى قادرٌ على كل شيءٍ،وإنما وصف نفسه بالقدرة على كل شيءٍ، لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته(١).

﴿يا أيها الناسُ اعبُدوا ربَّكُمْ﴾ أي أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه ﴿الَّذي خَلَقَكُمْ والذينَ مِنْ قبلِكُمْ﴾ أي الذي خلقكم وخلق آباءكم وأجدادكم وسائر الخلق غيركم، وهو القادر على ضركم ونفعكم ﴿لعلكم تتقونَ﴾ أي لتتقوا سخطه وغضبه أن يحل بكم، ولتكونوا من المتقين الذين رضي عنهم ربهم ﴿الذي جعل لكم الأرضَ فراشاً﴾ أي جعلها لكم مهاداً موطَّأً، وقراراً تستقرون عليها ﴿والسَّماءَ بناءً﴾ أي وجعل السماء بناء كهيئة القبة، وإنما سميت السماء سماءً لعلوِّها على الأرض وعلى سكانها من خلقه. ذكر تعالى السماء والأرض- فيما عدَّد عليهم من نعمه- لأن منها أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم، فأعلمهم أن الذي خلقهما وخلق جميع ما فيهما،هو المستحق عليهم الطاعة، المستوجب منهم الشكر والعبادة دون الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع ﴿وأنزلَ مِنَ السماءِ مَاءً فأخرجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رِزْقاً لكُمْ﴾ أي أنزل المطر فأخرج به من الزرع والغرس ثمراتٍ،غذاءً وأقواتاً لكم. نبههم بذلك على قدرته وسلطانه، وأنه هو الذي خلقهم، وهو الذي يرزقهم ويكفلهم، ثم زجرهم عن أن يجعلوا له نِدّاً مع علمهم بأنه لا نافع ولا ضار، ولا خالق ولا رازق سواه فقال ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي عدلاء وأشباهاً، وكلُّ شيء

---

(١) روى الطبري عن ابن عباس أن الرعد ملك موكل بالسحاب يزجره ويسوقه كما يسوق الراعي الإبل، وأن البرق ضربه السحاب بمخراق من حديد، وقال علماء الطبيعة: إنه ناشىء من اجتماع السحاب الموجب بالسالب فيحدث الرعد والبرق، ولا مانع من ذلك لأنه بفعل الله وتدبيره.

(٢) قال الطبري نقلاً عن الربيع بن أنس: مثل المنافقين كمثل قوم ساروا في ليلة مظلمة على جادة، فيها مطر ورعد وبرق، فإذا أبرقت أبصروا الجادة فمضوا فيها، وإذا ذهب البرق تحيروا، وكذلك المنافق، كلما تكلم بكلمة الإخلاص أضاء له، فإذا شك تحيَّر ووقع في الظلمة! اهـ. الطبري ٣٥١/١.

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

* * *

كان نظيراً لشيء وشبيهاً له فهو نِدٌّ ﴿وأنتم تعلمونَ﴾ أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وأنه مبدعُ الخلق وخالقهم ورازقهم.

﴿وإن كنتم في رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا على عَبْدِنا﴾ أي إن كنتم أيها المشركون في شك مما نزلنا على عبدنا محمد ﷺ من النور والبرهان وآيات الفرقان ﴿فَأْتوا بسُورَةٍ من مثلِهِ﴾ أي فأتوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن، فأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة ﴿وادْعُوا شُهَدَاءكُمْ من دُونِ الله﴾ أي وادعوا أعوانكم ومن تستنصرون بهم ليعينوكم، دون الله تعالى ﴿إنْ كنتُمْ صادقينَ﴾ في دعواكم وزعمكم أن محمداً افترى واختلق هذا القرآن ﴿فإنْ لم تَفْعَلُوا﴾ أي فإن لم تأتوا بسورةٍ من مثله، وعجزتم وعجز جميع الخلق عنه ﴿وَلَنْ تفعلوا﴾ أي ولن تأتوا بسورةٍ من مثله أبداً ﴿فاتقوا النَّارَ التي وَقُودُهَا النَّاسُ والحجارةُ﴾ أي فاحذروا نار جهنم التي حطبها الناسُ وحجارة الكبريت، وهي أشدُّ الحجارة حراً إذا أُحميت ﴿أُعِدَّتْ للكافرينَ﴾ أي هيئت للجاحدين بالله وبرسلِهِ ﴿وَبَشِّرِ الذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ﴾ أي وبشِّر[1] يا محمد من صدَّقك أنك رسولي، وحقَّق تصديقه بأداء صالح الأعمال ﴿أنَّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ أي بأن لهم بساتين، تجري من تحت أشجارها وثمارها وغروسها أنهار الجنة[2] ﴿كُلَّما رُزِقوا منها من ثَمَرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبلُ﴾ أي كلما رُزق المؤمنون من ثمرةٍ من ثمار الجنة في الجنة، قالوا: هذا الذي كنا قد رزقنا من قبلُ في الدنيا[3] من الثمار والرزق ﴿وأُتوا بهِ مُتَشَابهاً﴾ أي مشتبهاً في اللون والمنظر، ومختلفاً في الطعم والذوق ﴿ولهم فيها أزواجٌ مطهَّرةٌ﴾ أي ولهم في الجنات أزواج - أي نساء - مطهَّرات من كل دنسٍ وأذى - حسِّيٍ ومعنويٍ - مما عليه نساء الدنيا، من الحيض والنفاس، والبول والغائط، وما أشبه ذلك من الأذى والأدناس والمكاره ﴿وهمْ

---

(١) قال الطبري أصل البشارة الخبرُ السار الذي يَسرُّ به المخبر، أقول: ولهذا لا تكون البشارة إلاّ في الخير، فإذا استعملت في الشرِّ كان ذلك من باب التهكم والسخرية كقوله تعالى ﴿فبشِّرْهم بعذابٍ أليم﴾

(٢) قال الطبري: الذي توصف به أنهار الجنة أنها جارية في غير أخاديد.

(٣) رجح الطبري هذا القول أنه في الدنيا، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد في الجنة، أي هذا الذي رزقنا من قبلُ في الجنة لما رُوي في الأثر «يُؤْتى أحدهُم بالصحفة فيأكل منها، ثم يُؤْتى بأخرى فيقول: هذا الذي أُتينا به من قبلُ، فيقول الملك: كُلْ يا عبد الله، فاللون واحدٌ والطعم مختلف».

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

* * *

﴿فيها خَالِدُونَ﴾ أي مقيمون في الجنات أبداً، مع السرور والنعيم الدائم.

﴿إنَّ الله لا يَسْتَحْيي أن يَضْرِبَ مَثَلاً ما﴾ أي لا يستحيي أن يضرب ـ في الحقِّ ـ الأمثال، صغيرها وكبيرَها، ليَميز بين أهل الإيمان والتصديق، وأهل الكفروالضلال[1] ﴿بَعُوضةً فما فَوْقَها﴾ أي بعوضةً فما هو أعظم منها[2] ﴿فأمَّا الذينَ آمَنُوا فيعلمونَ أنَّهُ الحقُّ منْ ربهمْ﴾ أي فأما الذين صدَّقوا الله ورسوله فيعرفون أن هذا المثل الذي ضربه الله كلامُ الرحمن ومن عنده، وأنه الحق من الله ﴿وأمَّا الذين كفروا فيقولون ماذا أرادَ الله بهذَا مَثَلاً﴾؟ أي وأما الذين جحدوا آيات الله، من المنافقين والمشركين ونظرائهم فيقولون: ما الذي أراد الله بهذا المثل؟ ولماذا ضرب به المثل؟! ﴿يُضِلُّ به كَثِيراً﴾ أي يُضل الله بالمثل الذي يضربُه كثيراً من أهل النفاق والكفر ﴿ويَهْدي بِهِ كثيراً﴾ ويهدي بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيد أولئك ضلالاً إلى ضلالهم لتكذيبهم به، ويزيد هؤلاء هدىً إلى هداهم لتصديقهم به ﴿وما يُضِلُّ به إلا الفاسقينَ﴾ أي وما يضلُّ به إلا المنافقين، الخارجين عن طاعة ربهم ﴿الذينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ هؤلاء الفاسقون هم الذين نقضوا عهد الله الذي أخذه عليهم في التوراة، من الإقرار بمحمد ﷺ، وتبيين نبوته للناس، وعدم كتمهم لآيات الله، وهم «أحبارُ اليهود» ومن كان على سبيلهم ومنهاجهم، من جميع الخلق وأصناف الأمم[3]، وقولهُ«من بعدِ مِيثَاقِهِ» أي من بعد توثق الله فيه بأخذه عهودهم بالوفاء بذلك ﴿ويَقْطَعونَ ما أمرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أي ويقطعون الأرحام، التي أمر الله عز وجل بوصلها والإحسان إليها ﴿ويُفْسِدُونَ في الأرض﴾ أي يفسدون فيها بالكفر والمعاصي وانتهاك الحرمات، والتكذيب لرسول الله ﷺ ﴿أولئكَ هم الخاسرونَ﴾ أي الخاسرون رحمةَ الله، الذين نَقَصُوا أنفسهم حُظُوظها، كما يخسر الرجل في تجارته من رأس

(١) قال المفسرون: لما ذكر الله العنكبوت والذباب في القرآن، وضرب بها الأمثال، قال المشركون: الله أجلُّ وأعظم من أن يضرب الأمثال بهذه الأشياء الحقيرة فنزلت الآية.

(٢) وقال بعض المفسرين: «فما فوقها» في الصغر والقلة، كما يقال في الرجل يصفه الواصف باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم وفوق ذاك، يعني وفوق الذي وصفت في الشح واللؤم، والأول اختيار الطبري ١/٤٠٦.

(٣) يرى الطبري أن الآية وإن نزلت في أحبار اليهود، إلا أنها تشمل كل من كان على طريقتهم ومنهاجهم من جميع الخلق والأمم، وكل من كان على مثل ما كانوا عليه من الضلال ١/٤١٢.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَاءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

* * *

ماله ﴿كيفَ تكفرونَ بالله وكنتُمْ أمواتاً فأحياكُمْ﴾؟ أي كيف تجحدون قدرةَ الله على إحيائكم بعد إماتتكم، وقد كنتم نُطَفاً أمواتاً في أصلاب آبائكم، فأنشأكم خلقاً سوياً، وجعلكم بشراً أحياء[١]؟ وهذه الآية توبيخٌ من الله للذين قالوا بأفواههم خِداعاً لله وللمؤمنين «آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين» ﴿ثُمَّ يُميتُكُمْ ثم يُحْييكُمْ﴾ أي ثم يميتكم بعد إنشائكم، ويعيدكم بعد إفنائكم، ومن فعل ذلك بقدرته، فغيرُ عاجزٍ عن حشركم إليه لمجازاتكم بأعمالكم ﴿ثم إليه تُرجعون﴾ أي يحشركم لموقف الحساب، للثواب والعقاب ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ أي هو جل ثناؤه الذي خلق لكم جميع ما في الأرض من المعايش، تفضلاً منه وكرماً ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ﴾ أي علا على السماء وارتفع[٢] ﴿فسوَّاهنَّ سَبْعَ سَموات﴾ أي فدبَّرهن بقدرته وخلقهن سبع سمواتٍ ﴿وهو بكل شيءٍ عليمٌ﴾ أي وهو تعالى عالمٌ بأموركم وأحوالكم، ما تبدون وما تكتمون، الذي قد كَمَل في علمه.

﴿وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إني جاعلٌ في الأرض خَليفةً﴾ أي مستخلف في الأرض خليفة، يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك هو آدم ﴿قالوا أتَجْعلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ﴾؟ أي قالت الملائكة - على سبيل الاسترشاد والاستخبار لا على سبيل الاعتراض والإنكار- أعلمنا يا ربنا أجاعل أنت في الأرض من يفسدُ فيها ويسفك الدماء، وتارك أن تجعل خلفاءك منا؟ ﴿ونحن نُسبِّحُ بحَمْدِكَ ونقدِّسُ لكَ﴾ أي ونحن نعظِّمك بالحمد لك والشكر؟ والتسبيحُ: التنزيهُ، والتقديسُ: التطهيرُ والتعظيم ﴿قالَ إني أعلمُ ما لا تَعْلمونَ﴾ ممَّا خفي عليكم من شأن آدم وإبليس ﴿وعلَّم آدمَ الأسْماءَ كُلَّها﴾ أي علَّمه أسماء كل شيءٍ، أسماءَ ذريته وأسماء الملائكة ﴿ثم عرضهُمْ على الملائكة﴾ أي ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة ﴿فقال أنبئوني بأسماءِ هؤلاء﴾ أي أخبروني بأسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليكم أيها الملائكة ﴿إن كنتم

---

(١) قال الطبري: و«كيف». بمعنى التعجب والتوبيخ لا بمعنى الاستفهام، كأنه قال: ويحكم كيف تكفرون بالله والحال أنكم كنتم أمواتاً فأحياكم!؟ الطبري ١ / ٤٢٧

(١) علواً يليق بجلاله، وقد ذكر الطبري أقوالاً عديدة في الإستواء للمفسرين، وردَّها لأنها خلاف المفهوم من كلام العرب ثم قال: الإستواء هنا بمعنى العلو والارتفاع، علا عليها علوَّ مُلْك وسلطان، لا علو انتقال وزوال. انظر الطبري ١/٤٣٠.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

* * *

صادقين﴾ في دعواكم أنكم إن استخلفتكم في أرضي سبحتموني وقدَّستموني ،وإن استخلفتُ فيها غيركم عصاني ذريتُه ، وأفسدوا في الأرض ، وسفكوا الدماء ﴿قالوا سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا﴾ أي نسبحك تسبيحاً ، وننزهك تنزيهاً ، ونبرِّئك من أن نعلم شيئاً غير ما علمتنا ﴿إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ﴾ أي إنك أنت يا ربنا العالم للغيوب دون جميع خلقك ، ذو الحكمة التامة . قال ابن عباس : «العليم» الذي قد كَمَل في علمه «الحكيم» الذي قد كَمَل في حكمه[1] ﴿قالَ يا آدمُ أنبئهمْ بأسمائِهِمْ﴾ أي أخبرْ الملائكة بأسماء هؤلاء الذين عرضتُهم عليهم فلم يعرفوهم ﴿فلما أنبأهم بأسمائهم﴾ أي فلما أخبرهم آدم بأسمائهم ﴿قال أَلَمْ أَقُلْ لكم إني أَعْلَمُ غيب السَّمواتِ والأرضِ﴾ أي قال لهم ربهم : ألم أقل لكم أيها الملائكةُ إني أعلم غيب جميع السموات والأرض ، لا يعلمه غيري ﴿وأعلم ما تُبْدونَ وما كنتم تكتمون﴾ أي وأعلم ما تُظهرون بألسنتكم ، وما كنتم تخفونه في أنفسكم ، لا يخفى عليَّ شيء ، والذي أظهروه بألسنتهم قولهم «أتجعلُ فيها من يفسدُ فيها»؟ والذي كانوا يكتمونه ما كان منطوياً عليه إبليس من التكبر عن طاعة الله ، ورُوي عن الربيع بن أنس أن الذي كتموه قولهم : «لن يخلق ربنا خَلْقاً إلا كنا نحن أعلم منه وأكرم» فعرفوا أن الله فضَّل عليهم آدم في العلم والكرم[2] ﴿وإذْ قُلْنَا للملائكةِ اسْجُدوا لآدمَ﴾هذا من عطف القصة على القصة ، وكأنه جل ثناؤه يقول لليهود : اذكروا فعلي بكم إذْ أنعمتُ عليكم ، فخلقتُ لكم ما في الأرض جميعاً . وإذْ قلتُ للملائكة

---

(١) قال الطبري : بدأ بعد تعداد النعم ، بذكر أبينا آدم وما سلف من كرامة الله إليه وآلائه لديه ،لينبه أحبار اليهود ـ الذين جمع بين قصصهم وقصص المنافقين ـ على حكمه في المنيبين إليه بالتوبة ، وليذكّرهم خاصة بأن محمداً ﷺ رسولُ لله مبعوث ، وأن ما جاءهم به فمن عند الله ، إذ كان ما اقتص عليهم من هذه القصص من مكنون علومهم ، ومصون ما في كتبهم ، وكان معلوماً لديهم أن محمداً ﷺ لم يكن قط كاتباً ، ولا لأسفارهم تالياً ، ولا لأحد منهم مصاحباً حتى يدعوا أنه أخذ من كتبهم ولذلك ذكر تعالى قصة آدم .

(٢) قال الطبري : وفي هذه الآيات الثلاث العبرةُ لمن اعتبر ، والذكرى لمن ادَّكر ، والبيانُ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله في هذا القرآن من لطائف الحِكَم ، التي تعجز عن وصفها الألسن ، وذلك أن الله جل ثناؤه احتج لنبيه ﷺ على يهود بني إسرائيل ، باطلاعه إياه من علوم الغيب ، التي لم يكن أطلع عليها من خلقه إلا خاصاً ، لتتقرر عندهم صحة نبوته ، ويعلموا أن ما جاءهم به فمن عند الله ، وذلك في قصة «آدم مع الملائكة» حيث ردَّ على الملائكة بما عرَّفهم من قصور علمهم عند عرضه عليهم أهل الأسماء ، فلم يكن لهم مفزعٌ إلا الإقرار بالعجز ، والتبرىء من العلم ، فكان في ذلك أوضحُ الدلالة وأبينُ الحجة ، على كذب من ادعى شيئاً من علوم الغيب كالكهنة والمنجمة ، وذكَّر بها اليهود سوالف نعمه على آبائهم ، وأياديه عند أسلافهم ، وحذرهم حلول العقاب بهم بالإصرار على البغي والضلال ، نظير ما أحل بعدوه إبليس حين تمادى في الغيّ والخسار . الطبري ٤٩٤/١

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

* * *

إني جاعل في الأرض خليفة، فكرَّمت أباكم «آدم» بما آتيتُه من علمي وفضلي وكرامتي. وإذْ أسجدتُ له ملائكتي فسجدوا له. الخ ﴿فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر﴾ أي فسجدوا جميعهم إلا إبليس امتنع من السجود لآدم، وتكبر عن طاعة الله، و«إبليس» من الإبلاس وهو الإياسُ من الخير، واختلف فيه هل هو من الملائكة أم من الجن؟ فقال ابن عباس: كان من الملائكة وكان اسمه «عَزَازيل».وقال الحسن: لم يكن إبليس من الملائكة طرفةعين[1]﴿وكانمن الكافريـنَ﴾ أي وكان من الجاحدين لنعم الله، الكافرين بالله حين أبى السجود، وكان سجود الملائكة لآدمَ تكرمةً له وطاعةً لله، لا سجود عبادة لآدم ﴿وقلنا يا آدمُ اسكنْ أنتَ وزوجُـك الجنـةَ﴾ أي اسكن مع زوجتك جنة الخلد ﴿وكُلَا منها رَغَداً﴾ أي كلا من الجنة أكلاً واسعاً هنيئاً، لا عناء فيه ولا تعب ﴿حيث شـئتما﴾ أي من أي مكانٍ شئتما من الجنة ﴿ولا تَقْربَا هَذِهِ الشَّـجَرَةَ﴾ أي ولا تقربا شجرة معينةً من أشجار الجنة ﴿فتكونَا مِنَ الظالمينَ﴾ أي المتعدين حدود الله، وأصلُ الظلم: وضعُ الشيء في غير موضعه. قال الطبري: وليس في القرآن ما يدل على شجرة على وجه التعيين، فقال بعضهم: إنها السنبلة، وقال قوم: إنها الزيتونة، وقال آخرون: إنها العنب، ولو كان في تعيينها ضرورة لذكرها الله تعالى[2] لنا ﴿فَأَزَلَّهُمَاالشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي استزلهما وأوقعهما في الخطيئة والزلل عن طاعة الله، يقال: زلَّ إذا هفا وأخطأ، وأزلَّه إذا سبَّب له الوقوع في المخالفة، وقال ابن عباس: أغواهما ﴿فأخرجَهُما ممَّا كَانَا فيهِ﴾ أي فأخرج آدم وزوجته مما كانا فيه من رغد العيش، وسعة نعيم الجنة ﴿وقلنا اهْبِطُوا بعضُكم لبعضٍ عَدُوٌّ﴾ أي اهبطوا إلى الأرض، بعضكم أعداءُ بعـض، والمخاطبُ «آدمُ وحواءُ وإبليس» والعداوةُ بين ذرية آدم وإبليس هي عداوة الإيمان والكفر ﴿ولكمْ في الأرض مسـتقرٌّ﴾ أي ولكم في الأرض منازل ومساكن تستقرون عليها ﴿ومَتَاعُ

(١) رجح ابن جرير أن إبليس كان من الملائكة بدليل استثنائه منهم أخذاً بظاهر الآية، وأورد آثاراً كثيرة في ذلك، والذي تطمئن إليه النفس وترتاح، ويؤيده البحث العلمي الدقيق، الذي توصلنا إليه بعد التحقيق: أن إبليس لم يكن من الملائكة وإنما هو من الجن للأسباب الآتية التي نوجزها فيما يلي: أولاً: أنه لو كان من الملائكة لما عصى أمر الله، لأن الله تعالى أخبر عنهم بقوله﴿لا يعصون الله ما أمرهم﴾ثانياً: الملائكة لا تتناسل ولا تتوالد، ولإبليس نسلٌ وذرية وقد قال تعالى﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾؟ ثالثاً: الاختلاف في طبيعة الخلق، فالملائكة كما ثبت في الحديث الصحيح «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجانُّ من مارج من نار» وإبليس يقول عن نفسه بصريح عبارة القرآن﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾وهو أعرف بطبيعته منا، والقرآن كذلك يصرح﴿والجانَّ خلقناه من قبل من نار السموم﴾. رابعاً: تصريح القرآن في سورة الكهف بأن إبليس من الجن ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه. ﴾وكفى بالقرآن حجة وبرهانا!! خامساً: ما روي عن الحسن البصري أنه قال: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس» وأما الاستثناء فهو منقطع، وهذا ما ذهب إليه العلامة ابن كثير والله أعلم

(٢) الطبري ١ / ٥٠٦

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

* * *

﴿إلى حينٍ﴾ أي استمتاعٌ بما فيها من المعاش والرياش، والزينة واللَّذة إلى حين انقطاع الدنيا ﴿فتلقَّى آدمُ منْ ربهِ كلماتٍ﴾ أي أوحى إليه بكلمات يقولهنَّ ليتوب عليه فقبلهنَّ وعمل بهن. والكلماتُ هي «قالا ربَّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» ﴿فتـاب عليهِ﴾ أي فتاب ربه عليه، حين تنصَّل من خطيئته، نادماً على ما سلف منه من الذنب ﴿إنه هو التـوابُ الرحيمُ﴾ أي التواب على من تاب من ذنبه، المتفضل بالرحمة والصفح عن الجرم ﴿قلنا اهبطوا منهـا جميعاً﴾ الخطاب كما مرَّ لآدم وحواء وإبليس، أي اهبطوا جميعاً من السماء إلى الأرض ﴿فإمَّا يأْتينَّكُـمْ مني هُـدىً﴾ أي فإن يأتكم- يا بني آدم- مني بيانٌ ورشاد، و«ما» توكيدٌ للكلام ﴿فمنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ أي فمن اتبع بياني الذي بعثته على لسان رسلي ﴿فلا خوفٌ عليهـمْ﴾ من أهوال القيامة ﴿ولا هُمْ يَحْزنون ﴾ على ما فاتهم في الدنيا ﴿والَّذيـنَ كَفرُوا وكَذَّبُوا بآياتِنَا﴾ أي جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿أولئك أصحاب النار هم فيهـا خالـدونَ﴾ أي أهل النار مخلدون فيها أبداً إلى غير نهاية، لا يخرجون منها أبداً

﴿يا بني إسـرائيل﴾ أي يا أولاد يعقوب بن إبراهيم خليل الرحمن، و«يعقوب» هو إسرائيل ومعناه عبدُ الله. خاطب أحبار اليهود من بني إسرائيل لأنهم كذبوا رسول الله، تذكيراً لهم بنعَمِه تعالى عليهم على لسان رسول الله محمد ﷺ، نظير تذكير موسى أسلافهم على عهده ﴿اذكُروا نِعْمتيَ التي أَنْعَمتُ عليكُمْ﴾ أي نعمي عليكم بإنقاذكم من البلاء والضرَّاء من فرعون، واصطفاء الرسل منكم، وإنزال الكتب عليكم ﴿وأَوْفُوا بِعَهْدي أوفِ بِعَهْدكُـمْ﴾ أي أوفوا بوصيتي إليكم بالإيمان بمحمد وتبيين أمره للناس، أُوف بعهدكم بإدخالكم الجنة ﴿وإيَّايَ فَارْهَبُـونِ﴾ اخشوني ولا تخشوا غيري ﴿وآمِنُوا بما أنزلـتُ﴾ أي صدقوا بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ ﴿مصدِّقاً لما معكـم﴾ أي مصدقاً لما في التوراة ﴿ولا تكونوا أول كافرٍ بـه﴾ أي أول مكذب بالقرآن ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليـلاً﴾ أي ولا تبيعوا آيات الله بعرَض قليل، وثمنٍ بخيس من حطام الدنيا ﴿وإيَّايَ فاتقـونِ﴾ أي احذروا عقابي أن أُحلَّ بكم ما أحللتُ بأسلافكم من العقوبات

وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ *أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

* * *

والنقم ﴿ولا تَلبِسُوا الحَقَّ بالباطـلِ﴾ أي لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب، بزعمكم أن محمداً مبعوث إلى غيركم ﴿وَتَكْتُموا الحَقَّ﴾ أي وتخفوا ما تجدونه في كتابكم من نَعْتِه ﷺ وصفته ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلمـونَ﴾ أنه رسولي، وأن القرآن كلامي ﴿وأقيموا الصـلاة﴾ أدُّوا الصلاة مع المسلمين ﴿ وآتوا الزكـاة﴾ ادفعوا زكاة أموالكم للمستحقين ﴿واركعوا مع الراكعيـن﴾ واخضعوا لله مع الخاضعين. **قال ابن جرير**: وهذا أمرٌ من الله- لمن ذُكر من أحبار بني إسرائيل- بالتوبة والإنابة، والدخولِ مع المسلمين في الإسلام والخضوع للّهِ بالطاعة، ونهيٌ عن كتمان ما علموه من نبوة محمد ﷺ بعد تظاهر الحجج عليهم، وبعد الإعذار إليهم والإنذار، وتذكيرهم بنعمه عليهم وعلى أسلافهم، تعطفاً منه بذلك عليهم وإبلاغاً في المعذرة[1] ﴿أتأمرون النَّـاسَ بالبرِّ﴾؟ أتأمرون الناس بطاعة الله وتعصونه أنتم[2]؟ ﴿وتَنْسَون أنفسـكُمْ﴾ أي وتتركون أنفسكم من طاعته، فهلَّا تأمرونها بما تأمرون به الناس!؟ ﴿وأنتم تتلـون الكتابَ﴾ أي وأنتم تقرأون التوراة ﴿أفـلا تعقلـونَ﴾؟ أي أفلا تفهمون قبح ذلك الصَّنيع؟ والخطابُ لأحبار اليهود تقريعاً لهم وتقبيحاً ﴿واسْتَعِينُوا بالصَّبْرِ والصَّلاَةِ﴾ أي واستعينوا- أيها الأحبارُ- على الوفاء بعهدي وطاعتي، بالصبر والصلاة، بحبس أنفسكم على طاعة الله، وكفِّها عن معاصي الله، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مراضي الله. خُصَّت الصلاة بالذكر لأن فيها تلاوة كتاب الله، الداعي إلى رفض الدنيا وهجر نعيمها، المذكّر بالآخرة وما أعد الله لأهلها، ولهذا كان ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة ﴿وَإنَّها لكبيرَةٌ إلا عَلى الخَاشِعِينَ﴾ أي وإن الصلاة لعظيمة وثقيلة إلا على الخاضعين الخائفين من سطوة الله، المصدقين بوعده ووعيده ﴿ الَّذِيـنَ يَظُنُّونَ أنَّهم مُلاَقُوا رَبِّهم ﴾ أي يوقنون بلقاء الله ﴿وأنَّهُمْ إليهِ راجِعُـونَ﴾ أي رجوعهم إلى الله بعد مماتهم. . . وإنما أخبر أن الصلاة كبيرةٌ إلا على الموقنين بلقاء الله، لأن من كان غير موقنٍ بمعاد، ولا مصدِّق بثوابٍ ولا عقاب، فالصلاة عنده عَناءٌ وضلال، لأنه لا يرجو بإقامتها إدراكَ نفع ولا دفعَ ضُر، وحُقَّ لمن كانت هذه صفته أن تكون الصلاة عليه ثقيلة وله فادحة، وإنما خفَّت على المؤمنين، لما يرجون بإقامتها من جزيل الثواب، ويخافون بتضييعها أليم العقاب

---

(١) الطبري ١ / ٥٧٥

(٢) هذا الاستفهام الغرضُ منه التقريعُ والتوبيخ.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾

* * *

﴿يا بَني إِسْـرائيلَ اذكُرُوا نِعْمتِيَ الَّتي أَنْعمتُ عليكُـمْ﴾ أي يا معشر اليهود- يا أولادَ يعقوب- اذكروا آلائي ونِعَمي عليكم، التي أنعمتُ بها على آبائكم وأسلافكم ﴿وأَنِّي فضلتكم على العالمـين﴾ عامٌ يراد به الخصوص أي وأني فضلتكم على عالَمي زمانكم بدليل الحديث «ألا إنكم وفَّيتُم سبعين أمة، أنتم خيرُها وأكرمُها على الله» **قال ابن جرير**: فقدْ أنبأ هذا الخبر أن بني إسرائيل لم يكونوا مفضلين على أمة محمد عليه السلام، وأن المعنى على ما بيَّنا من تأويلها[1] ﴿واتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئـاً﴾ أي لا تُغني فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا تَقْضي عنها شيئاً لزمها لغيرها، لأن القضاء هناك من الحسنات والسيئات لما ورد في الحديث «رحم الله عبداً كانت عنده لأخيه مَظْلَمة في عِرْضٍ أو مالٍ أو جاهٍ، فاستحلَّه قبل أن يُؤخذ منه وليس ثَمَّ دينارٌ ولا درهم، فإن كانت له حسنات أخذوا من حسناته، وإن لم تكن له حسنات حملوا عليه من سيئاتهم»[2] ﴿ولا يُقْبَلُ منها شَـفَاعَةٌ﴾ أي لا يقبل الله منها شفاعة شافع، وهذه لمن مات على كفره غير تائب إلى الله لحديث «إني خَبَأْتُ دعوتي شفاعةً لأمتي، وهي نائلةٌ إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً»[3] ﴿ولا يُؤْخَذُ منها عَـدْلٌ﴾ أي لا يُقبل منها فدية، لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدي به ما تُقبِّل منها ﴿ولا هُمْ يُنْصَـرُونَ﴾ أي لا ينصرهم يومئذٍ ناصرٌ، بطلت هناك المحاباة، واضمحلت الشفاعات، وارتفع التناصر، وصار الحُكم إلى العَدل الجبار، الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء، فلا شفاعة للمجرم يوم القيامة ولا ناصر ﴿وإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَـونَ﴾ أي اذكروا يا بني إسرائيل حين أنجيتكم من طغيان أهل فرعون وأشياعه ﴿يَسُومونَكُمْ سُـوءَ العَذَابِ﴾ أي يذيقونكم أشد وأسوأ أنواع العذاب. ثم وصفه بقوله ﴿يُذَبِّحونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُـونَ نسـاءَكُمْ﴾ أي يَذْبحون عند الولادة أبناءكم الذكور[4]، ويستبقون الإناث فلا يقتلونهن ﴿وفي ذلكُمْ بَلاَءٌ من ربكُمْ عَظيـمٌ﴾ أي وفي إنجائنا إياكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون نعمةٌ

---

(١) **الطبري ٢/٢٥** والحديث الذي ذكره الطبري رواه الترمذي عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بلفظ «أنتم تُتِمّونَ سبعين أمة أنتم خيرُها وأكرمُها على الله» وقال: حديث حسن.

(٢) الحديث صحيح الاسناد رواه الترمذي **٣/٢٩٢** وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) الحديث أورده الطبري بدون إسناد، وهو في الصحيحين من حديث أنس بن مالك بلفظ «لكل نبي دعوة مستجابة، وقد تعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي..» الخ، وانظر الترغيب والترهيب ٤/٢١٣

(٤) **قال الطبري**: وكان سبب ذبح أبناء بني إسرائيل ما رُوي أن فرعون رأى في منامه أن ناراً أقبلت من بيت المقدس إلى مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فدعا السحرة والكهنة فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يولد في بني إسرائيل مولود يكون هلاكك وذهاب ملكك على يديه، فأمر بذبح كل غلامٍ يُولد لهم. الطبري ٢/٤٤.

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ

* * *

عظيمة، وأصلُ البلاء: الاختبارُ وقد يكون بالخير وقد يكون بالشر كقوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي واذكروا نعمتي حين فصلتُ بكم البحر، اثني عشر طريقاً لكل سِبطٍ طريقٌ ليسلكوه ﴿فأنجيناكُمْ وأغْرَقنا آل فِرْعونَ﴾ أي فأنجيناكم من الهلاك وأغرقنا فرعون وقومه ﴿وأَنتُمْ تنظرون﴾ وأنتم تنظرون إلى غرق فرعون، والتطام أمواج البحر بآل فرعون. يذكّرهم آلاءه، ويحذّرهم أن يحلَّ بهم ما حلَّ بفرعون وآله، في تكذيبهم موسى ﷺ ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا موسَى أَرْبَعينَ لَيْلَةً﴾ أي وعدناه أربعين ليلةً بتمامها لإنزال التوراة عليه ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِه﴾ أي ثم عبدتم العجل واتخذتموه إلهاً بعد أن فارقكم موسى إلى الموعد ﴿وأَنْتُمْ ظالمونَ﴾ أي وأنتم ظالمون ـ بهذا الصنيع ـ لأنكم وضعتم العبادة في غير موضعها ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عنكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي تركنا عقوبتكم من بعد اتخاذكم العجل إلهاً ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ لتشكروني على عفوي ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسى الْكِتَابَ﴾ أي واذكروا أيضاً حين أعطينا موسى التوراة ﴿والفرقانَ﴾ أي الكتاب الفارق بين الحق والباطل، وهو عطف بيان لأنه صفةٌ للتوراة ﴿لعلكُمْ تهتدونَ﴾ لتهتدوا وتتبعوا ما فيها من الحق المبين ﴿وَإِذْ قَالَ موسى لقومِه يا قوم إنكم ظَلَمتُمْ أَنْفسَكُمْ باتخاذكم العجلَ﴾ أي واذكروا أيضاً حين قال موسى لبني إسرائيل يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل رباً ﴿فَتُوبُوا إلى بَارِئِكُمْ﴾ فتوبوا إلى خالقكم من هذا الذنب ﴿فاقْتُلوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي ليقتلْ بعضكم بعضاً. أمر موسى من لم يكن عَبَد العجل أن يقتل من عَبَده، فجعلوا يقتلونهم حتى بلغ قتلاهم سبعين ألفاً، وبكى موسى حتى تاب الله عليهم[1] ﴿ذلكم خيرٌ لكم عند بارئكُمْ﴾ أي قتلكم أنفسكم امتثالاً لأمر الله، خيرٌ لكم عند خالقكم، لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله في الآخرة ﴿فتاب عليكم﴾ رجع عليكم بالعفو والصفح عن جرمكم ﴿إنهُ هوَ التَّوابُ الرحيمُ﴾ التائب على من أناب، الرحيم بالعباد.

﴿وإِذْ قُلتُمْ يا موسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى الله جَهْرَةً﴾ أي واذكروا أيضاً حين قلتم: يا موسى لن نصدِّقك ولن نقر بما جئتنا به، حتى نرى الله عِياناً، ننظر إليه بأبصارنا[2] ﴿فأَخَذتكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي

(١) الطبري ٢ / ٧٧ والمراد بقوله تعالى ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ أي ليقتُلْ البريءُ منكم المجرمَ الذي عَبَد العجل

(٢) القائلون هم السبعون الذين اختارهم موسى ليعتذروا من عبادة العجل، كذا في رواية السدي التي رواها الطبري ٨٧/٢.

تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ * وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

* * *

فأهلكناكم بالصاعقة وهي نارٌ محرقة **﴿وأنتُمْ تَنْظُرونَ﴾** أي وأنتم ترونها وتنظرون إليها **﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرونَ﴾** أي ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة، لتشكروني على نعمتي عليكم بإحيائكم. ثم عدَّد نعمه على بني إسرائيل تذكيراً لهم بواجب الشكر فقال **﴿وَظَلَّلْنَا عَليكُمُ الْغَمَامَ﴾** أي ظلَّلنا عليكم السحاب حين كنتم في التِّيه **﴿وأنزلنا عليكم المَنَّ والسَّلْوى﴾** أي أنزلنا عليكم يا بني إسرائيل وأنتم في التيه المَنَّ الذي منَّ الله به عليكم يسقط على الشجر وهو أطيب من العسل، والسَّلْوى وهو طائر يسمى «السُّماني» يشبه الحمام **﴿كُلُوا من طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾** أي وقلنالكم: كلوا من لذائذ وشهيات ما رزقناكم **﴿وما ظلمونَا ولكنْ كَانُوا أنفسهم يَظْلمونَ﴾** أي وما ظلمونا بعصيانهم أمرنا، ولكنْ ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب **﴿وإذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هـذِهِ القريةَ﴾** بيت المقدس **﴿فَكلُوا منها حيثُ شئْتُمْ رغـداً﴾** أي كلوا منها أكلاً هنيئاً واسعاً بغير حساب **﴿وادخُلُوا الباب سُجَّداً﴾** أي ادخلوا باب «بيت المقدس» ساجدين شكراً لله **﴿وقُولُوا حِطَّةٌ﴾** أي قولوا: حُطَّ عنا يا ربنا ذنوبنا ـ وهي كلمة استغفار عندهم ككلمة أستغفرُ الله عندنا[1] ـ **﴿نَغْفِرْ لكمْ خَطَاياكُمْ﴾** أي نستر لكم ذنوبكم، ونحطُّ عنكم أوزاركم **﴿وسنزيد المحسـنينَ﴾** أي سنزيد المحسن منكم إحساناً **﴿فَبدَّلَ الَّذينَ ظَلَمُوا منهمْ قوْلاً غيرَ الَّذي قيلَ لَهُمْ﴾** أي فغيَّروا وبدَّلوا كلاماً آخر غير ما أُمروا أن يقولوه، قال ابن عباس: «دخلوا الباب الذي أُمروا أن يدخلوا منه سُجَّداً يزحفون على أستاههم ـ يعني مقاعدهم ـ يقولون: حنطةٌ في شعيرة»[2] **﴿فأنزلْنَا على الَّذينَ ظَلَمُوا رجزاً مِنَ السَّماءِ﴾** أي فأنزلنا على الذين خالفوا أمرنا عذاباً من السماء، طاعوناً أو غيره **﴿بما كانوا يَفْسُقونَ﴾** أي بمعصيتهم وخروجهم عن طاعة الله **﴿وإذِ استَسْقَى موسى لقومِهِ فقُلْنَا اضْرِبْ بَعَصَاكَ الحَجَرَ﴾** أي سأل موسى ربه ـ حين كان في أرض التيه ـ أن يُسقيَ قومه بني إسرائيل ماءً، فقلنا له: اضرب بعصاك الحجر فضربه **﴿فانفجرَتْ منه اثنتا عَشْرةَ عيناً﴾** أي فتفجرت من الحجر عيونُ الماء بقدر عدد الأسباط، وجعل الله لكل سبطٍ من الأسباط

(١) هذه الجملة التوضيحية من كلامنا.

(٢) رواه ابن عباس مرفوعاًوهو صحيح إسناده،فقد ذكره البخاري ومسلم والترمذي،وأكثر رواة البخاري على لفظ «شعرة» بدل «شعيرة».

مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ

* * *

«الإثني عشر» عيناً من الحجر، يشرب منها دون سائر الأسباط، وكان هذا النابع من الحجر، مخالفاً معاني سائر الخلق فيما أخرج الله لهم من المياه من الجبال والأرضين، ولكل سبطٍ منبعٌ من منابع الحجر خاصٌ، ولهذا قال تعالى بعده **﴿قَدْ علِمَ كلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾** أي قد علم كل جماعةٍ منهم مشربهم **﴿كُلُوا واشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ الله﴾** أي وقلنا لهم: كلوا من المنِّ والسلوى، واشربوا من الماء العذب الفرات، الذي فجَّره الله لكم من الحجر، بقدرة ذي الجلال والإكرام **﴿ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدينَ﴾** أي ولا تسعوا في الأرض بالفساد، وأصلُ العثُوِّ شدةُ الفساد **﴿وإذْ قُلْتُمْ يا موسى لَنْ نَصْبر على طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾** أي واذكروا يا معشربني إسرائيل حين قلتم لنبيكم موسى: لن نطيق حبس أنفسنا على طعامٍ واحد، وهو المنُّ والسلوى في قول بعضهم، والخبزُ النقيُّ مع اللحم في قول وهب[1] **﴿فادعُ لنا ربكَ يُخرجْ لنا ممَّا تُنْبِتُ الأرضُ من بَقْلِهَا وقِثَّائِها وفُومِهَا وَعَدَسِها وبَصَلها﴾** أي فاسأل لَنا ربك يخرج لنا بعض ما تنبت الأرض من البقل والقثاء. الخ.قال الطبري: والبقلُ، والقِثَّاءُ، والعدسُ،والبصلُ، هو مما عرفه الناس من نبات الأرض وحبها، وأمَّا الفومُ فهو في قول ابن عباس وعطاء: الحنطةُ، وفي قول مجاهد والربيع: الثومُ[2] **﴿قالَ أتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بالَّذِي هُوَ خيرٌ﴾**؟! أي قال لهم موسى: أتأخذون الذي هو أخسُّ وأردأُ، بدلاً من الذي هو خيرٌ فضلاً وقدراً؟ ولا شك أن من استبدل بـ «المنِّ والسلوى» البقلَ والقثاء،والعدس والبصل والثوم، فقد استبدل الوضيع بالرفيع **﴿اهبطُوا مِصْراً فإنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ﴾** في الكلام حذفٌ تقديره: فدعا موسى فاستجبنا له فقلنا لهم: اهبطوا مِصْراً أي انزلوا مِصْراً من الأمصار[3]، لأنكم في البدو، والذي طلبتم لا يكون في البوادي والفيافي، وإنما يكون في القرى والأمصار، فإن لكم ما سألتم من العيش، من العدس والبصل والثوم **﴿وَضُرِبتْ عليهمُ الذِلَّةُ والمَسْكَنَةُ﴾** أُلزمت وفرضت على اليهود «الذِلة» أي الصَّغـار، و«المسْكَنةُ» أي الفاقةُ والحاجة، **﴿وبَاءُوا بِغَضَبٍ من الله﴾** رجعوا وانصرفوامتحمِّلين غضب الله وسخطه **﴿ذَلكَ بأنهمْ كانُوا يكفرونَ بآياتِ الله﴾** ذلك الذل والهوان والسخط، من أجل أنهم كانوا يجحدون حجج

---

(١) الطبري ١٢٥/٢

(٢) وذكر أن ذلك قراءة ابن مسعود «وثومها» بالثاء، وهو من باب الإبدال، ورجحه ابن جرير لأنه الموافق لذكر البصل، الطبري ١٢٧/٢

(٣) مِصْراً بالتنوين بلدةٌ من البلاد لا بلداً معيناً، وبالفتح «مصرَ» البلدة المعروفة باسم مصر.

ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَواْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

* * *

الله، الدالة على توحيده ﴿وَيَقْتلونَ النبيِّينَ بغير الحقِّ﴾ ويقتلون رسل الله الذين ابتعثهم لهداية خلقه بغير إذن الله تعالى ﴿ذلكَ بما عَصَوْا وكانوا يعتدونَ﴾ ذلك العقاب بعصيانهم أمري وتجاوزهم حدي. فأخبرهم تعالى أنه يبدلهم بالعز ذلاً، وبالنعمة بؤساً، وبالرضا عنهم غضباً، جزاءً منه على كفرهم بآياته، وقتلهم أنبياءه ورسله، اعتداءً وظلماً منهم بغير حق ﴿إن الذينَ آمنوا﴾ المؤمنون الذين صدَّقوا رسول الله فيما أتاهم به من عند الله ﴿والَّذينَ هَادُوا﴾ اليهود الذين هادوا أي تابوا ﴿والنَّصَارى﴾ الذين ناصروا عيسى[1] ﴿والصابئين﴾ قومٌ لا دين لهم ولا كتاب يعبدون الملائكة ﴿مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخر﴾ هذا خبر الجملة «إن الذين آمنوا» أي من صدَّق من هؤلاء المذكورين بالله، وأقر بالبعث بعد الممات ﴿وعملَ صالحاً﴾ أطاعَ الله ﴿فَلَهمْ أجرُهُمْ عِنْدَ ربهمْ﴾ لهم ثواب عملهم الصالح عند الله ﴿ولا خَوْفٌ عَليهِمْ﴾ من أهوال القيامة ﴿ولا هُمْ يَحْزنُونُ﴾ على ما خلَّفوا وراءهم من الدنيا وعيشها، عند معاينتهم النعيم المقيم ﴿وَإِذْ أخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ورفَعْنَا فوقكُمُ الطُّور﴾ اذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا ميثاقكم المؤكد بالعهد أو اليمين، ورفعنا فوقكم جبل الطور ﴿خُذُوا ما آتيناكم بقوة﴾ وقلنا لكم: خذوا ما أمرناكم به في التوراة، واعملوا بجدٍ واجتهاد، من غير تقصير ولا تَوَان ﴿واذكروا ما فيهِ لعلكم تتقونَ﴾ اعتبروا بما فيه من وعدٍ ووعيد، وترغيبٍ وترهيب، كي تتقوا وتخافوا عقابي ﴿ثُمَّ تَوَليتُمْ مِنْ بعدِ ذَلِكَ﴾ ثم أعرضتم وتركتم العمل بكل ما أُمرتم به، فنبذتموه وراء ظهوركم، بعد إعطائكم ربكم المواثيق على العمل به بجد واجتهاد ﴿فلولا فَضْلُ الله عليكُمْ ورحمتُهُ لكنتم من الخاسرينَ﴾ فلولا تفضلُ الله عليكم، ورحمته إياكم بإنقاذكم بالتوبة من خطيئتكم وجرمكم، لكنتم من الهالكين ﴿وَلَقَدْ عَلمتُمُ الَّذين اعتَدَوْا منكُمْ في السَّبْتِ﴾ ولقد عرفتم الذين اجترأوا على مخالفة أمري فاصطادوا يوم السبت، عرفتم ماذا فعلتُ بهم ﴿فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين﴾ فقلنا لهم: صيروا قردة، أذلاء صغراء، مبعدين مطرودين ﴿فَجعلنَاهَا نَكَالاً لِمَا بينَ يَدَيْها وما خَلْفَها﴾ فجعلنا تلك المسخة التي مسخناهم بها، عقوبةً لما سبق من ذنوبهم السالفة، ولمن بقي بعدهم أن يعملوا بمثل ما عملوا، فيُمْسخوا مثل ما مُسخوا ﴿وَمَوْعظَةً لِلْمتَّقينَ﴾ وتذكرةً للمتقين، وعبرةً

(١) هذا على القول بأن لفظ «النَّصارى» من النُّصرة، وقيل سُمُّوا «نصارى» نسبة إلى البلدة المسمَّاة بالنَّاصرة والله أعلم

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا

* * *

للمؤمنين، ليتعظوا بها ويعتبروا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسى لقومِهِ إنَّ الله يَأْمركُمْ أَنْ تذبحوا بَقَـرَةً﴾ واذكروا أيضاً يا بني إسرائيل حين قال موسى لأسلافكم الذين نكثوا ميثاقي: إنَّ ربكم يأمركم أن تذبحوا بقرة، وذلك حين تدافعوا في القتيل الذي قُتل فيهم **﴿قالوا أتتَّخِذُنَا هُزواً﴾**؟ قالوا: أتلعب وتهزأ بنا؟ **﴿قَالَ أعوذُ بالله أَنْ أكونَ من الجاهلين﴾** قال لهم موسى: أستجير بالله أن أكون من السفهاء الذين يكذبون على الله. ظنوا بموسى أنههازىءٌلاعب، ولم يكن لهم أن يظنوا بنبيٍّ اللهذلك،وهو يخبرهم أنَّ الله هو الذي أمرهم بذبح البقرة **﴿قالوا ادعُ لنا ربَّك يُبَيِّنْ لنا ما هـي﴾** قالوا لموسى: بجفاء أخلاقهم، وغِلظ طبائعهم، وسوءِ أفهامهم: سلْ لنا ربك يبينّ لنا ما هي؟ ما صفتُها؟ وما حليتُها؟ حتى نعرفها **﴿قالَ إنهُ يقول إنَّها بَقرةٌ لا فَارضٌ ولا بكْـرٌ﴾** أي لا مُسِنَّة هرمة، ولا فتيَّة صغيرة **﴿عَوَانٌ بين ذلكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾** وسطٌ بين البكر والهرمة فافعلوا ما آمركم به تعرفوا القاتل **﴿قالُوا ادْعُ لَنَا ربَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾** قالوا تعنتاً منهم لموسى: سلْ لنا ربك يبينّ لنا أيّ شيءٍ لونُها؟ أسوداءُ هي أم صفراءُ؟ **﴿قَالَ إنهُ يَقُولُ إنها بَقَرةٌ صَفْراءُ فَاقِعٌ لَوْنُها﴾** قال لهم موسى: إن الله يقول إنها بقرةٌ صفراء، شديدة الصفرة - والفقوُع في الصفرة نظيرُ النُّصوع في البياض - **﴿تَسُرُّ النَّاظرينَ﴾**تعجب الناظرين في حسن منظرها وهيئتها **﴿قالوا ادْعُ لنا ربكَ يُبَيِّنْ لنا ما هي إنَّ البقَرَ تَشَابَهَ علينَا وإنَّا إنْ شَاءَ الله لمهْتَدُونَ﴾** أي إن البقر التبس علينا، وإنا بمشيئة الله سنعرف ما التبس علينا من أمرها وتشابه. قال الطبري: لما زادوا نبيَّهم أذى وتعنتاً، زادهم اللهعقوبةً وتشديداً، ولو أن بني إسرائيل- كما يقول ابن عباس- أخذوا أدنى بقرة فذبحوها لأجزأتْ عنهم، ولكنهم شدَّدوا فشدَّد الله عليهم، وقال عطاء: لو لم يقولوا «إن شاءَ الله» لما بُيِّنت لهم آخر الأمر **﴿قالَ إنهُ يقولُ إنَّها بَقرةٌ لا ذَلُولٌ تُثيرُ الأَرْضَ﴾** أي ليست مذلَّلة لإثارة الأرض وقلبها بالحِراثة **﴿ولا تسـقي الحَرْثَ﴾** وليست مسخرة لسقي الزرع **﴿مسلَّمةٌ لاشيةَ فيها﴾** مسلَّمة من العيوب، لا لون فيها يخالف لون جلدها **﴿قالوا الآن جئت بالحقِّ﴾** الآن بيَّنت لنا الحقَّ وعرفناها حق المعرفة، وهذا منهم هُراءٌ وخطأٌ وجهلٌ، كأنه لم

وَمَا كَادُوا۟ يَفۡعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُوا۟ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ

* * *

يكن جاءهم بالحق قبل ذلك ﴿فذبحوها﴾ ذبحوا البقرة المعيَّنة ﴿وما كادوا يفعلون﴾ قاربوا أن يتركوا ذبحها، لغلاء ثمنها وخشية الفضيحة بإظهار الله نبيَّه على القاتل. **قال مجاهد**: كانت البقرة لرجل يَبرُّ أمه، فباعها لهم بملءِ جلدها ذهباً، ولذلك قال تعالى «وما كادوا يفعلون».

﴿وإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فيها﴾ هذا بيانٌ لقصة البقرة[1] أي اذكروا يا بني إسرائيل حين قتلتم نفساً فتدافعتم في شأن قتله، وأصبح كل فريق يدفع أن يكون قاتِلَه، وأصلها «فَتَدارأتم» أي اختلفتم وتنازعتم وتدافعتم ﴿والله مخرجٌ ما كُنتُمْ تَكْتُمونَ﴾ والله مظهرٌ ما تسرونه من أمر القتيل الذي قتلتموه ﴿فقُلْنا اضربُوهُ بِبَعْضِها﴾ فقلنا لقوم موسى: اضربوا القتيل ببعض البقرة ليحيا ويُخبركم عن قاتله، فضربوه فأحياه الله وأنبأهم عن قاتله ﴿كَذَلِكَ يُحْيي الله الموتَى﴾ كما أحيا الله هذا القتيل بعد موته في الدنيا، كذلك يحيي الموتى بعد مماتهم، فاعتبروا يا أولي الألباب ﴿ويُريكُمْ آياتِهِ﴾ ويريكم أيها الكافرون المكذبون بمحمد ﷺ، حجَجَه وأدلتَه الدالةَ على توحيده وصدق رسله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لتعقلوا وتفهموا قدرة الله، وأن محمداً محقٌّ صادق فتؤمنوا به ﴿ثم قَسَتْ قُلوبكُمْ من بعد ذلكَ﴾ ثم غَلُظَتْ وصلُبتْ قلوبكم- يا كفار بني إسرائيل- من بعد رؤية تلك الآية الباهرة ﴿فَهِي كالحِجَارة أو أَشَدُّ قَسْوةً﴾ فهي كالحجارة صلابةً ويُبساً، وبعضُها أشدُّ صلابةً من الحجارة[2] ﴿وَإِنَّ مِنَ الحجارةِ لَمَا يتفجَّرُ منهُ الأَنْهارُ﴾ أي من الحجارة ما يتفجر بالأنهار ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لما يَشَّقَّقُ فَيَخْرجُ منه المَاءُ﴾ أي ومنها ما يتشقق بالماء، فيكون عيناً نابعة وأنهاراً جارية ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبطُ من خَشْيةِ الله﴾ أي ومن الحجارة ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض من خوف الله وخشيته. ضرب تعالى ذلك مثلاً لقلوبهم، فأخبر أن من الحجارة ما هو ألين من قلوب هؤلاء الذين أراهم من الآيات والعِبر، وعاينوا من

---

(١) روي أن رجلاً من بني إسرائيل كان غنياً وكانت له ابنة، وكان له ابن أخٍ محتاج، فخطب إليه ابنته فأبى أن يزوجه إياها، فغضب الفتى وقال: واللهِ لأقتلنَّ عمي، ولآخذنَّ ماله، ولأنكحنَّ ابنته، فجاءه يوماً وقال: يا عم قدم تجار فانطلق معي واشترِ لي من تجارة القوم لعلي أصيب منها ربحاً فإنهم إذا رأوك أعطوني، فخرج العم مع الفتى ليلاً فقتله الفتى ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح جاء كأنه يبحث عن عمه فوجد قوماً مجتمعين عليه فقال: قتلتم عمي فأدوا إليَّ ديته، وجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي واعماه، ثم ذهبوا إلى موسى فأمرهم بذبح البقرة. الطبري ٢/١٨٥

(٢) «أو» هنا ليست للشك، وإنما هي للتنويع والمعنى: بعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشدُّ قسوة من الحجارة، وقيل: إنها بمعنى الواو، أي فهي كالحجارة وأشد قسوة، وقيل: إنها بمعنى بل أي بل أشد قسوة، ورجح الطبري الأول.

حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

* * *

حقوقهم التي فرضها الله في أموالكم ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ وقولوا للناس قولاً حَسَناً[١]، بالأدب الحسن الجميل، والخُلُق الكريم ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ أدوها كاملة، بتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع ﴿وَآتُوا الزَكَاةَ﴾ ادفعوا زكاة أموالكم إلى المستحقين ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَليلاً منكُمْ﴾ ثم أعرضتم يا معشر اليهود عن الوفاء بالعهد، إلاَّ من عصمه الله منكم فوفَّى لله بعهده وميثاقه ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضونَ﴾ وأنتم معرضون عن الحقِّ والهدى ﴿وإذْ أَخَذْنَا ميثاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ واذكروا أيضاً يا معشر اليهود حين أخذنا عهدكم المؤكد ألاَّ يقتل بعضكم بعضاً ﴿ولا تُخْرجونَ أنفسَكُمْ من دِيارِكُمْ﴾ ولا يخرج بعضكم بعضاً ـ من وطنه ـ بطريق العدوان ﴿ثُمَّ أَقْرَرتُمْ وأَنْتُمْ تَشْهَدونَ﴾ ثم أقررتم بالميثاق الذي أخذنا عليكم، وأنتم شهودٌ على ذلك ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ ثم أنتم يا معشر اليهود ـ بعد إقراركم بالميثاق ـ تقتلون إخوانكم في الدين ﴿وتُخْرِجونَ فَرِيقاً منكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظاهَرُونَ عَليهِمْ بالإِثْمِ وَالعُدْوان﴾ وتخرجون فريقاً من أهل دينكم من ديارهم، تعينون عليهم المشركين ظلماً وعدواناً[٢] ﴿وإنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادوهم﴾ إن وجدتم الأسير منكم في أيدي غيركم من أعدائكم تفدونه!؟ يوبخهم ويعرفهم قبيح أفعالهم ﴿وهو مُحَرَّمٌ عليكُمْ إخراجُهُمْ﴾ وإخراجهم من ديارهم حرامٌ عليكم، فكيف تستجيزون قتلهم، ولا تستجيزون ترك فدائهم من عدوهم؟! ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبعضِ الكتابِ وتكفرون ببعضٍ﴾؟ أفتصدِّقون ببعض التوراة وتجحدون بعضها؟ قال مجاهد: إن وجدتَه في يدِ غيركَ فديتَه، وأنتَ تقتُله بيدك؟[٣] ﴿فما جَزَاءُ مَنْ يَفْعلُ ذلكَ منكُم إلا خِزْيٌ في الحياةِ الدُنْيَا﴾ فليس جزاء من نقض عهد الله، إلاّ الذلّ والصَّغار

---

(١) الحُسْن: بالضم اسم عام جامع لجميع معاني الحُسْن ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسْناً﴾ وبالفتح اسم لبعض معاني الحسن. الطبري ٢/٢٩٥

(٢) قال ابن عبَّاس: حرَّم الله تعالى على بني إسرائيل سفك دمائهم، وافترض عليهم في التوراة فداء أسراهم فكانوا فريقين: النضير وقريظة حلفاء الأوس، وبنو قينقاع حلفاء الخزرج، فاذا وقعت حرب بين الأوس والخزرج، ظاهرـ أي أعانـ كلٌ من الفريقين حلفاءه على إخوانه، حتى يسفكوا دماءهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها حكم الله، وكان الأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان، لا يعرفون جنةً ولا ناراً، ولا بعثاً ولا حساباً، ولا حراماً ولا حلالاً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة، فوبخهم تعالى على ذلـك. الطبري ٢/٣٠٥.

(٣) الطبري ٢ / ٣٠٩

وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ

* * *

في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿ويومَ القيامةِ يُرَدُّونَ إلى أشَدِّ العَذَابِ﴾ وفي الآخرة يُردُّ هؤلاء إلى أشدِّ العذاب الذي أعدَّه لأعدائه ﴿وما الله بِغَافِلٍ عما تَعْمَلُونَ﴾ وليس الله بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة، بل هو محصٍ لها، وسيذلهم ويفضحهم في الآخرة ﴿أولئكَ الذينَ اشتَرَوُا الحياة الدنيا بالآخرةِ﴾ باعوا حظوظهم من نعيم الآخرة، بالخسيس التافه من الدنيا ﴿فلا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ﴾ لا يخفُّ عنهم عذاب جهنم ﴿ولاَ هُمْ يُنْصَرونَ﴾ وليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله.

﴿ولقد آتَيْنَا مُوسى الكِتَابَ﴾ أعطيناه التوراةَ ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بالرُسُلِ ﴾ أتبعنا بعضَهم بعضاً، على منهاجٍ واحد وشريعةٍ واحدة ﴿وآتَيْنا عِيسى ٱبنَ مَرْيمَ البَيّناتِ﴾ المعجزات الواضحات الدالة على نبوته، من إحياء الموتى، وإبراء الأعمى والأبرص، ونحو ذلك من الآيات ﴿وأيَّدْنَاهُ برُوحِ القُدُسِ ﴾ وقوّيناه وأعنّاه بالروح المطهَّرة، وهو جبريل عليه السلام ﴿أفكُلَّمَا جاءَكُم رَسُولٌ بما لا تَهْوى أنْفُسُكُمْ استكبرتم﴾ أفكلّما جاءكم يا معشر اليهود رسولٌ من الرسل، بغير الذي تهواه نفوسكم، استكبرتم عليهم بغياً وتجبراً ﴿فَفريقاً كَذَّبتُمْ وفَريقاً تَقْتُلونَ﴾ فكذبتم بعضاً منهم، وقتلتم بعضاً آخر، هكذا فعلكُمْ أبداً برسلي؟ ﴿وقالوا قُلُوبُنا غُلْفٌ﴾ أي قلوبنا في أكنة وأغطية مما تدعونا إليه يا محمد ﴿بلْ لعنهم الله بكفرهم﴾ بل أبعدهم الله وطردهم من رحمته[1] بسبب كفرهم وجحودهم آيات الله وبيناته ﴿فقليلاً ما يؤمنون﴾ لا يؤمن منهم إلا قليل ﴿ولمّا جَاءهُمْ كتابٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ ولما جاء هؤلاء اليهودَ القرآنُ، مصدِّقاً لما معهم من التوراة والإنجيل ﴿وكَانُوا من قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ على الذين كَفَرُوا﴾ وكان هؤلاء اليهود ـ قبل مبعثه ﷺ ـ يستنصرون الله به على مشركي العرب[2] ﴿فلما جاءهم ما عَرَفوا كفروا به﴾ فلما جاءهم محمد ﷺ كفروا به وكذبوه ﴿فَلَعْنَةُ

---

(١) أصل اللعن: الطردُ والإبعاد، والمراد به هنا طردهم من رحمته. الطبري ٣٢٨/٢.

(٢) كان اليهود يستنصرون بمحمد ﷺ يقولون: إذا وقعت حربٌ بينهم وبين المشركين: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان، فلما بُعث ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب.

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ

* * *

الله على ٱلكافِرِينَ﴾ فخزيُ الله وطردُه للجاحدين، المنكرين لنبوته ﴿بِئْسَما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ بئس الشيءُ الذي باع اليهود به أنفسهم ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بما أَنْزَلَ الله بَغْياً﴾ جحودُهم بما أنزل الله بغياً وحسداً ﴿أَنْ يُنَزِّلَ الله من فَضْلِهِ عَلى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من أجل أن ينزِّل الله النبوة على محمد ﷺ، لأنه كان من العرب ولم يكن من بني إسرائيل، وهذه الآية في حسد اليهود لمحمد ﷺ، مع علمهم بصدقه وأنه نبيٌّ مرسل، نظيرةُ قوله تعالى «أم يَحْسُدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله» ﴿فَبَاءُوا بغضَبٍ على غَضَبٍ﴾ فرجع اليهود بسخطٍ عظيم من الله بكفرهم بمحمد ﷺ، على سابق غضبه وسخطه عليهم، بتحريفهم وتبديلهم أحكام التوراة ﴿وَلِلْكافرينَ عَذَابٌ مُهينٌ﴾ وللجاحدين المكذبين نبوة محمد عذاب مُهين مخز، يخلَّد صاحبه في النيران مع الذلة والهَوَان ﴿وإذا قيلَ لهمْ آمنوا بما أنزلَ الله﴾ وإذا قيل لليهود: صَدِّقوا بما أنزل الله من القرآن على محمد ﷺ ﴿قالوا نؤمنُ بما أُنزل عَلَيْنا﴾ قالوا: نصدِّق بالتوراة التي أنزلها الله علينا ﴿ويكفرونَ بما وراءه وهو الحقُّ مصدِّقاً لما معهم﴾ ويجحدون بما وراء التوراة من كتب الله التي أنزلها على رسله كالإنجيل والقرآن، مع أنها موافقة لما في التوراة، لأن كتب الله يُصدِّق بعضُها بعضاً ﴿قُلْ فلمَ تقتلونَ أنبياءَ الله مِنْ قَبْلُ إنْ كُنْتم مُؤْمِنينَ﴾؟ قل لهم يا محمد: إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم، فلم قتلتم رسل الله، وقد حرَّم الله عليكم قتلهم، وأمركم بطاعتهم وتصديقهم؟ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بالبيِّنَاتِ﴾ جاءكم بالبينات الدالة على صدقه وصحة نبوته كالعصا واليد ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُم الْعِجْلَ مِنْ بعدِهِ وأنتم ظَالمون﴾ ثم اتخذتم العجل إلَهاً، من بعد أن فارقكم موسى لميعاد ربه، وأنتم ظالمون لأنفسكم، لأنكم عبدتم ما لا يستحق العبادة. وهذا توبيخٌ لهم في عبادتهم العجل وهو لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، بعد أن علموا أن ربهم الذي يفعل الأعاجيب، والذي أجرى على يدي موسى من الخوارق ما لم يقدر عليه فرعون وجنده، وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حِكَم الله، فكيف يُستبعد منهم أن يكذبوا رسول الله، مع بُعدِ ما بينهم وبين عهد موسى؟! ﴿وإذْ أَخَذْنَا مِيثاقكُمْ ورَفَعنا فَوْقكُمُ الطُّورَ﴾ واذكروا يا معشر بني إسرائيل حين أخذنا عهودكم، ورفعنا فوقكم جبل الطور ﴿خذوا ما آتيناكم بقوةٍ﴾ وقلنا لكم: خذوا ما آتيناكم في التوراة بجدٍ منكم في

بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا

* * *

ذلك ونشاط ﴿واسمعوا﴾ واسمعوا ما أمرتكم به وتقبَّلوه بالطاعة، فكان جوابكم ﴿قَالُوا سمِعْنَا وعَصَيْنَا﴾ أي سمعنا قولك، وعصينا أمرك ﴿وأُشْرِبُوا في قُلوبِهِمُ العِجْلَ بكفرهِمْ﴾ وأشربوا في قلوبهم حبَّ العجل بكفرهم وضلالهم ﴿قُلْ بئسَما يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إنْ كُنْتُمْ مؤمنينَ﴾ قل لهم يا محمد: بئس الشيء الذي يأمركم به إيمانكم، إن كان يأمركم بقتل أنبياء الله ورسله، والتكذيب بكتبه وبما جاء من عنده، إن كنتم مصدقين- كما زعمتم- بما أنزل الله عليكم!! والآية تكذيبٌ لهم في دعواهم الإيمان، ونفيٌ من الله عن التوراة أن تكون تأمربشيءٍمن قبيح أفعالهم، وإنما تأمرهم بذلك أهواؤهم وما هم عليه من البغي والعدوان ﴿قلْ إنْ كانتْ لكُمُ الدارُ الآخرةُ عندَ الله خالصةً من دونِ النَّاسِ فتمنوا الموت إنْ كنتُمْ صادقينَ﴾ قل يا محمد: إن كان نعيمُ الدار الآخرة ولذاتُها، لكم يا معشر اليهود صافية وخاصة من دون جميع الناس، فاشتهوا الموت وتمنَّوه، إن كنتم صادقين فيما تزعمون، وإنما أمر رسولَ الله ﷺ أن يقول لهم: تمنَّوا الموت، لأنهم قالوا «نحنُ أبناءُ الله وأحباؤُه» وقالوا «لَنْ يَدْخلَ الجنةَ إلاَّ مَنْ كانَ هُوداً أو نَصارى» فامتنعت اليهود من إجابة النبي ﷺ إلى ذلك، لعلمها أنها إن تمنت الموت هلكتْ، وظهرت حجةُ رسول الله وحجةُ أصحابه عليهم، ولم تزل والحمدُ لله ظاهرةً عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل ﴿ولَن يَتمنَّوْهُ أَبداً بما قَدَّمَتْ أيديهِمْ﴾ ولن يتمنوا الموتَ أبداً بما أسلفته أيديهم من الجرائم ﴿والله عليمٌ بالظالمينَ﴾ والله عالم بكل ظالم، من اليهود والنصارى وسائر أهل الملل والأديان ﴿ولَتَجدنَّهمْ أَحْرص النَّاسِ عَلى حَياةٍ﴾ ولتجدنَّ يا محمد أشدَّ الناس حرصاً على الحياة في الدنيا، وأشدهم كراهةً للموت اليهود ﴿وَمِنَ الَّذينَ أَشْرَكُوا﴾ أي وأحرص من الذين أشركوا على الحياة، لعلمهم بما قد أعدَّ الله لهم في الآخرة على كفرهم، فهم للموت أكره من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ﴿يودُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ يتمنى الواحد منهم لو يعمَّر في الدنيا ألف سنة ﴿وَمَاهُوَبِمزَحْزِحِهِ مِنَ العَذابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ وما طولُ العمر بمبعده من عذاب الله، ولا منحِّيه منه، لأنه لا بدَّ للعمر من الفَناء ﴿والله بَصِيرٌ بما يعملونَ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم، بل هو بجميعها محيطٌ ولها حافظ ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُواً لجبريلَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء اليهود، الذين زعموا أن جبريل لهم عدوٌ[1]، لأنه ينزل بالعذاب والشدة، مَنْ كان من الناس

(١) رُوي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن أشياء أربعة لا يعلمهن إلا نبيٌ: سألوه عن الطعام الذي حرمه إسرائيل عن نفسه. ٢- وعن الولد يشبه =

لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ

* * *

عدواً لجبريل **﴿فإنَّهُ نزَّله على قَلْبكَ بإذنِ الله﴾** فإن جبريل نزَّل القرآن على قلبك يا محمد، بأمر الله وحكمه **﴿مُصَدِّقاً لما بينَ يديـه﴾** مصدِّقاً لما قبله من الكتب التي أنزلها الله كالتوراة والإنجيل **﴿وَهُدىً وبُشْرى للمُؤْمنينَ﴾** وهداية وبشارة للمؤمنين، لأنهم جعلوا القرآن إمامهم وقائدهم، ينقادون لأمرِهِ ونهيه، وحلاله وحرامه **﴿مَنْ كانَ عدواً لله وملائكته ورسله وجبريلَ وميكال فَإنَّ الله عدوٌ للكافرين﴾** من كان عدواً لله والملائكة والرسل ـ وخصَّ جبريلَ وميكائيل بالذكر، للردِّ على اليهود حين قالوا: جبريلُ عدوُّنا، وميكائيل وليُّنا ـ فإنه كافر، والله عدوٌّ للكافرين. والآية توبيخٌ لليهود في كفرهم بمحمد ﷺ وعدائهم لجبريل الذي يتنزَّل بالوحي على الرسل **﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ﴾** أنزلنا إليك يا محمد آيات واضحات، دالاتٍ على نبوتك[1] **﴿وما يَكْفُرُ بها إلاَّ الفَاسِقونَ﴾** وما يجحد بتلك الآيات الدالة على صدقك ونبوتك، إلا الخارجون من دينهم العاصون لربهم **﴿أَوَكُلَّما عَاهَدوا عَهْداً نَبَذَه فريقٌ منهمْ﴾**؟ أو كلما أعطى اليهود ربهم عهداً مؤكداً على العمل بالتوراة، و الإيمان بمحمد رسول الله، طرح هذا العهدَ فريقٌ منهم فرفضه ونقضه؟ **﴿بلْ أكْثَرُهُمْ لا يُؤْمنونَ﴾** بل أكثر هؤلاء اليهود لا يصدقون بالله ورسله، ولا وعده ووعيده، فكيف يفون بالعهد؟ **﴿ولَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عندِ الله مُصَدِّقٌ لما مَعَهُمْ﴾** ولما جاء علماءَ اليهود ـ الذينَ أعطاهم الله العلم بالتوراة ـ محمدٌ ﷺ يصدِّق التوراة، والتوراةُ تصدِّقه في أنه نبيٌ مبعوث إلى الخلق **﴿نَبَذَ فريقٌ منَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ كتابَ الله وراء ظهورهم﴾** طرح هؤلاء اليهود كتابَ الله وراء ظهورهم وأعرضوا عنه **﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾** كأن هؤلاء لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه. وهذا مثل ضربه الله لليهود، يقال لكل رافضٍ أمراً قد جعله وراء ظهره، يعني به أعرض وصدَّ وانصرف عنه، وفي التعبير بقوله «كأنهم لا يعلمون» تنبيه على أنهم جحدوا الحق على علمٍ منهم ومعرفة **﴿واتَّبَعوا ما تَتْلُوا الشَّياطينُ على مُلْكِ سليمـانَ﴾** اتبع

= أمه، والنطفة للرجل ٣ـ وعن النبي الأمي الذي تنام عيناه ولا ينام قلبه ٤ـ وعن وليّ الرسولِ من الملائكة!! وأعطوه العهود على أن يؤمنوا به إن أجابهم عنها، فلما أخبرهم ﷺ بها قالوا: أخبرنا من الذي ينزل بالوحي عليك! فقال: جبريل، فقالوا له: ذاك عدونا يأتي بالشدة والغلظة والعذاب، ولو قلت: ميكائيل لآمنا بك، فإنه يأتي بالخصب والسلم والرأفة والرحمة، فأنزل الله ﴿قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك..﴾ الآية

(١) قال ابن جرير: «وتلك الآيات ما حواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكنون سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرَّفه أوائلهم وأواخرهم وما بدّلوه من الأحكام في التوراة فأظهر الله هذه الخفايا وتلك الأسرار؛ وأطلع عليها نبيه محمداً ﷺ من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي». الطبري ٣٩٧/٢.

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

* * *

أحبار اليهود ما تُحَدِّث وتروي الشياطين من السحر في عهد مُلك سليمان ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمانُ﴾ ما سحر سليمان، ولا تعلَّم السحر، ولا كان ساحراً لأن السحر كفرٌ ﴿ولكنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعلِّمون الناس السحرَ﴾ أي كفروا بتعليمهم السحر للناس، فالشياطين هي التي علَّمت الناس السحر، وروته لهم، لا سليمان عليه السلام، روي أن رسول الله ﷺ لما ذكر «سليمان بن داود» وعدَّه في المرسلين، قال من كان بالمدينة من اليهود: ألا تعجبون من محمد! يزعم أن «سليمان بن داود» كان نبياً! والله ما كان إلا ساحراً فنزلت الآية. **والغرض** أن أحبار اليهود نبذوا كتاب الله المنزَّل على رسوله، ونقضوا العهد، وآثروا السحر الذي روته الشياطين وحدثت به في عهد ملك سليمان، وزعموا أن ذلك كان من علمه وروايته، وأنه إنما كان يستعبد الإنس والجن والشياطين بالسحر، فبرَّأ الله سليمان من السحر والكفر، وأخبرهم بأنهم إنما اتَّبعوا في عملهم بالسحر، ما تلته الشياطين في عهد سليمان ﴿وَمَا أُنْزلَ على المَلَكَيْن ببابلَ هَارُوت وَمَارُوتَ﴾ واتبعوا أيضاً السحر الذي أُنزل على الملكَين «هاروت» و«ماروت» ببلدة بابل ﴿وما يُعلِّمانِ من أحدٍ حتىٰ يَقُولا إنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فلا تكفُرْ﴾ وما يعلِّم المَلَكان السحر أحداً من الناس حتى يخبراه بأنهما فتنةٌ وابتلاء، وينهيانه عن السحر والعمل به ﴿فيتعلَّمونَ منهما ما يُفرِّقونَ بِهِ بينَ المرءِ وزَوْجِهِ﴾ فيتعلم الناس منهما السحر، الذي يفرِّقون به بين الرجل وزوجته[1]، وذلك بتخييل الساحر إلى كل واحد منهما شخص الآخر على خلاف حقيقته، من حسن وجمال حتى يقبِّحه عنده فيحدث الفراق ﴿وما هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلَّا بإذنِ اللهِ﴾ ولا يضرُّون بالذي تعلموه أحداً من الناس، إلا من قد قضى الله عليه أن ذلك يضرُّه ﴿ويَتَعَلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ﴾ويتعلم الناس السحر الذي يضرُّهم في دينهم، ولا ينفعهم في معادهم ﴿ولقد عَلِموا لَمِنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ووالله لقد علم اليهود لمن اشترى السحر، ما له في الآخرة حظٌ ولا نصيبٌ من الجنة ﴿ولَبِئْسَ ما شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لو كَانُوا يَعْلمونَ﴾ ولبئسما باعَ به نفسَه من تعلَّم السحر، لو كان يعلم سوء عاقبته. . وهذا ذمٌ من الله تعالى لمن تعلَّم السحر، وخبر منه جلَّ ثناؤه أنهم بئسما باعوا به

---

(١) قال الطبري: فإن قيل: هل يجوز أن ينزِّل الله السحر؟ وهل يجوز لملائكته أن تعلمه الناس؟ قلنا: إنَّ الله قد أنزل الخير والشر كله ابتلاءً، فليس في إنزال الله إياه على الملكَيْن، ولا في تعليم الملكَيْن من علَّماه من الناس إثْمٌ، إذْ كان تعليمهما بإذن الله لهما، بعد إخباره بأنهما فتنةٌ، ونهيه عن السحر والعمل به، وإنما الإثم على من يتعلمه منهما ويعمل به، كما لا إثم في العلم بصنعة الخمر ونحت الأصنام، وإنما الإثم في عمله وتسويته. اهـ. الطبري ٢/٤٢٧.

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ * مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾

* * *

أنفسهم برضاهم بالسحر عِوَضاً عن دينهم، الذي به نجاة أنفسهم من الهَلَكَة، جهلاً منهم بسوء عاقبة فعلهم ﴿ولو أَنَّهُمْ آمنوا واتَّقَوْا﴾ ولو أن الذين تعلموا السحر، صدَّقوا الله ورسوله، وخافوا عقاب الله، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ الله خيرٌ﴾ لكان جزاءُ الله وثوابهُ لهم على إيمانهم وتقواهم، خيراً لهم من السحر وما اكتسبوا به ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لو كانوا يعلمون ذلك ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولوا رَاعِنَا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله لا تقولوا لنبيكم: رَاعِنَا ـ بمعنى أَرْعِنا سمعك حتى تفهم عنَّا ـ وهي كلمة كان اليهود يقولونها على وجه الاستهزاء والمسبة[1] ﴿وَلَكِنْ قُولُوا انْظُـرْنَا﴾ ولكن قولوا انظرنا وارْقُبْنا، لنفهم ونتبينَّ ما تقول لنا ﴿واسْمَعُوا﴾ اسمعوا منه ﷺ ما يقول لكم فافهموه واحفظوه ﴿ولِلْكافرينَ عَذابٌ أليمٌ﴾ وللجاحدين بآيات الله، المكذبين لرسوله عذابٌ موجع ﴿ما يَوَدُّ الَّذينَ كَفَروا مِنْ أَهْلِ الكتاب وَلَا المُشْرِكينَ﴾ ما يحب الكافرون من أهل الكتاب، ولا المشركين بالله من عَبدة الأوثان ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عليكُمْ من خَيْرٍ من ربكُمْ﴾ ما يحبون حسداً وبغياً أن يُنزَّل عليكم القرآن، وما أوحاه الله إلى محمد ﷺ من آياته وأحكامه ﴿والله يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَنْ يَشاءُ﴾ يختص بالنبوة والرسالة، والهداية والإيمان، من شاء من خلقه ﴿والله ذو الفَضْلِ العظيمِ﴾ والله ذو الإنعام العظيم، فكل خير ناله عبادُه في دينهم ودنياهم، فإنه من عنده تعالى ابتداءً وتفضلاً منه عليهم، من غير استحقاقٍ منهم ذلك عليه، والآية تعريضٌ بأهل الكتاب في حسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

﴿ما نَنْسَخْ مِنْ آيةٍ﴾ ما ننقلْ من حكم آيةٍ إلى غيره فنبدِّله ونغيِّره، كتحويل الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً ﴿أو نُنْسِها﴾ أو نترك نسخها دون تبديل ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ منها أو مِثْلِهـا﴾ نأتِ بخيرٍ لكم منها ـ أيها المؤمنون ـ في العاجل أو الآجل، إمَّا برفع مشقة عنكم، أو بزيادة الأجر والثواب لكم[2]، أو بمثلها في الفائدة للعباد ﴿ألم تَعْلَمْ أنَّ الله على كل شيءٍ قديرٌ﴾ ألم تعلم يا محمد أنَّ الله قادرٌ

---

(١) قال قتادة: «كان المسلمون يقولون: راعنا سمعك، فكان اليهود يأتون فيقولون مثل ذلك مستهزئين، فزجر الله المؤمنين عن قولها» وقال الطبري: أمر الله المؤمنين بتوقير نبيه ﷺ وتعظيمه، حتى نهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن الجهر له بالقول لئلا تحبط أعمالهم، وأمرهم أن يتخيروا لخطابه من الألفاظ أحسنها، ومن المعاني أرقها، ومن ذلك قولهم «راعنا» أرعنا سمعك حتى نفهمك وتفهم عنا، فنهى المؤمنين عن التشبه باليهود في خطابهم الرسول بقولهم ﴿واسمع غير مسمع وراعنا﴾ الطبري ٤٦٤/٢.

(٢) ذكر الطبري أمثلة للنسخ بما هو أيسر، وأشق، وبما هو بالمثل، فالأول كنسخ فرض قيام الليل على المؤمنين، والثاني كنسخ صيام أيام معدودات إلى -

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ

* * *

على كل شيء؟وهو استفهام تقريري بمعنى قد علمت ذلك ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ السمواتِ والأرض﴾ ألم تعلم يا محمد إن لي مُلك السموات والأرض، أحكم فيهما بما أشاء، وآمر فيهما بما أشاء، وأنسخ وأبدِّل من أحكامي ما أشاء، وأقرُّ منها ما أشاء؟ والآية تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد، فأخبرهم أن له ملك السموات والأرض يفعل ما يشاء ﴿وَمَا لكمْ منْ دونِ الله من وَلِي ولا نَصِيرٍ﴾ وما لكم أيها المؤمنون سوى الله، وبعد الله من قيِّم يقوم بأمركم، ولا نصيرٍ يؤيدكم ويقويكم ويعينكم على أعدائكم ﴿أم تُريدُونَ أنْ تَسْألوا رسولَكُمْ كما سُئِلَ موسى من قبلُ﴾ أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم، نظير ما سأل قوم موسى من قبل؟ فتضلوا كما ضلوا؟ وبكون مثلكم مثل اليهود الذين سألوا رسولهم تعنتاً واستكباراً فقالوا «أرنا الله جهرةً»[1]؟!﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الكُفْرَ بالإيمانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبيلِ﴾ ومن يستبدل الكفر والجحود بآيات الله، بدل التصديق بالله وبآياته، فقد حاد عن نهج الاستقامة، وعن الطريق السويّ الموصل إلى جنات النعيم ﴿ودَّ كثيرٌ من أَهْلِ الكِتَابِ لو يَرُدونكُمْ منْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً﴾ تمنى كثير من اليهود والنصارى لو ردوكم كفاراً بعد إيمانكم ﴿حسداً من عند أنفسهم﴾ حسداً منهم لكم على ما أعطاكم الله من التوفيق، ووهب لكم من الرشاد ﴿مِنْ بَعْدِ ما تبينَّ لهم الحقُّ﴾ من بعد ما وضح له الحق في أمر محمد وأمر رسالته، فكفرهم بالله ورسوله عناد، وعلى علمٍ منهم ومعرفة ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حتىً يأتيَ الله بأمرهِ﴾ فتجاوزوا واصفحوا عما كان منهم من جهل وإساءة، حتى يحدث الله أمراً، ويقضي فيهم ما يريد، وقد نسخ تعالى العفو عنهم بفرض قتالهم ﴿إنَّ الله عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾أي إنه تعالى قوي قادر على كل شيء،إن شاء انتقم منهم، وإن شاء هداهم، له الخلق والأمر ﴿وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ﴾ أدوا الصلاة بحدودها وفروضها، وادفعوا زكاة أموالكم عن طيب نفسٍ منكم ﴿وما تُقَدِّمُوا لأنفسِكُمْ من خَيْرٍ تجدوه عندَ

= صيام شهر كامل، فهذا وإن كان أشق ولكن الثواب عليه أجزل، والأجر عليه أكثر، فهو خير من الأول، وأما الثالث فكنسخ التوجه شطر بيت المقدس، إلى التوجه شطر المسجد الحرام، فالكلفة واحدة وهو معنى المثل. الطبري ٤٨٣/٢.

(١) عن مجاهد قال: سألت قريش محمداً أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل إن كفرتم، فأبوا ورجعوا فأنزل الله ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل﴾ حين سألوه أن يريهم الله جهرة. الطبري ٤٩١/٢.

تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ

* * *

الله﴾ مهما تفعلوا من عملٍ صالح فتقدموه ذخراً لآخرتكم، تجدوا ثوابه عند الله **﴿إنَّ الله بما تَعْمَلُونَ بصيرٌ﴾** وعدٌ ووعيدٌ أي إنه بصير بجميع أعمال العباد، فلْيجدُّوا في طاعته، ولْيحذروا معصيته **﴿وقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجنةَ إلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أو نَصارىٰ﴾** أي وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً **﴿تِلْكَ أمانيُّهُمْ﴾** تلك هي أمانيُّ النفوس الكاذبة، أمانيُّ يتمنونها على الله بغير حقٍ ولا حجة ولا برهان **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾** أَحضروا حجتكم وبينتكم على ما تزعمون **﴿إن كُنْتُمْ صادقين﴾** إن كنتم محقين في دعواكم **﴿بلى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَمُحْسِنٌ﴾** بلى يدخل الجنة من استسلم لأمر الله، وخضعت جوارحه لطاعة ربه، وهو مؤمن قد أحسن في فعله وإسلامه **﴿فلهُ أجرُهُ عندَ رَبِّـهِ﴾** فله جزاؤه وثوابه على إسلامه وطاعته لربه، عند الله في معاده **﴿ولا خوفٌ عليهمْ﴾** ولا خوفٌ عليهم من عقابه، وعذاب جحيمه **﴿ولا هم يَحْزَنُونَ﴾** ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم في الدنيا **﴿وقالتِ الْيهودُ لَيْستِ النَّصارىٰ على شَيْءٍ﴾** أي ليسوا في دينهم على صوابٍ **﴿وقالت النصارى ليست اليهودُ على شَيْءٍ﴾** أي ليس اليهود على صوابٍ في دينهم **﴿وهم يتلون الكتابَ﴾** وهم يقرأُون التوراة والإنجيل. **قال ابن عباس:** لما قدم نصارى نجران على رسول الله ﷺ، أتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال اليهود: ما أنتم على شيء، وكفروا بعيسى ابن مريم وبالإنجيل، وقالت النصارى: ما أنتم على شيء، وجحدوا بنبوة موسى وكفروا بالتوراة فنزلت الآية[1] **﴿كَذَلِكَ قالَ الَّذينَ لا يَعْلمونَ مِثْلَ قولِهِمْ﴾** كذلك قال الجهلاء من مشركي العرب وغيرهم، نظير ما قال اليهود والنصارى بعضها لبعض **﴿فالله يَحكُمُ بينهمْ يومَ القِيامةِ فيما كَانُوا فيهِ يَخْتلِفُونَ﴾** فالله يفصل بين هؤلاء المختلفين يوم القيامة، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين، ويتبيَّن المحقُّ منهم من المبطل، سُمي يوم الجزاء «يوم القيامة» لأنه يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ الله أَنْ يُذْكَرَ فيها اسمُهُ﴾؟ وأيُّ امرىءٍ أشدُّ ظلماً وتعدياً على الله، من امرىءٍ منع مساجد الله أن يُعبد الله فيها؟ **﴿وَسَعَى في خرابها﴾** وسعى في تخريبها. **قال قتادة:** أولئك أعداءُ الله

(١) الطبري ٥١٣/٢.

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

* *

«النصارى» حملهم بغضُ اليهود على أن أعانوا بختنصَّر المجوسي على تخريب بيت المقدس[1] ﴿أولئك ما كانَ لهم أن يدخلوها إلا خائفينَ﴾ أولئك الذين يسعون في تخريب بيوت الله، ما يصحُّ لهم أن يدخلوا المساجد إلا على خوفٍ ووجلٍ من العقوبة ﴿لهمْ في الدنيا خزيٌ﴾ لهم في الدنيا ذلةٌ وهوان، وقتلٌ وسبيٌ ﴿ولهمْ في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب جهنم، وهو العذاب العظيم ﴿وَلِلَّهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ﴾ ولله مِلْكُ المشرق والمغرب، ومِلْك ما بينهما من الخلق ﴿فأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ فحيثما تولُّوا وجوهكم أيها المؤمنون في صلاتكم فهناك وجهُ الله[2]، يسعكم فضله، وأرضه، وبلاده، أو فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم فهنالك وجهي، أستجب لكم دعاءكم ﴿إنَّ الله وَاسعٌ عَليمٌ﴾ يسع خلقه بالإفضال والتدبير، عالم بأفعالهم لا يغيب عنه منها شيء ﴿وقالُوا اتَّخَذَ الله وَلَداً﴾ هم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله، فكذبهم تعالى بقوله ﴿سُبْحانَهُ بلْ لَهُ ما في السَّمواتِ والأرْضِ﴾ أي تنزيهاً وتبريئاً له تعالى أن يكون له ولد، بل له ما في السمواتِ والأرض ملكاً وخلقاً ﴿كلٌ له قَانِتُونَ﴾ أي كل ما في السموات والأرض مطيعٌ لله، مقرٌّ له بالعبودية، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة، والدلالة على وحدانية الله عز وجل، وأن الله تعالى بارئها وخالقها، وعيسى أحدهم، فكيف يكون لله ولداً وهذه صفتُه؟ ﴿بديعُ السمواتِ والأرضِ﴾ مبدعها ومنشئها وموجدها من غير أصلٍ، ولا مثالٍ سابق ﴿وإذَا قَضَى أمراً فإنما يقول له كُنْ فيكونُ﴾ وإذا أحكم أمراً وأراد تكوينه، قال له: «كنْ» فيكون موجوداً كما أراده وشاءه، فكذلك كان ابتداعُه المسيح وإنشاؤه ﴿وَقَالَ الَّذينَ لا يَعْلَمونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا الله أو تأْتينَا آيةٌ﴾ وقال النصارى[3]، الجهال بالله وبعظمته: هلاَّ يكلمنا ربنا كما كلَّم أنبياءه ورسله، أو تجيئنا علامة نعرف بها صدق ما نحن عليه؟ ﴿كَذَلكَ قَالَ الَّذينَ من قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ كما قال هؤلاء الجهال من النصارى، كذلك قال من قبلَهم من اليهود، فسألوا أن يريهم الله نفسه جهرة، ويؤتيهم آية، وتمنوا الأماني ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبهُمْ﴾ اشتبهت قلوب اليهود والنصارى في تمردهم على الله،

(١) الطبري ٢/٥٢٠.

(٢) عن عامر بن ربيعة قال: كنا مع النبي ﷺ في ليلة مظلمة في سفر، فلم ندر أين القبلة، فصلينا، فصلى كل واحد منا حِيَالَه ـ أي تلقاء وجهه ـ ثم أصبحنا فذكرنا للنبي ﷺ فنزلت الآية.

(٣) ذهب الطبري إلى أن المراد بالذين لا يعلمون النصارى، والذين من قبلهم اليهود، وهذا مروي عن مجاهد، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب، والذين قبلهم من اليهود والنصارى وهو قول قتادة، وهذا القول أظهر، والله أعلم

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾

* * *

وجرأتهم على أنبيائه ورسله، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها **﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَـاتِ﴾** قد وضحنا العلامات التي من أجلها غضب الله على اليهود والنصارى، فمسخ اليهود قردةً وخنازير، وأخزى النصارى **﴿لقومٍ يوقنونَ﴾** لقوم يطلبون معرفة حقائق الأشياء على صحةٍ ويقين **﴿إِنَّا أرسلناك بالحقِّ﴾** إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الحقِّ، الذي لا يقبل الله ديناً غيره **﴿بَشيراً ونَذيراً﴾** مبشراً لمن أطاعك بالنصر في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، ومنذراً لمن عصاك بالخزي والذل في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة **﴿ولا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَاب الْجَحيمِ﴾** ولست مسئولاً يا محمد عمن كفر، وكان من أصحاب الجحيم **﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلا النَّصارى حتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾** لن يرضى عنك يا محمد اليهود ولا النصارى أبداً، حتى تنسلخ عن دينك وتكون يهودياً ونصرانياً، فدعْ طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبلْ على طلب رضا الله فيما بعثك فيه من الحق **﴿قُلْ إِنَّ هُدَى الله هو الْهُدَى﴾** قل لهم يا محمد: إن بيان الله هو البيان المقنع، والقضاء الفاصل بيننا، فهلموا إلى كتاب الله وبيانه، يتضحْ لكم المحقُّ منا من المبطل، وأينا أهلُ الجنة وأينا أهل النار **﴿ولئن اتبعتَ أهواءهُمْ﴾** ولئن اتبعت يا محمد هَوَى هؤلاء اليهود والنصارى **﴿بَعْدَ الَّذي جَاءَكَ مِن الْعِلْمِ﴾** بعدما وضَّحتُ لك حالهم، واقتصصتُ عليك نبأهم **﴿مَا لَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِي ولا نَصِيرٍ﴾** ليس لك يا محمد من يتولى أمرك، ولا من ينصرك من الله فيدفع عنك عذابه وانتقامه **﴿الذينَ آتيناهُمُ الكتاب يَتْلونَهُ حَقَّ تلاوتِهِ﴾** الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، فآمنوا بالله وصدَّقوا رسوله، وعملوا بما أمرهم الله به من اتباع محمد ﷺ أولئك يتبعونه حقَّ اتباعه **قال ابن مسعود**: «يتلونه حقَّ تلاوته» أن يُحِلَّ حلاله، ويُحَرِّم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يُحرِّفه عن مواضعها[1] **﴿أولئكَ يُؤمنونَ به﴾** أولئك المذكورون يُصدِّقون بالكتاب على الوجه الحق **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولئكَ هُمُ الخَاسِرونَ﴾** ومن يجحد بالكتاب وما فيه من فرائض الله، وتصديق نبوة محمد، فأولئك الذي بخسوا أنفسهم حظها من رحمة الله واستبدلوا بها سخط الله وغضبه **﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمتُ عليكم وأني فضلتكم على العالمينَ﴾** أي اذكروا أياديَّ لديكم، وصنائعي عندكم، ونعمي التي لا تُحصى

---

(١) الطبري ٥٦٧/٢.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

* * *

عليكم وعلى آبائكم، وأني فضلتكم على عالمي زمانكم **﴿واتقوا يَوْماً لا تَجْزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً﴾** واتقوا يا معشر بني إسرائيل، عذاب يومٍ لا تقضي فيه نفسٌ عن نفسٍ شيئاً، ولا تُغْني عنها أيَّ غناء **﴿ولا يُقبل منها عَدْلٌ﴾** ولا يُقبل منها فدية ولو جاءت بمثل الأرض ذهباً لتفتدي به **﴿ولا تنفعها شفاعةٌ﴾** ولا تنفعهاشفاعة شافع إذا ماتت على غير الإيمان**﴿ولا هم يُنْصَرُونَ﴾**ولا ينصرها ناصرٌ فيخلصهامن عذاب الله .

﴿وإذِ ابتلى إبْرَاهِيم رَبُّهُ بكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهنَّ﴾واذكروا حين اختبر الله نبيه وخليله إبراهيم بتكاليف وأوامر أوحاهنَّ إليه، وكلَّفه العمل بهن، فأداهنَّ على التمام والكمال، ووفَّى بما أمره به من فرائضه ومحنته فيها، قال الحسن: ابتلاه الله بذبح ولده فصبر على ذلك، وابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن في ذلك، وعرف أن ربه دائم لا يزول، ثم ابتلاه بالهجرة من وطنه فخرج مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاه بالإلقاء في النار فصبر[1] وقال ابن عباس: لم يُبْتلَ أحدٌ بهذا الدِّين فأقامه إلا إبراهيم، ابتلي بالإسلام فأتمه «وإبراهيم الذي وَفَّى» فكتب الله له البراءة من النار[2]**﴿قَالَ إني جَاعِلُكَ للنَّاسِ إمَاماً﴾** قال له ربه: يا إبراهيم إني مصيِّرك للناس إماماً في الخيرات، يُهْتدى بك ويُقْتدى بأفعالك، تتقدم الناس فيتبعون هديك، ويستنُّون بسنَّتك **﴿قالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾** قال إبراهيم: ومن ذريتي يا ربِّ فاجعل أئمةً يُقْتدى بهم؟! **﴿قالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالمينَ﴾** قال له ربه: لا ينالُ النبوة والإمامة لأهل الخير، من كان منهم ظالماً، جائراً عن قصد السبيل. أخبره تعالى أنه فاعل ذلك، إلا بمن كان من أهل الظلم، فإنه غير مكرم له بالإمامة، لأن الإمامة في أوليائه دون أعدائه.

﴿وإذْ جَعَلْنَا البيتَ مَثَابَةً للنَّاسِ وَأَمْناً﴾ واذكروا حين جعلنا البيت الحرام مرجعاً للناس، يأتونه كل عام ويرجعون إليه، فلا يقضون منه وطراً، وجعلناه أمناً للناس، لا يخاف من دخله **﴿واتَّخِذُوا مِنْ مَقَام إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾** واتخذوا أيها الناس من مقام إبراهيم مصلًّى تُصلُّون عنده، عبادة منكم، وتكرمة مني لإبراهيم، فإني جعلته إماماً يُقتدى به وبآثاره[3]**﴿وعهدنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أنْ طَهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والركَّع السجود﴾** وأمرنا وأوصينا إبراهيم وإسماعيل، بأن يطهرا البيت العتيق من الشرك وعبادة الأوثان، للذين

---

(١) الطبري ١٤/٣ (٢) الطبري ٨/٣.

(٣) المقام: هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم حين ارتفع بناء البيت، وضعف عن رفع الحجارة، روي عن عمر أنه قال: قلت يا رسول الله: لو اتخذت المقام مصلًّى فأنزل الله ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ

* * *

يطوفون به عبادةً لله، وللمعتكفين المجاورين، وللمصلين في بيت الله **﴿وإذْ قالَ إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلداً آمناً﴾** أي اجعل هذا البلد بلداً آمناً من الجبابرة أن يُسلَّطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله **﴿وارْزُقْ أَهْلَهُ من الثَّمراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾** وارزق يا ربِّ من الثمرات سكان مكة المؤمن منهم دون الكافر **﴿قَالَ ومَنْ كَفرَ فأُمتِّعُهُ قليلاً﴾** قال له ربه: ومن كفر أرزقه أيضاً، فإني أرزق البرَّ والفاجر، فأمتّعه قليلاً برزقي من الثمرات في الدنيا إلى أن يأتيه أجلُه **﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إلى عَذَابِ النَّارِ﴾** ثم أدفعه وأسوقه إلى عذاب جهنم سحباً وجراً على وجهه **﴿وبئسَ المصيرُ﴾** وبئس الموضع الذي يصير إليه في جهنم بعد ذلك النعيم **﴿وَإذْ يَرْفَعُ إبْراهيمُ الْقَوَاعِدَ من الْبَيْتِ وَإِسْمَاعيلُ﴾** واذكر حين يرفع إبراهيم وإسماعيل أركان وأسس البيت العتيق[1]، وهما يبنيانه ويقولان **﴿رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ العَليمُ﴾** أي تقبَّلْ منا عملنا وطاعتنا إياك في بناء بيتك، إنك أنت السميع لدعائنا، العليم بما في ضمائرنا **﴿رَبَّنَا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾** اجعلنا مستسلميْنِ لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك غيرك **﴿ومِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمةً مُسْلِمَةً لكَ﴾** واجعل من ذريتنا أيضاً جماعةً مستسلمةً لأمرك، خاضعة لك بالطاعة **﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾** وعلمنا يا ربنا مناسك حجنا، كيف نطوف ونسعى؟ وكيف نقف بعرفات ونرمي الجمار[2]؟ **﴿وتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾** وعُدْ علينا بالعفو عما سلف منا، إنك أنت المتفضل بالعفو والغفران **﴿رَبَّنَا وابْعَثْ فيهِمْ رسُولاً مِنهمْ يَتْلُو عليهمْ آياتِكَ﴾** أي ابعث في ذريتنا رسولاً من العرب، يقرأ عليهم كتابك الذي توحيه إليه، وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ، وهي الدعوة التي قال عنها رسول الله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي»[3] **﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ﴾** ويعلمهم القرآن، والمعرفة بالفقه والدين

---

(١) قال ابن عباس: رفعا قواعد البيت وهما يقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ وإسماعيل يحمل الحجارة على رقبته وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاءه بهذا الحجر- حجر المقام- فقام عليه إبراهيم وهو يبني اهـ. الطبري ٦٧/٣

(٢) عن علي رضي الله عنه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت قال: فقلت أي رب فعلمنا مناسكنا، فبعث الله جبريل فحج به. الطبري ٧٩/٣.

(٣) هذه رواية الطبري، والحديث جاء في المسند للإمام أحمد بنحوه، وآخره عنده «ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين».

إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

* * *

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويطهرهم من الشرك وعبادة الأوثان ﴿إِنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ﴾ إنك أنت يا رب القويُّ الذي لا يعجزه شيء، الحكيم الذي لا يدخل تدبيره خللٌ ولا زَلَلٌ.

﴿ومَنْ يَرْغَبُ عن مِلَّةِ إبراهيمَ إلاَّ من سَفِهَ نَفْسَه﴾ ولا يرغب عن ملة إبراهيم الحنيفية، ولا يزهد فيها ويتركها إلا سفيهٌ جاهل، وعنى بذلك اليهود والنصارى، لاختيارهم اليهودية والنصرانية على الإسلام ﴿ولقد اصطفيناه في الدنيا﴾ أي اخترناه واجتبيناه لِخُلَّتنا، وجعلناه إماماً للناس ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحينَ﴾ وإنه في الآخرة من عبادنا الصالحين، فهو في الدنيا صفيٌّ، وفي الآخرةِ وليٌّ، لأنه وفَّى بعهده ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾ أي أخلصْ العبادة لي، واخضع بالطاعة لربك ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالمينَ﴾ قال إبراهيم: خضعتُ وأخلصتُ العبادة لمالك الخلائق ومدبِّرها ﴿وَوَصَّى بها إبْراهيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ﴾ ووصّى بهذه الكلمة ـ وهي الإسلام بمعنى إخلاص العبادة والتوحيد لله، وخضوع القلب والجوارح له ـ وصَّى بها إبراهيم أبناءه، وكذلك وصَّى بها يعقوب أبناءَه قائلاً لهم ﴿يا بَنِيَّ إنَّ الله اصطفى لكم الدينَ﴾ يا أبنائي إن الله اختار لكم هذا الدين، الذي قد عهد إليكم فيه، وهو دين الإسلام ﴿فلا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون﴾ أي استمسكوا بالإسلام حتى تموتوا عليه، ولا تفارقوا هذا الدين أيام حياتكم، فإن أحداً لا يدري متى تأتيه منيَّته ﴿أَمْ كنتُمْ شُهَداءَ إِذْ حَضَر يعقوبَ الموتُ﴾؟ أكنتم يا معشر اليهود والنصارى شهود يعقوب حين حضره الموت، فتعلموا ما قال لوَلَده وقال له وَلَدُه؟ ﴿إذْ قالَ لبنيهِ ما تَعْبُدونَ مِنْ بَعْدِي﴾؟ حين قال لأولاده: أيَّ شيءٍ تعبدون بعد وفاتي[1]؟ ﴿قالُوا نعبدُ إلهَكَ وَإِلَهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسْمَاعيلَ وإسْحٰقَ﴾ قالوا: نعبدُ معبودكَ الذي تعبده، ومعبود آبائك إبراهيم وإسحٰق ويعقوب، نخلص له العبادة، ولا نشرك به شيئاً ﴿ونَحْنُ له مُسْلمونَ﴾ ونحن له خاضعون بالعبودية والطاعة ﴿تلكَ أمةٌ قد خَلَتْ﴾ تلك جماعة قد مضت لسبيلها، [دَ]عُوا ذكرهم وذكر أولادهم، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية فتقولوا: إنهم كانوا يهوداً أو نصارى ﴿لَهَا ما كَسَبَتْ ولكُمْ ما كَسَبْتُمْ﴾ أي لهم ما عملوا من خير، ولكم يا معشر اليهود والنصارى كذلك ما عملتم ﴿ولا تُسْألون عما كانوا يَعْملون﴾ ولستم تُسألون عن أعمالهم، لأن لكل نفسٍ ما كسبت وعليها ما اكتسبت

(١) هكذا تكون رعاية الآباء للأبناء، بالاهتمام بدينهم، والعناية بهم بما ينجيهم من عذاب الله، كما فعل يعقوب عليه السلام

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً

* * *

﴿**وقالوا كُونُوا هُوداً أو نَصَارى تَهْتَدُوا**﴾ وقالت اليهود للمسلمين: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا أي تصيبوا طريق الحق ﴿**قلْ بلْ ملةَ إبراهيمَ حنيفاً**﴾ قل لهم يا محمد: لا نتبع اليهودية والنصرانية، ولا نتخذها ملَّة، بل نتَّبع الحنيفية المسلمة ملة إبراهيم، مستقيمين على هديه ومنهاجه ﴿**وما كانَ من المشركينَ**﴾ ولم يكن مشركاً يعبد الأوثان، ولا يهودياً ولا نصرانياً. علَّم الله نبيه أبلغ حجةٍ وأوجزها وأكملها فقال له: قل لهؤلاء الذين يدعونكم إلى اليهودية والنصرانية: تعالوا نتبع ملة إبراهيم، الذي يُجْمع كلنا على الشهادة لها بأنها دينُ الله الذي اجتباه وارتضاه، ونَدَع سائر الملل التي نختلف فيها، فإن دين إبراهيم كان الحنيفية المسلمة، وما كان من المشركين،فكل من اقتدى بإبراهيم واستقام على دينه فهو الحنيف ﴿**قُولُوا آمَنَّا بالله وَمَا أُنزِلَ إلينَا وما أُنزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسْحٰقَ ويعقوبَ والأسْباطِ**﴾ قولوا أيها المؤمنون: صدَّقنا بالله، وصدَّقنا بالكتاب الذي أُنزل على نبينا محمد ﷺ، وصدقنا أيضاً بما أنزل على الأنبياء إبراهيم، وإسماعيل، وإسحٰق، ويعقوب، و«الأسباط» وهم الأنبياء من وَلَد يعقوب ﴿**وَمَا أُوتيَ مُوسى وَعِيسى**﴾ أي وآمنا أيضاً بالتوراة التي نزلت على موسى، وبالإنجيل الذي نزل على عيسى ﴿**وَمَا أُوتيَ النبيُّونَ مِنْ رَبِّهم**﴾ أي وبالكتب التي نزلت على النبيين كلهم، وأقررنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونورٌ من عند الله، وأن جميع رسل الله على حق وهدى، يُصدِّق بعضهم بعضاً، على منهاجٍ واحد من توحيدِ الله ﴿**لا نُفرِّقُ بينَ أحدٍ منهم**﴾ لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض، بل نشهد لجميعهم بأنهم رسل الله، بُعثوا بالحق والهدى ﴿**ونَحْنُ له مُسْلِمونَ**﴾ ونحن خاضعون لله بالطاعة، مذعنون له بالعبودية ﴿**فإنْ آمَنُوا بمثلِ ما آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهتَدَوْا**﴾ فإن صدَّقوا وأقرُّوا بمثل ما صدقتم به أيها المؤمنون وأقررتم، فقد وُفِّقوا ورُشدوا، واهتدوا بلزوم طريق الحق ﴿**وإنْ تَوَلَّوْا فإنما هم في شقاقٍ**﴾ وإن أعرضوا عن الإيمان فإنما في حربٍ وفراق وعصيان لله ورسوله ﴿**فَسَيَكْفيكَهُمُ الله**﴾ فسيكفيك الله يا محمد هؤلاء المجرمين، إما بالقتل أو الجلاء ﴿**وهو السميعُ العليمُ**﴾ أي السميع لأقوالهم، العليم بما يخفون في أنفسهم من الحسد والبغضاء، وقد أنجز تعالى وعده، فكفى نبيه ﷺ شرهم حتى قتل بعضهم، وأجلى بعضاً، وأذلَّ بعضاً بالجزية والصغار ﴿**صِبْغَةَ الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً**﴾؟ أي الزموا الحنيفية المسلمة، صبغةَ الله التي هي أحسن الصِّبَغ[1] ودعوا الشرك بالله،

(١) قال ابن عباس ﴿صبغة الله﴾ دين الله، وقال مجاهد: فطرة الله. اهـ. الطبري ٣ / ١١٩

وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل

* * *

فليس هناك دينٌ أحسن من دين الله ﴿ونحنُ له عابدون﴾ ونحن خاضعون لجلاله، لا نستكبر عن عبادته ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا في الله وهو رَبُّنَا وربُّكُمْ﴾؟ قل يا محمد لليهود والنصارى: أتخاصموننا وتجادلوننا في دين الله، فتزعمون أنكم أولى بالله منا، من أجل أن نبيكم قبل نبينا، وكتابكم قبل كتابنا، وربنا وربكم واحد عدلٌ لا يجور؟ ﴿وَلَنَا أَعْمالُنَا ولكم أَعْمَالُكُمْ﴾ ولكل فريق منا جزاء ما اكتسب من صالح الأعمال وسيئها، يُثاب عليها أو يعاقب، لا على الأنساب وَقِدَم الدِّين والكتاب ﴿ونحنُ لهُ مُخْلِصونَ﴾ ونحن مخلصون له العبادة، لم نشرك به كما أشركتم، وهذا توبيخٌ لليهود في مجادلتهم المؤمنين في أمر الدين ﴿أَمْ تَقُولونَ إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحٰقَ ويعقوب والأسباطَ كانُوا هُوداً أو نَصارى﴾ أتجادلوننا في دين الله، فتزعمون أنكم أولى منا وأهدى منا سبيلاً، أم تزعمون أن هؤلاء الأنبياء إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب كانوا يهوداً أو نصارى، مع أن اليهودية والنصرانية حدثت بعد هؤلاء الأنبياء؟ ﴿قل أأنتم أعلمُ أم الله﴾ أأنتم أعلم بهم وبما كانوا عليه من الأديان أم رب العالمين؟ ﴿ومن أظلمُ مِمَّنْ كتَمَ شهادةً عنده من الله﴾؟ وأيُّ امرىءٍ أظلم ممن عرف أن هؤلاء الأنبياء كانوا مسلمين، فأخفى ذلك وكتمه ونسبهم إلى اليهودية والنصرانية ﴿وما الله بغافلٍ عمَّا تعملونَ﴾ من كتمانكم الحقَّ، ولا ساهٍ عن عقابكم ﴿تلكَ أمةٌ قَدْ خَلَتْ لها ما كسبتْ ولكم ما كسبتُم﴾ تلك جماعةٌ قد مضت لسبيلها، فصارت إلى ربها، ومضت بآمالها وأعمالها، لها ما كسبت من خير، وعليها ما اكتسبت من شر ﴿ولا تُسألونَ عمَّا كانوا يعملونَ﴾ ولا تُسألون عن أعمالهم، وإنما تُسألون عما كسبت وأسلفت أيديكم من الخير والشر.

﴿سَيقولُ السُّفَهاءُ من النَّاسِ﴾ سيقول الجُهَّال وأهلُ الغباء من اليهود والمنافقين ﴿مَاوَلَّاهُمْ عنْ قِبْلتِهمُ الَّتي كَانُوا عَلَيها﴾؟ أيُّ شيءٍ صرفهم وحوَّل وجوههم عن القبلة، التي كانوا يستقبلونها في صلاتهم[1]؟ أعلمه تعالى

---

(١) عن ابن عباس قال: لما صُرفت القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة، قال اليهود: يا محمد ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك، يريدون فتنته عن دينه، فنزلت ﴿سيقول السفهاء من الناس . .﴾ الآية

لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ

* * *

ما يقوله اليهود والمنافقون، وعلّمه ما ينبغي أن يرد عليهم من الجواب فقال ﴿قُلْ لله المشرقُ والمغربُ﴾ قل لهم يا محمد: لله مُلك المشرق والمغرب وما بينهما من العالم ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ يهدي من يشاء من خلقه، فيوفقه إلى الطريق القويم، ويخذل من يشاءُ فيضلُّه عن سبيلِ الحقِّ، وعنَى بالصراط المستقيم قبلة إبراهيم ﴿وكَذلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ كما هديناكم أيها المؤمنون، وخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم ،كذلك فضّلناكم على غيركم بأن جعلناكم أمةً خياراً عدولاً[1] ﴿لتكونوا شُهَدَاءَ عَلى النَّاس ويكونَ الرَّسُولُ عليكُمْ شَهيداً﴾ لتكونوا شهداء للأنبياء أنهم بلَّغوا أممهم رسالات الله، ويكون محمد ﷺ شهيداً عليكم بإيمانكم ﴿وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التي كُنْتَ عليها إلا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ على عَقِبيهِ﴾ وما جعلنا صَرْفك عن القبلة التي كنتَ عليها وهي «بيت المقدس» وتحويلك إلى «الكعبة» إلاَّ لنميِّز بين أهل اليقين، وأهل الشرك والريبة، ونعلم من يتّبع محمداً ﷺ فيتوجه إلى وجهته، ومن يرتد عن دينه فينافق أو يكفر[2] ﴿وإنْ كانتْ لكبيرةً إلاّ عَلى الذينَ هَدَى الله﴾ وقد كان تحويل القبلة عظيمًا وكبيراً إلا على من وفّقه الله لاتباعك وتصديقك فيما أنزل الله عليك ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُضيعَ إيمانَكُمْ﴾ وما كان الله ليضيع صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس[3] ﴿إنَّ الله بالنَّاس لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إن الله بجميع عباده ذو رحمةٍ وشفقةٍ عليهم ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهكَ في السَّماءِ﴾ قد نرى يا محمد ترديد بصرك ورفعه إلى السماء، تنتظر أمر الله بالتحويل نحو الكعبة ﴿فَلَنولِّيَنَّكَ قبلةً تَرْضَاها﴾ فلنصرفنَّك عن بيت المقدس إلى قبلةٍ تحبُّها وتهواها[4] ﴿فَولِّ وَجْهكَ شَطْر

---

(١) قال الطبري: الوسط في هذا الموضع هو: الوسط بين الطرفين، لتوسطهم في الدين، فلا هم مغالون غلو النصارى في الترهب، ولا هم أهل تقصير كاليهود، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه.

(٢) لما تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، ارتد بعض ضعفاء الإيمان، وأظهر كثيرمن المنافقين نفاقهم وقالوا: ما بال محمد يحولنا مرةً إلى هنا ومرة إلى هنا؟ وقال المشركون: تحيَّر محمد في دينه، واشتاق إلى قبلة قومه، ويوشك أن يرجع إلى دينهم فكان ذلك فتنةً وتمحيصاً للناس.

(٣) لما وجه رسول الله ﷺ إلى الكعبة قال المسلمون: كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك وهم يصلون نحو بيت المقدس!! فنزلت الآية

(٤) قال ابن عباس: لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ـ وكان أكثر أهلها اليهود ـ أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ ستة عشر شهراً، وكان ﷺ يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلى السماء فنزل ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء.. ﴾ الآية

وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ

* * *

المسجدِ الحَرَامِ﴾ فاصرف وجهك وحوِّله تلقاء المسجد الحرام ﴿وحيثُما كُنْتُمْ فوَلُّوا وجوهكم شَطْرَهُ﴾ وأينما كنتم أيها المؤمنون فحوّلوا وجوهكم في صلاتكم نحو المسجد الحرام ﴿وإنَّ الذينَ أوتوا الكتابَ ليعلمونَ أنه الحقُّ من ربِّهِمْ﴾ وإن أحبار اليهود وعلماء النصارى، ليعلمون أن هذا التوجه نحو المسجد الحرام، حقٌّ فرضه الله على عباده ﴿وما الله بغافلٍ عما يَعْملونَ﴾ وليس الله بساهٍ ولا غافل عن أعمال العباد ﴿ولئِنْ أتيتَ الذينَ أُوتُوا الكتَابَ بكلِ آيةٍ ما تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ ولئن جئت يا محمد اليهود والنصارى بكل برهانٍ وحجة، على فرضية تحول القبلة إلى المسجد الحرام، ما صدَّقوا بذلك ولا اتبعوا قبلتك التي حولتُك إليها ﴿وما أنتَ بِتَابِعٍ قبلتهم﴾ ولست يا محمد بمتبعٍ قبلتهم ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَة بَعْضٍ﴾ وليس اليهود بتابعين قبلة النصارى، ولا النصارى بتابعين قبلة اليهود، فلا تُشعِر نفسك رضاهم، فإنك إن اتبعت قبلة اليهود أسخطتَ النصارى، وإن اتبعتَ قبلة النصارى أسخطتَ اليهود، فدع ما لا سبيل له، وادعهم إلى الحنيفية المسلمة، قبلتك وقبلة إبراهيم والأنبياء من بعده ﴿ولئن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُمْ من بعدِ ما جاءكَ منَ العلم﴾ ولئن التمستَ يا محمدُ رضا هؤلاء اليهود والنصارى، فرجعتَ إلى قبلتهم بعدما وصل إليك العلم بعنادهم، وإقامتهم على الباطل، ومعرفتهم بأن القبلة التي وجهتك إليها هي قبلة إبراهيم وسائر الرسل ﴿إنكَ إذاً لمن الظالمينَ﴾ أي إن سايرتهم على ضلالهم تكون من الظالمين لأنفسهم، بمخالفتك أمر الله ﴿الذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يَعْرفونَهُ كمَا يَعْرفونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ أي أحبار اليهود وعلماءُ النصارى، يعرفون أن الكعبة هي قبلة الأنبياء وأنها قبلتهم، كما يعرفون أبناءهم ﴿وإنَّ فريقاً منهم ليكتمونَ الحقَّ وهم يعلمون﴾ وإن طائفةً منهم ليخفون أمر القبلة، وأمر محمد ﷺ وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، ويفعلون ما يفعلون عن علمٍ منهم، فيتعمدون معصية الله تبارك وتعالى ﴿الحقُّ منْ ربكَ﴾ الحقُّ ما أعلمك به ربك، لا ما يقول لك اليهودُ والنصارى ﴿فلا تكونَنَّ من الممترينَ﴾ فلا تكونن يا محمد من الشاكِّين، في أن القبلة التي وجهتك نحوها، هي قبلة إبراهيم ومن بعده من الأنبياء والمرسلين ﴿وَلِكُلٍ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ ولكل أهل ملة قبلةٌ هو مستقبلها ومولٍ وجهه إليها ﴿فاسْتَبِقُوا الخَيْراتِ﴾ فبادروا وسارعوا بالأعمال الصالحة، شكراً لربكم،

جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

* * *

وتزودوا من **دُنْيَاكُمْ لآخرَتكم**، وحافظوا على قبلتكم فلا تضيعوها كما ضيعتها الأمم قبلكم، فتضلُّوا كما ضَلُّوا **﴿أينما تكونوا يأتِ بكم الله جميعاً﴾** في أي مكان وبقعةٍ تهلكون فيها، يأتِ بكم الله جميعاً يوم القيامة **﴿إنَّ الله على كل شيءٍ قديرٌ﴾** إنه تعالى على جمعكم من قبوركم بعد مماتكم قادرٌ **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فولِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجِدِ الحَرام﴾** ومن أي مكان خرجت يا محمد، فحوِّل وجهك تلقاء المسجد الحرام **﴿وحيثُما كُنْتم فَوَلُّوا وجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾** وأينما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله، فتوجهوا في صلاتكم نحو المسجد الحرام **﴿لئلا يكونَ للناسِ عليكم حجةٌ﴾** لئلا يحتج عليكم أهل الكتاب فيقولوا: يخالفنا محمد في ديننا ويتّبع قبلتنا؟! **﴿إلاَّ الذين ظَلَمُوا منهم﴾** غير مشركي قريش فإن لهم خصومةً ودعوى باطلة عليكم بقولهم: رجع محمد إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا **﴿فلا تَخْشَوهُمْ واخشـوني﴾** فلا تخشوا هؤلاء الظلمة في حجتهم وجدالهم، ولكن اخشوني في مخالفتكم أمري، وخافوا عقابي **﴿وَلأُتمَّ نِعْمتي عليكم﴾** ولأكمل نعمتي عليكم بهدايتي لكم إلى قبلة إبراهيم، وأتمم به شرائع الحنيفية المسلمة **﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدون﴾** ولكي تهتدوا للصواب من أمر القبلة **﴿كَمَا أَرْسلنا فيكُمْ رَسُولاً منكُمْ يَتْلو عليكُمْ آيَاتِنَا﴾** كماهديتكم لدين خليلي إبراهيم، وأتممتُ عليكم نعمتي ببيان الحنيفية السمحة، كذلك أرسلتُ فيكم رسولاً عربياً، يتلو عليكم آيات القرآن **﴿ويزكِّيكـم﴾** ويطهركم من دنس الذنوب **﴿ويُعَلمكُمُ الكتابَ والحكمةَ﴾** ويعلمكم أحكام القرآن العظيم، والسُّنَن والفقه في الدين **﴿ويُعَلمكُمْ مَا لم تَكونُوا تَعْلمونَ﴾** ويعلمكم قصص الأمم الخالية، وأخبار الأنبياء، وما هو كائنٌ من الأمور التي لم تكونوا تعلمونها **﴿فَاذْكُرُوني أَذْكُرْكُمْ﴾** فاذكروني بطاعتي، أذكركم برحمتي ومغفرتي **﴿وَاشْكُرُوا لي وَلاَ تَكْفُرونِ﴾** واشكروا لي أيها المؤمنون، فيما أنعمت به عليكم من الإسلام، والهداية للدين الحق، ولا تجحدوا إحساني إليكم فأسلبكم نعمتي.

﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا اسْتَعِينُوا بالصَّبْر والصَّلاَةِ﴾ استعينوا بالصبر والصلاة على مرضاة الله، فإنكم

﴿أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ * إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

* * *

بالصبر على المكاره، ثم بالفزع إلى الصلاة، تدركون حاجاتكم ومرضاتي ﴿**إنَّ الله مع الصابرين**﴾ فإني مع الصابرين، أنصرهم، وأرعاهم، وأكلؤهم ﴿**ولا تَقُولوا لمن يُقْتَلُ في سبيلِ الله أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ**﴾ لا تقولوا لمن قُتل في سبيل الله هو ميِّتٌ، فإن الميِّت من لا يلتذ لذة، ولا يدرك نعيمًا، ومن قُتِل في سبيلي فهو في حياة ونعيم، وعيشٍ هنيء، يُرْزقون من مآكل الجنة ومطاعمها، وهم في برزخهم يُنعَّمون ﴿**وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ ولكنكم لا ترونهم فتعلموا أنهم أحياء ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ من الخوفِ والجوعِ**﴾ ولنختبرنكم بشيءٍ من الخوف ينالكم من عدوكم، وبشيءٍ من الجوع- بسبب القحط- ينالكم فيه مجاعة وشدة ﴿**ونقصٍ من الأموالِ والأنفسِ والثَّمراتِ**﴾ وبشيءٍ من نقص الأموال، والأولاد، والثمار، كل ذلك للامتحان والاختبار، ليتبيَّنَ الصادقُ في الإيمان من المنافق ﴿**وبَشِّر الصَّابرينَ**﴾ وبشِّرْ يا محمد الصابرين على بلائي، المستسلمين لقضائي، بما يسرُّهم من المغفرة والرحمة ﴿**الذينَ إذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبةٌ قالُوا إنَّا لله وإنَّا إليهِ رَاجِعُونَ**﴾ القائلين عند المصيبة: إنَّا عبيدٌ لله في حياتنا، وصائرون إليه بعد مماتنا، ﴿**أُولَئِكَ عليهم صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهم وَرَحْمَةٌ**﴾ هؤلاء الصابرون لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم، ولهم رحمةٌ من الله ورأفةٌ ﴿**وأولئك هم المهتدونَ**﴾ المصيبون لطريق الحق، المهتدون للرشد والصواب

﴿**إنَّ الصَّفَا والمروةَ من شعائر الله**﴾ إن جبل الصفا وجبل المروة، من معالم الله التي جعلها مَعْلمًا ومشعراً لعباده، يعبدونه عندها، بالدعاء، أو الذكر، أو السعي بينهما ﴿**فَمَنْ حجَّ البيتَ أو اعتَمَر**﴾ فمن أتى البيت العتيق، قاصداً الحج، أو العمرة أي الزيارة ﴿**فلا جُنَاحَ عليهِ أنْ يَطَّوَّفَ بهمَا**﴾ فلا حرج عليه ولا إثم في الطواف بهما، فإنَّ المشركين كانوا يطوفون بهما للأصنام، وأنتم تطوفون للرحمن، طاعةً لأمري، وتصديقاً لرسولي[1] ﴿**وَمَنْ تَطوَّعَ خيْراً**﴾ ومن تطوَّع بالحج والعمرة، بعد قضاء حجته الواجبة عليه ﴿**فإنَّ الله شَاكِرٌ عَليمٌ**﴾ شاكرٌ له تطوعه ابتغاء وجهه، عليمٌ بما قصد وأراد.

---

(١) سبب تحرج المسلمين عن الطواف أي السعي بين الصَّفا والمروة، أنهم كانوا في الجاهلية يطوفون لصنمين عظيمين كانا عليهما، هما «إساف» و«نائلة» كان يعبدهما المشركون فلما جاء الإسلام، خافوا أن يسعوا بين الصفا والمروة لئلا يتشبهوا بالمشركين في عبادتهم فنزلت الآية

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ

* * *

﴿إنَّ الَّذِينَ يَكْتُمونَ ما أَنْزَلْنَا من البيِّناتِ والهُدَى﴾ يخفون ما بيَّنه تعالى من أمر نبوة محمد ﷺ وما أوضحه في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، والمراد بهم علماء اليهود والنصارى[١] **﴿مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ في الكِتَابِ﴾** من بعد تبييني ذلك وإيضاحه للناس في التوراة والإنجيل **﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُم الله ويَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾** أولئك الكاتمون لأمر محمد ولدينه، يطردهم اللَّهُ من رحمته، وتلعنهم الملائكةُ والمؤمنونَ **﴿إلاَّ الذينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾** تابوا عن الكتمان، وأصلحوا أنفسهم بصالح الأعمال، وبيَّنوا وحي الله الذي أنزله على أنبيائه **﴿فَأُولئِكَ أَتُوبُ عليهِمْ﴾** فهؤلاء أتوب عليهم، فأجعلهم من أهل طاعتي ومرضاتي **﴿وأنا التَّوَّابُ الرحيمُ﴾** وأنا التواب على عبادي، أتغمدهم بعفوي، وأصفح عنهم برحمتي **﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَروا وَمَاتُوا وهم كُفَّارٌ﴾** جحدوا نبوة محمد، من اليهود والنصارى وسائر المشركين، وماتوا وهم على جحودهم **﴿أولئك عليهمْ لَعْنَةُ الله والَملاَئكةِ والنَّاسِ أجمعينَ﴾** أي يطردهم الله من رحمته، وتلعنهم الملائكة وجميع الناس **﴿خالدين فيها﴾** ماكثين في نار جهنم **﴿لايُخَفَّفُ عنهم العَذَابُ﴾** عذابهم دائم أبداً، من غير توقيتٍ ولا تخفيف **﴿ولا هم يُنْظَرُونَ﴾** ولا يُمْهلون بمعذرةٍ يعتذرون بها.

﴿وإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحدٌ﴾ معبودكم- أيها الناس- الذي يستحق العبادة معبودٌ واحدٌ[٢] **﴿لا إِلَهَ إلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾** لا ربَّ سواه، فلا تعبدوا غيره، ولا تشركوا معه سواه، فإنه لا مِثْلَ له، ولا نظير، وهو الرحمن الرحيم **﴿إنَّ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض﴾** إنَّ في إنشاء السَّموات والأرض، وابتداعهما على غير مثالٍ سابق **﴿واختلافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾** وتعاقب الليل والنهار، كلٌّ منهما يخلف صاحبه، إذا ذَهب الليل جاء النهار، والعكسُ **﴿والفُلْكِ التي تجري في البحرِ﴾** والسفن التي تسير في البحار، وهي مثقلة بالأحمال **﴿بما يَنْفَعُ**

---

(١) قال الطبري: والآية وإن كانت نزلت في خاص فإنها تشمل كل كاتم علماً فرض الله بيانه للناس.

(٢) هذه الآية الكريمة لإقامة الحجج والبراهين، على وحدانية رب العالمين، فقد نبَّه تعالى بآثار مخلوقاته على وجوده ووحدانيته، بأبلغ حجةٍ، وأوضح بيان.

فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

* * *

النَّاس﴾ بما فيه نفع البشر **﴿وما أنزلَ الله من السَّماءِ من مَاءٍ فأَحْيَا به الأَرْضَ﴾** وفي المطر الذي ينزله الله من السماء، فيخرج به النبات، الذي هو للعباد أقواتٌ، وللأنام أرزاقٌ **﴿بعد موتها﴾** بعد جدب الأرض ويُبسها **﴿وبثَّ فيها مِنْ كُلِّ دَابةٍ﴾** وفيها فرَّق في الأرض، من كل ذي روح يدبُّ على ظهرها، من إنسانٍ ، وحيوان **﴿وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ﴾** وفي تصريف الله الرياح، بأن يرسلها مرةً لواقح للسحاب، ومرة ريحاً عقيمًا، تدمِّر كل شيءٍ **﴿والسَّحابِ المسخَّرِ بينَ السَّماءِ والأَرْضِ﴾** وفي السَّحاب الذي سيَّره الله، يحمل المطر الذي به حياتكم، وحياةُ أنعامكم ومواشيكم **﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** لعلاماتٍ ودلالاتٍ على أن خالق ذلك كله إلَهٌ واحدٌ، لمن عقل، وفهم أدلته على وحدانيته. أخبرهم تعالى أن إلَههم هو الله، الذي أنعم عليهم بهذه النعم، لا ما يعبدون من الأصنام والأوثان **﴿ومن النَّاسِ مَنْ يتَّخِذُ من دُونِ الله أنْـدَاداً﴾** ومن الناس من يجعل لله شركاء وعدلاء **﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله﴾** يحبون أوثانهم، كحب المؤمنين لله **﴿والَّذينَ آمَنُوا أَشَدُّ حباً لله﴾** والذين آمنوا أشد حباً لله، من حبِّهم هم لآلهتهم **﴿ولو يَرَىٰ الَّذينَ ظَلَمُوا إذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾** ولو يرى الظالمون عذاب الله، الذي أعدَّه لهم في جهنم، لعلموا حين يعاينون العذاب **﴿أن القوة لله جميعاً﴾** أن القوة كلُّها لله، دون الأنداد والآلهة، التي لا تُغْني عنهم شيئاً **﴿وأَنَّ الله شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾** ولأيقنوا أن الله شديد العذاب، لمن كفر به **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الذينَ اتَّبَعُوا﴾** تبرأ المتبوعون من الأتباع، الذين كانوا يتبعونهم على الضلال **﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾** وعاينوا عذاب الله في الآخرة، وتقطَّعت بينهم العلاقات والوسائط والصِّلات، التي كانت في الدنيا، فلا صداقةَ، ولا مودة، ولا شفاعةَ، ولا أرحام تنفعهم في الآخرة **﴿وَقَالَ الذينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ منهمْ كما تبرَّءُوا منَّا﴾** وقال الأتباع الذين أطاعوهم في معصية الله: لو أنَّ لنا رجعةً إلى الدنيا، فنتبرأ من رؤ ساتنا الذين أضلونا، كما تبرءوا منَّا **﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾** كما أراهم العذاب، الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، فكذلك يريهم أعمالهم الخبيثة، نداماتٍ عليهم، يندمون حين يرون جزاءها وعقابها **﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ من النَّارِ﴾** وليسوا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـٔٗا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكْمٌ عُمْيٞ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

* * *

بخارجين من نار جهنم ، ولكنَّهم فيها مخلَّدون ﴿**يا أيها النـاسُ كُلوا مِمَّا في الأرضِ**﴾ كلوا مما أحللت لكم من الأطعمة ، دون ما حرمته عليكم من المآكل كالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ﴿**حَلَالاً طَيِّباً**﴾ حلالاً طاهراً ، غير نَجِسٍ ولا محرم ﴿**ولا تَتَّبعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ ولا تسلكوا طريق الشيطان ، في آثاره وأعماله ، وفيما يدعوكم إليه من مخالفة طاعة الله ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾ ظاهر العداوة ، قد أبان عداوته ، بغروره لأبيكم حتى أخرجه من الجنة ، واستزلَّه بالخطيئة ، حتى أكل من الشجرة ﴿ **إِنَّمايَأْمُرُكُم بالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ**﴾ إنما يأمركم الشيطان بمعصيـةالله ، التي تسوءُ صاحبَها ، وبكل فاحش وقبيح كالزنا ﴿**وَأَنْ تَقُولُوا عَلى الله مَا لاَ تَعْلَمونَ**﴾ وأن تُحرِّموا البحائر ، والسوائب ، والوصائل ، وتزعموا أن الله حرَّم ذلك ﴿**وإذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله**﴾ وإذا قيل لهؤلاء الكفار : إعملوا بما أنزل الله في كتابه على رسوله ، فأحِلُّوا حلالَه ، وحرِّموا حرامَه ، واتبعوا أحكامه ﴿**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ قالوا بل نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا ، من تحليلٍ وتحريم ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُونَ**﴾؟ أيتَّبعون آباءهم الكفار ، الذين لا يعقلون شيئاً من دين الله وفرائضه ، ولا يهتدون لرشدٍ ولا صوابٍ؟ فكيف يتبعونهم ، ويتركون ما يأمرهم به ربهم؟ والجاهلُ لا يتَّبعه إلا من لا عقل له ولا تمييز!؟ ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ مثل الكافر في قلة فهمه ، وسوء قبوله لما يُدْعَى إليه ، من توحيد الله وطاعته ﴿**كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بما لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً**﴾ كمثل البهيمة التي تسمع الصوت ، ولا تعقل ما يُقال لها[1] ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ هؤلاء الكفار صُمٌّ عن الحق فلا يسمعونه ، خُرْسٌ عن الحق فلا ينطقون به ، عُمْيٌ عن طريق الهدى فلا يبصرونه . **قال ابن عباس** :لا يسمعون الهدى ، ولا يُبْصرونه ، ولا يعقلونه ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنوا كُلُوا من طَيِّباتِ ما رزقناكُمْ**﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، وأذعنوا له بالطاعة ، إطْعَموا من حلال الرزق ، الذي أحللناه لكم ﴿**وَاشْكُروا لله إنْ كُنْتُمْ إيَّاه تَعْبُدُونَ**﴾ وأثْنُوا على الله ، على ما رزقكم من النِّعَم ، إن كنتم منقادين لأمره ، سامعين مطيعين له . ثم بيَّن تعالى ما

---

(١) قال مجاهد : مثل الكافر كمثل البهيمة ، تسمع الصوت ولا تعقل . وقال ابن عباس : كمثل البعير والحمار ، إن قلت له «كُلْ» لا يعلم ما تقول ، غير أنه يسمع صوتك ، وكذلك الكافر إن أمرته بخير أو نهيته عن شر لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك .

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ * لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ

* * *

حرَّم عليهم مفصَّلاً فقال ﴿إنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزيرِ﴾ أي ما حَرَّم عليكم ربكم غير الميتةِ، والدم، ولحم الخنزير ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ وما ذُبح للآلهة والأوثان لغير الله وسُمّي إهلالاً لأنهم كانوا يذكرون اسم آلهتهم، و يجهرون عند الذبح لها بأصواتهم ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ فمن حلَّت به ضرورة، لأكل ما حُرِّم عليه غيرَ باغٍ بأكله ما حَرَّم الله، ولا مُعتدٍ بتركه الحلال إلى الحرام ﴿فلا إثْمَ عَلَيْهِ﴾ فلا حرج ولا تَبعة عليه بأكله ذلك ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ يصفح ما سلف منكم، ويترك عقوبتكم عليه، وهو رحيمٌ بكم.

﴿إنَّ الَّذينَ يَكْتُمونَ ما أنْزَلَ الله مِنَ الكِتَابِ﴾ هم أحبار اليهود، الذينَ كتموا الناس أمر محمد ﷺ ونبوته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ ويبتاعون بكتمانهم نبوتَه، اليسير من عَرَض الدنيا ﴿أُولَئِكَ ما يَأْكُلونَ في بُطُونِهِمْ إلاَّ النَّارَ﴾ هؤلاء الذين كتموا، وحرَّفوا آياتِ الله، وغيَّروا معانيها، من أجل الخسيس من الدنيا، ما يأكلون في بطونهم إلا ما يوردهم النار[1]، ويصلون سعيرها ﴿ولا يُكَلِّمُهُم الله يومَ القِيامةِ﴾ لا يكلمهم بما يُحِبُّون ويشتهون ﴿ولا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهّرهم من دنس الذنوب والكفر ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ ولهم عذاب موجع ﴿أُولئِكَ الَّذينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بالهُدَى﴾ أخذوا الضلالة وتركوا الهُدَى ﴿وَالْعَذَابَ بِالمَغْفِرةِ﴾ أخذوا ما يوجب لهم عذاب الله، وتركوا ما يوجب لهم مغفرته ورضوانه ﴿فما أَصْبَرَهُمْ عَلى النَّارِ﴾؟ فما أجرأهم على عذاب النار!؟ وهو تعجبٌ من حالهم، بارتكابهم أعمالَ أهل النار ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الكِتَابَ بالحَقِّ﴾ ذلك العذاب لأحبار اليهود، بسبب أني أنزلتُ كتابي بالحقِّ، فكفروا به واختلفوا فيه ﴿وإنَّ الَّذينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لفي شِقَاقٍ بعيدٍ﴾ وهؤلاء اليهود والنصارى، الذين اختلفوا فيما أنزلتُ إليك يا محمد، لفي نزاعٍ ومفارقةٍ للحق، بعيدةٍ عن الرشد والصواب ﴿لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وجوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرقِ وَالمَغْرِبِ﴾ ليس البرَّ - يا معشر اليهود والنصارى - أن يوليَ بعضُكم وجهَهُ قِبَل

(١) هذا التعبير من باب المجاز باعتبار ما يئول إليه، لأن النار لا تؤكل، وإنما المعنى يأكلون شيئاً خبيثاً يوردهم نار جهنم، ففيه مجاز مرسل

وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ

* * *

المشرق، وبعضكم قِبَل المغرب[1] ﴿وَلَكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ والْمَلائِكَةِ والكِتاب وَالنَّبِيّين﴾ ولكنَّ البرَّ، برُّ من صدَّق بالله، وبالآخرة، وآمن بالملائكة، والكتب، والرسل ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى والْمَسَاكِينَ﴾ وأعطى ماله وهو محبٌّ له، حريصٌ على جمعه، شحيحٌ به، لذوي القرابة، ولليتامى الذين مات آباؤهم، ولأصحاب الحاجة والفاقة ﴿وابْنَ السَّبيلِ﴾ وللمسافر الذي انقطع في سفره، سمّي «ابنَ السبيل» لملازمته الطريق ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الطالبين للعون ﴿وفي الرقَابِ﴾ وفي فك الرقاب من العبودية، وهم المكاتَبون ﴿وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزَّكَاةَ﴾ وأدَّى الصلاةَ بحدودها، وأعطى الزكاة كما فرضها الله عليه ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ لا ينقضون عهد الله بعد المعاهدة ﴿والصَّابرينَ في الْبَأْسَاءِ والضرَّاءِ﴾ وأمدحُ الصابرين، وقتَ البؤس والضُّر[2] ﴿وحينَ البأسِ﴾ والصابرين وقت شدة القتال، في الحرب ﴿أُولئِكَ الَّذينَ صَدَقوا﴾ صدقوا الله في إيمانهم، وحقَّقوا أقوالهم بأفعالهم ﴿وأولئكَ هم المتقونَ﴾ اتَّقَوْا عقاب الله، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه

﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ في القَتْلَى﴾ فُرض عليكم القِصَاصُ من القاتل، دونَ غيره ﴿الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بالعبدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى﴾ أن يُقتص الحُرُّ بالحُرِّ، والعبدُ بالعبد، والأنثى بالأنثى[3] ﴿فمن عُفِيَ له من أخيهِ شيءٌ﴾ فمن صُفح له من أخيه، عن شيءٍ من الواجب، من الدية أو غيرها ﴿فاتِّبَاعٌ بالْمَعْرُوفِ﴾ فعلى الراضي بالدية ـ وهو وليُّ القتيل ـ أن يطالب بديته بالمعروف، وهي مائة من الإبل دون زيادة ﴿وأداءٌ إليه بإحسانٍ﴾ وعلى القاتل أن يدفع ما لزمه بقتله من الدية بإحسان، دون أن يحوجه إلى

---

(١) كانت اليهود تصلي قِبَلَ المغرب، والنصارى تصلي قِبَلَ المشرق، فنزلت الآية توضّح أن فعل البر والخير ليس بالصلاة وحدها، ولكنه بخصال الإيمان التي بيَّنها الرحمن جل وعلا، من الإيمان بالله، وبكتبه، وبرسله، والانفاق في سبيل الله، والجهاد في سبيله، وغير ذلك

(٢) البأساء: الفاقة والفقر، والضراءُ: الوجعُ والمرضُ يصيب الجسد، وانتصب لفظ «والصابرين» على المدح أي أمدح الصابرين وأخصهُم بالثناء

(٣) كان عند العرب بغيٌ وعدوان، فكانوا إذا قُتلت فيهم امرأة قالوا: لا نقتل بها إلا رجلا، وإذا قتل فيهم عبد قالوا: لا نقتل به إلا حراً فنزلت تأمر بقتل القاتل فقط.

فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

* * *

المطالبة[1] ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ما حكمتُ به من قبول الدية، تخفيفٌ مني عليكم، ورحمة مني لكم، أطعمتكم الدية، وأحللتها لكم، ومنعتها من كان قبلكم من الأمم ﴿فمن اعْتَدَى بَعْدَ ذلكَ فَلَهُ عَذَابٌ أليمٌ﴾ فمن اعتدى بعد أخذه الدية، فسفك دم القاتل، فله عذاب أليم موجع ﴿ولكُمْ في القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُوْلي الأَلْبَاب﴾ ولكم - يا أصحاب العقول - فيما فرضت عليكم من القصاص، ما يمنع به بعضكم من قتل بعض،فتكون لكم بذلك الحياة[2] ﴿لعلكم تَتَّقُونَ﴾ كي تنتهوا بالقصاص عن القتل. . وخصَّ تعالى بالخطاب أهل العقول، لأنهم هم الذين يعقلون عن الله، أمرَه ونهيَه، ويتدبرون حججه.

﴿كُتِبَ عليكُمْ إذَا حَضَرَ أحدَكُم المَوْتُ﴾ فُرض عليكم - أيها المؤمنون - إذا حضرتْ منيّةُ أحدكم ﴿إنْ تركَ خيراً الوصيَّةُ للوالدينِ والأقربينَ﴾ إن تركَ مالاً، فالواجب عليه أن يوصيَ لمن لا يرثه، من آبائه، وأمهاته، وأقربائه[3] ﴿بالمعروفِ﴾ في حدود الثلث ﴿حقاً على المتقينَ﴾ حقاً واجباً، على من اتقى الله فأطاعه ﴿فمنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَه﴾ فمن غيَّر وصية الموصي، بعدما سمع الوصية ﴿فإنّما إثْمُهُ عَلى الَّذينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فإنما إثم التبديل، على من بدَّل الوصية ﴿إنَّ الله سَميعٌ عَليمٌ﴾ سميعٌ لوصيتكم، عليمٌ بما تُخفيه صدوركم ﴿فَمَنْ خَافَ من مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إثْماً﴾ فمن خاف من الموصي، الجورَ، والعدولَ عن الحقِّ، أو خاف أن يتعمد الإثم في وصيته، بأن يوصي بأكثر من الثلث ﴿فَأَصْلَحَ بينهُمْ فَلا إثْمَ عليهِ﴾ فأصلح بين الموصي وبين ورثته، فلا ذنب عليه ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيم﴾ يصفح عن الذنوب، ويرحم العباد

﴿يا أيها الذينَ آمنوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، فُرض عليكم الصيام ﴿كما كُتِبَ على الذينَ من قبلكم﴾ كما فُرض على الذين من قبلكم من أهل الكتاب ﴿لعلكم تَتَّقُونَ﴾ لتتقوا ما

(١) قال ابن عباس: العفو أن يقبل الدية في العمد، فيطلب هذا بمعروف، ويؤدي هذا بإحسان.

(٢) اشتهر عن العرب قولهم: «القتلُ أنْفَى للقتل»، ولكنَّ في الآية الكريمة من نفحات الإعجاز، ما يفوق تلك العبارة جمالاً وبياناً ﴿ولكُمْ في القِصَاصِ حياةٌ﴾ ففي قتل القاتل حياةٌ للبشر، وصيانة للأرواح أن تُزْهق، وانظر الفوارق الدقيقة بين الجملتين في كتابنا صفوة التفاسير ١ / ١٢٠

(٣) ذهب البعض إلى أن الوصية منسوخة بآية المواريث وذهب الطبري إلى أنها محكمة وهي في الوالدين والأقربين الذين لا يرثونه.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ

* * *

يُفَطِّركم، من الطعام، والشراب، والجماع[١] ﴿أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ﴾ أيام شهر رمضان ﴿فمنْ كَانَ منكم مَرِيضاً﴾ فمن كان من المكلفين مريضاً ﴿أو عَلى سَفرٍ﴾ أو كان على سفر ﴿فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَرَ﴾ فعليه صوم عدة الأيام، التي أفطرها في مرضه، أو في سفره، من أيام أخرى- غير رمضان- ﴿وَعَلى الَّذينَ يُطيقُونَه فدية طعَامُ مسكينٍ﴾ وعلى الذين يطيقون الصيام، جزاءُ طعامُ مسكينٍ، لكل يوم أفطره والآية منسوخة[٢]، وقيل: هي في الشيخ الكبير، والعجوز الفانية، رُخّص لهما أن يُفطرا، ويُطْعِما لكل يومٍ مسكيناً ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خيراً فهو خيرٌ لَهُ﴾ فمن تطوّع خيراً فزاد طعام مسكين آخر، أو جمع الصوم مع الفدية فهو خيرٌ له ﴿وأن تَصُومُوا خيرٌ لكم﴾ صيامكم شهر رمضان، خيرٌ لكم من أن تفطروه وتفتدوا ﴿إن كنتم تعلمونَ﴾ فضل الصيام ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القُرْآنُ﴾ الأيامُ المعدوداتُ هنَّ شهر رمضان، الذي ابتدأ فيه نزول القرآن ﴿هُدَىً للنَّاسِ﴾ رشاداً للناس إلى سبيل الحقّ ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الهُدَى والفُرْقانِ﴾ وواضحاتٍ من الحلال والحرام، تفصل بين الحق والباطل ﴿فَمَنْ شَهِدَ منكم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فمن دخل عليه شهر رمضان وهو مقيمٌ، فعليه صومُ الشهر كله ﴿ومن كان مريضاً أو على سفر﴾ ومنْ كان مريضاً، أو مسافراً فأفطره ﴿فَعِدَّةٌ منْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فعليه صيام عدة الأيام التي أفطرها، من أيام أخرى، غير أيام رمضان ﴿يُرِيدُ الله بكم اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بكم العُسْرَ﴾ يريد الله- بما شرع لكم- التخفيفَ والتسهيل عليكم، ولا يريد بكم الشدة والمشقة ﴿وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ﴾ ولتكملوا عدة ما أفطرتم، في السفر أو المرض ﴿وَلِتُكَبِّروا الله على ما هَداكم﴾ ولتعظّموا الله بالتكبير يوم الفطر، على ما أنعم به عليكم من الهداية والتوفيق ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ﴾ ولتشكروا الله على ذلك ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وإذا سألك يا محمد عبادي أين أنا؟ فإني قريبٌ منهم. نزلت حين سأل بعضهم الرسول ﷺ: أقريبٌ ربُّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ ﴿أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِ

(١) هكذا فسَّرها الطبري، وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى لتتّقوا الله أي لكي تحصلوا على مرتبة التقوى، التي هي جماع الدين وطريق السعادة، والوصول إلى رضوان الله، فمن صام رمضان كان من المؤمنين المتقين، جعلنا الله منهم.

(٢) كان الصيام مفروضاً على المسلمين، من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدى بطعام مسكين، ثم نزل قوله تعالى ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ فَنُسِخَ ذلك الحكم.

يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ

* * *

إذا دَعَـانِ﴾ أسمع دعاءهم، وأجيب دعاء الداعي منهم إذا دعاني **﴿فَلْيَسْتَجيبُوا لي﴾** بالطاعة **﴿وَلْيُؤْمِنُـوا بي﴾** وليصدّقوا أني أجزلُ لهم الثواب والكرامة **﴿لَعَلَّهمْ يَرْشُـدُونَ﴾** ليهتدوا إلى طريق الرشاد **﴿أُحِلَّ لكمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُـمْ﴾** أُبيح لكم- أيها المؤمنون- في ليالي رمضانِ الجماعُ لنسائكم، **قال ابن عباس**: الرفث: الجماع، ولكنَّ الله كريمٌ يَكْني **﴿هُنَّ لِبَاسٌ لكم وأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾**[1] نساؤكم لباسٌ لكم، وأنتم لباسٌ لهن، وكل واحد منكم سِتْرٌ لصاحبه، لانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه عند الجماع **﴿عَلِمَ الله أنكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أنفسكم﴾** تخونون أنفسكم، بالجماع، والأكل والشرب بعد النوم في الليل، **قال قتادة**: كان الطعام والشراب وغشيان النساء لهم حلالاً ما لم يَرْقُدوا، فإذا رقدُوا حرم عليهم ذلك، ثم أحلَّ الله لهم بعد ذلك الطعام والشراب وغشيان النساء إلى طلوع الفجر **﴿فتابَ عليكُمْ وعَفَا عنكم فالآنَ بَاشِرُوهنَّ﴾** فالآن جامعوهنَّ في ليالي شهر رمضان حتى يطلع الفجر **﴿وابْتَغُوا ما كَتَبَ الله لكُمْ﴾** واطلبوا ما قضى الله لكم، من الولد والنسل **﴿وكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يتبيَّنَ لكُمُ الخَيْطُ الأبيضُ من الخَيْطِ الأَسْوَدِ من الفَجْرِ﴾** وكلوا واشربوامن أول الليل، إلى أن يظهر لكم ضوء النهار من ظلمة الليل، بطلوع الفجر **﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إلى اللَّيْلِ﴾** ثم أتموا صيامكم إلى غروب الشمس. والمرادُ بالخيط الأبيض: بياضُ النهار، وبالخيط الأسود: سوادُ الليل **﴿ولا تُبَاشِروهنَّ وأنتم عاكفون في المساجـد﴾** ولا تجامعوا نساءكم حال عكوفكم في المساجد لعبادة الله **﴿تلكَ حُدُودُ الله فلا تَقْرَبُوهَا﴾** هذه الأشياء التي بيَّنْتُها لكم هي محارم الله، فاجتنبوها ولا تقربوها، فتستحقوا العقوبة **﴿كذلك يُبَيِّنُ الله آياته للناس﴾** كما أوضحت لكم الأحكام، أُبيِّنُ للناس الحلال والحرام **﴿لعلهم يتقـون﴾** ليتقوا محارمي، ويتجنَّبوا غضبي وسخطي.

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ ولا يأكل بعضكم أموال بعض بالباطل **﴿وتُدْلوا بها إلى الحكـام﴾**

---

(١) ما ألطف هذا التعبير وما أبدعه!! فإنه من الألفاظ الرشيقة التي فاقت الخيال في الجمال، فالمرأة للرجل كاللباس زينة وكمالاً، تكمّله وتزينه، والرجل للمرأة كاللباس يسترها ويجمّلها، وهما حال المعانقة والمباشرة كالشخص الواحد المتسربل باللباس، روحان حَلاّ في جسد واحد، فلله ما أسمى وأروع تعبير القرآن!؟.

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

* * *

وتخاصموا بها إلى الحكام[1] قال مجاهد: لا تخاصم وأنت ظالم **﴿لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم﴾** لتأكلوا طائفة من أموال الناس بالحرام **﴿وأنتم تَعْلمونَ﴾** وأنتم تتعمدون ذلك، وتعلمون أنه حرام **﴿يَسْألونَكَ عن الأهِلَّةِ﴾** يسألونك يا محمد عن الأهلة وتغير أحوالها بالزيادة والنقصان، وعدم كونها كالشمس دائمة أبداً على حال واحدة **﴿قُلْ هي مَوَاقيتُ للنَّاسِ والحَجّ﴾** قل لهم: هي مواقيتُ لكم، تعرفون بها أوقات صومكم، وإفطاركم، ومناسك حجكم **﴿وليس البرُّ بأنْ تَأْتُوا البيوتَ من ظهورها﴾** وليس البرُّ ـ أيُّها الناسُ ـ بأن تأتوا البيوت في حال إحرامكم من ظهورها. نزلت في قوم كانوا لا يدخلون بيوتهم إذا أحرموا من أبوابها، و لكنْ يدخلون من الكُوَّةِ، ويتسورون الجدران **﴿ولكنَّ البرَّ من اتَّقَى﴾** ولكنَّ البرَّ من اتقى الله، وتجنَّب محارمه **﴿وأْتوا البُيُوتَ منْ أبْوابها﴾** ادخلوا البيوت من الأبواب **﴿واتَّقُوا الله لعلكم تُفْلِحونَ﴾** احذروا ربكم وارهبوه، بطاعته واجتناب نواهيه، لتدركوا البقاء في جناته، والخلود في نعيمه.

﴿وقاتلوا في سبيلِ الله الذينَ يقاتلونكم﴾ قاتلوا ـ أيها المؤمنون ـ من أجل دين الله، الذي شرعه لعباده، الذين يقاتلونكم من المشركين **﴿ولا تعتدوا﴾** بقتل النساء والذريَّة، الذين لم ينصبوا لكم الحرب، قال ابن عباس لا تقتلوا النساء، ولا الصبيان، ولا الشيخ الكبير، ولا من كفَّ يده، فإن فعلتم هذا فقد اعتديتم **﴿إن الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾** الذين يجاوزون حدوده، ويستحلّون ما حرمه عليهم **﴿واقْتُلوهُمْ حيثُ ثَقِفْتُموهُمْ﴾** اقتلوا المشركين، في أي مكانٍ تمكنتم من قتلهم **﴿وأخرجوهم من حيثُ أخرجوكم﴾** أخرجوا هؤلاء المقاتلين من مساكنهم وديارهم، كما أخرجوكم منها ـ يعني بذلك المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم بمكة ـ **﴿والْفِتْنَةُ أَشدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾** والشركُ بالله أشدُّ من القتل، وفتنةُ المؤمن في دينه، حتى يرجع عنه ويصير مشركاً، أشدُّ من قتله **﴿ولا تُقَاتِلوهُمْ عند المْسجدِ الحرام حتى يُقَاتِلُوكُمْ فيهِ﴾** ولا تبتدئوا المشركين بالقتال عند المسجد الحرام، حتى يبدأُوكم به **﴿فإنْ قاتلوكُمْ فاقْتُلوهُمْ﴾** فإن بدءوكم بالقتال فاقتلوهم **﴿كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرينَ﴾** جزاؤ هم القتلُ في الدنيا، والخزيُ في الآخرة **﴿فَإنِ انْتَهَوْا فإنَّ الله غَفُور رحيمٌ﴾** فإن ترك

(١) فسَّر الإمام ابنُ جرير الإدلاء بمعنى المخاصمة إلى الحكام، وفسَّرها البعض بإلقاء الأموال رشوة إلى الحكام، وهذا أظهر والله أعلم

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ

* * *

الكافرون قتالكم وتابوا، فإن الله يغفر ذنوبهم ويرحمهم، بفضله وَمَنِّه **﴿وقَاتِلُوهُمْ حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ لله﴾** وقاتلوا المشركين، حتى لا يبقى شرك، وتكون العبادة والطاعة لله وحده، دون غيره من الأصنام والأوثان **﴿فإن انْتَهَوْا فلا عُدْوانَ إلاَّ على الظالمين﴾** فإن كفُّوا عن قتالكم، ودخلوا في ملتكم، فَدَعوا قتالهم، فإنه لا ينبغي أن يُعتدى إلا على الظالمين، المشركين بالله **﴿الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْر الحَرام﴾** شهرُ ذي القعدة، الذي صدَّكم فيه المشركون عن مكة، بالشهر الحرام الذي أديتم فيه مناسك العمرة، فهذا بذاك مقاصَّةٌ[1] **﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾** ودخولكم الحرم بالإحرام، في شهركم هذا الحرام، قصاصٌ مما مُنعتم من مثله عامكم الماضي **﴿فمنِ اعْتَدَى عليكُمْ فاعْتَدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكُمْ﴾** فمن قاتلكم من المشركين، فقاتلوه كما يقاتلكم **﴿واتَّقُوا الله﴾** في حُرُماته وحدوده، أن تعتدوا فيها **﴿واعْلَمُوا أنَّ الله مَعَ المتَّقِينَ﴾** الذين يتقونه بأداء فرائضه، واجتناب محارمه **﴿وأَنْفِقُوا في سبيلِ الله﴾** أنفقوا لإعزاز دينه، الذي شرعهُ لكم **﴿ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التَّهْلُكَةِ﴾** ولا تتركوا النفقة في سبيل الله، فتهلكوا باستحقاقكم العذاب **﴿وأَحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ المحسنين﴾** وأحسنوا في أداء الفرائض، وتجنب المحارم، وعون الضعفاء، فإني أحب المحسنين **﴿وأتِمّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله﴾** أتموا الحج بمناسكه وسننه، وأتموا العمرة بحدودها وسننها، كما أمركم الله ابتغاء وجهه **﴿فإنْ أُحْصِرْتُمْ فما استَيْسَرَ منَ الهَدْي﴾** فإن أحصركم[2] أي حبسكم ـ خوف عدوٍّ، أو مرض، عن الوصول إلى البيت، فعليكم أن تذبحوا شاة لإحلالكم **﴿ولا تَحْلِقوا رءُوسَكُمْ حتىَّ يَبْلُغَ الهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾** ولا تَحلُّوا من إحرامكم، بحلق رءوسكم، حتى تذبحوا الهدي، في الموضع الذي أُحصرتُم فيه، في حَرَم كان، أو في حِلّ، سُمّي هَدْياً لأنه بمنزلة الهديَّة يُهْديها الرجلُ إلى غيره **﴿فمنْ كَانَ منكم مَريضاً أَوْ بِهِ أَذًى من رَأْسِهِ﴾** فمن اضطر إلى حلق رأسه لمرضٍ، أو صُدَاعٍ، أو قمل وصِئْبانٍ[3] **﴿فَفِديةٌ مِنْ صِيَامٍ أو صَدَقَةٍ أو نُسُكٍ﴾**

---

(١) هذا ما فسَّره به الطبري، وقال غيره المعنى: الشهرُ الحرام يقابل بالشهر الحرام، وهتكُ حرمته تقابل بهتك حرمته، فلا تبالوا بقتالهم فيه إن قاتلوكم، ولعلَّ هذا المعنى أظهر!!

(٢) الإحصارُ: معناه الحبسُ والمنعُ، عن إتمام الحج أو العمرة، بسبب مرضٍ أو عدو.

(٣) روي عن كعب بن عجرة أنه قال حُملت إلى رسول الله ﷺ والقملُ يتناثر على وجهي، فقال لي رسول الله ﷺ ما كنتُ أرى أن

أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

* * *

فالواجب عليه جزاءٌ وفديةٌ، من صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، لكل مسكينٍ نصفُ صاع، أو ذبح شاة، يُخيَّرُ بين ذلك **﴿فإذَا أَمِنْتُمْ﴾** فإذا أمنتم من خوفكم، وبرأتم من مرضكم **﴿فمن تمتَّعَ بالعُمْرةِ إلى الحجّ﴾** فمن تمتع ممن حلَّ بسبب الإحصار من حجه **﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الهَدْيِ﴾** فعليه ما تيسَّر من الهدي، وأقلّه شاةٌ **﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثةِ أيَّامٍ في الحَجّ وسَبْعَةٍ إذَا رَجَعْتُمْ﴾** فإن لم يجد الهَدْيَ، فعليه صيام ثلاثة أيام في حجه، وسبعةٍ إذا رجع إلى أهله[١] **﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كاملةٌ﴾** تلك عشرة أيام، فرضنا عليكم إكمالها، إن لم تجدوا الهَدْيَ **﴿ذلكَ لمن لم يكنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي المسجِدِ الحرَام﴾** ذلك التمتع، لمن لم يكنْ من أهل الحرم، أو قريب المنزل من الحرم، مما لا تُقصر فيه الصلاة **﴿واتَّقوا الله﴾** بطاعته، واجتناب نواهيه **﴿واعْلَموا أنَّ الله شديدُ العِقابِ﴾** وتيقنوا أنه تعالى شديدُ عقابُه، لمن انتهك محارمه **﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ﴾** وقتُ الحج أشهرٌ معلوماتٌ هي: شوال، وذو القعدة، وعشرٌ من ذي الحجة **﴿فمن فَرَضَ فيهن الحَجَّ﴾** فمن أوجب الحج على نفسه فيهنَّ **﴿فلا رَفَثَ ولا فسوقَ ولا جدال في الحج﴾** فلا يفحش في كلامه، ولا يجامع أهله، ولا يعص ربه، ولا يجادلْ ويخاصم رفاقه[٢] **قال ابن عباس** الجدال أن تجادل صاحبك حتى تُغْضبه **﴿وَمَا تَفْعَلُوا من خَيْرٍ يَعْلَمْهُ الله﴾** ومهما تفعلوا من خيرٍ وعمل صالح، فإن الله يجازيكم عليه، لأنه مطّلعٌ على السرائر والضمائر **﴿وَتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ﴾** تزودوا من الأقوات في حجكم وسفركم، فليس البرُّ بترك التزود، ولكنَّ البر بتقوى الله وهو خير الزاد. نزلت في قوم كانوا يحجون بغير زاد[٣] **﴿واتَّقُونِ يا أُولي الألْبَاب﴾** خافون يا أهل العقول والأفهام. خصَّهم بالذكر لأنهم أهل الفكر الصحيح، والتمييز بين الحق

= الجهد قد بلغ منك ما أرى!! أتجد شاةً؟ فقلت: لا، قال صُمْ ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكينٍ نصفُ صاع من طعام، واحلق رأسك، فنزلت فيَّ خاصة، وهي لكم عامة. رواه الشيخان.

(١) قال بعضهم: آخر الثلاثة يوم عرفة، ورجح ابن جرير أنها آخر أيام منى.

(٢) رجح ابن جرير أن المراد بالجدال الجدالُ في الحج ووقته، وأنه قد استقام أمره ببيان الله تعالى، فلا تنازع في وقته ولا مراء، والراجح ما ذكرنا وهو قول ابن عباس، ذكره ابن جرير ضمن الآثار التي رواها، ثم رجَّح القول المرجوح وهو خلاف أقوال المفسرين

(٣) روي عن ابن عباس أنه قال: كان أهل اليمن يحجُّون ولا يتزودون. ويقولون: نحن المتوكلون فأنزل الله **﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾**

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَـٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ * وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ

* * *

والباطلَ، وغيرُهم أشباحٌ كالأنعام، وصورٌ كالبهائم ﴿لَيْس عليكُمْ جُناحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ ربِّكُمْ﴾ ليس عليكم أيها المؤمنون حرجٌ، أن تلتمسوا من رزق الله، بالتجارة في موسم الحج، قال مجاهد: كانوا يحُجون ولا يتجرون فنزلت الآية[1] ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ إذا كررتم راجعين من عرفات ﴿فَاذْكُروا الله عِندَ المَشْعَرِ الحَرام﴾ فادعوا الله، وصلُّوا عند المشعر الحرام، بمزدلفة ﴿واذكروه كما هَدَاكم﴾ اذكروا الله بالثناء عليه، والشكر له على أياديه، كما هداكم فاستنقذكم من النار ﴿وإنْ كُنْتُم من قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ وقد كنتم قبل ذلك في الشرك والحيرة، والعمى عن طريق الحق ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا من حيثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ ثم ادفعوا ـ يا معشر قريش ـ من حيث أفاض الناسُ من عرفات[2] ﴿واستغفروا الله إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ واستغفروا الله لذنوبكم، فإنه غفور لكم، رحيم بكم ﴿فإذا قضيتُمْ مناسككم﴾ فإذا فرغتم من حجكم، وذبحتم نسككم ﴿فاذكروا الله كذكركُمْ آباءَكُمْ﴾ اذكروا ربكم بالثناء، والشكر، والتكبير، كما يتضرع الولد لوالده، والصبيُّ لأمه وأبيه[3] ﴿أو أشدَّ ذكراً﴾ أو أشدَّ من ذلك، وارغبوا إليه فيما لديه، من خَيْرَيْ الدنيا والآخرة، ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ربَّنَا آتِنَا في الدُّنْيا﴾ فمن الناس فريقٌ لا يسألون ربهم إلا متاع الدنيا ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾ لا حظَّ لهم في ثواب الله، ولا نصيب لهم في جناته، لأن أعمالهم للدنيا وزينتها ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حَسَنَةً وفي الآخرة حَسَنة﴾ ومنهم فريق يسألون ربهم خيري الدنيا والآخرة، فالحسنةُ في الدنيا: العافيةُ في الجسم، والمعاشُ والرزق، والعلمُ والعبادةُ، والحسنةُ في الآخرة: الجنةُ ونعيمُها، لأن من لم ينلها حُرم جميع الحسنات ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ اصرف عنا عذاب النار ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مما كَسَبُوا﴾ هؤلاء لهم حَظٌّ وافرٌ من حجهم، ونسكهم، وثوابٌ جزيل على عملهم، دون الفريق

---

(١) انظر الطبري ٤ / ١٦٤

(٢) عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها، يقفون بالمزدلفة، وكانوا يقولون: نحن أهل الله وسكان حرمه، فلا نخرج منه ولا نفيض الا من الحرم ، فنزلت ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي انزلوا من عرفة حيث ينزل الحُجّاج ، لا من المزدلفة

(٣) كان الناس في الجاهلية بعد فراغهم من الحج، يجتمعون فيتفاخرون بمآثر آبائهم ،يقولون : أبي كان يطعم الطعام ،أبي كان يضرب بالسيف ، فأمرهم تعالى أن يكون ذكرهم بالثناء والشكر ، والتعظيم لربهم دون غيره .

مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

* * *

الآخر، الذين تكلفوا ما تكلفوا من أسفارهم، رجاء خسيس من عَرَض الدنيا، وابتغاء عاجل حُطامها ﴿والله سَرِيعُ الحِسَابِ﴾ مجازٍ عباده على أعمالهم بأسرع وقت ﴿واذكروا الله في أيامٍ معـدوداتٍ﴾ اذكروا الله في أيام مِنى ﴿فمن تَعَجَّـلَ في يَوْمَين فلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فمن تعجَّل فنفر في اليوم الثاني، فلا إثم عليه، لتكفير الله له ما سلف من آثامه ﴿وَمَنْ تَأَخَّر فَلَا إِثْمَ عليهِ﴾ ومن تأخر إلى اليومَ الثالث منهن، فلا إثم عليه، قد غفرت ذنوبه ﴿لِمَنِ اتَّقى﴾ إن كان قد اتقى الله في حجه ﴿واتَّقُـوا الله﴾ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إليهِ تُحْشَرونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعجِبُكَ قَوْلُهُ في الْحياةِ الدُّنْيَا﴾ ومن الناس فريقٌ، يعجبك ظاهر قوله وعلانيته ﴿وَيُشْهِدُ الله عَلى مَا في قَلْبِهِ﴾ ويستشهد الله على ما في قلبه، بأنه محقٌّ في قولِه، وأنَّ قوله موافقٌ لاعتقاده ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَـامِ﴾ وهو شديد الخصومة، يجادل بالباطل والزور. وهذه صفةُ المنافقين الذين يُظهرون غير ما يُبطنون ﴿وإذا تولَّى﴾ وإذا أدبر هذا المنافق، منصرفاً عنك ﴿سَعَى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها﴾ عمل في الأرض بما حرَّم الله، من قطعِ الطريق، وإفساد السبيل، ليخيف عباد الله ﴿وَيُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْـلَ﴾ ويهلك الزرع، وقتل ما لا يحِلّ من الحيوانِ، والدواب[1] ﴿والله لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ لا يحب المعاصي، وقطعِ الطريق، وإخافة السبيل ﴿وإذا قيلَ له اتَّقِ الله﴾ وإذا قيل لهذا المنافق: خفْ الله في إفسادك في الأرض ﴿أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإِثْم﴾ استكبر، ودخلته العِزَّةُ والحميَّةُ، وتمادى في غيِّه وضلاله ﴿فحسبُهُ جَهَنَّمُ﴾ كفاه عقوبةً على غيِّه، الاصطلاءُ بنار جهنم ﴿وَلَبِئْسَ المِهَـادُ﴾ ولبئس الفِراشُ والوطاءُ جهنم ولما ذكر أوصاف المنافقين الأشقياء، ذكر بعدها أوصاف المؤمنين السعداء فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْري نَفْسَهُ﴾ ومن الناس من يبيع نفسه ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله﴾ طلب مرضاة الله، وابتغاء ثوابه ﴿والله رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ذو رحمةٍ واسعة بعباده

(١) قال السُّدي نزلت في «الأخنس بن شريق» جاء إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أني صادق، ثم خرج من عند النبي فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر، فأحرق الزرع، وعقر الحمر، ففيه نزلت الآية.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ

* * *

المؤمنين[1] ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ادخلوا في السِّلْمِ كافةً﴾ ادخلوا في الإسلام عامةً جميعاً، واعملوا بشرائعه كلها ﴿ولا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تتبعوا طرائقَ الشيطان وآثاره ﴿إنه لكم عـدوٌ مبينٌ﴾ إنه ظاهر العداوة لكم ﴿فإنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ البَيِّنَـاتُ﴾ فإن خالفتم شرائع الإسلام، بعد أن اتضحت لكم الحجج والبينات، على صحة أمر الإسلام ﴿فَاعْلَمُوا أنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فاعلموا أن الله غالبٌ، لا يدفعه عن عقوبتكم دافع، ولا يمنعه مانع، حكيمٌ فيما يفعل بكم ﴿هل يَنْظُرونَ إلاَّ أنْ يَأْتِيَهُمُ الله في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ والملائكـةُ﴾ هل ينظر المكذبون لمحمد، إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام، وتأتيهم الملائكة، للفصل بين العباد، والقضاء في أمرهم؟! ﴿وَقُضِيَ الأمْرُ﴾ فُصِل القضاءُ بالعدل بين الخلق ﴿وإلى الله تُرْجَعُ الأُمُـورُ﴾ وإلى الله يئول القضاء والحكم، بين الخلق يوم القيامة، فيفصل بين المتظالمين، ويجازي كلًّا بما يستحق، لأنه يستوي الضعيفُ والقويُّ، والفقيرُ والغنيُّ، ويضمحل الظلم، وينزل سلطان العدل ﴿سَلْ بني إسْـرَائيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ سل يا محمد بني إسرائيل: كم جاءتهم من علامةٍ بينة، وحجة واضحة، على صدق رسلي؟ فكفروا وكذَّبوا ﴿ومَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ الله مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ ومن يغيِّرْ نعمة الله- وهي الإسلام- فيكفر بها ﴿فإنَّ الله شَـدِيدُ الْعِقَاب﴾ شديدُ عقابُه، أليمٌ عذابُه ﴿زُيِّنَ للذينَ كفروا الحياةُ الدنيا﴾ زُيِّن للكافرين حبُّ الحياة العاجلة، يبتغون فيها المفاخرة والمكاثرة ﴿ويَسْخَرونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويهزأون من أهل الإيمان، لرفضهم الدنيا وتركهم زينتها[2] ﴿والَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ والذين اتقوا ربهم- بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه- فوق هؤلاء الكافرين في الجنة، يوم القيامة ﴿والله يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بغير حسـاب﴾ يعطي المتقين من كراماته، وجزيل عطاياه، بغير حساب، لأنه لا يخاف نفاد خزائنه ﴿كَانَ

---

(١) نزلت الآية في «صُهَيب الرومي» لما أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة، منعه قومه وحبسوه، فقال لهم: أعطيكم داري ومالي، وما كان لي من شيء، وخلوا عني حتى ألحق بمحمد، فرضوا وأعطاهم داره وماله، ثم خرج مهاجراً إلى الله ورسوله، فنزلت الآية، فلما دنا من المدينة، تلقاه رجال من الصحابة فيهم عمر، فقالوا له: ربح البيع، قال: وما ذاك؟ فأخبروه بما نزل فيه.

(٢) قال عكرمة: قال المشركون لو كان محمد نبيًّا كما يقول ـ لاتَّبعه أشرافنا وسادتنا، والله ما اتَّبعه إلا الفقراء، أصحاب الحاجة فنزلت الآية؟.

ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ

* * *

﴿النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كان الناس أمة واحدة، مجتمعةً على دين واحدٍ، فاختلفوا[1] ﴿فَبَعَثَ الله النبيّين مُبَشّرِينَ ومُنْذِرِينَ﴾ فبعث الله فيهم الرسل والأنبياء، يبشرون من أطاع الله بجزيل الثواب، وكريم المآب، وينذرون من عصى الله بشديد العقاب، وسوء الحساب ﴿وأنزلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بالحَقِّ لِيَحْكُمَ بيْنَ النَّاس فيما اختلفوا فيه﴾ وأنزل معهم التوراة[2]، ليحكم بين بني إسرائيل، فيما اختلفوا فيه من أمر الدين ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فيه إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوه مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ لم يكن اختلاف اليهود في التوراة عن جهل منهم، بل كان عن تعمد وعلم، من بعد ما ثبتت حجته عليهم ﴿بَغْياً بينهم﴾ طلباً للرياسة ﴿فَهَدَى الله الَّذِينَ آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقِّ﴾ فوفَّق الله أهل الإيمان، لدين إبراهيم الحنيف خليل الرحمن ﴿بإذنه﴾ بتوفيقه وعلمه ﴿والله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مستقيم﴾ والله يرشد إلى الطريق القويم، من شاء من خلقه، ويسدّدهم لإصابة الحق والصواب ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ هل ظننتم يا معشر المؤمنين أن تدخلوا الجنة ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ولم يُصبكم ما أصاب مَنْ قبلكم، من الشدائد والمِحَن، وأنواع الاختبار ﴿مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ﴾ أصابتهم الحاجة والفاقة، والعِلَل والأوصاب ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والذينَ مَعَهُ متى نَصْرُ الله﴾ وزُلزلتْ نفوسُهم من الخوف والرعب، وشدة الجهد، واستبطأ القوم نصر الله حتى قال الرسول والمؤمنون: متى الله ناصرنا؟ ﴿ألاَ إنَّ نَصْر الله قَرِيبٌ﴾ نصرُه من المؤمنين قريب. نزلت يوم الخندق، حين لقي المؤمنون ما لقوا، من شدة الجهد، وشدة أذى البرد، وضيق العيش، الذي كانوا فيه يومئذٍ كما قال تعالى «هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً»

﴿يَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾[3] يسألونك يا محمد: أيَّ شيءٍ يُنفقون من أموالهم؟ وعلى من ينفقونه ويتصدقون به؟ ﴿قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ من خَيْرٍ﴾ قل لهم: ما أنفقتم من أموالكم،

---

(١) قال قتادة كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين

(٢) الظاهر أن «أل» في الكتاب للجنس، أي أنزل مع الأنبياء الكتب السماوية ومنها التوراة، لا أن المراد التوراة فقط كما ذهب إليه ابن جرير، فإن اللفظ على العموم ﴿فبعث الله النبيين . وأنزل معهم﴾

(٣) قال الطبري: وهذه الآية نزلت قبل أن يفرض الله زكاة الأموال

ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ

* * *

وتصدقتم به **﴿فللوالدين والأقربين﴾** فاجعلوه لآبائكم، وأمهاتكم، وأقاربكم **﴿وَالْيَتَامَىٰ والْمَسَاكين وابْن السَّبيلِ﴾** ولليتامى الذين مات آباؤهم، والمحتاجين، وللمسافر المنقطع في سفره **﴿وما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾** وما تصنعوا من خير وإحسان **﴿فإنَّ الله بِهِ عَلِيمٌ﴾** محصيه لكم، ومثيبكم عليه يوم القيامة

﴿كُتِبَ عليكُمْ القِتالُ﴾ فُرض عليكم قتالُ المشركين **﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾** وهو مكروهٌ لكم، تكرهه نفوسكم لما فيه من المشقة والجهد، ثم حضّهم تعالى على جهاد الأعداء، ورغّبهم في قتال الكفار فقال **﴿وَعَسَى أَنْ تكرهوا شَيْئاً وهو خيرٌ لكم﴾** ولا تكرهوا القتال، فإنكم لعلكم أن تكرهوه وهو خيرٌ لكم **﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾** ولا تحبوا ترك الجهاد، فلعلكم أن تحبوه وهو شرٌّ لكم **﴿والله يَعْلَمُ وأنتم لا تَعْلمونَ﴾** والله يعلم ما هو خيرٌ لكم مما هو شرٌّ، وأنتم لا تعلمون ذلك **﴿يَسْأَلُونكَ عن الشَّهْرِ الحَرامِ قِتَالٍ فيه﴾** يسألونك عن القتال في الشهر الحرام- شهر رجب- **﴿قُلْ قتالٌ فيه كبيرٌ﴾** قل لهم: القتالُ فيه كبير، وسفك الدماء في الشهر الحرام، عظيمٌ عند الله[1] **﴿وصدٌّ عن سَبيلِ الله وكفرٌ بهِ﴾** ومنعُ الناس عن الدخول في الإسلام، وكفرٌ بالله **﴿ والمَسْجِدِ الحَرامِ ﴾** وصدُّ المؤمنين عن المسجد الحرام **﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ الله﴾** وإخراج أهل المسجد الحرام- وهم أهلُه وولاتُه- أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام **﴿والْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾** الشركُ بالله أعظمُ وأكبرُ من القتل. يقول: ما صنعتم يا معشر المشركين، أكثر من القتل في الشهر الحرام، حين كفرتم بالله، وصددتم عن المسجد الحرام محمداً وأصحابه، وأخرجتموهم من ديارهم، وفتنتم المسلمين عن دينهم، فذلك أكبرُ عند الله من القتل **﴿ولا يَزَالُونَ يُقَاتِلونكُمْ حَتىَّ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينكُمْ إن اسْتَطَاعُوا﴾** ولا يزال كفّار قريش يقاتلونكم، ويفتنون المسلمين عن دينهم، حتى يردوهم إلى الكفر، إن قدروا على ذلك **﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ منكُمْ عنْ دِينِهِ﴾** ومن يرجع منكم عن دينه **﴿فَيَمُتْ وهو كافرٌ﴾** فيمت على

---

(١) روي أن النبي ﷺ بعث سرية وأمّر عليهم «عبد الله بن جحش» فمرت بهم عيرٌ لقريش تحمل زبيباً وأدما، فيها «عمرو بن الحضرمي» فقتله المسلمون، وكان ذلك في أول يوم من رجب، فقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، فنزلت الآية

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ

* * *

الكفر ﴿فأولئكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ في الدنيا والآخِرة﴾ فأولئك بطلت أعمالهم، وذهب ثوابها ﴿وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدونَ﴾ وهم مخلدون في جهنم، لا يخرجون منها أبداً ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ صدَّقوا بالله وبرسوله ﴿والذين هاجروا﴾ هجروا مساكنة المشركين، ومجاورتهم في ديارهم ﴿وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ الله﴾ قاتلوا وحاربوا الأعداء، نصرةً لدين الله ﴿أولئكَ يَرْجُونَ رحمةَ الله﴾ يطمعون بدخول جنته، بفضل رحمته ﴿والله غفورٌ رحيم﴾ ساترٌ لذنوب العباد، متفضلٌ عليهم بالرحمة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عن الخَمر والمَيْسر﴾ يسألك أصحابك يا محمد عن الخمر وشربها، وعن القمار ﴿قُلْ فيهما إِثْمٌ كبيرٌ﴾ قل لهم: فيهما إثم كبير، بزوال عقل شارب الخمر، وذلك أعظم الآثام، وبما في الميسر من الشغل به عن ذكر الله، وعن الصلاة، ووقوع العداوة والبغضاء بين المتقامرين بسببه ﴿ومَنافعُ للنَّاس﴾ أما منافع الخمر فأثمانها قبل تحريمها، وما يجدون بشربها من اللذة[1]، كما قال حسان:

وَنَشْـرَبُهَـا فَتَتْـرُكُـنَـا مُلُوكـاً وأُسْـداً لا يُنَهْنِهُـنَـا اللِّقَـاءُ

وأما منافع الميسر، فما يصيبون من أنصباء الجزور ﴿وإِثْمُهما أكبرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ إثمُ الخمر والقمار، أعظم وأكبر مضرة من النفع المذكور، وذلك لأنهم كانوا إذا سكروا، وثبَ بعضهم على بعض، وقاتل بعضهم بعضاً، وإذا قامروا وقع بينهم الشر. وهذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر ﴿ويَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ ويسألونك أي شيءٍ ينفقون من أموالهم فيتصدقون به؟ ﴿قُلِ العَفْوَ﴾ قل لهم: أنفقوا منها العفو، وهو ما فضل عن حاجتكم ونفقة أهلكم ﴿كذلك يبيِّنُ الله لكم الآياتِ﴾ كما بَيَّنْتُ لكم الأدلة على وحدانيتي، أُبيِّنُ لكم حدودي وفرائضي، وسائر ما أنزلته على نبيِّي محمد ﷺ ﴿لعلكم تتفكرونَ. في الدنيا والآخرة﴾ لتتفكروا في وعدي ووعيدي، وثوابي وعقابي، وتختاروا الباقية على الفانية، قال ابن جريج: لتعلموا أن الدنيا دار بلاء ثم فناء، والآخرة دار جزاء ثم بقاء، فتعملوا للباقية منها.

﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ﴾ ويسألونك يا محمد عن مال اليتامى، ومخالطتهم[2] في

---

(١) نبَّه الإمام ابن جرير إلى أن ما ذُكر في الآية من منافع الخمر، إنما هي «منافعُ ماديَّةٌ» لأنهم كانوا يتجارون بالخمور، فيربحون من ورائها الربح الفاحِش، ويتخيَّل السكران أنه صار بطلاً، كما قال القائل لا يَلَذُّ السُّكْرُ حَتَّى يأكلَ السَّكرانُ نَعْلَه

(٢) لما نزلت ﴿ولا تقربوا مال اليتيم ..﴾ اعتزل الناس اليتامى، فلم يخالطوهم في مأكل ولا مشرب، ثم نزلت الرخصة ﴿وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين ..﴾ الآية، فكان ذلك تيسيراً من الله تعالى على عباده

ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ

* * *

أموالهم، فقل لهم: تفضُلكم عليهم بإصلاح أموالهم خيرٌ لكم عند الله، وأعظم أجراً ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ وإن خلطتم طعامكم بطعامهم، وشرابكم بشرابهم، وأموالكم بأموالهم، فهم إخوانكم في الدين، والإخوانُ يُعينُ بعضُهم بعضاً، فعليكم النظر لأموالهم، نظرَ الأخِ الشفيقِ لأخيه ﴿والله يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾ يعلم من خالط منكم يتيمه، ماذا يقصد بمخالطته إياه، أفسادَ ماله وأكلَه بالباطل؟ أم إصلاحه وتثميره؟ ﴿ولو شَاءَ الله لأَعْنَتَكُمْ﴾ لشقَّ عليكم وضيَّق عليكم، ولكنَّه وسَّع ويسَّر، رحمةً ورأفةً بكم ﴿إنَّ الله عَزيزٌ حكيمٌ﴾ عزيزٌ في سلطانه، حكيمٌ في تدبيره.

﴿وَلَا تَنْكِحُوا المُشْرِكَاتِ حتَّى يُؤْمِنَّ﴾ ولا تنكحوا ـ أيها المؤمنون ـ المشركات الوثنيات، اللاتي ليس لهن كتابٌ، حتى يصدِّقن بالله ورسوله، وما أنزل عليه[1] ﴿وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ولو أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ولأنْ تنكحوا أَمَةً مؤمنةً بالله ورسوله، خيرٌ عند الله وأفضلُ، من حرة مشركة كافرة، وإن أعجبتكم المشركة في الجمال، والحسب، والمال ﴿وَلَا تُنْكِحُوا المُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ ولا تزوجوا ـ أيها المؤمنون ـ مسلمةً لمشرك، كائناً من كان، حتى يؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ولو أَعْجَبَكُمْ﴾ ولأن تُزَوجوهنَّ من عبدٍ مؤمنٍ، مصدِّق بالله وبرسوله، خيرٌ لكم من أن تُزَوجوهنَّ من حرٍّ مشرك، وإن أعجبكم حَسَبُه ونسبُه ﴿أولئك يَدعون إلى النَّار﴾ هؤلاء الذين حرمتُ عليكم مناكحتهم، من المشركين والمشركات، يدعونكم إلى العمل بما يدخلكم النار ﴿والله يَدْعُوا إلى الجنَّةِ والمغفرةِ بإذنه﴾ والله يدعوكم إلى العمل بما يدخلكم الجنة، وإلى ما يمحو به خطاياكم، بتوفيقه وتيسيره ﴿وَيُبَيِّنُ آياتِهِ للنَّاس﴾ ويوضِّح أدلته وحججه في كتابه لعباده ﴿لعلَّهم يتذكَّرونَ﴾ ليتذكَّروا فيعتبروا، ويميِّزوا بين ما يدعو إلى النار، وما يدعو إلى الجنة والغُفْران.

﴿ويسألونك عن المحيض﴾ ويسألك أصحابك عن الحيض[2] ﴿قُلْ هو أَذًى﴾ قل لهم: إنه يؤذي لنتن

---

(١) قال الطبري: لا يدخل في الآية نساء أهل الكتاب، لأن الله تعالى أحل نكاحهن بقوله ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ وإنما كره عمر لطلحة وحذيفة نكاح اليهودية والنصرانية، حذاراً من أن يقتدي الناس بهما في ذلك، فيزهدوا في المسلمات.

(٢) إنما سألوا رسول الله ﷺ عن الحيض، لأنهم كانوا في الجاهلية إذا حاضت المرأة، لم يساكنوها، ولم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، فبين تعالى لهم أن عليهم في أيام الحيض، أن يجتنبوا جماعهنَّ فقط، دون المضاجعة والمؤاكلة والمشاربة

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

* * *

ريحه، وقَذَره، ونجاسته ﴿فاعتَزلوا النِّساءَ في المحيض﴾ اجتنبوا جماعهنَّ في أيام حيضهنَّ ﴿ولا تقربوهنَّ حتّى يَطْهرنَ﴾ ولا تجامعوهنَّ حتى يطهرن من حيضهنَّ، ويغتسلن ﴿فإذا تَطَهَّرْنَ﴾ فإذا اغتسلن فتطهَّرنَ بالماء ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أمركُمُ الله﴾ فأتوهنَّ في فروجهن، من الوجه الذي أذن الله لكم بإتيانهنَّ، وذلك حال طهرهنَّ لا في حيضهنَّ ﴿إنَّ الله يحبُّ التوابينَ ويُحب المتطهريـنَ﴾ يحبُّ المنيبين إلى طاعته، والمتطهرين من الجنابة والأحداث ﴿نِساؤُكُم حَـرْثٌ لكُمْ﴾ نساؤكم مزدرع- أي مزرعة- أولادكم ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أنَّى شِئتُـمْ﴾ فجامعوا النساء كيف شئتم، ومن حيث شئتم، من وجوه المأتى، بعد أن يكون في الفرج، قال ابن عباس: «ائتْها أنَّى شئتَ، مُقْبلةً، ومُدْبرةً، ما لم تأتها في الدُّبُر، والمحيض»[1]. والآية نصٌ على حرمة إتيان النساء في الأدبار، لأن الدبر لا يصلح للحرث، فأي محترث فيه[2]؟ ﴿وقَدِّموا لأنفسكـم﴾ صالح الأعمال ليوم المعاد ﴿واتّقُـوا الله﴾ في حدودِه أن تضيّعوها، وفي معاصيه أن تقربوها ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ في معادكم، فمجازيكم بأعمالكم ﴿وبَشِرِ المؤمنين﴾ بالفوز يوم القيامة، وبالخلود في الجنة.

﴿ولا تجعلوا الله عُرْضةً لأَيْمانِكم﴾ لا تجعلوا الحلف بالله، حجةً لكم في ترك فعل الخير ﴿أَنْ تَبرُّوا وتَتَّقُوا وتُصْلِحُوا بينَ النّـاسِ﴾ أن تَبرُّوا بفعل الخير، وتتقوا ربكم، وتصلحوا بين الناس بالمعروف، وذلك إذا سُئل أحدكم الشيء من الخير قال: قد حلفتُ بالله ألاّ أفعله، فيعتلّ في تركه فعل الخير، والإصلاح بين الناس، بالحلف بالله ﴿والله سَميعٌ عليـمٌ﴾ سميعٌ لأقوال العباد، عليمٌ بما يقصدون ويبتغون، وهذا من الله تهدُّدٌ ووعيد ﴿لا يُؤاخِذُكُمُ الله باللَّغْوِ في أَيْمانِكُمْ﴾ لا يؤاخذكم الله بما سبق على ألسنتكم من الأيمان، إذا لم تقصدوا الحلف واليمين، كقول الرجل: لا والله، وبلى والله[3] ﴿وَلَكِنْ يُؤاخِذُكُم بما كَسبتْ قلوبكُـمْ﴾ ولكنْ يؤاخذكم بما قصدتم وعزمتم عليه من الأيمان، كالحلف على الإثم والكذب ﴿والله غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ والله واسع المغفرة، حليمٌ لا يعاجل عباده بالعقوبة.

---

(١) عن جابر أن اليهود كانوا يقولون: إذا جامع الرجل أهله في فرجها من ورائها، جاء الولد أحول فأنزل الله ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾ أقول: المراد بقوله ﴿أنى شئتم﴾ كيف شئتم ومن أي وجه أحببتم، بعد أن يكون في موضع النسل والذرية، وموضع الزرع إنما هو القبل لا الدبر.

(٢) رحم الله الإمام ابن جرير، فقد كان صريحاً واضحاً في تفسيره لقوله تعالى ﴿أنّى شئتم﴾!! أي كيف شئتم، قائمة أو قاعدة أو مضطجعة، لكنْ لا بدَّ أن يكون في الفرج فهو مكان الزرع لا غير، خلافاً لما يفهمه بعض الجهلاء أن المعنى من أين شئتم

(٣) هذا قول عائشة وابن عباس، وقال مجاهد والحسن: هو أن يحلف على الشيء يعتقد أنه كما حلف عليه فلا يكون كذلك، كقوله: «والله إن هذا البيت لفلان» وليس له، «وإن هذا الثوب لفلان» وليس له، فليس فيه كفارة.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا

* * *

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ للذين يحلفون على اعتزال نسائهم ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ انتظار أربعة أشهر ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ فإن رجعوا عن ترك ما حلفوا عليه، من ترك جماعهنَّ ﴿فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ يغفر ما سلف منهم من اليمين، رحيمٌ بعباده المؤمنين ﴿وإنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ﴾ وإن صمَّموا على ترك معاشرتهن، فطلَّقوهُنَّ[1] ﴿فإنَّ الله سميعٌ عليمٌ﴾ سميعٌ لطلاقهم إياهنَّ، عليمٌ بما أتوا إليهنَّ ﴿والمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بأنفسهنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ النساء اللواتي طُلِّقن- إذا كنَّ من ذوات الحيض- عليهنَّ الانتظار عن نكاح الأزواج ثلاثة أطهار، فإذا انقضين فقد انقضت عدتهن ﴿ولا يَحِل لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ ما خَلَقَ الله في أَرْحَامِهِنَّ﴾ ولا يحلُّ للمطلقات أن يُخْفين ما في أرحامهنَّ، من الحيض والحَبَل، بقصد إبطال حقوق أزواجهنَّ، من الرجعة عليهنَّ ﴿إنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بالله واليوم الآخر﴾ إن كنَّ مسلماتٍ حقاً، يُصَدِّقن بالله واليوم الآخر، فإن كتمان ما في رحمها من الحيض والولد، ليس من فعل من يؤمن بالله واليوم الآخر، وإنما هو من فعل النساء الكوافر ﴿وبُعُولَتُهُنَّ أحقُّ بردهنَّ في ذلـكَ﴾ وأزواج المطلقات، أحقُّ وأولى بردهنَّ إلى أنفسهم، حال العِدَّة وأيام الحَبَـل ﴿إنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً﴾ إن كان الزوج يريد بالرجعة إصلاح أمرها وأمره ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذي عَلَيْهِنَّ بالْمَعروفِ﴾ ولهنَّ من حسن الصحبة والعُشرة بالمعروف، مثلُ ما عليهن من الطاعة لأزواجهن، قال ابن عباس: إني أحب أن أتزين لامرأتي، كما أحبُّ أن تتزين لي، لأن الله تعالى يقول: ﴿ولهنَّ مثلُ الذي عليهنَّ بالمعروف﴾[2] ﴿وَلِلرِّجال عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وللرجال على النساء منزلةٌ ورتبةٌ، بالإمرة والطاعة ﴿والله عزيزٌ حكيـمٌ﴾ عزيز في انتقامه ممن تعدَّى حدوده، حكيم فيما قضى من أحكامه ﴿الطَّلاقُ مَرَّتـانِ﴾ الطَّلاقُ الذي فيه الرجعةُ مرتان ﴿فإمْسَاكٌ بمَعْروفٍ أو تَسْريحٌ بإحْسَانٍ﴾ فإمَّا أن يمسكها بالمعروف، فيحسن صحبتها، أو يفارقها ويُسرحها، ولا يظلمها من حقها شيئاً ﴿ولا يَحلّ لكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتيتموهُنَّ شَيْئاً﴾ ولا يحل لكم-

---

(١) الإيلاء: أن يحلف الرجل على ترك وطء زوجته أكثر من أربعة أشهر، وقد اختلف العلماء في المدة التي تبين فيها المرأة من زوجها، فقال ابن عباس: إذا مضت أربعة أشهر قبل أن يفيء بانت بطلقة، وهذا مذهب أبي حنيفة، وقال الشافعي وأحمد: لا تطلق بمضي المدة وإنما يؤمر الرجل بالرجوع عن يمينه أو بالطلاق، فاذا امتنع طلقها الحاكم عليه، وهذا قول عمر وعلي، وهو اختيار الطبري. انظر تفصيل الموضوع في تفسيرنا آيات الأحكام ٣١٢/١.

(٢) في الآية إيجاز وإبداع فقد حذف من الأول بقرينة الثاني وفي الثاني بقرينة الأول والمعنى لهنَّ على الرجال من الحقوق، مثل الذي للرجال عليهن من الحقوق، فأوجز ذلك بهذه العبارة الرائعة، والدرجة التي للرجال على النساء، هي القوامة والمسئولية، فهي إذاً درجة تكليف لا تشريف، كقوله تعالى ﴿الرجال قوامون على النساء﴾

يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

* * *

أيها الرجال ـ أن تأخذوا شيئاً مما أعطيتموهنَّ من الصَّداق ـ المهر ـ ﴿إلاَّ أنْ يَخَافَا ألاَّ يُقِيما حُدُودَ الله﴾ إلاّ أن يخاف الزوجان في تفريط كل واحد منهما في حقِّ صاحبه، بإساءة الصحبةِ والعِشرة ﴿فإن خفتم ألاَّ يُقيما حـدودَ الله﴾ فإن خفتم ألا يقيما ما أوجب الله عليهما، من العِشرة بالمعروف، والصُّحبةِ بالجميل ﴿فلا جُنَاحَ عليهما فيما افْتَدَتْ بِـهِ﴾ فلا حرج أن تفتدي نَفسها من زوجها، ولا حرج أن يأخذ العِوَض منها على فراقها ﴿تِلْكَ حدودُ الله فلا تعتـدوها﴾ هذه معالم الدين، مما أمر به ونهى عنه، فلا تتجاوزها ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ﴾ من تخطَّى وتجاوز حدود الله، إلى ما حرَّم عليه ونهاه، فإنه هو الظالم الذي وضع الشيء في غير موضعه ﴿فَإِنْ طلَّقها فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حتىَّ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ فإن طلَّقها ـ التطليقة الثالثة ـ فلا رجعة له عليها، حتى تتزوج غيره ويدخل بها[1]، لقوله ﷺ لامرأة رفاعة: «أتريدينَ أن تَرْجعي إلى رفاعة؟! لا، حتى تذوقي عُسَيْلته، ويذوقَ عُسَيْلَتكِ» ﴿فإنْ طَلَّقها﴾ فإن طلقها زوجها الثاني ﴿فلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يتراجعا﴾ فلا حرج على الأول أن يتزوجها ـ إذا طلَّقها الآخر أو مات عنها ـ بنكاح جديدٍ ﴿إنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما حُدُودَ الله﴾ إن طمعا ورَجَوْا أن ينفِّذا أوامر الله، من حسن المعاشرة بالمعروف، والصحبة بالجميل ﴿وتلكَ حـدودُ الله﴾ وهذه أحكامُ الله وأوامرُه ﴿يُبيِّنها لِقوم يَعْلَمونَ﴾ يفصّلها لقوم يعرفون حكمة الله، ويصدِّقون بآياته ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم نساءكم، فبلغن ميقاتهنَّ، الذي وقَّته الله لهنَّ، من انقضاء الأقراء أو الأشهر ﴿فأَمْسِكوهُنَّ بمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بمعـروفٍ﴾ فراجعوهنَّ بما أذن الله لكم، من الرجعة، والصحبة، والعشرة بالمعروف، أو خلُّوهن يقضين عدتهن، مع إيفائهن حقوقهن من المهر، والمتعة، والنفقة ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾ ولا تراجعوهن مضارَّةً لهنَّ، لتطوِّلوا عليهنَّ العدة، أو لتأخذوا منهن بعض ما آتيتموهنّ، فتظلموهن بمجاوزتكم حدودي. قال ابن عباس: كان الرجل يُطلِّق امرأته، ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها، ثم يطلقها، يفعل ذلك يضارُّها ويعضلها فنزلت الآية ﴿ومَنْ يَفْعَلْ

---

(١) لا بدَّ بعد الطلاق الثالث أن تنكح المطلقة زوجاً آخر، نكاحاً صحيحاً، ثم يجامعها فيه ثم يطلقها حتى تحلَّ لزوجها الأول، فمن تزوجها بقصد الإحلال كان زواجه «صورياً» غير صحيح، ولا تحل به المرأة للأول. وانظر ما كتبناه مفصلاً في كتابنا «تفسير آيات الأحكام» ج ٣٤٠/١.

فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ * وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا

* * *

ذلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ومن يراجعها ضِرَاراً لها، فقد أكسب نفسه الإثم والعقوبة ﴿ولا تَتَّخِذُوا آياتِ الله هُزُواً﴾ ولا تتخذوا وحيه وتنزيله، استهزاءً ولعباً ﴿واذْكُروا نِعْمَةَ الله عليكم﴾ اذكروا نعمة الله عليكم بالإسلام ﴿وما أَنْزَلَ عليكم مِنَ الكتابِ والحكمةِ﴾ واذكروا ما أنزل عليكم من القرآن، والسنن التي سنَّها لكم الرسول ﷺ ﴿يَعِظُكمْ بهِ﴾ يعظكم بالقرآن، الذي أنزله عليكم ﴿واتقوا الله﴾ خافوا الله، بامتثالكم أوامره، واجتنابكم نواهيه ﴿واعْلَموا أَنَّ الله بكُلِّ شيءٍ عَليمٌ﴾ عالم بكل أعمالكم، من خيرٍ وشر، وسرٍّ وجهر، وهو يجازيكم بالإحسان إحساناً، وبالسيء سيئاً ﴿وَإذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وإذا طلقتم النساءَ، وانقضت عدتهنَّ ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجهنَّ﴾ فلا تمنعوهن أن يرجعن إلى أزواجهن ﴿إذا تَراضَوْا بينهم بالمعروف﴾ إذا تراضى الأزواج والنساء، وأرادت المرأة أن ترجع إلى زوجها بنكاح جديد[1] ﴿ذلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ منكُمْ يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخِر﴾ هذا الذي نهيتكم عنه موعظةٌ، لمن كان منكم يُصدِّق بالله، ويُقرُّ بربوبيته، وبالبعث والجزاء ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لكم﴾ مراجعة أزواجهن لهنَّ بنكاح ومهرٍ جديد، أفضل وخيرٌ عند الله ﴿وَأَطْهَرُ﴾ وأطهر لقلوبكم وقلوبهنَّ من الريبة، فإنه إذا كان بينهما علاقة حبٍ، لم يُؤمن أن يتجاوزا ذلك إلى غير ما أحلَّه الله ﴿والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون﴾ يعلم من السرائر وخفيات الأمور، ما لا يعلمه بعضكم من بعض. نهى تعالى الأولياء عن عَضْل النساء، لما علم مما في قلب الخاطب والمخطوبة من غلبة الهوَى، وميل كل منهما إلى صاحبه ﴿والْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلينْ﴾ النساء اللواتي طُلِّقن من أزواجهن ولهنَّ أولاد، يرضعن أولادهن سنتين كاملتين، ومعنى «يرضعن» أنهن أحقُّ برضاعهم من غيرهنَّ[2] ﴿لمن أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ لمن أراد من الآباء والأمهات، أن يُتمَّ رضاع ولده

---

(١) أخرج البخاري عن معقل بن يسار أنه زوَّج أخته رجلاً من المسلمين، فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت العدة، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب فقال له: يا لُكَع- أي يا لئيم- أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها! والله لا ترجع إليك أبداً، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل ﴿فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن . .﴾ الآية فلما سمعها معقل قال: سمعاً لربي وطاعة، ثم دعاه فقال: أزوجك وأكرمك».

(٢) ليس ذلك بإيجاب رضاعهم عليهن إذا كان الوالد موسراً، لقوله تعالى ﴿وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ وإنما هو لبيان المدة التي تستحق عليها-

لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٣٤﴾

* * *

﴿وَعَلَى المَوْلُود لَهُ رِزْقُهنَّ وكِسْوتهُنَّ بالمَعْرُوفِ﴾ وعلى آباء الصبيان، رزقُ المرضعات وكسوتهن، على قدر الميسرة «لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ من سَعَته» ﴿لا تُكَلَّفُ نفسٌ إلاّ وُسْعَهَا﴾ لا تُحمَّل نفسٌ شيئاً يَضيق عليها ويُجْهدها ﴿لا تُضَارَّ وَالدَةٌ بوَلَدِهَا﴾ ليس للوالد أن يضارَّها، فينتزع الولد منها إذا رضيت بإرضاعه[1] ﴿وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بوَلَدِهِ﴾ وليس لها أن تضارَّ الأب، فتقذف الولد إلى أبيه ضراراً. نهى تعالى كل واحد من أبويْ المولود بمضارة صاحبه، فإن ذلك حرامٌ عليهما﴿وَعَلى الْوارِثِ مِثْلُ ذلِكَ﴾ وعلى وارث الصبي إذا كان أبوه ميتاً، مثلُ الذي كان على أبيه في حياته من أجر رضاعه ونفقته، إذا لم يكن للمولود مالٌ ﴿فإنْ أَرَادا فِصَالاً عَنْ تراضٍ منهما وتشاورٍ﴾ فإن أراد والد المولود ووالدته، فطامَ ولدهما من اللبن في الحولين، عن تشاور وتراضٍ فيما فيه مصلحة المولود ﴿فلَا جُنَاحَ عليهما﴾ فلا حرج عليهما ﴿وَإنْ أَرَدْتُم أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أولادكُمْ ﴾ وإن أردتم- أيها الآباء- أن تطلبوا مرضعة لولدكم غير أمهاتهم، إذا أبين من رضاعهم ﴿فلا جُنَاحَ عليكم﴾ فلا حرج عليكم في ذلك﴿إذَا سَلَّمْتُم ما آتَيْتُم بالْمَعْرُوفِ﴾ إذا أعطيتم إلى أمهاتهم وإلى المرضعة[2]،حقوقهن التي أوجبها الله لهن عليكم، دون بخسٍ ولا ظلم ﴿واتَّقُوا الله﴾ خافوا الله، واحذروا أن تخالفوا حدوده، فتستوجبوا عقوبته ﴿واعْلموا أَنَّ الله بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ واعلموا أن الله مطَّلع عليكم، لا تخفى عليه خافية من شئونكم ﴿والَّذينَ يُتَوَفَّوْنَ منكُمْ ويَذَرُونَ أَزْوَاجاً﴾ الذين يموتون من الرجال ويتركون أزواجهم بعد الموت ﴿يتربصن بأنفسهن أربعة أشهرٍ وعشراً﴾ على هؤلاء الزوجات أن يحتبسن بأنفسهن، ويمكثن معتداتٍ- حداداً على أزواجهن- عن الزواج،والطيب،والزينة أربعة أشهر وعشرة أيام، أمّا الحوامل فإلى حين وضع الحمل ﴿فَإذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فإذا انقضت عدتهن ﴿فَلا جُنَاحَ عليكُمْ فيما فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ بالْمَعْرُوفِ﴾ فلا حرج ولا إثم عليكم- أيها الأولياء في تركهن أن يتزوجنَ، ويتطَّيبْنَ، ويتزيَّن، ويفعلْنَ ما

- المطلقة أجرة الرضاع، فلا تستحقُّ أجراً على الرُّضاع أكثر من سنتين

(١) الأم أحق برضاع ولدها في الحولين، وليس للأب أن يسترضع له غيرها إذا رضيت أن ترضعه بأجرة المثل، لأن لبن الأم أصلح، وشفقتها على ولدها أكمل، ولا ينبغي للأم أن تمتنع عن إرضاعه إضراراً للأب، فإن ذلك حرام، لأن الطفل البريء سيكون هو الضحيَّة

(٢) قال السدي: إن قالت الأم «لا طاقة لي به فقد ذهب لبني» فليسلِّم لها أجرها بقدر ما أرضعت وليستأجر له أخرى، وقال سفيان: إذا سلمتم أجر المرضعة وقد جمع الشيخ الطبري بين القولين.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ

* * *

أباحه الله لهنَّ ﴿والله بما تَعْمَلُونَ خَبيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم ﴿ولا جُنَاحَ عليكم فيما عَرَّضتم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ لا ضيقَ ولا حرج عليكم ـ أيها الرجال في إبداء الرغبة بالتزوج من النساء المعتدَّات، بطريق التلميح لا التصريح[1] ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ في أَنْفُسِكُمْ﴾ أو أخفيتم وسترتم في أنفسكم، عزمكم على نكاحهن ﴿عَلِمَ الله أنكم ستذكرونهنَّ﴾ عَلِم الله أنكم ستذكرون المعتدات في أنفسكم، فأباح لكم التعريض بذلك ﴿ولكنْ لا تُوَاعِدُوهنَّ سِرّاً إلاَّ أَنْ تَقُولوا قولاً معروفاً﴾ لا تواعدوهنَّ الزنا وفعل الفاحشة[2]، ولكنْ قولوا قولاً معروفاً، وهو التعريض برغبتكم في نكاحهنَّ، دون التصريح، قال ابن عباس: لا تقل لها: إني عاشق، وعاهديني ألَّا تتزوَّجي غيري، وقال مجاهد: السرُّ هو قول الرجل للمرأة: «لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك» وهذا لا يحلُّ ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حتىٰ يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ لا تُصحِّحوا وتُوجبوا عُقدة النكاح عليها، حتى تنقضي العِدَّة ﴿واعلَمُوا أنَّ الله يَعْلَمُ ما في أَنْفُسِكُمْ فاحْذَروهُ﴾ احذروا أن تأتوا شيئاً مما نهاكم الله عنه ﴿واعلموا أن الله غفورٌ حليمٌ﴾ «غفور» ستَّار للذنوب، «حليم» لا يعجِّل العقوبة ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ما لم تَمَسُّوهُنَّ﴾[3] لا حرج عليكم إن طلقتم نساءكم قبل مجامعتهنَّ ﴿أو تَفْرِضُوا لهنَّ فَريضَةً﴾ أو توجبوا لهن صَداقاً ـ مهراً ـ واجباً ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوسِعِ قَدَرُهُ وعلى المُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ أعطوهنَّ المُتعة من أموالكم، على قدر عُسْر الرجل ويُسْره، وعلى قدر غناه وفقره ﴿مَتَاعاً بالمَعْروفِ حَقّاً على المُحْسِنِينَ﴾ متعوهنَّ متاعاً بالمعروف، من غير ظلم ولا مدافعة، وهذا التمتيعُ حقٌّ على كل محسن، يسارع إلى طاعة الله، قال ابن عباس: إن كان موسراً متَّعها بخادم، وإن كان معسراً متَّعها بثلاثة أثواب ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُموهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهنَّ﴾ وإن طلقتم النساء من قبل الجماع ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فريضَةً﴾ وقد

---

(١) التعريض في النكاح كقول الرجل للمرأة: والله إنك لجميلة، وإنك لنافقة، وإنك الى خير إن شاء الله، وسيسوق الله لك خيراً ورزقاً، وأمثال ذلك، وهذا قول ابن عباس ومجاهد.

(٢) رجح الطبري أن لفظة «السر» في الآية يراد بها الزنا، وما قاله ابن عباس اظهر، وذلك بأن يصرِّح لها برغبته الزواج بها

(٣) كنّي بالمسِّ عن الجماع ﴿ما لم تمسوهنَّ﴾ والكناية به مشهورةً، ومنه ﴿لم يَمْسَسْني بشرٌ﴾ وفي هذه الكناية تعليم للعباد الأدب، في اختيار احسن الألفاظ فيما يتخاطبون به، قال ابن عباس: المسُّ: الجماعُ، ولكن الله حييٌّ يكني.

أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

* * *

أوجبتم لهنَّ مهراً، وذكرتم لهن صَدَاقاً **﴿فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ﴾** فلهن عليكم نصفُ الصَّداق **﴿إلَّا أنْ يَعْفُونَ﴾** إلا أن يصفحن لكم عنه تفضلاً منهن، إذا كنَّ بالغات رشيدات **﴿أوْ يَعْفُوَ الَّذي بيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾** أو يعفو الزوج[1] لها عن كامل المهر **﴿وَأنْ تَعْفُوا أقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾** وأن يعفو بعضكمُ عن بعض، أقربُ لكم إلى تقوى الله **﴿وَلاَ تَنْسَوُا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾** ولا تنسوا- أيها الناسُ- المودَّة، والإحسان، والجميلَ بينكم **﴿إنَّ الله بما تَعْمَلُونَ بصيرٌ﴾** لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وسيجازيكم عليها **﴿حَافِظُوا على الصَّلَواتِ والصَّلاَةِ الوسطى﴾** واظبوا على الصلوات المكتوبات في أوقاتهن، وعلى صلاة العصر، سميت وسطى لتوسطها الصلواتِ الخمس **﴿وقوموا لله قانتِينَ﴾** وقوموا لله- في صلاتكم- مطيعين، خاشعين، ساكتين. **قال مجاهد**: كانوا يتكلمون في الصلاة، يأمر أحدهم أخاه بالحاجة، فنزلت الآية فقطعوا الكلام **﴿فَإنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أو رُكْبَاناً﴾** فإن خفتم من عدوكم في الحرب أن تصلُّوا قياماً، فصلُّوا مُشاةً على أرجلكم، أو ركباناً على ظهور دوابكم، وهذه صلاة الخوف **﴿فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾** فإذا أمنتم من عدوكم وزال الخوف، فأقيموا صلاتكم كما علَّمكم الله، بالشكر له والثناء عليه **﴿والذين يُتَوفَّون منكم ويذرون أزواجاً﴾** الذين يُتوفون منكم ويتركون زوجاتهم **﴿وَصيَّةً لأزواجهم مَتَاعاً إلى الحَوْلِ غَيرِ إخراجٍ﴾** كتب الله لأزواجهم عليكم- أيها المؤمنون- وصيةً، ألَّا تخرجوهن من منازل أزواجهن حولاً كاملاً. والآية منسوخة بأربعة أشهر وعشراً **﴿فإنْ خرجْنَ فلا جُنَاحَ عليكُمْ فيما فَعَلْنَ في أنْفُسهنَّ من مَعْروفٍ﴾** فإن خرجن من منازل أزواجهن قبل الحول، فلا حرج على أولياء الميت في خروجهن وتركهن الحداد على أزواجهن، ولا حرج في التزين، والتطيب لهن، لأن الحداد لم يكن فرضاً عليهن **﴿والله عزيزٌ حكيمٌ﴾** عزيزٌ في انتقامه، حكيم في تشريعه وأحكامه **﴿وللمطلقات متاعٌ بالمعروف﴾** لكل مطلقةٍ متعةٌ من ثياب وكسوة وغير ذلك مما يُستمتع به بالإحسان **﴿حقاً على المتقين﴾** ذلك حقٌ على الذين اتقوا ربهم،

(١) رجح الطبري أن المراد بالذي بيده عقدة النكاح الزوج وهو قول شريح وسعيد بن جبير، وقال الحسن ومجاهد وطاوس: هو ولي أمر المرأة إذا كانت صغيرة، فإذا أسقطت حقها أو أسقط وليُّ أمرها الحق جاز، ولعل هذا الرأي أرجح لأن الآية وردت لبيان سقوط نصف المهر عن كاهل الزوج والله أعلم.

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ

* * *

في أمره، ونهيه، وحدوده ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لكم آياتِهِ﴾ كما عرَّفتكم أحكامي، وبيَّنت لكم الحق الواجب لبعضكم على بعض، كذلك أبيِّن لكم سائر الأحكام في آياتي المنزلة على نبيّ ﴿لعلكم تعقلون﴾ لتعقلوا حدودي، وتعرفوا ما فيه صلاحكم في دينكم ودنياكم.

﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وهُمْ أُلُوفٌ﴾ ألم تعلم يا محمد خبر الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ مؤلفة ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ فراراً من الموت، قال الحسن: خرجوا فراراً من الطاعون، فأماتهم اللهُ قبل آجالهم، ثم أحياهم إلى آجالهم ﴿فقَالَ لهمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ فأماتهم الله ثم أحياهم[1] ﴿إنَّ الله لذو فضلٍ على الناس﴾ ذو تفضلٍ ومنٍّ على خلقه ﴿ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ أكثر الخلق لا يشكرون الله على نعمه، ويتخذون لهم آلهة من دونه ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ قاتلوا - أيها المؤمنون - من أجل دين الله أعداء دينكم، الصادِّين عن سبيل ربكم ﴿واعلموا أن الله سميعٌ عليم﴾ سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بأحوالكم ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً﴾[2] من هذا الذي ينفق في سبيل الله، فيعينُ ضعيفاً، ويعطي مُقتراً، ويتصدَّق على ذي الحاجة والفاقة، احتساباً لوجه الله؟ ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾ فيضاعف الله له الجزاء، على قرضه ونفقته، ما لا حدَّ له ولا نهاية ﴿واللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يقتِّر الرزق على من شاء، ويوسِّع على من شاء ﴿وإليه تُرْجعون﴾ إلى الله معادكم، فيجازيكم بأعمالكم ﴿ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل﴾ ألم تر يا محمد بقلبك، فتعلم بخبري إياك، إلى وجوه بني إسرائيل، وأشرافهم ورؤسائهم؟ ﴿من بعد موسى﴾ من بعد ما قُبض موسى فمات ﴿إذ قالوا لنبيٍّ لهم﴾ هو

---

(١) حث تعالى عباده في هذه الآية على الجهاد في سبيله، والصبر على قتال أعداء دينه، وبيَّن لهم أن الإماتة والإحياء بيده وحده، وأن الحذر لا يدفع القدر، فهؤلاء الذين خرجوا فراراً من الطاعون وكانوا كثرة كثيرة يزيدون على أربعين ألفاً ـ قد لاقوا حتفهم فماتوا، فالفرار من القتال، والتحصن بالحصون، والاختباء في المنازل لا ينفع شيئاً، كما لم ينفع الهاربين من الطاعون فرارهم من الأوطان.

(٢) لما نزل قوله تعالى ﴿من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً﴾ جاء أبو الدحداح إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أو يريد الله منا القرض؟! قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده فقال: إني قد أقرضت ربي حائطي ـ بستاني ـ وكان فيه ستمائة نخلة، ثم جاء يمشي حتى أتى البستان وأم الدحداح فيه مع عيالها، فناداها يا أم الدحداح! قالت لبيك! قال: اخرجي فقد أقرضت ربي حائطي، فقالت ربح البيع يا أبا الدحداح، ثم خرجت مع أولادها

لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم

* * *

«شمعون» وقيل: هو «يوشع بن نون» ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ في سبيل الله﴾ أرسل لنا أميراً على الجيش، نقاتلْ معه في سبيل الله أعداءنا ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إنْ كُتِب عليكُمُ القِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ عَسَى إن فرض عليكم القتال، ألَّا تفوا بما تعدون به من الجهاد في سبيل الله!! ﴿قالوا وما لنا ألَّا نقاتل في سبيل الله﴾ قالوا: أيُّ شيءٍ يمنعنا أن لا نقاتل في سبيل الله عدونا وعدوَّ الله!؟ ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيارنَا وأَبْنَائِنَا﴾ بالقهر والغلبة ﴿فلما كُتِبَ عليهم القتالُ﴾ فلما فُرض عليهم قتالُ عدوهم ﴿تَوَلَّوْا إلاَّ قليلاً مِنْهُمْ﴾ أدبروا عن القتال، وضيَّعوا ما سألوا نبيَّهم من فرض الجهاد، إلا القليل وهم الذين عبروا النهر مع طالوت ﴿واللهُ عليمٌ بالظالمينَ﴾ عالمٌ بمن أخلف وعده، ونقض عهده. وهذا تقريعٌ لليهود الذين كانوا في عهد النبي ﷺ، في تكذيبهم رسول الله، ومخالفتهم أمر ربهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إنَّ الله قَدْ بَعَثَ لكُمْ طَالوتَ مَلِكاً﴾ قال لهم نبيهم: إن الله قد أعطاكم ما سألتم، وبعث لكم طالوت أميراً على الجيش ﴿قالوا أَنَّى يكونُ لهُ المُلْكُ علينا﴾ كيف يكون له المُلْك علينا، وهو من سبط «بنيامين» ولا ملك فيهم ولا نبوَّة؟ قال قتادة: كان في بني إسرائيل سبطان: سبطُ نُبوَّة، وسبطُ مملكة، وكان سبط النبوة «لاوي» وسبطُ المملكة «يهوذا» فلما بُعث من غيرهما، أنكروا ذلك وعجبوا منه ﴿ونحنُ أحقُّ بالمُلْكِ منهُ﴾ لأنا من سبط «يهوذا» بن يعقوب ﴿ولم يُؤْتَ سَعَةً من المالِ﴾ ولم يُعط طالوت كثيراً من المال ﴿قَالَ إنَّ الله اصْطَفَاهُ عليكُمْ﴾ اختاره عليكم ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً في العِلْمِ والجِسْمِ﴾ بَسَط له في العلم والجسم، فآتاه من العلم فضلاً، ومن الجسم طولاً ﴿واللهُ يُؤْتي مُلْكَهُ مَنْ يشاءُ﴾ الملكُ بيد الله، يعطيه من يشاء من خلقه ﴿واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾ واسع الفضل والعطاء، عليمٌ بمن هو أهلٌ لفضله ﴿وقَالَ لهم نَبيُّهم إنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ إن علامة ملك طالوت ﴿أنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ أن يُردَّ عليكم التابوت الذي كنتُم تستنصرون به ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فيه ما تسكن إليه نفوسكم، من العلاقات التي تعرفونها ﴿وبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ موسى وآلُ هارونَ﴾ وفيه الشيء الباقي من تركة

مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ

* * *

آل موسى وآل هارون، كعصا موسى، ونعليه، وبعض الألواح ﴿تَحْمِلُهُ الملائِكَةُ﴾ تحمله حتى تضعه في بيت طالوت ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ﴾ إن في مجيئكم بالتابوت تحمله الملائكة، لعلامة ودلالة لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ مؤمِنينَ﴾ إن كنتم مصدِّقين لي فيما أقول ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طالوتُ بالجنودِ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فصدَّقوا عند ذلك نبيهم، وأقروا بأن الله قد بعثه عليهم، وأذعنوا له بذلك، فلما قطع ورحل بالجنود من بيت المقدس، وهم ثمانون ألف مقاتل ﴿قالَ إِنَّ الله مُبْتَلِيكُمْ بنَهَرٍ﴾ إنَّ الله مختبركم بنهر، ليعلم كيف طاعتكم له، قال ابن عباس: هو نهر بين فلسطين والأردن، عذبُ الماء طيِّبُه ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ومَنْ لم يَطْعَمْهُ فإِنَّهُ مِنِّي﴾ شكوا إليه العطش، فأخبرهم بأن الله مبتليهم بنهر، فمن شرب من مائه فليس من أهل ولايتي وطاعتي، ومن لم يذق ماء ذلك النهر، فإنه من أهل ولايتي وطاعتي ﴿إلاَّ مَن اغْتَرَفَ غُرْفَةً بيَدِهِ﴾ إلاَّ من شرب غُرْفة اغترفها بيده فإنه مني ﴿فَشَرِبُوا منه إلا قَليلاً منهُمْ﴾ فشرب عامتهم إلا القليل، فكان من شرب منه عطش، ومن اغترف غُرْفةً رَوِيَ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ لمَّا جاوز النهر طالوت، والمؤمنون معه من جنده ﴿قَالُوا لا طَاقَةَ لنا اليومَ بِجَالُوتَ وجُنُودِهِ﴾ لا قوة ولا قدرة لنا، على قتال جالوت وجنوده[1] ﴿قال الذينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقوا الله﴾ قال الذين يستيقنون بلقاء الله، ويصدِّقون بالمرجع إليه ﴿كم من فِئَةٍ قَليلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بِإِذْنِ الله﴾ كثيراً ما غلبت جماعة قليلة جماعةً كثيرة، بقضاء الله وقدره ﴿واللهُ مع الصابرينَ﴾ واللهُ مع الصابرين بالعون والنُّصرة ﴿ولَمَّا بَرَزُوا لجالوتَ وجنوده﴾ ولمَّاظهر طالوت وجنودُه، لجالوت وجنوده ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أنزلْ علينا صبراً ﴿وثَبِّتْ أَقْدامنا﴾ قوِّنا حتى لا ننهزم أمامهم ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ انصرنا على من جحدوا ألوهيتك، وعبدوا الأوثان ﴿فهزموهم بإذن الله﴾ استجاب الله دعاءهم، فهزم طالوت وجنوده أصحاب جالوت، بقضاء الله وقَدَره ﴿وقَتَلَ داودُ جالوتَ﴾ قتل «داود» المؤمن، ذلك الجبار الكافر «جالوت» ﴿وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والْحِكْمَةَ﴾ أعطاه

(١) قال الطبري: وهذا يدل على أن الذين جاوزوا النهر مع طالوت المؤمنون الذين لم يشربوا من النهر، والكافرون الذين شربوا منه الكثير، ثم وقع بينهم التمييز برؤية جالوت، فانخزل عنه أهل الشرك والنفاق، ومضى معه أهل البصيرة والإيمان، وهذا قول ابن عباس والسدي

مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ

* * *

السلطان والنبوّة ﴿وَعَلَّمَهُ مما يَشَاءُ﴾ وعلّمه صنعة الدروع[1] لقوله «وعلمناه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكُمْ» ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ الله النَّاسَ بعضَهُمْ ببعضٍ﴾ لولا أنَّ الله يدفع بأهل الطاعة والإيمان، أهلَ الشرك والعصيان ﴿لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ لهلك أهل الأرض، وانتشر البغي والفساد ﴿وَلَكِنَّ الله ذُو فَضْلٍ على الْعَالمينَ﴾ ذو تفضّلٍ ومَنّ على خلقه ﴿تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحقِّ﴾ هذه الآيات التي قصصناها عليك يا محمد، هي حججي على من جحد نعمتي، نتلوها عليك باليقين، بدون زيادةٍ ولا تحريف ﴿وإنَّكَ لمن المرسلينَ﴾ وإنك يا محمد لمرسلٌ حقاً من عندي، ومن ضمن رسلي الذين أقاموا أمري.

﴿تلك الرسلُ فَضَّلْنَا بعضَهم على بعضٍ﴾ هؤلاء الرسل الذين قصَّ الله قصصهم في هذه السورة، كموسى، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، ويعقوب، وداود وغيرهم، هؤلاء رسلي فضلت بعضهم على بعض ﴿مِنهُمْ مَنْ كَلَّمَ الله﴾ كموسى بن عمران ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ بالكرامة، ورفعة المنزلة، كمحمد وإبراهيم ﴿وَآتَيْنَا عِيسى ابْنَ مَرْيم الْبَيِّنَاتِ﴾ وأعطينا عيسى الحجج والمعجزات الدالة على نبوته، كإبراء الأعمى، والأبرص، وإحياء الموتى وغيرها ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ﴾ وقوّيناه وأعنّاه بجبريل ﴿ولو شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَل الَّذِينَ مِنْ بعدهم﴾ ولو أراد الله ما اقتتل الناس من بعد الرسل ﴿مِنْ بَعْدِما جَاءَتْهُمُ الْبيِّنَاتُ﴾ من بعدما جاءهم من الآيات ما أبان لهم الحقَّ، وأوضح لهم السبيل ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمنهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ ولكنَّ الناس اختلفوا بعد ثبوت الحجة عليهم بوحدانية الله، ورسالة رسله، فكفر بعضهم وآمن بعضهم ﴿ولو شَاءَ الله ما اقْتَتَلُوا﴾ ولو أراد الله أن يحجزهم عن معصيته، لما اقتتلوا ولا اختلفوا ﴿ولكنَّ الله يَفْعَلُ ما يُرِيدُ﴾ يوفّق هذا لطاعته فيطيعه، ويخذل هذا فيكفر به ويعصيه ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقوا ممَّا رزقناكم﴾ تصدَّقوا من أموالكم، وأعطوا منها الحقوق التي فرضناها عليكم ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ﴾ من قبل مجيء يوم القيامة، الذي لا ينفع فيه صدقةٌ ولا نفقة، لأنه يوم ثواب وعقاب، لا يوم عملٍ واكتساب ﴿ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ﴾ ولا تنفع فيه الكافر صداقةٌ ولا شفاعة، حُرم الكفارُ النصرة

(١) هكذا فسَّرها ابن جرير، وقال غيره علَّمه ممَّا يشاء، ومن العلم النافع الذي أفاضه عليه، وهذا القول أظهر والله أعلم.

وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ

* * *

من الأخلاء، والشفاعةَ من الأولياء، وحرمانُ الشفاعة خاصٌ بأهل الكفر بدليل قوله **﴿والكافرونَ هُمُ الظالمونَ﴾**[1] أي والمكذبون بالله وبرسله، هم الظالمون لأنفسهم.

﴿اللهُ لا إلَهَ إلاَّ هو الحيُّ القَيُّومُ﴾ اللهُ الذي لا معبود سواه، هو الباقي الدائم الذي لا يموت، القيوم أي القائم برزق ما خلق وحفظه، يكلؤه ويحفظه **﴿لا تأخذه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ﴾** لا يأخذه نعاسٌ ولا نوم ثقيلٌ[2] **﴿لَهُ مَا في السَّمٰوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ﴾** هو المالك لجميع ما في السموات والأرض، الكلُّ ملكُه وخلقُه، فلا ينبغي أن يُعبد غيرُه **﴿مَنْ ذَا الذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بإذنِهِ﴾** لا يشفع أحدٌ لأحدٍ إلا بإذن الرحمن[3] **﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ﴾** هو المحيط علماً بكل ما كان وما هو كائن، لا يخفى عليه شيءٌ **﴿ولا يُحيطونَ بشيءٍ من علمه إلا بما شَاءَ﴾** لا يعلم أحد سواه شيئاً، إلاَّ بما شاء هو أن يُعلِمه **﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ والأرْضَ﴾** أحاط كرسي الرحمن بالسموات والأرض، كما أحاط بهما علمُه[4] **﴿ولا يَؤُودُهُ حفظهُمَا﴾** ولا يَشقُّ عليه ولا يُثْقله حفظُ السموات والأرض **﴿وَهُوَ العَليُّ﴾** وهو ـ جلَّت عظمته ـ ذو العلوّ والارتفاع على خلقه **﴿العظيمُ﴾** ذو العظمة والسلطان، الذي كلُّ شيءٍ دونه، قال ابن عباس: الذي قد كمل في عظمته **﴿لا إكراهَ في الدِّين﴾** لا يُكره أحدٌ في دين الإسلام على الإسلام، والآيةُ خاصةٌ بأهل الكتاب وليست منسوخة، وأما عَبَدة الأوثان والمرتدون عن دين الإسلام، فلا تشملهم الآية والمعنى: لا إكراه في الدين لأحدٍ ممن حلَّ قبول الجزية منه **﴿قَدْ تَبيَّنَ الرُّشْدُ من الْغيِّ﴾** قد وضح الحقُّ من الباطل، واستبان الغيُّ من الرشاد **﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ باللهِ﴾** فمن يكفر بكل معبود من دون الله، من شيطانٍ، أو وثن، أو صنم، كائناً من كان، ويصدِّق بالله أنه إلَهه وربه ومعبوده **﴿فقد اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾** فقد تمسَّك

---

(١) قال عطاء: الحمد لله الذي قال: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل: «والظالمون هم الكافرون» ومرادُه أنه لو قال ذلك، لهلك أكثر الناس

(٢) قال ابن عباس: السِّنةُ: النعاس، والنوم هو النوم المعروف الذي يستثقل به الجسم.

(٣) الآية ردٌّ على المشركين حيث اعتقدوا بشفاعة الأوثان ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾.

(٤) رجح ابن جرير أن المراد بالكرسي علمُ الله جل وعلا، وروى بذلك أثراً عن ابن عباس أنه قال: كرسيُّه: علمه.. والصحيح هو ما عليه السلف أننا نؤمن بالعرش والكرسي كما أخبر تعالى دون تأويل أو تعطيل ونترك معرفة الصفة والشكل والجوهر إلى علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية، فإن هذا أسلم والله أعلم، وفي الآية دليلٌ على أن العرش ليس في السماء فقط، بل هو محيطٌ بالسموات والأرض، وبالكرسي الذي أحاط بهما.

لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ

* * *

واعتصم بالإيمان، الذي هو أوثق ما تمسَّك به من طلب الخلاص لنفسه،من عذاب الله وعقابه[1] ﴿**لا انْفِصَامَ لها**﴾ لا انكسار لها ولا انقطاع ﴿**والله سميعٌ عليمٌ**﴾ سميعٌ لإقرار من شهد بوحدانية الله، عليم بإخلاصه ﴿**اللهُ وليُّ الذينَ آمنوا**﴾ نصيرُ المؤمنين، يتولاهم بعونه وتوفيقه ﴿**يُخرجُهُمْ مِنَ الظُّلمَاتِ إلى النُّورِ**﴾ يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿**والَّذينَ كَفروا أوْليَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ**﴾ والجاحدون لوحدانية الله، أنصارهم الأصنامُ والأوثان، الذين عبدوهم من دون الرحمن ﴿**يُخْرجُونَهُمْ من النُّورِ إلى الظلماتِ**﴾ يخرجونهم من نور الإيمان، إلى ظلمات الكفر والطغيان ﴿**أُولئكَ أصحابُ النَّار هم فيها خالدون**﴾ هم أهل النار، يُخلَّدون فيها إلى غير غايةٍ ولا نهاية.

﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ في ربِهِ**﴾ هذا تعجيب من الله تعالى لرسوله كأنه يقول: هل رأيت مثل هذا أو كهذا؟ والمعنى ألم تر يا محمد بقلبك، إلى الذي خاصم إبراهيم وجادله في ربه؟ وهو «نمروذ بن كنعان» أول مَلِك جبار في الأرض ﴿**أَنْ آتَاهُ اللهُ المُلْكَ**﴾ لأن الله آتاه المُلْك ﴿**إذ قال إبراهيم ربي الذي يُحْيي ويُميتُ**﴾ حين قال له إبراهيم: ربي الذي بيده الحياةُ والموتُ، يحيي من يشاء، ويميتُ من يشاء ﴿**قال أنا أحيي وأميتُ**﴾ قال: أنا أفعل ذلك فأحيي وأُميت،قال مجاهد: أُتي برجلين فقتل أحدهما وترك الآخر، وقال: هذا أمتُّه، وهذا أحييتُه[2] ﴿**قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرقِ فأتِ بها من المغرب**﴾ إن ربي يأتي بالشمس من مشرقها، فأتِ بها من مغربها إن كنت صادقاً أنك إلٓه !! ﴿**فَبُهِتَ الذي كَفَرَ**﴾ انقطع وبطلت حجته ﴿**والله لا يَهْدي القَوْمَ الظالمينَ**﴾ لا يهديهم عند الخصومة إلى الحجة ﴿**أو كالذي مرَّ على قريةٍ**﴾ تعجيبٌ آخر للرسول ﷺ والمعنى هل رأيت يا محمد كالذي حاجَّ إبراهيم، أو كالذي مرَّ على قريةٍ؟! قال قتادة: القريةُ بيتُ المقدس، أتى عليه عزيرٌ بعدما خرَّبه«بختنصَّر» البابلي

(١) شبَّه المتمسك بالإيمان، بالمتمسك بعروة الشيء المتين، الذي لا ينقطع ولا ينكسر، أو بالحبل الوثيق المحكم، وهو من لطيف أنواع الاستعارة.

(٢) هذه سفاهة وحماقة من النمروذ ومغالطة كبيرة، فإن الإحياء والإماتة خلق الحياة في المعدوم وإخراجه إلى الوجود، لا العفو عن إنسان وإعدام إنسان

مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ

* * *

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ خالية من أهلها وسكانها[١]، والعروش: الأبنية والبيوت ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ كيف يحيي اللهُ هذه القرية بعد خرابها، وفناءِ أهلها؟ ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أراه الله قدرته على ذلك في نفسه، فأماته مائة سنة، ثم بعثه حياً بعد مماته ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ كم مكثتَ ميتاً، قبل أن أبعثك؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال عُزَير: مكثتُ يوماً واحداً، أو بعض اليوم. قبض تعالى روحه أول النهار، ثم ردَّ إليه روحه آخر النهار بعد مائة عام، فلما سُئل نظر فرأى الشمس أوشكت على الغروب، فلذلك قال «أو بعضَ يومٍ» ﴿قَالَ بَلْ لبثتَ مائةَ عَامٍ﴾ قال له ربه: بل مكثت ميتاً مائة عام ﴿فَانْظُرْ إلى طَعَامِكَ وَشَرابكَ لم يَتَسنَّه﴾ لم يتغيَّر بطول المدة، وكان طعامه سلة تينٍ وعنب، وشرابُه قُلَّةُ ماءٍ ﴿وانظر إلى حِمَارِكَ﴾ وانظر إلى حمارك، الذي قد مات معك، كيف نُحييه بقدرتنا؟ ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيةً للنَّاسِ﴾ ولنجعلك حجةً على من جهل قدرتنا، وشكَّ في عظمتنا، أمتناك ثم أحييناك ﴿وانظر إلى العِظَامِ﴾ وانظر إلى عظامك وعظام حمارك، التي تراها ببصرك ﴿كيف نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً﴾ كيف نركِّب بعضها على بعض، ثم نغطِّيها ونُلبسها اللحم ﴿فَلَمَّا تبيَّنَ لهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ فلما اتَّضح له عياناً، ما كان مستنكراً من قدرة الله، وعظيم سلطانه، قال: أعلمُ أنَّ الله على كل شيء قادر[٢]

﴿وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أرني كيفية إحيائك للأموات[٣]، قال ذلك من غير شكٍ في الله تعالى ولا في قدرته ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: أَولم تُصدِّق يا

---

(١) هكذا فسرها الطبري وفسرها غيره بأنها ساقطة جدرانها على سقفها ولعله أظهر والله أعلم.

(٢) لما استنكر إحياء القرية بعد أن تخربت، أراه الله تعالى في نفسه آية خارقة، كيف يجمع الله العظام المتفتة ويركب بعضها فوق بعض، ونظر إلى حماره فاذا هو قد بلي وتفككت أوصاله، فبعث الله ريحاً فجاءت بعظام الحمار من كل سهل وجبل، فركب بعضها فوق بعض وهو ينظر، فكانت آية باهرة.

(٣) لم يشك إبراهيم عليه السلام في قدرة الله تعالى، فلم يقل «هل تقدر على إحياء الموتى»؟ وإنما سأل عن الكيفية ﴿أرني كيف تحيي الموتى﴾ فأحب أن يرى بعينيه ما يعتقده بقلبه، وأن يرى ذلك نظراً بعد أن علمه خبراً، فليس الخبر كالمعاينة، وسبب هذا أنه عليه السلام أتى على دابة توزعتها البهائم والسباع، فقام ينظر متعجباً، ثم قال: ربِّ قد علمت أنك ستجمعها من بطون هذه السباع والوحوش، رب أرني كيف تحيي الموتى؟ فليس في الأمر شك إذاً، كما قد يفهم بعض البسطاء، وإنما هو سؤال عن الكيفية، ولهذا دفع تلك الشبهةَ النبيُّ ﷺ بقوله: «نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ» ومراده أننا لم نشكّ، فإبراهيم أولى وأحرى بعدم الشكِّ، فتنبَّه له فإنه دقيق.

يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ

* * *

إبراهيم بأني على ذلك قادرٌ؟ قال: بلى يا رب، ولكنْ سألتُك أن تريني ذلك، ليسكنَ ويهدأ قلبي باليقين، الذي أراه من قدرتك ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهنَّ إليكَ﴾ خذ أربعة طيور، فضمهُنَّ إليك، ثم قَطِّعهنَّ ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً﴾ فَرِّقْهنَّ بعد تقطيعهنَّ أجزاءً، فاجعل على كل جبل قسماً وجزءاً ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ ثمَّ نادهنَّ: تعالَيْنَ بإذن الله، يجئن إليك مسرعات. قيل إنه أخذ ديكاً، وطاووساً، وغراباً، وحماماً، ثم ذبحها وخلط بين لحمها وعظمها وريشها، وجعل على كل جبلٍ جزءاً منها، ثم نادى: تعالَيْنَ بإذن الله، فجعلت الأجزاء تتطاير، وينضم كل جزء إلى الآخر، حتى جئن إليه طائرات مسرعات كما كنَّ ﴿واعْلَمْ أنَّ اللهَ عَزيزٌ حكيمٌ﴾ واعلم يا إبراهيم، أن الذي أحيا هذه الأطيار، وردَّ إليها الروح، عزيزٌ في بطشه، حكيم في أمره

﴿مَثَلُ الذينَ يُنْفِقونَ أموالَهُمْ في سبيلِ الله كمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائةُ حبَّةٍ﴾ هذا مثلٌ للمجاهد الذي ينفق ماله في جهاد أعداء الله، يُضاعَفُ له أجرُه إلى سبعمائة ضعف، كحبة الحنطة إذا بُذرت أنبتت سبعمائة حبة ﴿واللهُ يُضاعِفُ لمن يَشاءُ﴾ على السبعمائة إلى ما شاء ﴿واللهُ واسعٌ عليمٌ﴾ يزيد من فضله لمن يشاء، عليمٌ بمن يستحق الزيادة ﴿الذين يُنْفِقونَ أَموالَهُمْ في سَبيلِ اللهِ﴾ ينفقون أموالهم ابتغاء وجه الله، وطلب ما عنده ﴿ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذى﴾ لا يُتبعون إنفاقهم بالامتنان، ولا بالإساءة ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ لهم ثوابهم وجزاؤهم عند الله ﴿ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ لا خوف عليهم من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون على ما خَلَّفوا وراءهم في الدنيا ﴿قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ﴾ قولٌ جميل، وسترٌ على الفقير، على سوء حالته ﴿خيرٌ من صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذًى﴾ خيرٌ عند الله، من صدقةٍ يتصدق عليه بها، ويؤذيه بسببها ﴿واللهُ غنيٌّ حليمٌ﴾ مستغنٍ عما يتصدقون به، لا يعجِّل العقوبة لمن يمنُّ بصدقته ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صَدَقاتِكُمْ بالْمَنِّ والأَذى﴾ لا تبطلوا أجور صدقاتكم، بالمنِّ والأذى ﴿كالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآء النَّاس﴾ كالمنافق الذي ينفق ماله لغير وجه الله، ليحمده الناس فيقولوا: هو سخيٌّ كريم ﴿ولا يُؤْمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾ ولا يُصدِّق بوحدانية الله، ولا بالبعث بعد

وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

* * *

الموت، ليجعل عمله طلب ثوابه ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عليهِ تُرَابٌ﴾ فمثل هذا المرائي، كمثل حجارةٍ مُلْسٍ، عليها ترابٌ ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً﴾ فأصاب هذه الحجارة المُلْس، مطرٌ شديد عظيم، فترك الصفوان صَلْداً[1]، لا تراب عليه، ولا شيء من نباتٍ ولا غيره، فكذلك هؤلاء المراءون، تذهب أعمالهم وتضمحل، كما يذهب المطر الغزير، بما على الصفوان من التراب، فلا يُبقي له أثراً ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ ممَّا كَسَبوا﴾ لا يقدرون يوم القيامة، على ثواب شيءٍ من أعمالهم، لأنهم عملوها رئاء الناس، وطلب حمدهم ﴿والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الكافرين﴾ لا يوفقهم لإصابة الحق، بل يتركهم في ضلالهم يعمهون ﴿وَمَثَلُ الَّذينَ يُنفِقونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾ ينفقونها في طاعة الله، وطلب مرضاته ﴿وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وتصديقاً ويقيناً بوعد الله ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ كمثل بستانٍ، بمكانٍ مرتفع من الأرض، وإنما وصفها بأنها بربوة، لأنها أحسن غرساً، وأزكى ثمراً ﴿أَصابَها وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ﴾ أصابها مطر شديدٌ عظيم القطر، فأعطت ثمرها ضعفين ﴿فإنِ لم يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ﴾ فإن لم يصبها المطر الغزير، أصابها النَّدى، واللَّيِّنُ من المطر ﴿والله بما تَعْملونَ بصيرٌ﴾ مطَّلع على أعمالكم، يعلم المنفق رئاء الناس، والمنفق ابتغاء مرضاة الله ﴿أَيودُّ أحدُكُمْ أَنْ تكونَ له جَنَّةٌ من نَخيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْري من تحتها الأَنْهارُ﴾ أيحب أحدكم أن يكون له بستانٌ وحديقة، فيها أشجار النخيل والعنب، تجري من تحت الجنة الأنهارُ ﴿له فيها من كُلِّ الثمراتِ﴾ له فيها من أنواع الثمار ﴿وَأَصابَهُ الكِبَرُ﴾ أدركته الشيخوخة ﴿وَلَهُ ذُرِّيةٌ ضعفاءُ﴾ وله أطفال صغار ﴿فأصابها إعصارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرقَتْ﴾ أصابها ريح شديدة مهلكة، فيها سموم فأحرقت جنته؟ ﴿كذلكَ يبيّنُ اللهُ لكم الآياتِ﴾ كذلك يوضّح الله لكم الحجج والبراهين ﴿لعلكم تتفكرونَ﴾ لتتفكروا بعقولكم في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها. وهذا المثل ضربه الله للمنفقين أموالهم رئاء الناس، من أجل حمد الناس وثنائهم، لا ابتغاء مرضاة الله، فإذا كان يوم القيامة

(١) الصَّلْد من الحجارة: الصلب الذي لا شيء عليه ولا نبات، وهو من الأرض ما لا ينبت فيه شيء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

* * *

واحتاج أحدهم إلى نفقته، أطفأ الله نوره، وأحبط أجره، أحوجَ ما كان إلى عمله، كما أنفق هذا الرجل على جنته، حتى إذا بلغت، وكثر عياله وكبرت سنُّه، جاءت ريح فيها سموم، فأحرقت بستانه في حال حاجته إليها، وضرورته إلى ثمرتها **﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا من طَيبَاتِ ما كَسَبْتُمْ﴾** يا أيها الذين صدَّقوا بالله ورسوله، تصدَّقوا من أحسن وأجود ما عندكم وأَنْفَسِه، من أموالكم التي اكتسبتموها من التجارة **﴿وَمِمَّا أخرجنا لكُمْ منَ الأرضِ﴾** وتصدَّقوا أيضاً من سائر أصناف النبات، والفاكهة، والثَّمر **﴿ولا تَيمَّموا الخبيثَ منه تُنْفقونَ﴾** ولا تقصدوا الرديء فتتصدقوا منه، ولكنْ تصدَّقوا من الطيِّب الجيد. قال علي: كان الرجل يعمد إلى التمر فيصرمه ـ يقطعه ـ فيعزل الجيد ناحية، فإذا جاء صاحب الصدقة، أعطاه من الرديء فنزلت الآية **﴿ولستُم بآخذيهِ إلَّا أنْ تُغْمِضُوا فيه﴾** لا تأخذون هذا الرديء في حقوقكم، إلا عن إغماضٍ منكم، وكراهةٍ لأخذه وتسامحٍ منكم، فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأَنْفَسِه؟ **﴿واعلموا أنَّ اللهَ غنيٌّ حميدٌ﴾** غنيٌّ عن صدقاتكم، محمودٌ عند خلقه، بما بسط لهم من فضله **﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْر ويأْمُرُكم بالفَحْشَاءِ﴾** الشيطان يعدكم ـ أيها الناسُ ـ بالفقر إن تصدقتم، ويأمركم بمعاصي الله، وترك طاعته **﴿والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً﴾** والله يعدكم على صدقتكم، مغفرةً منه لذنوبكم، وسعة في أرزاقكم **﴿والله واسعٌ عليمٌ﴾** واسع الفضل، عليم بمن يستحق الإكرام **﴿يُؤْتي الحكمةَ مَنْ يشاءُ﴾** يعطي الفهم والإصابة في القول والفعلِ، من يشاء من عباده[1] **﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْراً كثيراً﴾** ومن يعط الفهم وإصابة الصواب، فقد أعطي خيراً كثيراً **﴿وما يَذَّكَّرُ إلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ﴾** وما يتَّعظُ ويتذكَّر، إلا أصحابُ العقول **﴿وما أنفقتم من نفقةٍ﴾** أيَّ صَدَقةٍ تصدقتم بها **﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾** وأيَّ نذرٍ نذرتموه، بقصد الخير **﴿فإنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾** فجميع ذلك يعلمه الله، لا يغيب عنه منه شيء، وسيجازيكم عليه **﴿وما للظالمينَ من أنصارٍ﴾** وليس لِلظالمين من ينصرهم، من عقاب الله وبطشه

---

(١) قال ابن عباس: «الحكمة» القرآن، والفقهُ في القرآن، بمعرفة حلاله وحرامه، وأحكامه وأمثاله.
(٢) النذر ما أوجبه الإنسان على نفسه من صدقة وعمل تقرباً إلى الله.

إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ * لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ

* * *

﴿إنْ تُبْدوا الصَّدَقات فنِعِمَّا هيَ﴾ إن تظهروا الصدقات فنعم الشيءُ هي **﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم﴾** وإن تستروها فلم تعلنوها، وتعطوها الفقراء في السرّ،فهو خيرلكم من إعلانها[1] فإن صدقة السرِّ أفضل **﴿ويُكَفِّرُ عنكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ﴾** ويكفّر الله عنكم بصدقاتكم بعض الذنوب **﴿واللهُ بمَا تَعْملونَ خَبيرٌ﴾** لا يخفى عليه شيء من أعمالكم **﴿لَيس عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾** ليس عليك يا محمد هداية المشركين **﴿ولكنَّ اللهَ يهدي من يشاءُ﴾** ولكنَّ الله يرشد من يشاء من خلقه إلى الإسلام، فيوفقهم له **﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾** وأيَّ شيءٍ تنفقونه ابتغاء وجه الله، فثوابُه وأجرُه عائد عليكم **﴿وما تُنْفِقُونَ إلا ابتغاء وجه اللهِ﴾** لا ينبغي أن يكون إنفاقكم إلا طلباً لثواب الله **﴿وَمَا تُنْفِقُوا من خَيْرٍ يُوَفَّ إليكم﴾** وما تتصدقوا به من مال، يؤدَّ إليكم وافياً كاملاً يوم القيامة **﴿وأنتم لا تُظْلَمون﴾** لا تُنْقصونَ من أجور أعمالكم شيئاً **﴿للفقراء الَّذينَ أُحْصِرُوا في سبيلِ اللهِ﴾** سبيلُ الإنفاقِ للفقراء، الذين حُبسوا بسبب الجهاد، عن التصرف لطلب الرزق **﴿لا يَسْتَطيعونَ ضَرْباً في الأرضِ﴾** لا يستطيعون تقلباً في الأرض، وسفراً في البلاد، ابتغاء المعاش وطلب المكاسب **﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَعَفُّفِ﴾** يظنهم الجاهل أغنياء، من تعففهم عن المسألة **﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾** تعرفهم بعلامتهم وآثارهم من التخشع، والجهد، وآثار الضر **﴿لا يَسْأَلونَ النّاسَ إلْحَافاً﴾** لا يسألون الناس إلحاحاً لعفّتهم **﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ اللهَ بِهِ عَليمٌ﴾** وما تتصدقوا به من المال، فإن الله يعلمه، وسيجازيكم عليه **﴿الذينَ يُنفقونَ أمْوالَهُمْ بالليْلِ والنَّهار﴾** الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله، بالليل والنهار، من غير سرَفٍ ولا تقتير، ولا فسادٍ ولا تبذير **﴿سِراً وَعَلاَنِيَةً﴾** خفيةً وجهراً، يقصدون وجه الله **﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عندَ رَبهِمْ﴾** لهم ثوابهم وجزاؤ هم عند ربهم **﴿ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** لا خوفٌ عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا في الدنيا.

---

(١) قال الحكماء: إذا اصطنعتَ المعروف فاستُرْه، وإذا اصطُنِعَ إليك فانشره، وأنشدوا:

يُخْفي صَنَائعه واللهُ يُظهِرُها ... إنَّ الجميلَ إذا أَخْفيتَه ظَهَرَا

ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

* * *

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ الذين يتعاملون بالربا، أخذاً، وعطاءً، وأكلاً، وليس المقصود في الآية الأكل فحسب، وإنما وردت تقبيحاً للحال التي هم عليها في مطاعمهم، وتعظيماً لأمر الربا[1] **﴿لا يَقُومُونَ إلاَّ كما يقومُ الذي يتخبَّطُهُ الشَّيْطَانُ من المَسِّ﴾** لا يقومون من قبورهم يوم القيامة، إلا كقيام المصروع الذي يخنقه الشيطان[2] فيصرعه من الجنون **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهم قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾** ذلك الجزاء بسبب أنهم كانوا يكذبون ويفترون ويقولون: الربا مثلُ البيع، فلماذا يكون حراماً؟ **﴿وأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا﴾** أحلَّ الله الربح في التجارة، والبيع والشراء، وحرَّم الزيادة بسبب الأجل، وتأخير الدين **﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ من رَبِّهِ فانْتَهَى﴾** فمن جاءه تذكيرٌ وتخويفٌ من ربه، فانزجر عن أكل الربا وارتدع **﴿فَلَهُ ما سَلَفَ﴾** فله ما مضى، قبل مجيء التحريم **﴿وَأَمْرُهُ إلى اللهِ﴾** أمرُ آكل الربا إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذَّبه **﴿وَمَنْ عَادَ﴾** ومن عاد لأكل الربا، بعد التحريم **﴿فأولئكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فيهَا خالدونَ﴾** فأولئك أهل النار، ماكثون فيها أبداً **﴿يَمْحَقُ اللهُ الربا ويُرْبِي الصَّدَقاتِ﴾** يُنقص اللهُ الربا فيُذهبه[3]، ويُضاعف أجر الصدقات وينمّيها **﴿وَاللهُ لا يُحبُّ كلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾** والله لا يحب المصرَّ على الكفر، المتمادي في الإثم، الذي لا يتَّعظ ولا يرعوي **﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾** صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله **﴿وأقاموا الصلاةَ﴾** أدّوها بأركانها وسننها **﴿وآتوا الزكاةَ﴾** أعطوا الزكاة المفروضة في أموالهم **﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾** لهم ثواب أعمالهم في معادهم **﴿ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾** لا خوفٌ عليهم من العقاب، ولا هم يحزنون على ما تركوا في الدنيا.

---

(١) يكفي أن نعلم عظم هذه الجريمة المنكرة، من تصوير حال المرابين بذلك التصوير الفظيع الشنيع، الذي صوَّرهم به القرآن، صورة الشخص المصروع المخبول، الذي يتخبطه الشيطان من المسِّ أي الجنون، فهو يتخبط ويهذي كالمجنون الذي أصيب في عقله وجسمه، ولكن أهل الفتنة في زماننا، يحاولون أن يهوِّنوا على الناس أمر الربا، وقد عظمه الله وقبحه، وآذن المتعاملين به بحرب من الله ورسوله، ومن أظلم ممن يهوِّن على الإنسان حرب ربه؟ بتحليل ما حرم الله من بعض وجوه الربا، إرضاءً لأهواء الحاكمين؟ فاللهم اهدنا ولا تفتنا كما فتنت رجالاً قبلنا، وثبتنا على دينك الحق يا رب العالمين.

(٢) انظر حكمة التشريع في كتابنا تفسير آيات الأحكام ١ / ٣٩٤

(٣) محق الربا إمَّا بإذهابه بالكلية، أو بحرمانه بركة ماله، وفي الحديث «الربا وإن كثُرَ فإلى قُلٍّ» بخلاف الصدقات، فإن الله يباركها وينميها، حتى إن اللقمة لتكون مثل أحد يوم القيامة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ

* * *

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ خافوا الله على أنفسكم، بطاعته، واجتناب معاصيه ﴿وذَرُوا ما بَقِيَ منَ الرِّبَا﴾ واتركوا ما بقي لكم، من زيادة على رءوس أموالكم ﴿إنْ كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم محققين إيمانكم، قولاً وفعلاً. قال الضحاك: كان رباً يتبايعون به في الجاهلية، فلما أسلموا أُمِروا أن يأخذوا رءوس أموالهم ﴿فإن لم تفعلوا﴾ فإن لم تتركوا الربا ﴿فَأْذَنُوا بحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورسولِهِ﴾ فكونوا على علمٍ ويقين، من حرب الله ورسوله لكم[1] ﴿وإنْ تُبْتُم فلكُمْ رُءُوسُ أَمْوالِكُمْ﴾ وإن أنبتم إلى الله، وتركتم أكل الربا، فلكم رءوس أموالكم، دون الزيادة. ﴿لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمونَ﴾ لا تَظْلِمون غيركم بأخذ الزيادة على أموالكم، ولا تُظْلَمون أنتم بأخذكم رءوس أموالكم فقط[2] ﴿وإنْ كَانَ ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ﴾ وإن كان المستدين معسراً، فعليكم أن تُنظروه إلى ميْسَرة، أي إلى وقت الغنى واليسار ﴿وأَنْ تَصدَّقُوا خيرٌ لكم إن كُنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾ وأن تتصدقوا على هذا المعسر برءوس أموالكم، خيرٌ لكم من أن تُنْظروه، لتقبضوا منه أموالكم، إن كنتم تعلمون فضل الصدقة، وثواب من وضع عن غريمه المعسر دَيْنه ﴿واتَّقُوا يَوْماً تُرْجعون فيه إلى اللهِ﴾ احذروا يوماً رهيباً، تلقون فيه ربكم ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ﴾ ثُمَّ تنال كل نفسٍ جزاءها العادل، وما قدمت من سيءٍ وصالح، لأنه يوم مجازاةٍ بالأعمال ﴿وهم لا يُظْلَمونَ﴾ لا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً، وكيف يُظلم من جوزي بالإساءة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها؟ وهذه آخر آية نزلت من القرآن[3].

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا اللهَ ورسوله ﴿إذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ إذا تبايعتم أو اشتريتم أو تعاطيتم بديْن ﴿إلى أجل مسمًّى فاكتبوه﴾ إلى وقتٍ معلوم، فاكتبوا ذلك الدَّيْن، بيعاً كان أو قرضاً

---

(١) أيُّ مسلم يسمع مثل هذا الوعيد ثم يتعامل بالربا؟ فالويلُ كل الويل لمن سمع هذه الآية ولم يتب من ذنبه، ويكفّ عن التعامل بهذه الجريمة الشنيعة، فالربا والإيمان نقيضان لا يجتمعان

(٢) قال ابن زيد: لا تأخذون باطلاً لا يحل لكم، ولا تُنْقَصُونَ من أموالكم.

(٣) هذه الآية آخر ما نزل من القرآن كما قال الجمهور، ثم انقطع الوحي وعاش بعدها النبي ﷺ تسع ليالٍ، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى، وفيها تذكير للناس بالوقفة الرهيبة، بين يدي أحكم الحاكمين ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾

كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ

* * *

﴿وَلْيَكْتُبْ بينكم كَاتِبٌ بالعَدْلِ﴾ وليكتب الدَّيْن بينكم، كاتبٌ، بالحق والإنصاف **﴿ولا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾** ولا يمتنعْ من استُكتب أن يكتب الدين، كما عَلَّمه الله كتابته، وخصَّه بذلك **﴿فَلْيكتبْ﴾** فليكتبْ الكاتب ذلك الدين، وهو أمرٌ للفرض، وقيل: للندب والإرشاد **﴿وَلْيُمْلِلِ الذي عليه الحقُّ﴾** ليتولَّ المدين إملاء ما عليه من الدين على الكاتب **﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾** وليحذر عقاب الله، أن يُنقصه من حقه شيئاً **﴿ولا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾** ولا يُنقِصْ من حقّ الدائن شيئاً **﴿فإن كان الذي عليه الحقُّ سفيهاً﴾** فإن كان المدينُ جاهلاً بالإملاء، ومواضع الصواب **﴿أَوْ ضَعِيفاً﴾** أو عاجزاً عن الإملاء لعيّ لسانه، أو خرسٍ به **﴿أو لا يستطيع أَنْ يُمِلَّ هُوَ﴾** أو لا يستطيع الإملاء، لكونه محبوساً أو لغيْبته **﴿فَلْيُمْلِلْ وليُّه بالعَدْلِ﴾**فليمْلِ على الكاتب، وليُّ السفيه والضعيف بالحقّ **﴿واستشهِدوا شهيدين من رجالكم﴾** استشهدوا على حقوقكم[١]، شاهدين من المسلمين الأحرار **﴿فإنْ لم يكونَا رَجُلين فَرَجُلٌ وَامْرَأتَانِ مِمَّنْ تَرْضَونَ من الشُّهداءِ﴾** فإن لم يكن الشهود رجلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان على ذلك، من العدول المرتضى دينهُم وصلاحُهم **﴿أَنْ تَضِلَّ إحداهُمَا﴾** كي إن ضلَّت إحداهما[٢] **﴿فَتُذَكِّرَ إحداهما الأُخْرى﴾** ذكَّرتها الأخرى **﴿ولا يَأْبَ الشُّهَداءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾** ولا يمتنع الشهداء عن الشهادة، إذا دُعوا لإقامتها، وأدائها عند الحاكم **﴿ولا تَسْأَموا أَنْ تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله﴾** ولا تملُّوا أن تكتبوا قليل الحق، أو كثيره، إلى أجله المحدَّد، فإن الكتابة أحصى للأجل والمال **﴿ذلكم أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾** اكتتابُ الدَّيْن، أعدل عند الله **﴿وأَقْومُ للشَّهَادَةِ﴾** وأصوبُ لشهادة الشهود، لأنه يحوي إقرار البائع والمشتري، والدائن والمستدين، فلا يقع بين الشهود اختلاف في الـــشـهـادة**﴿وأدنى أَلَّا ترتابوا﴾**وأقرب ألَّا تشكُّوا في الشهادة، إذا كان ذلك مكتوباً **﴿إلَّا أَنْ تكونَ تِجَارةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بينكم﴾** إلا إذا كان البيعُ بالنقود الحاضرة، يداً بيد، بدون

---

(١) انظر كيف أن الباري جل وعلا يعلمنا الكتابة في المعاملات، والنظام في شئون الحياة، ليحل الوئام مكان الخصام، والوفاق مكان الشقاق، فالإسلام ليس دين عبادة فحسب، بل هو دين نظام شامل للحياة، دين عبادة، وأخلاق، واقتصاد، وسياسة، ونظام ، فالحمد لله على نعمة الإسلام.

(٢) ويصح أن يكون المعنى لئلا تنسى إحداهما، أو خشية أن تنسى.

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ * وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ

* * *

أجلٍ ولا تأخير ﴿فليس عليكم جُنَاحٌ أَلَّا تكتُبُوهَا﴾ فلا حرج عليكم ألا تكتبوها، لأن كل واحد يقبض ما وجب له قبل المفارقة، فلا حاجة إلى كتابة ذلك ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ أشهدوا على كل مبيع ومشترى، لئلا تضيع الحقوق ﴿ولا يُضَارَّ كاتِبٌ ولا شَهِيدٌ﴾ لا تُلحقوا الضرر بالكاتب والشاهد، بأن يأبى الرجل على الكاتب، إلا أن يكتب له وهو مشغول بأمر نفسه، ويأبى على الشاهد إلا أن يجيبه إلى الشهادة وهو غير فارغ، قال مجاهد: لا يأت الرجل فيقول :انطلقْ فاكتبْ لي، واشْهَدْ لي، فيقول: إن لي حاجة وأنا في شُغل، فالتمسْ غيري، فيقول: اتق الله، فإنك قد أُمرت أن تكتب لي، فهذه المضارَّة، فأمره تعالى أن يطلب غيرهما ولا يضارهما ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ وإن تُضارُّوا الكاتب، أو الشاهد، فقد عصيتم ربكم وأثمتم، وخرجتم عن طاعته ﴿واتَّقُوا الله﴾ خافوا الله، في حدوده أن تُضيّعوها ﴿ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾[١] أمور دينكم، ما يجب لكم وعليكم ﴿واللهُ بكل شيءٍ عليمٌ﴾ والله عالم بكل أعمالكم، وسيجازيكم عليها ﴿وإنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ ولم تَجِدُوا كَاتِباً فرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ إذا كنتم مسافرين، ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم أمر الدين، فارتهنوا بديونكم رهوناً تقبضونها، لتكون ثقةً لكم بأموالكم ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ فإن ائْتمنَ بعضكم بعضاً، فلم يأخذ منه رهناً، لثقتهِ به ﴿فَلْيُؤَدِّ الذي ائْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ فليدفعْ المَدِينُ دَيْنَه، الذي ائتمنه عليه، وليخفْ الله ربه أن يجحده حقه، فيتعرض لعقوبة الله ﴿ولا تكتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ ولا تكتموا[٢] ـ أيها الشهود ـ شهادتكم عند الحكام ﴿ومن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُه﴾ ومن يكتم شهادته، فإنه فاجرٌ، مكتسبٌ بذلك معصية الله ﴿والله بما تعملون عليمٌ﴾ عالمٌ بجميع أعمالكم، ومجازيكم عليها، إمَّا خيراً وإمَّا شراً.

---

(١) إذا اتقى العبد ربه، فتح الله عليه فتوح العارفين، ورزقه العقل والفهم، وبصَّره سبيل الرشد والفلاح، ومصداق هذا قوله تعالى ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ وقد أشار الإمام الشافعي رحمه الله إلى ذلك بقوله

شكوتُ إلى وكيعٍ سوءَ حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأنَّ العلمَ نورٌ ... ونورُ اللهِ لا يُهدى لعاصي

(٢) أي أدوها ولا تكتموها، لتُردَّ الحقوق إلى أربابها، والمظالم إلى أصحابها، وكفى بها موعظة!!.

أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا

* * *

﴿لله ما في السمواتِ وما في الأرض﴾ لله مُلك كل ما في السموات والأرض، إليه تدبيرُه، وبيده تقليبُه، لا يخفى عليه منه شيء، لأنه مالكه، ومدبِّره، ومصرِّفه ﴿وإنْ تُبْدُوا ما في أنْفسِكُمْ أو تُخفوهُ يُحَاسِبكُمْ بِهِ اللهُ﴾ وإن تُظهروا ما في أنفسكم ـ أيها الناس ـ أو تُسرُّوه وتخفوه، بحيث لا يطلع عليه أحد، يحاسبكم عليه ربكم ﴿فيغفر لمن يَشاءُ ويُعَذِّبُ من يشاء﴾ يغفر لأهل الإيمان، ويُعذِّب أهل الشرك والعصيان ﴿واللهُ عَلى كل شيءٍ قدير﴾ والله عزَّ وجل، قادرٌ على كل شيءٍ ﴿آمَنَ الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه من ربه﴾ صدَّق الرسول محمد ﷺ، بما أوحاه إليه ربه من القرآن ﴿والمؤمنونَ كلٌّ آمنَ باللهِ وملائكته وكتبه ورسله﴾ وصدَّق المؤمنون أيضاً مع نبيّهم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ من رُسُلِهِ﴾ يقولون: نصدِّق بجميع الرسل، ولا نؤمن ببعض ونكفر ببعض[١]، كما فعل اليهود والنصارى ﴿وَقَالُوا سمعنا وأطعنا﴾ سمعنا قولَ ربنا، وأطعنا أمره ﴿غفرانك رَبَّنَا وإليك المصيرُ﴾ استرْ واصفحْ عنا يا ربنا ذنوبنا، وإليك مرجعُنا ومعادُنا، فاغفرْ لنا ﴿لا يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ﴾ لا يكلف الله نفساً بما يُجْهدها، أو يُضيّق عليها؛ بل بقدر طاقتها، لها ما عملت من خير، وعليها ما عملت من شر ﴿رَبَّنَا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ هذا تعليمٌ للعباد والدعاء، أي قولوا: يا ربنا اصفحْ عنا، ولا تعاقبنا على شيءٍ قصَّرنا فيه، أو أخطأنا في فعله، على غير قصدٍ منا إلى المعصية ﴿رَبَّنا ولا تَحملْ عَلَيْنَا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الَّذينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ لا تحملْ علينا عهداً نعجز عن القيام به، ولا تكلفنا بما يشق علينا، كما كلِّفت به من قَبْلَنا، كاليهود والنصارى ﴿رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ربنا لا تكلفنا من الأعمال، ما لا نطيق القيام به، لثقل حمله علينا ﴿واعْفُ عَنَّا واغْفِرَ لنا وارْحَمْنَا﴾ اعفُ عن تقصيرنا، واسترْ علينا ذنوبنا، فلا تفضحنا، وتغمدنا برحمتك التي وسعت كل شيء ﴿أَنْتَ مَوْلاَنَا﴾ أنت وليُّنا بنصرك، لأننا

(١) ليس معنى التفريق بين الرسل التفضيل بينهم، فذلك ثابت بنص القرآن ﴿ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض﴾ ولكن المراد بالتفريق الإيمان بالبعض والكفر بالبعض كما سنوضحه إن شاء الله في سورة النساء.

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

* * *

نؤمن بك ونطيعك ﴿فانصرنا على القوم الكافرينَ﴾ انصرنا على الجاحدين بوحدانيتك، الذين عبدوا الآلهة والأنداد، فإنَّا حزبك المؤمنون. . عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية «آمن الرسول بما أُنزل إليه» قرأها رسول الله ﷺ فلما انتهى إلى قوله «غفرانك ربنا» قال الله عز وجل: قد غفرتُ لكم، فلما قرأ «ربَّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال الله عز وجل: لا أحمِّلكم، فلما قرأ «واغفرْ لنا» قال الله تعالى: قد غفرتُ لكم، فلما قرأ «وارحَمْنَا» قال الله عز وجل: قد رحمتُكم، فلما قرأ «أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» قال الله عز وجل: قد نصرتكم عليهم[1]

« تم بعون الله وتوفيقه تفسير سورة البقرة »

* * *

(١) خُتمت هذه السورةُ الكريمةُ بهذه الآيات الروائع، وذلك للمناسبة التَّامةِ بين ما اشتملت عليه السورة، من تكاليفَ شرعيةٍ كثيرة، كالصَّلاة، والزكاة، والصَّوم، والحج والقصاص، والجهاد، والطلاق، والعدة، والبيع . . . إلى غير ما هنالك من التكاليف والأوامر الإلّهية، وبين الحساب والجزاء، الذي ينتظر الإنسان في الدار الآخرة، لتُجزى كل نفسٍ بما كسبت، وتوفّى جزاءها العادل، فناسب أن يذكّرنا الله تعالى بفضله علينا، بأنه لم يكلِّفْ أحداً من الخلق بما يشقُّ عليه، بل كلَّفه بما فيه طاقتُه وقدرتُه ﴿لا يكلِّفُ اللّهُ نفساً إلاّ وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ﴾ ويا له من تناسقٍ عجيب، جميع بين التشريع والتكليف، والترغيب والترهيب!!



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَـٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾

* * *

﴿الٓمٓ﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة[1] ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ لا معبود بحقٍ إلا الله ، لانفراده بالربوبية ، وتوحُّده بالألوهية ﴿الحيُّ القَيُّومُ﴾[2] الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ، القائم على تدبير شئون الخلق، بالحفظ والرزق والرعاية ﴿نَزَّلَ عليْكَ الكِتَابَ بالحقِّ﴾ نزَّل عليك ربك يا محمد هذا القرآن ، بالصِّدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل ﴿مُصَدِّقاً لما بين يديه﴾ مصدِّقاً لما سبقه من كتب الله المنزلة على أنبيائه ورسله ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإنجِيلَ. من قبلُ هُدَى للناسِ﴾ وأنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ، من قبل هذا القرآن ، بياناً للناس إلى توحيد الله وشرائع دينه ﴿وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ﴾ وأنزل الحجة البالغة القاطعة ، في الفصل بين الحق والباطل ، في أمر عيسى وغيره من الأمور ﴿إنَّ الذينَ كفروا بآياتِ اللَّهِ﴾ جحدوا آياتِ الله ، وأدلته على توحيده وألوهيته ، واتخذوا المسيحَ إلَهاً وربّاً ﴿لهم عذابٌ شديدٌ﴾ لهم عذاب شديد يوم القيامة ،وهذا وعيدٌ لمن عاند الحق بعد وضوحه ، وخالف سبيل الهدى بعد قيام الحجة عليه ﴿واللَّهُ عَزيزٌ ذو انتقام﴾ والله غالبٌ في

(١) انظر ما ذكره الشيخ الطبري في أول سورة البقرة ، وما ذكرناه في التعليق حول الحروف المقطعة ، والتحقيق الدقيق فيها

(٢) هذه السورة الكريمة ابتدأ الله جل وعلا فاتحتها بنفي الألوهية عن غيره ، وبإثبات الوحدانية له ، احتجاجاً على النصارى الذين زعموا أن عيسى هو الله أو ابن الله وقد نزل ما يقرب من ثمانين آية في وفد نصارى نجران ، الذين جادلوا الرسول ﷺ في شأن المسيح ، فزعموا أنه هو الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، فردت عليهم بالحجة الدامغة، والبرهان القاطع

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا

* * *

سلطانه ، لا يمنعه مانع ممن أراد عذابه ، منتقمٌ ممَّن جحد أدلته وحُجَجه **﴿إنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ في الأَرْضِ وَلَا في السَّمَاءِ﴾** لا يخفى عليه شيء هو في الأرض ، ولا شيءٌ هو في السماء ، فكيف يخفى عليه شأن هؤلاء المجادلين في شأن عيسى ابن مريم ؟ **﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ في الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** يجعلكم صوراً في أرحام أمهاتكم كيف أحبَّ ، من ذكرٍ وأنثى ، وأسود وأحمر ، وقد صوَّر عيسى في رحم أمه ، فكيف يكون إلٰهاً وقد كان بذلك المنزل ؟! **﴿لا إلَه إلاَّ هُوَ﴾** لا معبود بحقٍ إلاَّ هو **﴿العزيز الحكيم﴾** العزيز في انتقامه ، الحكيم في أمره وتدبيره

﴿هو الذي أنزلَ عليكَ الكتابَ فيه آياتٌ مُحْكَماتٌ﴾ اللّه الذي أنزل عليك يا محمد القرآن ، فيه آياتٌ واضحات بيِّنات ، قد أُحكمن بالبيان والتفصيل ، في الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ، والحلال والحرام ، والعظة والعِبر **﴿هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ﴾** هنَّ أصلُ الكتاب الذي فيه عماد الدين ، من الفرائض والحدود ، والأحكام ، وسائر الأمور الضرورية **﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾** وآياتٌ أخر متشابهات في التلاوة ، مختلفات في المعاني[١] **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾** فأمّا الذين في قلوبهم ميلٌ عن الحقِّ وانحرافٌ عنه **﴿فَيَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنهُ﴾** فيتبعون من آي الكتاب ما تشابهت ألفاظه **﴿ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ﴾** إرادة اللَّبس ، وطلباً لتفسيره على أهوائهم الباطلة ، دون الحق الذي أبانه الله فأوضحه بالمحكمات من الآيات **﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللَّهُ﴾** وما يعلم معنى المتشابه إلا الله وحده **﴿والرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾** العلماء المتمكنون في العلم ، يقولون صدَّقنا بالمتشابه من الكتاب وإن لم نعلم تأويله **﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾** كلٌّ من المحكم والمتشابه منزَّل من عند الله **﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُوا الأَلْبابِ﴾** وما يتذكر ويتعظ إلاّ أصحاب العقول **﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾** يقولون يا ربنا لا

---

(١) أرجح الأقوال في معنى « المحكم والمتشابه » هو : المحكم ما عرف العلماء تأويله ، وفهموا معناه وتفسيره ، والمتشابه ما لم يكن لأحدإلى علمه سبيل ، مما استأثر الله عز وجل بعلمه دون خلقه ، كوقت خروج عيسى ، ووقت طلوع الشمس من مغربها ، وقيام الساعة ، وفناء الدنيا وما أشبه ذلك ، وهو اختيار الطبري

وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى

* * *

تُمل قلوبنا فتصرفها عن هُدَاك بعد إذ هديتنا فوفقتنا للإيمان ﴿وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ وامنحنا من عندك رحمةً ، وتوفيقاً وثباتاً على الحق ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾ إنك أنت المعطي عبادك التوفيق والسدادَ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ربنا إنّك جامعُ الناسِ في يوم القيامة الذي لا شكَّ فيه ، فاغفر لنا في ذلك اليوم وارحمنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الميعادَ﴾ فإنك لا تخلف وعدك ، لمن آمن بك واتَّبع رسولك ﴿إِنَّ الذين كفروا لن تغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهُمْ من اللَّهِ شيئاً﴾ إنَّ الذين جحدوا الحقَّ ، وأنكروا نبوة محمد ﷺ من اليهود والمنافقين وكفار العرب ، لن تنجيهم أموالهم ولا أولادهم من عقوبة الله ولن تفيدهم شيئاً ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ وهم في الآخرة حطب جهنم ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ والذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كعادة آل فرعون وسُنَّتهم ، ومن سبقهم من الأمم الطاغية كقوم نوح وهود ولوط ﴿كذَّبُوا بآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ كذَّبوا بآيات ربهم ، فأخذناهم بذنوبهم وأهلكناهم ، فلم تُغنِ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴿واللَّهُ شَدِيدُ العِقابِ﴾ وعقاب الله شديدٌ ، لمن كفر به وكذَّب رسله ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرونَ إلى جَهَنَّم﴾[1] قل يا محمد لهؤلاء الكافرين من اليهود ستُغلبونَ وتُجمعون وتُساقون إلى جهنم ﴿وبِئْس المهادُ﴾ وبئس الفراش جهنم

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ قد كان لكم يا معشر اليهود ، علامة ودلالة على صدق ما أقول من هزيمتكم وغلبتكم ، في فرقتين وجماعتين من الناس ، التقتا في الحرب ﴿فئةٌ تُقاتِلُ في سبيلِ اللَّهِ وأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ جماعةٌ تقاتل من أجل دين الله وهم الرسول وأصحابه ، وجماعة أخرى كافرة وهم مشركو قريش . قال مجاهد : ذلك يوم بدر ، التقى المسلمون والكفار ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ

---

(١) روي أن النبي ﷺ لما أصاب قريشاً يوم بدر ، جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال : يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً ، فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم ، فقالوا يا محمد لا يغرنَّك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً ـ أي جهلاء ـ لا يعرفون القتال ! إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس !! فنزلت الآية

ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟

* * *

﴿الْعَيْنِ﴾ يرى المسلمون الجماعة الكافرة مثليهم - ضعفيهم - في كثرة العدد، رؤيةً حقيقية بأبصارهم **﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾** والله يقوّي بنصره من شاء من عباده **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾** إن في نصرة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، لمتفكراً ومتعظاً لمن عقل وأبصر الحق **﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾** زُيِّنَ للناس محبة ما يشتهون من النساء والبنين **﴿والقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ﴾** والمال الكثير الذي لا يُحدُّ قدره من الذهب والفضة **﴿والْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾** والخيل المعلَّمة المطهَّمة الحِسان ، التي تُعجب من رآها **﴿والأَنْعَامِ والْحَرْثِ﴾** والأنعام[1] جمعُ نعم وهي « الإبل والبقر والغنم » والحرث وهو الزرعُ **﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** ذلك المذكور من شهوات الدنيا ، هو ما يُستمتع به فيها دون الآخرة **﴿واللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾** وعند الله حسن المرجع والمنقلب للمتقين **﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾** قل يا محمد أأخبركم وأُعلمكم بخيرٍ وأفضل لكم من شهوات الدنيا ؟! **﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾** للذين خافوا الله فأطاعوه، بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، لهؤلاء المتقين بساتينُ تجري من تحت أشجارها أنهارُ الجنة **﴿خالدين فيها﴾** ماكثين فيها أبداً **﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾** وزوجاتٌ في الجنة ، مطهراتٌ من كل أذى يلحق نساء أهل الدنيا ، من الحيض ، والبول، والنفاس وغير ذلك **﴿ورضوانٌ من اللَّهِ﴾** ورضىً من الله عليهم ، وإنما ذكر « الرضوان » لأنه أعلى كرامةٍ لأهل الجنة **﴿واللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾** ذو بصرٍ بمن يتقيه ومَنْ يعصيه ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته **﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾** هؤلاء المتقون هم الذين يقولون ربنا إننا صدَّقنا بك ، وبنبيّك ، وبما جاء به من عندك **﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾** فاستُرْ علينا ذنوبنا بعفوك **﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** وادفع عنا عذاب النار ، فلا تعذبنا بها يا ربنا **﴿الصَّابرينَ والصَّادقينَ﴾** الذين صبروا في البأساء والضرَّاء ، وصَدقوا اللهَ في قولهم وفعلهم **﴿وَالْقَانِتِينَ**

---

[1] الأنعام الماشية التي ترعى ؛ واحدها نَعَم ، والعرب إذا أفردت النَّعَم لم يريدوا بها إلا الإبل ، فإذا قالوا الأنعام أرادوا بها الإبل والبقر والغنم ، كذا في لسان العرب

ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ

* * *

﴿والمُنْفِقِينَ﴾ والمطيعين لله ، والمنفقين أموالهم في وجوه الخير ﴿والْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ والسائلين ربهم المغفرة وقت السحر ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ شهد تعالى بأنه الواحد الأحد ، ولا معبود بحقٍ إلا هو ، لأنه الخالق لكل ما سواه ﴿والْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ﴾ وشهدت الملائكةُ وأهل العلم أنه لا إِلَه إلا هو ، وأَنَّ كل من اتخذ رباً دون الله فهو كاذب ﴿قَائِماً بالقِسْطِ﴾ قائماً بالعدل بين خلقه ﴿لا إِلَه إلا هو﴾ لا معبود بحقٍ إلا هو ﴿العزيز الحكيمُ﴾ العزيز في انتقامه ، الحكيم في تدبيره ﴿إِنَّ الدِّينَ عندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ إنَّ الدين الذي شرعه الله ، وبعث به رسله ، والذي لا يقبل غيره هو الإسلام ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ﴾ وما اختلف النصارى - الذين أوتوا الإنجيل - في أمر عيسى ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ إلا من بعد ما علموا الحقَّ عن يقين ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ تعدياً من بعضهم على بعض ، وطلب الرياسة والمُلْكِ والسلطان ﴿ومَنْ يَكْفُرْ بآياتِ اللَّهِ﴾ ومن يجحد حُجج الله وبراهينه ، التي نصبها لمن عقل واعتبر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾ محصٍ على كل إنسانٍ أعماله ومجازيه عليها ، بغير كُلْفةٍ ولا مُؤْنة، ولا معاناةٍ للحساب[1] ﴿فإن حاجُّوكَ﴾ فإن جادلك النصارى في أمر عيسى ، وخاصموك فيه بالباطل ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ﴾ فقل انقدتُ للَّهِ وحده ، بلساني وقلبي وجوارحي[2] ﴿ومن اتَّبَعَنِ﴾ وأسلم من اتبعني أيضاً وجهه لله ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ وقل لليهود والنصارى ولمشركي العرب هل أفردتم التوحيد ، وأخلصتم العبادة والألوهية لرب العالمين ؟ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَد اهْتَدَوْا﴾ فإن انقادوا وأخلصوا العبادة لله ، فقد سلكوا سبيل الرُّشْد ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ البَلاَغُ﴾ وإن أعرضوا عمَّا تدعوهم إليه من الإسلام والتوحيد ، فإنما أنت يا محمد رسولٌ مبلّغ ، ليس عليك إلا تبليغ الرسالة ﴿واللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ مطّلع على عباده ، وسيجازيهم على أعمالهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرونَ بِآياتِ اللَّهِ﴾ يجحدون حجج الله من اليهود

---

(١) معنى « سريع الحساب » أنه يحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان ، لأنه لا يشغله شأن عن شأن ، كذا نقل عن ابن عباس

(٢) إنما خصَّ الوجه بالذكر ، لأنه أكرم أعضاء الإنسان وجمالُ الإنسان وبهاؤه به ، فإذا خضع وجهه لشيء فقد خضعت له سائر الأعضاء

بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

* * *

والنصارى(١) ﴿ويقتلونَ النبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ويقتلون رسل الله كزكريا ويحيى وما أشبههما من أنبياء الله ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ ويقتلون الذين يأمرون بالعدل ، وينهون عن ارتكاب معاصي الله(٢) ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليم﴾ فأخبرْهُم يا محمد وأعلمهم بعذاب مؤلم موجع ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ﴾ بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فباللعنة والمذمة ، لأنهم كانوا على ضلال وباطل ، فلم يرفع الله لهم بها ذكراً ، بل لعنهم وهتك أستارهم ، وأما في الآخرة فبالحرمان من النعيم والخلود في الجحيم ، لأن أعمالهم تصير بوراً لا ثواب لها ﴿وما لهم من ناصرين﴾ وما لهم ناصرٌ ينصرهم من الله، ويستنقذهم من عذابه ﴿ألم تَرَ إلى الذينَ أُوتُوا نصيباً من الكتابِ﴾ ألم تر يا محمد إلى الذين أُعطوا حظاً من الكتاب ـ وهو التوراة ـ ﴿يُدْعَوْنَ إلى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ يُدعون إلى التوراة التي يُقرُّون أنها من عند الله ، لتحكم بينهم في بعض ما تنازعوا فيه مع الرسول ﷺ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ثم يستدبر جماعة منهم عن كتاب الله منصرفين عنه ، وهم عالمون بحجته ، فكانت الحجة عليهم أبلغ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾(٣) إنما أبوا الإجابة إلى حكم التوراة، من أجل قولهم لن تمسنا النار إلَّا أربعين يوماً ـ وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل ـ ﴿وَغَرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون﴾ اغتراراً منهم بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل ،حين قالوا : « نحن أبناء الله وأحباؤه » ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ فكيف حالهم إذا جمعناهم ليوم لا شك في مجيئه ؟ وما أعظم ما يلقون من عقوبة الله وتنكيله في ذلك اليوم الرهيب ؟ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ﴾ ووفَّى اللَّهُ كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ

---

(١) الآية عامة لكل كافر وجاحد ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، فهي وإن كانت قد نزلت في فريق من اليهود والنصارى ، إلا أنها عامة ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

(٢) رُوي أن اليهود قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً في أول النهار ، فقام مائة رجل من عُبَّاد بني إسرائيل من أتباع الأنبياء ، فنصحوهم وذكَّروهم فقتلوهم من آخر النهار جميعاً ففيهم نزلت .

(٣) التعبير بالبشارة في موطن العذاب للسخرية والتهكم ، ويسمى هذا الأسلوب التهكمي .

مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ

* * *

وشرٌ ﴿وهم لا يُظلمونَ﴾ لا يخاف أحدٌ يومئذٍ ظلماً ولا هضماً ، لأنه لا يُبخس المحسنُ جزاء إحسانه ، ولا يعاقب المسيءُ بغير إجرامه /.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ﴾ قل يا محمد : يا أللهُ يا مالك المُلكِ ، يا من له ملك الدنيا والآخرة ﴿تُؤتي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ﴾ تعطي الملك من تشاء فتملّكه وتسلطه على من تشاء ، وتسلب الملك ممن تشاء أن تسلبه منه ﴿وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ﴾ وتُعزُّ من تشاء بإعطائه المُلْك والسلطان ، وتُذِلُّ من تشاء بسلب ملكه وتسليط عدوه عليه ﴿بيدِكَ الخيرُ﴾ كلُّ ذلك بيدك وإليك ، لا إلى غيرك ﴿إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ﴾ لا يقدر على ذلك أحد غيرك ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهارِ وتُولِجُ النَّهارَ في اللَّيْلِ﴾ تُدخل ما نقصت من ساعات الليل في ساعات النهار ، وبالعكس . قال ابن عباس ما نقص من النهار يجعله في الليل ، وما نقص من الليل يجعله في النهار ﴿وَتُخْرِجُ الحيَّ من الميّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ تخرج الإنسان الحيَّ من النطفة الميتة ، وتُخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي ، وكذلك الأنعام والبهائم ، فالنطفة ميتةٌ ثم يُنشىء الله منها إنساناً حياً ، ومن الإنسان الحيِّ تخرج النطفة الميتة ، وقيل : يُخرج النخلة من النواةِ ، والنواة من النخلة ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن[1] ﴿وتَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بغيرِ حِسَابٍ﴾ وتجود على من تشاء من خلقك ، بغير محاسبة لمن أعطيته ، لأن خزائنك لا تنقص /

﴿لا يَتَّخِذِ المُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2] لا تتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً ، توالونهم في دينهم وتدلونهم على عورات المسلمين ﴿ومَنْ يَفعلْ ذٰلِكَ فلَيْسَ مِنَ اللَّهِ في شَيْءٍ﴾ ومن يتخذ الكافرين أولياء ، فقد برىء من الله وبرىء الله منه ﴿إلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً﴾ إلاَّ أن تخافوا منهم مخافة ، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم ، وتضمروا لهم العداوة بقلوبكم ﴿ويُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾

---

(١) المعنى الأول الذي أورده الطبري فهو على سبيل الحقيقة ، وأما إخراج المؤمن من الكافر وبالعكس فهو على سبيل المجاز .

(٢) كان لبعض المؤمنين أصحابٌ من اليهود يوالونهم ، فقال لهم بعض الصحابة اجتنبوا هؤلاء اليهود ، واحذروا مصاحبتهم لئلا يفتنوكم عن دينكم ويضلوكم بعد إيمانكم ، فلم يقبلوا النصيحة فنزلت الآية

وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

* * *

ويخوِّفكم الله من نفسه ، أن ترتكبوا معاصيه أو توالوا أعداءه ﴿وإلى الله المصيرُ﴾ إلى الله مرجعكم ومصيركم بعد مماتكم ، فيحاسبكم على أعمالكم ﴿قُلْ إنْ تُخْفُوا ما في صُدُورِكم أو تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الذين يوالون الكافرين إنْ تُسِرُّوا ما في نفوسكم من موالاة الكفار ، أو تُظهروه بألسنتكم وأفعالكم يعلمه الله ، فإنه لا يخفى عليه شيء ﴿ويعلم ما في السمواتِ وما في الأرضِ﴾ لا يخفى عليه شيء هو في سماءٍ أو أرض أو حيث كان ، فكيف يخفى عليه ما في صدوركم من الميل إلى الكافرين بالمودة والمحبة ، أو ما تبدونه لهم بالمعونة فعلاً وقولاً ؟ ﴿واللّهُ على كل شيء قديرٌ﴾ قادرٌ على معاجلتكم بالعقوبة على موالاتكم الكافرين ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ مُحْضَراً﴾ ويحذركم الله نفسه ، في اليوم الذي تجد فيه كل نفسٍ ما عملته من خير موفَّراً حاضراً ﴿وَمَا عَمِلَتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أنَّ بَيْنَها وبَيْنَهُ أمَداً بَعِيداً﴾ والذي عملته من سوء ، تودُّ لو أنَّ بينها وبينه غايةً بعيدة[1] ﴿ويُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَه﴾ يخوفكم سخطه وعقابه ﴿واللّهُ رَءُوفٌ بالعِبَادِ﴾ رحيمٌ بهم ، ومن رأفته بهم تحذيره إياهم نفسه وتخويفهم عقوبته ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ﴾ قل يا محمد إن كنتم كما تزعمون تحبون الله ، وأنكم تعظِّمون المسيح حباً منكم لربكم[2] ﴿فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فحققوا قولكم باتباعي ، فإن ذلك علامة صدقكم في محبتكم لله ﴿وَيَغْفِرْ لكم ذنوبكم﴾ يصفح ويعفو عما مضى من ذنوبكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لذنوب عباده، رحيم بهم﴿قُلْ أطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ﴾ أطيعوا الله ورسوله محمداً ﷺ ﴿فإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه ، فأعلمْهم أن الله لا يحب الجاحد للحق ، بعد معرفته له .

﴿إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعَالَمين﴾ اختار آدم ونوحاً ، واختار

(١) قال الحسن يَسُرُّ أحدَهم أن لا يلقى عمله القبيح أبداً ، وأما في الدنيا فقد كانت خطيئةً يستلذها

(٢) نزلت في وفد نصارى نجران جاءوا يجادلـون رسول الله ﷺ في أمر عيسى ، فمرةً كانوا يقولون إن عيسى هو الله ، وأخرى يقولون إنه ابن الله ؛ ومرة يقولون : إنه ثالث ثلاثة ، فنزلت الآية رداً عليهم ، وهي عامة

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ

* * *

المؤمنين من آل إبراهيم وآل عمران ، ففضَّلهم على الناس جميعاً لدينهم ، لأنهم كانوا أهل الإسلام . **قال قتادة** ذكر الله أهل بيتين صالحين ، ورجلين صالحين ، ففضَّلهم على العالمين ، فكان محمد من آل إبراهيم ، **وقال الحسن** : كانوا هم الأنبياء الأتقياء المصطفين لربهم **﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ﴾** ذريةً بعضهم من بعض في الصلاح والدين ، والإخلاص والتوحيد لله[1] **﴿واللَّهُ سميعٌ عليمٌ﴾** سميعٌ لأقوال العباد عليمٌ بأفعالهم **﴿إِذْ قالَتِ امْرَأَةُ عِمْرانَ﴾** حين قالت « حنَّة » زوجة عمران وأم مريم جدة عيسى عليه السلام **﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحَرَّراً﴾** جعلت لك يا رب الذي في بطني نذراً محرَّراً أي خالصاً من شواغل الدنيا لخدمة بيتك المقدس **﴿فَتَقَبَّلْ مِنّي﴾** تقبَّل مني ما نذرتُ لك يا رب **﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العليمُ﴾** السميع لدعائي ، العليم بما في نفسي **﴿فلما وضعتها قَالَتْ رَبِّ إني وضعتُها أُنثى﴾** فلما ولدتها قالت يا ربِّ إني ولدتُ النذيرة أنثى **﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعتْ﴾** واللهُ أعلم من كل خلقه بما ولدت ، من غير أن تقول ذلك ، وهي جملة اعتراضية ثم عاد الخبر عن قولها ، فقالت معتذرة إلى ربها مما كانت نذرت في حملها **﴿ولَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثى﴾** الذكرُ أقوى على الخدمة وأقوم بها ، والأنثى لا تصلح ـ في بعض الأحوال ـ لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة ، لما يعتريها من الحيض والنفاس **﴿وإنّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ﴾** أسميتُ هذه المولودة مريم **﴿وإنّي أُعيذُها بِكَ وذريتها من الشيطانِ الرجيم﴾** وإني أجيرها وأحصِّنها بك يا رب هي وأولادها من شر الشيطان الرجيم ، فاستجاب الله دعاءها، ولم يجعل له عليها سبيلاً[2] **﴿فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾** تقبَّل الله مريم من أمها لخدمة بيت المقدس قبولاً حسناً **﴿وَأَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً﴾** وأنبتها ربها حتى صارت بالغة كاملة[3] **﴿وكَفَّلَها زَكَرِيّا﴾** وضمَّها الله إلى زكريا ليتكفل بتربيتها[4] **﴿كُلَّما دَخَلَ عليها زكريا المحرابَ﴾** كلما دخل زكريا

---

(١) المراد أنهم في الدين والتقى والصلاح متفقون، وهم على قدم واحدة في الطاعة لله والإخلاص له جل وعلا، وليس المراد أنهم من نسبٍ واحد .

(٢) في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ما من مولود يولد إلا يمسُّه الشيطان ، فيستهل صارخاً من مسِّ الشيطان ، إلا مريم وابنها ، واقرأوا إن شئتم ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾

(٣) شبَّه حفظ الله ورعايته لمريم بالنبات الذي يُسقى فينبت زاهياً حسناً ، ففي الآية استعارة لطيفة للتربية الحسنة .

(٤) كان زكريا وعمران قد تزوجا أختين ، فكان عيسى ويحيى ابني الخالتين ، ومن أجل ذلك تكفل زكريا بمريم بعد موت أبيها .

يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٤١﴾

* * *

على مريم في مجلسها ومصلاَّها ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ وجد عندها طعاماً قيل كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ﴿قال يا مريمُ أنّى لكِ هذَا﴾ من أين لك هذا الرزق ؟ ﴿قالت هو من عند الله﴾ رزقٌ ساقه الله إليَّ . قال ابن عباس كان يجد عندها الفاكهة الغضَّة حين لا توجد الفاكهة عند أحد ﴿إنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ منْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يسوق الرزق لمن شاء من خلقه بغير إحصاءٍ ولا عدد ﴿هُنالِكَ دَعَا زكَرِيَّا ربَّهُ﴾ فعند ذلك دعا زكريا ربه ، ورجا أن يرزقه من امرأته العاقر ، مع كبر سنه ولداً ﴿قَال ربِّ هبْ لي من لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً﴾ ارزقني يا رب من عندك ولداً مباركاً ﴿إنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ تسمع دعاء من دعاك ، وتجيب نداءه ﴿فنادَتْهُ الملائِكَةُ وهو قائِمٌ يُصَلّي في المِحْرابِ﴾ فنادته الملائكة في حال قيامه مصلياً[1] في مقدَّم المسجد ﴿أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بيَحْيَى﴾ أن الله يسرُّك بولدٍ يهبه لك يسمى يحيى . ﴿مصدِّقاً بكلمةٍ من الله﴾ مصدِّقاً بعيسى عليه السلام ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾ وشريفاً في قومه في عبادته وحلمه وورعه ، وحَصُوراً[2] أي ممتنعاً من جماع النساء ﴿ونبياً من الصالحين﴾ ونبياً من أنبيائه الصالحين ﴿قال ربِّ أنَّى يكونُ لي غلامٌ﴾ من أين يأتيني غلامٌ ، وكيف يكون ذلك ؟ ﴿وَقَدْ بلغنيَ الكِبَرُ وامرأتي عاقِرٌ﴾ وقد بلغتُ من السنِّ ما بلغتُ ، وامرأتي عاقر لا تلد ؟ لم يكن قوله شكاً ولكن للتثبت من البشارة ﴿قال كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ الأمر هيِّنٌ على الله ، أن يخلق ولداً من الكبير الذي يئس من الولد ، ومن العاقر التي لا تلد ، كما خلقك من قبل ولم تك شيئاً ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لي آيَةً﴾ اجعل لي علامة على وقت ولادته ﴿قَالَ آيَتُكَ ألَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أيّامٍ إلا رَمْزاً﴾ قال علامتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا بالإيماء بالشفتين وبالإشارة ، من غير خَرَس ولا عاهة ولا مرض ﴿واذكرْ رَبَّكَ كثيراً﴾ اذكر ربك ذكراً كثيراً ، فإنه لا يحال بينك

---

(١) في الآية إشارة إلى أن الصلاة مفتاحٌ للخيرات ، وبها تُستجاب الدعوات ، فمن كان له حاجة عند الله فليقبل على الصلاة بخشوع وخضوع ثم يدعو ربه ، وقد كان ﷺ إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة

(٢) الحصور : الذي لا يأتي النساء تعففاً وزهداً لا عجزاً ، وأما ما قيل إنه كان عِنّيناً لا يستطيع غشيان النساء فغير صحيح ، لأنه نقصٌ في الرجولة ، والآية وردت مورد المدح والثناء لا مورد ذكر المعايب ، وانظر كتابنا صفوة التفاسير ١/ ٢٧٠

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

* * *

وبين ذكره ﴿وسبِّحْ بالعشيِّ والإبكار﴾ عظِّمْ ربك بعبادته«بالعشي»أي من حين الزوال إلى الغروب ، «والإبكار»من طلوع الفجر إلى الضحى ﴿وإذ قَالَتِ المَلائكةُ يا مَرْيَمُ إنَّ اللهَ اصطفاكِ﴾ اختاركِ واجتباكِ لطاعته ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ طهَّركِ من الريب والأدناس ﴿واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمين﴾ اختارك على نساء العالمين في زمانك ، ففضَّلكِ عليهم ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتي لِرَبِّكِ﴾ أخلصي الطاعة لربك وحده ﴿واسجدي واركعي مع الراكعينَ﴾ اخشعي لطاعته وعبادته ، مع من خشع له من خلقه ، شكراً له على الاصطفاء والتفضيل ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ هذه الأخبار التي قصصناها عليك يا محمد ، من أخبار الغيب التي لم تطَّلع عليها أنت ولا قومك ، ولم يعلمها إلا قليل من أحبار اليهود والنصارى ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ننزله عليك يا محمد ﴿وَمَا كُنْتَ لَـدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ﴾ وما كنت عندهم حين يلقون سهامهم التي يستهمون بها ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَم﴾ أيهم أولى بكفالتها وأحقُّ ﴿وما كنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وما كنت عندهم حين اختصموا فيها أيهم أحقُّ بها وأولى ، والغرضُ تحقيق نبوته ﷺ والحجة على أهل الكتاب ﴿إِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يا مريمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ يبشركِ ببشرى من عنده هي ولدٌ يكون وجوده بكلمة من الله . ﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسى ابنُ مَرْيَم﴾ نَسبَه إلى أمه للرد على النصارى حيث زعموا أنه ابن الله ، وعلى اليهود حيث افتروا على أمه وزعموا أنه ابن زنى ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ ذا شرفٍ وكرامة ومنزلة عالية في الدنيا والآخرة ﴿وَمِنَ المُقَرَّبِينَ﴾ عند الله يوم القيامة ، حيث يسكنه في جواره ويُدْنيه منه ﴿ويُكلِّمُ النَّاسَ في المَهْدِ وَكَهْلاً﴾ ويكلم الناس طفلاً صغيراً ، وبالغاً كبيراً . قال ابن زيد كلمهم عيسى في المهد صغيراً ، وسيكلمهم إذا ظهر ـ عند نزوله لقتل الدجال ـ وهو كهل[١] . ﴿ومن الصالحينَ﴾ومن عِداد الصالحين ، لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ من أيِّ وجهٍ يكون لي ولدٌ ولست بذات زوج ، ولم يقربني بشر ؟ ﴿قال كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ما

---

(١) في الآية دليل واضح على حياة عيسى عليه السلام وهو مذهب أهل السنة ، حيث أشارت الآية الى تكليمه للناس في حال الكهولة والشيخوخة ، وهذا إنما يكون عند نزوله من السماء إلى الأرض في آخر الزمان ، والله أعلم

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ

* * *

﴿يَشَاءُ﴾(١) قال الله لها هكذا يخلق الله منك ولداً ، فيجعله للناس آية وعبرة ، فإنه تعالى يصنع ما يريد ويخلق ما يشاء ، من زوج ومن غير زوج **﴿إذا قضى أمراً فإنَّمَا يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** إذا أراد أمراً ، فإنما يقول له « كُنْ » فيكون ما أراد **﴿وَيُعَلِّمُهُ الكتابَ والحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ﴾** هذا من تمام البشارة لمريم بالكرامة ورفعة المنزلة التي ينالها ولدها أي ويعلمه ربه الخطّ بيده،والسنة التي يوحيها إليه ، والتوراة التي أنزلت على موسى ، والإنجيل الذي سينزل على عيسى **﴿وَرَسُولاً إلى بَنِي إسْرَائيلَ أنّي قَدْ جِئتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنه نبيّي وبشيري ، وحجته على ذلك بمجيئه بعلامة واضحة من ربكم ، تحقّق صدق رسالته **﴿أنّي أخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾** هذه العلامة هي بأني أصوِّر لكم من الطين كشكل الطائر **﴿فأنفخ فيه فيكونَ طيراً بإذن اللهِ﴾** فأنفخ في الطير ـ أي الصورة ـ فيكون طيراً بإذن الله عزَّ وجل يُروى أنه كان يوماً مع الغلمان ، فأخذ طيناً وقال لهم أجعل لكم من هذا الطين طائراً ؟ قالوا وتستطيع ذلك ! قال نعم بإذن ربي ، فهيأه في شكل الطائر ثم نفخ فيه وقال كن طائراً بإذن الله ، فخرج يطير بين كفيه **﴿ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأبْرَصَ﴾** وأشفي الأعمى الذي يُولد أعمى ، وكذلك من به بَرَص ، ممَّا لا يقدر على شفائه ذو طب بعلاج **﴿وَأُحْيي الْمَوْتَى بإذْنِ اللهِ﴾** وأحيي الموتى بقدرة الله ومشيئته لا بقدرتي **﴿وأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخرون في بُيُوتِكُمْ﴾** وأخبركم بما تأكلون ممَّا لم أعاينه وأشاهده معكم ، وما ترفعونه فتخبئونه ولا تأكلونه(٢) يخبرهم أنه يعلم الغيب الذي لا سبيل لأحدٍ من البشر إلى معرفته ، بعد أن أظهرلهم المعجزات الباهرة،وكان إحياء عيسى للموتى بدعاء الله،عز وجل، يدعوفيستجيب الله دعاءه ويحييهم له **﴿إنَّ في ذَلِكَ لآيةً لَكُمْ﴾** إن في هذه الآيات الباهرات لعبرةً لكم ومتفكراً **﴿إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** إن كنتم مصدقين بحجج الله وآياته **﴿وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾** ومصدقاً لما سبقني

---

(١) إنما قال هنا ﴿يخلق ما يشاء﴾ وفي قصة زكريا ﴿يفعل ما يشاء﴾ لأن الأمر هنا أعجب وأغرب ، حيث يأتي الولد من غير زوج فناسبه ذكر الخلق ، وهناك من أبٍ كبير وأم عقيم فناسبه ذكر الفعل والقدرة ، فتدبرْ ـ رعاك الله ـ أسرار القرآن

(٢) يروى أنه كان يقول للغلام إن أهلك قد خبأوا لك كذا وكذا من الطعام ، فينطلق الصبيُ ويطلب من أهله ذلك الشيء ، فيقولون له من أخبرك بهذا ؟ فيقول عيسى ، وهذا من معجزاته عليه السلام ، أنه كان يخبر عن المغيبات

فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ

* * *

من التوراة ، مقراً بها مؤمناً بأنها من عند الله ، عاملاً بأحكامها إلا ما خفَّف الله عن أهلها في الإنجيل ﴿ولأحِلَّ لكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ولأحل لكم بعض ما كان محرماً عليكم[1] ، كلحوم الإبل ، والشحوم ، وأشياء من الطير والحيتان ﴿وجئتكم بآيةٍ من ربكم﴾ وجئتكم بحجة وعبرة من عند ربكم تعلمون بها صدقي ﴿فاتَّقُوا اللهَ وأطيعونِ﴾ فخافوا يا معشر بني إسرائيل الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، وأطيعوا أمري فيما دعوتكم إليه ﴿إنَّ اللهَ رَبّي وربكم فَاعْبُدُوهُ﴾ أنا عبدُ الله كسائر الخلق ، إلا ما خصني الله به من النبوة والحجج ، دليلاً على صدقي ، فاعبدوا الله وحده ربي وربكم ﴿هذا صراطٌ مستقيمٌ﴾ هذا هو الطريق القويم ، والهُدَى المتين الذي لا اعوجاج فيه ﴿فلمَّا أَحَسَّ عِيسَى منهم الكُفْرَ﴾ فلما وجد[2] عيسى من بني إسرائيل الجحود لنبوته ، والتكذيب لرسالته ﴿قال من أَنْصَارِي إلى اللهِ﴾ مَنْ أنصاري مع الله ، على الجاحدين المكذبين بدينه ؟ ﴿قَالَ الحَوَارِيُّونَ نحنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾ قال أصحاب عيسى نحن أنصارُ الله ﴿آمَنَّا بِاللهِ﴾ صدَّقنا بالله ﴿وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ واشهد أنت يا عيسى بأننا مسلمون وفيه دلالة على أنَّ الإسلام دين جميع الأنبياء ، لا النصرانية ولا اليهودية ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ ربنا صدَّقنا بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك ﴿واتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ صرنا أتباع عيسى ، وأعوانه على الحق ﴿فاكتبنا مع الشَّاهِدِينَ﴾ فأثبتْنا مع الذين شهدوا بالحق ، وصدَّقوا رسلك ، وأقرُّوا لك بالتوحيد ثم أخبر تعالى عن كفار بني إسرائيل ، الذين أحسَّ عيسى منهم الكفر فقال ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ احتال كفار بني إسرائيل على الفتك بعيسى وقتله ، ومكر الله بهم[3] بإلقاء شبه عيسى على بعض أتباعه ، ورُفع عيسى إلى السماء ﴿واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾ خير من يبطل مكرهم ، ويردُّ كيد الأشرار عن أنبيائه ورسله ﴿ إذْ قالَ اللهُ يا عِيسى إنّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إليَّ﴾ حين قال الله لعيسى إني قابضك من الأرض حياً ، ورافعك إلى جواري[4]

---

(١) قال ابن كثير فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين .

(٢) فسر الطبري « أحسَّ » بمعنى وجد ، وفسرها ابن كثير بمعنى استشعر ، وأصل معنى الكلمة عرف بأحد حواسه ، فما قاله ابن كثير أظهر والله أعلم .

(٣) مَكَرَ اللهُ أي جازاهم على مكرهم ، وهذا على سبيل المقابلة لمكرهم ، حيث ألقى شبه عيسى على رجلٍ ممن كان معه في المنزل ، ثم رفع عيسى إلى السماء حياً ، وسينزل في آخر الزمان كما وردت به الأحاديث الصحيحة الصريحة

(٤) قيل : إن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره إني رافعك إلى السماء ومتوفيك عند انتهاء أجلك ، وقيل المراد بالوفاة النوم ، واختار الطبري أن =

كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ

* * *

﴿ومطهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُوا﴾ ومخلِّصك ومنجيك ممن كفر بك وجحد برسالتك ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبعوكَ فَوْقَ الذينَ كَفَرُوا إلى يومِ القيامةِ﴾ وجاعل أتباعك الذين هم على ملَّتك ومنهاجك ، فوق الذين جحدوا نبوتك إلى يوم القيامة[١] ﴿ثُمَّ إليَّ مَرْجِعُكُمْ فأحكُمْ بينكُمْ فيما كُنْتُمْ فيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ثم إلى الله مصيركم يوم القيامة ، أيها المختلفون في أمر عيسى ، فأقضي بين الفريقين منكم الذين اتبعوه ، والذين كفروا به ﴿فأمَّا الذين كفروا﴾ فأمَّا الذين جحدوا نبوة عيسى ، وقالوا فيه الباطل ﴿فأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً في الدُّنْيا والآخِرةِ﴾ في الدنيا بالقتل والسبي ، وبالذلة والمسكنة ، وفي الآخرة بنار جهنم خالدين فيها أبداً ﴿وما لهم من نَاصِرِينَ﴾ وما لهم من عذاب الله مانعٌ ، ولا من أليم عقابه دافع ﴿وأمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وأما الذين آمنوا بعيسى ، وعملوا بفرائض الله ﴿فَيُوفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملاً ﴿واللهُ لا يُحبُّ الظَّالمينَ﴾ لا يحب من ظلم غيره ، فكيف يظلم خلقه ؟ والآية وعيدٌ للكافرين ، ووعدٌ للمؤمنين ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ﴾ هذه الأنْباء والقصص التي نقرأها عليك يا محمد على لسان جبريل ، هي من الحجج والعِبر ، ومن القرآن الحكيم الفاصل بين الحق والباطل ﴿إنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إنَّ شَبَه عيسى في الخَلْق كشَبَه آدم ، فليس خلقُ عيسى من غير أب ، بأعجب من خلق آدم من غير أب ولا أم[٢] . ﴿خَلَقَهُ من تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فيكُونُ﴾ خلقه بقدرته من تراب بدون ذكرٍ ولا أنثى ، ثم أمره أن يكون فكان ، فكذلك خلقي عيسى ﴿الحقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ما أخبرتك عن عيسى هو الحقُّ من ربك ﴿فلا تكنْ من الممترينَ﴾ فلا تكن من الشاكّين في ذلك ﴿فمن حَاجَّكَ فيه من بعد ما جاءكَ من العِلْمِ﴾ فمن جادلك في المسيح ابن مريم ، بعد الذي قد بينتُه لك أنه عبد

=المراد به القبض من الأرض حياً لتواتر الأخبار في نزوله آخر الزمان وهو الصحيح

(١) قال ابن زيد المراد أن النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة

(٢) إذا كان النصارى يعتقدون في المسيح أنه « ابن الله » لأنه لا أب له ، فآدم أحقُّ بهذه الدعوى ، لأنه لا أب له ولا أم ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً

وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

* * *

الله ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبناءَنَا وَأَبْناءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وأَنْفُسَنَا وأَنْفُسَكُمْ﴾ فقل هلموا فلندع هؤلاء جميعاً ﴿ثم نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعنةَ اللهِ عَلَى الكَاذِبينَ﴾ ثم نلتعن - أي ندع باللعنة - على الكاذبين منَّا ومنكم[1] ﴿إنَّ هذا لَهُوَ القَصَصُ الحقُّ﴾ إن هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى ، هو القصص الحقُّ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلاَّ اللهُ﴾ وليس للخلق معبودٌ يستوجب العبادة إلا الله رب العالمين ﴿وإنَّ اللهَ لهو العزيزُ الحكيمُ﴾ العزيز في انتقامه ممن عصاه ، الحكيم في صنعه وتدبيره ﴿فإن تَوَلَّوْا فإنَّ اللهَ عليمٌ بالمفسدينَ﴾ فإن أعرضوا عما جاءك من الهُدى والبيان ، فإن الله عالمٌ بهم وبإفسادهم ، وسيجازيهم جزاءهم العادل ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قل يا معشر اليهود والنصارى هلُمّوا إلى كلمةٍ عدلٍ بيننا وبينكم ﴿ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللَّهَ﴾ بأن لا نعبد غير الله ، ونبرأ من كل معبودٍ سواه ﴿ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾ لا وثناً ولا صَنَماً ، ولا صليباً ولا طاغوتاً ﴿ولا يَتَّخِذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً من دونِ اللهِ﴾ ولا يدينُ بعضنا لبعضٍ بالطاعة في معصية الله ، ويعظِّمهُ بالسجود له كما يسجد لربه ﴿ فإنْ تولَّوا فقولوا آشهدوا بأنا مسلمون ﴾ فإنم أعرضوا عما دعوتهم اليه من الكلمة العدل ، فقولوا أنتم أيها المؤمنون اشهدوا علينا بأننا مسلمون ، خاضعون لله ، متذلّلون له بقلوبنا وألسنتنا

﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لم تُحاجُّونَ في إبْراهيمَ وما أُنزلَتِ التَّوْرَاةُ والإنْجيلُ إلاَّ مِنْ بَعْدِهِ﴾[2] يا أهل التوراة والإنجيل لم تجادلون وتخاصمون في إبراهيم خليل الرحمن ، فتدَّعون أنه كان على دينكم ، والتوراة والإنجيل لم ينزلا إلا بعد وفاته بحين ؟ فكيف يكون منكم ؟ ﴿أفلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تفقهون خطأ

---

(١) المباهلة : الملاعنة وهي أن يخرج الفريقان بأبنائهم ونسائهم ، ثم يدعون باللعنة على الكاذب منهم ، وفي الحديث « لو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » رواه أحمد

(٢) الآية توبيخ لليهود والنصارى ، حيث زعم اليهود أن دين إبراهيم هو اليهودية ، وزعم النصارى أن دينه هو النصرانية ، وبين إبراهيم وموسى ألف عام ، وبينه وبين عيسى ألفان ، فكيف يكون على دينٍ لم يحدث إلا بعده بأزمنة طويلة ؟

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟

* * *

قولكم ؟ ﴿ها أَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ ها أنتم يا معشر اليهود والنصارى ، خاصمتم وجادلتم فيما لكم به علمٌ من أمر دينكم ، الذي وجدتموه في كتابكم ﴿فلم تُحَاجُّونَ فيما ليس لكم به عِلْمٌ﴾ فلم تجادلون وتخاصمون في الذي لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه ؟ ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمونَ﴾ والله يعلم الأمور على حقائقها وأنتم لا تعلمون ذلك ، فلا تجادلوا بالباطل ثم كذَّبهم تعالى في دعواهم أن إبراهيم كان على ملتهم فقال ﴿ما كان إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كان حنيفاً مسلماً﴾ ما كان إبراهيم على دين اليهودية ولا النصرانية ، ولكنْ كان « حنيفاً » أي متبعاً أمر الله وطاعته ، مستقيماً على محجة الهدى « مسلماً » أي خاشعاً لله بقلبه متذللاً له بجوارحه ﴿وما كان من المشركين﴾ وما كان من الذين يعبدون الأوثان والأصنام ، أو مخلوقاً من البشر ﴿إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ إن أحقَّ الناس بالانتساب إلى إبراهيم ، الذين سلكوا طريقه ومنهاجه ، فوحَّدوا الله مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين ﴿وهذا النبيُّ والذين آمنوا﴾ وهذا النبي محمدٌ ﷺ ، والذين صدَّقوا برسالته ﴿واللهُ وليُّ المؤمنين﴾ والله ناصر المؤمنين على من خالفهم ﴿وَدَّتْ طائفةٌ من أهل الكتابِ لو يضلونكم﴾ تمنت جماعة من اليهود والنصارى لو يردونكم أيها المؤمنون إلى الكفر فيهلكونكم ﴿ومـا يضِلُّونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرونَ﴾ وما يُهلكون ـ بفعلهم هذا ـ غير أنفسهم ، وما يدرون ولا يعلمون ﴿يا أهل الكِتَابِ لم تكفرونَ بآياتِ الله وأنتم تشهدون﴾ لِمَ تجحدون بكتاب الله المنزَّلِ عليكم ، وأنتم تشهدون أنه حق من عند ربكم ؟ وهذا توبيخٌ لهم على كفرهم بمحمد ﷺ وجحودهم نبوته ، وهم يجدونه في كتبهم ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تـلبسـون الحَقَّ بالبَاطِلِ﴾ لم تخلطون الحقَّ بالباطل ، بإظهاركم التصديق بمحمد بألسنتكم ، دون ما في قلوبكم ؟ ﴿وتكتمونَ الحقَّ﴾ وتخفون الحقَّ الذي في كتبكم من نعت محمد ﷺ ونبوته ﴿وأنتم تَعْلَمُونَ﴾ وأنتم تعرفون ذلك ﴿وقالت طائفةٌ من أهلِ الكتابِ﴾ وقالت جماعة من اليهود ﴿آمِنُوا بالذي أُنْزِلَ

إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

* * *

على **الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ واكْفُرُوا آخِرَهُ﴾** صدِّقوا بالذي أُنْزل على المؤمنين أول النهار ، واكفروا آخر النهار **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** لعلهم يرجعون عن دينهم[1] **﴿ولا تُؤْمِنُوا إلاَّ لمنْ تَبِعَ دِينكُمْ﴾** لا تصدقوا ـ يا معشر اليهود ـ إلاَّ لمن تبع دينكم فكان يهودياً وهذا خبرٌ عن اليهود فيما قالوه لإخوانهم **﴿قُلْ إنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ﴾** قل يا محمد لهم إنَّ التوفيق توفيقُ اللهِ ، والبيانَ بيانه وهي جملة اعتراضية ، ثم رجع الحديث إلى كلامهم فقال **﴿أَنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتُمْ أو يحاجوكم عند ربكم﴾** يقولون ولا تؤمنوا ـ بمحمد ودينه ـ لئلا يُؤْتى أحد مثل ما أوتيتم من الوحي ، أو يحاجوكم عند ربكم أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم **﴿قُلْ إنَّ الفضلَ بيدِ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ﴾** قل لهؤلاء اليهود إن التوفيق للإيمان ، والهداية للإسلام ، بيد الله وحده ، يعطيه من أراد من عباده **﴿واللهُ وَاسِعٌ عليم ﴾** واللهُ واسع الفضل عليمٌ بمن هو أهل له **﴿يختص برحمته من يشاء﴾** يخصُّ بالإسلام والقرآن من يشاء **﴿واللهُ ذو الفضل العظيم﴾** ذو الإنعام والتفضل الواسع **﴿وَمِنْ أهْـلِ الكِتَابِ مَنْ إنْ تأمنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إليكَ﴾** ومن اليهود أناسٌ أهل أمانة ، لو ائتمنت أحدهم على المال الكثير يردُّه لك ولا يخونك فيه . **﴿ ومِنْهُمْ مَنْ إنْ تأمنْهُ بـدينارٍ لا يؤده إليكَ﴾** ومنهم الخائن الذي إنْ تأمنه على دينارٍ لا يردُّه إليك **﴿إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾** إلا أنْ تُلِحَّ عليه بالمطالبة والاقتضاء والإلحاح الشديد **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْس عَلَيْنَا في الأُمِّيِّنَ سبِيلٌ﴾**[2] استحلال الخيانة من اليهود ، من أجل أنهم قالوا لا حرج ولا إثم علينا فيما أصبنا من أموال العرب. **قال السدي** قال اليهود ليس علينا حرجٌ في أموال العرب ، قد أحلَّها الله لنا **﴿ويقولون على اللهِ الكذبَ﴾** ويكذبون على الله بقولهم ذلك **﴿وهم**

---

(١) تواصى اليهود فيما بينهم أن يؤمن فريق منهم أول النهار ، ثم يكفروا آخره لأجل أن تتزلزل عقائد المؤمنين ، فيقولوا في أنفسهم ما رجع هؤلاء عن الدين إلا لنقيصةٍ وعيب فيه وهذه مكيدة أرادها اليهود ليلبسوا على الضعفاء أمر دينهم

(٢) لما نزلت الآية قال النبي ﷺ « كَذَبَ أعداءُ الله ، ما من شيءٍ كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ ، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر »

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

* * *

يعلمون﴾ أن الله ما أحلَّ لهم شيئاً مما قالوه **﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ واتَّقَى﴾** نعم من أوفى منهم بعهد الله فآمن بمحمد وصدَّقه بما جاء به ، واتقى ما نهاه الله عنه من الكفر والمعاصي خوف عقابه **﴿فإنَّ اللهَ يُحبُّ المتقين﴾** يحب الذين يتقونه ، فيطيعون أمره ويجتنبون نهيه **﴿إنَّ الذينَ يشترونَ بعهدِ اللهِ وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾** يستبدلون بأيمانهم الكاذبة ، بدلاً خسيساً ، وعوضاً حقيراً من عرض الدنيا وحطامها **﴿أولئِكَ لا خَلاَقَ لهم في الآخرة﴾** لا حظ ولا نصيب لهم من نعيم الجنة **﴿ولا يكلِّمُهُمُ اللهُ﴾**لا يكلمهم الله بما يَسُرُّهم **﴿ولا يَنْظُرُ إليهِمْ يَوْمَ القِيَامةِ ولا يُزَكِّيهِمْ﴾** ولا ينظر إليهم نظر تعطفٍ ورحمة ، ولا يطهِّرهم من دنس الكفر والذنوب . **﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾** ولهم عذاب موجع . . نزلت في بعض أحبار اليهود وهي عامة **﴿وإنَّ منْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْـوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ﴾** وإن جماعة من اليهود يحرِّفون ألسنتهم بالكتاب لتظنوا أن الذي يحرفونه بكلامهم من كتاب الله وتنزيله **﴿وما هو من الكتابِ﴾** وما ذلك الذي حرَّفوه من كتاب الله **﴿ويَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾** ويزعمون أن هذا الكذب والباطل مما أنزله الله على أنبيائه ، وليس مما أنزله الله وإنما هو افتراء على الله **﴿ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون﴾** ويتعمدون الكذب على الله ، والشهادة عليه بالباطل ، طلباً للخسيس من حُطام الدنيا . **قال ابن عباس:** كانوا يزيدون في كتاب الله ما لم يُنزِّل الله **﴿مَا كَانَ لبشرٍ أن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنُّبُوَّةَ﴾** ما ينبغي لأحدٍ من البشر أن ينزِّل الله عليه كتابه ، ويعلِّمه الحكمة ، ويعطيه النبوة **﴿ثم يقولَ للناسِ كونوا عباداً لي من دون اللهِ﴾** ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله **﴿وَلَكِنْ كونوا ربَّانِيِّين﴾** ولكنْ إذا آتاه الله ذلك ، يدعوهم إلى العلم بالله ويقول لهم كونوا علماء ، حكماء ، أتقياء ، مصلحين[1] **﴿بما كُنْتُمْ تُعَلِّمونَ الكتابَ وبما كنتم تدرسون﴾**

(١) في الآية ردٌّ على النصارى حيث زعموا أن عيسى عليه السلام أمرهم بعبادته ، والربانيُّ نسبة إلى الرب جل وعلا ، وهو العالم بالفقه=

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

* * *

بتعليمكم الناسَ كتاب الله ، وما فيه من حلالٍ وحرام ، وبدراستكم وتلاوتكم له **﴿ولا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تتخذوا الملائكة والنبيِّين أَرْبَاباً﴾** وما كان لبشر أن يأمركم بأن تعبدوا الملائكة والنبيِّين ، وتجعلوهم آلهة من دون الله نزلت في قومٍ من اليهود والنصارىٰ قالوا للرسول ﷺ أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم ؟ فقال معاذَ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بعبادة غير الله ! فنزلت الآية **﴿أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمونَ﴾** أيأمركم نبيكم بالكفر بوحدانية الله ، بعد أن كنتم منقادين لله بالطاعة والعبودية ؟ إن ذلك لا يكون أبداً **﴿وإذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ النبيِّينَ﴾** واذكروا يا أهل الكتاب حين أخذ الله العهد المؤكد على الأنبياء **﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾** لمهما آتيتكم أيها النبيّون من كتاب وحكمة[1] **﴿ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم﴾** ثم جاءكم رسول من عندي يُصدِّق ما جئتم به وهو محمد ﷺ **﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنْصُرُنَّهُ﴾** لتصدقُنَّ به ولتنصرنه **﴿قال أَأَقْرَرْتُمْ وأَخَذْتُمْ على ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾** أأقررتم بالميثاق وأخذتم على ذلك عهدي ووصيتي ؟ **﴿قالوا أَقْرَرْنَا قالَ فاشهدوا وأَنَا مَعَكُمْ من الشاهدينَ﴾** اشهدوا أيها النبيون على الميثاق ، وأنا من الشاهدين عليكم وعليهم **﴿فَمَنْ تَوَلَّى بعد ذَلِكَ﴾** فمن أعرض عن الإيمان برسلي وعن نصرتهم ، ونكث العهد والميثاق **﴿فَأُولَئِكَ هم الفاسقون﴾** الخارجون عن طاعة الله **﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ﴾** أفغير دين الله يلتمسون ويريدون ؟ **﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ في السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾** وله خشع وخضع ، وانقاد بإخلاص التوحيد والألوهية ، جميعُ من في السموات والأرض **﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾** المؤمن طائعاً ، والكافر أسلم كارهاً حين رأى بأس الله[2] « فلم يكُ ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » **﴿وإليه يُرْجَعُونَ﴾** وإليه يصيرون

ـ والحكمة والجامع إلى العلم والفقهُ البصرَ بالسياسة والتدبير .

(١) قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته .

(٢) هذا قول قتادة ، وقال ابو العالية : كل آدمي قد أقر على نفسه بأن الله ربه وخالقه ، فمن أخلص لله العبودية فهو الذي أسلم طوعاً ، ومن أشرك في عبادة الله فهو الذي أسلم كرهاً

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾

* * *

بعد الموت ، فيجازيهم بأعمالهم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ﴾ قل يا محمد للذين ابتغوا غير دين الله صدَّقنا بالله ربنا وإلٰهنا ، لا نعبد أحداً سواه ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ وصدَّقنا بما أُنزل علينا من وحيه وتنزيله ﴿وما أُنْزِلَ على إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ﴾ وصدَّقنا بما أنزل على إبراهيم خليل الله ، وعلى ابنَيْه إسماعيل وإسحاق ، وابن ابنه يعقوب ، وبما أُنزل على الأسباط وهم أولاد يعقوب الإثنا عشر[1] ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رِبِّهِمْ﴾ وآمنا بالتوراة والإنجيل ، وما أنزل على النبيِّين ﴿لا نُفَرِّق بين أحدٍ منهم﴾ لا نصدِّق بعضهم ونكذِّب بعضهم ، كما فعلت اليهود والنصارى ، بل نؤمن بجميعهم ﴿ونحنُ له مُسْلِمونَ﴾ ونحن منقادون لله بالطاعة ، مقرُّون له بالربوبية ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غير الإسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَل مِنْهُ﴾ ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ، فلن يقبل الله منه ذلك ﴿وَهُوَ في الآخِرةِ مِنَ الخاسِرين﴾ خسر رحمة الله عزَّ وجل ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إيمانِهِمْ﴾ كيف يرشد الله ويوفق للإيمان ، قوماً جحدوا نبوة محمد ﷺ بعد تصديقهم به؟ قال الحسن : هم اليهود والنصارى رأوا نعت محمد ﷺ في كتابهم وأقروا به ، ثم كفروا بعد إقرارهم ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ وعرفوا أن محمداً رسول الله إلى الخلق ثم كفروا به ﴿وجاءهم البيناتُ﴾ قامت عليه الحجج والبراهين على صدق رسالة محمد ﴿واللهُ لا يهدي القومَ الظَّالمينَ﴾ والله لا يوفق للحق والصواب ، الظلمةَ الذين اختاروا الكفر على الإيمان ﴿أولئك جزؤاهم أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والْمَلاَئكةِ والنَّاسِ أجمعين﴾ ثوابُهم على ما عملوا أن تحل بهم لعنة الله - أي إقصاؤ هم وبعدهم عن رحمة الله - وأن تلعنهم الملائكة وجميع الخلق ﴿خالدين فيها﴾ ماكثين في عقوبة الله أبداً ﴿لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ ولا هم يُنْظَرونَ﴾ لا يُنقصون من العذاب شيئاً ، ولا

(١) ذهب الطبري إلى أن الأسباط هم « إخوة يوسف » أولاد يعقوب عليه السلام ، وهذا ضعيف لأنهم وقعت منهم أعمال تتنافى مع النبوة ، كعزمهم على قتل يوسف ، وحسدهم له ، وكذبهم على أبيهم الخ والصحيح أن الأسباط هم شعوب بني إسرائيل ، الذين جعل الله فيهم الوحي والنبوة ، والمتشعبين من أولاد إسرائيل ، وهذا اختيار ابن كثير والبخاري ، فقد قال البخاري الأسباطُ قبائل بني إسرائيل ، والله أعلم

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾

* * *

يُمهلون لتوبةٍ أو اعتذار . ﴿إلاَّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ إلا من تاب من ذنبه ، وأصلح عمله ﴿فإنَّ اللهَ غفورٌ رَحِيمٌ﴾ يستر ذَنبه ويرحمه ﴿إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم به ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً﴾ بما أصابوا من المعاصي ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لن تُقبل توبتُهم من الذنوب ، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد ﴿وأولئك هم الضالُّونَ﴾ هم الذين ضلوا سبيل الحق ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ﴾ جحدوا نبوة محمد ﷺ ولم يصدِّقوا ما جاءهم به من عند الله ، وماتوا على الكفر والجحود ﴿فلن يُقْبَلَ مِنْ أحـدهمْ مِلءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ فلن يُقبل من أحدهم عوضٌ أبداً ، حتى ولو كان له من الذهب قدر ما يملأ الأرض من مشرقها إلى مغربها ﴿أولئك لهم عذاب أليمٌ﴾ عذاب موجع ﴿وما لهم من ناصرينَ﴾ وما لهم من قريب ولا حميم ، ينقذهم من عذاب الله ﴿لن تنالوا البِرَّ حتى تنفقوا مما تُحبونَ﴾ لن تدركوا أيها المؤمنون الجنة ، حتى تتصدقوا مما تحبون وتشتهون ﴿وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ ومهما تتصدقوا به من أموالكم ، فإنه محفوظ لكم يعلمه الله، وسيجازيكم عليه ﴿كلُّ الطَّعام كانَ حِلًّا لبني إِسْرَائيلَ﴾ كل الأطعمة كانت حلالاً على بني إسرائيل ـ أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ـ ﴿إلاَّ ما حَرَّم إسرائيلُ على نفسِهِ﴾ إلا ما كان يعقوب حرَّمه على نفسه ، من غير تحريم الله ذلك عليه ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ من قبل نزول التوراة على موسى ﴿قُلْ فَأْتُوا بالتَّوْرَاةِ﴾ قل يا محمد فأتوا يا معشر اليهود بالتوراة ﴿فَاتْلُوهَا إِنْ كنتم صادقينَ﴾ فاقرأُوها حتى يتبين كذبكم وقولكم الباطل على الله ، إن كنتم محقين في دعواكم أن الله حرَّم ذلك[1] ﴿فمن افترى على اللهِ الكذبَ﴾ فمن كذب على الله. ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ من بعد النظر في التوراة ﴿فَأولئكَ هم الظالمونَ﴾ فهم الكافرون القائلون

(١) رُوي أن يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً ، فنذر إن شفاه الله ليحرمنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه ـ وكان أحبَّ الطعام إليه لحم الإبل وألبانها ـ فلما شفاه الله حرَّم ذلك على نفسه واقتدى به أولاده ، دون أن يكون التحريم في وحي أو تنزيل .

قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

* * *

على الله الباطل ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ قل يا محمد صَدَقَ الله فيما أخبرنا به ﴿فاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حنيفاً﴾ فاتبعوا دين إبراهيم خليل الله وهو الحنيفية، دون اليهودية والنصرانية، إن كنتم محقين في دعواكم أنكم على الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله ﴿وما كانَ من المشركينَ﴾ وماكان إبراهيمُ يهودياً ولا نصرانياً، ولكنْ كان حنيفاً مسلماً، أخلص العبادة لربه وحده

﴿إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للناس﴾ إن أول مسجد بُني لعبادة الله في الأرض ﴿لَلَّذي ببكة مباركاً﴾ البيتُ الذي بمكة وهو البيت العتيق المبارك، لأن الطواف به مغفرة للذنوب، و« بكة » موضع مزدحم الناس للطواف، من البكِّ وهو الزحم، سميت البقعة بفعل المزدحمين فيها ﴿وهدىً للعالمين﴾ ومصدر هداية لجميع الخلق ﴿فيه آياتٌ بيناتٌ﴾ فيه علامات بينات من قدرة الله، وآثار خليله إبراهيم ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ منهنَّ مقامُ إبراهيم، والحجرُ الأسود والحطيم ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ ومن دخله من الناس مستجيراً به كان آمناً ما دام فيه. قال ابن عباس: لو وجدتُ فيه قاتل أبي لم أُعرِضْ له[1] ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ وفرضٌ واجبٌ لله على المستطيع حج بيته الحرامِ الحجُّ إليه ﴿وَمَنْ كَفَر فَإِنَّ اللهَ غَنيٌّ عَنِ الْعَالَمينَ﴾ ومن جحد فريضة الله[2]، فإن الله غنيٌّ عنه وعن حجه وعمله، وعن سائر الخلق ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللهِ﴾ يا معشر اليهود والنصارى، لِمَ تجحدون حجج الله الدالة على صدق محمد ونبوته؟ ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ والله شاهد على أعمالكم، وتعمدكم الكفر بالله ورسوله على علمٍ منكم ومعرفة ﴿قل يا أهل الكتاب لم تَصُدُّون عن سبيلِ اللهِ من آمنَ﴾ لِمَ تُضِلُّون عن طريق الله ومحجته، مَنْ صدَّق بالله ورسوله ﴿تبغونها عِوَجاً﴾ تطلبون لدين اللهِ اعوجاجاً عن سنَن الهدى، وميلاً عن الحق، وتريدون لأهل الإسلام الزيغ والضلال عن الهدى ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ وأنتم شهود على أن الذي تصدُّون عنه

(١) كان الحرم في الجاهلية مفزع كل خائف، وملجأ كل جانٍ، حتى كان الرجل إذا رأى قاتل أبيه وابنه لم يمسّه بسوء، فلما جاء الإسلام زاده تعظيماً وتكريماً، وهذا هو مراد ابن عباس أن من لجأ إليه وكان جانياً لم يقتص منه حتى يخرج من الحرم

(٢) إنما وضع ﴿ومن كفر﴾ بدل « ومن لم يحج » للتنبيه على أن من ترك الحج وهو قادر مستطيع له، فقد سلك طريق الكافرين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ

* * *

حق . قال السدي: كان إذا سألهم أحد هل تجدون محمداً في كتبكم ؟ قالوا لا ، فصدُّوا الناس عن الإيمان به واتباعه بكتمانهم صفته التي يجدونها في كتبهم ﴿وما اللهُ بغافلٍ عَمَّا تعملون﴾ ليس الله بساهٍ عن أعمالكم وإجرامكم ﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تُطيعوا فريقاً منَ الذينَ أُوتُوا الكتابَ﴾ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، إن تطيعوا جماعة من أهل التوراة والإنجيل ﴿يردُّوكم بعد إيمانكم كافرينَ﴾ يضلوكم فيردوكم بعد تصديقكم لرسولكم، جاحدين لما قد آمنتم به وصدَّقتموه من الحق، نهاهم جلَّ ثناؤه أن يقبلوا منهم نصيحةً أو مشورة ، لما تنطوي عليه نفوسهم من الغش والبغض والحسد[1] ﴿وَكَيْفَ تكفرونَ وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ اللهِ﴾ وكيف تكفرون بعد إيمانكم ، وترتدون على أعقابكم ، وأنتم تسمعون آيات الله التي أنزلها على رسوله محمد ﷺ ﴿وفيكم رَسُولُهُ﴾ وفيكم رسوله يبصِّركم الهُدى والرشاد ، وينهاكم عن الغيِّ والضلال ؟! فما هو عذركم عند ربكم ؟ ﴿ومن يَعْتَصِمْ باللهِ﴾ ومن يستمسك بدين الله وطاعته ﴿فقد هُدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾ فقد وُفِّق إلى طريق واضح ، هو الإسلام

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ حَقَّ تُقَاته﴾ خافوا الله حقَّ خوفه وذلك بأن يُطاع فلا يُعْصَى ، ويُذْكر فلا يُنْسَى ، ويُشْكر فلا يكفر ﴿ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ ولا تموتُنَّ إلا على الإسلام ﴿واعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جميعاً﴾ وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به ، وعهده الذي عهده إليكم ، من الألفةوالاجتماع على الحق. ﴿ولا تفرَّقوا﴾ لا تتفرقوا عن دينه وعن الائتلاف والاجتماع على طاعته. ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ اذكروا فضل الله ونعمته عليكم. ﴿إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبكم﴾ حين كنتم أعداء في جاهليتكم ، يقتل بعضكم بعضاً ، فألف الله بين قلوبكم بالإسلام ﴿فأصبحتم

(١) روي أن شاس بن قيس اليهودي ـ وكان شديد الحسد والعداوة للمؤمنين ـ مرَّ على نفرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، يتحدثون في مجلسهم ، فغاظه ما رأى من اجتماعهم وألفتهم بعدما كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فأمر فتىً من اليهود أن يجلس بينهم ويذكِّرهم يوم بُعاث ـ وكان يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج ـ وينشدهم بعض الأشعار فيه ، ففعل فتكلم القوم وتنازعوا وتفاخروا ، ثم تداعوا إلى السلاح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فجاءهم فقال : يا معشر المسلمين أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام ؟ فعرف القوم أنها نزعة شيطان فألقوا السلاح . فنزلت الآية

مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾

* * *

بنعمته إخواناً﴾ فأصبحتم بالإسلام إخواناً متصادقين ، لا ضغائن ولا تحاسد **﴿وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها﴾** وكنتم يا معشر المؤمنين على طرف حفرةٍ من النار ، فأنقذكم الله منها بالإيمان ، وهذا مَثَلٌ لكفرهم الذي كانوا عليه قبل أن يهديهم الله للإسلام يقول كنتم على طرف جهنم بكفركم ، فأنقذكم الله منها بالإيمان الذي هداكم له **﴿ كذلكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدونَ﴾** كما بيَّن لكم ربكم الحال التي كنتم عليها في الجاهلية ، كذلك يبين لكم سائر حججه ، لتهتدوا إلى سبيل الرشاد فلا تضلوا **﴿ولتكُنْ منكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ﴾** ولتكن منكم أيها المؤمنون جماعة ، يدعون الناس إلى الإسلام وشرائعه **﴿وَيَـأْمُرونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾** يأمرون بالإيمان بمحمد ودينه ، وينهون عن الكفر بالله والتكذيب برسوله[1] **﴿وأولئك هم المفلحون﴾** الفائزون في جناته ونعيمه **﴿ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّناتُ﴾** لا تكونوا كاليهود والنصارى الذين اختلفوا في دين الله وأمره ونهيه ، من بعد ما علموا الحقَّ ، وظهرت لهم حجج الله وآياته البينات **﴿وأولئكَ لهم عَذَابٌ عظيمٌ﴾** ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا عذاب عظيم عند الله **﴿يومَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ﴾** لهم عذاب عظيم في يوم تبيض فيه وجوه المؤمنين ، وتسود وجوه الكافرين **﴿فأما الذين اسودَّتْ وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾** فأما الكافرون فيقال لهم أجحدتم توحيد الله بعد تصديقكم بأنه ربكم ؟ **﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** فذوقوا عذاب جهنم بسبب كفركم وجحودكم **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾** وأما المؤمنون السعداء الذين ابيضت وجوههم بثباتهم على الإيمان والتوحيد **﴿ففي رحمة الله هم فيها خالدونَ﴾** فهم في جنة الله ونعيمه ، باقون فيها أبداً **﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾** هذه مواعظ الله وحججِه البيِّنة ، نقصها عليك يا محمد بالصدق واليقين **﴿وَمَا اللهُ يريد ظُلْماً لِلْعَالَمينَ﴾**

---

(١) المعروف كل ما استحسنه الشرع من قولٍ وعمل ، والمنكر كل ما استقبحه الشرع من قول وعمل ، وما ذكره الشيخ الطبري نوع من أنواع المعروف والمنكر ، فهو للتمثيل لا للتعريف .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

* * *

وليس الله بظالمٍ أحداً من خلقه. ﴿وَلِلَّهِ مَا في السَّمَواتِ وما في الأَرْضِ وإلى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ إليه تعالى مصير جميع خلقه ، الصالح منهم والطالح ، والمحسن والمسيء ، فيجازي كلاً على قدر استحقاقه

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ كنتم - يا أتباع محمد - خير الأمم وأكرمها على الله ، وخير الناسِ للناسِ ، تجيئون بهم في السلاسل ، تدخلونهم في الاسلام[1]. قال عمر: من سرَّه أن يكون من تلك الأمة فليؤدِّ شرط الله منها[2] ﴿تأمرونَ بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون باللَّه﴾ تأمرون بالإيمان بالله وشرائعه ، وتنهون عن الشرك والمعاصي[3] ، وتصدِّقون بالله فتخلصون له العبادة. قال مجاهد: على هذا الشرط أن تأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتؤمنوا بالله ﴿ولو آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ ولو صدَّق أهل التوراة والإنجيل بمحمد والقرآن ، لكان خيراً لهم عند الله ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ﴾ منهم المؤمنون المصدِّقون برسول الله ، كعبد الله بن سلام وثعلبة بن سعْية ، وأكثرهم خارجون عن دينهم الذي يدَّعون أنهم متمسكون به ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلَّا أَذَى﴾ لن يضركم هؤلاء الفاسقون شيئاً ، ولكنهم يؤذونكم بشركهم وكفرهم ، ودعائهم لكم إلى الضلالة ﴿وَإنْ يُقَاتِلوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ﴾ وإن يقاتلكم أهل الكتاب يُهزموا أمامكم ﴿ثُمَّ لا يُنْصَرونَ﴾ ثم لا ينصرهم الله عليكم[4] ، لكفرهم بالله ورسوله. ﴿ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّةُ أينَ مَا ثُقِفُوا﴾ أُلْزِم اليهودُ الذلَّ والهوان ، أينما كانوا من الأرض ، وبأي مكانٍ وجدوا في بقاعها ﴿إلَّا بحبلٍ منَ اللَّهِ وَحَبْلٍ من النَّاسِ﴾ إلا بسبب عهدٍ وأمانٍ من الله ، عاهدهم عليه المسلمون[5] ، أو عهدٍ من الناس ﴿وباءوا بغضب من اللَّهِ﴾ وانصرفوا متحملين غضب الله

(١) هذه الرواية منقولة عن أبي هريرة ، وقال الحسن : نحن آخر الأمم وأكرمها على الله

(٢) أي فليؤد شرط الله الذي طلبه منه ، وهو الإيمان بالله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٣) هكذا فسرها الطبري ثم قال : وأصل المعروف ما كان جميلاً مستحسناً غير مستقبح عند أهل الإيمان ، وأصل المنكر ما أنكره الله وكان فعله قبيحاً

(٤) هذا وعدٌ من الله تعالى لا يُخْلف ، فمتى يتحقق فينا الإيمان حتّى ينجز الله لنا وعده ؟ !

(٥) عهدُ الله هو عقد الذمة الذي بموجبه تلزمهم الجزية بأمر الله ، وأما العهد من الناس فما يكون بمساندة الكفرة لهم كما تدعمهم اليوم وأمريكا وروسيا وغيرهما من دول الكفر والبغي ، ولولا مساندة هؤلاء لليهود لما كان لهم كيانٌ ولا سلطان

كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

* * *

وسخطه ﴿وَضُرِبَتْ عليهم المَسْكَنَةُ﴾ ولزمتهم الفاقة والحاجة ﴿ذلكَ بأنهم كانوا يكفرون بآياتِ الله ويَقْتُلونَ الأنبياءَ بِغَيْر حقٍّ﴾ ذلك الذل والهوان ، والفاقة والحاجة، بسبب أنهم كانوا يجحدون حجج الله ، الدالة على صدق أنبيائه ، ويقتلون رسل الله الذين ابتعثهم لخلقه ، ظلماً واعتداءً بغير حق استحقوا به القتل ﴿ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون﴾ إنما أحللنا عليهم الذلة والخزي ، بعصيانهم أمري واستحلالهم محارمي ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ ليس هؤلاء على حدٍّ سواء ، وليسوا متساوين ، بل منهم المسلم ومنهم المجرم ، ثم قال ﴿مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمةٌ﴾ من أهل الكتاب جماعة ثابتة على الحق ، مستقيمةٌ على الهدى وشريعة الله ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وهُمْ يَسْجُدونَ﴾ يقرؤون كتاب الله في ساعات الليل في صلواتهم ، وهم يسجدون فيها لله ﴿يؤمنون باللّهِ واليومِ الآخرِ﴾ يصدّقون بالله ، وبالبعث بعد الموت ﴿ويَأْمُرونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ﴾ ويأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله ، وينهونهم عن الكفر بالله وتكذيب رسوله(١) ﴿ويُسَارِعُونَ في الخيراتِ﴾ ويبتدرون فعل الخيرات ﴿وَأُولئكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وهم في عداد الصالحين ﴿وَمَا يَفْعلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَروهُ﴾ وما يفعلوا من خيرٍ فلن يضيع عند الله ، بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿واللَّهُ عليمٌ بالمتقين﴾ عالمٌ بمن اتقاه واجتنب معاصيه ، وسيجازيهم بها ﴿إنَّ الذينَ كفروا لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ لن تدفع عنهم أموالهم التي جمعوها ولا أولادهم شيئاً من عقوبة الله ﴿وأولئكَ أصحابُ النَّار هم فيها خـالـدون﴾ وهم أهل النار لا يخرجون منها أبداً ﴿مَثَلُ ما ينفقونَ في هذه الحياةِ الدُّنْيا﴾ مثل ما يتصدقون به في الدنيا على وجه القربة. ﴿كمَثَلِ ريح فيها صِرٌّ﴾ كمثل ريح فيها بردٌ شديد . ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأهْلَكَتْهُ﴾ أصابت هذه الريح زرع قومٍ

(١) الأظهر أن المراد يأمرون بكل خير ، وينهون عن كل شر ، وقد تقدم

لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ

* * *

عصوا ربهم فأهلكت زرعهم ، فكذلك يبطل الله ثوابهم ، ويخيّب رجاءهم **﴿وَمَا ظلمـهُم اللَّهُ﴾** بإحباط ثواب أعمالهم **﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمونَ﴾** ولكنْ ظلموا أنفسهم حيث أوردوها نار جهنم

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم﴾ لا تتخذوا أصدقاء وأولياء من غير المؤمنين[1] ، سُمي الصديق بطانةً تشبيهاً له ببطانة الثوب ، لاطلاعه على أسراره **﴿لا يَأْلونَكُمْ خَبالاً﴾** لا يُقصِّرون ولا يَدَعون جهدهم فيما يورثكم الفساد **﴿ودُّوا ما عَنِتُّمْ﴾** تمنَّوا وقوعكم في المشقة ، وفيما يسوءكم ولا يسرُّكم **﴿قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ من أفواههم﴾** قد ظهرت عداوتهم لأهل الإيمان من فلتات ألسنتهم **﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورهُمْ أَكْبر﴾** والذي تخفيه صدورهم من العداوة والبغضاء أكبر وأعظم **﴿قَدْ بيَّنَّا لكم الآياتِ﴾** وضحنا لكم ما تعتبرون وتتعظون به **﴿إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾** عن الله أمرَه ، ونهيَه ، ومـواعـظَه ، **﴿هَا أَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبونَهُم ولا يُحبُّونَكُمْ﴾** ها أنتم أيها المؤمنون تحبون هؤلاء الكفار ، فتودونهم وتواصلونهم ، وهم لا يحبونكم ، بل يبطنون لكم العداوة والغش **﴿وتُؤْمنونَ بِالكتابِ كُلِّهِ﴾** وتؤمنون بالكتب كلها التي أنزلها الله على رسله ، وهم يكفرون بكتابكم **﴿وإذَا لَقُوكُمْ قالوا آمنَّا﴾** وإذا رأوا المؤمنين قالوا ـ تقيةً وحذراً على أنفسهم ـ صدقنا بما جاء به محمد ﷺ **﴿وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظِ﴾** وإذا صاروا في خلاء بحيث لا ترونهم ، عضُّوا أطراف أصابعهم من الغيظ والكراهة لكم **﴿قل موتوا بغيظكم﴾** قل يا محمد لهم : موتوا كَمَداً وغيظاً ، وهو دعاءٌ عليهم بالهلاك **﴿إنَّ اللَّهَ عَليمٌ بِذَاتِ الصُّدُور﴾** عالم بما تنطوي عليه صدوركم من الغلِّ والغم ، والخير والشر ، وسيجازيكم عليه **﴿إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئة يَفْرَحوا بِهَا﴾** إن نالكم سرور من نصر ، وأُلفةٍ ، واجتماع كلمة ، غاظهم ذلك وساءهم ، وإن تنلكم مساءة في هزيمة ، أو تنازع ، واختلاف بين الجماعة ، سرَّهم ذلك وأُعجبوا به وابتهجوا **﴿وإن تَصْبِروا وتَتَّقُوا لا يضركم كيْدهم شيئاً﴾** وإن تصبروا على طاعة الله واجتناب نواهيه ، وتتقوا ربكم فتخافوا عقابه ، لا

---

(١) نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من الكفار أخلاء وأصفياء يطلعونهم على أسرارهم ، وعرَّفهم ما هم منطوون عليه من الغش والخيانة والكيد للمسلمين حتى يحذروهم

بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

* * *

يضركم كيد هؤلاء المنافقين الفجار شيئاً ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ حافظٌ لأعمالهم ، من الفساد والصدِّ عن سبيله ، محيط بهم وبكيدهم ، ليذيقهم عقوبته ، ويوفيهم جزاءهم عليه

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أُحد ، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المنافقين والصابرين[١] فقال ﴿وَإِذْ غدوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤْمنينَ مَقَاعِدَ للقتال﴾ واذكر يا محمد حين غدوت من أهلك ، تتخذ للمؤمنين معسكراً وموضعاً لقتال عدوهم ﴿واللَّهُ سميعٌ عليمٌ﴾ سميعٌ لأقوالكم ، عليمٌ بضمائركم وأحوالكم ﴿إِذْ هَمَّتْ طائِفتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا﴾ حين همَّت قبيلة « بني حارثة » وقبيلة « بني سلمة » أن تضعفا وتجبنا عن لقاء عدوهما، وتنصرفا عن رسول الله ﷺ فعصمهما الله[٢] ﴿واللَّهُ وَلِيُّهُما﴾ واللَّهُ ناصرهما على الأعداء ﴿وعلى اللَّهِ فليتوكلِ المؤمنونَ﴾ وعلى الله وحده فلْيعتمد المؤمنون ، وليستعينوا به في جميع أمورهم ﴿ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلةٌ﴾ نصركم على أعدائكم ببدر ، وأنتم يومئذٍ قليلون في العدَد مع كثرة عدوكم ﴿فاتقوا اللَّهَ﴾ بطاعته واجتناب محارمه ﴿لعلكم تشكرون﴾ لتشكروه على ما منَّ به عليكم من النصر ﴿إِذْ تَقُولُ للمؤمنين أَلَنْ يكفيَكم أَنْ يُمدَّكم ربكم بثلاثة آلافٍ من الملائكةِ مُنْزَلين﴾ حين تقول لأصحابك أما كفاكم أن ينزل الله ثلاثة آلاف من الملائكة لتقاتل معكم؟ قال ابن عباس لم تقاتل الملائكة إلا في بدر ، وكانوا في غير بدر يكونون عدداً ومدداً لا يقاتلون[٣] ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ بلى إن صبرتم أمام الأعداء ، واتقيتم الله عز وجل ﴿ويأْتوكُمْ من فَوْرِهِم هذا﴾ ويأتيكم الأعداء من ساعتهم[٤]. ﴿يُمْدِدْكم ربكم بخمسةِ آلافٍ من الملائكةِ مُسَوِّمينَ﴾ يزدكم قوةً

---

(١) ذكَّرهم تعالى بما جرى لهم بأحدٍ من البلاء ، بسبب عدم صبرهم ومخالفتهم أمر الرسول ﷺ وبما حدث لهم من النصر في غزوة بدْر بسبب صبرهم وتوكلهم على الله

(٢) أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله قال : فينا نزلت ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ الآية ، قال: ونحن الطائفتان « بنو حارثة » و « بنو سلمة » وما يسرني أنها لم تنزل لقوله تعالى ﴿ واللهُ وليُّهما ﴾

(٣) ثبت بآثار كثيرة أن الملائكة قاتلت مع المسلمين في بدر ، وكانوا معمَّمين بعمائم صفر ، حتى قال أبو داود المازني ـ وكان شهد بدراً ـ إني لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي

(٤) قال الحسن ﴿من فورهم هذا﴾ من وجههم هذا أي من مخرجهم الذي خرجوا منه لنصرة أصحابهم المشركين .

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

* * *

بإمدادكم بخمسة آلاف من الملائكة ، معلَّمين بعلامات حسنة ، عمائم صفر قد طرحوها بين أكتافهم(١) ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُمْ﴾ وما جعل الله إمداده لكم بالملائكة ، إلا بشارة لكم يبشركم بها ﴿ولتطْمئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ ولكي تطمئن وتسكن قلوبكم بوعد الله ﴿وما النُصْرُ إلاَّ من عند اللَّهِ﴾ وما ظفركم بعدوكم إلا بعون الله ، لا بالجموع وكثرة العدد ﴿العزيز الحكيم﴾ العزيز في انتقامه من أعدائه ، الحكيم في تدبيره ولو شاء أن ينصركم بغير الملائكة فعل ﴿ليقطع طرفاً من الذين كفروا﴾ ليهلك طائفة من الكفار . ﴿أو يكبتهم فينقلبوا خائبين﴾ أو يخزيهم بخيبتهم من الظفر بكم ، فيرجعوا خائبين لم ينالوا ما كانوا يؤملون ﴿ليس لك من الأمر شيءٌ﴾ ليس لك يا محمد من أمر عبادي شيء ، بل أمرهم إليَّ ، أقضي فيهم وأحكم بما أشاء(٢) ﴿أو يتوبَ عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ إن شاء تاب عليهم ، وإن شاء عذبهم ، فإنهم ظالمون مستحقون للعقاب ﴿ولِلَّهِ ما في السَّمَوات وما فِي الأرضِ﴾ له جل وعلا جميع ما بين أقطار السموات والأرض ﴿يغفر لمن يشاءُ ويعذب من يشاءُ﴾ يتوب على من شاء من خلقه فيغفر له ذنبه ، ويعاقب من شاء منهم فينتقم منه ﴿واللَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ يغفر الذنوب ويرحم العباد

﴿يَا أَيُّها الَّذِيَن آمنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾ لا تتعاملوا بالربا كما كنتم في جاهليتكم تأخذونه أضعافاً مضاعفة(٣) ﴿واتَّقُوا اللهَ لعلكم تُفْلِحونَ﴾ خافوا الله ، لتنجحوا فتنجوا من عقابه ، وتدركوا ما رغَّبكم فيه من ثوابه .﴿واتَّقُوا النَّار التي أُعِدَّتْ للكافرينَ﴾ خافوا نار جهنم التي أعدَّها الله لمن كفر به ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلكُمْ تُرْحَمونَ﴾ وأطيعوا الله فيما نهاكم عنه من أكل الربا ،

---

(١) هذا قول ابن الزبير ، وقال الربيع كانوا على خيل بُلْقٍ

(٢) روي أن النبي ﷺ لما أُصيب يوم أحد ، وكسرت رباعيته ، وشجَّ وجهه قال : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم فنزلت الآية

(٣) كانوا في الجاهلية إذا حلَّ أجل الدين قال المرابي للمستدين إمَّا أن تقضي ، وإمَّا أن تُربي ، فإن قضاه وإلاَّ زاده في المدة وضاعف له القدر ، وهكذا كل عام حتى يصير القليل كثيراً مضاعفاً ، وليس ذكر الأضعاف للقيد حتى لا يكون القليل محرماً ، بل هو لبيان الظلم الفادح .

* وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

* * *

وأطيعوا الرسول أيضاً ، لترحموا فلا تعذبوا **﴿وَسَارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ من ربِّكُمْ﴾** بادروا وسابقوا إلى ما يوجب لكم ستر ذنوبكم ، والعفو عنها برحمته تعالى **﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ والأرضُ﴾** وسارعوا إلى جنةٍ عرضُها كعرض السموات السبع والأرضين السبع في السعة والعِظَم[1] **﴿أُعِدَّتْ للمتقينَ﴾** أعدها الله للمطيعين ، الذين اتقوا الله بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، ثم فسَّر المتقين بقوله : **﴿الذينَ يُنْفِقونَ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ﴾** الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، في حال الرخاء والسَّعة ، وفي حال الضيق والشدة **﴿والكاظمين الغَيْظَ﴾** والذين يكتمون غيظهم إذا ما أُغضبوا **﴿والعافينَ عن النَّاسِ﴾** والصافحين عمَّن أساء إليهم **﴿واللهُ يُحبُّ المحسنينَ﴾** يحبُّ من كان محسناً في عمله **﴿والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ﴾** والذين إذا فعلوا قبيحاً ، أو ارتكبوا معصيةً ، ذكروا وعيد الله على ما أتوا من المعاصي **﴿فاسْتَغْفَروا لِذُنُوبِهِمْ﴾** سألوا ربهم أن يستر عليهم ذنوبهم فلا يعاقبهم عليها **﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ﴾** وما يغفر الذنوب أحدٌ إلا الله **﴿ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمونَ﴾** ولم يقيموا على ذنوبهم التي فعلوها ، ومعصيتهم التي ركبوها ، وهم يعلمون وعيد الله عليها ، ولكنهم تابوا واستغفروا **﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾** ثوابُهم على ما أطاعوا ، عفوٌ لهم من الله عن عقوبتهم **﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهارُ﴾** ولهم بساتين تجري خلال أشجارها أنهار الجنة **﴿خالدين فيها﴾** مقيمين فيها أبداً **﴿وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾** ونعم جزاء العاملين لله جناتُ النعيم

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ قد مضت من قبلكم يا أصحاب محمد وقائع الأمم

---

(١) روي أن « هرقل » ملك الروم كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض ، فأين النار ؟ فقال النبي ﷺ « سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهار »؟ رواه أحمد ومعناه أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل ألا يكون في مكان آخر ، وكذلك النهار يكون حيث شاء الله ، والغرضُ من الآية تشبيه سعة الجنة بما يدركه الناس كما في الآية الثانية ﴿ وجنةٍ عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ وإلا فحقيقة الجنة وسعتها لا يعلمه إلا الله تعالى

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

* * *

السابقين[١]. ﴿فَسِيرُوا في الأَرْضِ فانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عاقِبَةُ المكذبينَ﴾فسيروا في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم ، تروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي ، وما آل إليه حالهم من الهلاك والدمار . ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمتَّقينَ﴾ هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكم إياه ، تفسيرٌ وتوضيح للناس ، ودلالة على سبيل الحق ، وتذكرة للمتقين إلى الصواب والرشاد ﴿ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ ولا تضعفوا ولا تجزعوا على ما أصابكم من القتل في أُحد ، وأنتم الظاهرون على أعدائكم ، الغالبون عليهم ﴿إنْ كنتُمْ مُؤْمنينَ﴾ إن كنتم مصدِّقين محمداً ﷺ فيما وعدكم به ﴿إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحُ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ أن يصبكم يا معشر المؤمنين قتلٌ وجراح ، فقد أصاب أعداءَكم قتلٌ وجراح مثلهُ ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ نجعلها دُولاً بين الناس ، يوماً لكم ويوماً عليكم .﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمنوا﴾ وليعلم الله الذين آمنوا منكم من الذين نافقوا ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ﴾ وليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه بها ﴿واللهُ لا يُحِبُّ الظَّالمينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ وليختبر بالابتلاء المؤمنين ، حتى يتبيَّن المؤمن الصادق من المنافق ، ويُنقص ويُفني الكافرين ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ﴾ أظننتم أن تنالوا كرامة ربكم ، وشرف المنازل عنده ﴿وَلَمَّا يَعْلَم اللهُ الذينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ويَعْلَم الصَّابرينَ﴾ ولمَّا يتبيَّن لعبادي المؤمنين[٢] ، المجاهدُ منكم في سبيل الله ، والصابرُ عند البأس ؟ ﴿ولقد كنتم تَمَنَّوْنَ المَوْتَ من قبل أنَ تَلْقَوْه﴾ ولقد كنتم يا أصحاب محمد تتمنَّون قتال أعدائكم ، لتنالوا من الأجر مثل ما نال أهل بدر ، من قبل أن تروا القتال ﴿فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾ فقد رأيتم الموت قريباً منكم، بمرأى منكم ومنظر. قال قتادة كانوا يتمنون أن يلقوا المشركين فيقاتلوهم ،

(١) قال ابن كثير يخاطب تعالى المؤمنين لما أصيبوا يوم أُحد وقُتل منهم سبعون ، فيبيّن لهم أنه قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلهم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم على الكافرين

(٢) إنما فسره بهذا التفسير لأن الله عالم بكل شيء ، قبل انكشافه للعباد وبعد انكشافه ، لا تخفى عليه خافية

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧)﴾

* * *

فلما لقوهم يوم أُحدٍ ولَّوْا منهزمين ، فعاتب من فرَّ منهم ، وأثنى على الصابرين ﴿وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسلُ﴾ وما محمد إلا رسول كسائر الرسل ، الذين مضوا قبله وماتوا عند انقضاء آجالهم ﴿أفإنْ مَاتَ أو قُتِلَ انقلبتُمْ على أعقابكم﴾ أفإن مات محمد أو قتله عدوٌّ ، ارتددتم عن دينكم ، ورجعتم كفاراً بعد الإيمان بالله[١] ؟ ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شيئاً﴾ ومن يرتدد منكم عن دينه ، ويرجع كافراً بعد إيمانه ، فلن يوهن عزة الله وسلطانه ، ولن يُنْقِص من ملكه شيئاً ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وسيثيب الله من شكره ، بثبوته على الحق ، وتمسكه بدينه ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلَّا بإِذْنِ اللهِ﴾لا يموت محمد ﷺ ولا غيره إلا إذا بلغ أجله الذي كتبه الله له[٢] ﴿كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾ كتب تعالى ذلك كتاباً عنده ، أنه لا يموت أحدٌ إلا عند بلوغ أجله ﴿ومن يُرِدْ ثواب الدنيا﴾ ومن يُرِدْ بعمله جزاء الدنيا وثوابها .﴿نؤته منها﴾ نعطه ما قُسم له منها في حياته ، ثم لا نصيب له من كرامة الله ﴿ومن يُرِدْ ثواب الآخرة نؤته منها﴾ ومن يرد بعمله جزاء الآخرة وكرامتها التي أعدَّها للعاملين ، نعطه جزاءه فيها مع رزقه في الدنيا ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ نثيب الشاكرين ذلك الجزاء الوافر .

﴿وكأين من نبيٍّ قاتل معه ربِّيُّونَ كثيرٌ﴾ وكم من نبي قُتِل ومعه جماعات كثيرة[٣] ﴿فما وَهَنُوا لما أَصابَهُمْ في سبيلِ اللّهِ﴾ فما ضعفوا لما نالهم من ألم الجراح في سبيل الله ﴿وما ضعفوا وما استكانوا﴾ وما ضعفت قواهم ، وما ذلُّوا لأعدائهم ﴿واللّهُ يحبُّ الصابرينَ﴾ يحب الصابرين في الجهاد ، لا من دخله وهنٌ وضعف ﴿وما كان قولَهم إلا أن قالوا ربَّنا اغفرْ لنا ذنوبنا﴾ وما كان قول أتباع الأنبياء إلا طلب المغفرة

---

(١) لما أشاع المشركون في « غزوة » أُحد أن النبي ﷺ قد قتل ، دبَّ الوهن والضعف في قلوب بعض المؤمنين ، فنزلت الآية تعاتبهم

(٢) قال ابن كثير : أي لا يموت أحد إلا بقَدَر الله ، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له .

(٣) قال ابن عباس : ﴿ربيون كثير﴾ جموع كثيرة ، وقال الحسن : علماء صابرون كثيرون ، وقد اختار ابن جرير قراءة « قُتِل » أي قتِل وقُتِل معه ربيون كثير ، واختار غيره قراءة « قاتل » .

فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى

* * *

من الله بعد قتل نبيهم ، وإلا الصبر والاعتصام بالله في مجاهدة عدوهم **﴿وإسرافنا في أمرنا﴾** ومجاوزتنا الحدَّ في ارتكاب الخطايا **﴿وثَبِّتْ أقدامنا﴾** وثبتنا في الحرب حتى لا ننهزم **﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾** انصرنا على من جحد وحدانيتك ، ونُبُوَّة نبيك والآية تأنيبٌ من الله للذين فرُّوا يوم أُحد **﴿فآتاهم اللَّهُ ثوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثَوابِ الآخرة﴾** فأعطاهم الله خير جزاء الدنيا ، بالنصر على الأعداء ، والتمكين لهم في البلاد ، وخير جزاء الآخرة وهو الجنةُ ونعيمها ، على ما أسلفوا في الدنيا من الأعمال الصالحة **﴿واللَّهُ يحبُّ المحسنين﴾** يحب من كان محسناً **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم﴾** إن أطعتم اليهود والنصارى ، الذين جحدوا نبوة نبيكم ، يحملوكم على الكفر بعد الإيمان **﴿فتنقلبوا خاسرين﴾** فترجعوا هالكين قد خسرتم دنياكم وآخرتكم **﴿بلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ﴾** بل اللَّه وليُكم وناصركم فاعتصموا به . **﴿وهو خيرُ الناصرين﴾** هو خير من نصر فاستنصروا به **﴿سنُلْقي في قُلُوبِ الذينَ كفَروا الرُّعبَ﴾** سنلقي في قلوبهم الجزع والهلع **﴿بما أشركوا باللَّهِ ما لم يُنَزِّلْ به سُلْطاناً﴾** بشركهم بالله وعبادتهم الأصنام بغير حجة **﴿ومَأْواهُمُ النَّارُ﴾** ومرجعهم يوم القيامة نارُ جهنم **﴿وبئس مَثْوَى الظَّالمين﴾** وبئس مقام الظالمين النارُ . **﴿ولقدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إذ تَحُسُّونَهُمْ بإذْنِهِ﴾** ولقد وفى الله لكم عهده ، بما وعدكم من النصر على عدوكم بأُحد ، حين تقتلونهم بحكمه تعالى وقضائه **﴿حتَّى اذا فشتلم وتنازعتم في الأمر﴾** حتى إذا ضعفتم وجبنتم ، واختلفتم في أمر الله **﴿وعصيتم من بعد ما أراكم ما تُحبون﴾** وعصيتم أمر نبيكم فتركتم مراكزكم في الجبل[1] ، من بعد ما أراكم النصر والظفر على المشركين **﴿منكم من يُريد الدنيا ومنكم من يُريد الآخرة﴾** منكم من يريد الغنيمة ، ومنكم من يريد ما عند الله من الثواب ، وهم الذين ثبتوا في أماكنهم من الرماة. **قال ابن مسعود :** ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى

---

(١) كان النبي ﷺ قد وضع سبعين من الرماة على الجبل في أُحد ، ليحموا ظهور المسلمين ، وقال لهم : لا تبرحوا أماكنكم سواءٌ انتصرنا أو هُزمنا ، فلما انتصر المسلمون ترك الرماة الجبل ونزلوا لجمعِ الغنائم وخالفوا أمر الرسول ﷺ ، فلما رأى المشركون الجبل خالياً كرّوا عليهم من خلفهم فهزموهم ، وكانت النكسة بسبب مخالفة أمر الرسول ﷺ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا

* * *

نزلت الآية ﴿ثُمَّ صَرَفكم عنهم ليبتليكم﴾ ثم ردَّ وجوهكم عن المشركين بعد هزيمتكم لهم ، ليختبر إيمانكم فيتميز الصادق من المنافق . ﴿ولقد عَفا عنكم﴾ ولقد صفح عن عقوبة ذنبكم ، إذْ لم يستأصلكم إهلاكا. ﴿واللّهُ ذُو فضلٍ على المؤمنينَ﴾ ذو طَوْلٍ وإحسانٍ على أهل الإيمان . ﴿إذْ تُصْعِدُونَ ولا تَلْوُونَ على أَحدٍ﴾ حين تهربون في بطون الأودية والشِّعاب ، ولا يلتفت بعضكم إلى بعض هرباً من عدوكم ﴿والرَّسُولُ يَدْعوكُمْ في أُخْراكُم ﴾ ورسول الله ﷺ يناديكم من خلفكم « إليَّ عبادَ الله ، إليَّ عباد الله » ﴿ فأثابكم غمًّا بغَمٍّ ﴾ فجازاكم بفراركم عن نبيكم ، ومعصيتكم لربكم ، غمّاً على غمٍّ [١] ﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم﴾ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة والنصر ، ولا ما أصابكم من الجراح والقتل ﴿واللّهُ خبيرٌ بما تعملونَ﴾ ذو علم بالمحسن والمسيء ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عليكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً﴾ ثم ألقى النعاس عليكم من بعد الغم الذي أصابكم ـ أماناً لأهل الإخلاص واليقين ـ دون أهل النفاق والشك ﴿يَغْشَى طَائِفَةً منكم﴾ يَغْشى هذا النعاس فريقاً من أهل الإيمان [٢]. ﴿وطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ والطائفة الأخرى هم المنافقون ، ليس لهم همٌّ إلا أنفسهم ، قد طار عن أعينهم الكرى ـ النوم ـ ﴿يَظُنُّونَ باللّهِ غَيْرَ الحقِّ ظَنَّ الجاهليةِ﴾ يظنون بالله الظنون الكاذبة ، ظنَّ أهل الشرك ، شكاً في أمر الله ، وتكذيباً لرسوله ﷺ ﴿يَقُولونَ هَلْ لَنَا من الأَمْر من شيءٍ﴾ يقول المنافقون ليس لنا من الأمر شيء ، ولو كان لنا من الأمر شيء ما خرجنا للقتال ﴿قُلْ إنَّ الأمر كُله لِلّهِ﴾ قل لهؤلاء المنافقين إن الأمر كلَّه لِلّهِ ، يُصرِّفه كيف يشاء ، ويدبِّره كيف يحب ﴿يُخْفُونَ في أنفسِهِمْ ما لا يُبْدون لك﴾ يخفون في أنفسهم من الكفر والشك ، ما لا يُظهرون لك يا محمد

﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنَا ههُنا﴾ لو كان الخروج إلى حرب المشركين إلينا، ما خرجنا

(١) الغمُّ الأول بسبب الهزيمة ، والثاني حين قيل : قُتِل محمد ﷺ ، وذهب بعض المفسرين إلى أن المعنى : جازاكم غماً بغمّكم للرسول ﷺ ، والأول اختيار الطبري وابن كثير .

(٢) روى البخاري عن أبي طلحة قال « كنتُ فيمن تغشَّاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه » . أقول كان نوم الصحابة في الحرب آية من آيات الله الباهرة ، ليستعيدوا قوتهم ونشاطهم ، ويطمئنوا بنصر الله ، فإن النوم في تلك الحال دليل الأمان ، والخائف لا يأتيه النوم

قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

* * *

إليهم ، ولا قُتِلَ منا أحدٌ في هذه المعركة ﴿قُلْ لو كنتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبرزَ الَّذِينَ كُتِبَ عليهم القَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ﴾ قل يا محمد لو كنتم في بيوتكم ولم تحضروا مع المؤمنين الحرب، لظهر من كُتِبَ عليه القتل إلى مصرعه ، ولخرج من بيته حتى يُصْرع ويموت ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ وليختبر الله ما في صدوركم من الشك ، ويُظْهِر للمؤمنين نفاقكم ﴿ وليُمَحِّصَ ما في قُلُوبِكُمْ﴾ وليبيِّن ما في قلوبكم من الاعتقاد الفاسد وكلُّ ما جاء من نحو « وليعْلَمَ اللهُ » «وليَبتلي اللَّهُ»فإن معناه إظهارُه لأوليائه[1]وأهلِ طاعته ﴿واللَّهُ عليمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ عالمٌ بما في صدور خلقه من خيرٍ وشر ، وإيمانٍ وكفر ﴿إنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا منكمْ يَوْمَ الْتَقى الجَمْعَانِ﴾ انهزموا يوم التقى جمعُ المسلمين وجمعُ المشركين بأحد ﴿إنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ ببعضِ مَا كَسَبُوا﴾ إنما دعاهم الشيطان إلى الخطيئة ، بسبب بعض ما عملوا من الذنوب ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ صفح عنهم ، وتجاوز عن عقوبتهم ﴿إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يستر الذنوب ، ولا يُعجِّل العقوبة لمن خالف أمره ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا لا تَكُونوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا تكونوا كهؤلاء المنافقين ، أصحاب عبد الله بن سلول ﴿وَقَالُوا لِإخْوانِهِم إِذَا ضَرَبُوا في الأَرْضِ﴾ وقالوا لإخوانهم في الكفر ، إذا خرجوا من بلادهم سفراً في تجارة ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أو كانوا غُزاةً في سبيل الله ، فقتلوا في غزوهم ﴿لَوْ كَانُوا عِندَنَا ما مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾لو أقاموا في بلادهم ما ماتوا في السفر، ولا قُتِلوا في الغزو. ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً في قُلُوبِهِمْ﴾ يقولون ذلك لكي يجعل هذا القول في قلوبهم حُزْناً وغمًّا. ﴿واللَّهُ يحيي ويميتُ واللَّهُ بما تعملون بصيرٌ﴾ الحياةُ والموتُ بيده جل وعلا ، وسيجازي كل عاملٍ بعمله والغرضُ ترغيب المؤمنين في جهاد الأعداء ، والصبر عند اللقاء .﴿ولَئِنْ قُتِلْتُمْ في سَبِيلِ اللَّهِ أو مُتُّمْ لَمَغْفِرةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مَّا يَجْمَعُونَ﴾ الموت كائنٌ لا بدَّ منه ، فإنَّ موتاً في سبيل الله أو قتلاً في الله ، خيرٌ لهم مما يجمعون في الدنيا من حُطامها ورغيد عيشها ﴿وَلَئِنْ مُّتُّمْ أو قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي إلى الله مرجعكم ، فيجازيكم بأعمالكم ، فآثروا ما يقرِّبكم

---

(١) إنما فسره الطبري بهذا لأن الله تعالى عالمٌ بكل ما يحدث من الإنسان قبل أن يخلقه ، فلا يحتاج في علمه إلى امتحانٍ واختبار .

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ

* * *

من الله ، من الجهاد في سبيله ، والعمل بطاعته ، على الركون إلى الدنيا ، والاشتغال بحطامها الزائل **﴿فَبِمَا[١] رَحْمَةٍ من اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾** فبرحمةٍ من الله ـ أودعها الله في قلبك يا محمد ـ لنت لأصحابك ، وحَسُنَتْ لهم أخلاقُك ، حتى احتملت الأذى منهم **﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القلْب لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾** ولو كنت جافياً ، قاسي القلب ، لتفرقوا عنك وتركوك ، ولكنَّ الله رحمهم بك[٢] ، فلينَّ قلبك وحسَّن خلقك **﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾** فتجاوز عن أصحابك واصفح عما نالك من أذاهم ، وادْعُ ربك لهم بالمغفرة ، وشاورهم فيما حَزَبك من أمر[٣] ، تطبيباً لقلوبهم ، وتألفاً لهم ، ليقتدوا بك عند النوازل **﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾** فإذا صحَّ عزمك على أمرٍ ، فامضِ لما أمرناك به ـ وافق ذلك آراءَ أصحابك أو خالفها ـ واعتمدْ على ربك في جميع أمورك ، وثقْ به. **﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾** يحبُّ الراضين بقضائه ، المستسلمين لحكمه ، الواثقين به في جميع الأمور **﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فلا غَالِبَ لَكُمْ﴾** إن ينصركم الله أيها المؤمنون على أعدائكم ، فلن يغلبكم أحد ، ولو اجتمعوا عليكم **﴿وإنْ يَخْذُلْكُمْ فَمن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾** وإن يترك نصرتكم ويتخلَّ عنكم ، فمن الذي ينصركم بعد الله تعالى ؟ ! **﴿وَعَلَى اللَّهِ فلْيتوكَّل الْمُؤْمِنُونَ﴾** وعلى الله لا على الناس ، فليعتمدْ المؤمنون ، ليكفيهم بعونه ، ويمدهم بنصره **﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾** وما ينبغي لنبي أن يخون في الغنيمة[٤] **﴿ومن يَغْلُلْ يأتِ بما غلَّ يومَ القيامَةِ﴾** ومن يخن من غنائم المسلمين شيئاً ، يأت به يوم القيامة يحمله على عنقه. **﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾** تُعطى كل نفسٍ جزاء عملها وافياً **﴿وهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾** لا يُنقصون شيئاً **﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ**

---

(١) فبما « ما » صلة أي زائدة ، زيدت لتأكيد الكلام ، والمعنى فبرحمةٍ من الله ، ومثلها قوله ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي فبنقضهم ميثاقهم ، وهذا كثير ومشهور عند العرب .

(٢) الغرض الامتنان على الرسول ، وعلى المؤمنين بالرحمة المهداة ، سيد الكائنات ﷺ

(٣) وقد امتثل ﷺ الأمر ، فكان يشاور أصحابه فيما يحدث له من أمور ، ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر ، وشاورهم يوم أحد ، ويوم الخندق ، وفي الحديبية ، وهذا تشريع منه ﷺ للأمة لئلا يستبدوا بالرأي

(٤) قال ابن عباس : نزلت في قطيفة حمراء فُقدت يوم بدر ، فقال بعض المنافقين : لعلَّ رسول الله أخذها فنزلت الآية ، قال ابن كثير وهذا تنزيهٌ له ﷺ من جميع وجوه الخيانة ، في أداء الأمانة ، وقسم الغنيمة وغير ذلك

مِنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

* * *

﴿اللّهِ﴾ أفمن عمل بطاعة الله واجتنب محارمه ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسخطٍ من اللّهِ﴾ كمن انصرف متحملاً سخط الله وغضبه ؟. ﴿وَمأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصِيرُ﴾ ومسكنه جهنم ، وبئس المرجع والمآب نارُ جهنم ﴿هُمْ درَجَاتٌ عِنْد اللّهِ﴾ هم يوم القيامة مختلفو المنازل عند الله ، فلمن اتَّبع رضوان الله الكرامةُ والثوابُ ، ولمن باء بسخطٍ من الله المهانةُ والعقاب ﴿واللّهُ بصيرٌ بما يعمَلُونَ﴾ يُحصي على الناس أعمالهم، ولا يخفى عليه شيءٌ.

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذْ بَعَثَ فيهم رَسُولاً من أَنْفُسِهِمْ﴾ لقد امتنَّ الله على المؤمنين ، حين أرسل فيهم رسولاً من جنسهم ، ومن أهل لسانهم[١] ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يقرأ عليهم آيات القرآن ، ويطهّرهم من دَنَس الذنوب والآثام ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمَةَ﴾ ويعلِّمهم كتاب الله ، وسنة رسوله عليه السلام ﴿وَإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لفي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وإن كانوا من قبل بعثته ، لفي جهالةٍ جهلاء ، وضلالةٍ عمياء ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أوَ حين أصابتكم مصيبةٌ يوم أُحد ، قد أصبتم مثليها يوم بدر ، قلتم من أين أصابنا هذا ونحن مسلمون ؟ كان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً ، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدرٍ سبعين ، وأسروا سبعين ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ قل لهم أصابكم ذلك بترككم طاعتي ، ومخالفتكم أمري ﴿إنَّ اللهَ على كل شيءٍ قديرٌ﴾ قادر على جميع ما يريد ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإذْنِ اللهِ﴾ وما أصابكم يوم أحد ، حين التقى جمع المسلمين والمشركين ، فبقضاء الله وقَدَره ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنينَ﴾ وليعلم الله المؤمنين ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ وليعلم المنافقين ، فيميز أهل الإيمان عن أهل النفاق ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أَو ادْفَعُوا﴾ تعالوا قاتلوا المشركين معنا ، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم. وهؤلاء

(١) المنة العظمى على العباد، بعثة السراج المنير سيدنا محمد صلوات الله عليه ، فلقد خلق الله الكائنات وما فيها من سماء وأرض، وشمس وقمر ، ونجوم وكواكب ، وبحار وأنهار ، وجبال وأشجار ، ولكنه لم يمتنّ علينا بها ، وإنما امتنَّ علينا بالنعمة العظمى ، بعثة خاتم المرسلين ﷺ

مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

* * *

هم ابن سلول المنافق وأصحابه ، الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ في غزوة أحد ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمانِ﴾ هم في تلك الحال أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يظهرون بألسنتهم غير ما في قلوبهم ، من النفاق وعداوة الرسول ﷺ ﴿واللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمونَ﴾ والله أعلم بما يخفون ويضمرون ﴿الَّذِينَ قَالُوا لإخوانهم وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ قالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين بأحد وقعد هؤلاء المنافقون عن الجهاد لو أطاعنا إخواننا ما قُتلوا هنالك ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المنافقين ادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين في قولكم لو أطاعونا ما قُتلوا ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً﴾ ولا تظننَّ الذين استشهدوا في سبيل الله أمواتاً ، لا يُحسُّون شيئاً ولا يلتذُّون ولا يتنعَّمون ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عند رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فإنهم أحياء عندي ، متنعمون في رزقي[1] ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مسرورون بما آتيتُهم من كرامتي ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ويستبشرون لإخوانهم الذين فارقوهم وهم أحياء ، لعلمهم بأنهم إنْ استشهدوا فلحقوا بهم ، صاروا إلى الكرامة والفضل والنعيم ، فهم لذلك فرحون مستبشرون ﴿أَلَّا خوفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بأنهم لا خوفٌ عليهم لأمنهم من العقاب ، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم من الدنيا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ يفرحون بما حباهم الله من عظيم كرامته ، وبما أسبغ عليهم من الفضل وجزيل الثواب ﴿وأَنَّ اللهَ لا يُضَيعُ أَجْرَ المؤمنينَ﴾ وبأن الله لا يبطل جزاء

---

(١) وفي الحديث « لما أُصيب إخوانكم يوم أُحد ، جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خضر ، تَرِدُ أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم ، قالوا يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل أنا أبلغهم عنكم فأنزل ﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا .﴾ الآيات

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ

* * *

المؤمنين ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ والرَّسولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ هم الذين استجابوا للهِ والرسول من بعدما أصابتهم الجِراح والكُلُوم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُــمْ واتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ثواب جزيل وجزاء عظيم ، وهم الذين تبعوا رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد ، بعد منصرفهم من أُحد

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قد جَمَعوا لكم فَاخْشَوْهُمْ﴾ إن الناس قد جمعوا الرجال للقائكم وحربكم ، فاحذروهم فإنه لا طاقة لكم بهم ﴿فَزادَهُمْ إيماناً وَقَالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فزادهم ذلك يقيناً إلى يقينهم ، وقالوا يكفينا اللهُ ونعم المولى لمن وليَه وكفله ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ فرجعوا بعافيةٍ من ربهم ، لم يلقوا عدواً ، وأجر عظيم اكتسبوه ، لم ينلهم أذى ولا مكروه ﴿واتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ﴾ أرضوا ربهم بطاعتهم لرسوله ﴿واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظيمٍ﴾ ذو إحسانٍ عظيم على خلقه ﴿إنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّف أَولياءَهُ﴾ إنما ذلكم من فعل الشيطان ، يخوفكم بأوليائه المشركين ، لترهبوهم وتجبنوا عنهم ﴿فلا تَخافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فلا ترهبوا جمعهم ، فإني متكفل لكم بالنصر والظفر ، ولكن خافوا أن تخالفوا أمري فتهلكوا ﴿ولا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ في الكُفْرِ﴾ لا تحزن يا محمد لكفر هؤلاء المنافقين ، الذين يسارعون في الكفر مرتدين على أعقابهم ﴿إنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً﴾ لن يضرُّوا الله بكفرهم وارتدادهم عن الإيمان شيئاً ، وإنما يضرون أنفسهم ﴿يُرِيدُ اللهُ ألَّا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ يريد الله ألَّا يجعل لهؤلاء نصيباً في ثواب الآخرة ﴿ولهم عذابٌ عظيمٌ﴾ هو عذاب النار ﴿إنَّ الذينَ اشتروا الكفر بالإيمانِ لن يضروا اللهَ شيئاً﴾ إن هؤلاء المنافقين ، الذين استبدلوا الكفر بالإيمان ، لن

---

(١) لما أصيب نبي الله ﷺ يوم أحد ، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، فقال. من يرجع في أثرهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً ،منهم الزبير وأبو بكر ، فساروا حتى انتهوا إلى « حمراء الأسد » وقذف الله في قلوب المشركين الرعب فولوا الأدبار منهزمين ، ورجع المسلمون إلى المدينة آمنين

شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

* * *

يضروا الله شيئاً بارتدادهم عن الإيمان ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ ولهم عذاب موجع ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الذين كفرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ﴾ لا يظنَّنَّ الكفار أن إطالتنا لأعمارهم ، وتأخيرنا لآجالهم خيرٌ لهم ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾ إنما نؤخر آجالهم فنطيلها ، ليكتسبوا المعاصي ، فتزداد آثامُهم وتكثر ﴿ولهم عَذَابٌ مهينٌ﴾ لهم عقوبةٌ شديدة مع الذل والإهانة ﴿ما كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ما كان الله ليترك المؤمنين على ما أنتم عليه من التباس المؤمن بالمنافق ، فلا يُعرف هذا من هذا ﴿حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ حتى يُفرّق بالمِحن والاختبار ، بين المنافق والمؤمن الصادق. **قال مجاهد** : ميَّز بينهم «يوم أُحد» المنافق من المؤمن ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ﴾ ولم يكن ليطلعكم على ضمائر قلوب عباده ، لتعرفوا المؤمن من المنافق والكافر ﴿ولكنَّ الله يجتبي من رُسُلِهِ مَنْ يشاءُ﴾ ولكنه تعالى يصطفي من يشاء من رسله ، فيطلعه على بعض ما في ضمائر الناس والغرضُ أنه لا يطلع العباد على سرائر الناس ، ولكنه يميز بينهم بصنوف المِحَن ، حتى يعرفوا المؤمن والكافر والمنافق ، إلا من استثناه من رسله فخصَّه بعلمه ﴿فآمنوا باللهِ ورسله﴾ فصدّقوا بالله ورسله ﴿وإنْ تُؤْمِنُوا وتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وإن تصدِّقوا رسولكم ، وتتقوا ربكم ، فلكم ثوابٌ عظيم ﴿ولا يَحسبنَّ الَّذِينَ يَبْخلونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولا يظنَّنَّ الذين يبخلون بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال ، فلا يخرجون منها الزكاة ﴿هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم﴾ هو خيراً لهم يوم القيامة ، بل هو شرٌّ لهم ﴿سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ سيجعل ما بخلوا به طوقاً في أعناقهم يوم القيامة[1].﴿ولله ميراثُ السمواتِ والأرض﴾ هو الحيُّ الباقي بعد فناء خلقه ، الذي له ميراث كل شيء ﴿واللهُ بما تعملون خبيرٌ﴾ ذو خبرة وعلم ، فيجازي المحسن بالإحسان ، والمسيء بما يستحق

(١) روى البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « من آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته ، مُثّل له ماله شجاعاً أقرع ـ أي ثعباناً عظيماً ـ له زبيبتان ، يطوِّقه يوم القيامة ، فيأخذ بلهزمتيه ـ يعني بشدقيه ـ ثم يقول أنا مالك ، أنا كنزك » ثم تلا الآية الكريمة

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ

* * *

﴿لَقَدْ سمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِياءُ﴾ لقد سمع الله قولَ اليهود الذين قالوا إن الله فقيرٌ إلينا ، ونحن أغنياءُ عنه. قال الحسن لما نزل « من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً » عجبت اليهود فقالوا إن الله فقير يستقرضُ منا فنزلت الآية ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ سنكتب ما قالوا من الإفك والإفتراء على ربهم ، وقتلهم أنبياءهم بغير حق ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ونقول للمفترين على الله ذوقوا عذاب النار المحرقة الملتهبة ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْديكُمْ﴾ ذلك بما اكتسبت أيديكم من الآثام، واجترحت من السيئات ﴿وأنَّ اللهَ ليس بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وبأن الله عادل ، لا يعاقب عبداً بغير استحقاقه للعقوبة ﴿الذينَ قالوا إنَّ اللهَ عَهِدَ إلينا ألَّا نؤمنَ لرسولٍ﴾ الذين قالوا إن الله أوصانا ألَّا نصدِّق رسولاً من الرسل ﴿حتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تأكُلُهُ النَّارُ﴾ حتَّى يجيئنا بقربان يقرِّبه لله ، فتنزل نارٌ من السماء فتأكله ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكم رَسُلٌ مِنْ قَبْلي بالبِّينَاتِ﴾ قل لهم يا محمد لقد جاءكم الرسل من قبلي بالحجج الدالة على صدق نبوّتهم ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ وبالذي ادعيتم من القربان ﴿فَلِمَ قَتَلْتُموهُمْ﴾ فلم قتلتم الرسل بعد ظهور الحجة لهم عليكم ؟ ﴿إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الإيمان ﴿فإنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فإن كذبك هؤلاء ، فقد كذَّب أسلافهم من قبلُ رسل الله ﴿جَاءُوا بالبِّيناتِ﴾ جاءوهم بالحجج القاطعة ، والأدلة الباهرة ، والآيات المعجزة ﴿والزُّبُرِ والكِتَابِ المنيرِ﴾ وبالكتب السماوية ، وبالكتاب الذي ينير الحق ويوضّحه ـ التوراة والإنجيل ـ والآية تعزيةٌ للرسول ﷺ لما ناله من أذى اليهود[١]

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الموت حتمٌ على جميع الناس ، ومصيرهمُ ومرجعهم إليَّ ﴿وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ وإنما تُعطون أجور أعمالكم يوم القيامة ﴿فمن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ

(١) قال الضحاك يعزِّي نبيه ﷺ

ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ * لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾

* * *

الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ فمن أُبْعد عن النار ، وأُدْخل الجنة فقد نجا وظفر بحاجته **﴿وَمَا الْحَياةُ الدنيا إلاَّ مَتاع الغُرُور﴾** وما شهواتُ الدنيا إلا متعةٌ يسيرة ، تُخدعون بها ثم تعود عليكم بالفجائع والمصائب ، فأنتم منها في غرور ، وبعد قليل عنها راحلون **﴿لَتُبْلَوُنَّ في أَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ﴾** لتختبرنَّ بالمصائب في أموالكم وأنفسكم **﴿ولَتَسمعُنَّ من الَّذِينَ أوتُوا الكتابَ من قبلِكُمْ ومنَ الَّذِينَ أشْركُوا أذًى كثيراً﴾** ولتسمعن من اليهود والنصارى والمشركين الأذى الكثير كقول اليهود « إن الله فقير » و « يدُ الله مغلولة » وقول النصارى « المسيح ابن الله » وما أشبه ذلك من كفرهم **﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾** وإن تصبروا على الأذى ، وتتقوا الله بطاعته ، فإن ذلك مما عزم الله عليه وأمركم به

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ﴾ واذكر يا محمد حين أخذ الله العهد المؤكد على اليهود والنصارى. **﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ولا تَكْتُمُونَهُ﴾** لتبيننَّ للناس أمر محمد ، وأنه رسولُ الله بالحق، ولا تخفون ما في التوراة والإنجيل **﴿فَنَبذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾** فتركوا أمر الله وضيَّعوه[1] ، ونقضوا الميثاق **﴿واشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾** وابتاعوا بكتمانهم أمر نبوتك ، عوضاً خسيساً من عَرَض الدنيا **﴿فبئس ما يشترون﴾** فبئس الشراء الذي اشتروه بتضييع الميثاق **﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾** لا تظننَّ يا محمد أهل الكتاب ، الذين يفرحون بما أتوا من كتمانهم للناس أمرك **﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾** ويحبون أن يحمدهم الناس ، أنهم أهل طاعة وعبادة ، وهم بخلاف ذلك **قال ابن عباس** دعا النبي ﷺ اليهود ، فسألهم عن شيءٍ فكتموه وأخبروه بغيره ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه

(١) هذا مثل لمن ضيَّع الشيء وفرَّط فيه يقال نبذه وراء ظهره أي ضيَّعه ولم يعمل به

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا

* * *

فنزلت ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ فلا تظنَّنهم بمنجاةٍ من عذاب الله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذابٌ موجع

﴿وَلِلهِ ملكُ السمواتِ والأرضِ﴾ لله جلَّ وعلا ملك جميع ما حوته السمواتُ والأرض ، فكيف يكون فقيراً ؟ ﴿واللهُ على كُلِّ شـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو القادر على تعجيل العقوبة لكل مفترٍ ومكذب ثم ذكر تعالى أدلة قدرته ووحدانيته فقال ﴿إِنَّ في خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ واخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ﴾ اعتبروا أيها الناسُ ، فإن فيما خلقته من السموات والأرض ، وفيما أنشأته لأقواتكم وأرزاقكم ، وفيما جعلته من تعاقب الليل والنهار ، يجيء هذا بعد هذا ، فتتصرفون في النهار لمعاشكم ، وتسكنون في الليل راحةً لأجسادكم ﴿ لآيَاتٍ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ لمعتبراً ومذَّكراً وعظات ، لمن كان ذا لُبٍ وعقل ، فاعتبروا يا أولي الألباب ، ثم وصفهم بقوله ﴿الَّذينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ الذاكرين الله قياماً في صلاتهم ، وقعوداً في مجالسهم ، ومضطجعين على جنوبهم[١] قال ابن جريج هو ذكر الله تعالى في الصلاة ، وفي غير الصلاة ، وفي قراءة القـرآن ﴿ويتفكرون في خَلْقِ السمواتِ والأرضِ﴾ ويتفكرون في الأمور الدالة على عظمة الخالق ، ويعتبرون بصنعة صانع ذلك ، وأنه ليس كمثله شـيء ، قائلين ﴿رَبَّنَا ما خلقتَ هٰذَا بَاطِلاً﴾ لم تخلق هذا الخلق عبثاً ولا لعباً ، وإنما خلقته لأمرٍ عظيم ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ تنزيهاً لك من أن تفعل شيئاً عبثاً ، فقنا وأجرنا من عذاب الجحيم ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ من أدخلته النار من عبادك فقد أهنته غاية الإهانة ﴿وَمَا للظَّالِمينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وليس للظالمين ناصر ينصرهم ، أو ينقذهم من عذاب الله ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِربكُمْ فَآمَنَّا﴾ ربنا إننا سمعنا داعياً يدعو إلى الإيمان ، فصدَّقنا بذلك يا ربنا ، والمنادي هو القرآن[٢] ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ استر علينا خطايانا ، ولا

---

(١) قال ابن كثير : أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم ، بألسنتهم ، وسرائرهم ، وضمائرهم

(٢) اختار الطبري أن المراد بالمنادي هو القرآن وهو قول محمد بن كعب ، واختار ابن كثير أن المنادي هو محمد ﷺ ، وهو الأرجح ويؤيده قوله تعالى ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾

سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

* * *

تفضحنا بها يوم القيامة ﴿وكفِّرْ عنا سَيِّئَاتِنَا﴾ وامح بفضلك ورحمتك سيئات أعمالنا ﴿وتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ اقبضنا إليك ، واحشرنا في زمرة الأبرار ، الذين رضيت عنهم ﴿رَبَّنَا وآتِنَـا مَا وَعَدْتَنَا على رُسُلِكَ﴾ ربنا أعطنا ما وعدتنا من الكرامة على ألسنة رسلك ﴿ولا تُخْزِنَا يومَ القيامةِ﴾ ولا تفضحنا بذنوبنا يوم القيامة ﴿إنك لا تُخلِفُ الميعادَ﴾ لا تخلف وعدك ﴿فاسْتَجاب لهم ربُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَل عَامِلٍ منكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أو أُنْثَى﴾ فأجابهم ربُّهم بأني لا أضيع عمل عاملٍ منكم عمل خيراً ، ذكراً كان العامل أو أنثى ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ في النصرة والدين[1] . ﴿فالذين هاجروا﴾ هجروا قومهم وعشيرتهم ﴿وأُخْرِجُوا من ديارهم﴾ أخرجهم المشركون من أوطانهم ﴿وأُوذُوا في سبيلي﴾ وأوذوا لطاعتهم ربهم ، وعبادتهم له ﴿وقَاتَلُوا وقُتِلُوا﴾ وقاتلوا لإعلاء كلمة الله ، واستُشهـدوا في سبيل الله ﴿لأكفِّرنَّ عنهم سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لأمحون عنهم سيئاتهم بعفوي ورحمتي ﴿ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِها الأَنْهارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ جزاءً لهم على ما أبلوا في الله وفي سبيله ﴿والله عنده حُسْنُ الثوابِ﴾ والله عنده حسن الجزاء ، مما لا عينٌ رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا في البِلَادِ﴾ لا يغرنك يا محمد تصرف الكفار وضربهم في البلاد ، وإمهال الله لهم مع شركهم وجحودهم والخطابُ للرسول ﷺ والمراد أتباعه ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثم مَأْوَاهم جهَنَّمُ﴾ تمتعهم في هذه الدنيا قليل ، ثم مصيرهم الذي يأوون إليه جهنم ﴿وَبِئْسَ المِهَادُ﴾ وبئس الفراش والمضجع جهنم ﴿لكنِ الذين اتقوْا ربهم﴾ لكن الذين اتقوا ربهم بالعمل بأوامره ، واجتناب محارمه ﴿لهم جناتٌ تجري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ لهم بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خَالِدينَ فيهَا﴾ باقين فيها أبداً ﴿نُزُلاً من عند اللَّهِ﴾ كرامةً من قِبَل الله لهم

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري ، وقال ابن كثير أي جميعكم في ثوابي سواء ، والأرجح أن اللفظ على حقيقته والمعنى الذكر من الأنثى ، والأنثى من الذكر ، فلا تفريق ولا تمييز . ،ويشهد له قوله تعالى ﴿خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿وما عند الله خيرٌ للأبرار﴾ وما عند الله من الحياة ، والكرامة وحسن المآب ، خيرٌ للأبرار ممَّا يتقلب فيه الكفار ، من متاع الدنيا الخسيس ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إليكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وإنَّ من أهل التوراة والإنجيل ، لمن يُقرُّ بوحدانية الله ، وبما أُنزل إليكم من القرآن ، وما أنزل على أهلِ الكتاب من التوراة والإنجيل ، نزلت في « النَّجاشي[1] » وغيره ممن أسلم من أهلِ الكتاب . ﴿خَاشِعِينَ للهِ﴾ خاضعين لله بالطاعة ، مستكينين له متذلِّلين ﴿لا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللهِ ثَمناً قَليـلاً﴾ لا يحرِّفون ما أنزل إليهم من نعت محمد ﷺ وغيره من الأحكام ، لعَرَضٍ من الدنيا خسيس ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم﴾ لهم ثواب طاعتهم ، وعوض أعمالهم يوم القيامة ﴿إنَّ الله سريعُ الحِسَابِ﴾ سريع الإحصاء لأعمال العباد ومجازيهم عليها ، لا حاجة به إلى إحصاء عدد حتى يقع الإبطاء ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، اصبروا على دينكم وطاعة ربكم ، وعلى جميع ما أمر به ونهى عنه ﴿ وَصَابـرُوا ﴾ وصابروا أعداءكم من المشركين ، فكونوا أصبر منهم حتى تظفروا بهم ﴿وَرَابِطُوا﴾ ورابطوا أعداءكم وأعداء دينكم ، بالإقامة بالثغور ، والدفاع عن المسلمين ﴿واتقوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ واحذروا أن تخالفوا أمر الله ، لتفلحوا وتنجحوا بنعيم الأبد.

« تم بعونه تعالى تفسير سورة آل عمران »

***

(١) روي أن النبي ﷺ قال للصحابة : إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه ، فقال المنافقون : يصلي على عِلجٍ نصراني لم يره قط ! ؟ فأنزل الله ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله . .﴾ الآية



بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي

* * *

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ خافوا أيها الناس ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني آدم ﷺ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء، خلقت من ضِلع من أضلاعه[1] ﴿وَبَثَّ منهما رِجَالاً كَثيراً وَنِسَاءً﴾ ونشر من آدم وحواء، رجالاً ونساءً كثيرين. ﴿وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ والأَرْحَامَ﴾ وخافوا الله الذي يسأل بعضكم بعضاً به فيقول الرجل: أسألك بالله، وأنشدك بالله، واتقوا الأرحام أن تقطعوها. ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ حفيظاً على أعمالكم، يحصيها عليكم، ويعلمها ويعرفها. وصف تعالى نفسه بأنه المتفرّد بخلق جميع الأنام، معرِّفاً عباده أن جميعهم بنو رجلٍ واحدٍ وأم واحدة، ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القويُّ نفسه للضعيف، وختم الآية بأنه لم يزل عليهم رقيباً، يحصي عليهم أعمالهم، ويتفقد رعايتهم لحرمة الأرحام. ﴿وآتُوا اليَتَامَى أَمْوالَهُمْ﴾ أعطوا ـ يا معشر الأوصياء ـ اليتامى أموالهم، إذا بلغوا الحلُم، وآنستم منهم الرشد. ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بالطَّيِّبِ﴾ ولا تستبدلوا الحرام من أموال اليتامى، بالحلال من أموالكم، وتأخذوا الرديء الخسيس بالطيِّب النفيس. ﴿ولا تَأْكُلوا أموالَهُمْ إلى أَمْوالِكُمْ﴾ ولا تخلطوا أموال اليتامى بأموالكم فتأكلوها جميعاً. ﴿إِنَّهُ كانَ حُوباً

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري وهو قول مجاهد والسُّدي، وذهب بعض المفسرين إلى أن «من» للجنس والمعنى وخلق من جنسها حواء، وما ذهب إليه ابن جرير هو المأثور.

ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ
هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ

* * *

كَبِيراً﴾ إن أكل أموال اليتامى إثم عظيم. ﴿وإنْ خفتم أَلَّا تُقْسِطُوا في اليتامى﴾ وإن خفتم ألَّا تقسطوا في أموال اليتامى فتعدلوا فيها. ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾ فكذلك فخافوا في النساء ألا تعدلوا بينهن، فلا تنكحوا منهن إلا ما أمنتم معه الجور، من واحدة إلى أربع[1] ﴿فإنْ خِفْتُم أَلَّا تَعْدلوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ فإن خفتم ألَّا تعدلوا[2] فيما زاد على الواحدة من النساء فانكحوا واحدة منهن، أو ما ملكت أيمانكم من الجواري والسراري. ﴿ذلك أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ ذلك أقرب ألَّا تجوروا ولا تميلوا، من عَالَ إذا مال وجار. ﴿وآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ أعطوا النساء مهورهنَّ، عطية واجبةً وفريضة لازمة. ﴿فإن طِبْنَ لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ فإن طابت لكم أنفسهن بشيء من المهر فكلوه هنيئاً[3] مريئاً. ﴿ولا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أموالَكُمْ﴾ ولا تؤتوا أيها الناسُ السفهاء من الصبيان والنساء أموالكم فيضيعوها ويفسدوها. ﴿التي جَعَلَ اللهُ لكم قِيَاماً﴾ التي جعلها الله قِواماً لحياتكم ومعاشكم. ﴿وارْزُقُوهُمْ فيها واكْسُوهُمْ﴾ وأنفقوا عليهم منها بالطعام، والشراب، والكسوة، وسائر الحاجات. ﴿وقُولُوا لهم قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ قولوا لهم: إن صلحتم ورشَدتُم سلَّمنا إليكم أموالكم. ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح﴾ اختبروا عقول اليتامى، وصلاحهم في أديانهم وأموالهم، حتى إذا بلغوا الحُلُم. ﴿فإنْ آنستُمْ منهم رُشْداً﴾ فإن وجدتم وعرفتم منهم العقل، وإصلاح المال ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ فادفعوا إليهم أموالهم ولا تحبسوها عنهم ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبِدَاراً أن يَكْبَروا﴾ ولا تأكلوها بغير ما أباحه الله لكم، إسرافاً لها ومبادرةخشية أن يبلغوا فيلزمكم تسليمهم أموالهم. ﴿ومن كان غنياً

---

(١) قال ابن كثير معنى الآية إذا كان تحت حجْر أحدكم يتيمة، وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها، فليتزوج إن شاء ثنتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، فإن النساء كثير ولم يضيّق الله عليه

(٢) المراد بالعدل العدلُ في القسمة، وقال الضحاك في المجامعة والحب

(٣) المراد فكلوه حلالاً طيباً، وأصله من هَنُؤ الطعام ومَرُؤ إذا انساغ وانحدر إلى المعدة بدون ضرر

أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً

* * *

فلْيَسْتَعْفِفْ ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾ ومن كان منكم غنياً فليكفَّ عن مال اليتيم، ومن كان فقيراً فليأكل بقدر الحاجة والضرورة على وجه الاستقراض. **﴿فإذا دفعتُمْ إليهمْ أموالَهُمْ فأَشْهِدوا عليهم﴾** فإذا دفعتم إلى اليتامى أموالهم، فأشهدوا عليهم لئلا يجحدوا تسلمها. **﴿وكفى بالله حسيباً﴾** وكفى بالله محاسباً وشهيداً. **﴿للرجال نصيبٌ ممَّا تركَ الوالدان وَالأَقْرَبُونَ﴾** للذكور من أولاد الميت حصةٌ من ميراث أقربائهم **﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الوَالِدَانِ والأَقْرَبونَ﴾** وللإناث منهم حصةٌ منه، **قال قتادة:** كانوا لا يورِّثون النساء فنزلت **﴿مِمَّا قلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ﴾** من قليل ما خلَّف الميت بعده وكثيره. **﴿نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾** حصة مفروضة معلومة. **﴿وإذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى واليتَامَى والْمَسَاكينُ﴾** وإذا حضر قسمة الميراث أقرباء الميت واليتامى والمساكين. **﴿فارزقوهم منه﴾** فاقسموا لهم ما طابت به أنفسكم[1]. **﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾** ادعوا لهم بالرزق والغنى. **﴿وَلْيَخْشَ الَّذينَ لو تَرَكُوا من خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافاً﴾** ولْيخف الذين لو تركوا بعد وفاتهم أولاداً صغاراً. **﴿خافوا عليهم﴾** خافوا عليهم الفقر والضياع. **﴿فَلْيتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾** فلْيخافوا الله في اليتامى الضعاف، إذا ولوا أمرهم، وليحسنوا إليهم[2]، وليقولوا قولاً عدلاً وصواباً والمعنى: كما تحب أن يعامل الناسُ ذريتك من بعدك، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم. **﴿إنَّ الذينَ يَأْكُلونَ أَمْوالَ اليَتَامى ظُلْماً﴾** يأكلونها ظلماً بغير حق. **﴿إنما يأكلونَ في بُطُونهمْ نَاراً﴾** إنما يأكلون ناراً، تتأجج في بطونهم يوم القيامة. **﴿وَسَيَصْلَوْنَ سعيراً﴾** وسيصطلون بنارٍ موقدة مشعَّلة، شديدة الحرِّ. **﴿يوصيكم اللهُ في أولادكم للذكر مِثْلُ حظِّ الأنثيين﴾** يعهد

---

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقيل إن الآية منسوخة بآية المواريث، وهو قول سعيد بن المسيِّب والضحاك، واختار الطبري أن المراد بها الوصية أي أوصوا لأولي القربى من أموالكم

(٢) هذا أحد أقوال ذكرها ابن جرير عن ابن عباس، وقد استحسنه ابن كثير، ويؤيده التهديد الذي جاء بعده ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً .﴾ الآية، فتذكر أيها الوصي ذريتك الضعاف من بعدك، وعامل اليتامى بمثل ما تريد أن يعامل به أبناؤك بعد فقدك

فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا

* * *

إليكم ربكم، إذا مات أحدكم وخلَّف أولاداً ذكوراً وإناثاً، فالمال لأولاده، للذكر منهم ضعف الأنثى، سواءٌ فيه الصغار والكبار[1] ﴿**فإنْ كنَّ نِساءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ**﴾ فإن كان المتروكات ـ بنات الميت ـ أكثر في العدد من اثنتين، فلبناته الثلثان من ميراثه، إذا لم يكن خلَّف ولداً ذكراً. ﴿**وإن كانت واحدةً فلها النصفُ**﴾ وإن كانت المتروكة ابنةً واحدة، فلها نصف الميراث. ﴿**ولأبويهِ لكلِّ واحدٍ منهما السُّدُسُ مِمَّا ترك إن كان له ولدٌ**﴾ ولأبويْ الميت لكل واحدٍ منهما سدس التركة، إن كان للميت ولدٌ، ذكراً كان الولد أو أنثى. ﴿**فإنْ لم يكنْ لهُ ولدٌ وورثهُ أبواهُ فلأُمِّهِ الثُّلُثُ**﴾ فإن لم يكن للميت ولدٌ ـ ذكرٌ ولا أنثى ـ وورثه أبواه دون غيرهما، فلأمه من تركته ثلث جميع المال، والثلثان للأب. ﴿**فإنْ كانَ لهُ إخوةٌ فلأمهِ السُّدسُ**﴾ فإن كان للميت إخوة ـ اثنين فأكثر، ذكريْن، أو أُنثيين، أو أحدهما ذكرٌ والآخر أنثى ـ فللأم سدس التركة، والباقي للأب، وإنما حجبوا أمهم من الثلث إلى السدس، لأن أباهم تلزمه نفقتهم دون أمهم. ﴿**مِنْ بعدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾ من بعد قضاء دَيْن الميت، ومن بعد تنفيذ وصيته في حدود الثلث، وقد أجمعت الأمة على أن الدَّين مقدمٌ على الوصيَّة. ﴿**آباؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهم أَقْرَبُ لكم نَفْعاً**﴾ هؤلاء الذين أوصيناكم بتوريثهم، هم آباؤكم وأبناؤكم، وأنتم لا تعلمون أيهم أشد نفعاً لكم، في دنياكم وآخرتكم. ﴿**فريضةً من اللهِ**﴾ فريضة فرضها الله وبيَّنها لعبادة ﴿**إن الله كان عليماً حكيماً**﴾ عليمٌ بما يُصلح خلقه، حكيمٌ في تدبيره. ﴿**ولكم نِصْفُ ما تركَ أزواجكُمْ إنْ لم يكنْ لهنَّ ولدٌ**﴾ ولكم ـ أيها الرجال ـ

---

(١) كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا النساء، ويقولون كيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سيفاً، ولا يقاتل عدواً!! فنزلت الآية تقرّر أن للصغير والكبير، والرجل والمرأة حقاً في الميراث وقد يتساءل البعض لم أعطيت المرأة نصف نصيب الرجل، مع أنها اضعف منه وأحوج للمال؟ والجواب أن الإسلام راعى الحاجة، فالتكليفات المالية التي يطالب بها الرجل أكبر، والتزاماته المادية أضخم، فهو المطالب بنفقة الأولاد، وعلاجهم، وإصلاحهم، وهو المطالب بنفقة المرأة، بدفع المهر، وتأمين المسكن، والمطعم والملبس، وسائر النفقات، والمرأة لا تتحمل شيئاً من التبعات، فهي تأخذ ولا تعطي، وتغنم ولا تغرم، وتدّخر ولا تنفق، ذلك لأن الفطرة الإنسانية، التي قام عليها بنيان المجتمع، هي التي جعلت المرأة قوّامة على البيت وتدبيره، ورعاية الأولاد وتهيئة راحتهم، وجعلت الرجل كادحاً بعمل خارج البيت، ويقدم المال المطلوب لميزانية الأسرة، فليس من العدل والإنصاف المساواة بين الرجل والمرأة، مع اختلاف النفقات والتبعات وانظر الحكمة بالتفصيل في كتابنا: المواريث في الشريعة الاسلامية في ضوء الكتاب والسنة

تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ

* * *

نصفُ ما ترك زوجاتكم من الميراث، إن لم يكن لهن ولدٌ، ذكرٌ أو أنثى. ﴿**فإنْ كانَ لهنَّ ولدٌ فلكم الرُّبع مما تركنَ**﴾ فإن كان لزوجاتكم ولدٌ ـ ذكرٌ أو أنثى ـ فلكم ربع المال والميراث ﴿**من بعد وصيةٍ يوصينَ بها أو دينٍ**﴾ من بعد قضاء الدين، وتنفيذ وصاياهنَّ. ﴿**ولهنَّ الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولدٌ**﴾ ولزوجاتكم ـ أيها الرجال ـ ربع ما تركتم من مالٍ وميراث، إن لم يكن لكم ولد ـ ذكرٌ أو أنثى ـ. ﴿**فإن كان لكم ولدٌ فلهُنَّ الثمن ممَّا تركتم مِنْ بَعْد وصيةٍ تُوصونَ بها أو دَيْنٍ**﴾ فإن كان لكم ولدٌ ـ واحدٌ أو أكثر ـ فلزوجاتكم الثمن من أموالكم، بعد قضاء ديونكم، وإنفاذ وصاياكم. ﴿**وإن كان رجلٌ يُورَثُ كلالةً أو امرأةٌ**﴾ وإن كان رجل يُورث بطريق الكلالة، أو امرأةٌ تورث بطريق الكلالة، أي لا والد له ولا ولد[1] ﴿**وله أخٌ أو أختٌ**﴾ من أمٍ ﴿**فلكل واحدٍ منهما السُّدسُ**﴾ فلكل واحدٍ من المذكورين، السدسُ من الميراث. ﴿**فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثُّلُثِ**﴾ فإن كان الإخوة والأخوات لأم، اثنين فأكثر فهم شركاء في الثلث، يتقاسمونه بالسويّة، لا يفضَّل ذكرٌ منهم على أنثى. ﴿**مِنْ بَعْدِ وصيَّةٍ يُوصَى بِهَا أو دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ**﴾ من بعد قضاء دين الميت، وإنفاذ وصيته التي لا إضرار فيها بالورثة[2] ﴿**وَصِيَّةً مِنَ اللهِ**﴾ يوصيكم الله بجميع ما ذُكر، وصيةٌ منه لعباده. ﴿**واللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ**﴾ عليمٌ بمصالح خلقه، حليمٌ لا يعاجل العقوبة ﴿**تلكَ حدودُ اللهِ**﴾ هذه الفرائض والأحكام التي شرعها الله لكم، هي الحدود بين طاعته ومعصيته، فلا تتعدوها. ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ يدخلْهُ جَنَّاتٍ تجري من تحتِها الأَنْهارُ**﴾ ومن يطع الله، بالعمل بأوامره، واجتناب نواهيه، يدخله بساتين تجري من تحت غروسها وأشجارها أنهار الجنة. ﴿**خالدين فيها**﴾ باقين فيها أبداً، لا يموتون فيها ولا يُخرجون منها. ﴿**وذلك الفوزُ العظيمُ**﴾ وذلك هو الفلاح العظيم. ﴿**ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَهُ ويتعدَّ حدودَهُ**﴾ ومن يعص اللهَ بمخالفة أمره، وانتهاك حرماته، ويتجاوز ما حدَّه الله له من

---

(١) المراد بالكلالة من يرثه من حواشيه، لا أصوله ولا فروعه، ولهذا قال الصدِّيق الكلالة من لا ولد له ولا والد

(٢) بشرط أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة

يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ

* * *

الأحكام، إلى ما نهاه عنه. ﴿يُدْخِلْهُ ناراً خالداً فيها﴾ يدخله ناراً باقياً فيها أبداً، لا يموت ولا يُخرج منها أبداً. ﴿وله عذابٌ مهينٌ﴾ وله عذابٌ مخزٍ مع الذل والإهانة.

﴿واللاتي يأتينَ الفاحشة من نسائِكم﴾ واللاتي يزنين من نسائكم، وهنَّ ذوات أزواج أو غير ذوات أزواج. ﴿فاستشهدوا عليهنَّ أربعةً منكم﴾ فاستشهدوا عليهن بما أتين من الفاحشة، أربعة رجالٍ من المسلمين. ﴿فإن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهنَّ في البُيُوتِ حتَّى يَتوفَّاهنَّ الموتُ﴾ فإن شهدوا عليهن فاحبسوهنَّ في البيوت حتَّى يَمُتْنَ. ﴿أو يَجْعَلَ اللهُ لهنَّ سبيلاً﴾ أو يجعل الله لهنَّ مخرجاً وطريقاً إلى النجاة، مما أتين به من الفاحشة، والسبيلُ للمحصن الرجمُ بالحجارةِ، وللبكر الجلدُ لحديث «خُذُوا عنّي خُذوا عنّي، قد جعل الله لهنَّ سبيلاً، البكرُ بالبكر جلدُ مائةٍ وتغريبُ عام، والثَّيبُ بالثيب جلدُ مائةٍ والرجمُ[1]» ﴿وَاللَّذانِ يَأْتِيانِهَا منكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ والرجل والمرأة، اللذان يفعلان فاحشة الزنا ـ إذا زنيا وكانا بكريْن غير محصنيْن ـ فآذوهما بالتعيير والتوبيخ، على ما أتيا من الفاحشة. قال ابن عباس: بالتعيير وضرب النِّعال ﴿فإنْ تَابَا وأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عنهما﴾ فإن تابا عن الزنا، وأصلحا أمرهما بالعمل بما يرضي الله، فاصفحوا عنهما، وكفوا الأذى. ﴿إنَّ اللهَ كانَ تَوَّاباً رحيماً﴾ كانَ اللهُ ـ ولم يزل ـ كثير التوبة، رحيماً بالعباد.

﴿إنَّما التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهالَةٍ﴾ إنما يتقبل الله التوبة ممن عصوا ربَّهم حال جهالتهم وهم به مؤمنون. ﴿ثُمَّ يتوبونَ من قريب﴾ ثم تابوا سريعاً قبل نزول الموت بهم. ﴿فأولئِكَ يتوبُ اللَّهُ عليهِمْ﴾ يتقبَّل توبتهم ﴿وكَانَ اللَّهُ عَليماً حَكيماً﴾ عليماً بالمنيبين من عباده، حكيماً في أفعاله وتدبيره ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ وليست التوبة المقبولة عند الله للمُصرِّين على معاصي الله ﴿حتَّى إذا حَضَر أَحَدَهُم الموتُ قال إني تُبْتُ الآنَ﴾ حتى إذا حَشرج أحدهُم بنفسه،

---

(١) رواه مسلم وأصحاب السنن من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً

أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا

* * *

وعاين ملائكة ربه أقبلتْ لقبض روحه ، تاب وأناب ، فليس لهذا عند الله توبة لحديث « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ »[١] **﴿وَلَا الذينَ يَموتونَ وهم كُفَّارٌ﴾** وليست التوبة لمن ماتوا على الكفر **﴿أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾** أعددنا لهم عذاباً موجعاً

﴿يا أيها الذين آمنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً﴾ لا يحل لكم - أيها المؤمنون - أن ترثوا نكاح نساء أقاربكم بدون رضى منهن . كانوا في الجاهلية إذا مات الزوج، كان ابنه أو قريبه أحقَّ بالمرأة من غيره، إن شاء نكحها، وإن شاء عَضَلها فمنعها من الزواج حتى تموت، فحرَّم الله ذلك، وحظر عليهم نكاح زوجات آبائهم وعضلهنّ **﴿ولا تَعْضُلُوهُنَّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنَّ﴾** ولا يحل لكم أيها المؤمنون، أن تحبسوا نساءكم وتُضيِّقوا عليهن، مضارة لهنَّ، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من المهر. **قال ابن عباس:** الرجل تكون له المرأة - وهو كارهٌ لصحبتها - ولها عليه مهرٌ، فيُضِرُّ بها لتفتدي نفسها منه. **﴿إلَّا أَنْ يأتينَ بفَاحشةٍ مُبَيِّنةٍ﴾** إلَّا إذا أتين بفاحشةٍ ظاهرة، كالزنا، والعصيان، وبذاءة اللسان[٢] فيحلُّ لكم التضييق عليهنَّ حتى يفتدين منكم. **﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بالمعروفِ﴾** وصاحبوهنَّ بالمعروف والإحسان، كما أمركم الله تعالى[٣] **﴿فإن كرهتموهُنَّ﴾**فإن كرهتموهنَّ فأمسكوهنَّ ولا تطلقوهن .**﴿فَعَسَى أَنْ تكرهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فيهِ خَيْراً كثيراً﴾** فلعلكم أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله في ذلك الشيء الذي تكرهونه خيراً كثيراً :**قال ابن عباس** :أن يعطف عليها،فيرزق منها ولداً صالحاً. **﴿وإنْ أردتم استبدال زوجٍ مَكَانَ زوجٍ﴾** إذا أردتم نكاح امرأةٍ، مكان امرأة لكم أردتم تطليقها .**﴿وآتيتم إحداهنَّ قنطاراً﴾** وقد أعطيتم التي

---

(١) أي ما لم يصبح في سكرات الموت تبلغ الروح الحلقوم ، والحديث صحيح أخرجه الإمام أحمد

(٢) قال ابن مسعود « الفاحشة المبينّة » الزنا ، إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصّداق ، وقال ابن عباس الفاحشة هي النشوز والعصيان ، واختار الطبري العموم

(٣) المراد بالمعاشرة بالمعروف الملاطفة والمؤانسة ، وتطييب القول ، والمعاملة بحسن الخُلق ففي الحديث « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » وقد كان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، حتى إنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها ، يؤانس نساءه بذلك ، وهو ﷺ المثل الأعلى للمؤمنين

فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن

* * *

تريدون طلاقها قنطاراً من المال، أي مالاً كثيراً. **﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾** فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً، ولو كان المهر كثيراً **﴿أَتَأْخذونهُ بُهْتَاناً وإثماً مُبيناً﴾** أتأخذونه ظلماً بغير حق، وذنباً ظاهراً جلياً؟ **﴿وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضُكم إلى بعضٍ﴾** على أيِّ وجهٍ تأخذون ما آتيتموهنَّ، وقد وصل كل منكم إلى الآخر بالمباشرة والجماع؟! **قال ابن عباس:** الإفضاءُ المباشرةُ، ولكنَّ اللهَ كريمٌ يَكْني. **﴿وأَخَذْنَ منكم ميثاقاً غليظاً﴾** أخذن عهدكم عند النكاح، على الإمساك بالمعروف، أو التسريح بإحسان، وفي الحديث «استوصوا بالنساء خيراً، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانةِ اللهِ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله[1]» **قال مجاهد:** الميثاقُ الغَليظُ، كلمةُ النكاح التي استحلَّ بها فرجها.

﴿ولا تَنْكِحُوا ما نكح آبَاؤُكُمْ من النساء﴾ ولا تنكحوا كنكاح آبائكم في الجاهلية على الوجوه الفاسدة[2] **﴿إلَّا ما قد سَلَفَ﴾** إلَّا ما قد مضى، فإنَّ الله قد عفا عنه. **﴿إنه كان فاحشةً ومقتاً﴾** فإنه معصيةٌ، وشيءٌ ممقوتٌ يُبغضه الله **﴿وساءَ سبيلاً﴾** بئس طريقاً ومنهجاً، ما كنتم تفعلونه في الجاهلية، حرَّم الله نكاح حلائل الآباء، وكل نكاح سواه ممَّا كانَ أهل الجاهلية يتناكحونه في شركهم. **﴿حُرِّمَتْ عليكُمْ أمهاتكمْ وبناتُكمْ وأخواتُكمْ وعمَّاتُكمْ وخالاتُكم وبناتُ الأخ وبناتُ الأختِ﴾** حُرِّم عليكم نكاحُ أمهاتكم وبناتكم. الخ والمحرماتُ من النسب سبعٌ، ثم بيَّن المحرمات من الرضاع فقال: **﴿وأمهاتكم اللاَّتي أرضعنكم وأخواتُكمْ من الرَّضاعةِ﴾** ويحرم عليكم نكاح أمهاتكم المرضعات، وأخواتكم من الرضاعة وفي الحديث «يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب[3]». ثم بيَّن المحرمات بالمصاهرة فقال: **﴿وأمهاتُ نسائكم﴾** وأمهاتُ زوجاتكم مطلقاً، فإن أم المرأة تحرم بمجرد العقد على البنت **﴿وربائبكُمُ**

---

(١) رواه مسلم، وهو جزء من خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع

(٢) فسَّر ابن جرير ﴿ما نكح آباؤكم﴾ أي كنكاح آبائكم، فجعل «ما» مصدرية، وذهب جمهور المفسرين إلى أنَّ «ما» اسم موصول أي لا تنكحوا حلائل الآباء الذين نكحهم آباؤكم ولعل هذا أظهر والله أعلم

(٣) رواه مسلم، ومعناه أنه كما تحرم الأمهات، والبنات، والأخوات، والخالات، والعمات، وبنات الأخ، وبنات الأخت من النسب، فكذلك يحرم مثلهن من الرضاع

نِسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ * وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ

* * *

اللاّتي في حُجُوركم من نسائكم اللاّتي دخلتم بهنَّ﴾ وحرامٌ عليكم نكاح الربائب، جمع ربيبة وهي ابنة امرأة الرجل، إذا دخل بأمها بطريق الجماع. **﴿فإن لم تكونُوا دخلتُمْ بهنَّ فلا جُنَاح عليكم﴾** فإن لم تكونوا جامعتموهنَّ، فلا حرج عليكم في تزوُّج بناتهنَّ من غيركم **﴿وحَلاَئلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذينَ مِنْ أَصْلاَبكم﴾** وأزواج أبنائكم الذين ولدتموهم، دون الذين تبنَّيتموهم، سميت المرأة «حليلةً» لأنها تحِلُّ معه في فراش واحدٍ **﴿وأن تَجْمعُوا بين الأختين﴾** في التزوج **﴿إلاَّ ما قد سَلَفَ﴾** لكنْ ما مضى فقد عفا الله عنه. **﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾** رحيماً بعباده حيث لم يحمِّلهم ما لا يُطيقون. **﴿والمُحْصَناتُ من النِّساءِ إلا ما ملكتْ أَيْمانُكم﴾** وحُرِّم عليكم المزوَّجات من النساء إلا السَّبايا، **قال ابن عباس:** كلُّ ذاتِ زوجٍ إتيانُها زناً، إلاَّ ما سبيْت[1] **﴿كتابَ اللهِ عليكم﴾** كتاباً من الله عليكم أي فرض ذلك عليكم فرضاً **﴿وأحِلَّ لكم ما وراءَ ذلكم﴾** وأحِلَّ لكم ما عدا هؤلاء اللواتي حرمتهنَّ عليكم. **﴿أن تَبْتَغُوا بأموالِكُمْ﴾** أن تطلبوا وتلتمسوا بأموالكم. **﴿مُحْصِنينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾** أعفَّاء غير زانين[2] **﴿فَمَا اسْتَمتعتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾** فما نكحتم من النساء فجامعتموهنَّ[3] **﴿فآتوهنَّ أجورهنَّ فريضةً﴾** فأعطوهنَّ مهورهنَّ فريضةً معلومة **﴿ولا جُناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة﴾** ولا حرج عليكم -أيها الناس- فيما تراضيتم به مع نسائكم، على إسقاط وحطِّ بعض المهر كقوله تعالى « فإنْ طِبْنَ لكمْ عن شيءٍ منه نَفْساً فكُلوه هنيئاً مريئاً » **﴿إنَّ اللهَ كان عليماً حكيماً﴾** عليماً بما يُصلح العباد، حكيماً في تشريعه وتدبيره. **﴿ومن لم يستطعْ منكم طَوْلاً أن ينكح المحصَنَاتِ المؤمناتِ﴾** ومن لم يجد منكم سَعَةً من مال، لنكاح الحرائر المؤمنات. **﴿فمِمَّا ملكتْ**

---

(١) السَّبْيُ ما يغنمه المجاهدون من نساء الكفار حال الحرب، وهنَّ المملوكات بملك اليمين

(٢) قال مجاهد السِّفاح الزنا سُمي سفاحاً من السَّفح وهو الصبُّ لأن الزاني لا غرض له إلا سفح النطفة

(٣) اتفق المفسرون على أن المراد بقوله تعالى ﴿فما استمتعتم به منهنَّ﴾ الاستمتاع بالنكاح والصَّداق، وذهب الشيعة إلى أن المراد به « نكاح المتعة » وهذا باطلٌ لثبوت التحريم القطعي للمتعة، وهو إجماع أجمع عليه الفقهاء والعلماء، وانظر الأدلة الشرعية والعقلية على تحريم المتعة في كتابنا « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن » ١ / ٤٥٨

أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

* * *

أَيمانُكم من فَتَياتِكُمُ المؤمِناتِ﴾ فلْينْكحْ من الإماء المؤمنات، غير المشركات من عَبَدة الأوثان. **﴿واللهُ أعلمُ بإيمانكم﴾** هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها، فكِلُوا سرائرهنَّ إلى الله **﴿بعضُكم من بعضٍ﴾** أنتم من نفسٍ واحدة. **﴿فَانْكحوهُنَّ بإذنِ أَهْلِهنَّ﴾** فتزوجوهن برضى أربابهنَّ. **﴿وآتوهنَّ أجورهنَّ بالمعروفِ﴾** وأعطوهن مهورهن على ما تراضيتم به **﴿مُحْصَناتٍ غير مُسَافِحَاتٍ ولا متخذاتِ أَخْدانٍ﴾** عفيفاتٍ غير زانيات، ولا متخذات أخلاَّء وأصدقاء للفجور بهنَّ سرّاً. **قال قتادة**: المسافِحةُ: البغيُّ التي تؤاجر نفسها لمن عَرَض لها، و«ذات الخِدْن» ذات الخليل الواحد، تزني به ولا تزني بغيره. **﴿فإذا أُحْصِنَّ فإنْ أتينَ بفاحشةٍ﴾** فإذا تزوجن فصرن ممنوعات الفروج بالأزواج، فإن زنين بعد الإحصان. **﴿فعليهنَّ نصفُ ما عَلَى المحصَنَاتِ من العَذَابِ﴾** فعليهنَّ نصفُ ما على الحرائر من الحدِّ، وهو خمسون جلدة[1] **﴿ذلكَ لمنْ خَشِيَ الْعَنَتَ منكُمْ﴾** إنمَا أبحتُ نكاح الإماء، لمن خاف منكم الوقوع في الزنا. **﴿وأنْ تَصْبِروا خيرٌ لكم﴾** والصبرُ عن نكاح الإماء خيرٌ لكم. **﴿واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾** ساترٌ لذنوب عباده، رحيمٌ بهم. **﴿يريدُ اللهُ ليبيِّن لكم﴾** يريد الله أن يُبيِّن لكم الحلال والحرام. **﴿ويهدِيَكم سُنَنَ الَّذينَ من قبلكُمْ﴾** ويرشدكم إلى سبل ومناهج من قبلكم من أهل الإيمان. **﴿ويتوبَ عليكُمْ﴾** فيما سلف منكم **﴿واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾** عالمٌ بما يصلح العباد، حكيمٌ في تدبيره **﴿واللهُ يريدُ أن يتوبَ عليكمْ﴾** يعفو عما سلف من آثامكم. **﴿وَيُريدُ الَّذينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾** ويريد الذين يتبعون شهوات أنفسهم **﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيماً﴾** أن تميلوا عن الحق وترتكبوا المعاصي والآثام. **﴿يريدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عنكُمْ﴾** ييسِّر عليكم أمور الدين **﴿وَخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً﴾** فقد خلقتم عجزةً ضعفاء، قليلي الصبر في أمر النساء.

---

(١) المراد بالعذاب «الجَلْد» لا الرجم، لأنه تعالى لما نصَّف العقوبة، عرفنا أن المراد بها عقوبة الجلد، لأن الرجم لا يتنصَّف، وهذا متفق عليه بين العلماء

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ

* * *

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ لا يأكل بعضكم أموال بعض بالحرام، كالربا والقمار وغير ذلك مما حرَّمه الله. ﴿إلَّا أَنْ تكونَ تجارةً عن تَراضٍ منكم﴾ إلا ما كان بطريق التجارة، والبيع، والعطاء عن رضى منكم[١] ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ ولا يقتل بعضكم بعضاً. ﴿إنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحيماً﴾ ومن رحمته بكم أن حرَّم دماء بعضكم على بعض ﴿وَمَنْ يفعلْ ذَلِكَ عُدْواناً وظلماً﴾ ومن يقتل أخاه المؤمن تعدِّياً وظلماً، ويفعل ماحرَّم الله عليه. ﴿فسوفَ نُصْليهِ نَاراً﴾ فسوف نورده ناراً يحترق فيها. ﴿وكانَ ذلكَ على اللهِ يسيراً﴾ كان عذابه سهلاً يسيراً على الله، لا يصعب الوفاءُ به، لأن الظالم في قبضته. ﴿إن تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَونَ عنه نكَفِّرْ عنكم سيئاتكم﴾ إن تجتنبوا ـ أيها المؤمنون ـ كبائر الذنوب، نكفِّر عنكم الصغائر[٢] ﴿ونُدْخلكم مُدْخلاً كريماً﴾ وندخلكم الجنة دار الهناء والسعادة التي لا هموم فيها، ولا أحزان، ولا أكدار ﴿ولاَ تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ اللهُ بِهِ بعضكم على بعضٍ﴾ ولا تتمنوا الذي فضَّل الله به بعضكم على بعض، من منازل الفضل ودرجات الخير، وليرْضَ أحدكم بما قسم اللهُ له[٣] ﴿للرجالِ نصيبٌ مما اكتسبوا وللنِّساءِ نصيبٌ ممَّا اكتسبْنَ﴾ للرجال نصيبٌ من ثواب الله وعقابه، ممَّا اكتسبوه من خير أو شر، وللنساء نصيبٌ مثل ذلك ﴿واسألوا اللهَ من فضلِهِ﴾ واسألوا اللهَ توفيقه ومعونته على ما يرضيه ﴿إنَّ اللهَ كان بكلِ شيءٍ عليماً﴾ عليماً بما يُصلح العباد، فيما قسم لهم من خير، فسلموا الأمر إليه وارضوا بقضائه. ﴿ولكلٍ جعلنا مواليَ ممَّا تركَ الوالدانِ والأقربونَ﴾ ولكل الناس جعلنا ورثةً من بني

---

(١) قال الطبري وفي الآية تكذيبٌ لقول الجهلة من المتصوِّفة المنكرين طلب الأقوات بالتجارات والصناعات، فالتاجر الأمين الصدوق في ظل عرش الله يوم القيامة

(٢) الكبائر: كل ما صحَّ به الخبر عن رسول الله ﷺ مع الوعيد كالشرك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرمها الله، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والزنا بحليلة الجار الخ

(٣) قال مجاهد قالت أم سلمة يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث!! فنزلت الآية

عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ

* * *

عمه، وإخوته وسائر عصبته، يرثونه ممَّا تركه والداه وأقرباؤ ه من الميراث **﴿والذينَ عَقَدتْ أيْمانُكُمْ فآتوهُمْ نصيبهم﴾** والذين تعاقدتم معهم بطريق الحِلْف، فأعطوهم نصيبهم من النصرة والنصيحة والرأي[١] **﴿إنَّ الله كان على كل شيء شهيداً﴾** شاهداً على أفعالكم، وسيجازيكم عليها **﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ على النِّساءِ﴾**[٢] الرجال لهم درجة القوامة على نسائهم، في تأديبهن والأخذ على أيديهنَّ. **﴿بما فضَّل الله بعضهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم﴾** بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير، وخصَّهم به من الكسب والإنفاق، فهم يقومون على شؤون النساء كما يقوم الولاة على الرعايا بالحفظ والرعاية وتدبير الشؤون، ولذلك كانوا نافذي الأمر عليهن **﴿فالصَّالحاتُ قَانِتَاتٌ حافِظَاتٌ لِلْغَيْب بما حَفِظَ الله﴾** فالصالحاتُ مطيعاتٌ للهِ ولأزواجهن، حافظاتٌ لأنفسهنَّ في غيبة أزواجهن، بحفظ اللهِ إياهنَّ، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة، وأموال أزواجهن عن التبذير[٣] **﴿واللاَّتي تَخافُونَ نَشُوزَهُنَّ﴾** استعلاءهن عليكم، وعصيانهن لأوامركم **﴿فعظوهنَّ﴾** ذكّروهنَّ الله، وخوّفوهنَّ وعيده. **﴿واهجروهنَّ في المضاجع﴾** اهجروا مضاجعتهن وجماعهنَّ. قال مجاهد: لا تضاجعوهن على فراش واحد، وقال سعيد بن جبير: الهجرُ هجرُ الجماع[٤] **﴿واضربوهنَّ﴾** ضرباً غير شائن[٥] **﴿فإن أطعنكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَليهنَّ سبيلاً﴾** فإن أطعنكم فلا

---

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري، وذهب غيره إلى أن المراد فأعطوهم نصيبهم من الميراث، ثم نسخ بآية المواريث

(٢) ليست قوامة الرجل على المرأة قوامة استبداد واستعباد، وإنما هي قوامة توجيه وإرشاد، فقد قضت السنَّة الكونية أن يكون في الأسرة قيِّمٌ، يدير شؤونها، ويتعهد أحوالها، وينفق من ماله عليها، لتؤدي رسالتها على أكمل الوجوه، ولما كان الرجل أقدر على تحمل هذه المسؤولية من المرأة، بما وهبه الله من العقل، وقوة الإرادة والعزم، وبما كلَّفه من السعي والإنفاق على الزوجة والأولاد، كان هو الأحق بهذه القوامة، التي هي في الحقيقة درجة «مسؤولية وتكليف» لا درجة «تفضيل وتشريف» إذ هي مساهمة في تحمل الأعباء، وليست للسيطرة والاستعلاء

(٣) في الحديث الشريف «ألا أخبركم بخير ما يكتز المرء؟ المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرَّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»

(٤) ذهب الطبري إلى أن المراد بالهجر الربط بالهجار، أي شدّوهن وثاقاً في منازلهن، وهو ضعيفٌ، والجمهور أن المراد هجر الفراش وهجر المضاجعة

(٥) يشترط في الضرب أن يكون غير مبرِّح، لأن الغرض التأديب لا التحطيم، وهو علاجٌ لبعض الحالات الشاذة، التي لا ينفع فيها إلا هذا الدواء، وكما يقول العرب آخر الدواء الكيُّ فالمرأة إذا طغت وبغت، وأساءت عشرة زوجها، وركبت رأسها وسارت وراء الشيطان وبقيادته، لا ترعوي ولا تكف عن غيِّها وضلالها، فماذا يصنع الرجل في مثل هذه الحالة؟ لقد أرشد القرآن الكريم إلى الدواء، فأمر بالصبر والأناة، ثم بالوعظ =

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

* * *

تلتمسوا طريقاً لايذائهنَّ ﴿إنَّ اللهَ كَانَ علياً كبيراً﴾ فإنَّ الله أعلى منكم وأكبر، فلا تظلموهنَّ فينتصر لهنَّ منكم ﴿وإنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابعثوا حَكَماً مِنْ أهله وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا﴾ وإن علمتم العداوة والشقاق بين الزوجين، فأرسلوا حكمين عدلين، واحداً من أقربائه، وواحداً من أقربائها، لينظرا في أمرهما ويفعلا ما فيه المصلحة. ﴿إنْ يُريدا إصلاحاً يُوفّق اللهُ بينهُمَا﴾ إن قصد الحَكَمان إصلاحاً بين الزوجين، وفّقهما الله للحقِّ والصواب. ﴿إنَّ الله كان عليماً خبيراً﴾ عالمٌ بما أراد الحكمان، خبيرٌ بنيّاتهما.

﴿واعبدوا اللهَ ولا تُشْركوا به شيئاً﴾ أفردوا اللهَ بالعبادة والطاعة، ولا تجعلوا له في الربوبيَّة شريكاً. ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وآمركم بلزوم البرِّ والإحسان إلى الوالدين. ﴿وبذي القُرْبى واليتامَى والمساكين﴾ واستوصوا بالقريب، واليتيم، والمسكين خيراً، وتعطَّفوا عليهم، والزموا وصيتي فيهم ﴿والجار ذي القربى﴾ والجار الذي بينك وبينه قرابة. ﴿والجَارِ الجُنُب﴾ والجار البعيد الذي ليس بينك وبينه قرابة، مسلماً كان أو مشركاً ﴿والصَّاحِب بالجَنْب﴾ وبالرفيق في السفر، والزوجة المصاحبة، والصديق المرافق ﴿وابْن السَّبيل﴾ والمسافر المنقطَع في سفره. ﴿وما ملكت أيمانُكم﴾ من العبيد والأرقاء ﴿إنَّ اللهَ لا يحبُّ من كَانَ مختالاً فخوراً﴾ لا يحبُّ المتكبرين المفتخرين على عباد الله. ثم بيَّنهم بقوله ﴿الذينَ يَبْخَلونَ وَيَأْمرونَ الناس بالبخل﴾ هم الذين يبخلون بفضلِ ما رزقهم الله، ويأمرون الناس بالبخل وترك الإنفاق. ﴿ويكتمون ما آتاهم اللهُ من فضلِهِ﴾ ويكتمون نبوة محمد ﷺ وصفته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ وهيأنا للجاحدين نعمة الله، المكذبين بنُبوَّة محمد ﷺ، عذاباً شديداً مع الذل والإهانة. ﴿والَّذينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ﴾ ينفقونها مراءاة الناس في غير طاعة الله، ولكنْ في سبيل

=والإرشاد، ثم بالهجر في المضاجع، فإذا لم تنفع كلُّ هذه الوسائل، فقد أذن له بالضرب ضرباً غير مبرح، لكسر غطرستها وكبريائها، وإخراج الشيطان من رأسها، وهذا خيرٌ من طلاقها، لأن الطلاق هدم للأسرة، وتمزيق لشملها، وإذا قيس الضرر الأخف بالضرر الأعظم، كان ارتكاب الأخفِّ حسناً وجميلاً كما قيل «وعند ذكر العمى يُستحسن العَوَرُ»

وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ

***

الشيطان ﴿ولا يُؤمنونَ باللهِ ولا باليوم الآخر﴾ ولا يصدِّقون بوحدانية الله، ولا بالبعث بعد الممات ﴿وَمَنْ يَكُن الشَّيْطَانُ لَهُ قَريناً فَسَاءَ قَريناً﴾ ومن يكن الشيطان صاحباً وصديقاً له، فبئس هذا الصديق والخليل. ﴿وَمَاذَا عليهِمْ لَوْ آمَنُوا باللهِ والْيَوْمِ الآخِر﴾ أيُّ شيءٍ على هؤلاء المرائين بأعمالهم، لو صدَّقوا بوحدانية الله، وأخلصوا له العمل، وأيقنوا بالبعث بعد الممات!! ﴿وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ﴾ وأدَّوا زكاة أموالهم، ابتغاء وجه الله، ولم ينفقوها التماس الذكر والفخر!! ﴿وكانَ اللهُ بهم عليماً﴾ عالمٌ بما يقصدون ويريدون بإنفاقهم، وسيجازيهم بأعمالهم. ﴿إنَّ اللهَ لا يظلم مثقال ذَرَّةٍ﴾ لا يبخس أحداً من خلقه وزن ذرةٍ[1] من عمله ﴿وإنْ تكُ حسنَةً يضاعفْها﴾ وإن تكن هذه الذرة حسنةً، يضاعفْ لها ثوابها وأجرها. ﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ ويعطه من عنده أجراً كبيراً، وهو الجنة دار المتقين. ﴿فكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أمةٍ بشهيدٍ﴾ فكيف بهم إذا جئنا من كل أمة بمن يشهد عليها بأعمالها؟ ﴿وجئنا بكَ على هؤلاءِ شهيداً﴾ وجئنا بك يا محمد شاهداً على أمتك[2]؟ ﴿يومئذٍ يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا وعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ في ذلك اليوم يتمنى الذين جحدوا وحدانية الله، وعَصَوْا رسوله ﴿لَوْ تُسَوَّى بهمُ الأَرْضُ﴾ لو سوَّاهم الله بالأرض، فصاروا تراباً مثلها، كما يفعل بالبهائم «ويقول الكافر يا ليتني كنتُ تُراباً» ﴿ولا يكتمونَ اللهَ حديثاً﴾ وتمنّوا أنهم لم يكونوا كتموا الله حديثاً، لأن الله يفضحهم ويذلهم بشهادة جوارحهم عليهم.

﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تَقربوا الصَّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ لا تُصلُّوا وأنتم سكارى من الخمر، حتى تعرفوا ما تقولون في صلاتكم. وكان هذا قبل تحريم الخمر[3]. قال مجاهد:

---

(١) الذرة قيل إنها النملة الصغيرة الحمراء، وقيل إنها الهباءة التي ترى في شعاع الشمس

(٢) روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال قال لي رسول الله ﷺ «إقرأ عليَّ القرآن، فقلت يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال نعم فإني أحب أن أسمعه من غيري» فقرأت عليه سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال حسبك الآن، فنظرتُ فإذا عيناه تذرفان»

(٣) روي في سبب نزول الآية، أن بعض الصحابة شرب الخمر وحانت صلاة المغرب، فقدموا أحدهم إماماً فقرأ «قل يا أيها الكافرون لا أعبُد =

عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا

***

نُهوا أن يُصلُّوا وهم سكارى، فكانوا يجتنبون السكر عند حضور الصلوات، ثم نسخها تحريمُ الخمر. ﴿ولا جُنُباً إلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ ولا تقربوا الصلاة وأنتم جنبٌ ـ إلاَّ إذا كنتم مسافرين ولم تجدوا الماءَ فتيمَّموا وصلُّوا ـ حتى تغتسلوا من الجنابة[١] ﴿وإنْ كنتم مرضى أو على سَفرٍ﴾ وإن كنتم مرضى بجراحٍ أو قروح، وأنتم مقيمون غير مسافرين، أو كنتم مسافرين وأنتم أصحاء جنبٌ. ﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط﴾ أو قضى أحدكم حاجته ببولٍ أو غائط ﴿أو لاَمَسْتُمُ النِّساءَ﴾ أو عاشرتم النساء بالجماع ﴿ولم تجدوا ماءً﴾ ولم تجدوا ماءً تتطهرون به من الجنابة أو الحدث الأصغر ﴿فتيمَّموا صعيداً طيباً﴾ فاقصدوا وتعمَّدوا تراباً طاهراً من الأقذار والنجاسات، أو تعمَّدوا وجه الأرض الطاهرة ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ فتطهروا بالتراب فامسحوا منه بوجوهكم وأيديكم، ثم صلُّوا[٢] ﴿إنَّ اللهَ كان عفُوّاً غَفُوراً﴾ عفواً عن ذنوب عباده، ساتراً لخطاياهم.

﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً منَ الكتاب﴾ ألم تر بقلبك يا محمد فتعلم حال اليهود، الذين أعطوا حظاً من كتاب الله ﴿يشترون الضلالة﴾ يختارون الضلالة على الهدى، بتركهم الإيمان وتكذيبهم لمحمد عليه السلام. ﴿ويريدون أن تَضِلُّوا السبيلَ﴾ويحبون أن تضلّوا ـ يا معشر أصحاب محمد ـ عن سبيل الحق والهدى، فتكونوا مثلهم. ﴿واللهُ أَعْلَمُ بأعدائِكُمْ﴾ والله أعلم منكم، بعداوة هؤلاء اليهود لكم، فلا تقبلوا نصيحتهم فتهلكوا. ﴿وكفى باللهِ ولياً وكفى باللهِ نصيراً﴾ حسبكم الله ولياً، وحسبكم الله ناصراً، يرعاكم وينصركم على أعدائكم، فثقوا به وعليه توكلوا. ﴿من الذين هَادُوا يُحَرِّفونَ الكَلِمَ عَنْ مَواضِعِهِ﴾ هؤلاء الأعداء هم من اليهود، الذين يبدّلون الكلام في التوراة عن أماكنه ووجوهه الصحيحة[٣] ﴿ويقولون سمعنا

= ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ، وأخذ يخلط فيها ، فنزلت الآية

(١) وقيل المراد من الصلاة أماكنها وهي المساجد أي لا تقربوا المساجد للصلاة فيها حتى تغتسلوا

(٢) التيمم يجزىء عن الوضوء وعن الغسل عند فقد الماء ، وقد نبهت الآية الكريمة إلى النوعين ، فأشارت بقوله ﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط﴾ إلى الحدث الأصغر ، وبقوله ﴿أو لامستم النساء﴾ إلى الحدث الأكبر لأنه كناية عن الجماع ، وهو اختيار الطبري

(٣) أي يفسرونه بغير مراد الله عز وجل

فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

***

وعصينا﴾ ويقولون سمعنا يا محمد قولك، وعصينا أمرك ﴿واسْمَعْ غيرَ مُسْمَعٍ﴾ اسمعْ منَّا لا أسمَعَكَ اللهُ ﴿وَرَاعِنَا﴾ راعنا سمعك أي افهمْ عنَّا وأَفْهِمْنا. ﴿ليًّا بألسنَتِهِمْ وَطعْناً في الدِّين﴾ تحريكاً منهم بألسنتهم لتحريف معناه[1]، وطعناً في دين الله. كانوا يسبُّون رسول الله ﷺ، ويؤذونه بالقبيح من القول، شتماً له واستهزاءً، فيقولون: اسمعْ لا سمعتَ، وراعنا، يقصدون الدعاء عليه بالصَّمم، والرعونة وهي كلمة مسبَّة عند اليهود. ﴿ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا﴾ ولو أن هؤلاء اليهود قالوا: سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك. ﴿واسمعْ وانظرنا﴾ واسمع منا ما نقول، وانتظرنا حتى نفهم ما تقول لنا. ﴿لكانَ خيْراً لهمْ وَأقْوَمَ﴾ لكان ذلك خيراً لهم عند الله، وأصوب وأعدل في القولِ ﴿ولكنْ لعنهم اللهُ بكفرهم﴾ ولكنْ أخزى الله اليهود، فطردهم وأبعدهم عن رحمته، بجحودهم نبوَّة محمد ﷺ، وما جاءهم به من الهدى والبيِّنات. ﴿فلا يؤمنونَ إلاّ قليلاً﴾ فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً[2] ﴿يا أيها الَّذينَ أُوتوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِـمَا نَزَّلْـنـا مُصَدِّقاً لمَا مَعَكُمْ﴾ يا معشر اليهود آمنوا بما نزَّلنا على محمد ﷺ من القرآن، مصدِّقاً لما معكم من التوراة. ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِس وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ من قبل أن نطمس أبصارها ونمحو آثارها، حتى تصير كالأقفاء[3] ﴿أونلعنهم كما لعنَّا أصحابَ السَّبْتِ﴾ أو نخزيهم فنمسخهم قردة، كما فعلنا بالذين اعتدوا في السبت «فقلنا لهم كونوا قردةً خاسئين» ﴿وكان أمرُ الله مفعولاً﴾ لا يمتنع عليه شيء مما أراده. ﴿إنَّ اللهَ لا يغفِرُ أنْ يُشْركَ بِهِ ويغفِرُ ما دونَ ذلِكَ لمن يشاءُ﴾ لا يغفر الكفر والإشراك به، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب والآثام لمن شاء من عباده. أبانت الآية أن كلَّ صاحب كبيرة في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه، ما لم تكن كبيرته شركاً بالله. ﴿ومن يشرِكْ باللهِ فقد افترى إثماً عظيماً﴾ فقد اختلق إثماً

---

(١) اللَّيُّ الفتلُ أي يفتلون بألسنتهم الحق إلى الباطل.

(٢) أي إيماناً غير نافع لهم عند الله، كإيمانهم بموسى، واعتقادهم بأنهم أحباب الله الخ

(٣) المراد أن نطمس منها حواسَّها فلا نبقي لها سمعاً، ولا بصراً، ولا أنفاً، وروي عن ابن عباس أن المراد بالآية أن يجعل وجوههم من قِبَل أقفيتهم فيمشون القهقرى

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

***

عظيماً، وجرماً كبيراً، بجحوده وحدانية الله. ﴿ألم تر إلى الذين يزكُّون أنفسهم﴾ هم اليهود والنصارى قالوا: لا ذنوب لنا ولا خطايا، ونحن أبناء الله وأحباؤه. ﴿بل اللهُ يُزكّي مَنْ يَشاءُ﴾ بل اللهُ يزكي من يشاء من خلقه، فيطهِّره من الذنوب. ﴿ولا يُظلَمون فتيلاً﴾ ولا يُظلم أحد شيئاً من حقه، ولو كان بمقدار الفتيل[١] ﴿أنظُرْ كيف يفترون على الله الكذب﴾ انظر كيف يختلقون على الله الكذب والزور. ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ وحسبهم بهذا الافتراء ذنباً واضحاً، يبيِّن أنهم كَذَبة فجرة. ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾ أُعطوا حظاً من كتاب الله فعلموه ﴿يؤمنون بالجبتِ والطّاغوتِ﴾ يُصدِّقون بكل ما عُبد من دون الله، من حجر، وكاهن، وشيطان، وكل رأس في الضلال[٢] ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ لمشركي قريش ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أنتم أهدى من محمد وأصحابه ديناً، قال عكرمة: لما قدم «كعب ابن الأشرف» مكة، قال له المشركون: أنت سيدنا وسيِّد قومك، فاحكم بيننا وبين هذا الأبتر ـ يعنون محمداً ﷺ ـ فقال كعبُ اليهودي: أنتم والله أهدى منه، ودينكم خيرٌ من دينه فنزلت ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أخزاهمُ الله فأبعدهم من رحمته. ﴿ومن يلعن اللهُ فلن تجد له نصيراً﴾ ومن يلعنه الله، فلن تجد له ناصراً ينصره من عقوبة الله ﴿أم لهم نصيبٌ من المُلك﴾ ليس لهم حظٌ من الملك، ولو كان لهم حظٌ ونصيب من الملك. ﴿فإذاً لا يُؤتونَ النَّاسَ نقيراً﴾ إذاً لم يكونوا يعطون الناس نقيراً[٣] من بخلهم. ﴿أم يَحْسُدونَ النّاس عَلَى مَا آتاهُمُ اللهُ من فضله﴾ أم يحسد هؤلاء اليهود النبي ﷺ على النبوة التي فضَّل الله بها محمداً، وشرَّف بها العرب؟ ﴿فقد آتينا آلَ إبراهِيمَ الكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فقد أعطينا أهل إبراهيم الصحف، وسائر ما آتيناهم من الكتب. ﴿وآتيناهم مُلكاً عظيماً﴾ وأعطينا ـ من ذريته ـ سليمان ملكاً

---

(١) الفتيل: ما فتلته بين أصبعيك أو ما يكون في شق النواة، يضرب مثلاً للشيء التافه الحقير
(٢) الجبت والطاغوت قيل: صنمان، [illegible] من حجر، أو مدرٍ، أو شيطان، فهو جبت وطاغوت
(٣) النقير: النقرة التي في ظهر النواة، والنقير [illegible] مثل للشيء اليسير الحقير

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾

***

واسعاً، فلماذا لا يحسدون آل إبراهيم، ويحسدون محمداً والعرب؟ **﴿فمنهم من آمنَ به ومنهم من صدَّ عنه﴾** فمن اليهود من صدَّق بما أنزلنا على محمد ﷺ ومنهم من أعرض عن التصديق به **﴿وكفى بجنهم سعيراً﴾** وحسبُ المكذبين نار جهنم تُسعَّر وتوقد **﴿إن الذينَ كفروا بآياتنا سوف نُصْليهم ناراً﴾** جحدوا آيات القرآن فلم يصدِّقوا بها، سوف نشويهم في نار شديدة. **﴿كُلَّما نَضِجَتْ جلودُهم بدَّلناهم جلوداً غيرَها ليذوقوا العَذَابَ﴾** كلما احترقت جلودهم بدلناهم بجلود أخرى(١)، ليجدوا ألم العذاب وشدته **﴿إنَّ اللهَ كانَ عَزيزاً حكيماً﴾** عزيزٌ في انتقامه، حكيمٌ في تدبيره وقضائه **﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾** سندخلهم بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة. **﴿خالدين فيها أبداً﴾** باقين فيها أبداً بغير نهاية ولا انقطاع. **﴿لهم فيها أزواجٌ مطهّرةٌ﴾** لهم في الجنة زوجات مطهرات من الأقذار والأذى **﴿وَنُدْخلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾** وندخلهم ظلاًّ دائماً لا تنسخه الشمس.

﴿إنَّ اللهَ يأمركم أنْ تؤدوا الأماناتِ إلى أهلِها﴾ إنَّ الله يأمركم ـ يا معشر الحكام ـ أن تؤدوا حقوق الرعية إليهم، من الغنيمة والفيء، وسائر الحقوق التي ائتُمنتم عليها **﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعَدْل﴾** ويأمركم إذا حكمتم بين الرعية، أن تحكموا بالعدل والإنصاف. **﴿إنَّ اللهَ نِعمَّا يعظكم بِهِ﴾** نعم الشيء الذي يعظكم به **﴿إن الله كان سميعاً بصيراً﴾** سميعٌ لما تقولون، بصيرٌ بما تفعلون، وسيجازي المحسن بالإحسان، والمسيء بالإساءة. أوصى الراعي بالرعية، كما أوصى الرعية بالطاعة فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ﴾** أطيعوا الله ورسوله في كل أمرٍ ونهي، وذلك باتباع الكتاب والسُّنَّة. **﴿وأولي الأمر منكم﴾** وأطيعوا الأمراء والولاة إذا كانوا مسلمين، فيما فيه لله طاعةٌ، وللمسلمين

(١) ورد في الحديث «أن غلظ جلد الكافر سبعون ذراعاً، وأن ضرسه مثل أحد» رواه أحمد

ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

***

مصلحة[١] ﴿فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه إلى الله والرسول﴾ فإن اختلفتم في شيءٍ من أمر دينكم أنتم وولاة أمركم، فاحتكموا إلى كتاب ربكم وسنَّة نبيكم ﴿إن كنتم تؤمنون باللهِ واليوم الآخر﴾ إن كنتم تصدّقون بالله، وبالمعاد الذي فيه الثواب والعقاب. ﴿ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ ذلك خيرٌ لكم عند الله، وأحسن عاقبةً ومآلاً ﴿أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ يَزْعُمونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بما أُنْزِلَ إليكَ وما أُنْزِلَ من قَبْلِكَ﴾ ألم تر يا محمد إلى هؤلاء المنافقين[٢] الذين يزعمون أنهم صدَّقوا بما أُنزِلَ إليك من الكتاب، وما أنزل من قبلك من الكتب؟ ﴿يُريدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ وقد أُمِرُوا أَنْ يكفُرُوا بِهِ﴾ يريدون التحاكم في خصومتهم إلى من يعظمونه من طواغيتهم، وقد أمرهم الله أن يكذبوا بما جاءهم به الطاغوت ويحتكموا إلى كتاب الله ﴿ويريدُ الشَّيْطَانُ أن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعيداً﴾ ويريد الشيطان أن يبعدهم عن سبيل الحق والهدى، فيضلهم عنها ضلالاً بعيداً ﴿وإذا قيلَ لهم تَعَالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرسُول﴾ وإذا قيل لهؤلاء المنافقين هلمُّوا إلى حكم الله الذي أنزله في كتابه، وإلى حكم رسوله ﴿رأَيْتَ المُنافِقينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ رأيت المنافقين يعْرضون عنك إعراضاً، ويمنعون غيرهم من المجيء إليك ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فكيف بهؤلاء إذا نزلت بهم نقمة من الله، بذنوبهم التي سلفت منهم. ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلفونَ باللهِ إنْ أَرَدْنَا إلاَّ إحْساناً وتَوْفيقاً﴾ ثم جاءوك يحلفون بالله كذباً وزوراً، ما أردنا بتحاكمنا إلاَّ الإحسان لبعضنا، والتوفيق فيما بيننا.

---

(١) أوجب تعالى طاعة أولي الأمر بشرطين ١ ـ أن يكونوا مسلمين لقوله تعالى ﴿وأولي الأمر منكم﴾ ٢ ـ ألا يأمروا بما فيه معصية لله، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أما إذا كانوا مجرمين فلا سمع ولا طاعة

(٢) روي أنه كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة، فقال اليهودي تعال نتحاكم إلى محمد، فأبى المنافق وقال بل تعال نتحاكم إلى «كعب بن الأشرف» فقال له اليهودي أدعوك إلى نبيك فتأبى!؟ فذهب معه مكرهاً وعرضا عليه الأمر، فحكم لليهودي على ذلك المسلم المزيّف، فلما خرجا من عنده أبى المنافق أن يقبل بحكم الرسول ﷺ وقال له تعال نتحاكم إلى عمر بن الخطاب، فذهبا إلى عمر فقال اليهودي كان بيني وبين هذا خصومة فتحاكمنا إلى محمد فحكم لي عليه، فأبى أن يقبل بحكمه ورضي بحكمك، فقال له عمر أصحيح ما يقول؟ قال نعم، قال فانتظراني قليلاً حتى أحكم بينكما، فدخل بيته وتقلد سيفه ثم خرج فضرب به رأس المنافق وقال هكذا أحكم فيمن لم يرض بحكم الله ولا بحكم رسوله فنزلت الآية

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾

***

﴿أولئك الَّذينَ يَعْلَمُ اللهُ ما في قُلُوبهمْ﴾ هؤلاء المنافقون هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم من النفاق والزَّيغ ﴿فأعْرِضْ عنهم وعِظْهُمْ﴾فدعهم ولا تعاقبهم، ولكنْ خوِّفهم وعظْهم ﴿وقلْ لهم في أنْفُسِهمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ انصحهم بكلام بليغ رادع، مؤثرٍ في نفوسهم، ومُرْهم باتقاء الله، والتصديق بوعده ووعيده ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا لِيُطاع بإذنِ الله﴾ لم نرسل رسولاً إلا فرضنا طاعته على أمته، بأمر الله وقَدَره، ومحمد ﷺ من أولئك الرسل. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ ولو أن هؤلاء المنافقين، حين ظلموا أنفسهم باحتكامهم إلى الطاغوت. ﴿جَاءُوكَ فاسْتَغْفَروا الله واسْتَغفَرَ لهُمُ الرَّسُولُ﴾ جاءوك تائبين منيبين، فسألوا الله المغفرة لذنوبهم، واستغفرت لهم يا محمد[1] ﴿لَوَجَدُوا اللهَ توَّاباً رَحيماً﴾ لوجدوا الله واسع المغفرة، رحيماً بهم في ترك عقوبتهم ﴿فلا وَرَبِّكَ لا يؤمنون﴾ فوربك[2] يا محمد لا يؤمنون حقَّ الإيمان. ﴿حتَّى يُحكِّموكَ فيما شَجَر بينهم﴾ حتى يجعلوك حكماً فيما تنازعوا واختلفوا فيه من أمورهم. ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنفسهم حَرَجاً ممَّا قضيتَ﴾ ثم لا يجدوا ضيقاً في أنفسهم ممَّا حكمت بينهم ﴿ويُسَلِّموا تَسْليماً﴾ ويسلِّموا لقضائك وحكمكَ تسليماً مطلقاً، مع الإذعان والقبول.

﴿ولو أنَّا كتبنا عليهم﴾ولو أنا فرضنا على هؤلاء المحتكمين إلى الطاغوت. ﴿أنِ اقْتُلُوا أنفسَكُمْ أو اخْرُجُوا من دِيارِكُمْ﴾ أمرناهم بأن يقتلوا أنفسهم، أو يُهاجروا من أوطانهم ﴿ما فعلوه إلا قليلٌ منهم﴾ ما فعله إلا قليل منهم. ﴿ولو أنَّهُمْ فَعَلُوا ما يُوَعَظُونَ به﴾ ولو أن هؤلاء المنافقين، فعلوا ما ذُكِّروا به من طاعة الله ﴿لكان خيراً لهم﴾ في دنياهم وآخرتهم ﴿وأشدَّ تثبيتاً﴾ وأشدَّ تثبيتاً لإيمانهم، وتصحيحاً لعزمهم

(١) هذا من باب الالتفات تعظيماً لمقام النبي ﷺ، والأصل واستغفرت لهم

(٢) ﴿فلا وربك﴾ لا لتأكيد القسم أي فوربك، وتأوله ابن جرير ليس الأمر كما زعموا، ثم استأنف القسم فقال وربك، وما ذكرناه هو رأي جمهور المفسرين

وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا

***

﴿وإذاً لآتيناهم من لَدُنَّا أجراً عظيماً﴾ ولو فعلوا ما أمروا به، لأعطيناهم ثواباً عظيماً على أعمالهم **﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾** ولأرشدناهم إلى طريقٍ لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام. ثم ذكر جلَّ ثناؤه ما وعد به أهل طاعته، من الكرامة الدائمة لديه، والمنازل الرفيعة عنده فقال **﴿ومَنْ يطع الله والرسولَ﴾** بالتسليم لأمرهما، والرضى بحكمهما، والانزجار عن معصية الله **﴿فأولئك مع الذين أنعمَ الله عليهم من النبيِّين والصِدِّيقين والشُّهداءِ والصَّالحينَ﴾** فهو مع الذين وفقهم الله لطاعته من الأنبياء، والمصدِّقين للأنبياء الذين اتبعوا منهاجهم، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، والصالحين من عباد الله **﴿وَحَسُن أولئكَ رفيقاً﴾** نعم هؤلاء رفقاء في الجنة[1] **﴿ذلكَ الفضلُ من اللهِ﴾** ذلك فضل الله الذي تفضَّل به عليهم **﴿وكفى باللهِ عليماً﴾** وحسبُ العباد بعلم الله تعالى بهم، يعلم المطيع منهم والعاصي. **﴿يا أيها الذين آمنوا﴾** يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله **﴿خُذُوا حِذْركم﴾** خذوا الحَذَر من عدوكم بالتسلح. **﴿فانفِرُوا ثُبَاتٍ أو انفروا جميعاً﴾** فانفروا إلى عدوكم متسلحين جماعةً بعد جماعة، أو انفروا جميعاً مع نبيكم لقتالهم. **﴿وإنَّ منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾** وإن منكم من يبطِّىءغيره عن الجهاد، وهم المنافقون. **﴿فإن أصابتكم مصيبةٌ﴾** فإن أصابتكم هزيمة أو قتلٌ وجراح. **﴿قال قد أنعمَ اللهُ عليَّ إذْ لم أكنْ معهم شهيداً﴾** إذ لم أحضر معهم وقعة القتال، فيصيبني جراح أو قتل، وسرَّه تخلُّفه عنكم شماتةً بكم. **﴿ولئِنْ أصابكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ﴾** ولئن أصابكم نصرٌ وظفرٌ وغنيمةٌ **﴿ليقولَنَّ كأَنْ لم تكنْ بينكم وبينه مودَّةٌ﴾** ليقولَنَّ هذا المنافق، كأنه ليس من أهل دينكم: **﴿يا ليتني كنتُ معهم**

---

(١) روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إنك لأحبُ إليَّ من نفسي، وأحبُ إليَّ من أهلي وولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتُ الجنة خشيتُ أن لا أراك فنزلت ﴿ومن يطع الله والرسول..﴾ الآية

عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

***

﴿فأفوز فوزاً عظيماً﴾ يا ليتني كنت معهم حتى أصيب من الغنيمة. وهذا خبرٌ من الله عن المنافقين، أن شهودهم الحرب ـ إن شهدوها ـ لطلب الغنيمة، وإن تخلَّفوا عنها فللشكِّ الذي في قلوبهم، وأنهم لا يرجون لحضورها ثواباً، ولا يخافون بالتخلف عنها عقاباً. ثم حضَّ المؤمنين على الجهاد في سبيل الله فقال: **﴿فلْيقاتلْ في سَبيلِ اللَّهِ﴾** فليقاتل لإعلاء دين الله، ونصرة شريعته، **﴿الَّذينَ يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾** الذين يبيعون حياتهم الدنيا بثواب الآخرة، وينفقون أموالهم في طلب رضى الله **﴿ومن يقاتلْ في سبيل الله﴾** ومن يقاتل لإعلاء كلمة الله **﴿فيُقْتلْ أو يَغْلِبْ﴾** فيقتله الأعداء، أو يظفر هو بهم **﴿فسوفَ نؤتيه أجراً عظيماً﴾** فسوف نعطيه في الآخرة ثواباً عظيماً **﴿ وَمَا لكُمْ لاَ تُقَاتِلونَ في سَبيلِ اللهِ﴾** ما لكم أيها المؤمنون، وما شأنكم لا تقاتلون لنصرة دين الله؟! **﴿والمستضعفين من الرجالِ والنِّساءِ والولدانِ﴾** وفي سبيل نصرة المستضعفين، من الرجال والنساء والصبيان، الذين آذاهم المشركون، ونالوهم بالعذاب ليفتنوهم عن دينهم؟! **﴿الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية﴾** الذين يقولون في دعائهم: يا ربنا أخرجنا من مكة. **﴿الظالِم أهلُها﴾** الذين ظلمنا أهلها **﴿واجعل لنا من لدنك ولياً﴾** واجعل لنا من عندك ولياً يتولَّى شئوننا. **﴿واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾** واجعل لنا من عندك من ينصرنا على من ظلمنا **﴿الذينَ آمنوا يُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ﴾** الذين صدَّقوا الله ورسوله، وأيقنوا بوعد الله، يقاتلون لإعلاء دينه ونصرة شريعته **﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾** والذين جحدوا وحدانية الله، وكذَّبوا رسوله، يقاتلون في سبيل الشيطان وطريقه ومنهاجه الذي شرعه لأوليائه **﴿فقاتلوا أولياء الشيطان﴾** فقاتلوا أنصار الشيطان **﴿إنَّ كيدَ الشيطان كان ضَعِيفاً﴾** إن ما يكيده الشيطان لكم ضعيفٌ، فلا تهابوا أولياء الشيطان **﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفُّوا أيديكم﴾** ألم تر يا محمد إلى الذين قيل لهم أمسكوا أيديكم عن قتال المشركين وحربهم؟ **﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ﴾**

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ﴾

***

وأدوا الصلاة بحدودها، وأعطوا الزكاة إلى أهلها. **﴿فلما كُتِبَ عليهم القتالُ﴾** فلما فُرض عليهم القتال الذي كانوا يسألون عنه **﴿إذا فريقٌ منهم يخشون النَّاس كخشية اللهِ أو أشدَّ خشية﴾** إذا جماعة منهم يخافون قتال المشركين، كخوفهم من الله، أو أشدَّ خوفاً[1] **﴿وقالوا ربَّنا لم كتبتَ علينا القتالَ﴾** وقالوا جَـزَعـاً: يا ربَّنا لِمَ فرضتَ علينـا القتـال؟ ركـونـاً منهم إلى الـدنيـا، وإيثـاراً للدَّعـة ولين العيش **﴿لولا أخرتنا إلى أجلٍ قريب﴾** هلاَّ أخرتنا إلى أن نموتَ على فرشنا وفي منازلنا !! **﴿قل مَتَاعُ الدنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لمن اتَّقى﴾** قل لهم يا محمد تمتعكم في الدنيا قليل لأنها فانية، ونعيمُ الآخرة خيرٌ لمن اتَّقى ربَّه، لأنها باقية ونعيمُها دائم. **﴿ولا تُظلمون فتيلاً﴾** ولا ينقصكم الله من أجور أعمالكم فتيلاً، بمقدار الذي يكون في شقِّ النواة **﴿أينما تكونوا يدرككم الموتُ﴾** حيثما تكونوا أيها الناسُ ينلكم الموتُ **﴿ولو كنتُمْ في بروجٍ مشيَّدة﴾** ولو تحصنتم منه بالحصون المنيعة، فلا تهربوا من القتال، وتضعفوا عن لقاء عدوكم، حَذَراً من القتل أو الموت. **﴿وإن تصبْهم حسنةٌ يقولوا هذه من عند اللهِ﴾** إن نالهم رخاءٌ وفتح وغنيمة، قالوا هذا من قِبَل الله وبتقديره. **﴿وإن تصبهم سيئةٌ يقولوا هذه من عندك﴾** وإن نالهم شدة من هزيمة وألم وجراح، قالوا هذا من عند محمد، بإساءته التدبير وإساءته النظر. **﴿قلْ كلٌّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ﴾** قل لهم يا محمد: الرخاء والشدَّة، والنصر والهزيمة كلُّ ذلك من عند الله **﴿فما لهؤلاء القَوْم لا يَكَادُونَ يَفْقَهونَ حَديثاً﴾**؟ فما شأنهم لا يكادون يفهمون أن كل شيء بتقديره تعالى، وأن مفاتح الأشياء كلها بيده سبحانه ؟ **﴿مَا أَصَابكَ مِنْ حَسَنَةٍ فمن اللهِ﴾** ما أصابك من خير فبفضل الله وإحسانه **﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فمن نفسِكَ﴾** وما أصابك من مكروه وشرّ، فبذنب اكتسبتْه نفسُك **﴿وَأَرْسَلْنَاكَ للنَّاس رَسُولاً﴾**

(١) روي أن بعض المسلمين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا نبي الله: كنَّا في عزةٍ ونحن مشركون ، فلما آمنَّا صرنا أذلة ؟ ألا تأذن لنا بقتال الأعداء ! فقال لهم رسول الله ﷺ : إني أُمِرتُ بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما فُرِض عليهم القتالُ جبنوا وخافوا ، فنزلت ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ الآية .

شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ

***

وأرسلناك يا محمد رسولاً للناس، تبلغهم رسالة ربك ﴿**وكفى بالله شهيداً**﴾ حسبُك أن الله شاهد على تبليغك الرسالة والوحي ﴿**من يُطِع الرسول فقد أطاع الله**﴾من يطع محمداً ﷺ فقد أطاع الله، لأنه هو الذي أرسله. ﴿ **ومَنْ تولَّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً**﴾ ومن أعرضَ عن طاعتك، فما أرسلناك حافظاً على أعمالهم، وإنما أرسلناك هادياً، وكفى بنا حافظين ومحاسبين ﴿**ويقولون طاعةٌ**﴾ ويقول المنافقون للنبي ﷺ: أمرك طاعةٌ، ولك منا الطاعة فيما تأمرنا وتنهانا. ﴿**فإذا بَرَزُوا من عندكَ**﴾ فإذا خرجوا من عندك يا محمد ﴿**بيَّتَ طائفةٌ منهمْ غَيْرَ الَّذي تَقُولُ**﴾ غيَّر جماعة منهم ليلاًما قلت لهم. قال قتادة: يغيِّرون ما عهد نبي الله ﷺ لهم ﴿**واللهُ يكتُبُ ما يُبيِّتُونَ**﴾ والله يكتب ما يغيِّرون من قولك في صحف أعمالهم. ﴿**فَأَعْرِضْ عنهم وتَوكَّلْ على اللهِ**﴾ فأعرض عن هؤلاء المنافقين، وفوِّض أمورك إلى الله ﴿**وكفى باللهِ وكيلاً**﴾ وحسبك الله ناصراً ومعيناً. ﴿**أفلا يتدبَّرون القرآن**﴾ أفلا يتدبر ويتمعَّن هؤلاء كتاب الله، فيفهموا معانيه المحكمة، وألفاظه البليغة؟ ﴿**ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾ ولو كان هذا القرآن من عند غير الله، لاختلفتْ أحكامه، وتناقضتْ معانيه، وأبان بعضُه عن فساد بعض. ﴿**وإذا جاءهم أمرٌ من الأَمْنِ أو الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ**﴾ وإذا جاءهم خبرٌ عن سريةٍ للمسلمين بانتصارها أو انهزامها، أفشوا ذلك الأمر وبثُّوه بين الناس ﴿**ولو ردُّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم**﴾ ولو ردُّوا الأمر إلى الرسول ﷺ وإلى أمرائهم، وسكتوا فلم يذيعوا الخبر. ﴿**لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتنبطونَهُ منهم**﴾ لعلم حقيقة ذلك الخبر، الذين يبحثون عنه ويستخرجونه من أولي الأمر[1] ﴿**ولولا فضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه لاتبعتم الشيطانَ إلا قليلاً**﴾ لولا توفيق الله وإنعامه عليكم بالإيمان، لسلكتم طريق الشيطان كما سلكه هؤلاء المنافقون ﴿**فقاتلْ في سبيل اللهِ لا تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ**﴾ فجاهد يا محمد أعداء الله، وقاتلهم بنفسك، فإنَّ الله لا يكلفك إلا بما

---

(١) قال ابن كثير: الآية إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها، فيفشيها وينشرها وقد لا يكون لها صحة

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ * فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

***

فرضه عليك ﴿وَحَرِّض المؤمنين على القتال﴾ وحُضَّ المؤمنين على قتال المشركين ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بأسَ الذينَ كفروا﴾ لعلَّ الله أن يدفع عنكم شرَّ الكافرين[1] ﴿واللهُ أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً﴾ والله أشدُّ قوةً وانتقاماً منهم؛ وأشد عقوبة. ﴿مَنْ يشفع شفاعةً حسنةً يكنْ له نصيبٌ منها﴾ من يشفع شفاعةً في مرضاة الله، يكن له حظٌ من ثوابها[2]. ﴿ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفْلٌ منها﴾ ومن يشفع شفاعة في سخط الله، يكن له نصيبٌ من وزرها. ﴿وكان اللهُ على كل شيء مقيتاً﴾ قديراً[3] ﴿وإذا حُيِّيتم بتحيةٍ فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها﴾ وإذا حيَّاكم أحدٌ بتحية، فحيُّوه بأفضل منها أو ردُّوا التحية بمثلها[4] ﴿إنَّ اللهَ كَانَ على كل شيءٍ حَسِيباً﴾ حفيظاً على أعمالكم، ومحاسبكم عليها ﴿اللهُ لا إله إلا هو﴾ اللهُ الذي لا معبود بحقٍّ سواه. ﴿ليجمعنكم إلى يومِ القيامة لا ريبَ فيه﴾ ليبعثنكم من بعد مماتكم إلى موقف الحشر، للجزاء والحساب الذي لا شك فيه ﴿ومَنْ أصدقُ من اللهِ حديثاً﴾؟ وأيُّ ناطقٍ أصدقُ من الله حديثاً؟ لا أحد، فلا تشكُّوا في صحة خبر الله ﴿فما لكم في المنافقين فِئَتَيْن﴾ فما شأنكم أيها المؤمنون في أهل النفاق مختلفين إلى جماعتين[5]؟ ﴿واللهُ أركسهم بما كَسَبوا﴾ واللهُ ردَّهم إلى أحكام أهل الشرك بسبب ما اقترفوا. ﴿أتريدونَ أن تَهْدُوا مَنْ أضلَّ اللهُ﴾ أتريدون أيها المؤمنون أن تهدوا إلى الإسلام، من خذله الله وأضله؟ ﴿ومن يضللِ اللهُ فلن تجد له سبيلاً﴾ ومن يضلله الله، فلن تجد له طريقاً ولا منهجاً تهديه إليه

---

(١) قال الطبري «عسى» من الله واجبة، أي أنها تفيد التحقيق بدفع شر الأعداء

(٢) هذا الذي ذكرناه هو المشهور، وهو قول مجاهد، وذهب الطبري إلى أن المراد شفاعة الإنسان بالانضمام إلى صف المجاهدين لقتال الأعداء

(٣) وقال مجاهد «مقيتاً» شهيداً وحسيباً وهو الأظهر.

(٤) الزيادة مندوبة، والمماثلة مفروضة، فإذا سلَّم عليك أحد فقل وعليك السلام ورحمة الله، أو وعليكم السلام

(٥) كان قوم من أهل مكة أسلموا، ثم ارتدوا عن الإسلام، فاختلف الصحابة فيهم فرقتين، فنزلت الآية

وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

***

﴿ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواءً﴾ تمنَّى هؤلاء المنافقون أن تكفروا كما كفروا، فتستوون أنتم وهم في الشرك بالله **﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يُهاجروا في سبيل الله﴾** فلا توالوهم حتى يخرجوا من دار الشرك ابتغاء دين الله. **﴿فإن تَوَلَّوْا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾** فإن تركوا الهجرة، فخذوهم واقتلوهم أين أصبتموهم من أرض الله **﴿ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً﴾** ولا توالوهم ولا تستنصروا بهم على أعدائكم، فإنهم كفارٌ لا يألونكم خبالاً **﴿إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاقٌ﴾** سوى من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم عهد وميثاق، فلهم من الأمان مثل ما لهؤلاء **﴿أو جاءوكم حَصِرتْ صدورُهُمْ أَنْ يُقاتلوكم أو يُقَاتلوا قومهم﴾** أو جاءوكم قد ضاقت صدورهم عن أن يقاتلوكم، أو يقاتلوا قومهم **﴿ولو شاء الله لسلَّطهم عليكم فلقاتلوكم﴾** ولو أراد الله لسلَّط هؤلاء فقاتلوكم مع أعدائكم من المشركين، ولكنَّ الله كفَّهم عنكم بفضله. **﴿فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السَّلَم﴾** فإن اعتزلكم هؤلاء المنافقون، وصالحوكم واستسلموا لكم. **﴿فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾** فليس لكم طريق إلى قتالهم فلا تتعرضوا لهم. **﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم﴾** ستجدون فريقاً آخر من المنافقين، يظهرون الإسلام لكم ليأمنوكم وهم كفار، وإذا لقوا قومهم عبدوا معهم ما يعبدون من دون الله، ليأمنوا على أنفسهم. **﴿كلما رُدُّوا إلى الفتنةِ أُرْكِسُوا فيها﴾** كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله، ارتدوا فصاروا مشركين مثلهم. **﴿فإن لم يعتزلوكم ويُلْقُوا إليكُمُ السَّلَمَ﴾** يستسلموا لكم ويصالحوكم. **﴿ويكفُّوا أيديهم﴾** عن قتالكم **﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾** خذوهم واقتلوهم أين لقيتموهم **﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾** وهؤلاء جعلنا لكم عليهم حجةً بيِّنة في قتلهم

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ

***

﴿وَمَا كَانَ لمؤمنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمناً إلاَّ خَطَأً﴾ ما كان من شأن المؤمن ولا ينبغي له أن يقتل مؤمناً، إلا إذا وقع القتل خطأً **﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمناً خطأً فَتَحْريرُ رقبةٍ مُؤْمنةٍ﴾** ومن قتل مؤمناً بطريق الخطأ، فعليه عتق رقبةٍ مؤمنة في ماله **﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمةٌ إلى أهلِهِ﴾** وديةٌ مسلَّمة إلى أهل القتيل، تؤديها عاقلته[1] **﴿إلاَّ أن يَصَّدَّقوا﴾** إلا أن يعفو أهل القتيل، ويسقطوا الدية باختيارهم **﴿فإن كان من قومٍ عدوٍ لكم وهو مؤمنٌ فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ﴾** فإن كان هذا القتيل مؤمناً من عداد قومٍ مشركين، فالواجب على قاتله عتق رقبةٍ مؤمنة[2] **﴿وإن كان من قومٍ بينكم وبينهم ميثاق فديةٌ مسلمة إلى أهله وتحريرُ رقبةٍ مؤمنة﴾** وإن كان القتيلُ من قومٍ بينكم وبينهم عهد وذمة، فعلى قاتله دية مسلَّمةٌ إلى أهله، وعتق رقبةٍ مؤمنة **﴿فمن لم يجدْ فصيامُ شهرين متتابعين﴾** فمن لم يجد رقبةً مؤمنة، فعليه صوم شهرين متتابعين. **﴿توبةً من اللهِ﴾** توبة من الله على عباده بتخفيفه عنهم. **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** عليماً بما يصلح عباده، حكيماً في تشريعه. **﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾** ومن يقتل مؤمناً عامداً إتلاف نفسه، فجزاؤه على ذلك نار جهنم باقياً فيها أبداً **﴿وَغَضِبَ اللهُ عَلَيه وَلَعَنَه﴾** وسخط الله عليه بقتله وأبعده من رحمته وأخزاه **﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذاباً عظيماً﴾** وهيأ له عذاباً شديداً، لا يعلم قدر مبلغه سواه تعالى **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيَّنوا﴾** إذا خرجتم في جهاد أعدائكم، فتثبَّتوا في قتل من أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا هل هو مسلم أم كافر؟ **﴿ولا تقولوا لمنْ أَلْقَى إليكم السَّلام لستَ مؤمناً﴾** ولا تقولوا لمن استسلم لكم، وأظهر الإسلام لستَ

---

(١) العاقلة عصبة الرجل أي قرابته من جهة أبيه، فهم الذين يدفعون دية قتل الخطأ، والديةُ مائة من الإبل، ومن الذهب ألف دينار، ومن الفضة عشرة الآف درهم

(٢) لا تجب الدية لأهل القتيل هنا لأنهم أعداء محاربون، فلا يعطون من أموال المسلمين ما يستعينون به على قتالهم، أما إذا كان المقتول معاهداً فالواجب في قتله كالواجب في قتل المؤمن.

مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ

***

مؤمناً فتقتلوه **﴿تَبْتَغُونَ عَرْضَ الحياة الدنيا﴾** تريدون متاع الدنيا الزائل **﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كثيرةٌ﴾** فعند الله خيرٌ مما رغبتم فيه، من عَرَض الحياة الدنيا. **﴿كذلكَ كنتم من قبلُ فمنَّ اللهُ عليكم﴾** كذلك كنتم كفاراً مثلهم، فمنَّ الله عليكم بالهداية للإيمان. **﴿فتبيَّنوا﴾** فتثبتوا ولا تعجلوا بقتل من التبس عليكم أمره **﴿إنَّ اللهَ كانَ بما تَعْملونَ خبيراً﴾** مطَّلعاً على أعمالكم، وسيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته **﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنينَ غيْر أولي الضَّرر والمجاهدون في سبيلِ اللهِ بأموالهم وأنفسهم﴾** لا يتساوى المتخلفون عن الجهاد من المؤمنين - إلَّا أهل العذر منهم كالأعمى[1] والأعرج - مع المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. **﴿فَضَّلَ اللهُ المجاهدينَ بأموالهمْ وأنْفسِهمْ على القَاعِدينَ درجةً﴾** فضَّل الله المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر[2] فضيلةً واحدة، بفضل الجهاد بالنفس. **﴿وكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى﴾** وكلًّا من المجاهدين والقاعدين من أهل الضرر، وعده الله الجنة. **﴿وفضَّلَ اللهُ المجاهدينَ على القاعدينَ أَجْراً عظيماً. درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمةً﴾** وفضَّل الله المجاهدين، على المتخلفين عن الجهاد من غير أولي الضرر، منازل رفيعة من منازل الكرامة، ومغفرةً لذنوبهم، ورحمةً بهم، بسبب ما أبلوا في ذات الله **﴿وكَانَ اللهُ غَفُوراً رحيماً﴾** غفوراً لذنوب عباده، رحيماً بهم.

﴿إنَّ الذينَ توفَّاهم الملائكةُ ظالمي أنفسهم﴾ إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم، مكتسبين غضب الله وسخطه بترك الهجرة. **﴿قالوا فيم كنتم قالوا كنَّا مستضعفين في الأرض﴾** قالت الملائكة لهم: لم

---

(١) روى البخاري أن زيد بن ثابت أملى عليه رسول الله ﷺ ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليَّ، فقال يا رسول الله والله لو أستطيعُ الجهاد لجاهدتُ - وكان أعمى - فأنزل الله ﴿غيرُ أولي الضرر﴾

(٢) ذهب ابن جرير إلى أن التفضيل بالدرجة على أهل الضرر وهو قول ابن جريج، وذهب ابن كثير إلى أن التفضيل على غير أولي الضرر وهو رواية عن ابن عباس وما ذهب إليه الإمام ابن جرير هو الأظهر والله أعلم

أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

***

مكثتم ههنا وتركتم الهجرة؟ قالوا كنا لا نقدر على الخروج، لأن أهل الشرك استضعفونا في أرضنا وبلادنا ﴿قالوا ألم تكنْ أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها﴾ ؟ أليست أرض الله واسعة فتخرجوا من أرضكم ودوركم، وتفارقوا أهل الشرك والضلال؟ ﴿فأولئك مأواهم جهنم﴾ فهؤلاء مصيرهم ومسكنهم جهنم ﴿وساءت مصيراً﴾ وساءت جهنم مسكناً ومأوى لأهلها ﴿إلَّا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان﴾ إلا العاجزين عن الهجرة، من الرجال والنساء والصبيان. ﴿لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً﴾ لقلة حيلتهم، وسوء بصرهم ومعرفتهم بالطريق ﴿فأولئك عَسَى اللهُ أن يعفو عنهم﴾ لعلَّ الله أن يعفوه عنهم، في تركهم الهجرة للعجز ﴿وكَانَ اللهُ عَفُوّاً غفُوراً﴾ يصفح بفضله عن ذنوبهم، ويستر بعفوه عليهم، قال ابن عباس: كنت أنا وأمي من المستضعفين، الذين عذرهم الله ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ في سبِيلِ اللهِ يَجِدْ في الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثيراً وَسَعَةً﴾ ومن يفارق وطنه هرباً بدينه، يجد في أرض الله مذهباً وملجأً يتحصن فيه، وسعةً في أمر دينه، أو في رزقه ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بيتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ ورسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ ومن يخرج مهاجراً من أرض الشرك فراراً بدينه، وأدركته منيّته قبل بلوغه دار الهجرة ﴿فقد وقع أجره على الله﴾ فقد استوجب الثواب لفراق وطنه وعشيرته ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ ساتراً لذنوب عباده، رحيماً بهم.

﴿وإذَا ضَرَبْتُمْ في الأَرْضِ﴾ وإذا سافرتم في البلاد ﴿فليس عليكم جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُروا من الصَّلاة﴾ فليس عليكم إثم أن تقصروا من ركعاتِ الصلاة، فتصلُّوا الأربع ثنتين، ﴿إنْ خفتم أن يفتنكم الذينَ كفروا﴾ إذا خشيتم فتنة الكفار، باعتدائهم عليكم في سجودكم[1] ﴿إنَّ الكافرينَ كانُوا لكم عَدوّاً مُبيناً﴾ أعداء

---

(١) عن يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب عن قوله تعالى ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقلت قد أمن الناسُ! فقال لي عجبتُ ممَّا عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال صدقةٌ تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته» أخرجه أحمد

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

***

ظاهرين في عداوتهم. ﴿**وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصَّلاةَ**﴾ وإذا كنت يا محمد مع أصحابك في الحرب، فصليتَ بهم في حال تلاقيهم مع عدوهم، وتزاحف بعضهم على بعض، ﴿**فَلْتَقُم طائفةٌ منهم معك**﴾ فلتصلِّ فرقة من أصحابك معك. وهذه صلاة الخوف إذا كان العدوُّ بين الإمام والقبلة. ﴿**وَلْيأخُذُوا أسلحتهم**﴾ وليحملوا أسلحتهم حذراً من الأعداء ﴿**فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم**﴾ فإذا سجدت الطائفة الأولى، فليكونوا خلفك بإزاء العدو، بعد فراغهم من بقية صلاتهم ﴿**ولتأتِ طائفةٌ أُخرى لم يُصَلُّوا فَلْيصلُّوا معك**﴾ ولتأتِ الطائفة التي كانت بإزاء العدو، التي لم تصلِّ الركعة الأولى، فلْيصلُّوا معك الركعة التي بقيتْ عليك ﴿**ولْيأخذوا حِذْرهم وأسلحتهم**﴾ لقتال عدوهم بعد فراغهم من صلاتهم ﴿**ودَّ الذينَ كفروا لَوْ تَغْفُلونَ عن أسلحتكم وأمتعتكم**﴾ تمنَّى الكفار لو تشتغلون بصلاتكم عن أسلحتكم وحوائجكم فتسهون عنها. ﴿**فيميلون عليكم مَيْلَةً واحدة**﴾ فيحملون عليكم حملةً واحدة، فيقتلونكم وأنتم مشغولون بصلاتكم، فلا تُصلُّوا جميعكم بصلاتكم، فتمكِّنوا عدوكم من أنفسكم. ﴿**ولا جُناحَ عليكم إن كان بكم أذى من مطرٍ أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم**﴾ ولا إثم عليكم إن أصابكم مطرٌ ونالكم به أذى، أو كنتم جرحى أن تضعوا أسلحتكم إن ضعفتم عن حملها. ﴿**وخذوا حِذْركم**﴾ احترسوا من عدوكم لئلا يميلوا عليكم وأنتم غافلون. ﴿**إنَّ اللهَ أَعَدَّ للكافرينَ عذاباً مُهيناً**﴾ هيأ لهم عذاباً مذلاً لا يخرجون منه، هو عذاب جهنم ﴿**فإذا قضيتُم الصَّلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم**﴾ فإذا فرغتم من صلاتكم، فاذكروا الله على كل أحوالكم ـ قياماً وقعوداً ومضطجعين على جنوبكم ـ اذكروه بالتعظيم والدعاء، بأن يظفركم وينصركم على أعدائكم[1] ﴿**فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة**﴾ فإذا زال خوفكم

(١) قال ابن عباس: ما فرض الله على عباده فريضة، إلا جعل لها حداً معلوماً غير الذكر فقال ﴿فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾ بالليل والنهار، وفي البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسِّر والعلانية، وعلى كلِّ حال.

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

***

واطمأنت أنفسكم بالأمن، فأتموا الصلاة بحدودها كما أمركم ربكم ﴿إنَّ الصَّلاة كانتْ على المؤمنين كتاباً موْقُوتاً﴾ فرضاً مفروضاً في أوقاتٍ محدَّدة ﴿ولا تَهِنُوا في ابْتِغَاءِ القوْمِ﴾ لا تضعفوا في طلب عدوكم ﴿إنْ تكونُوا تَألمونَ فإنَّهمْ يألمون كما تألمونَ﴾ إن تكونوا تتوجعون من الجراح، فإنهم يتوجعون ممَّا نالهم من الجراح والأذى كما تتوجعون أنتم[1] ﴿وترجونَ من الله ما لا يرجون﴾ وترجون من الثواب ما لا يرجونه هم، لأنكم توقنون بثواب الله، وهم به مكذّبون ﴿وكان اللهُ عَليماً حكِيماً﴾ عليماً بمصالح خلقه، حكيماً في تقديره وتدبيره.

﴿إنَّا أنزلنا إليكَ الكتاب بالحقِّ﴾ نحن أنزلنا إليك يا محمد القرآن بالحقِّ ﴿لتحكم بين النَّاس بما أراكَ اللهُ﴾ لتقضي بين الناس، بما أمرك الله به في كتابه ﴿ولا تكنْ للخائنين خصيماً﴾ لا تكن لمن خان أحداً في نفسه أو ماله، خصيماً تخاصم عنه وتدافع[2] ﴿واستغفر الله إنَّ اللهَ كَانَ غفُوراً رحيماً﴾ واستغفر ربك ممَّا سلف من خصومتك عن هذا الخائن، إن الله يصفح عن ذنوب عباده المؤمنين ويرحمهم ﴿ولا تجادلْ عن الذينَ يختانون أنفسهم﴾ ولا تخاصم يا محمد عن الذين يخونون أنفسهم بالسرقة وأكل الوديعة. ﴿إنَّ الله لا يحبُّ من كان خَوَّاناً أثيماً﴾ لا يحب من يخون الناس في أموالهم، ويرتكب الآثام والمعاصي. ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتخفونَ مِنَ اللهِ﴾ يستخفون بقبائحهم مِنَ الناس حياءً وحذراً، ولا يستخفون من الله الذي هو مطَّلع عليهم، وبيده العقاب وتعجيل العذاب، وهو أحقُّ أن يُستحيا منه. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ والله شاهدهم ﴿إذْ يُبيِّتُونَ ما لا يَرْضَى من الْقَوْل﴾ حين يدبّرون ليلاً ما لا يرضاه الله من القول ﴿وكَانَ اللهُ بما يعملُونَ مُحِيطاً﴾ والله جل وعلا مطَّلعٌ

(١) هذه تسلية لأصحاب النبي ﷺ لما نالهم يوم أحد

(٢) نزلت الآيات في قصة «طُعمة بن أبيرق» سرق درعاً وخبأه عند اليهودي، ثم اتهم اليهودي بأنه هو الذي سرقه الخ، انظر تفصيل القصة في كتابنا «صفوة التفاسير» ١ / ٥٢٠ ومختصر ابن كثير ١ / ٦٣٤

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

***

على إجرامهم، محصٍ لأعمالهم وسيجازيهم عليها. ﴿ها أنتُمْ هَؤُلاء جَادَلْتُمْ عنهمْ في الحياةِ الدنيا﴾ ها أنتم يا معشر المجادلين خاصمتم عن الخائنين في الحياة الدنيا ﴿فمنْ يجادلُ اللهَ عنهم يوم القيامةِ﴾؟ فمن يخاصم الله ويدافع عنهم في الآخرة؟ ﴿أمْ مَنْ يكونُ عليهمْ وكيلاً﴾ ومن ذا الذي يتوكل في الدفاع عنهم يوم القيامة؟ ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسَهُ﴾ ومن يرتكب ذنباً، أو يظلم نفسه باكتساب ما يستحق به العقوبة ﴿ثم يَسْتَغفرِ اللهَ﴾ ثم يتوب إلى الله ﴿يجد اللهَ غفوراً رحيماً﴾ يجد ربَّه ساتراً لذنبه، رحيماً به ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إثْماً فإنَّما يَكْسِبُهُ على نَفْسِه﴾ ومن يجترحْ ذنباً على عمدٍ منه، فإنَّ وبال ذلك الذنب وخزيه يعود على نفسه ﴿وكانَ اللهُ عليماً حكيماً﴾ عليماً بخلقه، حكيماً في تدبيره ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خطيئةً أو إثماً ثم يرمِ بِهِ بريئاً﴾ ومن يأت ذنباً على غير عمدٍ منه، أو معصيةً على عمدٍ منه، ثم يتهم بما اقترف شخصاً بريئاً. ﴿فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ فقد تحمَّل بذلك كذباً وزوراً، وجرماً عظيماً ﴿ولولا فضلُ اللهِ عليك ورحمتُه﴾ ولولا فضل الله عليك يا محمد، وعصمته لك بتوفيقه وإظهاره أمر الخائن ﴿لهمَّت طائفةٌ منهم أنْ يُضِلُّوكَ﴾ لهمَّت فرقةٌ منهم أن يُزلُّوك عن طريق الحقِّ، بتلبيسهم عليك أمر الخائن، وشهادتهم بأنه بريء ﴿وما يُضِلُّونَ إلاّ أنْفُسَهم﴾ فإن وبال إضلالهم راجع إليهم ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ وما يضرك هؤلاء شيئاً، لأن الله مثبِّتك ومسدِّدك ﴿وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتاب والحكمةَ﴾ وأنزل عليك ربك القرآن والحكمة، وهي العلم بأحكام الله[1] ﴿وعلَّمك ما لم تكن تعلم﴾ من خبر الأولين والآخرين ﴿وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾ فاشكره على ما أولاك بـه من إحسانه

(١) قال الطبري الحكمةُ العلم بأحكام الله التي لا يُدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ

* لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ

***

﴿لا خير في كثير من نجواهم﴾ لا خير في كثير من نجوى[1] الناس ﴿إلَّا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين النَّاسِ﴾ إلا إذا كان التناجي بأعمال البر والخير، من الصدقة، والمعروف، والإصلاح بين المتخاصمين، ﴿ومَنْ يَفْعلْ ذلكَ ابتغاء مرضاةِ اللهِ﴾ ومن يَفْعل ذلك الخير طلب رضى الله ﴿فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ فسوف نعطيه جزاء عمله، ثواباً جزيلاً لا يعلم قدره إلا الله ﴿ومَنْ يُشاقِقِ الرسُولَ من بعد ما تبيَّنَ له الهُدَى﴾ ومن يعاد الرسول ويخالف أمره، من بعد ما ظهر له الحقُّ وأنه رسول الله ﴿وَيَتَّبعْ غير سبيل المؤمنينَ﴾ ويتَّبع طريقاً ومنهاجاً، غير طريق المؤمنين ومنهاجهم[2] ﴿نُوَلِّه ما تولَّى ونُصْلِهِ جهنم﴾ نتركه وما استعان به من الأوثان والأصنام، ونحرقه بنار جهنم ﴿وسَاءَتْ مَصِيراً﴾ وساءت جهنم مسكناً ومأوى لهؤلاء. ﴿إنَّ اللهَ لا يغفر أن يشركَ به﴾ لا يغفر الكفر والإشراك بالله ﴿ويغفر ما دونَ ذلكَ لمن يشاءُ﴾ ويغفر سائر الذنوب ـ غير الإشراك ـ لمن يشاء من عباده ﴿وَمَنْ يشركْ بالله فقدْ ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ ومن يجعل لله شريكاً فقد حاد عن طريق الحق، وذهب عنه ذهاباً بعيداً ﴿إن يدعون من دونه إلَّا إناثاً﴾ ما يدعون بعد الله وسواه إلا أوثاناً سمُّوها آلهة، كاللَّات والعُزَّى ومناة، فحسبُ هؤلاء ضلالاً أنهم يعبدون إناثاً، ويدعونها آلهةً وأرباباً. ﴿وإنْ يدعون إلَّا شيطاناً مريداً﴾ وما يدعون إلا شيطاناً متمرداً على الله ﴿لَعَنَهُ اللهُ﴾ أخزاه الله وأبعده عن رحمته ﴿وقال لأتخذنَّ من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ وقال الشيطان لربه حين لَعَنه: لأضلنَّ من عبادك عدداً وافراً معلوماً، بتزيين الكفر والضلال لهم حتى يتَّبعوني ﴿ولأُضلَّنَّهُمْ ولأمنِّيَنَّهم﴾ ولأضلنَّهم عن محجة الهدى، ولأزيغنهم عن طاعتك بالأماني ﴿ولآمرنَّهم فليبتِّكُنَّ آذانَ

---

(١) النجوى حديث الناس الذي يتحدثونه بينهم

(٢) هذه الآية دليلٌ واضح على من استدل من العلماء بحجية الإجماع، فإن هذه الأمة المحمدية لا تجتمع على ضلالة كما ورد في الصحيح.

ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

***

الأنْعَام﴾ ولآمرنهم بتشقيق آذان الأنعام بحيرةً لطواغيتهم. **قال قتادة**: كانوا يشقون آذانهم لطواغيتهم، كما شرع لهم إبليس، **﴿ولآمرنَّهم فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾** بالخِصاء، والوشْم وغير ذلك[1]. **﴿ومن يَتَّخِذ الشيطانَ ولياً من دون اللهِ﴾** ومن يتّبع الشيطان فيطيعه في معصية اللهِ، ويتخذه نصيراً من دون الله **﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبيناً﴾** خسر خسارة فادحة لمصيره إلى النار المؤبدة **﴿يعدهم ويُمَنّيهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً﴾** يعدهم الشيطان بالنصرة والدفاع عنهم، ويمنيهم بالظفر على خصومهم، وما يعدهم إلّا باطلاً **﴿أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً﴾** مصيرهم الذي يصيرون إليه جهنم، ولا يجدون عنها معدلاً ولا مهرباً. **﴿والذين آمنوا وعملوا الصَّالحاتِ سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾** والذين صدَّقوا الله ورسوله، وأدَّوا ما فرض الله عليهم، سوف ندخلهم بما عملوا من الصالحات ـ بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهارُ الجنة. **﴿خالدينَ فيها أبداً﴾** باقين في هذه الجنات دائماً أبداً. **﴿وَعْدَ اللهِ حقاً﴾** وعداً من الله يقيناً صادقاً، لا كمواعيد الشيطان الكاذبة. **﴿وَمَنْ أَصْدَقُ من اللهِ قيلاً﴾**؟ ومن أصدقُ من الله قولاً؟ لا أحد أصدق منه تعالى. **﴿ليس بِأَمَانِيّكُمْ ولا أمانِيِّ أهلِ الكتابِ﴾** ليس الأمر بأمانيكم يا معشر الكفار، ولا أمانيِّ أهل الكتاب. **قال مجاهد**: قالت قريش: لن نُبعث ولن نُعذَّب، وقالت اليهود والنصارى «لن يدخل الجنة إلّا من كان هوداً أو نصارى» فنزلت: **﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾** من يرتكب صغيرة أو كبيرة، يجازه الله بها. **﴿ولا يَجِدْ لهُ من دونِ اللهِ ولياً ولا نصيراً﴾** ولا يجد له من بعد الله ولياً يتولى أمره، ولا ناصراً ينصره من عذاب الله.

---

(١) في الصحيح عن ابن مسعود «لعن الله الواشماتِ والمستوشمات، والنَّامصات والمتنمِّصَات، والمتفلِّجات للحسن المغيِّرات خَلْق الله» النامصة: التي تنتف الشعر من الوجه، والمتفلِّجة: التي تبرد أطراف أسنانها للتجميل، وقد ظهر في هذا الزمان أشياء من مظاهر الفتنة والإغراء تهون هذه بالنسبة لها، من إطالة الأظافر وطليها بالمناكير، وتكديس الشعور المستعارة، واستعمال «المكياج» الذي يجعل العجوز الشمطاء صبيَّة هيفاء، ونعوذ بالله من كيد إبليس اللعين

(٢) روي أن أهل الأديان افتخروا، فقال اليهود كتابنا خير الكتب ونبينا أكرم الأنبياء! وقالت النصارى: ديننا خير الأديان ونبينا أفضل الرسل! =

وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

***

﴿ومَنْ يَعْمَلْ من الصَّالِحَاتِ من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ﴾ يعمل الأعمال الصالحة بشرط الإيمان **﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيراً﴾** ولا يُظلمون من ثواب أعمالهم، مقدار النقرة التي تكون في ظهر النواة. **﴿ومَنْ أحسنُ ديناً ممَّنْ أَسْلَمَ وجهه للهِ وهو محسنٌ﴾** ومن أحسن ديناً ممن انقاد لله بالطاعة، وهو عاملٌ بأوامر الله مجتنبٌ لمحارمه؟ **﴿واتَّبعَ مِلَّةَ إبراهِيمَ حنيفاً﴾** واتَّبع دين إبراهيم خليل الرحمن، مستقيماً على منهاجه وسبيله **﴿واتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خليلاً﴾** اتخذه ربه خليلاً لإخلاصه، ومسارعته في محبته ورضاه. وهذا قضاءٌ من الله للمسلمين وأهله بالفضل على سائر الملل، لأنهم على ملة إبراهيم **﴿وللهِ ما في السمواتِ وما في الأرض وكان الله بكل شيءٍ محيطاً﴾** محصياً لأعمال العباد، لا يخفى عليه شيءٌ منها.

﴿ويستفتونك في النِّساءِ قلِ اللهُ يُفتيكم فيهنَّ﴾ يسألك أصحابك يا محمد أن تفتيهم في أمر النساء، وما الواجب لهن وعليهن؟ قل لهم: اللهُ يفتيكم في أمرهنَّ **﴿وما يُتْلَى عَلَيْكُم في الكتابِ في يَتَامَى النِّساءِ اللَّاتي لا تؤتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لهُنَّ وترغبونَ أنْ تَنْكِحوهنَّ﴾** ويفتيكم في ما يُتلى عليكم في كتاب الله الذي أنزله على نبيه، في أمر يتامى النساء اللاتي لا تعطونهنَّ ما فرض الله لهن من الميراث، وترغبون في نكاحهنَّ، قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً حتى تموت، فإذا ماتت ورثها، فحرَّم الله ذلك ونهى عنه **﴿والمستضعفين من الوِلْدانِ﴾** ويفتيكم في أمر المستضعفين من الولدان، أن تؤتوهم حقوقهم من الميراث **﴿وأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ﴾** وأن تعطوا اليتامى حقوقهم بالعدل[1]، فقد كانوا لا يورِّثون الصغار من أولاد الميت. **﴿وما تفعلوا من خير فإنَّ اللهَ كانَ بهِ عليماً﴾** ومهما تفعلوا من طاعة

= وقال المسلمون نبينا سيد الأنبياء وديننا خير الأديان فنزلت ﴿ليس بأمانيكم . .﴾ الآية .

(١) قال ابن عباس : كانوا لا يورِّثون الصغار ولا البنات ، فأمرهم الله تعالى أن يعطوا كلًّا نصيبه من الميراث .

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

***

ومعروف، فإن الله يعلمه ويحصيه لكم حتى يجازيكم به يوم القيامة ﴿وإنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أو إعْراضاً﴾ وإن خافت امرأةٌ من زوجها استعلاءً بنفسه عنها، لبغضٍ لها لدمامتها أو كبر سنها، أو إعراضاً بصرف وجهه عنها. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً﴾ فلا حرج على الرجل والمرأة أن يتصالحا بينهما على شيء[1]، بترك بعض الحقِّ استدامة لعقد النكاح ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والصلح خيرٌ من طلب الفرقة والطلاق ﴿وأُحضِرَتِ الأنفُسُ الشُّحَّ﴾ وأُحضرت نفس النساء الشُّحّ بحقوقهن من أزواجهنّ[2] في القسم والنفقة، والشحُّ الإفراط في الحرص ﴿وإنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فإنَّ اللَّهَ كانَ بما تَعْملونَ خبيراً﴾ وإن تحسنوا إلى نسائكم، وتتقوا الله فيهن بترك الجَوْر، والنفقة والعشرة بالمعروف، فإن الله عالمٌ بما تعملون، وسيجازيكم عليها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ ولو حَرَصْتُمْ﴾ لن تستطيعوا ـ أيها الرجال ـ أن تعدلوا بين أزواجكم في المحبة والهوى، ولو حرصتم في ذلك[3] ﴿فلا تَمِيلُوا كلَّ المَيْلِ فَتَذَرُوهَا كالْمُعَلَّقةِ﴾ فلا تميلوا بأهوائكم إلى بعضهن، وتتركوا بعضهن حتى تصبح الواحدة كالمعلَّقة التي ليست بذات زوج، ولا مطلَّقة أمر تعالى الرجال بالعدل بين أزواجهن فيما استطاعوا من القسمة، والنفقة، والمعاشرة بالمعروف، وصفح لهم عما لا يطيقونه مما في القلوب من المحبة والهوى ﴿وإنْ تُصْلِحوا وتَتَّقوا فإنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وإن تعدلوا في قسمكم، وتتقوا ربكم فيما كلَّفكم به، فإن الله يستر عليكم ما سلف ويرحمكم ﴿وإنْ يتفرَّقا يُغنِ اللَّهُ كلاًّ من سَعَتِهِ﴾ وإن يتفرَّق الزوجان بالطلاق، فإن الله تعالى يغني كلَّ واحد منهما من سعة فضله، برزقٍ أوسع، وزوجٍ أصلح. ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ واسعاً في عطائه ورزقه، حكيماً في تدبيره وصنعه

---

(١) قالت عائشة هذا الرجل يكون له امرأتان، إحداهما قد عجزت أو هي دميمة، فتقول لا تُطلِّقني وأنتَ في حلٍّ من شأني

(٢) وقيل إن المعنى أحضرت نفسُ كل واحدٍ من الرجل والمرأة الشح بحقه قِبَل صاحبه، واختار الطبري الأول.

(٣) المراد بالعدل في الآية الكريمة العدلُ في المحبة القلبية فقط، وإلاّ لتناقض النص الكريم مع قوله تعالى ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع .﴾ الآية وقد كان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول «اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تؤاخذني فيما تملكُ ولا أملك» يعني بذلك المحبة القلبية، ويؤيده قوله تعالى ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ ولا عبرة بما يقوله أنصاف المتعلمين، الذين يتسمون بالمجددين، من وجوب التزوج بواحدة فقط بدليل هذه الآية فإن هذا باطل محضٌ والغرض منه تقليد الأجانب، وكفانا الله شرَّ الجهلاء.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

***

﴿ولله ما في السموات وما في الأرض﴾ ولله ملك جميع ما في السموات وما في الأرض من الأشياء. ﴿وَلَقَدْ وصَّيْنَا الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإيّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ ولقد أمرنا أهل التوراة والإنجيل وأمرناكم بتقوى الله. ﴿وإنْ تَكْفُرُوا فَإنَّ للهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرْضِ﴾ وإن تجحدوا وحدانية الله وتخالفوا وصيته، فإنكم لا تضرون ربكم، لأن له ملك جميع ما في السموات والأرض ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ غنياً عن خلقه، محموداً في صنائعه وآلائه ﴿ولله ما في السَّمَواتِ وما في الأَرْضِ وَكَفى باللهِ وَكيلاً﴾ كفى به حافظاً، ومدبراً لشؤون العباد ﴿إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ويأْتِ بآخَرينَ﴾ لو شاء لأهلككم وأفناكم، وجاء بخلقٍ آخرين غيركم. ﴿وَكَانَ اللهُ على ذلك قديراً﴾ قادراً على إهلاككم، واستبدال آخرين بكم. ﴿مَنْ كَانَ يُريدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الدُّنْيا والآخِرةِ﴾ من كان يريد بعمله أجر الدنيا فقط، فليعلم أن الله عنده أجر الدنيا والآخرة[١] ﴿وكان الله سميعاً بصيراً﴾ سميعاً لأقوال العباد، بصيراً بأعمالهم. ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسطِ﴾ كونوا قائمين بالعدل في أحكامكم. ﴿شهداءَ للهِ ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ شهداء للهِ بالحق، ولو كانت شهادتكم على أنفسكم، أو آبائكم وأمهاتكم وأقاربكم، ﴿إن يكنْ غنياً أو فقيراً﴾ أن يكن المشهود له غنياً أو فقيراً، فلا يحملنكم غناه أو فقره على الشهادة له بالزور ﴿فاللهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ هو أولى بهما منكم، وأعلم بما فيه صلاحهما. ﴿فلا تَتَّبعوا الهوى أنْ تَعْدِلوا﴾ لا يحملنكم الهوى على ترك العدل في أموركم ﴿وَإنْ تَلْوُوا أو تُعْرضوا فإنَّ اللهَ كَانَ بما تَعْملونَ خَبيراً﴾ وإن تحرِّفوا الشهادة وتغيِّروها، أو تكتموها فلا تشهدوا بها،

---

(١) ذهب الطبري إلى أن الآية في المنافقين، ومعناها أن الله يجازيه في الدنيا من الدنيا، وفي الآخرة من الآخرة بالعقاب والنكال.. والآية أعمُّ وأشمل والمعنى: لم يطلب الأخسَّ الأدنى ولا يطلب الأعلى؟ فعند الله ما هو أسمى وأغلى وهو أجر الدنيا والآخرة، وهذا رأي ابن كثير.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾

***

فإن اللهَ مطَّلع على أعمالكم وسيجازيكم عليها ﴿يا أيها الذين آمَنُوا آمِنُوا باللهِ ورسُولِهِ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا بالتوراة والإنجيل[١]، آمنوا بالله وبمحمد ﷺ الذي تجدون صفته في كتبكم ﴿والكتاب الذي نَزَّلَ على رسوله﴾ وبالقرآن الذي نزَّله على محمد ﷺ ﴿والكتاب الذي أنزل من قبلُ﴾ وبالتوراة والإنجيل التي تزعمون أنكم بها مؤمنون. ﴿ومَنْ يَكْفُرْ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخِرِ﴾ ومن يكفر بمحمد ﷺ وبشيء مما أمره الله بالإيمان به ﴿فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ فقد خرج عن قصد السبيل، وذهب عن طريق الهدى إلى المهالك ذهاباً بعيداً. ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنُوا ثم كَفَرُوا﴾ هم المنافقون آمنوا ثم ارتدوا[٢] ﴿ثم آمنوا ثم كَفَرُوا﴾ ثم آمنوا ثم ارتدوا مرة ثانية. ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بموتهم على الكفر. ﴿لم يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ لن يغفر الله لهم ذنوبهم، ولن يرشدهم إلى طريق الحق. ﴿بشِّرِ المنافقين بأنَّ لهم عذاباً أليماً﴾ أخبر[٣] يا محمد المنافقين بأنَّ لهم يوم القيامة عذاباً شديداً موجعاً، وهو عذاب جهنم. ﴿الَّذين يَتَّخِذُونَ الكافِرينَ أَوْلياءَ مِنْ دُونِ المُؤْمنينَ﴾ الذين يتخذون أهل الكفر والإلحاد، أنصاراً وأخلاء من غير المؤمنين. ﴿أيبتغون عندهم العِزَّةَ﴾ أيطلبون عند الكافرين المَنَعَةَ والقوة، باتخاذهم أولياء من دون أهل الإيمان؟ ﴿فإنَّ العِزَّةَ للهِ جميعاً﴾ فإن المنعة والنصرة من عند الله الذي له العزة والمنعة[٤]، فهلاَّ

---

(١) هذا ما ذهب إليه الطبري ، وذهب ابن كثير إلى أن هذا من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته كما يقول المؤمن ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي ثبتنا عليه فكذلك هنا يا أيها الذين آمنوا اثبتوا على الإيمان

(٢) هذا قول مجاهد وهو الأظهر أنها في المنافقين ، ورجَّح الطبري أنها في اليهود والنصارى

(٣) أصل البشارة الخبرُ السارُّ ، واستعمالها هنا في الشر للسخرية والتهكم

(٤) هل عرف الذين يسيرون في ركاب الشرق أو الغرب أين تكون العزة والنصرة ؟ ومتى يمنحهم الله العزة والسيادة ؟ إنها تأتي بموالاة المؤمنين ، لا بموالاة الكفرة المجرمين

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ

***

اتخذوا الأولياء من المؤمنين حتى يعزهم الله؟ ﴿وقد نَزَّلَ عليكم في الكتاب﴾ نزّل عليكم في القرآن العظيم ﴿أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بها ويُسْتهزأ بها﴾ بأنه إذا سمعتم من يسخر ويهزأ بآيات القرآن. ﴿فلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غيرِهِ﴾ فلا تجلسوا معهم حتى يتحدثوا حديثاً غيره. ﴿إنكم إذاً مثلُهُمْ﴾ إن جالستم من يكفر بآياتِ الله ويستهزىء بها، فأنتم مثلهم في ارتكابكم معصية الله ومخالفتكم أمره ﴿إنَّ اللهَ جامعُ المنافقينَ والكافرينَ في جَهَنَّمَ جَميعاً﴾ جامع الفريقين ـ المنافقين والكافرين ـ في نار جهنَّم، كما اتفقوا في الدنيا على عداوة المؤمنين. ﴿الذين يتربصون بكم﴾ ينتظرون بكم السُّوء ﴿فإن كان لكم فتحٌ من اللهِ﴾ إن كان لكم النصر على عدوكم، وغنمتم منهم ﴿قالوا ألم نكن معكم﴾؟ قالوا: ألم نجاهد معكم الأعداء، فأعطونا من الغنيمة؟ ﴿وإن كان للكافرين نصيبٌ﴾ وإن كان لأعدائكم حظٌ منكم، وظفرٌ عليكم. ﴿قالوا ألم نَسْتَحْوِذْ عليكُمْ ونمنعكم من المؤمنين﴾ قالوا للكافرين: ألم نساعدكم ونغلب عليكم بما أبديناه، حتى قهرتم المؤمنين؟ ﴿فاللهُ يحكم بينكم يوم القيامة﴾ يفصل بين المؤمنين والمنافقين بحكمه العادل ﴿ولَنْ يَجْعَلَ اللهُ للكافرينَ على المؤمنين سبيلاً﴾ حجةً يحتجون بها عليهم يوم القيامة[1] وهذا وعدٌ من الله بأنه لن يُدخل المنافقين مدخل المؤمنين في الجنة، ولن يُدخل المؤمنين النار، فيكون للكافرين على المؤمنين حجة بأن يقولوا لهم: ماذا نفعكم الإيمان؟ ﴿إنَّ المنافقين يخادعونَ الله﴾ يخادعون اللهَ[2] بإظهار الإيمان وإبطان الكفر حقناً لدمائهم. ﴿وهو خادعهم﴾ بإجراء أحكام المسلمين عليهم استدراجاً لهم، حتى يردوا نار جهنم. ﴿وإذا قاموا إلى الصَّلاة قاموا

---

(١) قال ابن كثير ويحتمل أنه في الدنيا ! بأن يُسلَّطوا عليهم تسليط استئصال بالكلية

(٢) الله جل وعلا لا يُخدع، ولكنَّ المنافقين لجهلهم وقلة عقلهم، يظنون أن أمرهم كما راج عند الناس يروج عنده تعالى، لأنه لم يأمر بقتلهم كما أمر بقتل الكافرين، وهذا سفهٌ منهم وحماقة، فإنه العالم بالسرائر والضمائر

وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

***

كُسَالَى﴾ إذا قاموا لأداء الصلاة، قاموا إليها متثاقلين[١] **قال قتادة**: واللهِ لولا الناسُ ما صلَّى المنافق، ولا يصلّي إلا رياءً وسمعة. **﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾** يصلُّون رياءً للمؤمنين، لأنهم لا يوقنون بمعاد، ولا بثواب وعقاب **﴿ولا يذكرون اللهَ إلا قليلاً﴾** ولا يذكرون اللهَ إلا ذكر رياء، لا ذكر موقن مصدِّق بتوحيد الله **﴿مُـذَبْـذَبِينَ بَيْنَ ذلـكَ﴾** متـردِّدين بين الكفـر والإيمـان **﴿لا إلى هَؤُلَاءِ ولا إلى هَؤُلاءِ﴾** ليسوا مع المؤمنين فيظهروا إيمانهم، ولا مع المشركين فيصرِّحـوا بشركهم، ولكنهم حيارى كالشاة المتردِّدة بين قطيعين **﴿ومن يُضْلِلِ اللهُ فلن تجد له سبيـلاً﴾** ومن لم يوفقـه الله إلى طريق الرشاد، فلن تجد له طريقاً يوصله إلى الحق **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾** لا توالوا الكفار وتصاحبوهم، من دون أهل دينكم، فتكونوا ممن وجبت لهم النار **﴿أتريدون أنْ تجعلوا لله عليكم سُلْطاناً مبيناً﴾** أتريدون أن تكون لله حجة ظاهرة عليكم، فتتعـرضوا لغضب الله، وتستـوجبـوا مـا استـوجبـه أهـل النفـاق من العـذاب؟ **﴿إنَّ المنافقينَ في الدَّرْكِ الأسفلِ من النَّارِ﴾** في الطَّبَق الأسفل من أطباق جهنم **﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾** ناصراً ينصرهم من عذابه، ويرفع عنهم أليم عقابه **﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا﴾** إلاَّ الذين رجعوا إلى الحق، وأصلحوا أعمالهم **﴿واعتصموا باللهِ﴾** وتمسكوا بعهد الله **﴿وأخلَصوا دينهم للهِ﴾** أخلصوا العمل لله، وتبرءوا من الرياء والنفاق **﴿فـأولئك مـع المؤمنين﴾** يسكنهم معهم في الجنة **﴿وسوف يؤتِ اللهُ المؤمنين أجراً عظيماً﴾** يعطيهم على إيمانهم ثواباً عظيـماً، وذلك برفع درجاتهم في الجنة. **﴿ما يفعل اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾** ما يصنع الله بعذابكم، إن شكـرتم نِعَمه وآمنتم بـرسولـه؟ **﴿وكانَ اللهُ شـاكـراً عليمـاً﴾** شاكـراً طاعـة عبـاده، عليمـاً

(١) التثاقل عن الصلاة من صفات المنافقين، فليحذر المؤمنون هذه الآية وليقوموا إلى الصلاة برغبة ونشاط، فإنها راحة لقلب المؤمن كما قال ﷺ «وجعلت قرة عيني في الصلاة»

* ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ

***

بما يعملون من صالح وطالح، ومجازيهم عليها. ﴿لا يحبُّ الله الجهر بالسُّوء من القَوْل إلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ لا يحب الله أن يجهر أحدٌ لأحدٍ بالقول السيء، إلا المظلوم فلا حرج عليه أن يُخبر بما أسيء إليه ﴿وكان اللهُ سميعاً عليماً﴾ سميعاً لأقوال العباد، عليماً بما يخفون في نفوسهم. ﴿إن تُبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوءٍ فإن الله كان عفواً قديراً﴾ إن تُظهروا - أيها الناسُ - الجميل من القول، أو تستروه، أو تصفحوا عمن أساء إليكم، فإن الله يصفح عمن عصاه مع قدرته على الانتقام منه، فاعفوا أنتم عمن أساء إليكم ﴿إنَّ الذينَ يكفرونَ باللهِ ورُسلِهِ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿وَيُريدُونَ أنْ يُفرِّقُوا بين اللهِ ورسلِهِ﴾ بزعمهم أن الرسل كذبوا على ربهم. ﴿ويقولونَ نُؤمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُر ببعْضٍ﴾ ويقولون: نصدِّق ببعض الرسل ونكذِّب ببعض، كما فعل اليهود حيث كذَّبوا عيسى ومحمداً وصدَّقوا موسى، وكما فعل النصارى حيث صدَّقوا عيسى وسائر الأنبياء قبله، وكذبوا محمداً ﷺ ﴿وَيُريدونَ أنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ طريقاً وسطاً بين الهدى والضلال. ﴿أولئك هم الكافرون حقاً﴾ هؤلاء هم أهل الكفر على وجه اليقين، لأن من صدَّق ببعض الرسل وكذَّب ببعض، فهو كافر بالله لتكذيبه رسله ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ وهيأنا لمن جحد بالله ورسوله عذاباً يُهين من عُذِّب به. ﴿والذينَ آمنوا باللهِ ورسله ولم يفرِّقوا بين أحدٍ منهم﴾ والذين صدَّقوا بوحدانية الله، وأقروا بنبوة جميع الرسل، ولم يكذِّبوا بعضهم ويصدقوا بعضهم. ﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ هؤلاء المؤمنون سوف يعطيهم جزاءهم وثوابهم ﴿وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً﴾ غفوراً لذنوب عباده، رحيماً بهم. ﴿يسألك أهلُ الكتاب أنْ تُنزِّل عليهم كتاباً من السَّماءِ﴾ يسألك اليهود يا محمد أن تسأل ربك، أن يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء، آية معجزةً تدل على صدقك[1] ﴿فقدْ سألُوا مُوسَى أكبر مِنْ

(١) سأل اليهود ذلك على سبيل التعنت والعناد، والكفر والإلحاد، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك

بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

***

ذَلِكَ﴾ فقد سأل أسلاف اليهود نبيَّهم موسى أعظم مما سألك هؤلاء. ﴿فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً﴾ فقالوا: أرنا اللهَ عِيَاناً ننظرإليه. ﴿فَأَخذتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ فصُعِقوا ـ أي ماتوا ثم أحياهم الله بدعوة موسى ـ بطغيانهم وبغيهم ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ ثم اتخذوا العجل إلٰهاً يعبدونه من دون الله، من بعد ما جاءتهم الدلائل الواضحات على قدرة الله ووحدانيته ﴿فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ فعفونا عن إجرامهم بعبادتهم العجل، وأعطينا موسى حجة واضحة تُبين عن صدقه، وهي المعجزات الباهرات التي أيَّده الله بها. والآية توبيخٌ وتقريعٌ لليهود على تعنتهم مع الرسول ﷺ وتسليةٌ له عمَّا يلقاه من أذاهم، ثم قصَّ عليه بعض جرائمهم فقال: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ ورفعنا فوقهم جبل الطور، بما أعطوا الله الميثاق والعهد، على العمل بما في التوراة ﴿وقلنا لهم ادخلوا البَابَ سُجَّداً﴾ ادخلوا باب «ببيت المقدس» ساجدين شكراً لله، فبدَّلوا ودخلوا يزحفون على مقاعدهم[1]. ﴿وقلنا لهم لا تَعْدوا في السبتِ﴾ لا تتجاوزوا أمر الله فتصطادوا يوم السبت، فخالفوا واصطادوا ﴿وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ عهداً شديداً مؤكداً، على العمل بما في التوراة ﴿فَبِمَا نَقْضِهِـمْ ميثَاقَهُمْ﴾ فبنقض اليهود العهد المأخوذ عليهم بالعمل بما في التوراة ﴿وكفرهمْ بآياتِ اللهِ﴾ وجحودهم الآيات الدالة على صدق الأنبياء والرسل ﴿وقتلِهِمُ الأنبياء بغير حقٍّ﴾ وقتلهم أنبياء الله، بغير ذنب ولا خطيئة استوجبوا بها القتل. ﴿وقولِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ عليها غِشاوة وأغطية، فلا نفقه ما تقول ولا نعقله ﴿بل طَبَعَ اللهُ عليها بكفرهم﴾ ختم عليها بالضلالة والشقاوة بسبب كفرهم. وهذا تكذيبٌ من الله لهم في قولهم: «قلوبُنا غلفٌ» ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، لأن قلوبهم تعودت على الكفر والطغيان. ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ ويكفرهم ورميهم مريم بالزنى، من غير حجة ولا برهان.

---

(١) روى البخاري أنّ بني اسرائيل قيل لهم: «ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حطّة» فدخلوا يزحفون على أستاههم ـ مقاعدهم ـ فبدَّلوا وقالوا: «حبة في شعرة» وفي رواية حنطة.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

***

﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريمَ رسولَ الله﴾ وبقولهم: نحن قتلنا عيسى رسول الله[١]. ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكنْ شُبِّه لهم﴾ وما قتلوا عيسى ولا صلبوه، ولكنْ صلبوا شبهه، قال مجاهد: صلبوا رجلاً غير عيسى يظنونه إيَّاه، ورفع الله عيسى إليه حياً. ﴿وإنَّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه﴾ وإنَّ اليهود الذين اختلفوا في أمر عيسى، لفي شكٍ من قتله ﴿ما لهم بِهِ من عِلْمٍ إلاّ اتِّبَاعَ الظنِّ﴾ ليس لهم بمن قتلوه علمٌ من هو؟ هل هو عيسى أم هو غيره؟ إلاّ ظناً منهم أنه عيسى الذي يريدون قتله ﴿وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه﴾ وما قتلوا المسيح يقيناً، لأنهم كانوا على ظنٍ منه وشبهة، بل رفعه الله إلى السَّماء[٢] حياً. ﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ عزيزاً في انتقامه من أعدائه، حكيماً في تدبيره وقضائه. ﴿وإنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَاب إلاّ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ وما من أهل الكتاب الا ويؤمن بعيسى ويصدق به، إذا نزل لقتل الدجال قبل موت عيسى، فتصير الملل كلها واحدة وهي ملة الإسلام، قال الحسن: واللهِ إنه الآن لحيٌّ عند الله، وإذا نزل عيسى آمنوا به أجمعون. ﴿ويومَ القيامة يكونُ عليهم شهيداً﴾ ويوم القيامة يكون عيسى شاهداً على من صدَّقه منهم ومن كذَّبه. ﴿فبظلم من الذينَ هَادُوا حرَّمنا عليهم طيباتٍ أُحِلَّتْ لهم﴾ حرَّمنا على اليهود طيباتٍ من المآكل كانت حلالاً لهم، عقوبة لهم بسبب ظلمهم وقتلهم الأنبياء. ﴿وبصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ الله كثيراً﴾ وبصدهم الناس عن دين الله صداً كثيراً. ﴿وَأَخْذَهُم الرِّبا وقد نُهُوا عَنْهُ﴾وأخذهم الربا وقد حرَّمه الله عليهم ﴿وأكلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بالباطل﴾ وأكلهم المال الحرام كالرشى، وأثمان ما حرَّفوه من كتاب الله، وغيرها من المآكل الخبيثة. ﴿وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾وهيأنا للكافرين من

---

(١) هذا منهم على سبيل التهكم والاستهزاء، ولو اعتقدوا أنه رسول الله حقاً لم يقتلوه، وإنما قالوه تهكماً.

(٢) هذه عقيدتنا نحن المسلمين أن عيسى لم يُقتل ولم يُصْلب، وإنما قتل اليهود رجلاً آخر ألقى الله شَبَهه عليه، ورفع عيسى إلى السماء حياً، وسينزل قبل قيام الساعة إلى الأرض، والعجب أن النصارى يعتقدون بألوهية المسيح ثم يقولون إنه صُلب، وما أحسن ما قال الشاعر:

إذا صُلِبَ الإلـهُ بفعل عبدٍ يهوديٍ، فما هذا الإلـه؟

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ * إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ

***

اليهود عذاباً موجعاً، وهو عذاب جهنم. **﴿لكنِ الراسخون في العلم منهم﴾** لكن المتمكِّنون من العلم من اليهود، الذين رسخ العلم في قلوبهم، فعلموا أنك لله رسولٌ، **﴿والمؤمنون يؤمنون بما أُنزل اليكَ وما أُنزل من قبلكَ﴾** والمؤمنون منهم يصدِّقون بالقرآن الذي أنزله الله عليك، وبالكتب التي أنزلها على الرسل قبلك. **﴿والمقيمين الصلاة﴾** والمقيمين الصلاة أخصُّهم بالمدح[1]. **﴿والمؤتون الزكاة﴾** والذين يدفعون زكاة أموالهم إلى الفقراء، طيبةً بها نفوسهم. **﴿والمؤمنون باللهِ واليومِ الآخر﴾** والمصدِّقون بوحدانية الله، وبالبعث بعد الممات. **﴿أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾** هؤلاء المذكورونَ سنعطيهم ثواباً عظيماً على طاعتهم، وذلك الجنة.

﴿إنَّا أوحَيْنا إليكَ كما أوْحَينا إلى نُوحٍ والنَّبيِّينَ من بعدِهِ﴾ إنا أوحينا اليك بالنبوة يا محمد، كما أوحينا إلى نوحٍ وإلى سائر الأنبياء من بعده. **﴿وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾**[2] وأوحينا إلى إبراهيم خليل الرحمن، وابْنَيه«إسماعيل وإسحٰق» وابن ابنه يعقوب بن إسحٰق، وإلى الأسباط نسل يعقوب **﴿وعيسى وأيوبَ ويونس وهارونَ وسليمانَ﴾** وأوحينا كذلك إلى هؤلاء الرسل الكرام **﴿وآتَيْنا داودَ زَبُوراً﴾** وأعطينا داود الزبور، كما أعطيناك يا محمد الفرقان **﴿وَرُسُلاً قد قَصَصْنَاهُمْ عليكَ مِنْ قَبلُ ورُسلاً لم نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾** وأوحينا إلى رسلٍ كثيرين، منهم قد قصصنا عليك أخبارهم، ومنهم من لم نقصص عليك. **﴿وكلَّم اللهُ مُوسَى تَكْليماً﴾** وخاطب الله موسى مشافهةً دون واسطة **﴿رُسُلاً مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرينَ﴾** أرسلنا هؤلاء الرسل مبشرين لمن أطاعني بالثواب، ومنذرين لمن عصاني بالعقاب **﴿لئلا يكونَ للناسِ على اللهِ**

---

(١) اختار الطبري أن « المقيمين الصلاة » منصوب عطفاً على « ما » في قوله ﴿يؤمنون بما أنزل﴾ والمعنى ويؤمنون بالمقيمين الصلاة وهم الملائكة، كما ذكر الوجه الذي اخترناه

(٢) ذكر تعالى في هذه الآية مشاهير الرسل الكرام من ذرية نوح وإبراهيم، وبدأ بخاتم المرسلين تشريفاً لمقامه العظيم

حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا

***

حُجَّةٌ بعد الرسل﴾ لئلا يحتجَّ الكفار فيقولوا: ما أرسلت إلينا رسلاً!! فقطع الله تعالى بإرسال الرسل كل مبطل ألحد في دينه، لتكون لله الحجةُ البالغةُ على جميع خلقه **﴿وكان الله عزيزاً حكيماً﴾** عزيزاً في انتقامه ممن كفر به، حكيماً في تدبيره بإرسال الرسل **﴿لكن اللهُ يشهدُ بما أنزل إليكَ أنزلهُ بعلمِهِ﴾**لكنِ اللّهُ يشهد لك يا محمد، بما أنزل عليك من كتابه ووحيه، أنزله بعلمٍ منه أنك خيرة خلقه، فلا تحزن بتكذيب اليهود لك والمشركين **﴿والملائكةُ يشهدون﴾** ويشهد لك بذلك ملائكتُه. **﴿وكفى بالله شهيداً﴾** وحسبك اللهُ شاهداً على صدقك **﴿إن الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله﴾** إن الذين جحدوا نبوتك، وصدُّوا الناس عن دين الإسلام **﴿قد ضَلُّوا ضلالاً بعيداً﴾** قد حادوا عن الطريق السويّ ـ طريق الإسلام ـ وزاغوا عن الهدى زيغاً كبيراً. **﴿إنَّ الذينَ كَفرُوا وَظَلَمُوا﴾** جحدوا رسالتك يا محمد، وظلموا بمقامهم على الكفر. **﴿لم يكنِ اللهُ لِيغْفِرَ لهمْ ولا ليَهْدِيهُمْ طَرِيقاً﴾** لم يكن الله ليصفح عن ذنوبهم، ولا ليوفقهم للإسلام، ولكنه يخذلهم عنه حتى يسلكوا طريق جهنم، ولهذا قال بعده **﴿إلاَّ طريقَ جهنم خالدين فيها أبداً﴾**إلا الطريق الموصل إلى نار جهنم ـ وهو الكفر ـ مقيمين فيها أبداً**﴿وكان ذلك على اللهِ يسيراً﴾** كان تخليد هؤلاء في جهنم، سهلاً يسيراً على الله، لأن الخلقَ خلقُه، والأمرَ أمرُه **﴿يا أيها الناسُ قد جاءكم الرسُولُ بالحقِّ من ربكم﴾** يا أيها الناسُ قد جاءكم محمد ﷺ بالإسلام من عند ربكم، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده **﴿فآمنوا خيراً لكم﴾** فصدِّقوا بمحمد وبما جاءكم به، فإنه خيرٌ لكم **﴿وإن تكفروا فإنَّ لله ما في السمواتِ والأرض﴾** وإن تجحدوا رسالته، وتكذِّبوا بما جاءكم به، فإن ذلك لن يُنقص من ملك الله وسلطانه شيئاً، لأن له جميع ما في السموات والأرض **﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾** عليماً بأحوال العباد، حكيماً في تدبيره **﴿يا أَهْلَ الكِتاب لا تَغلُوا في دينكم﴾** يا معشر النصارى لا تجاوزوا الحدّ في دينكم

تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا

***

فتفرطوا فيه ﴿ولا تقولوا على اللهِ إلاَّ الحقَّ﴾ ولا تقولوا في عيسى غير الحقِّ، فإن قولكم فيه انه ابنُ الله قولٌ باطلٌ، لأن الله لم يتخذ ولداً. ﴿إنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسىابْنُ مَرْيَم رَسُولُ اللهِ﴾ ما المسيحابن مريم إلا رسولُ الله، وليس ابن الله كما تزعمون ﴿وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ﴾ وبشارته التي أعلم وأخبر بها مريم[1] ﴿وروحٌ منه﴾ وروحٌ من الله ألقاها إلى مريم بواسطة جبريل ﴿فآمنوا باللهِ ورسُلِهِ﴾ فصدِّقوا بوحدانية الله، وصدِّقوا برسله. ﴿ولا تقولوا ثلاثةٌ﴾ ولا تقولوا الأرباب ثلاثة[2] ﴿انتهوا خيراً لكم﴾ انتهوا عمَّا تقولون من الزور والشركِ بالله، فإنه خير لكم من العقاب العاجل والآجل ﴿إنَّمَا اللهُ إلهٌ واحدٌ﴾ إنما الإلّه المعبود آلهٌ واحد، لا ولد له ولا والد ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يكونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ تنزَّه وتعظَّم الله، عن أن يكون له ولدٌ أو صاحبة ﴿لهُ ما في السَّموات ومَا في الأَرْضِ﴾ له جل وعلا جميع ما في السموات والأرض، ملكاً وخلقاً، وجميع الخلق عبيده وإماؤه، فكيف يكون المسيح ابناً لله وهو من جملة مخلوقاته؟ ﴿وَكَفَى باللهِ وكيلاً﴾ حسبُ العباد أن يكون الله قيِّماً ومدبِّراً ورازقاً لهم. ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يكونَ عَبْداً للهِ﴾ لن يأنف ولن يستكبر المسيح عن أن يكون عبداً لله ﴿ولا الملائكة المقربونَ﴾ ولن يستكبر عن عبادته والإذعان له، الملائكة الذين قرَّبهم الله إليه ﴿ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبرْ فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ ومن يتعظَّم ويستكبر عن عبادة الله، فسيجمعهم ويبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿فأمَّا الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوفِّيهِمْ أُجُورهُمْ﴾ فأما المؤمنون المقرون بوحدانية الله، العاملون لصالح الأعمال، فسوف يؤتيهم جزاء أعمالهم الصالحة تاماً وافياً ﴿ويزيدهم من فضلِهِ﴾ويزيدهم من إحسانه ما لا حدَّ لقدره.

---

(١) المراد بالكلمة «الروح» أن الله خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن الله فحملت بعيسى، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف.

(٢) العقيدة السائدة عند النصارى أن عيسى إلّه وهو أحد ثلاثة آلهة يسمونها «أقانيم» وهي الآب، والابن، وروح القدس.. والعجب أنهم مع اعتقادهم بألوهية عيسى، يُقرون بأنه كان يأكل، ويشرب، وينام، وأنه صلب، وهذه صفات البشر لا الإلّه، وهم كذلك يعترفون بأنه تكوَّن في رحم مريم ثم وُلد، فكيف يقر عاقل بأن الإلّه خرج من فرج امرأة؟ سبحانك هذا بهتان عظيم

أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

***

﴿وأمَّا الذين استنكفوا واستكبروا فَيُعَذِّبُهُمْ عذاباً أليماً﴾ وأما الذين تكبروا عن عبادة الله فيعذبهم عذاباً موجعاً **﴿ولا يجدون لهم من دون اللَّهِ ولياً ولا نصيراً﴾** ولا يجدون لهم ـ سوى الله ـ ولياً ينجيهم من عذابه، ولا ناصراً ينقذهم من عقابه **﴿يا أيها الناسُ قد جاءكم برهانٌ من ربكم﴾** قد جاءكم حجةٌ من الله وهو محمد ﷺ **﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾** وأنزلنا إليكم القرآن العظيم، الذي يبيِّن لكم الحجَّة الواضحة، والسُّبل الهادية. **﴿فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به﴾** فأما الذين صدَّقوا الله، وتمسكوا بالنور المبين الذي أنزله على نبيِّه. **﴿فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفضل﴾** فسوف يدخلهم في جنته، التي هي مكان رحمته، وينالهم عطاؤه وفضلُه العظيم **﴿ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾** ويوفقهم لسلوك دين الله، الذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام.

﴿يستفتونك قُلِ اللَّهُ يفتيكم في الكلالةِ﴾ يسألونك يا محمد أن تفتيهم في الكلالة، قل الله يفتيكم فيها ـ والكلالةُ هي: ألَّا يوجد والدٌ ولا ولد ـ **﴿إن امرؤٌ هَلَكَ ليس له ولدٌ وله أختٌ فلها نصفُ ما تركَ﴾** إن مات إنسان ليس له ولدٌ ـ ذكرٌ ولا أنثى ـ وللميت أختٌ شقيقة، أو أخت لأب، فلأخته نصفُ تركته وما بقي فلعَصَبته[1]. **﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إنْ لمْ يكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾** وأخوها الشقيق يرثها إن ماتت قبله، إذا لم يكن لها ولدٌ ولا والد **﴿فإنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾** فإن كانتا أختين شقيقتين فأكثر أو لأب، فلهما الثلثان من التركة، إذا لم يكن له ولد ولا والد **﴿وإنْ كَانُوا إخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾** وإن كان إخوة الميت ذكوراً وإناثاً، أشقاء أو من أبيه، وليس للميت ولدٌ ولا والد، فللذكر منهم مثل نصيب أختين **﴿يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾** يبيِّنُ الله لكم القسمة في شأن المواريث، لئلا تضلوا وتجوروا عن الحق، وتخطئوا الحكم فيه **﴿وَاللهُ بكلِ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** عالمٌ بمصالح العباد، وبجميع الأشياء، لا تخفى عليه خافية.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النساء»

---

(١) هذه الآية الكريمة فصَّلت حكم الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب، إذا لم يكن للميت أصلٌ ولا فرع، وورثه إخوته بحكم الكلالة.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾

***

﴿يا أيها الذينَ آمنوا أوْفُوا بالعقودِ﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، أوفوا بالعهود التي أوجبها عليكم ربكم من شرائع دينه، والعهود التي عاهدتم عليها الناس، من بيع، وشركةٍ، وذمةٍ، وأمان[١] ﴿أُحِلَّتْ لكم بهيمةُ الأنعام إلاَّ ما يُتْلى عليكم﴾ أبيح لكم أكل بهيمة الأنعام[٢] وهي: الإبل، والبقر، والغنم، إلا ما حرَّم الله عليكم من الميتة، والمنخنقة، والموقوذة، وما ذُبِحَ لغير الله مما هو مبيَّنٌ في قوله «حُرِّمت عليكم الميتةُ والدم ولحم الخنزير..» الآية. ﴿غير مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ غير محلِّين الصَّيد في حال إحرامكم. ﴿إنَّ اللهَ يحكُمُ ما يُريدُ﴾ إن الله يقضي في خلقه بما يشاء، من تحريم وتحليل، وفرائض وأحكام. ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُحلُّوا شعائر اللهِ﴾ لا تستحلُّوا حرماتِ الله، ولا تُضيِّعوا فرائضه ﴿ولا الشَّهْرَ الحَرَامَ﴾ ولا تستحلُّوا الشهر الحرام بقتالكم فيه أعداءكم المشركين. ﴿ولا الهَدْيَ ولا القَلائدَ﴾ ولا ما يُهْدى لبيت الله، تقرباً إلى الله وطلباً لثوابه، ولا المقلَّد من الهَدْي، الذي جُعل له قلادة من لِحَاء الشجر، فلا تتعرضوا للهَدْي ولا للقلائد، **قال قتادة**: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحجَّ، تقلَّد من السَّمُر فلم يعرضْ له أحد، فإذا رجع تقلَّد قلادَة شَعَر فلم يعرض له أحد، فيأمن

---

(١) العقود جمع عقد، وأصله في اللغة الربط، تقول: عقدتُ الحبل بالحبل، ثم استعير للمعاني كعقد البيع والعهد،، والمراد بالعقودهنا ما يشمل العقود التي عقدها الله على عباده كالتكاليف الشرعية، والعهود التي بين الناس كعقود الأمانات والمبايعات كما ذهب اليه الإمام الطبري

(٢) سميت بهيمة لأنها لا تنطق، ولما في أصواتها من الإبهام، والأنعام جمع نَعَم وهي الإبل والبقر والغنم.

وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن

***

على نفسه ﴿ولا آمِّينَ البيتَ الحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ ربِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ ولا تستحلوا من قصد البيت الحرام، يطلب ويلتمس الربح في تجارته، ورضى الله في حجه. ﴿وإذَا حَلَلْتُمْ فاصْطَادُوا﴾ وإذا تحللتم من إحرامكم فلا حرج عليكم أن تصطادوا، فقد أبيح لكم الصيدُ. ﴿ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قومٍ أنْ صدُّوكم عن المسجد الحرام أَنْ تَعْتَدُوا﴾ ولا يحملنكم عداوة قوم لأنهم منعوكم عن المسجد الحرام، على أن تعتدوا عليهم، بل الزموا طاعة الله فيما أحببتم وكرهتم. ﴿وتَعَاونوا على البِرِّ والتقوى ولا تَعاونوا على الإثم والعُدْوانِ﴾ وتعاونوا ـ أيها المؤمنون ـ على العمل بما يرضي الله، من فعل الخيرات وترك المنكرات، ولا تتعاونوا على المآثم والمحارم، التي حرَّمها الله من البغي والعدوان، وسائر ما حرَّم الله. ﴿واتَّقُوا الله﴾ خافوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. ﴿إنَّ اللهَ شديد العقابِ﴾ عقابُه شديد لمن عصى أمره، فإن النار لا يُخمد جمرها، ولا يسكن لهبُها.

﴿حُرِّمتْ عليكم الميتةُ﴾ حرَّم الله عليكم الميتة ـ وهي ما مات من دواب البَرِّ وطيوره من غير تذكية شرعية ـ أي من غير ذبح ﴿والدَّمُ ولحم الخنزيرِ﴾ وحُرِّم عليكم الدمُ المسفوح، ولحمُ الخنزير، بجميع أجزائه الباطنة والظاهرة ﴿وما أُهِلَّ لغيرِ اللهِ بِهِ﴾ وما ذُبِحَ لـلآلهة والأوثان، وسُمِّي عليه غير اسم الله ﴿والْمُنْخَنِقَةُ والْمَوْقُوذَةُ﴾ والتي تختنق فتموت، والتي تضرب بشيء ثقيل حتى تموت، قال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعِصِيِّ حتى إذا ماتت أكلوها. ﴿والْمُتَرَدِّيَةُ والنَّطِيحَةُ﴾ والتي تتردَّى من جبل فتموت، والتي تنطحها أخرى فتموت[1] ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إلَّا ما ذَكَّيْتُمْ﴾ وحُرِّم عليكم ما أكل السبع غير المعلَّم، إلا ما طهرتموه بالذبح قبل أن يموت. والاستثناء راجع إلى المنخنقة، والموقوذة، والنطيحة، والمتردية، وما أكله السبع أي إلا ما أدركتم زكاته قبل أن تفارق روحه جسده من هذه الأشياء فذلك حلال. ﴿وما ذُبِحَ على النُّصُبِ﴾ وحُرِّم عليكم ما ذُبح على الحجارة التي حول الكعبة، تقرباً للأوثان والأصنام.

(١) النطيحة: المنطوحة، فعيل بمعنى مفعول، فما مات قبل أن يدركوا تذكيته فهو حرام.

تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

***

قال مجاهد: هي حجارة حول الكعبة كان يذبح عليها أهل الجاهلية. **﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلَام﴾** وحُرِّم عليكم الاستقسام بالأقداح، عند إرادة أحدكم السفر، أو الغزو، أو التجارة، طلباً لمعرفة ما قُسم في الغيب[١] **﴿ذلكم فسقٌ﴾** هذه الأمور التي حرمتها عليكم، من أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وسائر ما ذُكر، خروجٌ عن أمر الله وطاعته. **﴿اليومَ يئس الذينَ كفروا من دينكم﴾** اليوم انقطع أمل الكفار منكم، أن ترتدوا عن دينكم إلى الشرك. **﴿فلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ﴾** فلا تخافوا منهم أن يغلبوكم ويردوكم عن دينكم، ولكن خافون إن عصيتم أمري أن أحل بكم عقابي. **﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم﴾** اليومَ أكملت لكم الإسلام، بتبيين الحلال والحرام، والفرائض والأحكام **﴿وأتممتُ عليكم نعمتي﴾** بإظهاركم على عدوكم، ونفيهم من بلادكم **﴿ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾** واختياري لكم دين الإسلام ديناً، فالزموه ولا تفارقوه. والآية نزلت في حجة الوداع، والرسول ﷺ في عرفة، ولما نزلت بكى عمر، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: لقد كنا في زيادة من ديننا، وأمَّا إذْ كمُل فما كمل شيء إلاَّ نقص، **﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ في مَخْمَصَةٍ﴾** فمن ألجأته الضرورة لأكل شيء، من المحرمات في مجاعة ثم قال تعالى بعد بيانه **﴿غير متجانفٍ لإثم﴾** غير متعمد ولا قاصد للمعصية في حال أكله **﴿فإن اللهَ غفور رحيم﴾** ساترٌ لذنوب العباد، رحيم بهم، ولهذا أباح لهم أكل المحرمات وقت الاضطرار **﴿يسألونك ماذا أُحِلَّ لهمْ﴾** يسألونك يا محمد: ماذا أباح الله لهم أكلَه من المطاعم والمآكل؟ **﴿قُلْ أُحِلَّ لكم الطيباتُ﴾** قل لهم: أبيح لكم الحلال من المآكل والذبائح **﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾** وأُحل لكم صيدُ ما علَّمتم من سباع البهائم والطير، إذا اقتنصن الصيد بمخالبهن أو أظفارهنَّ[٢] **﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا علَّمكُمُ اللهُ﴾** تُعلِّمون

---

(١) كان لأهل الجاهلية أقداح يستقسمون بها، يستشيرون بها ـ على زعمهم ـ الآلهة في أمورهم، مكتوبٌ على بعضها «أمرني ربي» وعلى بعضها «نهاني ربي» وبعضها غُفْلٌ ـ لم يكتب عليها شيء ـ فإذا أراد أحدهم السفر أو الغزو أو التزوج استقسم بها، فإذا خرج أمرني ربي، مضى لما أراد، وإذا خرج نهاني ربي، أمسك عن المضي لما يريد، وإذا لم يخرج شيء أعاد الاستقسام

(٢) ذهب الطبري إلى أن قوله «مكلبين» صفةٌ للقانص والمعنى: حال مصيركم أيها الناس أصحاب كلاب، وما أثبتناه من تفسير ابن كثير. وهو أحد أقوال ذكرها الطبري

سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ

***

الجوارح ـ من السباع والطير ـ طلب الصيد، بالوجه الذي علَّمكم الله إياه. **﴿فكلوا ممَّا أمسكنَ عليكم واذكروا اسمَ اللهِ عليه﴾** فكلوا من الصيد الحلال الذي أمسكته عليكم الجوارح، واذكروا اسم الله عليها عند إرسالها، وفي الحديث «إذا أرسلت كلبك المعلَّم، وذكرتَ اسم الله عليه فكل ما أمسكَ عليك، وإن أدركته وقد قَتَلَ وأكل منه فلا تأكل منه شيئاً، فإنما أمسكَ على نفسه»[1] **﴿واتقوا اللهَ﴾** بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. **﴿إنَّ اللهَ سريعُ الحساب﴾** يحاسب الخلائق جميعاً في أقرب زمان، لأنه لا يشغله شأنٌ عن شأن[2] **﴿اليومَ أُحِلَّ لكم الطيِّباتُ﴾** اليوم أبيح لكم الحلالُ المستطابُ من الذبائح والمطاعم، دون الخبائث منها **﴿وَطَعَامُ الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لهُمْ﴾** وذبائح اليهود والنصارى حلال لكم، وذبائحكم أيها المؤمنون حلال لهم. **﴿والمحصناتُ من المؤمنات والمحصناتُ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾** وأُحلَّ لكم نكاح العفائف الحرائر من المؤمنات، والعفائف الحرائر من نساء أهل الكتاب، الذين آمنوا بما في التوراة والإنجيل من قبلكم. **﴿إذَا آتيتموهنَّ أجورهنَّ﴾** إذا دفعتم إليهن مهورهنَّ **﴿محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدانٍ﴾** أعفاء غير زانين، ولا متخذين عشيقات وصديقات تزنون بهن في السرِّ **﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عملهُ وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** ومن يجحد وحدانية الله، ونبوة محمد ﷺ ويرتدَّ عن الإسلام،فقد بطل ثوابُ عمله، وهو يوم القيامة من الهالكين. **﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصَّلاةِ﴾** إذا أردتم أيها المؤمنون القيام إلى الصلاة، وأنتم على غير طهارة **﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافِقِ﴾** فاغسلوا بالماء الطاهر وجوهكم وأيديكم إلى مرافقها **﴿وامْسَحُوا برُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إلى الكَعْبَيْنِ﴾** وامسحوا رؤوسكم، واغسلوا أرجلكم إلى

---

(١) الحديث في الصحيحين، وقد جاء بطرقٍ متعددة عن عدي بن حاتم مرفوعاً.

(٢) هكذا روي عن ابن عباس.

أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

***

الكعبين[1] **﴿وإن كنتم جُنُباً فاطَّهَّروا﴾** وإن أصابتكم جنابةٌ فتطهَّروا بالاغتسال منها **﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر﴾** وإن كانت بكم جراحة، أو كنتم مسافرين وأنتم جنبٌ **﴿أو جاء أحدٌ منكم من الغائط﴾** أو قضى الإنسان حاجته ببولٍ أو غائط **﴿أو لامستم النِّساءَ﴾** أو جامعتم النساء **﴿فتيمَّموا صعيداً طيباً﴾** فاقصدوا وجهِ الأرض والتراب الطاهرِ النظيف **﴿فامْسَحُوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾** فامسحوا وجوهكم وأيديكم بذلك التراب الطاهر، ثم صلُّوا **﴿ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عليكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾** ما يريد الله بما فرض من الأحكام، أن يُضيّق عليكم في الدين. **﴿ولكنْ يُريدُ ليطهركم وَلِيُتِمَّ نعمتَهُ عليكم لعلكم تشكرون﴾** ولكنَّ الله يريد أن يطهّركم من الأحداث والجنابة والذنوب والآثام، ويُتمَّ نعمته عليكم بإباحةالتيمم، لتشكروه على نعمه، وتحمدوه علىآلائه **﴿واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم وميثاقه الذي واثقكم به﴾** واذكروا ـ أيها المؤمنون ـ نعمة الله الجليلة عليكم بهدايته إياكم للإسلام، وعهده الذي عاهدكم به، حين بايعتم رسوله على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره **﴿إذْ قلتم سمعنا وأطعنا﴾** حين قلتم: سمعنا ما عاهدتنا عليه، وأطعناك فيما أمرتنا ونهيتنا **﴿واتَّقُوا اللهَ﴾** بامتثال أوامره واجتناب نواهيه **﴿إنَّ اللهَ عَليمٌ بذَاتِ الصُّدُورِ﴾** عالمٌ بما في قلوبكم من النوايا والخفايا، ومجازيكم عليها.

﴿يا أيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كونوا قوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بالقِسْطِ﴾ كونوا قائمين لله بالحق، شهداء بالعدل مع أصدقائكم وأعدائكم **﴿ولا يَجْرِمَنَّكم شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألَّا تَعْدِلُوا﴾** ولا يحملنكم عداوة قوم على ألَّا تعدلوا فيهم وتجوروا عليهم في حكمكم **﴿اعدِلُوا هو أقربُ للتَّقْوى﴾** إعدلوا مع جميع الناس، فإن ذلك أقرب لأن تكونوا من أهل التقوى **﴿واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تَعْمَلونَ﴾** خبير بأعمالكم ومجازيكم عليها.

---

(١) قوله تعالى **﴿وأرجلَكم إلى الكعبين﴾** بالفتح عطفاً على اليدين، وهذا كما قال الطبري من المقدم والمؤخر من الكلام، والتقدير: إغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأرجلكم إلى الكعبين وامسحوا برءوسكم، خلافاً لما ذهب إليه الشيعة من المسح على الرجلين، =

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ

***

﴿وَعَدَ اللهُ الذينَ آمنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَاتِ لهم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وعد الله المؤمنين المتقين، بالعفو عن ذنوبهم، وإدخالهم جنات النعيم ﴿والذينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولئِكَ أصحابُ الجحيم﴾ والذين جحدوا وحدانية الله، وكذبوا ما جاءت به الرسل من الحجج والبراهين، أولئك أهل النار لا يخرجون منها أبداً ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ همَّ قومٌ أنْ يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عَنْكُمْ﴾اذكروا نعمة الله العظيمة عليكم، حين عزم يهود بني النضير على قتلكم والغدرِ بكم وبرسول الله ﷺ، فصرف أيديهم عنكم[1] ﴿واتقوا اللهَ﴾ خافوا الله بامتثالكم أوامره، واجتنابكم نواهيه ﴿وعلى اللهِ فلْيتوكلِ المؤمنونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون، وليستسلموا لقضائه، وليثقوا بنصره وعونه ﴿ولقد أخذ الله ميثاقَ بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنيْ عَشَرَ نقيباً﴾ أخذ الله عهودهم المؤكدة على الوفاء لله بطاعته والإيمان برسله، وأرسل منهم اثني عشر كفيلاً من رؤسائهم، ليكفلوا قومهم على الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وقالَ اللهُ إني معكم﴾ وقال الله لهم: إني معكم بالعون والنصر ﴿لئنْ أقمتُمُ الصَّلاَةَ وآتيتُم الزكاةَ﴾ وأقسمُ لئن أقمتم يا معشر بني إسرائيل الصلاة، وأعطيتم الزكاة لمستحقيها ﴿وآمنتُمْ برسُلي وعَزَّرتموهُمْ﴾ وصدقتم رسلي ونصرتموهم ﴿وأقْرضْتُمُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ وأنفقتم في سبيل الله وابتغاء مرضاته ﴿لأكفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ لأمحونَّ عنكم ذنوبكم ﴿ولأدخلنكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ ولأدخلنكم يوم القيامة

=فهذا خطأ واضح بالنصوص القرآنية الكريمة، فإن الله عزوجلَّ لما ذكر المسح لم يقيّده بغاية ولما ذكر غسل اليدين والرجلين قال: إلى المرافق، وإلى الكعبين، ثم إن هذا القول مخالفٌ للسنّة ولإجماع الأمة، فقد ثبت أن النبي ﷺ رأى أقواماً لا يسبغون الوضوء فقال: ويلٌ للأعقاب من النار.

(١) روي أن النبي ﷺ خرج مع بعض أصحابه إلى يهود بني النضير يستعينهم في أمر، فتآمروا على قتله وقتل أصحابه غدراً، فنزل عليه جبريل يخبره بما دبّروا، ونجّى الله رسوله والمؤمنين من شرهم.

مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

***

بفضلي بساتين، تجري من تحت أشجارها أنهارُ الجنة **﴿فمن كَفَر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل﴾** فمن جحد نعمة الله منكم، بعد ذلك العهد والميثاق، فقد أخطأ قصد الطريق الواضح، وزلَّ عن منهج الهداية والسداد. . . والآيةُ إعلامٌ من الله جل وعلا لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما عليه اليهود من الغدر ونقض العهد، وأن ذلك من أخلاقهم وأخلاق أسلافهم قديماً وحديثاً، وتوبيخٌ لليهود في تماديهم في الغيِّ والضلال **﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾** فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم، طردناهم وأبعدناهم عن رحمتنا **﴿وَجَعَلْنَا قُلوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾** جعلنا قلوبهم غليظة يابسة، لا تلين لموعظة، قد نُزعتْ منها الرأفةُ والرحمةُ **﴿يُحرِّفونَ الكَلِمَ عن مَواضِعِهِ﴾** يحرِّفون كلام ربهم ـ التوراة ـ فيبدِّلونه ويغيّرونه، ويكتبون بأيديهم غير ما أنزل الله، ثم يقولون لجهَّال الناس: هذا هو كلامُ الله **﴿وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّروا بِهِ﴾** وتركوا نصيباً من أوامر الله وأحكامه فلم يعملوا بها **﴿ولا تَزَالُ تَطَّلِعُ على خَائِنَةٍ منهم إلاَّ قليلاً منهم﴾** ولا تزال يا محمد تطَّلع من اليهود على خيانةٍ وغدرٍ، ونقض للعهد، إلا قليلاً منهم لم يخونوا **﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ واصْفَحْ﴾** فاعف يا محمد عن هـؤلاء اليهود، واصفحْ عن جرمهم وكيدهم **﴿إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** يُحبُّ من أحسن فعفا وصفح عمن أساء إليه **﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾** ومن الذين ادَّعوا أنهم نصارى، أخذنا كذلك عهدهم المؤكد على طاعتي، واتباع رسلي، فسلكوا منهاج الأمة الضالة من اليهود، فبدَّلوا دينهم، ونقضوا عهدهم **﴿فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا به﴾** فتركوا نصيباً وافراً من أوامر الله وتشريعه فلم يطبقوها **﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يومِ القيامةِ﴾** فألقينا بين النصارى العداوة والبغضاء، وحرَّشنا بينهم باتباع الأهواء ـ لتركهم كتاب الله، وتضييعهم فرائضه، وتعطيلهم حدوده ـ ولا يزالون كذلك متعادين متباغضين إلى قيام الساعة[1] **﴿وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾** وسوف

---

(١) هـذا حكمٌ من الله قاطع، يشهد له الواقع، فإن طوائف النصارى متعادية، متقاتلة، متناحرة، يكفِّر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، فهذا «كاثوليكي» وهذا «بروستانتي» وهذا من الروم الأرثوذوكس، لا يتزوج أحدهم من المذهب الآخر، بل ولا يسمح له بدخول كنيسة الآخر، وهكذا نجد الأمم الغربية ـ وقد جمعتهم النصرانية وهم أبناء دين واحد ـ يتفنن بعضهم في إهلاك بعض، فمن مخترع للقنبلة الذرية، إلى مخترع للقنبلة الهيدروجينية، إلى مصمم لقنبلة الكوبالت، وكلها مواد مدمِّرة ناسفة، لا يستطيع العقل البشري أن يتصور =

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

***

يخبرهم في الآخرة بإجرامهم في الدنيا، ويعاقبهم على ما ارتكبوه من الكذب على الله ورسوله. **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يُبيِّنُ لكم كثيراً ممَّا كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثيرٍ﴾** يا معشر اليهود والنصارى، قد جاءكم محمد ﷺ يُظهر ويكشف لكم كثيراً مما كنتم تخفونه عن الناس ، من أحكام التوراة والإنجيل ـ من كتاب ربكم ـ ويترك أخذكم بكثير مما كنتم تخفونه من كتابكم **﴿قد جاءكم منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبينٌ﴾** قد جاءكم محمد ﷺ الذي أنار الله به الحقَّ، ومحق به الشرك والضلال، وكتابٌ واضح منير هو القرآن العظيم، الذي أوضح الله فيه الحلال والحرام، وفرق به بين الحق والباطل **﴿يَهْدِي بِهِ الله من اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ﴾** يرشد بهذا القرآن المبين، من اتبع رضى الله، إلى طرق النجاة والسلامة **﴿ويُخْرِجُهُمْ من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإِذْنِهِ﴾** ويخرجهم من ظلمات الشرك والكفر، إلى نور الإسلام وضيائه، بتوفيقه وهدايته **﴿ويَهْديهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ﴾** ويرشدهم إلى طريق مستقيم، هو دين الله القويم. ثم ذمَّ تعالى النصارى الذين ضلوا عن سبل السلام فقال: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيحُ ابن مريمَ﴾** أُقسمُ بأن الذين قالوا: إن المسيح ابن مريم هو اللهُ كفارٌ، كاذبون على الله. **﴿قُلْ فمن يملكُ من اللهِ شيئاً﴾** قل يا محمد للنصارى الذين افتروا على الله هذا البهتان: من الذي يطيق أن يدفع أمر الله وقضاءه **﴿إنْ أَرَادَ أن يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مريم وأمَّه ومَنْ في الأرض جميعاً﴾** إن شاء أن يُعدم عيسى ومريم، ويُعدم الخلق جميعاً؟ فلو كان المسيح ـ كما تزعمون هو الله ـ لقَدَرَ أن يُردَّ أمر الله، ولكنه بشرٌ كسائر الناس، والله هو الحيُّ الدائم القيوم الذي يُحيي ويُميت، وينشىء ويُفني، والذي لا يُغلب ولا يُقهر، وهو حي لا يموت **﴿ولله مُلْكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينهما﴾** واللهُ جلَّ وعلا هو المتصرف في الكون، يُنْفِذ في الخلائق حكمه، ويُمْضي فيهم قضاءه **﴿يخلقُ ما يشاءُ واللهُ على كل شيء قديرٌ﴾** يوجد

=مدى ما تُحدثه هذه المخترعات الجهنمية، من تلفٍ بالغ، وهلاك شامل لهم وللإنسانية، وليست صور الخراب والدمار، التي حلَّت بألمانيا وإنكلترا وفرنسا، بعد الحرب العالمية الثانية ببعيدة عن الأذهان، مصداقاً لما أخبر عنه القرآن!!

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ

***

من العدم ما يشاء، وهو القادر على كل شيء، فكيف يكون إلٰهاً من كان عاجزاً عن دفع السُّوء عنه، وصرف مانزل به من الهلاك؟ بل الإلٰه المعبود هو الذي له تدبير السمواتِ والأرض، وبيده تصريف كل شيء **﴿وقَالَتِ اليَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ﴾** قالوا: إنَّ الله يحبنا وله عنايةٌ بنا، لأننا منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه **﴿قل فلم يُعذبكم بذنوبكم﴾** قل لهؤلاء المفترين على الله: فلأي شيء يعذبكم ربكم بذنوبكم؟ فإن الحبيب لا يُعذِّب حبيبه **﴿بل أنتم بشرٌ ممن خَلَق﴾** بل أنتم خلق من بني آدم كسائر الناس **﴿يَغْفِرُ لمن يَشَاءُ ويُعذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾** يصفح عمن يشاء بفضله، ويُعذِّب من يَشاء بعدله **﴿ولله ملكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما﴾** بيده أمر السموات والأرض، وله ملكهما وملك ما بينهما، يدبر ويصرِّف شؤونهما كيف أحبَّ **﴿وإليه المصيرُ﴾** وإليه المرجع والمآب، فيجازي كل عاملٍ بعمله **﴿يا أهل الكِتَاب قَدْ جَاءَكُم رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لكُمْ عَلَى فَتْرةٍ مِن الرُّسُلِ﴾** يا معشر اليهود والنصارى، قد جاءكم محمد ﷺ يُعرِّفكم الحقَّ، ويوضِّح لكم الهدى، ويرشدكم إلى المرتضى، على انقطاعٍ من بعثة الرسلِ، دامت خمسمائة وستين سنة **﴿أَنْ تَقُولُوا ما جَاءَنَا من بَشِيرٍ وَلانَذِيرٍ﴾** كي لا تقولوا: ما جاءنا رسولٌ مبشِّرٌ ومنذرٌ **﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾** فقد أرسلنا إليكم محمداً ﷺ يُبشِّر من أطاع الله بالثواب الجزيل، وينذر من عصى الله بالعذاب الأليم **﴿واللهُ على كل شيء قديرٌ﴾** قادرٌ لا يعجزه شيء أراده **﴿وإذْ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم﴾** اذكروا نعم الله الجليلة عليكم، وأياديه وآلاءه العظيمة **﴿إذْ جَعَلَ فيكم أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً﴾** حين بعث فيكم الأنبياء والمرسلين، وسخَّر لكم من يخدمكم بعد أن كنتم مملوكين لفرعونَ وأتباعه. **﴿وآتاكم ما لم يُؤْتِ أحداً من العالمينَ﴾** وأعطاكم من نعم الله وكرامته، ما لم يعطه أحداً في زمانكم[1] **﴿يا قوم ادخلوا الأرْضَ المقدَّسَةَ التي كَتَبَ اللهُ لكُمْ﴾** ادخلوا الأرض المطهرة المباركة ـ

---

(١) عنى بـ «العالمين» عالمي زمانهم، لا عالمي كل زمان، فأمة محمد ﷺ قد أعطيت من كرامة الله وفضله، ما لم يعط أحدٌ غيرهم مثله.

اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾

***

أرض بيت المقدس ـ التي وعدكم الله أن تكون مساكن ومنازل لكم ﴿ولا ترتدُّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ ولا ترجعوا إلى ورائكم منهزمين، فتنصرفوا خائبين، قد خسرتم عزتكم بتضييع فرض الجهاد ﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارينَ﴾ قالوا يا موسى: إن في الأرض المقدسة قوماً أشداء، لا طاقة لنا بحربهم قد قهروا الأمم لشدة بطشهم ﴿وإنَّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنَّا داخلون﴾ وإنا لا نطيق دخولها وهم فيها، فإن يخرج منها هؤلاء الجبارون دخلناها، قالوا ذلك جُبناً منهم، وجزعاً من قتالهم[1] ﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ قال رجلان صالحان من قوم موسى، ممن يخاف الله ويراقبه في أمره ونهيه وهما: «يوشع بن نون» و«كالب بن يوفنا» ﴿أنعمَ اللهُ عليهما﴾ بطاعة الله وطاعة نبيه، وبالتوفيق لرضى الله ﴿ادخلوا عليهم البابَ فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ ادخلوا عليهم ـ أيها القوم ـ باب مدينتهم، فإن الله معكم وناصركم، وإنكم إذا دخلتم عليهم الباب غلبتموهم ﴿وعلى اللهِ فتوكلوا إنْ كنتم مؤمنين﴾ على الله وحده فاعتمدوا، وثقوا بنصره إن كنتم مصدِّقين نبيكم، فيما أخبركم به من الظفر والنصر عليهم ﴿قالوا يا موسى إنَّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها﴾ لن ندخل أرض الجبارين ومدينتهم أبداً، ما داموا مقيمين فيها. ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾ فاذهب يا موسى أنت وربك لقتال هؤلاء الجبارين، فنحن قاعدون ههنا ﴿قال ربِّ إني لا أملكُ إلا نفسي وأخي﴾ قال موسى: يا رب إني لا أقدر على حمل أحدٍ على طاعتك، إلاّ على نفسي وأخي ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وبَيْنَ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾ فافْصل

---

(١) هذه طبيعة في اليهود متأصلة في نفوسهم وهي الجبن والخور، وانظر إلى جوابهم لنبيهم ﴿لن ندخلها حتى يخرجوا منها﴾ فهل يتصوَّر أن يُسلِّم الإنسان دياره وأوطانه دون حرب وقتال؟ وانظر كيف يعلمنا القرآن الخطط الحربية الحكيمة، يعلمنا أن نتَّبع خطة الهجوم، وهي خطة الاستبسال والشجاعة، أما اليهود فإنهم جبناء، لا شجاعة عندهم ولا جرأة، ولكنهم استأسدوا على العرب في هذه الأيام لأن المسلمين تركوا الجهاد في سبيل الله، وركنوا إلى نعيم الحياة، وما تركت أمة الجهاد إلا ذلُّوا، ومثل اليهود كمثل القطِّ ينتفخ ويغتر عندما لا يجد من يصاوله «كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد» فإذا جاء الأسد الحقيقي انقصم ظهرُ الهرّ فزعاً ورعباً

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾

***

بقضائك العادل، بيننا وبين الخارجين عن الإيمان إلى الكفر والعصيان **﴿قال فإنَّها مُحرَّمَةٌ عليهمْ أَرْبعينَ سَنَةً يتيهونَ في الأرضِ﴾** قال له ربه: إن الأرض المقدسة محرَّمة على بني إسرائيل أربعين سنة، عقوبةً لهم على جبنهم وعدم استجابتهم لأمر ربهم ونصيحة نبيّهم، يحارون في الأرض ويضلّون هذه المدة. **﴿فلاَ تأْسَ عَلَى القَوْمِ الفَاسِقِينَ﴾** فلا تحزن يا موسى على القوم الخارجين عن طاعة الله.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ واقصص يا محمد على هؤلاء اليهود خبر «هابيل وقابيل» ابنيْ آدم، وعرِّفهم عاقبة الظلم والمكر **﴿إذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولم يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ﴾** حين قَرَّبَ «هابيل» و«قابيل» قرباناً لله، فتقبَّل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل، **قال ابن عمر**: كان أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب زرع، فقرَّب صاحب الغنم «هابيل» أسمن وأحسنَ غنمه، طيبةً بها نفسه، وقرَّب صاحب الزرع «قابيل» شرَّ زرعه غير طيبة بها نفسه، فتقبَّل الله قربان صاحب الغنم **﴿قال لأقتلنَّكَ﴾** قال له أخوه قابيل: لأقتلنَّك **﴿قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾** أجابه هابيل ما ذنبي؟ إنما يتقبل الله ممن خافه واتَّقاه **﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِليَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَني مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾** لئن مددتَ إليَّ يدك لتقتلني، ما أنا بمادٍّ يدي إليك لأقتلك **﴿إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ﴾** إني أخاف من الله، مالك الخلائق كلها أن يعاقبني إن حاولتُ الإعتداء عليك **﴿إني أُريدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فتكونَ منْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾** إني أريد أن ترجع بخطيئتي فتتحمل وزرها، وإثمك في قتلك إياي، فتصبح من سكان الجحيم المخلَّدين فيها **﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالمين﴾** والنار عقوبة كل ظالم، منتهك لحدود الله، **قالَ ابن عباس**: خوَّفه بالنَّار فلم ينته ولم ينزجر **﴿فَطَوَّعت له نفسُهُ قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين﴾** فزيَّنت له نفسه وحسَّنت له قتل

(١) روي أنه لما قتل أخاه لم يعلم كيف يدفنه، فبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما الآخر، فحفر في الأرض ثم حثا عليه التراب، فلما رآه ﴿قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب .﴾

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ﴾

***

أخيه فقتله، فأصبح من جملة الخاسرين. قال السدي: أمسكه فشدخ رأسه بصخرة فمات، وتركه بالعراء **﴿فبعث اللهُ غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه﴾** فأرسل الله للقاتل غراباً يحفر في الأرض فيثير ترابها، ليريه كيف يستر جيفة أخيه **﴿قال يا ويلتى أَعَجَزْتُ أن أكونَ مثل هذا الغراب فأواريَ سَوْأة أخي﴾** قال القاتل: يا حسرتي ويا هلاكي، هل عجزت أن أكون مثل هذا الغراب، الذي دفن الغراب الآخر، فأستر جسد أخي؟ **﴿فأصبحَ من النَّادمينَ﴾** على ما فرط منه، في معصية الله بقتل أخيه **﴿مِنْ أجل ذلكَ﴾** من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً **﴿كَتَبْنَا على بَنِي إسْرَائيلَ﴾** حكمنا على بني إسرائيل **﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾** من قتل منهم نفساً مؤمنة، بغير أن يقتل نفساً، فتستحق القتل قصاصاً **﴿أو فسادٍ في الأرضِ﴾** وبغير إفسادٍ في الأرض، بطريق المحاربة **﴿فكأنما قَتَلَ النَّاسَ جميعاً﴾** فكأنه قتل جميع الناس **﴿ومَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَميعاً﴾** ومن لم يقتل النفس ظلماً، فقد حيي الناسُ جميعاً بسلامتهم[1] منه **﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالبيِّناتِ﴾** بالآيات الواضحات، والحجج الساطعات **﴿ثُمَّ إنَّ كثيراً مِنْهُمْ بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾** ثم إن كثيراً من بني إسرائيل ـ بعد مجيء الرسل إليهم بالبيِّنات ـ لعاملون بمعاصي الله؛ مخالفون لأوامره **﴿إنَّما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾** إنما جزاء من يقتل النفوس بغير حق، ويخيف الآمنين فيغير عليهم في أمصارهم وقراهم **﴿ويَسْعَوْنَ في الأرضِ فساداً﴾** بقطع الطريق[2]، والعمل بمعاصي الله **﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾** عقوبتهم القتلُ إن قتلوا **﴿أو يُصَلَّبوا﴾** إن قتلوا وأخذوا المال **﴿أو تُقَطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف﴾** تقطع يده اليمنى ورجله اليسرى، إن أخذ المال ولم يقتل **﴿أو يُنفَوْا من الأرضِ﴾** أو يُطرد من بلده إلى بلد آخر، ويُحبس فيها بالسجن، إن أخاف الناس ولم يقتل ولم يسلب مالاً، فالعقوبة تكون على قدر استحقاقه[3]، لا أن الإمام

---

(١) لأن الإنسان إذا كفَّ عن قتل غيره، سلم الناس كلهم منه، ففيه حياة لهم بهذا الاعتبار.

(٢) هم قطّاع الطريق الذين يعيثون في الأرض فساداً، ويزرعون الخوف، ويفسدون الأمن

(٣) قال عطاء وقتادة: هذا اللص الذي يقطع الطريق فهو محارب لله ولرسوله، فإن قتل وأخذ مالاً صُلب، وإن قتل ولم يأخذ مالاً قُتل، =

ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ

***

مخيَّر فيه كما قيل. ﴿ذلك لهم خزيٌ في الدنيا﴾ هذا الجزاء لهم عقوبةٌ وشرٌّ، وذلة، في عاجل الدنيا قبل الآخرة ﴿ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيمٌ﴾ ولهم في الآخرة - إن لم يتوبوا - عذاب جهنم[1] ﴿إلاَّ الَّذينَ تَابُوا من قَبْلِ أنْ تَقْدِروا عليهمْ﴾ إلا من تاب من قُطّاع الطريق إذا ترك الحرابة وأمَّنه الإمام قبل أن يُقبض عليه ﴿فاعلموا أن اللهَ غفُورٌ رحيمٌ﴾ فإن توبته تضع عنه تبعات الدنيا، رحمةً من الله عليه.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ﴾ أجيبوا الله بطاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾ واطلبوا القربة إليه، بالعمل الصالح الذي يرضيه ﴿وجَاهِدُوا في سَبِيلِهِ لعلكم تُفْلِحونَ﴾ وجاهدوا الأعداء بقتالهم، كيما تنجحوا فتدركوا الخلود في جناته ﴿إنَّ الذين كفروا﴾ جحدوا وحدانية الله ﴿لَوْ أنَّ لَهُمْ ما في الأَرْضِ جميعاً ومثله مَعَهُ﴾ لو أنَّ لهم ملكَ ما في الأرض كلها، وضعفه معه ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ ليفتدوا أنفسهم من عقاب الله، وقدَّموا كل ذلك عوضاً ﴿ما تُقُبِّلَ منهُمْ﴾ ما تقبَّل الله منهم ذلك فداءً وعوضاً ﴿ولهم عَذَابٌ أليمٌ﴾ عذابٌ موجع ﴿يُريدونَ أنْ يَخْرُجُوا من النَّار وما هُمْ بخارجين منها﴾ يريد هؤلاء الكفار أن يخرجوا من النار، وليسوا بخارجين منها أبداً ﴿ولهم عذابٌ مقيمٌ﴾ لهم عذابٌ دائمٌ لا ينقطع. ﴿والسَّارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما﴾ من سَرَقَ - فاقطعوا يده اليمنى - ذكراً كان السارق أو أنثى ﴿جزاءً بما كَسَبَا﴾ مجازاة لهما على سرقتهما ﴿نَكَالاً من اللهِ﴾ عقوبةً من الله تعالى لهما ﴿واللهُ عزيزٌ حكيم﴾ عزيزٌ في انتقامه ممن عصاه، حكيم في تدبيره وقضائه[2] ﴿فمن تابَ من بعد

= وإن أخذ مالاً ولم يُقتل قطعت يده ورجله من خلاف، وإن أخذ قبل أن يفعل شيئاً من ذلك نفي إلى بلدة أخرى، واختاره الطبري.

(١) نزلت الآية في قوم من عُرينة ارتدوا عن الإسلام، وقتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الإبل. الخ، وانظر قصتهم في البخاري

(٢) روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ هذه الآية، وختمها خطأً بقوله «واللهُ غفور رحيمٌ» فقال الأعرابي: ما هذا كلام الله! أعدْ عليَّ الآية، فأعادها وقرأها صحيحة ﴿والله عزيزٌ حكيم﴾ فقال الأعرابي عندئذٍ: نعم هذا كلام الله، عزَّ فحكم فقطع، ولو رحم وغفر لما قطع.

وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ

***

ظلمه وأصلَحَ﴾ فمن تاب من هؤلاء السُّرَّاق، بعد سرقته واعتدائه، وأصلح عمله ﴿فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه﴾ يغفر له خطيئته، بعد إقامة الحدِّ عليه[1] ﴿إن اللهَ غفورٌ رحيم﴾ غفورٌ لذنوب العباد، رحيمٌ بهم ﴿ألم تعلمْ أنَّ اللهَ له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ﴾ ألم تعلم - أيها المخاطبُ - أنَّ الله مدبِّرُ الكونِ وخالقُه ومصرِّفُه، لا يمتنع عليه شيء مما أراده، لأن كل ذلك ملكه وإليه أمره؟ ﴿يُعذِّبُ مَنْ يشاءُ ويغفرُ لمن يشاءُ﴾ يُعذِّب من يشاء من خلقه على معصيته، ويغفر لمن يشاء منهم بتوبته ﴿واللهُ على كل شيءٍ قديرٌ﴾ قادرٌ على كل ما يريد، لأن الخلق خلقُه، والملك ملكه.

﴿ يا أيُّها الرسولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذينَ يُسَارعونَ في الكُفْرِ﴾ ياأيها المرسل من عندالله، لا يؤلمك تسرُّع هؤلاء المنافقين نحو الكفر. ﴿مِنَ الَّذينَ قَالُوا آمَنَّا بأفْوَاهِهِمْ ولم تُؤمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ من الذين يقولون بألسنتهم صَدَّقناك، وهم معتقدون تكذيبك ﴿وَمِنَ الَّذينَ هَادُوا﴾ ولا تسرُّع اليهود إلى جحود نبوتك.. ثم وصفهم بأوصافهم الذميمة، وأفعالهم الرديئة فقال: ﴿سمَّاعون للكذب سمَّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوكَ﴾ يسمعون الكذب من أحبارهم يهود المدينة، ومن يهود فَدَك الذين لم يحضروا مجلسك يا محمد ﴿يُحرِّفونَ الكَلِمَ مِنْ بعد مواضِعِهِ﴾ يُحرِّف هؤلاء اليهود ويغيِّرون حكم الله الذي أنزله في التوراة، من الرجم إلى الجلد والتحميم[2]، من بعد وضع الله ذلك في مواضعه ﴿يقولون إن أُوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤْتَوه فاحذروا﴾ يقول الخبثاء: إن أفتاكم محمد بالجلد في صاحبنا فاقبلوا قوله، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروه ولا تستجيبوا له[3] ﴿ومن يُردِ اللهُ فتنته﴾ ومن يرد الله ضلالته ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ فلن تنقذه من حيرته وضلالته، فلا تُشعِرْ نفسكَ الحزن على عدم اهتدائه للحق. ﴿أُولَئِكَ الذينَ لم يُردِ اللهُ أنْ

(١) هذا قول مجاهد وابن عباس، أن توبته بإقامة الحد عليه.

(٢) التحميم: تسويد الوجه بالفحم، وقد استبدلوا الرجم بالجلد وتسويد الوجه، وحمله على حمار للتشهير به.

(٣) روي أن يهودياً زنى بيهودية، فقال بعض اليهود: اذهبوا إلى محمد، فإن حكم بالجلد والتحميم «تسويد الوجه» فخذوا عنه، واجعلوه حجةً بينكم وبين الله، فإنه حكم نبي من أنبيائه، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك، فنزلت الآية تكشف تآمرهم.

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ

***

﴿يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لم يرد أن يطهِّر قلوبهم من دنس الكفر والإشراك. **﴿لهم في الدنيا خِزْيٌ﴾** لهم في الدنيا ذلٌ وهوان **﴿ولهم في الآخرة عَذَابٌ عظيمٌ﴾** ولهم في الآخرة عذاب جهنم، خالدين فيها أبداً **﴿سمَّاعون للكذِبِ﴾** يسمعون قول الباطل والكذب **﴿أكَّالون للسُّحْتِ﴾** يأكلون الرشوة والحرام **﴿فإنْ جاءوك فاحكم بينهم أو أعرضْ عنهم﴾** فإن جاءك هؤلاء القوم محتكمين إليك، فاحكم بينهم إن شئت بالحقّ، أو اترك الحكم بينهم إن شئت. **﴿وإنْ تُعرِضْ عنهم فَلَنْ يضروك شيئاً﴾** وإن تترك النظر بينهم فيما احتكموا إليك، فلن يقدروا على ضُرِّك. **﴿وإن حكمتَ فاحكم بينهم بالقِسْطِ﴾** وإن اخترت الحكم والنظر في خصوماتهم، فاحكم بينهم بالعدل **﴿إن الله يحب المقسطين﴾** العادلين في حكمهم بين الناس **﴿وكيف يحكمونكَ﴾** كيف يرضى بحكمك يا محمد هؤلاء اليهود؟ **﴿وعندهُمُ التَّوْرَاةُ فيها حُكْمُ اللهِ﴾** وعندهم التوراة التي أنزلها الله على موسى، فيها حكم الله الواضح فلا يعملون به؟ والغرضُ تقريع اليهود حيث يتحاكمون إلى رسول الله ﷺ مع جحودهم نبوته وتكذيبهم له، ويتركون حكم الله الصريح، في الكتاب الذي يعتقدون صحته وهو التوراة. **﴿ثم يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾** يعرضون عمَّا في التوراة، جراءةً على الله. **﴿وَمَا أُولَئِكَ بالمُؤْمِنِينَ﴾** وليس بمؤمنٍ بالله من أعرض عن حكمه فلم يقبل به **﴿إنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيها هُدَىً ونـورٌ﴾** فيها هدايةٌ وجلاءٌ وضياءٌ لما التبس من الحكم. **﴿يَحْكُمُ بِهَا النبيُّونَ الذينَ أَسْلَموا لِلَّذِين هَادُوا﴾** يفصل بحكم التوراةِ الأنبياءُ، الذين أذعنوا لحكم الله وانقادوا له، لليهود من أتباعهم **﴿والربَّانيونَ والأحبارُ﴾** ويحكم بها الفقهاء والعلماءُ من أحبار اليهود **﴿بما استُحفظوا من كتابِ الله﴾** بما استودعوا من كتاب الله[1]، وكلِّفوا العمل به **﴿وكانوا عليه شهداء﴾** وكانوا على حكم النبيِّين شاهدين أنهم قضوا بكتاب الله **﴿فَلَا تَخْشَوا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾** لا تخافوا الناس ـ يا أحبار اليهود ـ ولكنْ خافوا منّي، فإن النفع

---

(١) وَكَل الله حفظ التوراة من التبديل والتحريف إلى علمائهم، ﴿بما استحفِظُوا من كتاب الله﴾ وأما القرآن العظيم فقد تكفَّل تعالى بحفظه ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾، وشتان بين حفظ الربّ وحفظ العبد.

هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

***

والضُرُّ بيدي[1] ﴿ولا تَشْتَرُوا بآياتي ثَمَناً قَليلاً﴾ ولا تأخذوا بترك الحكم بآياتي، عوضاً خسيساً من حطام الدنيا الفاني ﴿وَمَنْ لم يحكُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ فأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ومن ترك حكم الله الذي أنزله في كتابه، مستحلاً تركه فهو كافر، **قال الحسن**: نزلت في اليهود، وهي شاملة للمسلمين، ﴿وكتبنا عليهم فيها أَنَّ النَّفْس بالنَّفس﴾ وفرضنا على اليهود في التوراة، أنَّ من قَتَلَ نفساً ظلماً قُتِل بها قصاصاً ﴿والعينَ بالعَيْن﴾ ومن فقأ عيناً فقئت عينُه ﴿والأَنْفَ بالأَنْفِ﴾ ومن جَدَع أنفاً جُدِع أنفه ﴿والأُذُنَ بالأُذنِ﴾ ومن قطع أذناً قُطعت أذنه ﴿والسِّنَّ بالسِّنِّ﴾ ومن قلع سِنّاً قُلعت سِنُّه ﴿والجروحَ قِصَاصٌ﴾ ومن جَرَح غيره ظلماً، اقْتُصَّ منه مثل الجرح ﴿فمن تَصَدَّق بهِ فهو كفارةٌ له﴾ فمن عفا عن الجارح وتجاوز عن حقه، فهو هدمٌ لذنوب المجروح .**قال ابن مسعود**: يُهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدَّق به ﴿وَمَنْ لَمْ يحكُمْ بما أنزلَ اللهُ فأُولئكَ هم الظَّالِمُونَ﴾ ومن ترك الحكم بما أنزل الله فهو ظالم،جائر عن حكم الله ﴿وَقَفَّيْنَا على آثَارِهِمْ بعيسى ٱبْن مَرْيَمَ﴾ وأتبعنا على آثار النبيِّين بعيسى ابن مريم فبعثناه نبياً ﴿مصدِّقاً لما بينَ يديهِ مِنَ التَّوْراة﴾ مصدِّقاً لما سبقه من التوراة ﴿وآتَيْنَاهُ الإِنْجيلَ فيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ وأعطيناه الإنجيل فيه هداية للناس، وضياء من عمى الجهالة ﴿ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة﴾ تأكيدٌ لما سبق، وبيانٌ بأن عيسى جاء متبعاً لأحكام التوراة غير ناسخ لها[2] ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ وبيانٌ لحكم الله، وتذكرة وزجرٌ للمتقين الذين يخافون عقاب الله ﴿وليحكُمْ أهلُ الإنجيل بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ وأمرنا عيسى وأتباعه أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل من الأحكام ﴿ومن لم يحكم بما أنزلَ اللهُ فأولئك هم الفاسقون﴾ ومن ترك الحكم بما أنزل الله، فإنه فاسقٌ خارج عن طاعة ربه[3].

---

(١) الآية نهي عن التزلف والتملق إلى العظماء والكبراء، وأمرٌ بردِّ الطاغي عن طغيانه.

(٢) عيسى عليه السلام جاء بشريعة مكمّلة لشريعة موسى عليه السلام، والمشهور عند العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة ولم ينسخها كلها لقوله تعالى ﴿ولأحلَّ لكم بعض الذي حُرّم عليكم﴾

(٣) جمع تعالى في هذه الآيات لمن ترك الحكم بما أنزل الله بين «الكفر، والظلم، والفسق» قال ابن عباس: من جحد ما أنزل الله فقد =

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ

***

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكتابَ بالْحَقِّ﴾ وأنزلنا إليك يا محمد القرآن، بالصِّدق الذي لا شك في أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بينَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ﴾ مصدِّقاً لما تقدَّمه من كتب الله المنزلة على أنبيائه ﴿ومهيمناً عليه﴾ ومؤتمناً على كتب الله المتقدمة قبله، حاكماً وشاهداً عليها، فما وافقه منها فهو حقٌّ، وما خالفه منها فهو باطل[1] ﴿فاحكمْ بينهمْ بما أنزلَ اللهُ﴾ فاحكم يا محمد بين أهل الكتاب والمشركين، بما أنزل الله عليك في القرآن، في الحدود، والجروح، وسائر الأحكام ﴿ولا تَتَّبع أهواءهم عمَّا جاءكَ منَ الحقِّ﴾ ولا تتبع أهواء اليهود والمشركين فيما يدعونك إليه، عن الذي جاءك من عند الله من الحق، فتترك العمل بكتابي اتباعاً لأهواء هؤلاء الجهلة الأشقياء ﴿لكلٍّ جعلنا منكم شِرْعةً ومنهاجاً﴾ لكل أُمة منكم جعلنا شريعة يعملون بها، وطريقاً بيناً واضحاً يسلكونه ﴿ولو شاءَ اللهُ لجعلكم أمةً واحدةً﴾ ولو أراد الله لجعل شرائعكم واحدة[1]، ولم يجعل لكل أمة شريعةً خاصة. ﴿ولكنْ ليبلوكم فيما آتاكم﴾ ولكنه تعالى خالف بين شرائعكم ليختبركم، فيعرف المطيع من العاصي، والعامل من المخالف ﴿فاستبقوا الخيراتِ﴾ فابتدروا وسابقوا إلى فعل الصالحات، التي تقربكم من رضوان ربكم ﴿إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ إلى الله مصيركم - أيها الناس - جميعاً، فيخبركم بأعمالكم ويفصل بينكم بقضائه العادل، وحينئذ يتبيَّن المحقُّ من المبطل، والبرُّ من الفاجر. ﴿وأنِ احكمْ بينَهُمْ بما أنزلَ اللهُ ولا تتَّبعْ أهواءَهُمْ﴾ احكم بينهم بحكم الله الذي أنزله إليك في كتابه، ولا تتَّبع أهواء اليهود ﴿واحذرهم أنْ يفتنوك عن بعض

= كفر، ومن أقرَّ به ولم يحكم به فهو ظالم فاسقٌ.

(١) لأنه يكون مما حرَّفه وبدَّله أحبار اليهود والنصارى، قال ابن عباس: القرآن شاهد على التوراة والإنجيل، وحاكم على ما كان قبله من الكتب. وقال ابن كثير: جمع الله في القرآن محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى بحفظه.

(٢) شرائع الأنبياء مختلفة، ودينُهم واحد﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ وإنما اختلفت الشرائع تيسيراً على العباد، لأن ما يصلح في عصر قد لا يصلح في عصر آخر﴿لكلٍ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾ فتدبر حكمة الله البليغة.

ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

***

﴿ما أنزلَ اللهُ إليكَ﴾ واحذر هؤلاء اليهود أن يصدوك عن العمل بما أنزل الله إليك **﴿فإنْ تولَّوا فاعلم أنما يريدُ الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾** فإن أعرضوا عن قبول حكمك، فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى به، إلا من أجل شقائهم وتعاستهم بسبب ذنوبهم السالفة **﴿وإنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ لفاسِقُونَ﴾** وإن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم إلى معصيته **﴿أفحكمَ الجاهلية يَبْغونَ﴾**؟ أيطلبون حكم الجاهلية من عبدة الأوثان، ويتركون حكم الله جلَّ وعلا؟ **﴿وَمَنْ أَحْسنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾** وأيُّ حكم أحسنُ من حكمِ الله، لمن أيقن بوحدانيته، وأقرَّ بربوبيته.

﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا لا تَتَّخِذُوا اليهودَ والنَّصارى أَوْلياءَ﴾ لا تتخذوا اليهود والنصارى أعواناً وأنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان **﴿بعضُهم أولياءُ بعضٍ﴾** وبعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم ومِلَّتهم **﴿ومن يتولَّهم منكم فإنه منهم﴾** ومن يتخذهم أنصاراً وأعواناً فقد صار منهم، لأنه رضي بموالاة أعداء الله **﴿إنَّ اللهَ لا يهدي القوم الظالمين﴾** لا يوفِّق للخير من وضع الولاية في غير موضعها، فوالى اليهود والنصارى مع عداوتهم لله ولرسوله وللمؤمنين **﴿فترى الذين في قلوبهم مرضٌ﴾** فترى الذين في قلوبهم شكٌّ ونفاق[1] **﴿يُسارعون فيهم﴾** يُسرعون في موالاتهم ومصانعتهم، ويتودَّدون إليهم **﴿يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة﴾** يقولون نخاف أن يكون للدهر دولة، وحادثة تدور بنا فنحتاج إلى نصرتهم، فلذلك نواليهم، قال تعالى رداً عليهم **﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بالفتح﴾** فلعلَّ الله أن يقضي للمؤمنين بالنصر على أعدائهم، أو بفتح مكة **﴿أَوْ أمر من عندِهِ﴾** أو يقضي لهم بأمرٍ فيه عزةٌ للمؤمنين على الكافرين **﴿فيصبحوا على ما أسرُّوا في أنفسهم نادمين﴾** فيصبح هؤلاء المنافقون على ما أخفوا في أنفسهم ـ من مودة اليهود والنصارى وموالاتهم، وبغضهم للمؤمنين

---

(١) المراد بهم عبد الله بن سلول وأصحابه المنافقون.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾

***

ومعاداتهم ـ نادمين على صنيعهم **﴿ويقول الذينَ آمنوا أهؤلاءِ الذينَ أقسموا باللهِ جَهْدَ أيمانهم إنهم لمعكم﴾** ويقول المؤمنون تعجباً من حال المنافقين: أهؤلاء الذين حلفوا لنا بالله أغلظ الأيمان كذباً أنهم لمعنا؟ يقول تعالى مخبراً عن حالهم **﴿حبطتْ أعمالهم فأصبحوا خاسرينَ﴾** بطلت أعمالهم فلا أجر لها ولا ثواب، وخابت صفقتهم وهلكوا. **﴿يا أيها الذينَ آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه﴾** من يرجع منكم عن دينه الحق، فيبدّله باليهودية أو النصرانية، أو غير ذلك من صنوف الكفر **﴿فَسَوْفَ يَأْتي اللهُ بِقومٍ يُحبُّهم ويُحبُّونه﴾** فسوف يستبدل الله قوماً خيراً منهم، يُحبهم الله ويُحبون الله. والآيةُ وعيدٌ لكل من ارتد عن الإسلام، أن الله سيستبدل خيراً منهم يكونون بدلاً عنهم **﴿أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرينَ﴾** رحماء متواضعين للمؤمنين، أشداء غلظاء على الكافرين **﴿يجاهدون في سبيلِ الله ولا يخافون لومةَ لائم﴾** يقاتلون الأعداء إعزازاً لدين الله، ولا يخافون في ذات الله أحداً **﴿ذلكَ فضلُ اللهِ يؤتيه من يشاءُ﴾** وذلك من فضل الله وتوفيقه، تفضّل به عليهم **﴿واللهُ واسعٌ عليم﴾** واسع الفضل والعطاء، عالمٌ بمن يستحق جوده وعطاءه **﴿إنما وليُّكم اللهُ ورسولُه والذينَ آمنوا﴾** ليس لكم ـ أيها المؤمنون ـ وليٌّ ولا ناصر، إلا الله ورسوله والمؤمنون، فلا توالوا اليهود والنصارى أعداءكم **﴿الذينَ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾** هؤلاء المؤمنون هم الذين يؤدون الصلاة كاملة بحدودها وفروضها ويدفعون الزكاة إلى مستحقيها، وهم خاضعون لربهم، متذللون له بالطاعة والخشوع **﴿وَمَنْ يَتَولَّ اللهَ وَرَسُولَهُ والَّذينَ آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾** ومن يتبرأ من أعداء الله، ويثق بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فإنه من حزب الله، وإن حزب الله وأنصار دينه، هم الغالبون دون حزب الشيطان **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هُزُواً ولعباً﴾** لا تتخذوا ـ أيها المؤمنون ـ الذين يسخرون ويهزأون من دينكم **﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياءَ﴾** من اليهود والنصارى ومن

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾

***

المشركين عبدة الأوثان، لا تتخذوهم أنصاراً وإخواناً وحلفاء، وإن أظهروا لكم مودةً وصداقة **﴿واتقوا الله إن كنتم مؤمنينَ﴾** وخافوا الله وارهبوا عقوبته، إن كنتم مصدِّقين بلقائه **﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إلى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً﴾** وإذا أذَّنتم ودعوتم إلى الصلاة، سخر منكم هؤلاء الكفار، من اليهود والنصارى والمشركين **﴿ذلكَ بأنهم قومٌ لا يعقلون﴾** ذلك الاستهزاء والسخرية بسبب أنهم قوم جهلة، لا يعقلون ما عليهم في استهزائهم عند الله من العقاب، ولو عقلوا ما فعلوه.

﴿قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ قل لهم: يا معشر اليهود والنصارى هل تكرهون منا أو تعيبون علينا **﴿إلاَّ أَنْ آمنَّا باللهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وما أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾** إلَّا إيماننا وتصديقنا بوحدانية الله، وبالقرآن الذي أنزل علينا وبالكتب التي أنزلَت على أنبياء الله من قبلنا؟ **﴿وأَنَّ أكثركم فاسقون﴾** وبأن أكثركم خارجون عن طاعة الله تعالى؟ **﴿قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك﴾** هل أخبركم بشر ممَّا تعيبون به علينا من الإيمان بالله، والتصديق بكتبه ورسله؟ **﴿مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾** جزاءً وثواباً[1] عند الله **﴿مَنْ لَعَنَهُ اللهُ﴾** من أبعده الله وطرده من رحمته **﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾** وسخط عليه فعجَّل له الخزي والنكال في الدنيا **﴿وجَعَلَ منهم القِرَدَةَ والْخَنَازِيرَ﴾** ومسخ بعضهم قردة، وبعضهم خنازير **﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾** وجعل منهم من عبد الشيطان والأوثان **﴿أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل﴾** هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الشنيعة، شرٌّ منزلة ممَّن نقمتم عليهم يا معشر اليهود، وأبعد عن سبيل الرشد والهدى. وفيه تعريضٌ باليهود، بإخبارهم بقبيح فِعالهم، وذميم أخلاقهم، كأنه يقول: أهؤلاء المؤمنون الذين تستهزئون منهم شرٌّ، أم من لعنه اللهُ؟ **﴿وإذا جاءوكم قالوا آمنَّا﴾** وإذا جاءكم هؤلاء المنافقون من اليهود قالوا لكم: صدَّقنا بدينكم، وبما جاء به نبيكم محمد ﷺ **﴿وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به﴾** وقد دخلوا عليكم كفاراً، وخرجوا كفاراً، لم يخالط الإيمانُ قلوبهم **﴿واللهُ أَعْلَمُ بمَا كَانُوا يَكْتُمونَ﴾** والله أعلم بما يضمرونه من الكفر والجحود

---

(١) وضعُ «المثوبة» موضع العقوبة للتهكم والسخرية.

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

* * *

﴿وَتَرَى كثيراً منهمْ يُسَارِعُونَ في الإثْمِ والعُدْوَانِ﴾ وترى كثيراً من هؤلاء اليهود، يعجِّلون بمواقعة المعاصي والآثام، ومجاوزة الحدِّ في الطغيان **﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾** وأكلهم الرشوة والحرام **﴿لَبِئْس مَا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾** بئس عملهم هذا **﴿لولا ينهاهم الربَّانيونَ والأحبارُ عن قولهم الإثم وأكلهم السُّحْتَ﴾** هلاَّ ينهاهم أئمتهم وعلماؤ هم عن قول الكذب والزور، وأخذ الرشوة والحرام **﴿لَبِئْس مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾** بئس هذا الصَّنيع من العلماء والفقهاء في تركهم النهي عن المنكر، قال ابن عباس: ما في القرآن آية أشدُّ توبيخاً للعلماء، ولا أخوف عليهم من هذه الآية[١] **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مغلولةٌ﴾** قال اليهود أعداء الله: إنَّ الله بخيلٌ يمنعنا عطاءه، ويُمسك عنا فضله، كالمغلولة يده لا يقدر أن يبسطها ببذلٍ ولا عطاء **﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بما قَالُوا﴾** قُبضت أيديهم عن الخيرات، وأُبعدوا من رحمة الله وفضله، بما افتروا على الله من الكذب والبهتان **﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾** بل هو كريم جواد، يداه مبسوطتان بالبذل والعطاء، يرزق كيف يشاء **﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً منهُمْ مَا أُنزلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وكفراً﴾** وليزيدنَّ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، الكثيرين من اليهود غلواً في إنكار نبوتك، وتكذيباً وجحوداً لعظمة الله. أخبره بأنهم أهل عتوٍ وتمردٍ، لا يذعنون لحق، تسلية له عليه السلام **﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾** وأوقعنا بين اليهود والنصارى[٢] العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة **﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾** كلما أجمعوا أمرهم على شيء، فيه كيد وحربٌ لمن ناوأهم، شتَّت الله شملهم وفرَّق أمرهم، **قال مجاهد:** أولئك أعداء الله اليهود، ولن تلقاهم ببلدٍ إلا وجدتهم من أذلِّ أهله **﴿وَيَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فَسَاداً واللهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدينَ﴾** ويسعون في الإفساد في الأرض، بفعل المعاصي وإثارة

---

(١) وقال الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، أننا لا ننهى عن المنكر.

(٢) هذا ما ذهب إليه الطبري، وذهب كثير من المفسرين إلى أن الضمير يعود على اليهود أي ألقينا بين اليهود بعضهم مع بعض العداوة والبغضاء، واختاره ابن كثير.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا

***

الشر، والله لا يحبُّ من هذه صنعته ﴿ولو أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ ولو أن اليهود والنصارى صدَّقوا بالله وبرسوله، واجتنبوا ما نهاهم الله عنه ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ لمحونا عنهم ذنوبهم، وسترناها عليهم فلم نفضحهم. ﴿ولأدخلناهم جنَّاتِ النَّعيم﴾ ولأدخلناهم بساتين يتنعَّمون فيها في الآخرة ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيلَ وما أُنزل إليهم من ربهم﴾ ولو أنهم عملوا بما في التوراة والإنجيل، وعملوا بالقرآن المنزل على محمد ﷺ. ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ لأغدق الله عليهم الخيرات، فأعطتهم السماء بركتها بالمطر، والأرض بركتها بالثمر، وأكلوا من حبِّها ونباتها وثمارها ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدةٌ﴾ من هؤلاء جماعةٌ مؤمنة، تعمل بالعدل والخير، ليست غالية في الدين ولا مقصِّرة فيه. ﴿وكثيرٌ منهم ساء ما يعملونَ﴾ وكثير من اليهود والنصارى أعمالهم سيئة، فالنصارى تزعم أن المسيح ابن الله، وتكذِّب بمحمد ﷺ، واليهودُ تكذِّب بعيسى وبمحمد صلى الله عليهما.

﴿يا أَيُّهَا الرسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا من بعثتك للناس رسولاً[١]، بلِّغْ ما أنزل الله عليك في القرآن، ولا تخف أن يصيبكَ أحدٌ بمكروه ﴿وإن لم تفعلْ فما بلَّغت رسالتَه﴾ وإن قصَّرت في تبليغ رسالة ربك، وكتمت شيئاً مما أنزل إليك، فقد ارتكبت ذنباً عظيماً ﴿واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ والله يمنعك من الناس، أن ينالوك بسوء[٢] ﴿واللهُ لا يهدي القوم الكافرين﴾ لا يوفقهم لخير ولا رشاد ﴿قُلْ ياأَهْلَ الكِتَابِ لستُمْ على شيءٍ﴾ قل لهم: يا معشر اليهود والنصارى، لستم على شيءٍ من الدين ﴿حَتَّى تُقيمُوا التَّوْرَاةَ والإنْجيلَ وما أُنْزِلَ إليكُم مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حتى تؤمنوا بما في التوراة والإنجيل والقرآن العظيم، فتعملوا بذلك كله، ولا تكذبوا بشيء منه، فإن كتب الله يُصدِّق بعضُها بعضاً ﴿وَلَيزيدَنَّ كثيراً منهم ما أُنْزلَ

---

(١) خاطب تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا زكريا، ولم يخاطب الرسول ﷺ إلا بوصفه ﴿يا أيها الرسول﴾ و﴿يا أيها النبي﴾ وذلك للتنبيه على رفعة شانه ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين

(٢) عن عائشة قالت: كان النبي يُحرس، فلما نزلت ﴿والله يعصمك من الناس﴾ قال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمنا الله عز وجل.

فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ

***

إليكَ طُغْياناً وكُفْراً﴾ وليزيدنَّ هذا القرآن المنزل عليك يا محمد، كثيراً من اليهود والنصارى، تجاوزاً وغلواً في التكذيب، وجحوداً لنبوتك **﴿فلا تأس على القوم الكافرينَ﴾** فلا تحزن على تكذيب هؤلاء الكفار لك، فإنما يدفعهم إلى ذلك الحسد **﴿إن الذين آمنوا﴾** إن الذين صدَّقوا الله ورسوله، وهم المسلمون **﴿والَّذينَ هَادُوا﴾** وهم اليهود أتباع موسى **﴿والصَّابِئُونَ﴾** وهم قوم باقون على الفطرة ولا دين مقرر لهم **﴿والنَّصارَى﴾** أتباع عيسى **﴿مَنْ آمَنَ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِر﴾** من صدَّق منهم بالبعث بعد الممات **﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾** وعمل عملاً صالحاً لمعاده[1] **﴿فلا خوفٌ عَلَيهِمْ﴾** من أهوال القيامة **﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** على ما خلَّفوا وراءهم من الدنيا **﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَني إسْرَائيلَ وأَرْسَلْنَا إلَيْهِمْ رُسُلاً﴾** أقسمُ لقد أخذنا العهود والمواثيق على بني إسرائيل، على الإخلاص والسمع والطاعة لله ولرسوله، وأرسلنا إليهم بذلك رسلاً **﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾** كلما جاءهم رسول بما لا تشتهيه نفوسهم ولا يوافق أهواءهم **﴿فريقاً كذَّبوا وفريقاً يقتلون﴾** كذَّبوا فريقاً منهم، وقتلوا فريقاً آخر، نقضاً للميثاق وجرأةً على الله **﴿وَحَسِبُوا ألَّا تكون فتنةٌ﴾** وظنوا أن لا يكون لهم من الله عقوبات، وشدائد، وبلاء بما فعلوا. **﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾** فعموا عن رؤية الحق وسماعه، كأنهم ما علموا وما سمعوا **﴿ثُمَّ تَاب اللهُ عَلَيْهِمْ﴾** ثم أنابوا ورجعوا إلى الله، فتاب الله عليهم **﴿ثُمَّ عَمُوا وَصمُّوا كثيرٌ منهُمْ﴾** ثم عمي كثير من هؤلاء اليهود عن رؤية الحقِّ وسماعه، بعد توبتي عليهم **﴿واللهُ بصيرٌ بما يعملون﴾** يرى أعمالهم، ويجازيهم عليها يوم القيامة **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هو المسيحُ ابنُ مريمَ﴾** لقد كفر النصارى الذين قالوا إن عيسى هو الله[2]

---

(١) المقصود من الآية أن كل فرقةٍ آمنت بالله وباليوم الآخر، وعملت صالحاً وصدَّقت برسلها في زمانها، فإنها تدخل الجنة، أما اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بنبوة محمد ﷺ في زماننا فإنهم حطب جهنم لقوله تعالى ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾

(٢) كيف يكون عيسى إلَهاً وقد خرج من فرج امرأة؟ وكيف يكون رباً يُعبد وقد صُلب على زعم النصارى؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا﴾

***

واتَّخذوه رباً، وهذا قولُ «اليعقوبية» عليهم غضبُ الله **﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يا بني إسْرائيلَ اعْبُدُوا الله رَبّي وَرَبَّكُمْ﴾** وقال لهم المسيح: اعبدوا الله الذي خلقني وخلقكم، الذي ينزل له كل شيء، وله يخضع كل موجود **﴿إنه مَنْ يُشركْ باللهِ فقد حرَّمَ اللهُ عليهِ الجنةَ﴾** من جعل لله شريكاً فقد حرَّم الله عليه دخول الجنة في الآخرة **﴿ومأواه النَّارُ﴾** ومرجعه ومكانه الذي يأوي إليه نار جهنم **﴿وما للظالمين من أنصار﴾** وليس لمن عَبَدَ غير الله، ناصرٌ ينقذه من عذاب الله **﴿لقد كفر الذين قالوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثلاثةٍ﴾** لقد كفر النصارى الذين قالوا: إن الله واحد من ثلاثة آلهة[1] **﴿وَمَا مِنْ إلَه إلاَّ إلَه واحدٌ﴾** وما لكم معبودٌ إلا معبودٌ واحد **﴿وإن لم ينتهوا عمَّا يقولونَ﴾** وإن لم يكفّوا عن هذا الافتراء والكذب **﴿لَيَمَسَّنَّ الذينَ كفروا منهم عذابٌ أليمٌ﴾** ليصيبنَّ الذين قالوا: المسيح هو الله، والذين قالوا: الله ثالث ثلاثة، عذاب موجع **﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه﴾** أفلا يتوبون مما قالوا ويسألون ربهم المغفرة؟ **﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾** غفور لذنوب التائبين، رحيم بهم حيث يصفح عما سلف من إجرامهم **﴿مَا الْمَسِيحُ ابنُ مريم إلاَّ رَسُولٌ﴾** ليس المسيح إلا رسول كسائر الرسل، أجرى الله على يديه ما شاء من الآيات والمعجزات، ولدته أمه كما تلد الأمهات، فهو ابن مريم، وهذا من صفات البشر لا من صفات خالق البشر **﴿قد خلت من قبلهِ الرسل﴾** قد مضت من قبله رسل كثيرون، أجرى الله على أيديهم الآيات والخوارق **﴿وأُمُّهُ صِدِّيقةٌ﴾** وأمه تقيَّةٌ صالحة مبالغة في الصِّدق، لا كما يقول اليهود عليهم لعنة الله: إنها زانية، **﴿كانا يأكلان الطعامَ﴾** كانا يتناولان الطعام والشراب كسائر البشر، فكيف يكون إلَهاً من كان محتاجاً إلى الغذاء ليقيم به حياته[2]؟ **﴿انْظُرْ كيفَ نبيِّنُ لهم الآيات﴾** انظر يا محمد كيف نوضّح لهؤلاء النصارى الأدلة الساطعة، والحجج القاطعة، الدالة على بطلان كون المسيح إلَهاً أو ابن إلَه **﴿ثُمَّ انظُرْ أنَّى يُؤْفكون﴾** ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح، كيف يُصرفون عن الحق والهدى إلى الباطل والضلال؟ **﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَراً وَلاَ﴾**

---

(١) قال الطبري وهذا قول جماهير النصارى، كانوا يقولون «الإلَه القديم جوهرٌ واحد يعمُّ ثلاثة أقانيم أباً والداً غير مولود، وابناً مولوداً غير والد، وزوجاً متتبعة بينهما» أقول وهذا هو المشهور في زماننا حيث يقولون «باسم الآب، والإبن، وروح القدس»

(١) في الآية الكريمة إشارة لطيفة إلى أن من يأكل الطعام، لا بدَّ أن يكون في حاجةٍ إلى إخراجه، ومن يكن هذا حاله فكيف يُعبد؟ وكيف يتوهم أنه إلَه، وهو في حاجة إلى الطعام والشراب وإخراج الفضلات؟ ﴿فَمالِ هؤلاءِ القومِ لا يكادونَ يَفْقَهُون حَديثاً﴾؟

نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

***

نَفْعاً﴾ قل لهؤلاء الكفرة، الزاعمين أن المسيح ربهم: أتعبدون مَنْ لا يقدر على دفع ضر عنكم، ولا جلب نفع لكم، وتتركون عبادة القادر على كل شيء؟ **﴿والله هو السميعُ العليمُ﴾** السميعُ لأقوال العباد، العليمُ بأحوالهم **﴿قلْ يا أهلَ الكتاب لا تغلوا في دينكم غيرَ الحقِّ﴾** قل لهم يا معشر النصارى: لا تُفرطوا في أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحقَّ إلى الباطل، فتقولوا: إنه اللهُ، أو إنه ابنُ اللهِ **﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾** ولا تتبعوا أهواء اليهود، الذين ضلوا قبلكم عن طريق الهدى والرشاد، فزعموا أن عيسى ابن زنا[1]، واتهموا أمه بالفجور وهي صدِّيقة **﴿وَأَضَلُّوا كَثِيراً﴾** وأضلوا كثيراً من الناس فحملوهم على الكفر والضلال **﴿وضلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** وضلُّوا عن الطريق المستوي الواضح المستقيم، بكفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى ومحمداً صلوات الله عليهما. ثم أخبر عما حلَّ باليهود من الخزي واللعنة والدَّمار فقال: **﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيلَ﴾** أبعدَ الله اليهود، وطردهم من رحمته ولعنهم **﴿على لِسَانِ دَاوُدَ وعيسَى ابنِ مَرْيَمَ﴾** على لسان أنبيائه ورسله، في الزبور والإنجيل، **قال ابن عباس:** لُعِنوا بكل لسانٍ، لُعنوا على عهد موسى في التوراة، ولعنوا على عهد داود في الزُّبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمد في القرآن **﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** ذلك اللعن بسبب عصيانهم لأوامر الله، ومجاوزتهم حدوده **﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾** كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً، عما يفعله من المعاصي، وركوب المحارم، وقتل الأنبياء والرسل **﴿لبئس ما كانوا يفعلونَ﴾** بئس فعلهم وصنيعهم، تركهُم النهيَ عن معاصي الله ومحارمه **﴿تَـرَى كثيـراً منهم يَتَوَلَّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** ترى كثيراً من اليهود، يتولون المشركين من عَبَدة الأوثان، فيتخذونهم إخواناً وأحباباً وأنصاراً **﴿لبِئْسَ مَا قدَّمت لهُمْ أنْفُسُهُمْ أنْ سخِطَ اللهُ عليهمْ﴾** لبئس الشيء الذي قدَّموه لآخرتهم، أن نالوا سخط اللهِ وغضبه عليهم، بسبب مصاحبتهم للكافرين وموالاتهم لهم **﴿وفي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾** وفي عذاب الله يوم القيامة،

(١) الغلوُّ: مجاوزة الحد في كل أمر، فقد قالت النصارى عن عيسى إنه إلَهٌ، وإنه ابن الله، وقالت اليهود: إنه ابن زنا، وكلا الفريقين في غلوٍّ وضلال.

وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

***

مقيمون ماكثون فيه أبداً ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ باللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزلَ إليهِ ما اتَّخذوهُمْ أَوْلياءَ﴾ ولو كانوا يصدِّقون بالله، وبالنبي محمد ﷺ، ويُقرّون بما أُنزل إليه من آيات القرآن، ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً من دون المؤمنين. ﴿ولكنّ كَثِيراً منهُمْ فاسِقُونَ﴾ ولكنَّ كثيراً منهم خارجون عن طاعة الله، مستحلّون لمحارمه ﴿لَتَجِدَنَّ أشَدَّ النّـاسِ عَدَاوةً للّذينَ آمَنُوا الْيَهُودَ والَّذينَ أَشْرَكُوا﴾ لتجدنَّ يا محمد أشدَّ الناس بغضاً وعداوة للمؤمنين، اليهودَ وعبدة الأوثان، لأن كفـر اليهود كفر عنادٍ وجحود، وكذلك المشركون. ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذينَ قَالُوا إنَّا نَصارَى﴾ ولتجدنَّ أقرب الناس مودة ومحبةً للمؤمنين النصارى، الذين عرفوا الحقَّ فأسلموا ولم يستكبروا عنه[1] ﴿ذَلِكَ بأَنَّ منهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً﴾ ذلك لأن منهم علماء وعُبَّاداً، وأهل ترهب في الصَّوامع ﴿وأنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرونَ﴾ وأنهم لا يستكبرون عن قبول الحقِّ ﴿وإذا سمِعُوا ما أُنْزِلَ إلى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ وإذا سمعوا آيات القرآن، بكوا وسالت الدموع من أعينهم غزيرةً ﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ لمعرفتهم بأن ما سمعوه من كتاب الله حقٌّ ﴿يقولون ربنا آمنَّا فاكتبنا مع الشَّاهدين﴾ يقولون: يا ربنا صدَّقنا بالقرآن الذي أنزلته على نبيِّك محمد ﷺ فاجعلنا مع الذين يشهدون بأنه حقٌّ، وألحقنا في الثواب والجزاء منازلهم. ﴿وَمَا لَنَا لا نُؤْمِنُ باللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ وما لنا لا نُقرّ بوحدانية الله، وما جاءنا في كتابه العزيز؟ ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ونحن نطمع أن يدخلنا ربنا مع أهل طاعته، في جنات النعيم، ويلحقنا بمنازلهم يوم القيامة ﴿فأثابهُم اللهُ بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ﴾ فجازاهم الله على إيمانهم واعترافهم بالحق،

---

(١) من الجهال من يظن أن في هذه الآية مدحاً للنصارى، ويزعم أنهم إخوة لنا لأنهم لا يعادون المسلمين كعداء اليهود، ويقولون إن القرآن ذمَّ اليهود ومدح النصارى. الخ وهذاظنٌّ فاسد، وجهلٌ فاضح بسياق الآية وسباقها، فإن القرآن بيَّن لنا عداوة اليهود والنصارى الشديدة للمسلمين، وحذرنا من موالاتهم ومصادقتهم﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض. .﴾وقال جل ثناؤه ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملتهم. ﴾ الآية وإنما نزلت هذه الآيات في قوم مخصوصين هم «نصارى الحبشة» الذين بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ فلما قرأ عليهم القرآن بكوا وعرفوا الحقَّ وآمنوا، ويدل عليه تتمة الآية الكريمة ﴿وأنهم لا يستكبرون. وإذا =

خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

***

بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهارُ ﴿**خالدين فيها**﴾ ما كثين فيها دائماً، لا يخرجون منها، ولا يُحوَّلون عنها ﴿**وذلكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنينَ**﴾ وهذا جزاء كل محسنٍ في فعله وقوله ﴿**والَّذينَ كَفَرُوا وكذَّبُوا بآيَاتِنَا**﴾ والذين جحدوا وحدانية الله، وأنكروا نبوَّة محمد ﷺ، وكذبوا بآيات كتابه ﴿**أولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيم**﴾ هؤلاء هم سُكَّان نار جهنم، الشديد حرُّها

﴿**يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لَا تُحرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ**﴾ لا تحرِّموا اللذائذ التي تشتهيها النفوسُ، وتميل إليها القلوبُ، مما أحلَّ الله لكم، كما فعل القسيسون والرهبان، حيث حرموا على أنفسهم النساء، والمطاعم الطيبة، والمشارب اللذيذة ﴿**ولا تعتدوا إنَّ الله لا يُحبُّ المعتدينَ**﴾ ولا تجاوزوا الحدَّ الذي حدَّه لكم ربكم، في الحلال والحرام،فإن الله لا يحب المتجاوزين حدود الله في كل شيء. **قال ابن عباس**:إن رجالاً من أصحاب النبي حرَّموا النساء واللحم على أنفسهم، وقالوا: نقطع مذاكيرنا لنتفرغ لعبادة الله، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان فنزلت: ﴿**وكلوا ممَّا رَزَقَكُمُ اللهُ**﴾ وكلوا أيها المؤمنون من رزق الله، الذي أحلَّه لكم من الأطعمة ﴿**حَلَالاً طَيِّباً**﴾ حلالاً طاهراً غير نجسٍ ولا محرم ﴿**واتَّقُوا اللهَ الذي أنتم به مؤمنون**﴾ وخافوا الله الذي أقررتم بوحدانيته، واحذروا أن تخالفوه فينزل بكم سخطُه، وتستوجبوا عقوبته ﴿**لا يُؤَاخذكُمُ اللهُ باللَّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ**﴾ لا يؤاخذكم الله بما صدر منكم من الأيمان، التي تجري على ألسنتكم من غير قصدٍ منكم للحلف واليمين، كقول أحدكم: لا واللهِ، وبَلَى واللهِ ﴿**ولَكِنْ يؤاخذكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ**﴾ ولكنْ يؤاخذكم بما أكَّدتموه وأوجبتموه على أنفسكم من الأيمان وعزمت عليه قلوبكم، كحلف أحدكم على الفعل أو الترك، ﴿**فكفارتُه إطعامُ عشرةِ مساكينَ من أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أهليكم**﴾ فكفارة هذا اليمين إطعام عشرة فقراء، من أوسط الطعام الذي تطعمون منه أهلكم. **قال ابن زيد**: هو الوسط مما يقوت به أهله، ليس بأدناه ولا بأرفعه ﴿**أو كسوتُهم أو تحريرُ رقبةٍ**﴾

= سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ فتنبه هداك الله.

لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

***

أو كسوة عشرة فقراء، لكل فقير ثوبٌ، أو فكُّ عبدٍ من أسر العبودية وإعتاقه لوجه الله[1] ﴿فَمَنْ لم يجدْ فصيامُ ثلاثةِ أيام﴾ فمن لم يجد ما يكفِّر به من الطعام أو الكسوة أو الرقبة، فعليه صيام ثلاثة أيام[2] ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ هذه كفارة أيمانكم الشرعية عند حلفكم ﴿واحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ احفظوها من التضييع، ولا تتركوها بغير تكفير. ﴿كذلك يبيِّنُ اللهُ لكم آياتِه لعلكم تشكرونَ﴾ كذلك يوضِّح الله لكم أحكام الدين، لتشكروا ربكم على هدايته وتوفيقه ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ﴾ إن الخمر التي تشربونها، والقمار الذي تأكلونه ـ ويدخل تحته سائر ضروب اللعب وأوراق اليانصيب ـ ﴿والأَنْصَابُ والأزلاَمُ﴾ والحجارة التي تذبحون عندها، والأقداح التي تستقسمون بها ﴿رجسٌ من عملِ الشيطانِ﴾ قذرٌ ونتنٌ من تزيين الشيطان، وتحسينه لكم القبيح من الأشياء ﴿فاجْتَنبوهُ لعلكم تُفْلِحون﴾ فاتركوه وارفضوه لكي تنجحوا، وتدركوا الفلاح عند ربكم ﴿إنما يريدُ الشيطانُ أَنْ يُوقعَ بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ لا يريد الشيطان ـ بشربكم الخمر ولعبكم القمار ـ إلا أن يحدث بينكم أيها المؤمنون العداوة والبغضاء، فيشتّت أمركم بعد أن جمع الله بينكم بأخوة الإسلام. ﴿ويَصُدَّكُمْ عن ذكر اللهِ وعن الصلاةِ﴾ ويصرفكم ـ بمقارفة هذه الموبقات ـ عن ذكر الله، وعن الصلاة التي فرضها عليكم ربُّكم ﴿فهل أنتم منتهون﴾ فانتهوا عمَّا حرَّم الله عليكم. ولما نزلت قال أصحاب رسول الله: انتهينا ربَّنا انتهينا، وأراقوا ما عندهم من الخمور ﴿وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحْذَرُوا﴾ وأطيعوا أوامر الله وأوامر رسوله، في اجتنابكم الخمر والميسر وسائر ما ذُكر، واحذروا أن تخالفوا أمره، فتستحقوا عقوبته ﴿فإن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عمَّا نهيتكم عنه ﴿فاعلموا أَنَّمَا عَلَى رسولِنا البَلاَغُ المبينُ﴾ فاعلموا أنه ليس على رسولنا إلا تبليغ الرسالة، بياناً يوضّح لكم سبيل الحق، وأما العقاب والإنتقام فعلى الله جل وعلا. وهذا وعيدٌ من

(١) يُخيَّر الحالف بين الإطعام والكسوة، والعتق، ولا يصح الصوم إلا عند عدم القدرة على ذلك لقوله تعالى ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ فالصوم إنما يكون عند العجز.

(٢) ذهب الحنفية والحنابلة إلى وجوب التتابع في الصيام، لما روي عن أبي وابن مسعود أنهما قرءا «متتابعات» وذهب الشافعي ومالك إلى عدم وجوب التتابع لأن الله أطلق الأيام ولم يقيدها بشيء «فصيام ثلاثة أيام» ورجح الطبري القول الثاني وقال: يجزئه أن يصومها متفرقة أو متتابعة.

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ

***

الله تعالى لمن تولَّى عن أمره ونهيه، يقول لهم: إن توليتم عن أمري ونهيي، فتوقعوا عقابي، واحذروا سخَطي ﴿ليس عَلَى الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فيما طَعِمُوا﴾ ليس على المؤمنين الذين شربوا الخمر قبل تحريمها ذنبٌ ولا إثم، قال ابن عباس: لمَّا نزل تحريم الخمر قالوا يا رسول الله: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فنزلت ﴿إذَا مَا اتَّقَوْا وآمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إذا خافوا الله وراقبوه في اجتنابهم ما حرَّم عليهم، واكتسبوا الأعمال الصالحة التي ترضي الله ﴿ثم اتَّقوْا وآمَنوا ثُمَّ اتَّقَوْا وأحسنوا﴾ ثم خافوا الله فثبتوا على إيمانهم، ودعاهم خوفهم إلى إحسان أعمالهم ﴿واللهُ يحبُّ المحسنين﴾ يحب المتقربين إليه بالطاعات ونوافل الأعمال[1] ﴿يا أيها الذينَ آمنوا ليبلونكم الله بشيءٍ من الصَّيْدِ تنالُه أيديكم ورماحكم﴾ ليختبرنكم الله ببعض صيد البر وأنتم محرمون، تصيدونه بأيديكم، أو بِنِبَالكم ورماحكم. ﴿لِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَخَافُهُ بالغَيْبِ﴾ كي يعلم الله من يجتنب محارم الله خوف عقابه، بحيث لم يره ولم يعاينه ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذابٌ أليمٌ﴾ فمن جاوز حدَّ الله، واستحلَّ الصيد حال الإحرام، فله من الله عذاب مؤلمٌ موجعٌ.

﴿يا أيهاالذين آمنوا لا تقتلوا الصَّيْد وأنتم حُرُمٌ﴾لا تقتلوا صيد البر وأنتم محرمون بحجٍ أو عمرة ﴿وَمَنْ قَتَله منكم متعمداً﴾ ومن قتل الصَّيد عامداً وهو محرم ﴿فَجزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ من النَّعَم﴾ فعلى القاتل بدل ونظير الصيد من النَّعم يتصدَّق به ويُهديه، فإن صاد حمار وحش فعليه بقرة، وإن صادَ أرنباً فعليه شاة وهكذا ﴿يحكم بهِ ذَوَا عَدْلٍ منكم﴾ يحكم بمثل المقتول من الصيد، فقيهان عالمان من أهل الدين والفضل ﴿هَدْياً بَالغَ الكعبةِ﴾ يُهْدى حتى يصل الكعبة، فيذبح ويُفرَّق لحمه على مساكين الحرم ﴿أو كفارةُ طعامُ مَسَاكينَ﴾ أو عليه كفارة إطعام مساكين، لكل مسكينٍ مدٌّ من الحنطة ﴿أو عَدْلُ ذَلِكَ صِياماً﴾ أو ما يماثل قدره من الصيام، بأن يُقوَّم قيمة الصيد من الطعام، ثم يصوم مكان كل مُدٍّ يوماً. ﴿ليذوقَ وَبَالَ

(١) قال ابن جرير: الإتقاء الأول بتلقي أمر الله بالقبول والتصديق، والثاني: بالثبات على الإيمان وترك التبديل والتغيير، والثالث بالإحسان والتقرب إلى الله بنوافل الأعمال.

عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ * جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ

***

أمره﴾ كي يذوق عقوبة فعله ﴿عَفَا اللهُ عمَّا سَلَفَ﴾ سامح الله وعفا عمَّا كان منكم في الجاهلية قبل النهي ﴿ومن عَادَ فينتقم اللهُ منه﴾ ومن عـاد إلى الصيد بعد التحريم في الإسلام فينتقم الله منه بعقوبته في الآخرة ﴿واللهُ عَزيزٌ ذُو انتقام﴾ والله غالب لا يقهره قاهر، ولا يمنعه من الانتقام مانع، وهو قادر على معاقبة من عصاه ﴿أُحِلَّ لكم صيدُ البحرِ وطعامُه متاعاً لكم وللسيَّارة﴾ أحل لكم ـ أيها المؤمنون ـ صيدُ البحر ما كان منه طرياً وما رمى به البحر ميتاً، منفعةً للمقيمين منكم، وللمسافرين يتزودونه في سفرهم مليحاً ﴿وحُرِّم عليكم صيدُ البرِّ ما دمتُمْ حُرُماً﴾ وحُرِّم عليكم صيد البرّ ما دمتم محرمين ﴿واتقوا اللهَ الذي إليه تُحْشرون﴾ واحذروا عقاب الله، الذي مرجعكم ومصيركم إليه، فيجازيكم على أعمالكم ﴿جَعَلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للنَّاسِ﴾ جعلَ الله البيتَ الحرام ـ الذي فيه الكعبة المشرَّفة ـ قِواماً للناس ومصالح أمورهم، وجعلها معالم لدينهم ﴿والشَّهْرَ الحرامَ والهَدْيَ والقلائد﴾ وجعل الله الشهر الحرام، وما يُهدى إلى بيت الله، وما يتقلَّده المحرم أو يُقلِّده هديه، قواماً لدينهم ومعالم لحجّهم ﴿ذلكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يعلم ما في السَّمواتِ وما في الأرض﴾ ذلك لكي تعلموا أن الله يعلم جميع ما في السموات والأرض، مما فيه صلاح عاجلكم وآجلكم. ﴿وأن الله بكل شيء عليم﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم وأعمالكم ومجازيكم عليها ﴿اَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شديدُ العِقَاب﴾ شديد عقابُه لمن عصاه ﴿وأَنَّ اللهَ غفور رحيمٌ﴾ لمن أطاعه وأناب إليه ﴿مَـا عَلَى الرسول إلا البلاغ﴾ ليس على رسولنا إلا أن يبلِّغكم رسالتنا ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمونَ﴾ والله عالمٌ بما تظهرونه من أعمالكم وأقوالكم، وما تخفونه في أنفسكم، يعلم ضمائر الصدور، وبيده الثواب والعقاب ﴿قُلْ لا يَسْتوي الْخَبيثُ والطَيِّبُ وَلَوْ أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبيثِ﴾ قل يا محمد لا يتساوى عند الله الصالح والطَّالح، والمطيعُ والعاصي، ولو كثر أهل الضلال والعصيان، فلا تعجبنَّ من كثرتهم، لأن أهل المعاصي هم الأخسرون الخائبون ﴿فاتقوا اللهَ يا أولي الألباب لعلكم تُفلحون﴾ فاتقوا الله يا أهل

أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

***

العقول والحِجى، كي تفلحوا وتنجحوا في مطلوبكم **﴿يا أيها الذينَ آمنوا لا تَسْألوا عن أشياءَ إنْ تُبْد لكم تَسؤْكُمْ﴾** لا تكثروا السؤال على رسول الله ﷺ ولا تسألوه عن أمور إن أظهرها لكم ساءتكم[1] **﴿وإنْ تسألوا عنها حين يُنَزَّلُ القرآنُ تُبْدَ لكم﴾** وإن تسألوا عن هذه الأشياء حين ينزل الوحيُ،فتستوضحوا عنها يبيّنها اللهُ لكم **﴿عَفَا اللهُ عنها﴾** عفا الله عمَّا كان منكم قبل ذلك **﴿واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾** غفور لذنوب التائبين، لا يعاجل العقوبة للمذنبين **﴿قد سألها قومٌ من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين﴾** قد سأل الآيات أناس قبلكم ثم أصبحوا جاحدين بها كقوم صالح لما جاءتهم الناقة **﴿ما جعل اللهُ من بحيرةٍ ولا سائبةٍ﴾** ما شرع الله البحيرة ولا السائبة؛ **قال ابن المسيب**:البحيرةُ الناقةُ يُمنح درُّها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبةُ من الإبل كانوا يسيّبونها ـ يتركونها ـ لآلهتهم فلا يُحمل عليها شيء **﴿ولا وَصِيلَةٍ ولا حَامٍ﴾** ولا الوصيلة وهي الأنثى إذا جاءت بتوأم «ذكر وأنثى» قالوا: وصَلَتْ أخاها فدفعت عنه الذبح، ولا الحام وهو الفحل يُحْمى ظهرُه من الركوب والانتفاع، بسبب تتابع أولادٍ من ضِرابه «إتيانه الإناث» وهذه أمور كانت في الجاهلية فأبطلها الإسلام، حيث كانوا يُحرِّمون من الأنعام ما لم يُحرِّمه اللهُ، اتباعاً لخطوات الشيطان **﴿ولكنَّ الذينَ كفروا يَفْتَرونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾** ولكنَّ المشركين يختلقون الكذب على الله، بإضافة تحليل ما أحلُّوا، وتحريم ما حرَّموا إلى الله تعالى **﴿وأكثرهُمْ لا يعقلون﴾** أكثر هؤلاء المشركين لا فهم لهم ولا عقل **﴿وإذا قيلَ لهم تعَالَوْا إلى ما أَنْزَلَ اللهُ وإلى الرَّسُولِ﴾** وإذا قيل لهؤلاء المشركين: أَقْبِلوا إلى كتاب اللهِ وإلى رسوله، ليتبيَّنَ لكم الهدى من الضلال. **﴿قالوا حسبُنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾** أجابوا يكفينا اتباعُ طريقة آبائنا فنحن لهم تَبَع، قال تعالى ردّاً عليهم **﴿أوَلَوْ كانَ آباؤهم لا يَعْلَمُونَ شيْئاً ولا يهتدون﴾** أيتّبعون آباءهم ويقلِّدونهم ولو كانوا على ضلالةٍ وخطأ؟ **﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا عليكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾** الزموا أنفسكم فأصلحوها، واعملوا في خلاصها من عقاب الله **﴿لا يضرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهتديتُمْ﴾** لا

---

(١) هذا تأديب من الله للمؤمنين ونهيٌ لهم أن يسألوا عن أمور لا فائدة لهم في السؤال عنها، روي أن قوماً كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ فنزلت

تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ

***

يضركم من كفر وسلك غير سبيل الحق، إذا أنتم آمنتم بربكم واهتديتم، وأديتم حقَّ الله تعالى في النصح والإرشاد **إلى اللهِ مرجعُكُم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملونَ﴾** إلى الله مصيركم في الآخرة فيجازيكم على أعمالكم

﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا شهادةُ بينكم إذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموتُ﴾ ليشهد بينكم عند معاينة أحدكم الموتَ **﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ منكُمْ﴾** وقت الوصية، ليشهدْ اثنان ذوا رُشْدٍ وعقل من المسلمين **﴿أو آخرَانِ من غيركم﴾** أو آخران من غير المسلمين **﴿إنْ أنتم ضربتم في الأرض فأصابتكم مصيبةُ الموتِ﴾** إن أنتم سافرتم في الأرض فنزل بكم الموتُ[1] **﴿تحبسونهما من بعد الصَّلاةِ﴾** تستوقفونهما من بعد صلاة العصر، إنْ شككتم في أمانتهما **﴿فَيُقْسِمَانِ باللهِ إن ارتبتُمْ لا نشتري به ثَمَناً ولو كَانَ ذا قُرْبى﴾** فيحلفان بالله ـ إن اتهمتموهما بخيانةٍ فيما ائْتُمنا عليه ـ لا نحلف كاذبين على عوضٍ نأخذه عليه، ولو كان المشهود عليه قريباً لنا **﴿ولا نكتُم شهادةَ اللهِ إنَّا إذاً لمنَ الآثمينَ﴾** ولا نُخفي شهادةً للهِ عندنا، فإن فعلنا ذلك نكون من المجرمين المستحقين للعقاب **﴿فإنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إثماً﴾** فإن اطُّلع وظهر من الشاهدين أنهما قد خانا فاستوجبا الإثم[2] **﴿فآخرانِ يقومانِ مقامهما من الذين استحقَّ عليهم الأوليانِ﴾** فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة من أوْلى من يستحق ذلك المال **﴿فَيُقْسِمانِ باللهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شهادَتِهِمَـا﴾** فيحلفان باللهِ لأيماننا أحقُّ من أيمانهما الكاذبة **﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إنَّا إذاً لَمِنَ الظَّالمينَ﴾** وما اعتدينا عليهما في نسبتهما إلى الخيانة، إنَّا إن كذبنا عليهما نكون من الظالمين **﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بالشَّهَادَةِ على**

---

(١) هذا إذا كان الرجل بأرضٍ غريباً فحضره الموت، ولم يجد مسلماً يشهده على وصيته، فله أن يشهد على وصيته يهودياً، أو نصرانياً، أو مجوسياً، وشهادتهم مقبولة في الوصية في السفر، ولا تجوز في غير ذلك.

(٢) روي في سبب نزول الآية أن رجلاً من بني سهم خرج مع نصرانيين ـ تميم وعديّ ـ فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا إناءً من فضة عليه صفائح من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجد الإناء بمكة فقالوا: اشتريناه من تميم وعدي، وحلف الورثة أنه لصاحبهم فنزلت

أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

***

وَجْهِهَا﴾ هذا الذي بيَّنتهُ في أمر الأوصياء، أقرب لهم أن يصدقوا في أيمانهم، ويُقرُّوا بالحقِّ ولا يخونوا **﴿أو يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أيمانِهِمْ﴾** أو يخافوا الفضيحة على أنفسهم بين الناس، إن رُدَّت اليمين على الورثة **﴿واتَّقُوا اللهَ واسْمَعُوا﴾** خافوا الله وراقبوه في أيمانكم، واسمعوا ما يُقال لكم فاعملوا به **﴿واللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾** لا يوفّق من خرج عن طاعة ربه، وأطاع الشيطان **﴿يومَ يَجْمَعُ اللهُ الرُسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾** احذروا يوم القيامة حين يجمع الله الرسل فيسألهم: ما الذي أجابتكم به أممكم؟ **﴿قالوا لا علم لنا﴾** قالوا أدباً مع الله: لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء **﴿إنك أنتَ علاَّم الغيوبِ﴾** لايخفى عليك أمر من خفيِّ العلوم وجليِّها. **﴿إذْ قالَ الله يا عيسى ابن مريمَ اذكر نعمتي عليك وعلى والدتكَ﴾** حين قال الله يا عيسى: اذكرْ أياديَّ عليك وعلى والدتك **﴿إذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ القُدُسِ﴾** حين قوَّيتك وأعنتُك بجبريل **﴿تُكَلِّمُ النَّاس في المَهْدِ وَكَهْلاً﴾** تكلِّم النَّاس صغيراً وكبيراً[1] **﴿وإذْ علَّمتكَ الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل﴾** واذكر نعمتي أيضاً عليك حين علمتك «الكتاب» الكتابة والخط، «والحكمة» وهي الفهم بمعاني الكتاب، وعلمتك التوراة والإنجيل **﴿وإذْ تخلُقُ من الطِّين كهيئة الطير بإذني﴾** وإذ تصوِّر وتُشكِّل على صورة الطير بتعليمي وعوني **﴿فَتَنْفُخُ فيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي﴾** فتنفخ في تلك الصورة، فتصبح طيراً حقيقياً بأمري ومشيئتي **﴿وتُبْرِىء الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بإذْني﴾** وتشفي الأعمى الذي لا يُبصر، والأبرص المصاب في جلده، بمشيئتي وأمري. **﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بإذْني﴾** وإذْ تُحيي الموتى من قبورهم بمشيئتي وأمري **﴿وإذْ كَفَفْتُ بني إسرائيل عنكَ إذْ جئتَهم بالبيِّناتِ﴾** واذكر نعمتي عليك حينَ كففت اليهود عنك، وقد همُّوا بقتلك حين جئتَهم بالأدلة والبراهين القاطعة على نبوتك ورسالتك **﴿فَقَالَ الَّذينَ كفروا منهم إنْ هذا إلَّا سحرٌ مبينٌ﴾** فقال الكافرون منهم: ما هذا إلا ساحرٌ لا نبيٌّ

---

(١) لعلَّ هذا التعبير يوحي بنزول عيسى ابن مريم من السماء ليستكمل حياته، حتَّى يكلِّم الناس في شيخوخته، فإنه قد رفع إلى السماء وهو شاب، وفي الآية تكذيب للذين زعموا صلب عيسى عليه السلام كما هو عقيدة النصارى.

وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ

***

صادق، يُظهر بأفعاله وأموره العجيبة أنه ساحر ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي**﴾ واذكر حين ألقيتُ إلى أنصارك وأتباعك أن صدِّقوا بي وبرسولي عيسى ﴿**قالوا آمنا واشهدْ بأننا مسلمونَ**﴾ قالوا: صدَّقنا بما أمرتنا به يا ربنا، واشهد علينا بأننا خاضعون،مطيعون لأمرك ﴿**إذْ قَالَ الحواريُّونَ يَا عِيسى ابن مَرْيَمَ هَلْ يَسْتطيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنزِّلَ علَيْنَا مَائِدَةً من السَّماءِ**﴾ واذكر حين قال أتباعك: هل يستجيب لك ربك ويُطيعك، إن سألته أن يُنزِّل علينا مائدة من السماء فيها أنواع الطعام[1]؟ ﴿**قَالَ اتَّقُوا اللهَ إن كنتم مؤمنين**﴾ قال: خافوا الله وراقبوه، إن كنتم مصدِّقين بقدرته، فإن الله لا يعجزه شيء. ﴿**قالوا نُريد أن نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمئِنَّ قلوبُنا**﴾ قالوا نريد أن نأكل من المائدة، وتسكن قلوبنا وتستقر على الإيمان بوحدانيته وقدرته ﴿**ونَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا**﴾ ونعلم صدقك فبما أخبرتنا به ﴿**ونكونَ عليها مِنَ الشاهدينَ**﴾ ونشهد أنها آية من الله،وحجة دالة على صدق نبوتك﴿**قَالَ عيسى ابنُ مريمَ اللهمَّ رَبَّنَا أنزلْ علينامائدةً من السَّماءِ تكونُ لناعيداً لأولنا وآخرنا**﴾ نتخذ اليوم الذي تنزل فيه عيداً نعظِّمه نحن ومن بعدنا، ونصلي لك فيه ﴿**وآيةً منكَ**﴾ وعلامةً منك يا رب على صدق رسولك ﴿**وارزقنا وأنتَ خيرُ الرازقينَ**﴾ وأعطنا من فضلك وجودك، فإنك خير من أعطى وتفضَّل ﴿**قَالَ اللهُ إنِّي مُنزِّلُهَا عليكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ**﴾ قال الله: سأنزل عليكم المائدة لتطعموا منها، فمن يجحد بعد إنزالها نبوة عيسى منكم ﴿**فإنِّي أُعذِّبُهُ عَذَاباً لا أُعذِّبُهُ أَحَداً من العَالَمِينَ**﴾ فإني سأعذبه عذاباً شديداً، لن أعذِّب به أحداً من عالمي زمانه ﴿**وإذْ قَالَ اللهُ يا عيسى ابْنَ مريم أأنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذوني وأُمّي إلَهيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ واذكر حين قال الله لعيسى ابن مريم عند رفعه إلى السَّماء[2]: هل أنت قلت لقومك اعبدوني أنا وأمي، واجعلوني مع أمي معبودين تعبدونهما من دون الله؟ ﴿**قَالَ**

---

(١) لم يكن الحواريُّون شاكين في قدرة الله، وإنما أرادوا أن يُظهر لهم عيسى آية خاصةً بهم ليتحدثوا به عن معجزات نبيِّهم، وسؤالهم كان اقتراحاً ولم يكن تعنتاً وعناداً، كسؤال قوم صالح الناقة، وسؤال كفار مكة أن يحوِّل لهم الصفا ذهبا، ويفجر فجاج مكة أنهاراً

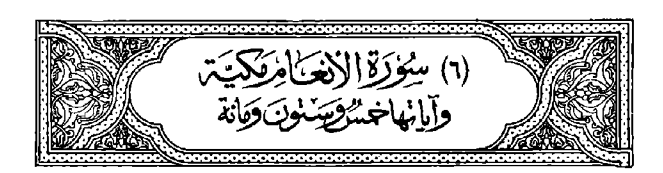
(٢) ذهب ابن جرير إلى أن السؤال يكون عند رفعه إلى السماء، والجمهور على أن هذا يقوله له يوم القيامة تقريعاً وتوبيخاً للنصارى على رءوس الأشهاد، لأنهم عبدوا المسيح وأمه، وهو الأظهر والأرجح.

سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

***

﴿سُبْحَانَكَ ما يكونُ لي أَنْ أَقُولَ ماليس لي بحَقٍّ﴾ قال: أنزّهك وأعظّمك يا رب، عن أن أفعل ذلك أو أتكلم به، فأنا عبد مخلوقٌ وأمي كذلك، فكيف ندّعي الربوبية؟ **﴿إِنْ كنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمتَهُ﴾** إن كان ذلك صدر منّي فإنك عالم به **﴿تَعْلَمُ ما في نَفْسي ولا أَعْلَمُ ما في نَفْسِك﴾** إنك لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي، تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به، فكيف بما قد نطقت به؟ ولا أعلم يا رب ما أخفيته عنّي من الأشياء **﴿إِنَّكَ أنتَ عَلَّام الغُيوب﴾** أنتَ العالم بخفيات الأمور، التي لا يعلمها غيرك **﴿ما قلتُ لهم إلاّ ما أمرتني بِهِ أَنْ اعبدوا الله ربِّي وربَّكُمْ﴾** ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به من توحيدك وعبادتك **﴿وكنتُ عليهم شهيداً ما دمتُ فيهم﴾** وكنت شاهداً عليهم وعلى أعمالهم، حين كنت بين أظهرهم **﴿فلمَّا توفيتني كنتَ أنتَ الرقيب عليهم﴾** فلما قبضتني إليك كنت أنت الحفيظ عليهم دوني **﴿وأنتَ على كل شيءٍ شهيدٌ﴾** أنت تشهد على كل شيء لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء **﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾** إنْ تعاقب هؤلاء الناس فإنهم عبادك **﴿وإنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾** وإن تصفح عنهم وتستر ما فرط منهم **﴿فإنك أنت العزيزُ﴾** الغالب المنتقم الذي لا يقدر أحدٌ أن يدفع انتقامه منه **﴿الحكيمُ﴾** في تدبيره وصنعه **﴿قالَ الله هذا يومُ ينفعُ الصَّادقينَ صِدْقُهم﴾** يقول تعالى: هذا اليوم وقتُ القول والصدق النافع، الذي ينتفع فيه الصادق بصدقه **﴿لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهارُ﴾** لأولئك الصادقين بساتين تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة **﴿خالدينَ فيها أبداً﴾** باقين فيها دائماً، لا يزول عنهم نعيمها **﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾** رضي الله عنهم بقبول طاعتهم، ورضوا عن الله بما أنالهم من جزيل الثواب. **﴿ذلك الفوزُ العظيمُ﴾** هذا هو الفوز والظفر العظيم، الذي نالوه بدخولهم جنات النعيم **﴿للهِ مُلْكُ السَّمواتِ والأرض وما فيهنَّ﴾** لله جلَّ وعلا مُلْكُ جميع ما في السموات وما في الأرض، وهو المتصرِّف فيهما دون عيسى الذي تزعمون أنه إلٰهكم. **﴿وهو على كل شيءٍ قديرٌ﴾** لا يُعجزه شيء أراده، فله القدرة التامة والسلطان العظيم.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة المائدة»



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

***

﴿الْحمدُ للهِ الَّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ﴾ الثناء والشكر لله وحده دون ما سواه، الذي خلقكم أيها الناس وخلق السموات والأرض ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ﴾ وأظلَمَ الليلَ وأنار النهار ﴿ثم الذين كفروا بربهم يَعْدِلونَ﴾ ثم إن الكفار يجعلون لله شريكاً، فيعبدون معه الأنداد والأوثان. وهذا تعجيبٌ من عبادتهم غير الخالق[1] ﴿هو الذي خلقكم من طينٍ﴾ هو الذي أنشأ أصلكم «آدم» من طين. ﴿ثم قَضَى أَجَلًا﴾ثم حدَّ أجلًا لموتكم ﴿وأجلٌ مسمًّى عنده﴾ وهو أَجل البعث والنشور ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرونَ﴾ ثم أنتم تشكُّون في قدرة الله، على بعثه لكم بعد فنائكم ﴿وهو اللهُ في السَّمواتِ وفي الْأَرضِ﴾ وهو الله المعبود في السموات والأرض ﴿يعلم سرَّكم وجهركم﴾ يعلم ما تخفونه في نفوسكم، وما تجهرون به من أقوالكم وأعمالكم، لا يخفى عليه شيء ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ ويعلم ما تعملون وتجرحون في دنياكم، يقول إنَّ ربكم الذي يستحق الحمد، وإخلاص العبادة له، هو الموصوف بهذه الصفات الجليلة، لا من لا يقدر

---

(١) سبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها من عظةً، لمن فكَّر فيها وتدبَّر! فإن الله جلَّت عظمته هو وحده الخالق المبدع للكائنات، فهو الذي خلق السموات والأرض وجعل فيهما معايش الناس وأقواتهم وأقوات أنعامهم، فمن السموات ينزل الغيث، وفيها تجري الشمس والقمر لمصالح العباد، ومن الأرض ينبتُ الحب الذي به غذاؤهم، والثمار التي فيها ملاذهم، فسبحانه من إله عظيم أوجز هذه الجمل الكثيرة في ألفاظ يسيرة!!

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا

***

على ضُرٍّ ولا نفع ﴿وما تأتيهم من آيةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضينَ﴾ وما يأتي هؤلاء الكفار حجة دالة على وحدانية الله، وصدق نبوة محمد ﷺ إلاَّ أعرضوا عنها وصدُّوا عن قبولها ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فقد كذبوا بنبوة محمد ﷺ لمَّا جاءهم من عند الله ﴿فَسَوْفَ يَأْتيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا به يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فسوف يأتيهم أخبارُ استهزائهم بآياتي ورسلي. وهذا وعيدٌ لهم على كفرهم واستهزائهم، وقد وفَّى لهم بالوعيد فقتلهم يوم بدر ﴿ألم يَرَوْا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ﴾ ألم ير هؤلاء المكذبون، كثرة من أهلكتُ قبلهم من الأمم؟ ﴿مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أعطيناهم ما لم نعطكم يا أهل مكة، من الخيرات، والثمار، والأنهار ﴿وأرسلنا السَّماءَ عليهم مِدْرَاراً﴾ وأرسلنا عليهم المطر غزيراً دائماً ﴿وجعلنا الأنهارَ تجري من تحتِهِم﴾ وفجرنا عيون المياه من تحتهم بينابيعها، حتى جرت منها الأنهار، ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ فغمطوا نعمةَ ربهم، وعصوا رسولَ خالقهم، فأهلكناهم بسبب ما اكتسبت أيديهم[1] ﴿وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرينَ﴾ وأحدثنا بعد إهلاكهم أمماً آخرين، جعلناهم خلفاً لهم ﴿ولو نَزَّلنا عليكَ كتاباً في قرطاسٍ﴾ ولو نزلنا عليك يا محمد، الوحي الذي جاءهم من عند الله، مكتوباً في صحيفة ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فعاينوه ومسُّوه بأيديهم ﴿لَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلاَّ سِحْرٌ مُبينٌ﴾ لقال المشركون: ما هذا الذي جئتنا به، إلاَّ سحرٌ ظاهر واضح، سحرتَ به أعيننا ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْه مَلَكٌ﴾ وقالوا: هلاَّ أُنْزل عليه مَلَكٌ من السماء، يصدِّقه ويشهد له بأن الله أرسله إلينا!! ﴿ولو أنزلنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ ولو أنزلنَا مَلَكاً ثم كفروا ولم يؤمنوا، لجاءهم العذابُ عاجلاً غير آجل ﴿ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ﴾ ثم لم يُؤخروا طرفة عين ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ لو بعثنا إليهم مَلَكاً ـ كما اقترحوا ـ لجعلناه في

---

(١) قال أبو جعفر: يقول أعطيناهم ما لم نعطكم، حيث أمطرت فأخرجت لهم الأشجارُ ثمارها، وأعطتهم الأرض نباتها، ودرَّت عليهم السماء بأمطارها، وتفجرت من تحتهم عيون المياه، ولكنهم عصوا وخالفوا أمر بارئهم، وبغوا في الأرض، فعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصيحة.

وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ * وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

***

صورة رجل، لأنهم لا يقدرون على رؤية المَلَك في صورته **﴿وللَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾** لاختلط عليهم الأمر، فلم يدروا أملَكٌ هو أم بشر؟ **﴿ولقد اسْتُهْزِىءَ برسلٍ من قبلِكَ﴾** تسليةٌ للرسول ﷺ يقول: هوِّنْ عليك يا محمد ما تلقاه من هؤلاء المستهزئين، فلقد استهزأ أمم كثيرون بأنبيائهم ورسلهم **﴿فحاقَ بالَّذينَ سخِروا منهم ما كَانُوا بهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** فنزل وأحاط بالمستهزئين العذاب الذي كانوا يهزأون به **﴿قُلْ سيروا في الأرضِ ثم انظروا كيف كَان عاقبةُ المكذبين﴾** قل لهم: جولوا في بلاد المكذبين، ثم انظروا ما حلَّ بهم من الهلاك والدمار وخراب الديار، واحذروا أن يحلَّ بكم مثل ما حلَّ بهم **﴿قُلْ لِمَنْ مَا في السَّمواتِ والأرضِ قلْ للهِ﴾** قل لمن مُلْكُ ما في السمواتِ والأرض؟ قل: لله لا للأوثان والأصنام، فهو الذي قهر كل شيء بملكه وسلطانه **﴿كَتَبَ على نفسه الرحمة﴾** قضى تعالى على نفسه أن يرحم عباده **﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا رَيْبَ فِيهِ﴾** والله ليجمعنكم أيها الناسُ ليوم القيامة الذي لا شك فيه، فيجازي كل عامل بعمله[1] **﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾** الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها بعدم الإيمان، فهم لا يوحدون الله ولا يُقرّون بنبوة محمد عليه السلام **﴿وله ما سَكَنَ في الليلِ والنَّهار﴾** وله جلَّ وعلا ما استقر في الليل والنهار، وهو المالك لكل شيء **﴿وهو السميعُ العليمُ﴾** السميع لأقوال الناس، العليمُ بما يضمرونه في أنفسهم، لا يخفى عليه شيء من ذلك **﴿قُلْ أغير اللهِ أتخذ ولياً فاطرِ السمواتِ والأرضِ﴾** قل لهؤلاء المشركين: أغير اللهِ خالق السموات والأرض ومبتدعهما، أتخذ رباً أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث؟ **﴿وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾** وهو يرزق خلقه ولا يرزقه أحد **﴿قُلْ إنِّي أمِرْتُ أنْ أكُونَ أوَّلَ مَنْ أسلم﴾** قل لهم: **إنَّ ربي أمرني أن أكون أول من خضع له بالعبودية، وانقاد له من أهل زماني** **﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾** **وقيل لي: لا تكن ممن جعل لله**

---

(١) رجح ابن جرير أن قوله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ كلام مقطوع عما قبله، والأظهر أنه متعلق بما قبله والمعنى: كتب تعالى وأوجب على نفسه أن يجمعكم للحساب يوم القيامة، وهو الأظهر والله أعلم.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾

***

شركاء من الآلهة والأنداد ﴿قُلْ إني أخافُ إنْ عَصَيْتُ ربي عَذَاب يوم عظيم﴾ أخاف إن عبدت هذه الأوثان، عذاب يوم عظيم الهولِ والشدة ﴿مَنْ يُصْرَفْ عنهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ من يُصرف عنه العذاب يوم القيامة فقد نال رحمة الله ﴿وذلك الفَوْزُ المُبينُ﴾ النجاة من الهلاك والظفر بالمطلوب ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ﴾ إن أصابتك شدة في دنياك، وضيقٌ في عيشك، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله تعالى ﴿وإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإن نالك رخاء وسعة في الرزق فمن الله تعالى، هو القادر على نفعك وضُرِّك، لا هذه الآلهة المهينة ﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وهو جل وعلا العالي الغالب على عباده ﴿وهو الحكيمُ الخبيرُ﴾ وهو الحكيم في تدبيره، الخبيرُ بمصالح عباده ﴿قلْ أيُّ شيءٍ أكبرُ شهادةً﴾ قل لهم: من أعظم شهادةً وأكبر؟ ثم أخبرهم ﴿قل اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم﴾ قل لهم: اللهُ ـ الذي شهادتُه أكبر الشهادات ـ شاهدٌ بصدقي، وهو العالم بالمحقِّ منا والمبطل، والرشيد والسفيه ﴿وأُوحِيَ إليَّ هَذَا القرآنُ﴾ وأَوْحى إليَّ ربي هذا القرآن العظيم ﴿لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ لأخوِّفكم به نقمته وعقابه إن لم تؤمنوا، وأنذر به من بلغه القرآن من سائر الناس كلهم. قال ابن كعب: من بلغه القرآنُ فقد أبلغه محمد ﷺ ﴿أئنَّكم لتشهدون أنَّ مع اللهِ آلهةً أخرى﴾ أئنكم أيها المشركون لتعترفون أن مع الله معبوداتٍ غيره، من الأصنام والأوثان؟ ﴿قُلْ لاَ أَشْهَدُ﴾ قل لهم: لا أقرُّ ولا أعترف بذلك، بل أجحد وأنكر ﴿قُلْ إنَّمَا هُوَ إلَهٌ واحِدٌ﴾ قل: إنما هو معبود واحد، لا شريك له ﴿وَإنَّني بَريءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وإنني أتبرأ من كل شريك تعبدونه معه، لا أدعو غيره إلهاً ﴿الذينَ آتيناهم الكتابَ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ أهل التوراة والإنجيل يعرفون أن محمداً رسول الله، كما يعرف الواحد منهم ابنه، لصفته المذكورة في كتبهم[1] ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ أهلكوا أنفسهم وألقوها في نار

(١) روي أن عبد الله بن سلام كان يقول: والله لمعرفتي بمحمد ﷺ أشدُّ من معرفتي بابني من أجل الصفة والنعت الذي أجده في التوراة.

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ

***

جهنم ﴿فهم لا يؤمنونَ﴾ فهم لا يُصدِّقون برسالة محمد ﷺ ﴿ومن أظْلَمُ ممن افترى على الله كذباً﴾ من أشد اعتداء وظلماً ممن اختلق على الله الباطل، فزعم أن له شريكاً، أو ادَّعى أن له صاحبةً وولداً؟ ﴿أو كذَّب بآياتِهِ﴾ أو كذَّب بالمعجزات التي أيَّد الله بها رسله؟ ﴿إنه لا يُفلح الظالمون﴾ لا يفوز ولا ينجح المفترون على الله الكذب.

﴿ويومَ نحشرهم جميعاً ثم نقول للذينَ أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعُمون﴾ نجمعهم للحساب ثم نقول للمشركين: أين آلهتكم الذين كنتم تدَّعون أنهم أرباب مع الله تعالى؟ ﴿ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا واللهِ ربنا ما كنا مشركينَ﴾ ثم لم يكن قولهم[1] واعتذارهم إلا أن أقسموا كذباً منهم فقالوا: واللهِ يا ربنا ما كنا ندعو سواك، ولا جعلنا لك شريكاً ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسِهِمْ﴾ انظر كيف كذب هؤلاء في الآخرة على أنفسهم، كما كانوا يكذبون في الدنيا؟ وفيه تعجيبٌ من حالهم ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترونَ﴾ وذهبت عنهم أصنامهم وآلهتهم التي عبدوها من دون الله، ولم ينتفعوا بها ﴿ومنهمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إليكَ﴾ ومن هؤلاء من يستمع القرآن منك ﴿وَجَعَلْنَا على قُلُوبهمْ أكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ وجعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفهموه﴿وفي آذانهم وَقْراً﴾وجعلنا في آذانهم ثِقلاً وصمماً عن فهم ما تتلو[2] ﴿وإنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لا يُؤْمنوا بها﴾ وإن يروا كل حجةٍ وعلامة تدل على صدق نبوتك، لا يصدّقون بها ولا يُقرّون ﴿حتّى إذا جاءوك يجادلونك﴾ يخاصمونك ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطيرُ الأولين﴾ يقول الذين جحدوا آيات الله: ما هذا إلا خرافات وأباطيل الأولين ﴿وهم يَنْهَوْنَ عنه ويَنأون عنه﴾[3] وهم ينهون عن

---

(١) سمّى قولهم واعتذارهم «فتنة» لأنه كان اختباراً وامتحاناً لهم.

(٢) قال قتادة: يسمعونه بآذانهم ولا يَعُون منه شيئاً، كمثل البهيمة تسمع النداء ولا تدري ما يُقال لها.

(٣) انظر روعة الجمال بين «ينهون» و«ينأون» ووقعه على السمع، ويسمى هذا النوع في علم البديع «الجناس غير التام».

إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

***

استماع القرآن، ويتباعدون عنك يا محمد **﴿وإنْ يُهْلِكُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرونَ﴾** وما يُهْلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم، وما يدرون بهذا الهلاك والعطب **﴿ولو تَرَى إذْ وُقِفُوا على النار﴾** ولو ترى حال المشركين حين حُبسوا في النار، وشاهدوا ما فيها من الأغلال والأهوال **﴿فَقَالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ ولا نُكَذِّب بآياتِ رَبِّنَا﴾** يا ليتنا نردُّ إلى الدنيا حتى نتوب، ولا نكذب بآيات الله، ونكون من المصدّقين بالله ورسله **﴿بل بَدَا لهم ما كانوا يُخْفون من قبلُ﴾** بل ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا من أعمالهم السيئة **﴿ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبونَ﴾** ولو رُدُّوا إلى الدنيا لرجعوا إلى الكفر والجحود، والعمل بما يسخط الله، وإنهم لكاذبون في دعواهم **﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾** وقالوا ما هي إلا هذه الحياة الدنيا، ثم لا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور **﴿وَلَوْ ترى إذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾** ولو ترى إذ حُبسوا أمام ربهم للحساب **﴿قَالَ أَلَيْس هَذَا بالْحَقِّ﴾** أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقاً؟ **﴿قالوا بلى وَرَبِّنا﴾** قالوا: بلى والله إنه لحقٌّ **﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾** ذوقوا عذاب جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم في الدنيا **﴿قَدْ خَسِر الذينَ كَذَّبُوا بلِقَاءِ الله﴾** قد خسر الذين أنكروا البعث بعد الممات **﴿حتى إذا جاءتهم الساعةُ بَغْتَةً﴾** حتى إذا جاءتهم ساعة البعث فجأة **﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فيها﴾** يا ندامتنا على ما ضيَّعنا في حياتنا الدنيا من صالح الأعمال **﴿وهم يحملونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾** وهم يحملون آثامهم وذنوبهم على ظهورهم **﴿أَلاَ سَاءَ ما يَزِرُونَ﴾** ساء الإثم الذي ارتكبوه **﴿وما الحياةُ الدنيا إلَّا لعبٌ وَلَهْوٌ﴾** وما هذه الحياة الدنيا التي يستمتع الناس بنعيمها وملاذها إلا كاللاَّعب اللاَّهي، عمَّا قليلٍ تزول فلا تغتروا بها، فإنَّ المغترَّ بها نادم **﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾** وللآخرةُ والاستعداد لها بصالح الأعمال، خيرٌ للذين يخشون الله بطاعته والمسارعة إلى رضاه **﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** أفليس لكم عقلٌ حتى تعلموا أن الباقي خيرٌ من الفاني؟

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

***

﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون﴾ نحن نعلم يا محمد أنه يؤلمك قول المشركين عنك: إنه كذَّاب ﴿فإنهم لا يكذّبونكَ﴾ فإنهم لا يكذبونك على الحقيقة[١]، لأنهم يعلمون أنك صادقٌ ﴿ولكنَّ الظَّالمينَ بآياتِ الله يَجْحدو ن﴾ ولكنَّ المشركين بحجج الله وآيات كتابه يجحدون ﴿ولقد كذبت رسلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذّبوا﴾ تسليةٌ للرسول ﷺ، وتعزيةٌ له عمَّا ناله من المساءة يقول: لا يحزنك تكذيب هؤلاء المشركين، وما تلقاه منهم من الأذى، فقد كُذّب رسلٌ قبلَكَ، فصبروا على تكذيب قومهم لهم ﴿وأُوذُوا حتَّى أتاهم نَصْرُنا﴾ وأوذوا في سبيل الله، فلم يثنهم ذلك عن المضيّ في دعوتهم، حتى جاءهم نصرنا ﴿ولا مُبَدِّلَ لكلماتِ اللهِ﴾ لا مغيِّر لوعدِ الله الذي وعد به رسله ﴿ولقد جاءك من نَبَإِ المرسلين﴾ ولقد جاءك يا محمد من خبر الرسل، وخبر أممهم ماذا حلَّ بهم، لمَّا تمادوا في غيِّهم وضلالهم ﴿وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْرَاضُهُمْ﴾ إن كان عظم عليك إعراض هؤلاء المشركين، وعدم تصديقهم لك ﴿فإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِي نَفَقاً في الأَرْضِ﴾ فإن استطعت أن تتخذ سرباً في الأرض فتذهب فيه ﴿أو سُلَّماً في السَّماءِ﴾ أو مصعداً تصعد فيه إلى السماء ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ فتأتيهم بمعجزة أفضل مما أتيناهم به فافعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لجمعهم على الهدى﴾ لو شاء الله الهداية لهم جميعاً لفعل[٢] ﴿فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾ فلا تكوننَّ ممن لا يعلم حكمة الله في أنه يريد إيمان الناس اختياراً لا اضطراراً ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون﴾ لا يستجيب لدعائك يا محمد، إلاَّ الذين فتح الله أسماعهم للحقِّ والرشد﴿والموْتى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾والكفارُ في عِداد الموتى[٣]، لا يسمعون، ولا يعقلون، ولا يفقهون ﴿ثم إليهِ يُرْجَعون﴾ ثم إليه مرجع المؤمنين

---

(١) روي أن الأخنس بن شريق خلا بأبي جهل فقال له: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادقٌ هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامنا، فقال أبو جهل ويحكَ والله إن محمداً لصادقٌ وما كذب قطُّ، ولكنْ إذا ذهب بنو قصيّ باللّواء، والحجابة، والسقاية، والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ فنزلت الآية.

(٢) قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبقت له من الله السعادة في الذكر الأول. اهـ مختصر ابن كثير ١ / ٥٧٦

(٣) شبه تعالى الكفار بالموتى، لأنهم موتى القلوب، قال قتادة: الآية مثل المؤمن والكافر، فالمؤمن سمع كلام الله فانتفع به وعقله،=

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ

***

والكافرين، فيثيب المؤمن، ويعاقب الكافر ﴿وقالوا لولا نُزِّل عليه آيةٌ من ربه﴾ وقال كفار مكة هلاَّ نُزِّل على محمد علامة ومعجزة من ربه؟ ﴿قُلْ إنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾ قل لهم: إن الله قادر على أن يُنزِّل حجة وآيةً كما سألوا ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون﴾ لا يعلمون ما عليهم من البلاء إن نزلت ﴿وما من دابةٍ في الأرضِ﴾ ما من شيء دبَّ على الأرض صغير أو كبير ﴿ولا طائر يطير بجناحيهِ﴾ ولا طائر طار بجناحيه في الهواء ﴿إلاَّ أممٌ أمثالكُمْ﴾ إلا أصناف مصنفة أمثالكم أيها الناس ﴿ما فَرَّطْنَا في الكتاب من شيءٍ﴾ ما ضيَّعنا إثبات شيءٍ من ذلك في اللوح المحفوظ ﴿ثم إلى ربهم يُحشرون﴾ ثم إلى ربهم مرجعهم بعد الفناء. فالرب الذي لم يُضيِّع حفظ أعمال البهائم والدواب والطير، حتى حفظ عليها حركاتها وأفعالها، وأثبت ذلك منها في أم الكتاب، وحَشَرها ثم جازاها على ما سلف منها في دار البلاء، كيف يضيِّع أعمالكم ويُفرِّط في حفظها؟ ويترك جزاءكم في الآخرة، مع أنه خصَّكم بالعقل والفهم الذي لم يعطه البهائم والطير؟ ﴿والذين كذَّبوا بآياتنا صمٌّ وبُكمٌ في الظُّلُمَاتِ﴾ والذين كذبوا بحجج الله وأدلته هم مرتطمون في ظلمات الكفر، لا يبصرون آيات الله، ولا يعتبرون بها، فهم صمٌّ عن سماع الحق، خرسٌ عن القول به. **قال قتادة**: هذا مَثَل الكافر، أصمُّ أبكم، لا يبصر هدى ولا ينتفع به ﴿من يشأ الله يُضلِلْهُ﴾ من شاء الله إضلاله عن الإيمان أضلَّه ﴿ومَنْ يَشَأْ يجعَلْهُ على صِرَاطٍ مُسْتقيم﴾ ومن أحبَّ هدايته وفَّقه بفضله إلى الإيمان، وهداه إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام ﴿قُلْ أرأيتكم إن أتاكم عَذَابُ اللهِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني أيها القوم إن جاءكم عذابُ اللهِ ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أو جاءتكم الساعة التي تنشرون فيها من قبوركم، وتبعثون لموقف الحساب ﴿أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إنْ كنتمْ صَادقين﴾ أتفزعون إلى غير الله لينجيكم من عظيم البلاء، إن كنتم صادقين أن آلهتكم تضرُّ وتنفع؟ ﴿بَلْ إيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ بل تدعون هناك ربكم وإليه تفزعون، دون غيره من آلهةٍ ووثنٍ وصنم ﴿فَيَكْشِفُ ما تَدْعُونَ إليهِ إنْ شَاءَ﴾ فيفرِّج عنكم عظيم البلاء إن شاء أن يفرج

=والكافر أصمُّ أبكم لا يبصر هدى ولا ينتفع به.

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾

***

ذلك عنكم لأنه القادر على كل شيء، والمالك لكل شيء ﴿وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ﴾ وتنسون ما تشركونه مع الله من وثنٍ وصنم ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلى أُمَمٍ من قَبْلِكَ﴾ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك رسلاً فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بالبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ فامتحناهم بالبأساء وهي شدة الفقر في العيش، والضرَّاء وهي الأمراض والأسقام ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ليتضرعوا إلى الله، ويخلصوا له العبادة بالذلة والاستكانة ﴿فلولا إذ جاءهم بأسنا تَضَرَّعُوا﴾ فهلاَّ حين جاءهم العذاب تضرعوا لربهم، وخضعوا له بالطاعة حتى يصرف عنهم العذاب؟ ﴿ولكنْ قَسَتْ قلوبُهم﴾ ولكن أصرُّوا على تكذيبهم للرسل، استهانة بعقاب الله واستخفافاً بعذابه، لقساوة قلوبهم ﴿وزيَّن لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون﴾ وحسَّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، التي يكرهها ويسخطها الله منهم ﴿فلما نسوا ما ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فلما تركوا العمل الذي أمرنا هم به على ألسن رسلنا ﴿فتحنا عليهم أبوابَ كل شيءٍ﴾ فتحنا عليهم أبواب السعة في المعيشة، والصحة في الأجسام، وبدلناهم مكان البأساء والضراء السَّعة والرخاء استدراجاً منَّا لهم ﴿حتَّى إذا فرحوا بما أوتوا﴾ حتى إذا فرحوا بذلك النعيم ﴿أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسونَ﴾ أخذناهم بالعذاب فجأة من حيث لا يشعرون، فإذا هم هالكون، نادمون على ما سلف منهم[1] ﴿فَقُطِعَ دابرُ القوم الذين ظلموا﴾ استؤصلوا فلم يُفلت أحد منهم من العذاب ﴿والحمدُ للهِ ربِ العالمين﴾ والثناء الكاملُ لله رب العالمين، على انتقامه من أعداء رسله ﴿قُلْ أرأيتُمْ إنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأَبْصَارَكُمْ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بك: أخبروني إن أصمَّكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم ﴿وخَتَمَ على قلوبكم﴾ وطبع على قلوبكم، فلم تفهموا قولاً، ولم تُبصروا حجة ﴿مَنْ إلَهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم به﴾ من يردُّ عليكم ما ذهب من الأسماع، والأبصار، والأفهام؟ وأيُّ إلَه غير الله يقدر على ذلك[2]؟ ﴿انْظُرْ كيف

---

(١) أصل الإبلاس: السكوتُ وانقطاع الحجة، ويأتي بمعنى اليأس والقنوط.

(٢) في الآية تعليمٌ من الله لرسوله ﷺ لإقامة الحجة على المشركين، يقول له: قل لهم إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، ولا يستحق العبادة إلا الذي بيده الضر والنفع، والقبضُ والبسط، القادر على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء فلو أراد الله إذهاب أسماعكم وأبصاركم لا تقدر الأصنام على ردها عليكم.

ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

***

نُصَرِّفُ الآياتِ﴾ انظر يا محمد كيف نضرب لهم الأمثال والعِبر، ليعتبروا ويتذكروا فينيبوا **﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾** ثم هم ـ مع تنبيهنا إياهم بالعبر ـ يعرضون عن التذكر والاعتبار **﴿قل أرأيتكم إنْ أتاكم عذابُ اللهِ بغتَةً أو جَهْرَةً﴾** قل لهؤلاء المكذبين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله وعقابه فجأةً على حين غرة، أو جاءكم وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه **﴿هل يُهْلَكُ إلا القومُ الظالمون﴾** هل يُهلك الله منا ومنكم، إلا الظالم الفاجر؟ **﴿وما نُرْسِلُ المرسلينَ إلاَّ مبشِّرينَ ومنذرينَ﴾** وما نرسل الرسل إلا ببشارة المتقين بالجنة والفوز المبين، وبإنذار العصاة المجرمين بالنار والعذاب المهين **﴿فمنْ آمَنَ وأَصْلَحَ﴾** فمن صدَّق رسلنا، وعمل صالحاً في الدنيا **﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** فلا خوفٌ عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم في الدنيا **﴿والذينَ كذَّبوا بآياتنا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾** وأما الذينَ كذَّبوا بحججنا وآياتنا، فسينالهم عذابنا وعقابنا، بسبب كذبهم وخروجهم عن طاعة الله إلى معصيته **﴿قل لا أقول لكم عندي خزائنُ اللهِ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لنبوتك: لستُ أقول إني أنا الربُّ الذي له خزائن السمواتِ والأرض **﴿ولا أعلم الغيب﴾** ولستُ أعلم غيوب الأشياء الخفية، التي لا يعلمها إلا الله جل وعلا، الذي لا يخفى عليه خافية **﴿ولا أقول لكم إني مَلَكٌ﴾** ولا أدَّعي أني مَلَكٌ، لأنه لا ينبغي للمَلَك أن يكون ظاهراً بصورته لأبصار البشر، لا أقول لكم ذلك حتى تجحدوا نبوتي **﴿إنْ أَتَّبِعُ إلا ما يُوْحَى إليَّ﴾** ما أتَّبع إلا وحي الله وتنزيله الذي أنزله عليَّ **﴿قل هل يستوي الأعمى والبصيرُ﴾** قل لهم: هل يستوي الكافر الذي قد عمي عن الحق، والمؤمن الذي قد أبصر آيات الله وحججه، فاهتدى بها واستضاء بضيائها؟ **﴿أفلا تتفكرونَ﴾** أفلا تتفكرون فيما أدعوكم إليه، فتعلموا صحة ما أقول؟ **﴿وأَنْذِرْ به الَّذينَ يَخافُونَ أنْ يُحْشَرُوا إلى رَبِّهِمْ﴾** وأنذر بالقرآن الذين يُصدِّقون بوعد الله ووعيده، ويعلمون أنهم يحشرون إلى ربهم، فهم مشفقون من عذابه **﴿لَيْس لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ﴾** ليس لهم ناصرٌ ينصرهم فيستنقذهم منه، ولا شافع يشفع لهم عند الله فيخلصهم من عقابه **﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** أنذرهم كي يتقوا الله

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾

***

في أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويجتنبوا معاصيه ﴿ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاة والْعَشِيِّ﴾ ولا تطرد يا محمد هؤلاء المؤمنين الضعفاء، الذين يذكرون ربهم بالصباح والمساء[١] ﴿يريدون وجهه﴾ يلتمسون بذلك القربة إلى الله، والدنوَّ من رضاه ﴿ما عليكَ من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ ما عليك من حساب ما رزقتهم من شيء، وما عليهم من حساب ما رزقتك من شيء ﴿فتطردهم فتكونَ من الظالمين﴾ فإن طردتهم وأقصيتهم عنك، تكون ظالماً لنفسك ﴿وكذلكَ فَتَنَّابعضهم ببعضٍ﴾ وكذلك ابتلينا واختبرنا بعض الناس ببعض، بالغنى والفقر، والقوة والضعف، والعز والذل، والهدى والضلال ﴿لِيَقُولُوا أَهْؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عليهم من بيننا﴾ كي يقول من أضلَّه الله وأعماه عن سبيل الحق: أهؤلاء تفضَّل الله عليهم دوننا بالهدى والرشد وهم فقراء ضعفاء، ونحن أغنياء أقوياء؟ قالوا ذلك استهزاءً وسخريةً بالمؤمنين ﴿أليس الله بأعلمَ بالشاكرينَ﴾ أليس الله أعلم بمن كان في خلقه شاكراً، فيمنَّ عليه بالهداية والإيمان جزاء شكره نعمة ربه!! ﴿وإذا جاءك الذينَ يؤمنون بآياتنا﴾ وإذا جاءك القوم الذين يُصدِّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا، مسترشدين عن ذنوبهم التي سلفت منهم ﴿فقل سلامٌ عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمةَ﴾ فلا تؤيسهم وقل لهم: سلامٌ من الله عليكم، قضى ربكم الرحمة بخلقه ﴿أنه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ﴾ أن من اقترف منكم ذنباً فجهل بسببه[٢] ﴿ثُمَّ تاب مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ﴾ ثم تاب من ذنبه، وأصلح عمله ﴿فَأَنَّهُ غفورٌ رحيمٌ﴾ فأن الله ساترٌ لذنبه إذا تاب وأناب، رحيمٌ بعباده لا يعاقبهم بعد التوبة ﴿وكذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ﴾ نبيّن الحجج والأدلة، ونوضّحها حتى يظهر الحق من الباطل ﴿ولتَسْتَبِينَ سبيلُ المجرمينَ﴾ ولتتضح طريق المجرمين ﴿قل إني نُهيتُ أن أعبد الذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ

---

(١) روي أن المشركين مرُّوا بالنبي ﷺ وعنده صهيبٌ، وعمَّار، وبلال، وخباب، ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا يا محمد: رضيتَ بهؤلاء من قومك؟ اطردهم عنك، فلعلك إن طردتهم أن نتبعك!! فنزلت الآية، قال ابن كثير: معنى الآية لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك.

(٢) قال مجاهد: «بجهالةٍ» أي من جهلٍ، لا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته ركب الأمر.

قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

***

الله﴾ قل لهم: إن الله نهاني أن أعبد الأوثان والأنداد التي عبدتموها من دون الله ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ لن أتبعكم إلى ما تدعونني إليه، ولا أعطيكم هواكم فيه ﴿قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين﴾ إني إن فعلت ذلك، فقد سلكت غير الهدى، وصرت ضالاً مثلكم ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ إني على بيانٍ وبرهان، من توحيد ربي ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ وكذَّبتم أنتم بربكم ﴿مَا عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ ليس عندي ما تستعجلون به من عذاب الله، ولستُ بقادرٍ عليه ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله﴾ ما الحكمُ - فيما تستعجلون به من عذاب الله - إلا لله الذي لا يجور في حكمه، وبيده الخلق والأمرُ ﴿يَقُصُّ الحقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ يقضي الحقَّ بيني وبينكم، ويفصل بين المحق والمبطل، وهو خير الفاصلين بيننا بقضائه وحكمه ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: لو أن ما تستعجلون به من العذاب بيدي، لعاجلتكم بالذي تسألوني من ذلك، ولكنه بيد الله ﴿وهو أعلم بالظالمين﴾ وهو أعلم بوقت إرساله على الظالمين، والانتقام منهم ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغيب لا يعلمها إلاّ هو﴾ وعند الله خزائن الغيب، وعلم ما غاب عن خلقه فلم يدركوه، مما استأثر الله بعلمه، لا يعلم ذلك إلاهو﴿ويعلم ما في البرّ والبحر﴾ويعلم أيضاً كل ماحواه البرُّوالبحر، لا يخفى عليه شيء منه ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا﴾ وما تسقط ورقة في الصحارى والبراري، ولا في القرى والأمصار، إلا الله يعلمها﴿وَلَا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رطب ولا يابسٍ إلاّ في كتابٍ مبين﴾ ولا شيءٍ مما هو موجود أو سيوجد، إلا وهو مثبتٌ في اللوح المحفوظ مكتوب فيه ﴿وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم، ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وفي الآية احتجاجٌ على المشركين، الذين ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم، وبعثهم بعد فنائهم، فإن الذي يقبض أرواحهم في المنام ويبعثهم في النهار، قادرٌ على إحيائهم بعد مماتهم ورد أرواحهم إلى أجسادهم ﴿ثم يبعثكم فيه ليُقْضَى أجلٌ مسمّى﴾

حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم

***

ثم يوقظكم من منامكم في النهار، لتبلغوا المدة التي حدَّدها الله لحياتكم **﴿ثم إليه مرجعكم﴾** ثم إليه معادكم ومصيركم **﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾** ثم يخبركم بأعمالكم ويجازيكم عليها، إن خيراً فخيرٌ، وإن شراً فشرٌ **﴿وهو القاهر فوق عباده﴾** وهو الغالب على خلقه، العالي عليهم بقدرته، لا المقهور المعلوُّ عليه لذلَّته، كأوثانهم وأصنامهم **﴿ويُرْسِلُ عليكم حَفَظَةً﴾** ويرسل عليكم ملائكة يتعاقبونكم ليلاً ونهاراً، يحفظون أعمالكم ويحصونها **﴿حتى إذا جاءَ أَحَدَكُمُ الموتُ توفته رسلنا وهم لا يُفرِّطونَ﴾** حتى إذا حان أجل أحدكم وحضرت وفاتُه، توفته ملائكتنا الموكلون بقبض الأرواح، وهم لا يفرّطون في حفظ ذلك ولا يُضيّعـون. **قـال ابن عباس**: لِمَلَك الموتِ أعوانٌ من الملائكة **﴿ثم رُدُّوا إلى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾** ثم ردتهم الملائكة الذين قبضت أرواحهم، إلى الله سيِّدهم الحقِّ **﴿أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾** ألا لله الحكم والقضاء، وهو أسرع من أحصى أعمالكم وآجالكم، وعرف مقاديرها وأحوالها **﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ﴾** قل يا محمدلهؤلاء المشركين: من الذي ينجيكم غير الله إذا ضللتم في البرّ فأخطأتم الطريق، أو ركبتم في البحر فأظلم عليكم السبيل؟ **﴿تدعونه تضرعاً وخفيةً﴾** تدعونه جهراً وسرّاً قائلين **﴿لئن أنجانا من هٰذِهِ لَنكونَنَّ من الشَّاكرينَ﴾** لئن أنجيتنا يا رب من هذه الشدة، لنكونن ممَّن يوحّدك ويشكرك، ويخلص لك الطاعة والعبادة **﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا ومِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾** قل لهم: الله وحده القادر على تفريج الكرب عنكم، ينجيكم من كل شدَّة وهول، لا آلهتكم التي تشركونها مع الله **﴿ثم أنتم تشركونَ﴾** ثم أنتم ـ بعد تفضله عليكم بكشف الكرب ـ تشركون معه آلهتكم وأصنامكم **﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم﴾** قل لهم: إن الله قادر على إرسال عذاب عليكم ـ بسبب شرككم وكفرانكم نِعَمه ـ من فوقكم بالرجم أو الطوفان، أو من تحت أرجلكم بالخسف والزلزال **﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيعاً ويُذِيقَ بعضكم بَأْس بعضٍ﴾** أو يخلطكم فيجعلكم فرقاًوأحزاباً، يقتل بعضكم بعضاً[1]. **قال ابن عباس**: يُسلِّط بعضكم على بعض بالقتل والعذاب **﴿انظر كيف نُصَرِّفُ لهمُ الآياتِ**

---

(١) روي أنه لما نزلت **﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾** قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك **﴿أو من تحت** =

بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

***

لعلَّهم يفقهونَ﴾ انظر يا محمد كيف نبيّن ونوضّح لهم الحجج، ليفهموا ويتدبروا آيات الله وحججه وبراهينه **﴿وكذَّب به قومك وهو الْحَقُّ﴾** وكذَّب بالقرآن[1] قومك ـ كفار مكة ـ وهو الحقُّ الذي لا شك فيه **﴿قل لستُ عليكم بوكيلٍ﴾** قل لهم: لستُ عليكم بحفيظٍ ولا رقيب، وإنما أنا مبلِّغ **﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾** لكل خبرٍ نهاية ينتهي إليها، فيتبين حقه وصدقه، من باطله وكذبه، وسوف تعلمون حقيقته عند حلول العذاب بكم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ وإذا رأيت المشركين الذين يخوضون في آيات الله بالاستهزاء والتكذيب **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾** فلا تجلس معهم حتى يأخذوا في حديث آخر، غير الاستهزاء بآيات الله **﴿وإمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشيطانُ﴾** وإن أنساك الشيطان نهينا عن الجلوس معهم، ثم ذكرت ذلك **﴿فلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** فلا تقعد بعد التذكر معهم **﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيءٍ﴾** وليس على من اتقى الله فأطاعه، شيء من التَّبعة والإثم، إذا اجتنبهم وأعرض عنهم **﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾** ولكنْ أمرناهم بالإعراض عنهم تذكيراً لهم، ليتقوا الخوض فيها ويتركوا ذلك، **قال السدي**: إذا رأوكم لا تجالسونهم استحيوا منكم فكفُّوا عن ذلك **﴿وذر الذينَ اتخذوا دينهم لَعِباً وَلَهْواً﴾** اترك هؤلاء الذين اتخذوا دين الله سخريةً واستهزاءً **﴿وَغرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** وخدعتهم زينة الحياة الدنيا، حتى نسوا المعاد والمصير **﴿وَذَكِّرْ به أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبَتْ﴾** وذكر بالقرآن كيلا ترتهن نفس بذنوبها، فتُسلَم للهلاك **﴿لَيْس لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وليٌّ ولا شَفيعٌ﴾** ليس لها أحد ينصرها فينقذها من الله، ولا شفيع يشفع لها عنده **﴿وإنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخذ منها﴾** وإن تفتد نفسها بكل فداءٍ لا يُقبل منها، **قال قتادة**: لو جاءت بملء الأرض ذهباً لم يُقبل منها **﴿أولئك الذين أُبْسِلُوا بما كسبوا﴾**

= أرجلكم﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أو يلبسكم شِيَعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله ﷺ: هذه أهون، أو أيسر» رواه البخاري.

(١) هذا قول السُّدي.

يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ

***

أسلموا لعذاب الله، بسبب ما اجترحوا من الأوزار والآثام ﴿لهم شرابٌ من حميم وعذابٌ أليم﴾ لهم ماءٌ حار في جهنم لا يروي عطشهم ولهم مع الحميم العذابُ الأليم، والهوانُ المقيم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ بسبب كفرهم في الدنيا، وعبادتهم غير الله ﴿قل أَنَدْعُوامِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُنَا ولا يَضُرُّنَا﴾ قل لهم: أنعبد من دون الله حجراً أو خشباً لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، وندع عبادة الله الذي بيده النفع والضر، والحياةُ والموت؟ ﴿ونُرَدُّ على أعقابنا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ﴾ ونردُّ من الإسلام إلى الكفر، بعد أن وفقنا الله له؟ ﴿كالذي استهوته الشياطينُ في الأرضِ حيران﴾ فيكون مثلنا مثل الرجل الذي أغوته الشياطين وأضلته، حتى لم يهتد للمحجة، وجعلته حيران في الأرض ﴿له أصحابٌ يدعونه إلى الهدى ائتنا﴾ له أصحاب يدعونه إلى طريق الهدى، يقولون له: ائتنا فكن معنا على الدين الحقِّ، وهو يأبى ذلك ويتَّبع داعي الشيطان[1] .وهذا مثل ضربه الله تعالى لمن كفر بالله بعد إيمانه، فاتَّبع الشياطين من أهل الشرك والضلال، وترك أصحابه الذين كان معهم على الهدى والاستقامة ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾ قل لهم: إن الهدى هو طريق الله الذي بيَّنه وأوضحه لنا، لا ما تدعونا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿وأُمرنا لنسلم لربِّ العالمينَ﴾ وأمرنا ربنا أن نخلص له العبادة، ونخضع له بالذلة والطاعة ﴿وأَنْ أَقيمُوا الصَّلاة واتَّقوه﴾ وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقوى الله في جميع الأحوال ﴿وهو الذي إليه تُحشرون﴾ وربكم هو الذي تجمعون إليه يوم القيامة، فيجازي كل عاملٍ بعمله ﴿وهو الذي خلق السمواتِ والأرضَ بالحقِّ﴾ وهو تعالى المنفرد بخلق السموات والأرض، خلقها حقاً وصواباً، لا باطلاً وخطأً كقوله تعالى «وما خلقنا السماءَ والأرضَ وما بينهما باطلاً» ﴿ويوم يقول كُنْ فيكونُ﴾ ويوم يقول للأرض كن فتكون الأرضُ غير الأرض، وتُبدَّل السموات غير السموات ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ وعده الحقُّ الذي لا شك فيه ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ في

---

(١) قال ابن عباس: هذا مثلٌ ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعون إلى الله، كمثل رجل ضلَّ عن الطريق وتاه فيه، وناداه منادٍ يا فلان: هلمَّ إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه إلى الطريق، فإن اتبع الداعي الأول ألقاه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق.

وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾

***

الصُّورِ﴾ وله الملك يومئذٍ، لا منازع له فيه **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** عالمُ ما يغيبُ عن حواسكم وأبصاركم، وما تعاينونه فتشاهدونه أيها الناس **﴿وهو الحكيمُ الخبيرُ﴾** وهو الحكيم في تدبيره وتصريفه، الخبيرُ بأعمال وأفعال عباده. أخبر تعالى أنه المنفرد بخلق السموات والأرض، دون ما سواه من الأوثان والأصنام، ليعرفوا بها صانعها، وليستدلوا على عظيم قدرته وسلطانه، فيخلصوا له العبادة، وليعرّفهم خطأ ما هم مقيمون عليه من عبادة ما لا يضر ولا ينفع

﴿وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أتتخذ أصناماً آلهةً﴾ واذكر يا محمد لقومك حين قال خليلي إبراهيم لوالده «آزر»[1] عائباً عبادته الأصنام: أتتخذ آلهةً من الأصنام تعبدها وتتخذها رباً، دون الذي خلقك فسوَّاك ورزقك؟ **﴿إني أراكَ وَقَوْمَكَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** إني أراكَ يا آزرُ، وقومَك الذين يعبدون معك الأصنام، في ضلالٍ واضح، وزوالٍ عن محجة الطريق القويم **﴿وكذلك نُري إبراهيم ملكوتَ السَّموات والأَرْض﴾** وكما أرينا إبراهيم البصيرة في الدين، نريه مُلْك السموات والأرض، وما فيهما من مخلوقات الله من الشمس، والقمر، والنجوم، والشجر، وغير ذلك من عظيم سلطان الله فيهما **﴿وليكون من الموقنينَ﴾** وليكون ممن يوقن بوحدانية الله، ويعلم حقيقه ما هداه الله إليه من أمر الإيمان **﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً﴾** فلما واراه الليلُ وغيَّبه، أبصر كوكباً حين طلع **﴿قَالَ هٰذَا رَبِّي﴾** قال: هذا ربي[2]، معارضة لقومه ـ لإقامة الحجة عليهم في بطلان عبادة غير الله ـ **﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحبُّ الآفلينَ﴾** فلما غاب الكوكب وذهب، قال: لا أحبُّ من يغيب **﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي﴾** فلما رأى القمر طالعاً قال هذا ربي **﴿فلما أفل قال لئن لم يهدِني ربي لأكوننَّ من القوم الضَّالِّينَ﴾** فلما غاب قال لئن لم يوفقني ربي لمعرفة

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن «آزر» ليس اسم والد إبراهيم، وإنما هو اسم عمه، وبعضهم إلى أنَّ «آزر» اسم صنم، والصحيح أنه اسم أبيه كما ذهب إليه الجمهور وكما هو ظاهر الآية الكريمة.

(٢) إنما قال ذلك إبراهيم على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، ولإقامة الحجة على قومه المشركين في عبادتهم الأصنام، إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسنَ وأبهج من الأصنام، ولم تكن مع ذلك معبودة، لأنها آفلة زائلة غير دائمة، فالأصنام التي هي دونها في الحسن، وأصغر منها في الجسم، لا يصح أن تكون معبودةً ولا آلهة، ومما يدل على أن المراد إقامة الحجة على قومه قوله تعالى بعد سرد هذه القصة﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه. .﴾الآية وقيل: إن ذلك كان منه حال الطفولة. وهذا ضعيف أيضاً لقوله تعالى﴿ولقد آتينا إبراهيم رشدَه من قبلُ. . .﴾

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

***

الحق في توحيده، لأكونن من القوم الذين أخطأوا فلم يصيبوا الهدى ﴿فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي هذا أكبرُ﴾ هذا أكبر من الكوكب والقمر ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ فلما غابت الشمس قال إبراهيم يا قوم: إني بريء من عبادة الآلهة والأصنام ﴿إني وَجَّهْتُ وجهي للذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ﴾ إني وجهت وجهي للدائم الذي يبقى ولا يفنى، الذي ابتدع خلق السموات والأرض ﴿حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق، ولستُ ممن يدين دينكم، ويتبع ملتكم أيها المشركون ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ وجادله قومه في توحيد الله ﴿قَالَ أتحاجُّوني في اللهِ وقد هَدَانِ﴾ قال أتجادلونني في توحيدي لربي، وقد وفقني لمعرفة وحدانيته وبصَّرني طريق الحق؟ ﴿ولا أخاف ما تشركون به إلاَّ أن يشاء ربي شيئاً﴾ ولا أرهب من آلهتكم أن تنالني بسوء ومكروه، إلا إذا شاء ربي شيئاً من ذلك ﴿وَسِعَ ربي كلَّ شيءٍ علماً﴾ وسع علمُ ربي كل شيء، فلا يخفى عليه شيءٌ ﴿أَفَلَا تتذكَّرون﴾ أفلا تعتبرون خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادة خشبة منحوتة لا تقدر على نفع ولا ضر؟ ﴿وكيف أخاف ما أشركتم﴾ وكيف أرهب آلهتكم التي عبدتموها من دون الله، وهي لا تضر ولا تنفع[1] ﴿ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم يُنزِّل به عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾ ولا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، فتشركون به ما ليس لكم به حجة ولا برهان؟ ﴿فَأَيُّ الفَرِيقَيْن أَحَقُّ بالأَمْنِ﴾ فأينا أحقُّ بالأمن من عذاب الله، من يعبد رباً واحداً، أم من يعبد أرباباً كثيرة؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني؟ ﴿الَّذينَ آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلمٍ﴾[2] الذين صدَّقوا الله، وأخلصوا له العبادة، ولم يخلطوا إيمانهم وعبادتهم بشرك ﴿أولئك لهم الأمنُ﴾ أولئكَ لهم الأمن من عذاب الله ﴿وهم مهتدونَ﴾ وهم السالكون طريق الرشاد

---

(١) خوفه قومه أن تمسه آلهتهم بسوء، لنيله منها فأجابهم بذلك.

(٢) المراد بالظلم في الآية «الشرك» ويدل عليه ما روي في الصحيحين أن الآية لما نزلت شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: ليس بذلك، ألم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ !؟

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَٰهَا إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

***

والنجاة **﴿وتلك حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيمَ على قومِهِ﴾** وهذه حجتنا الدامغة أعطيناها لإبراهيم على قومه قطعاً لعذرهم **﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾** رفعنا بها درجته عليهم، وشرَّفناه بها عليهم في الدنيا والآخرة **﴿إن ربك حكيمٌ عليمٌ﴾** حكيمٌ في تدبير شئون خلقه، عليمٌ بأحوالهم.

﴿ووهبنا له إسحٰقَ ويعقوبَ﴾ وهبنا له ذريةً شرَّفناهم بالكرامة، وخصصناهم بالنبوَّة، منهم ابنه إسحٰق، وابن ابنه يعقوب **﴿كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبلُ﴾** هدينا جميعهم لسبيل الرشاد، كما هدينا نوحاً لمثل ذلك **﴿وَمِنْ ذُرِّيتِهِ دَاوُدَ وسُلَيْمانَ وأَيُوب ويُوسُفَ وَمُوسى وهَارُونَ﴾** وهدينا أيضاً من ذرية نوح[١] هؤلاء الأنبياء الكرام «داود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهارون» **﴿وكذلكَ نجزي المحسنينَ﴾** وكما جزينا هؤلاء بحسن طاعتهم، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن تقيّ **﴿وزَكَرِيَّا ويَحْيى وعِيسى وإلْيَاس كلٌ من الصَّالِحينَ﴾** وهدينا كذلك من ذريته «زكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس» وكلٌ من هؤلاء المذكورين، من عباد الله الصالحين **﴿وَإِسْماعِيلَ والْيَسَعَ ويونس ولوطاً وكلاً فضَّلنا على العالمينَ﴾** وهدينا أيضاً من ذرية نوح «إسماعيل، والْيسع، ويونس، ولوطاً» وكلاً من نوح وأولاده الأنبياء وفقناهم للخير، وفضلناهم جميعاًعلى عالِمَي أزمانهم **﴿ومن آبائهم وذريّاتهم وإخوانهم﴾** وهدينا من آباء هؤلاء، ومن ذرياتهم، وإخوانهم، آخرين سواهم لم نذكرهم **﴿واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم﴾** واخترناهم لإبلاغ رسالاتنا، وأرشدناهم إلى طريقٍ مستقيم لا عوج فيه، وهو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لأنبيائه **﴿ذلكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾** هذا الهدى الذي هديتُ إليه الأنبياء والرسل، هو توفيقُ الله ولطفه الذي يوفّق به من يشاء من عباده **﴿ولو أشركوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانوا يَعْملونَ﴾**

---

(١) اختار ابن جرير عود الضمير في قوله﴿ومن ذريته﴾على نوح لأنه أقرب المذكور، ولأن «لوطاً» لم يكن من ذرية إبراهيم، واختار بعض المفسرين أن الضمير يعود على إبراهيم، لأنه الذي سيق الكلام من أجله، ويكون ذكر لوط بين الذرية من باب التغليب، ولعله الأرجح والله أعلم.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

***

ولو أشرك هؤلاء الأنبياء[1]، فعبدوا مع الله غيره، لبطل أجر أعمالهم، لأن الله لا يقبل مع الشرك عملاً ﴿أُولَئِكَ الذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ﴾ هؤلاء الذين اختارهم الله لرسالته، هم الذين أعطيناهم الكتب المنزَّلة، والفهم بالكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام، وأعطيناهم النبوَّة ﴿فَإنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾ فإن يجحد بآيات كتابي هؤلاء المشركون من قومك ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ فقد استحفظناها واسترعينا القيامَ بها رسلنا وأنبياءنا، الذين لا يجحدون بل يؤمنون ويصدّقون ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ هؤلاء هم الذين وفَّقهم الله لدينه الحقِّ، والعمل بشريعته، فاقتد بمنهجهم يا محمد، واتخذهم لك أسوة ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: لا أطلب منكم على تبليغي لكم القرآن أجراً آخذه منكم ﴿إنْ هو إلاَّ ذكرى للعالمينَ﴾ ما هذا إلا تذكيرٌ لكم ولجميع الخلق، لتتذكَّروا وتنزجروا ﴿وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾ وما عظَّموا الله حقَّ تعظيمه ﴿إذْ قَالُوا ما أَنْزَلَ الله على بشرٍ من شيءٍ﴾ حين قالوا: لم ينزل الله على آدمي كتاباً ولا وحياً ﴿قل من أنزل الكتابَ الذي جَاءَ بِهِ موسى﴾ قل لهم: من أنزل التوراة التي جاء بها موسى ﴿نوراً وهدى للنَّاس﴾ ضياءً من ظلمة الضلالة، وبياناً للناس يبيِّن لهم الحقَّ من الباطل ﴿تَجْعَلونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفونَ كثيراً﴾ تجعلونه يا معشر اليهود مكتوباً في قراطيس - صحف - تظهرونها للناس، وتكتمون كثيراً منها ممَّا فيها أمر محمد ﷺ ونبوتِّه ﴿وعُلِّمْتُمْ ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكُمْ﴾ وعلِّمتم يا معشر العرب ما لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم من أخبار الأمم السابقين ﴿قلْ الله ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ قل لهم في الجواب الله أنزله، ثم اتركهم فيما يخوضون فيه من الباطل يستهزءون ويسخرون وفيه وعيدٌ للمشركين وتهديدٌ لهم ﴿وهذا كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وهذا القرآن الذي أوحيناه إليك يا محمد، كثير النفع والبركة ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ صدَّق ما قبله من كتب الله ﴿وَلِتُنْذِرَ

---

(١) هذا على سبيل الفرض والتقدير أي لو فُرض وحدث هذا لأحبط الله أعمالهم، وفي هذا تنبيهٌ للناس إلى خطر الشرك، فإن الأنبياء على جلالة قدرهم لو حصل منهم ذلك لبطل عملهم، فكيف بعامة الناس؟!

وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ

***

أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَها﴾ ولتنذر بهذا القرآن أهل مكة ، ومن حولها من الكفار الجاحدين برسل الله **﴿والذينَ يؤمنونَ بالآخرة يؤمنونَ به﴾** والذين يصدِّقون بالمعاد والثواب والعقاب، يصدِّقون بهذا الكتاب المنزل عليك يا محمد **﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾** ويحافظون على الصَّلوات المفروضة، التي أمر الله بإقامتها **﴿ومَنْ أظلمُ ممن افترى على الله كذباً﴾** ومن أظلم ممن اختلق الكذب على الله؟ **﴿أو قال أُوحِي إليَّ ولم يُوْحَ إليه شيءٌ﴾** أوزعم أن الله أوحى إليه، فبعثه نبياً وأرسله نذيراً، وهو مبطلٌ كاذب، كمسيلمة الكذَّاب والعنسيّ؟ **﴿ومَنْ قالَ سأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾** ومن زعم أنه لو شاء لقال مثل ما قال الله[1]؟ **﴿وَلَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمونَ في غَمَراتِ الْمَوْتِ﴾** ولو ترى الظالمين وقد غشيتهم سكراتُ الموتِ **﴿والملائكةُ بَاسِطُوا أيديهِمْ أخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾** والملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم قائلين لهم: أخرجوا أرواحكم من أجسامكم[2] إلى سخط الله ولعنته **﴿اليومَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الهُونِ﴾** فإنكم اليوم تُثابون على كفركم، بعذاب يهينكم ويذلُّكم، وهو عذاب جهنم **﴿بما كنتم تقولون على الله غيرَ الحقِّ﴾** بقولكم على الله الباطل **﴿وكنتم عن آياته تستكبرون﴾** واستكباركم عن الخضوع لأمره، والانقياد لطاعته **﴿ولقد جئتمونا فُرادى كما خلقناكم أول مرَّة﴾** يقول الله يوم القيامة لهؤلاء المشركين: لقد جئتمونا وُحْداناً كما خلقناكم أول مرة، لا مال معكم ولا شيء، ممَّا كنتم تتباهون به في الدنيا **﴿وتركتُمْ مَا خوَّلناكم وراء ظهوركم﴾** وتركتم أيها القوم ما أعطيناكم من المال والخدم في الدنيا **﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾** وما نرى معكم شفعاءكم الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم

---

(١) هذا كقول المشركين **﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾**

(٢) قال ابن كثير: إن الكافر إذا احتضر، بشَّرته الملائكةُ بالعذاب والنكال، والحميم والجحيم، وغضب الرحمن الرحيم، فتفرق روحه في جسده وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم

لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ * إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

***

يشفعون لكم عند ربكم ﴿لقد تقطَّع بينكم﴾ لقد تقطعت بينكم الأرحام فلا تواصل ولا تناصر ﴿وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمونَ﴾ وغاب عنكم الشركاء والشفعاء.

﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ الله جل وعلا هو الذي شقَّ الحبَّ فأخرج منه الزرع، وفلَق النَّوى فأخرج منه الشجر. **قال السدي**: فلق الحبَّ عن السنبلة، وفلَق النواةِ عن النخلة ﴿يُخرجُ الحيَّ من الميِّتِ ومخرجُ الميِّت من الحيّ﴾ يخرج السنبل الحي من الحبِّ الميّت، ويخرج الحبَّ الميت من السنبل الحي، والشجر الحيَّ من النوى الميت، والنوى الميت من الشجر الحي، **وقال ابن عباس**: يخرج النطفة الميتة من الحيّ، ثم يخرج من النطفة بشراً حياً ﴿ذَلِكُمُ اللهُ﴾ فاعل ذلك كله اللهُ جل جلاله ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تُصرفون عن الحقّ، وتعبدون ما لا ينفع ولا يسمع؟ وتتركون عبادة من أخرج لكم الزروع والحروث والثمار؟ ﴿فالِقُ الإصباحِ﴾ هو الذي شقَّ عمود الصبح عن ظلمة الليل حتى أضاء ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ وجعلَ الليل للراحة، يسكن فيه كل متحرك بالنهار، ويهدأ فيستقر في مكانه ومأواه ﴿والشَّمْس والْقَمَرَ حُسْباناً﴾ وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب ويدوران لمصالح الخلق، ليعرفوا بهما الأيام والشهور والسنين ﴿ذلَكَ تقديرُ العزيزِ العليم﴾ هذا الفعل العظيم هو تقدير العزيز الذي عزَّ سلطانه، العليم بمصالح خلقه ﴿وهو الذي جعلَ لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرِّ والبحرِ﴾ وهو تعالى الذي خلق لكم النجوم، لتهتدوا بها إلى الطريق إذا ضللتم، وتحيرتم في ظلمة الليل في البر والبحر[1] ﴿قد فَصَّلْنَا الآياتِ لقوم ٍ يعلمونَ﴾ قد بيَّنا الحجج والأدلة ووضحناها، ليتدبرها أولو العلم والفهم ﴿وهو الذي أنشأكم من نفسٍ واحدةٍ﴾ ابتدأ خلقكم فأوجدكم من آدم عليه السلام ﴿فمستقرٌّ ومستودَعٌ﴾ فمستقرٌّ في الأرحام، ومستودع في الأصلاب[2] ﴿قد فصَّلنا الآيات لقوم ٍ يفقهون﴾ قد بينا

---

(١) عنى بالظلمات: ظلمة الليل، وظلمة الضلال، وظلمة الماء في البحر.

(٢) هذا ما رجحه ابن كثير، وقيل: المستقرُّ ظهر الأرض، والمستودع بطنُها، فإن الإنسان يعيش على ظهرها ثم يموت فتكون الأرض مستودعاً له، وذكر الطبري أقوالاً عديدة عن السلف واختار عمومها.

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

***

الحجج والأدلة، لقومٍ يفهمون الآيات والعِبر ﴿وهو الذي أنزل من السماءِ ماءً فأخرجنا به نباتَ كل شيءٍ﴾ أخرجنا بالماء جميع أنواع النبات، مما يتغذى به الناسُ والأنعام والطير والوحش ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنهُ خَضِراً﴾ فأخرجنا من الماء زرعاً رطباً أخضر ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَراكِباً﴾ نخرج منه حباً يركب بعضه بعضاً كالسنابل ﴿ومن النخل من طَلْعِها قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ ومن شجر النخيل عذوقٌ ـ عناقيد ـ قريبة متهدّلة ﴿وجناتٍ من أعنابٍ﴾ وبساتين من أعناب ﴿والزيتونَ والرمان مشتبهاً وغير متشابهٍ﴾ وشجر الزيتون والرمان، متشابهاً في الورق، مختلفاً في الطعم والثمر ﴿أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعِهِ﴾ انظروا إلى ثمر هذه الأشجار إذا أثمرت ونضجت، نظر اعتبار ﴿إن في ذلكم لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ إنَّ فيما ذكر من إنزال الماء وإخراج النبات ، لبراهين ساطعة لقوم يصدّقون بوحدانية الله وقدرته

﴿وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ وجعل الكفار الجنَّ شركاء لله، والله خلقهم منفرداً بخلقهم ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بنِينَ وبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ واختلقوا ونسبوا له البنين والبنات، جهلاً منهم بالله وبعظمته ﴿سبحانه وتعالى عمَّا يصفونَ﴾ تنزَّه الله وترفَّع عما يصفه به هؤلاء الجهلة من خلقه ﴿بَدِيعُ السَّموات والأَرْضِ﴾ مبتدعهما ومحدثهما بعد أن لم يكونا، هو جل جلاله الذي ابتدع خلقهما ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ كيف يكون له ولدٌ، والولد إنما يكون من الزوجة؟ ﴿ولم تكنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ وليس له تعالى زوجة، حتى يكون له منها الولد؟ ﴿وخلَقَ كلَّ شيءٍ﴾ وهو تعالى خالقُ كل شيء وبارئه وصانعه ﴿وهو بكل شيءٍ عليمٌ﴾ عالمٌ بكلِ شيء، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُكُمْ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ﴾ لا معبود بحقٍ سواه، فهو ربكم لا هذه الآلهة التي لا تملك نفعاً ولا ضراً ﴿فاعبدوه﴾ فاخضعوا له وحده، وذلُّوا له بالطاعة والعبادة والخدمة ﴿وهو على كل شيءٍ وكيلٌ﴾ هو الرقيب والحفيظ على كل ما خلق، يقوم بتدبيره وتصريفه بقدرته ﴿لا

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

***

تُدركه الأبْصَارُ وهو يُدْرِكُ الأبصارَ﴾ لا تحيطُ به الأبصارُ، وهو يُحيط بها[1] **﴿وهو اللّطِيفُ الخبيرُ﴾** وهو اللطيف بعباده، العليمُ بتدبير شؤونهم ومصالحهم **﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** قد جاءكم حججٌ بيّنةٌ من ربكم، تبصرون بها الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر **﴿فَمَنْ أَبْصَر فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِي فَعَلَيْهَا﴾** فمن تبيَّنها واهتدى بها فلنفسه بغى الخير، ومن عمي عن دلالتها ولم يُصدِّق بها فلنفسه أساء **﴿وَمَا أَنَا عليكُمْ بِحَفيظٍ﴾** ولستُ برقيبٍ عليكم أُحصي عليكم أعمالكم، وإنما أنا مبلِّغ **﴿وَكَذَلِكَ نُصرِّفُ الآيات﴾** وكذلك نبيِّن الحجج والبراهين **﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾** وليقول المشركون: قرأتَ وتعلمتَ من أهل الكتاب **﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ﴾** ولنبيِّن الحقَّ لقومٍ يفهمون ويعقلون **﴿اتَّبِعْ ما أُوحي إليكَ من ربكَ﴾** اتَّبعْ يا محمد ما أمرك به ربك، ودَعْ ما يدعوك إليه المشركون من عبادة الأوثان والأصنام **﴿لا إله إلا هوَ﴾** لا معبود يستحق العبادة إلا الله **﴿وأعرضْ عن المشركينَ﴾** واترك جدال المشركين وخصومتهم **﴿ولو شاءَ اللهُ ما أشركوا﴾** لو أراد الله لهداهم فلم يشركوا **﴿وما جعلناك عليهم حفيظاً﴾** ولم نبعثك حافظاً تحصي عليهم أعمالهم، وإنما بعثناك رسولاً مبلِّغاً **﴿وما أنتَ عليهم بوكيلٍ﴾** ولست موكلاً عليهم، تقوم بحفظهم وأرزاقهم وأقواتهم **﴿ولا تسبُّوا الَّذينَ يَدْعُونَ مِنْ دونِ اللهِ﴾** ولا تسبُّوا آلهة المشركين وأوثانهم **﴿فيسبُّوا اللهَ عَدْواً بغَيْرِ عِلْمٍ﴾** فيسبُّوا الله اعتداءً وجهلاً، **قال ابن عباس:** قالوا يا محمد: لتنتهيَنَّ عن سبِّ آلهتنا، أو لنهجوَنَّ ربك فنزلت[2] **﴿كذلكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾** مثل ذلك التزيين للمشركين، زيَّنا لكل جماعة عملهم، من طاعة الله ومعصيته **﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فينبئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** ثم مصيرهم إلى

---

(١) فسَّر المعتزلة الإدراك بالرؤية فقالوا: لا تراه الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة، وهذا خطأ واضح، وتأويل باطل، من حيث اللغةُ والشرعُ، فإن الإدراك غير الرؤية، لأن الإدراك معناه الإحاطة بالشيء من جميع جهاته، وأما الرؤية فهي ثابتة بالنصوص الواضحة ففي الصحيحين (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر.) الحديث.

(٢) قال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسبُّ الكفارُ الله عدواً بغير علم، فنزلت الآية.

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

***

ربهم، فيجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخيرٌ وإن شرّاً فشرٌّ ﴿وأقسموا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِمْ﴾ حلف المشركون أوكد الأيمان وأشدَّها ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بها﴾ لئن جاءتهم معجزة تصدِّق ما تقول يا محمد، ليؤمنن بأن ما جئت به حقٌّ، وأنك لله رسول ﴿قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ﴾ قل لهم: الله هو وحده القادر على إتيانكم بها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وما يُدريكم ـ أيها المؤمنون ـ لعلَّ الآيات إذا جاءتهم لا يُصدِّقون بها، فيعاجلوا بالنقمة والعذاب!! ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كما لم يُؤْمنوا به أَوَّل مَرَّةٍ﴾ ونصرِّف قلوب هؤلاء المشركين فنزيغها عن الإيمان، وأبصارهم عن رؤية الحقّ، كما لم يؤمنوا بالله ورسوله من قبلُ ﴿وَنَذَرُهُمْ في طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ونتركهم في تمردهم على الله، واعتدائهم على حدوده يتردَّدون تحيراً، لا يهتدون لحق، ولا يبصرون صواباً ﴿ولو أننا نَزَّلنا إليهم الملائكة﴾ لو نزلنا على المشركين الملائكة حتى رأوهم عياناً ﴿وَكَلَّمَهُمُ المَوْتَى﴾ وأحيينا لهم الموتى، حتى كلّموهم إظهاراً لنبوتك ﴿وحَشَرْنَا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا﴾ وجمعنا عليهم كل شيءٍ مقابلةً ومعاينةً ﴿ما كانوا ليؤمنوا إلَّا أَنْ يشاءَ اللهُ﴾ ما آمنوا ولا صَدَّقوك إلّا أن يشاء الله ذلك ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُوْنَ﴾ يحسبون أنَّ الإيمان إليهم، متى شاءوا آمنوا ومتى شاءوا كفروا، وليس ذلك إلا بيدي ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لكل نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ والْجِنِّ﴾ تسليةٌ للنبي ﷺ أي كما ابتليناك يا محمد بهؤلاء الأعداء من مشركي قومك، كذلك ابتلينا من قبلك من الرسل، بأن جعلنا لهم أعداء يؤذونهم من مردة الإنس والجن ﴿يُوْحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾ يلقي بعضهم ما زيَّنه وحسَّنه بالباطل إلى صاحبه، ليغترَّ به من سمعه فيضلَّ عن سبيل الله ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ ولو أراد اللهُ لدفع غوائلهم وأذاهم عن رسله ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فدعهم وما يختلقون من إفك وزور، واصبر عليهم فإن عقابهم عليَّ ﴿وَلِتَصْغَى إليهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ

---

(١) قال ابن كعب: كلَّم رسول الله ﷺ قريشاً، فقالوا يا محمد: آتنا بشيء من الآيات حتى نصدِّقك! فقال النبي ﷺ: أيَّ شيء تحبون أن آتيكم به! قالوا تجعل لنا الصَّفا ذهباً، فنزلت الآية.

بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ

***

﴿بالآخِرَةِ﴾ ولتميلَ إلى باطلهم قلوب الكفار، الذين لا يصدقون بالآخرة ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا ما هم مُقْتَرِفُونَ﴾ وليحبوا ذلك، وليكتسبوا من الأعمال ما هم مكتسبون ﴿أفغير اللهِ أَبْتغي حَكَماً﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أأطلب حَكَماً أعدلَ من الله؟ ﴿وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ إليكم الكتابَ مُفَصَّلاً﴾ أنزل إليكم القرآن مبيَّناً فيه الحكم واضحاً ﴿والَّذينَ آتيناهُمُ الكِتاب يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ وأهل التوراة والإنجيل، يعلمون أن القرآن منزَّل من عند الله بالحقِّ ﴿فلا تكونَنَّ منَ الممترينَ﴾ فلا تكونن في شكٍ مما قصصنا عليك ﴿وتمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ وكملت آيات القرآن، صدقاً في أخباره، وعدلاً في أحكامه ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ لا مغيِّر لما أخبر في كتابه ﴿وَهُوَ السَّميعُ الْعَليمُ﴾ وهو السميع لأقوال العباد، العليم بأحوالهم ﴿وإنْ تُطِعْ أكثرَ مَنْ في الأرْض يُضِلُّوكَ عَنْ سبيل اللهِ﴾ يضلوك عن دين الله وطريق الحقِّ ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ما يتبعون إلا الظنَّ وإن كان خطأً في الحقيقة، وما هم إلا متخرصون، يظنون الظنون دون علمٍ ويقين ﴿إنَّ ربك هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين﴾ هو جلَّ وعلا أعلم بالضَّالِ عن دينه، والمهتدي من خلقه ﴿فكلوا ممَّا ذُكِرَ اسمُ اللهِ عليهِ﴾ فكلوا ـ أيها المؤمنون ـ ممَّا ذكيتم من ذبائحكم وذبائح أهل الكتاب، دون ذبائح أهل الأوثان ﴿إن كنتم بـآياتـه مؤمنين﴾ إن كنتم حقاً مؤمنين بـآيات القـرآن ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّـا ذُكـر اسم الله عليه﴾ وأيُّ شيءٍ يمنعكم أن تأكلوا ممَّا ذكر اسم الله عليه؟ ﴿وَقَدْ فصَّل لكُمْ مَا حَرَّمَ عليكُمْ إلَّا ما اضْطُرِرْتُمْ إليهِ﴾ وقد بيَّنَ لكم ربكم ما حرَّمه عليكم من المطاعم، إلا ما كان حال الضرورة ﴿وإن كثيراً لَيُضِلُّونَ بأهوائهم بغير علم﴾ وإن كثيراً من الناس المجادلين بالباطل، لَيُضلون

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟

***

أتباعهم بأهوائهم من غير حجة ولا برهان بما يجادلون فيه ﴿**إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بالمعتدين**﴾ أعلم بمن جاوز حدوده فخالفها، وهو لهم بالمرصاد ﴿**وذَرُوا ظَاهِرَ الإثم وباطنه**﴾ اتركوا أيها الناس كل معصيةٍ لله، سرّاً كانت أو علانية ﴿**إِنَّ الَّذينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بما كانوا يَقْتَرِفُونَ**﴾ إن الذين يأتون ما حرَّم الله، سينالون يوم القيامة جزاء ما اكتسبوا من الآثام ﴿**ولا تَأْكُلُوا مما لم يذكر اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾ ولا تأكلوا ممَّا مات فلم تذبحوه، أو يذبحه من يدين بكتاب، فإن أكله معصيةٌ وخروجٌ عن طاعة الله ﴿**وَإِنَّ الشَّياطينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ**﴾ وإن المردة من شياطين الإنس والجن، ليلقون إلى نصرائهم وأعوانهم بالوساوس والأوهام ليخاصموكم في تحريم أكل الميتة، **قال ابن عباس**: قال المشركون للمسلمين: ما قتل ربكم فلا تأكلونه، وما قتلتم أنتم تأكلونه!! فإن ما قتل ربكم - يعنون الميتة - خيرٌ مما تذبحون أنتم بسكاكينكم فنزلت ﴿**وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إنكم لمشركونَ**﴾ وإن أطعمتموهم في أكل الميتة، فقد صرتم مثلهم مشركين ﴿**أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ**﴾ أَوَمنْ كان كافراً - بمنزلة الميت - فهديناه للإيمان، ووفقناه لطريق السعادة ﴿**وجعلنا له نوراً يمشي به في النَّاس**﴾ وجعلنا له نوراً يبصر به الحقَّ، وضياء يستضيء به قصد السبيل بين الناس ﴿**كمنْ مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها**﴾ كمن هو في ظلمات الكفر، لا يُبصر رشداً، ولا يعرف حقاً؟! وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن في الهداية، والكافر في الضلالة ﴿**كذلكَ زُيِّنَ للكافرينَ مَا كَانُوا يَعْمَلونَ**﴾ مثل ذلك التزيين، زيِّنت للكافرين سوء أعمالهم حتى رأوها حسنة ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِر مُجْرِميهَا**﴾ وكذلك جعلنا بكل قريةٍ عظماءها مجرميها، وهم أهل الشرك بالله والعصيان ﴿**ليمكروا فيها**﴾ ليخدعوا ويغرُّوا بالباطل من القول والفعل الناس ﴿**وما يمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرونَ**﴾ ولا يحيق مكرهم إلا بأنفسهم، لأن الله لهم بالمرصاد، وما يدرون ما أعدَّ الله لهم من أليم عقابه ﴿**وَإذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حتَّى نُؤْتَى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ**﴾ وإذا جاء هؤلاء

صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ * لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ

***

المشركين حجة من الله، على صحة ما جاءهم به محمد ﷺ قالوا: لن نصدّق برسالته حتى نُعْطى من المعجزات مثل ما أُعطي الرسل ﴿الله أعلمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ الله أعلم بمن هو أهلٌ للرسالة فيضعها فيه ﴿سَيُصيبُ الَّذينَ أجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ الله وَعَذابٌ شديدٌ﴾ سينال المجرمين ذلةٌ وهوان بتكذيبهم رسوله، ولهم مع الصَّغار عذابٌ شديدٌ عند ربهم ﴿بِمَا كانوا يمكرون﴾ بما كانوا يكيدون للإسلام وأهله ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسْلام ﴾ فمن يرد الله هدايته يفسح صدره للإسلام، حتى يستنير به قلبه، ويتّسع له صدره[1] ﴿ومَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يجعل صَدْرَهُ ضَيِّقاً﴾ ومن أراد إضلاله عن سبيل الهدى، يجعل صدره ضيقاً، لا يدخله نور الإيمان، ولا تصل إليه موعظة ﴿حَرجاً﴾ شديد الضّيق، لغلبة الشرك عليه ﴿كأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ﴾ كأنما يصعدُ في السَّماء من ضيق صدره[2] وهذا مثلٌ ضربه الله لقلب الكافر في شدة تضييقه إياه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء ﴿كَذلِكَ يجعَلُ اللهُ الرِّجس على الَّذينَ لا يُؤْمِنُون﴾ كذلك يسلط الله الشيطان على من أبى الإيمان، فيغويه ويصدُّه عن سبيل الحق ﴿وهذا صِراطُ ربك مُستقيماً﴾ وهذا دين الله الذي ارتضاه لعباده، لا اعوجاج فيه ﴿قد فصَّلنا الآيات لِقَوْمٍ يَذَّكَّرون﴾ قد بينا الحجج والبراهين لمن تذكَّر واعتبر، وخصَّ «الذين يتذكرون» لأنهم أهل التمييز والفهم ﴿لَهُمْ دارُ السَّلامِ عند رَبِّهِمْ﴾ لهم الجنة التي أعدَّها الله لأوليائه في الآخرة ﴿وهو وَلِيُّهُمْ بما كانوا يعملون﴾ والله ناصرهم ومعينهم جزاء طاعتهم لله، واتّباعهم رضوانه ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جميعاً يا مَعْشَر الجنِّ قَد استكثرتُمْ مِنَ الإنْس﴾ ويوم يحشر المشركين مع أوليائهم من الشياطين، فيجمعهم جميعاً في موقف القيامة، ثم يقول: يا معشر الجنّ لقد أضللتم كثيراً من الإنس ﴿وَقالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإنْس رَبَّنا استمتَعَ بَعضُنا بِبعضٍ﴾ وقال أنصارهم من الإنس: يا ربنا استمتع

---

(١) سأل الصحابة النبي ﷺ عن هذه الآية فقالوا: كيف يُشرح صدره يا رسول الله؟ قال: نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح، قالوا: فهل لذلك من أمارة يُعرف بها؟ قال: «الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

(٢) في الآية الكريمة «إعجاز علميّ» كشفه العصر الحديث، فإنَّ من علا في أجواء السماء يشعر بعوارض الاختناق، وكلما ازداد الإنسان علواً وارتفاعاً شعر بضيق التنفس لقلة «الأكسجين» وهذا ما تنبه إليه ركاب الطائرة، ولهذا ينصحونهم باستعمالها عند اللزوم

خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ

***

بعضنا ببعض في الدنيا[١] ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنا الَّذي أَجَّلْت لَنَا﴾ وبلغنا الوقت الذي حدَّدته لموتنا[٢] ﴿قَالَ النَّارُ مثواكم خالدين فيها﴾ قال الله لهم: نار جهنم مكانكم الذي تقيمون فيه، ماكثين فيها أبداً ﴿إلَّا ما شاء اللهُ﴾ إلا مدة ما بين مبعثهم من قبورهم، إلى مصيرهم إلى جهنم ﴿إنَّ ربك حكيمٌ عليمٌ﴾ حكيمٌ في تدبير شؤون خلقه، عليمٌ بأحوالهم ﴿وكذلكَ نولِّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ وكذلك نسلِّط بعض الظَّلمة على بعض، بسبب ما كسبوا من المعاصي

﴿يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ منكُمْ يَقُصُّونَ عليكم آياتي﴾ قد أتاكم رسلٌ منكم، ينبهونكم على خطأ ما كنتم عليه ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ ويحذِّرونكم لقاء عذابي على معصيتكم، فلم تتذكَّروا ولم تعتبروا ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ قالوا: أقررنا واعترفنا بأن رسلك قد أتتنا وبلَّغتنا رسالاتك ﴿وَغرَّتهم الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وخدعتهم زينة الحياة الدنيا ﴿وَشَهِدُوا على أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ وأقرُّوا على أنفسهم، أنهم كانوا في الدنيا كافرين بالله وبرسله ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها غافِلُونَ﴾ إنما أرسلنا الرسل، من أجل أنَّ ربك لم يكن ليهلكهم بشركهم بغير تذكير وتنبيه ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ ولكل عامل مراتب ومنازل من عمله يجازى بها، إن خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ ﴿وَمَا رَبُّكَ بغافل عمَّا يَعْمَلُونَ﴾ والله يحصي عليهم أعمالهم ليجازيهم عليها ﴿وربُّك الغنيُّ ذو الرحمة﴾ وربك يا محمد الغنيُّ عن عباده، ذو الرأفة والرحمة بهم ﴿إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ لو شاء لأهلككم وأتى بخلقٍ غيركم يخلفونكم في الأرض ﴿كما أنشأكم من ذرية قومٍ

---

(١) المراد بالاستمتاع الإنتفاع أي انتفع الإنس بالجنّ بتزيين الشهوات لهم وأصناف المحرمات، والجنُّ بطاعة الإنس لهم والانقياد لحكمهم، حتى صار الجن كالرؤساء للإنس، والإنس كالأتباع.

(٢) قالوا ذلك تحسراً على حالهم بطاعة الشياطين.

مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

***

آخرين﴾ كما أحدثكم من بعد خلقٍ آخرين، كانوا قبلكم قد أهلكوا ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ إنَّ ما وُعدتم به من العقاب واقعٌ بكم، ولن تعجزوا ربكم لأنكم في قبضته ﴿قُلْ يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عاملٌ﴾ قل لكفار قريش: اعملوا على ناحيتكم وطريقتكم، إني عاملٌ بما أمرني به ربي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ من تكون له عاقبةُ الدَّارِ﴾ فسوف تعلمون عند معاينتكم العذاب، من تكون له العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ﴿إنه لا يُفلح الظالمون﴾ لا يفوز ولا ينجح الظالمون ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ والأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ وجعل المشركون لربهم ممَّا خَلَقَ من الزرع والأنعام قسماً وجزءاً مقدَّراً ﴿فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ فجعلوا للهِ بزعمهم[1] من ثمراتهم ومالهم نصيباً، وللشيطان والأوثان نصيباً ﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان للهِ فهو يصل إلى شركائهم﴾ فما كان لأصنامهم حفظوه وأحصوه، فإن سقط من نصيبها شيء في نصيب الله ردُّوه إلى الأوثان، وإن سقط من نصيب الله شيء تركوه وقالوا: إن الله غني عن هذا ﴿سَاءَ ما يَحْكُمونَ﴾ بئس حكمهم هذا ﴿وكذلك زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وكذلك حسَّن لكثيرٍ من عَبَدة الأوثان والأصنام ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ حسَّن لهم شركاؤُ هم من الشياطين وأد البناتِ ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ ليهلكوهم وليخلطوا عليهم دينهم، حتى يلتبس فيضلوا ويهلكوا ﴿ولو شَاءَ الله ما فَعَلُوهُ﴾ ولو شاء الله لهداهم للحق، فلم يقتلوا أولادهم، ولكنهم أطاعوا الشياطين التي أغوتهم ﴿فذرهم وما يَفْتَرون﴾ فدعهم يا محمد وما يتقوَّلون على الله من الكذب والزور ﴿وقالوا هذه أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لا يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بزَعْمِهِمْ﴾ وقال هؤلاء الجهلة: هذه أنعام وزرع حرام، لا يأكلها إلا من نشاء من الرجال بزعمهم الباطل ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وأنعام لا يركبون ظهورها ﴿وأنعامٌ لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه﴾ وأنعامٌ لا يحجُّون عليها، ولا يذكرون

(١) إنما قال «بزعمهم» للتنبيه على أن الله لم يأمرهم به، وإنما هو مجرد اختراع منهم

وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ

***

اسم الله عليها إن حلبوها أو حملوا عليها، كذباً على الله ﴿سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ سيجازيهم ربهم على كذبهم وافترائهم ﴿وَقَالُوا ما في بُطُونِ هذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لذكورنَا ومُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجنَا﴾ وقالوا إنَّ ما في بطون هذه الأنعام ، من اللَّبن والأجنَّة، حلالٌ للرجال دون الإناث ﴿وإن يكنْ مَيْتَةً فهم فيه شُرَكَاءُ﴾ وإن كان ما في بطونها ميتةٌ، فالرجال والنساء شركاءُ في أكله ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ سيجازيهم على افترائهم على الله، في تحريم ما لم يحرِّمه ﴿إنه حكيمٌ عليمٌ﴾ حكيمٌ في تدبيره، عليمٌ بمصالح عباده ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قد خسر الذين وأدوا بناتهم، جهلاً ونقص عقل منهم بغير حجة. قال قتادة: هذا صنيع أهل الجاهلية، كان أحدهم يقتل ابنته مخافة السِّباء والفاقة ويغذو كلبه[1] ﴿وَحَرَّموا ما رزقهم اللهُ افتراءً على اللهِ﴾ وحرَّموا ما أحلَّ الله لهم من الأنعام، كذباً على الله ﴿قَد ضَلُّوا وما كانوا مُهْتَدِينَ﴾ وقد ضلوا عن الطريق المستقيم بصنيعهم القبيح، وما كانوا من المهتدين للحق، ونزلت هذه الآية في الذين كانوا يحرِّمون البحائر، ويسيِّبون السَّوائب، ويئدون البنات.

﴿وهو الذي أنشأ جناتٍ معروشاتٍ وغير معروشاتٍ﴾ وربكم هو الذي أحدث وابتدع بساتين مرفوعات، مما يعرش الناس من الكروم[2]، وغير مرفوعات ممَّا ينبت في البر والجبال من الثمرات ﴿والنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُه﴾ وخلق النخل والزرع مختلف الثمر والحب ﴿والزيتونَ والرمَّانَ متشابهاً وغير متشابِهٍ﴾ متشابهاً في المنظر، وغير متشابهٍ في الطعم، منه الحلو، والحامض، والمزُّ ﴿كلوا من ثمره إذا أثمرَ﴾ كلوا من رطبه ما دام ثمرُه رطباً ﴿وآتُوا حَقَّه يوم حَصَادِهِ﴾ وادفعوا زكاته يوم جَذِّه وقطعه ﴿ولا تُسْرِفُوا إنَّهُ لا يُحِبُّ المسرفينَ﴾ ولا تُسرفوا في العطاء فتـغدو فقراء، فإن الله لا يحب المسرفين ﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ وخلق من الأنعام «حمولة» كالإبل والخيل والبغال «وفرشاً» وهي صغارُ الإبل التي

---

(١) روى البخاري عن ابن عباس قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علمٍ ..﴾ الآية.

(٢) وقيل: المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر كالقرع والبطيخ، وغير معروشات ما قام على ساق كالزرع والنخل

ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

***

لا يُحمل عليها ﴿كُلُوا ممَّا رزقكم اللهُ ولا تتبَّعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ كلوا ممَّا أحلَّ الله لكم من الثمرات والزروع ولحوم الأنعام، ولا تُحرّموا على أنفسكم طيّب رزق الله، فتطيعوا بذلك الشيطان ﴿إنه لكم عَدُوٌّ مبينٌ﴾ ظاهر العداوة لكم، يبغي هلاككم وصدَّكم عن سبيل الله ﴿ثمانيةَ أزواجٍ﴾ خلق لكم ثمانية أصناف من الأنعام، أربعةُ ذكور من كلٍ من الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، وأربعة إناث كذلك، ثم فصَّلها بقوله ﴿من الضأن اثنين﴾ الكبش والنعجة ﴿ومن الْمَعْز اثْنَيْن﴾ التَّيسُ والعنزُ ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْن حَرَّمَ أَم الأُنْثَيَيْنِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء ـ الذين حرَّموا ما حرَّموا من الحرث والأنعام، وزعموا أن الله حرَّم ذلك عليهم ـ هل حرَّم ربكم الذكرين من الضأن والمعز؟ أم حرَّم الأنثيين منهما؟ ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عليهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْن﴾ أم حرَّم ما اشتملت عليه أرحام أنثى الضأن، وأنثى المعز؟ وفي ذلك فسادُ دعواهم وتكذيبُ قولهم، فإنهم كانوا يستمتعون بلحوم بعض ذلك وظهوره[1] ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إنْ كنتُمْ صَادِقِينَ﴾ خبروني بعلم ذلك، إن كنتم صادقين في دعواكم أن ربكم حرَّم هذا ﴿وَمِنَ الإبلِ اثْنَيْن ومِنَ الْبَقَر اثْنَيْن﴾ وخلق لكم من الإبل اثنين، ذكراً وأنثى، ومن البقر اثنين، ذكراً وأنثى، فذلك ثمانية أزواج ﴿قلْ آلذكَرين حرَّمَ أم الأنثيين أمَّا اشتملتْ عليه أرحام الأنثيين﴾ كرَّر اللفظ تكذيباً لهم، وتهكماً بهم، في نسبتهم تحريم ذلك إلى الله ﴿أم كنتم شهداءَ إذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بهذا﴾؟ أم شهدتم ربكم فرأيتموه ووصَّاكم بهذا الذي تفترون؟ فإن هذا الذي تزعمونه، لا يُعلم إلاَّ بوحي من عنده، أو بسماع منه، فبأي هذين الوجهين علمتم أن الله حرَّم ذلك؟ برسولٍ أرسله إليكم، أم شهدتم ربكم فأوصاكم بذلك؟ ﴿فمنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاس بغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فمن أشد ظلماً لنفسه، ممن تقوَّل على الله الكذب، ليصدَّ الناس عن دين الله بجهله وسفهه؟ ﴿إنَّ اللهَ لا يَهْدي القومَ الظَّالِمينَ﴾ لا يوفّق للرشد من كان ظالماً، جاحداً لنبوة نبيه محمد

---

(١) الغرض من الآية بيان كذب المشركين على الله، واتباعهم في ذلك خطوات الشيطان ومخالفتهم أمر الرحمن، والاستفهام للإنكار والمعنى: من أين جاء هذا التحريم؟ فإن كان من قبل الذكورة فجميع الذكور حرام، أو من قبل الأنوثة فجميع الإناث حرام، فمن أين جاء التخصيص؟

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ

***

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أو دَماً مَسْفُوحاً﴾ قل يا محمد ﷺ لهؤلاء المشركين. إني لا أجد فيما أوحاه الله إليَّ في كتابه، شيئاً محرماً على آكل يأكله مما تزعمون تحريمه، إلا أن يكون المطعوم ميتةً ماتت بغير تذكية، أو دماً منصباً مُهراقاً ﴿أَوْ لَحْم خِنْزِير فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أو يكون لحم خنزير فإنه قذرٌ ونجاسة ﴿أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَير الله بِهِ﴾ وإلاَّ أن يكون مذبوحاً للأوثان والأصنام، فإنَّ ذلكَ الذبحَ فَسقٌ نهى الله عنه وحرَّمه ﴿فمن اضْطُرَّ غير باغٍ ولا عادٍ﴾ فمن ألجأته الضرورة إلى أكل شيءٍ مما ذُكر، غير باغٍ في أكله تلذذاً، ولا متجاوزٍ قدر الضرورة ﴿فإن رَبَّكَ غفور رحيمٌ﴾ غفورٌ لذنوب العباد، رحيم بهم حيث أباح لهم أكل المحرمات عند الضرورة ﴿وَعَلَى الَّذينَ هَادُوا حَرَّمنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ وحرمنا على اليهود كل ما لم يكن مشقوق الأصابع كالإبل، والنعام، والبطِّ ﴿ومن البَقَر والغَنَم حَرَّمْنَا عليهمْ شُحُومَهُمَا﴾ وحرمنا عليهم أيضاً شحوم البقر والغنم ﴿إلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أوِ الحَوَايَا﴾ إلَّا الذي حملته الأمعاء من الشحم فإنه غير محرم ﴿أوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وإلا ما اختلط بعظم، كشحم الألية والجنب، فإنه أيضاً لهم حلال ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ ذلك التحريم عليهم، بسبب ظلمهم وعدوانهم الذي سبق، من قتل الأنبياء، واستحلال أموال الناس بالباطل ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في خبرنا هذا، وهم الكاذبون في زعمهم أن ذلك إنما حرمه إسرائيل على نفسه، فهم مقتدون به ﴿إن كَذَّبُوكَ فَقُلْ ربُكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ فإن كذبك يا محمد هؤلاء اليهود، فقل إن رحمة الله تسع جميع خلقه، ولا يعاجل من كفر به بالعقوبة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرمينَ﴾ ولا يُردُّ سطوته وعذابُه عن الذين أجرموا باكتساب السيئات

﴿سَيقولُ الَّذينَ أَشْرَكُوا لَوْشَاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنَا ولا آباؤُنا ولا حرمنا من شيءٍ﴾ سيقول المشركون: لو أراد الله منا الإيمان لآمنا، وما جعلنا له شريكاً، ولأفردناه بالعبادة دون الأوثان، ولا حرَّمنا هذه الأشياء، ولكنه رضي منا ذلك. قال الله مكذباً لهم: ﴿كَذَلِكَ كذَّب الذينَ مِنْ قَبْلِهمْ﴾ كما كذَّب هؤلاء المشركون بما جئتهم به من الحق والبيان، كذلك كذَّب أسلافهم من قبلهم ﴿حتى ذاقوا بَأْسَنا﴾ حتى

ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ * قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟

***

أحللنا بهم عذابنا ونقمتنا ﴿قُلْ هَلْ عندكم مِنْ عِلْمٍ فتخرجوه لنا﴾ قل لهم هل لديكم حجة، توجب لنا اليقين من العلم فتظهروها لنا؟ ﴿إنْ تَتّبعونَ إلا الظنَّ وإنْ أنتم إلا تَخْرُصُونَ﴾ ما تتَّبعون إلا ظناً وحسباناً، وما أنتم إلَّا تفترون الباطل على الله، بغير يقين ولا برهان ﴿قل فللَّهِ الحجةُ البالغة﴾ له جل وعلا الحجة التامة على عباده، التي تقطع عذر المحجوج ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولو شاء لوفقكم للإيمان أجمعين ﴿قل هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ قل يا محمد لهؤلاء المفترين: هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرَّم هذا الذي تزعمونه محرماً عليكم ﴿فإن شَهِدُوا فلا تشهد معهم﴾ فإن جاءوا بالشهداء فلا تصدِّقهم فإنهم كذبة وشهود زور ﴿ولا تَتَّبِعْ أهواءَ الذينَ كَذَّبوا بآياتِنَا﴾ ولا تتابعهم على أهوائهم في التحليل والتحريم ﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ والذين لا يصدقون بالبعث ﴿وهم بربهم يَعْدِلون﴾ وهم مع تكذيبهم بالبعث، يعبدون الأوثان والأصنام ويُشركونها مع الله، فيجعلونها له نِدّاً.

﴿قل تَعَالَوْا أَتْلُ ما حرَّمَ ربكم عليكم﴾ قل لهؤلاء المشركين: تعالَوْا أقرأ ما حرَّم ربكم عليكم حقاً ويقيناً ﴿ألَّا تُشْركوا به شيئاً﴾ ألّا تشركوا به أحداً من خلقه، ولا تعبدوا شيئاً سواه ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وأوصى بالوالدين إحساناً ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإيَّاهم﴾ ولا تقتلوا أولادكم بالوأد خشية الفقر، فإن الله رازقكم وإيَّاهم ﴿ولا تقربوا الفَواحِش ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ﴾ ولا تقربوا الأمور المحرَّمة علانيتها وسرَّها[1] ﴿ولا تقتلوا النفس ألتي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بما أباح الله لكم، كالقصاص، والردَّة عن الدين، ورجم المحصن ﴿ذلكم وصَّاكم بِهِ لعلكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذلكم المذكور هو الذي وصَّاكم به ربكم من الأمور لتعقلوا وتتدبَّروا ﴿ولا تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إلاَّ بالَّتي هِي أَحْسنُ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وتثميره ﴿حتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ حتى يبلغ قوة شبابه

(١) قال ابن عباس: كانوا في الجاهلية لا يرون بالزنى بأسا في السرّ، ويستقبحونه في العلانية، فحرَّم الله الزنى في السرِّ والعلانية. اهـ أقول: الآية على العموم في كل منكر وفاحشة، فإن الله حرَّم الفواحش كلها ما ظهر منها وما خفي، والمعاصي كلها يجب اجتنابها

ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾

***

بالاحتلام، ويصل إلى حدّ الرجال ﴿وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسْطِ﴾ وأوفوا الكيل والميزان بالعدل، ولا تبخسوا الناس حقوقهم ﴿لا نُكَلِّفُ نَفساً إلاّ وُسْعَهَا﴾ لا نكلف نفساً إلا ما لا حرج فيه ولا ضيق ﴿وَإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذا قُرْبَى﴾ وإذا حكمتم بين الناس فقولوا الحق، واعدلوا ولا تجوروا، ولو كان المحكوم عليه ذا قرابة لكم ﴿وبعهد اللهِ أوفوا﴾ وأوفوا بوصية الله وأوامره التي أمركم بها ﴿ذلكم وصَّاكم به لعلكم تذكَّرون﴾ هذه الأمور هي التي وصاكم بها الله لتتذكروا وتتعظوا، وتُنيبوا إلى طاعة ربكم ﴿وأنَّ هذا صِرَاطي مستقيماً فاتَّبعوه﴾ وأن هذا الذي وصيتكم به، ديني قويماً لا اعوجاج فيه. فاعملوا به واجعلوه منهاجاً لكم ﴿ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكم عن سبيلِهِ﴾ ولا تسلكوا طرق الضلالة[1] كاليهودية، والنصرانية، والمجوسية، فتميل بكم عن طريقه ودينه الذي ارتضاه لكم وهو الإسلام ﴿ذلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ذلكم وصاكم به ربكم، لتحذروا سخطه وعذابه. وبعد أن قصَّ ما حرم عليهم وأحل، ذكر ما أعطاه لنبيه موسى عليه السلام فقال ﴿ثم آتينا موسى الكتابَ﴾ أعطيناه التوراة ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذي أَحْسنَ﴾ تماماً لِنِعَمِنَا عنده على إحسانه في الدنيا، وقيامه بما كلَّفه ربه به من شرائع دينه ﴿وتفصيلاً لكل شيءٍ﴾ وبياناً لكل شيء من أمر الدين ﴿وهُدًى وَرَحْمَةً﴾ وهداية لهم إلى سبيل الرشاد، ورحمة منا بهم لننجيهم من الضلالة ﴿لَعَلَّهُمْ بلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ليصدِّق بنو إسرائيل بلقاء ربهم، فيرتدعوا عن الكفر، ويُصدِّقوا بما جاءهم به موسى عليه السلام ﴿وَهَذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ وهذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد ﷺ كتابٌ مباركٌ ﴿فَاتَّبِعُوهُ واتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فاجعلوه إماماً لكم، واحذروا أن تضيّعوا العمل به وتستحلوا محارمه، لكي ترحموا فتنجوا من عذاب الله وأليم عقابه ﴿أَنْ تَقُولُوا إنَّمَا أُنْزِلَ الكتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ لئلا تقولوا يا معشر المشركين لم ينزل علينا كتابٌ فنتَّبعه، ولا رسول يأمرنا ويرشدنا، وإنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى ﴿وإنْ كنا عن

---

(١) عن ابن مسعود قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً فقال: هذا سبيلُ الله، ثم خطَّ عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله خطوطاً فقال هذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية ﴿وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتَّبِعُوا السبُل فتفرَّق بكم عن سبيله. .﴾

أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

***

دراستهم لغافلين﴾ وقد كنا عن قراءة الطائفتين غافلين، لا ندري ما يقرأون وما يقولون، لأنه ليس بلساننا، فقطع الله بإنزاله القرآن حجتهم **﴿أَوْ تَقُولُوا لو أَنَّا أُنزلَ علينا الكتابُ لكُنَّا أَهْدَى منهم﴾** ولئلا تقولوا: لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أُنزل على اليهود والنصارى، لكنَّا أشدَّ استقامة على الحق، وتمسكاً بالكتاب **﴿فقد جاءكم بَيِّنَةٌ من ربكُمْ وَهُدَى ورحْمَةٌ﴾** فقد جاءكم حجةٌ واضحة من ربكم، وبيانٌ للحق، ورحمة لمن عمل به واتَّبعه **﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بآيات الله وصدَفَ عنها﴾** فمن أشدُّ ظلماً وعدواناً ممن كذَّب بحجج الله وأدلته، وأعرض عنهافلم يؤمن بها، ولم يُصدِّق بحقيقتها؟ **﴿سنجزي الذين يَصْدِفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون﴾** سنثيب الذين يعرضون عن آيات الله شديد العقاب، جزاء إعراضهم في الدنيا **﴿هل ينظرون إلاَّ أن تأتيهم الملائكةُ﴾** هل ينتظر هؤلاء المشركون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم **﴿أو يأتي ربك أو يأتي بعضُ آياتِ ربكَ﴾** أو يأتي ربك في موقف القيامة، أو تأتي بعض أشراط الساعة، كطلوع الشمس من مغربها[1] **﴿يومَ يَأْتي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمَانُهَا لم تكنْ آمنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانها خيراً﴾** لا ينفعها الإيمان عند طلوع الشمس من مغربها، لعظيم الهول الوارد عليهم، فقد عاينوا من أهوال ذلك اليوم، ما يرتفع معه الحاجة إلى الفكر والاعتبار، فلا ينفع من كان بالله مشركاً، ولفرائض الله مضيّعاً إيمانُه، لتفريطه الذي سلف منه **﴿قُلِ انتظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾** انتظروا ما يحيق بكم من عذاب الله وأليم نكاله، إنا منتظرو ذلك **﴿إِنَّ الَّذينَ فَرَّقُوا دينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لست منهم في شيءٍ﴾** إن الذين اختلفوا في الدين، وتفرَّقوا فيه فأصبحوا فِرَقاً وأحزاباً ـ وهم أهل البدع، وأهل الشبهات، وأهل الضلالة ـ أنت يا محمد بريءٌ منهم، وكل من فارق دينك الحق من مشرك، ووثني، ويهودي، ونصراني، ومرتد، لست منهم ولا هم منك **﴿إنَّما أَمْرُهُمْ إلى الله﴾** إنما أمر عقابهم وجزائهم إلى ربهم **﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾** ثم يخبرهم في الآخرة بأعمالهم، ويجازيهم عليها،

(١) في الحديث الصحيح: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناسُ آمنَ مَنْ عليها، فذلك حين ﴿لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنتْ من قبلُ أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ رواه البخاري.

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

***

المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة ﴿من جاء بالحسنةِ فله عشر أمثالها﴾ من وافى ربه يوم القيامة بحسنةٍ، فله ثواب عشر حسناتٍ أمثال حسنته ﴿وَمَنْ جَاءَ بالسيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إلاّ مِثْلَهَا﴾ ومن جاء بسيئةٍ واحدة فلا يجازى إلا مثلها من غير زيادة ﴿وهم لا يُظلمون﴾ ولا يظلمُ الله الفريقين: المحسنين والمسيئين شيئاً من أعمالهم، لأنه حكيم لا يجازي أحداً إلا بما يستحقُّ ﴿قُلْ إنَّنِي هَدَاني ربّي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم﴾ قل يا محمد: إن ربي أرشدني إلى طريق قويم، هو الإسلام دين الحنيفية المسلمة ﴿ديناً قِيَماً مِلَّةَ إبْرَاهِيم حَنيفاً﴾ ديناً مستقيماً ملّة إبراهيم خليل الرحمن، المائل عن الشرك والأوثان ﴿وَمَا كَانَ مِنَ المشركينَ﴾ وما كان إبراهيم مشركاً يعبد الأصنام، ولكنه كان مسلماً لله ﴿قُلْ إنَّ صَلَاتي وَنُسُكي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتي للهِ رَبِّ الْعَالَمينَ﴾ قل يا محمد: إن صلاتي وذبحي، وحياتي ووفاتي، كل ذلك لله جل وعلا، خالصاً له، دون ما أشركتم به من الأوثان ﴿لا شَريكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمينَ﴾ ليس له مشارك من خلقه، وبذلك أمرني ربي، وأنا أول من أقرَّ وأذعن وخضع ﴿قل أَغير اللهِ أبغي رباً﴾ أأطلب غير الله رباً وسيّداً يسودني؟ ﴿وهـو رَبُّ كل شيءٍ﴾ وهو سيّد كل شيء ومدبّره ومصلحه ﴿ولا تكسب كلُّ نفس إلاَّ عليها﴾ كل مجترح إثماً، فإنه معاقبٌ بإثمه ومؤاخذ بذنبه ﴿ولا تَزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى﴾ ولا تحمل نفس إثم نفسٍ أخرى، ولكنها تعاقب بإثمها دون إثم غيرها ﴿ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ ثم مصيركم ومنقلبكم أيها الناس إلى ربكم، فيخبركم بما اختلفتم به في الدنيا من الملل والأديان! ويجازيكم على أعمالكم ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ والله جلَّ وعلا أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية، واستخلفكم في الأرض، تخلفونهم فيها وتعمرونها بعدهم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وخالف بين أحوالكم، فبسط لهذا في الرزق وقتَّر على هذا ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ ليختبركم فيما منحكم من رزقه، فيعلم المطيع من العاصي ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ سريع العقاب للمجرمين، غفور رحيمٌ للمؤمنين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنعام»



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾

***

﴿الٓمٓصٓ﴾ هي حروف هجاء مقطعة، وقال ابن عباس: معناه أنا اللهُ أفصل[1] ﴿كتابٌ أُنْزِلَ إليكَ﴾ هذا كتابٌ أنزله الله إليك يا محمد ﴿فلا يكنْ في صدركَ حَرَجٌ منْهُ﴾ فلا يضقْ صدركَ عن تبليغه للناس. ﴿لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾ لتنذر بهذا الكتاب المشركين، وتذكّر به المؤمنين ﴿اتَّبِعُوا ما أُنْزِلَ إليكم من ربكم﴾ اتَّبعوا أيها الناسُ ما جاءكم من عند ربكم من البيِّنات والهدى ﴿ولا تتَّبعوا من دونه أولياءَ﴾ ولا تتبعوا أمر أوليائكم الذين يأمرونكم بالشرك وعبادة الأوثان، فإنهم يضلونكم ولا يهدونكم ﴿قليلاً ما تَذكَّرون﴾ قليلاً ما تتَّعظون وتعتبرون ﴿وكم من قريةٍ أهلكناها﴾ وكثيراً ما أهلكت من أهل القرى الذين عصوا أمر ربهم وكذبوا رسله ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أو هم قائلون﴾فجاءتهم عقوبتنا ونقمتنا ليلاً أو نهاراً وقت القيلولة ﴿فما كانَ دعواهم إذ جاءهم بأسنا﴾ فلم يكن دعاء أهل القرية حين جاءهم عذابنا وسطوتنا ﴿إلَّا أنْ قَالُوا إنَّا كنا ظالمينَ﴾ إلَّا اعترافهم بأنهم كانوا مسيئين لأنفسهم، مخالفين أمر ربهم ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذين أُرْسِلَ إليهِمْ﴾ فلنسألنَّ الأمم مـاذا عملوا فيما جاءتهم به الرسل ﴿ولنسألَنَّ المرسلين﴾ ولنسألنَّ الرسل هل بلَّغوهم رسالاتي ﴿فلنقصَّنَّ عليهمْ بِعِلْمٍ وما كنَّا غائبينَ﴾ فلنخبرنَّهم بما عملوا في الدنيا عن علم ويقين،

(١) الراجح من الأقوال في الحروف المقطعة، أنها للتنبيه على إعجاز القرآن، وانظر أقوال المفسرين في أول سورة البقرة.

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ

***

وما كنا غائبين عن أفعالهم. وسؤال الأمم سؤال توبيخ وتقريع، لا سؤال استفهام **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾** والوزن يوم القيامة كائن بالحق والعدل **﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فأولئك هم المفلحونَ﴾** فمن ثقلت موازين أعماله الصالحة، فأولئك هم الفائزون بجنات الخلد والنعيم **﴿وَمَنْ خَفَّتْ موازينُه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾** ومن خفَّت موازين أعماله الصالحة، فأولـئك الذين غبنوا أنفسهم حظوظها، من ثواب الله وكرامته، بجحودهم باللَّهِ وأدلته.

﴿ولقد مكَّنَّاكم في الأرضِ﴾ ولقد جعلنا الأرض لكم أيها الناس قراراً تستقرون فيها، ومهاداً تمتهدونها **﴿وجعلنا لكم فيها معايشَ﴾** وجعلنا لكم فيها مطاعم ومشارب تعيشون بها **﴿قليلاً ما تشكرونَ﴾** قليلاً شكركم على نعم ربكم **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم﴾** خلقنا أباكم آدم أيها الناس، ثم صورناكم بتصويرنا آدم **﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فَسَجَدُوا إلَّا إبليس لم يكُنْ من السَّاجِدِينَ﴾** فسجد الملائكة إلا إبليس لم يكن من الساجدين لآدم **﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتُكَ﴾** أيُّ شيءٍ منعك أن تدع السجود لآدم حين أمرتك؟ **﴿قَالَ أَنا خَيْرٌ مِنْهُ﴾** قال إبليس: أنا أفضل من آدم **﴿خَلَقْتَني مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾** لأنني مخلوقٌ من نار، وهو مخلوقٌ من طين، وجوهرُ النار أفضلُ من جوهر الطين[1] **﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾** قال الله لإبليس: اهبط من الجنة، فإنه لا يسكنُ الجنة متكبرٌ عن أمر الله. **﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾** فاخرج منها ذليلاً مهاناً. **﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾** أخّرني وأجّلني إلى يوم يُبعث الخلقُ **﴿قال إنَّك مِنَ**

---

(١) جهل عدوُّ الله ـ لشقاوته وخسرانه ـ وجه الصواب وأخطأ القياس، فظنَّ أنَّ النار أفضل من الطين، لأن النار لطيفة والطين كثيف، وما درى الأحمق أن الفضل ليس بالعنصر والجوهر، وإنما هو بالطاعة والانقياد ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ ثم إن جوهر النار فيه الخفة والطيش والاضطراب، وجوهر الطين فيه الأناة والحلمُ والرزانة، فقد أخطأ إبليس أيضاً في القياس، ويا له من شقيٍّ غبي!!

بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا

***

المُنْظَرينَ﴾ إنك من المؤجلين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو يوم يُنفخ في الصُّور. سأل ربه أن يمهله إلى يوم يُبعث فيه الخلق، ولو أُعطي ذلك لأُعطي خلوداً وبقاءً لا فناء معه، لأنه لا موت بعد البعث، فأخبره تعالى كما في الآية الأخرى «إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» وذلك إلى اليوم الذي كتب عليه فيه الهلاك والموت، لأنه لا شيء يبقى فلا يفنى، غير ربنا الحي الذي لا يموت **﴿قال فبما أغويتني لأقْعُدَنَّ لهم صِرَاطَكَ المستقيم﴾** قال إبليس: فبسبب ما أضللتني، لأصدَّنَّ بني آدم عن عبادتك وطاعتك، ولأضلنَّهم كما أضللتني، والمراد بالصراط المستقيم: دينُ اللهِ الحق وهو الإسلامُ وشرائعُه **﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾** ثم لآتينهم من جميع وجوه الحقِّ والباطل، فأصدَّهم عن الحقِّ، وأُحسِّن لهم الباطل **﴿ولا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرينَ﴾** ولا تجد أكثر بني آدم شاكرين لنعمتك، ولا مطيعين لأمرك. **﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً مَدْحُوراً﴾** قال الله لإبليس: اخرج من الجنة معيباً، مطروداً من رحمتي **﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمعينَ﴾** وأُقسمُ أنَّ من أطاعك من بني آدم، أن أملأ جهنم من أتباعك الكفار، ومن ذريتك الجن أجمعين **﴿ويا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُكَ الجنَّةَ﴾** وقال الله لآدم: اسكنْ في الجنة أنتَ وزوجتك حواء **﴿فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾** كُلا من ثمار الجنة من أي مكان شئتما منها **﴿ولا تَقْرَبَا هذِهِ الشَّجَرَةَ فتكونا من الظَّالمينَ﴾** ولا تأكلا من ثمرشجرةٍمعينة، فتكونا ممن خَالَف أمر الله **﴿فوسوس لهما الشيطانُ﴾** فوسوس إليهما الشيطان بطريق الخديعة والمكر. **﴿لِيُبْدِيَ لهما ما وُورِيَ عنهما من سوآتِهما﴾** ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس، ويُظهر لهما عوراتهما. **﴿وقالَ ما نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخَالِدينَ﴾** وقال الشيطان لآدم وحواء: مَا نهاكما ربكما أن تأكلا من ثمر هذه الشجرة إلا كَراهة أن تكونا ملكَيْن، أو تكونا من الماكثين في الجنة أبداً فلا تموتا **﴿وَقَاسَمَهُمَا إنّي لكُمَا لَمِنَ النَّاصِحينَ﴾** وحلف لهما بالله إني لناصحٌ لكما في مشورتي. **﴿فَدَلاَّهُمَا بِغُرورٍ﴾** فخدعهما بزخرفٍ من القول باطل وغرَّهما. **﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لهما سَوْآتُهُمَا﴾** فلمَّا طَعِمَا من ثمر الشجرة، انكشفت لهما عوراتهما. **﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَان عَلَيْهِما مِنْ**

مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ

***

﴿وَرَقِ الجنَّةِ﴾ وجعلا يأخذان من ورق الجنة ليسترا عوراتهما[1] ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهما أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إنَّ الشيطَانَ لكما عدوٌّ مبينٌ﴾ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن أكل ثمر الشجرة، وأعلمكما أنَّ الشيطان لكما عدوٌّ ظاهر العداوة ﴿قالا ربَّنا ظلمنا أنفسنا﴾ قال آدم وحواء: يا ربنا ظلمنا أنفسنا بمعصيتنا أمرك. ﴿وإنْ لم تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لنكوننَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وإن لم تستر ذنْبنا، وتتداركنا برحمتك، لنكونن من الهالكين. ﴿قال اهبطوا بعضُكم لبعض عدوٌّ﴾ قال تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا من السماء إلى الأرض، بعضكم أعداءٌ لبعض ﴿وَلَكُمْ في الأَرْضِ مستقرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ﴾ ولكم في الأرض قرار تستقرون فيه على ظهرها، واستمتاع تستمتعون به إلى انقطاع الدنيا ﴿قال فيها تَحْيَوْنَ وفيها تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ قال في الأرض حياتكم، وفي الأرض وفاتكم، ومن الأرض يخرجكم ربكم للبعث والجزاء. ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ يا أبناء آدم قد رزقناكم ما تلبسونه من الثياب، التي تستر عوراتكم عن الناس ﴿وريشاً﴾ ورزقناكم مالاً مع رفاهة العيش[2] ﴿ولباسُ التَّقْوى ذلكَ خيرٌ﴾ واستشعارُ النفوس تقوى الله، بالانتهاء عن محارمه، والعمل بطاعته، خيرٌ لكم من لباس الثياب التي تستر عوراتكم[3] ﴿ذلكَ من آياتِ اللهِ﴾ ذلك اللباسُ والرياش من حجج الله وأدلته. ﴿لعلَّهم يَذَّكَّرونَ﴾ ليعتبروا وينيبوا إلى الحق وترك الباطل ﴿يا بني آدمَ لا يفتننكم الشيطانُ﴾ لا يخدعنكم الشيطان ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةَ﴾ كما فعل بأبويكم آدم وحواء، فأخرجهما بخداعه ومكره من الجنة. ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُما لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ ونزع عنهما ما ألبسهما الله

---

(١) قال ابن كثير في رواية وهب بن منبه: كان لباسهما نوراً على فروجهما، لا يرى هذا عورة هذه، ولا هذه عورة هذا، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوآتهما

(٢) قال ابن جرير: «الريشُ» المتاعُ والأموال، وربما استعملوه في الثياب والكسوة وذهب ابن كثير إلى أن الريش هو ثياب الزينة، فالثياب لستر العورات، والريش للزينة والجمال، والأول من الضروريات والثاني من الكماليات، ولعل هذا القول أرجح.

(٣) قال الشاعر:

وخيرُ ثيابِ المرء طاعةُ ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصياً

هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ * يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

***

من اللباس، ليكشف عورتهما ويظهرها لأعينهما[1] ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ إن الشيطان يراكم هو وجماعته من حيث لا ترونهم أنتم ﴿إِنَّا جعلنا الشياطينَ أولياءَ للذين لا يُؤمنون﴾ جعلنا الشياطين نصراء للكافرين، الذين لا يوحّدون الله ولا يُصدّقون رسله. ﴿وَإذا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ وإذا فعل هؤلاء الكافرون قبيحاً، كتعرّيهم للطواف بالبيت، وتجردهم من الثياب، فعوتبوا ﴿قالوا وجدْنَا عَلَيْهَا آباءَنَا واللهُ أَمَرَنَا بها﴾ قالوا: نحن نقتدي بهدي آبائنا ونستنُّ بسنّتهم، والله أمرنا بذلك. ﴿قل إنَّ اللهَ لا يأمر بالفحشاء﴾ قل لهم يا محمد: إن الله لا يأمر عباده بقبائح الأفعال ومساويها[2] ﴿أتَقولونَ على الله ما لا تَعْلَمون﴾ أتفترون على الله أنه أمركم بالتعري من الثياب، وأنتم لا تعلمون ذلك؟ ﴿قُلْ أَمَرَ ربّي بالقِسْطِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الجاهلين: أمر ربي بالعدل والاستقامة. ﴿وأَقِيمُوا وجوهَكُمْ عِنْدَ كل مَسْجِدٍ﴾ توجهوا بصلاتكم إلى الله، لا إلى الأوثان والأصنام. ﴿وادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ واعملوا لربكم مخلصين له العبادة والطاعة. ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ كما خلقكم من العدم، يعيدكم بعد الفناء، ويحشركم يوم القيامة. ﴿فَريقاً هَدَى وفريقاً حَقَّ عليهِمُ الضَّلالَةُ﴾ هدى الله منكم فريقاً فوفقهم لصالح الأعمال، ووجب على فريق منهم الضلالة ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلياءَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ باتخاذهم الشياطين نصراء من دون الله ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ويظنون أنهم على هدى وصواب. ﴿يا بني آدَمَ خذوا زينتكم عند كل مسجدٍ﴾ تزينوا بالكساء واللباس عند الطواف[3] ﴿وكلوا واشربوا ولا تُسْرفوا﴾ وكلوا من طيباتِ ما

---

(١) هذا هو غرض إبليس اللعين «كشفُ السوآت»و «هتكُ العورات»، وهو ما يروّج له تلامذة إبليس في زماننا، حيث يدعون المرأة الى التعري والتكشف والاختلاط، والخروج على الآداب الإسلامية، باسم «الحضارة والمدنية» والهدفُ معروفٌ من وراء كشف الجلباب ونزع الحجاب، وهو «إفسادُ المجتمع» بإثارة الشهوات الجنسية وهتك الأعراض، وويلٌ للمجرمين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون!! ويلٌ لهم من عذاب يوم عظيم!!

(٢) كان أهل الجاهلية إذا أرادوا الطواف بالبيت، تجردوا من الثياب، يقولون: لا نطوفُ في ثيابٍ عصينا فيها الله، فنزلت الآية ﴿وإذا فعلوافاحشة﴾ قال ابن عباس: الفاحشةُ طوافهم بالبيت عراةً، الرجال بالنهار، والنساءُ بالليل، وكانت المرأة تقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه ... فمَا بدا منه فلا أحلّه

فقال الله: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي عند كل طواف، وهذا على رأي الإمام الطبري

(٣) وقيل: المراد بالمسجد الصلاة أو المسجد نفسه.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

***

رزقتكم ،واشربوا من حلال الأشربة، ولا تُسْرفوا في التحريم[١]، فتحرّموا ما أحلّ الله لكم. ﴿إنَّهُ لا يُحبُّ المسرفينَ﴾ إن الله لا يحب المتعدين حدوده في الحلال والحرام. ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زينة اللهِ التي أخْرَجَ لِعبَادِهِ والطَّيباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء الجهلة الذين يحرّمون ما أحل الله لهم: من حَرّم عليكم زينة الله أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها، والحلال من رزق الله في المطاعم والمشارب؟ ﴿قل هي للذينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا خالصةً يوم القيامة﴾ قل لهم: هذه الزينة هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة، وهي لهم في الآخرة خالصة، **قال الضحاك**: المشركون يشاركون المؤمنين في الدنيا، في اللباس، والطعام، والشراب، ويوم القيامة يخلص خير الآخرة للمؤمنين، وليس للمشركين من ذلك نصيب. ﴿كذلكَ نفصِّل الآياتِ لقومٍ يعلمونَ﴾ كما بينتُ لكم الأحكام في الحلال والحرام، كذلك أبيِّن جميع أدلتي وحججي، لقوم يفقهون ما يُميَّز لهم. ﴿قل إنما حرَّم ربي الفواحِشَ ما ظهر منها وما بطنَ﴾ قل لهم: إنما حرَّم ربي القبائح من الأشياء، ما كان منها علانيةً، وما كان منها سرّاً في خفاء. ﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بغَيْرِ الحقِّ﴾ وحرَّم المعاصي والاستطالة على الناس بالبغي والعدوان. ﴿وأَنْ تُشْركُوا باللهِ مَا لَمْ يُنزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾ وحرَّم عليكم أن تعبدوا مع الله إلَهاً غيره، بدون حجة أو برهان ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأن تفتروا على الله، فتضيفوا إليه ما لم يُحرِّمه.

﴿وَلِكُلِّ أمةٍ أَجَلٌ﴾ ولكل جماعة من المكذبين لرسل الله، وقتٌ لحلول العقوبات بهم. ﴿فإذَا جَاءَ أجلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدمون﴾ فإذا جاء وقتُ هلاكهم، لا يتأخرون ساعةً من الزمان، ولا يتقدمون على الوقت المحدّد لهلاكهم[٢]. ﴿يا بني آدمَ إمَّا يأتينَّكُمْ رسلٌ منكم يقصُّون عليكم آياتي﴾ يا

---

(١) وقيل: المرادُ الإسراف في الطعام والشراب،ويؤيده ما ورد «ما لم يكن سرفٌ أو مخيلة» أي لا تسرفوا في الزينة والأكل والشرب بما يضر بالنفس والمال، وهذا المعنى أظهر.

(٢) هذا كقوله تعالى ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

***

أبناء آدم إنْ يجئكم رسلي الذين أرسلتهم إليكم، يتلون عليكم آيات كتابي ويدعونكم إلى توحيدي[١] **﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** فمن آمن منكم، وخاف الله واتقاه، وأصلح أعماله، فلا خوفٌ عليهم يوم القيامة من عقاب الله، ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا **﴿والذينَ كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾** وأما من كذب بآيات الله، وجحد وكفر بما جاءت به الرسل، واستكبر عن الإيمان بها **﴿أولئكَ أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾** فهم في نار جهنم ماكثون، لا يخرجون منها أبداً. **﴿فمن أظلمُ ممن افترى على الله كذباً﴾** فَمَنْ أسفه وأجهل ممن اختلق على الله زوراً؟ **﴿أو كذَّبَ بآياتِهِ﴾** أو كذَّب بأدلة الوحدانية والنبوة فجحدها؟ **﴿أولئك ينالُهُمْ نصيبُهُم منَ الكتاب﴾** أولئك المجرمون ينالهم ما قُضي لهم في الدنيا، من خير وشر، ورزقٍ وعملٍ وأجل[٢]. **﴿حَتَّى إذا جاءَتهُم رُسُلُنا يَتَوفَّوْنَهُمْ﴾** حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم. **﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾** قالت لهم الملائكة: أين الذين دعوتموهم وعبدتموهم من دون الله؟ هلاَّ يغيثونكم وينقذونكم من عذاب الله؟ فأجابهم الأشقياء، **﴿قالوا ضَلُّوا عنا﴾** قالوا: غابوا وذهبوا عنا، وتركونا فلم ينفعونا عند حاجتنا إليهم **﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾** وشهد القوم واعترفوا أنهم كانوا جاحدين بوحدانية ربهم. **﴿قالَ ادخلوا في أمم قد خلَتْ من قبلكم من الجنِّ والإنس في النَّار﴾** قال الله لهم حين وردوا عليه يوم القيامة: ادخلوا في نار جهنم مع جماعات أمثالكم، من الأمم السالفة الكافرة. **﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها﴾** كلما دخلت جماعةٌ النار، شتمت الجماعة الأخرى، من أهل ملتها ودينها. **﴿حتَّى إذا ادَّاركوا فيها جميعاً﴾** حتى إذا اجتمعوا في النار كلهم **﴿قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلُّونا﴾** قال آخرهم دخولاً النار، لمن

---

(١) هذه الآية تعريفٌ من الله جل وعلا لخلقه، بما أعده لحزبه وأوليائه المتقين، وما أعده لحزب الشيطان وأوليائه الكافرين

(٢) هذا ما اختاره الطبري وهو الراجح الذي يدل عليه سياق الآية، أنهم ينالهم ما كُتب لهم في الدنيا من سعادةٍ وشقاوة، ورزقٍ وعمل الخ. وقيل: ينالهم نصيبهم من العذاب، ولا يوافقه السياق لأن الله تعالى قال بعدها﴿حتى إذا جاءتهم رسلنا﴾فأخبر أن ذلك محدود إلى وقت مجيء الملائكة لقبض أرواحهم، وعذاب الآخرة لا آخر له ولا انقضاء، والله أعلم.

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

* * *

تقدمهم من أئمة الكفر والضلالة: يا ربنا هؤلاء الذين أضلونا عن سبيلك، وزيَّنوا لنا طاعة الشيطان. **﴿فآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً من النَّار﴾** فضاعفْ لهم العذاب في نار جهنم. **﴿قال لكلٍ ضعفٌ ولكنْ لا تعلمونَ﴾** قال: العذابُ مضاعفٌ لكلكم، ولكنكم يا معشر أهل النار لا تعلمون قدر هذا العذاب، ولذلك تسألون مضاعفته **﴿وَقَالَتْ أُوْلَاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لكم عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾** وقال المتبوعون للأتباع الذين سلكوا سبيلهم واستنُّوا بسُنَّتهم: لقد علمتم ما حلَّ بنا من عقوبة الله بكفرنا بآياته، فهل أنبتم إلى طاعة الله وارتدعتم عن غوايتكم وضلالتكم[١]؟ **﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبونَ﴾** فذوقوا[٢] أيها الكفرة عذاب جهنم، بما اكتسبتم من المعاصي والآثام **﴿إنَّ الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا واستكبروا عنها﴾** كذبوا بحججنا وأدلتنا ولم يُصدِّقوا بها، وتكبَّروا عن اتباعها والانقياد لها. **﴿لا تُفَتَّحُ لهمْ أبْوابُ السَّمَاءِ﴾** لا تفتح لأرواحهم ولا لأعمالهم أبواب السماء، ولا يُرفع لهم منها عملٌ صالحٌ ولا دعاء. **﴿ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سم الخِيَاطِ﴾** ولا يدخل هؤلاء الجنة التي أعدها الله لأوليائه المؤمنين، حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة[٣] **﴿وَكَذَلِكَ نجْزي الْمُجْرِمينَ﴾** وكذلك نكافىء المجرمين في الآخرة. **﴿لهمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾** لهؤلاء المكذبين بآيات الله فُرشٌ من تحتهم في نار جهنم، ومن فوقهم لُحُفٌ من النار تتغشاهم وهم بين ذلك. **﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾** وكذلك نكافىء من ظلم نفسه، بكفره بربه وتكذيبه لأنبيائه. **﴿والذينَ آمنوا وعملوا الصَّالحات﴾** والذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم به ربهم فأطاعوه، وتجنبوا ما نهاهم عنه **﴿لا نُكَلِّفُ نفساً إلَّا وُسْعَهَا﴾** لا نكلّف أحداً إلَّا بقدر وسعه دون حرج[٤]

---

(١) قال السُّدي: «فما كان لكم علينا من فضل» فقد ضللتم كما ضللنا.

(٢) هذا من قول الله لأهل جهنم.

(٣) هذا من باب التمثيل لاستحالة دخول الكفار الجنة، كما يستحيل دخول «البعير» من ثقب الإبرة، فكما يستحيل هذا كذلك يستحيل دخولهم الجنة، وقيل المراد بالجمل: الحبلُ الغليظ، والأول أليق بالمعنى المقصود والله أعلم.

(٤) كل التكاليف الشرعية في وسع الإنسان وطاقته، فلا حجة لمقصّر ولا عذر لمتخلف. وهل هناك مشقة على من قصد المسجد، فتوضأ وصلَّى، وابتهل إلى ربه منيباً ضارعاً طالباً لمرضاته. أتراه خسر من ماله وصحته شيئاً؟ مثل من قصد حانة الخمر فأضاع ماله وشبابه، وخسر صحته وحياته؟ أي الطريقين أيسر وأرخص وأهدى سبيلاً، طريق الجنة أم طريق النار؟ وقد قامت الحجة على العباد بقوله تعالى﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ

* *

﴿أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدونَ﴾ هؤلاء هم أهل الجنة، ماكثون فيها أبداً لا يُخْرجون منها ولا يُسْلبون نعيمها. ﴿وَنَزَعْنَا ما في صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أذهبنا ما في صدور أهل الجنة من حقد وعداوة ﴿تجري من تحتهم الأنهارُ﴾ تجري من تحتهم أنهار الجنة. ﴿وقالوا الحمدُ لله الذي هَدَانا لهذا﴾ وقالوا حين رأوا كرامة الله لهم: الحمد لله الذي وفقنا للعمل الصالح، الذي دخلنا بسببه الجنة، وصرف عنا عذاب النار. ﴿وما كنا لنهتدي لولا أنْ هَدَانا اللهُ﴾ وما كنا نهتدي إلى نعيم الجنة لولا أن أرشدنا الله له، ووفقنا إليه بمنّه وفضله ﴿لقد جاءتْ رسلُ ربنا بالحقِّ﴾ والله لقد أتتنا الرسلُ في الدنيا بالحقِّ من الأخبار. ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُموهَا بِمَا كنتم تَعْملونَ﴾ وتناديهم الملائكة هذه الجنة التي أورثكم الله إيّاها، بطاعتكم ربكم وتصديقكم رسله ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الجَنَّة أَصْحَاب النَّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقاً﴾ ونادى أهلُ الجنة أهل النار فقالوا: لقد وجدنا ما وعدنا ربنا من النعيم والكرامة حقاً. ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقاً﴾ فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العقاب حقاً؟ ﴿قالوا نعم﴾ فأجابهم أهل النار: نعم لقد وجدنا ذلك ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّن بينهم أنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمينَ﴾ فنادى منادٍ بين أهل الجنة والنار، أنَّ غضب الله وسخطه على من كفر به. ثم فصَّلهم بقوله: ﴿الذينَ يَصُدُّونَ عَنْ سبيلِ اللهِ﴾ الذين يمنعون الناس عن الدخول في دين الله. ﴿وَيَبْغونَهَا عِوجاً﴾ ويطلبون أن يغيّروا الدين ويبدّلوه عن استقامته ﴿وهم بالآخرة كافرونَ﴾ وهم بلقاء الله وثوابه وعقابه جاحدون ﴿وَبَيْنَهُمَا حجَابٌ﴾ وبين الجنة والنار حاجزٌ وسور[1] ﴿وعَلَى الأَعْرَاف رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ﴾ وعلى السور رجالٌ[2] يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سلمتم من عقاب الله وأليم

---

(١) هذا السور هو المذكور في قوله تعالى ﴿فضُربَ بينهم بسورٍ له باب باطنُه فيه الرحمةُ وظاهره من قِبَلِهِ العذابُ﴾ وهو المسمَّى بـ «الأعراف» لأنه مرتفع عن الأرض كعرف الديك..

(٢) قيل إن هؤلاء الرجال من الملائكة، والصحيح كما رجح الطبري أنهم من البشر، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقفوا على السور حتى يقضي الله فيهم.

لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

* * *

عذابه. ﴿**لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ**﴾ لم يدخلوا الجنة بعدُ، وهم يطمعون في دخولها. ﴿**وإذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ**﴾ وإذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم. ﴿**قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين**﴾ لا تجعلنا مع الذين ظلموا أنفسهم فاستحقوا دخول النار. ﴿**ونَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ**﴾ ونادى أهل الأعراف رجالاً من أهل النار، يعرفونهم بعلامتهم. ﴿**قَالُوا مَا أَغْنَى عنكُمْ جَمْعُكُمْ وما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ قالوا: ماذا نفعكم ما كنتم تجمعونه من الأموال في الدنيا؟ وتكبركم الذي كنتم تتكبرون فيها؟ ﴿**أهؤلاء الذينَ أقسمتم لا ينالُهم اللهُ برحمةٍ**﴾ أهؤلاء الضعفاءُ الذين كنتم في الدنيا تحلفون أن الله لن يكرمهم؟ قد غفرتُ لهم ورحمتهم بفضلي ورحمتي. ﴿**أُدْخُلُوا الجَنَّةَ لا خَوْفٌ عليكُمْ ولا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾ ادخلوا يا عبادي المؤمنين الجنة، لا خوف عليكم من العقاب، ولا أنتم تحزنون على ما فاتكم في الدنيا. ﴿**ونَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللهُ**﴾ ينادونهم من شدة العطش والجوع: اسكبوا علينا من الماء، أو أطعمونا من الطعام الذي رزقكم الله ﴿**قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ**﴾ أجابهم[1] أهل الجنة إن الله حرَّم الماء والطعام على الجاحدين لوحدانيته. ﴿ **الذينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً** ﴾ هم الذين كفروا بالله، واتخذوا دينهم سخرية ولعباً، **قال ابن عباس** كانوا إذا دُعوا إلى الإيمان سخروا ممَّن دعاهم إليه وهزءوا به. ﴿ **وغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾ وخدعتهم زينة الدنيا وزخرفها، عن الأخذ بنصيبهم من الآخرة. ﴿**فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا** ﴾ ففي هذا اليوم - يوم القيامة - نتركهم في العذاب جياعاً عطاشاً، كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا ﴿ **وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ وكما كانوا

(١) روي أن أهل النار، ينادي الرجل منهم أخاه وأباه فيقول: قد احترقتُ؛ فأفضْ عليَّ من الماء! فيجيبهم أهل الجنة ﴿إن الله حرمهما على الكافرين﴾

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً

* * *

يكذِّبون في الدنيا بآيات الله ورسله. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ وأقسمُ لقد جئنا هؤلاء الكفرة، بهذا القرآن المبين مفصَّلاً فيه الحقُّ من الباطل، على علمٍ منَّا بما فُصِّل فيه. ﴿هدى ورحمةً للمؤمنينَ﴾ لينقذ من الضلالة إلى الهدى، ويرحم به قوماً يصدِّقون به. ﴿هل يَنْظُرون إلاَّ تأويلَهُ﴾ هل ينتظر هؤلاء المشركون، ، إلا ما يئول إليه أمرهم، من ورودهم على العذاب، وصليّهم جحيمه؟ ﴿يوم يأتي تأويلُهُ﴾ يومَ يجيء عقابُ الله ﴿يَقُولُ الَّذينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يقول الذين تركوا العمل به في الدنيا ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ لقد أتتنا الرسلُ بالإنذار، وبلغتنا رسالة ربنا ونصحتنا. ﴿فَهَلْ لنا من شُفَعَاءَ فيشفعوا لنا﴾ هل لنا اليوم من أصدقاء، فيشفعوا لنا عند ربنا؟ ﴿أو نُرَدُّ فنعملَ غَيْرَ الَّذي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أو نُرَدُّ إلى الدنيا مرة أخرى، فنعمل بما يرضي الله؟ قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أنفسهم﴾ ببيعهم نعيم الآخرة الدائم، بالخسيس من عرض الدنيا الزائل ﴿وضَلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ وغاب عنهم آلهتهم الذين عبدوهم من دون الله، وزعموا كذباً أنهم أرباب ﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ﴾ إن ربكم ـ أيها الناسُ ـ الخالقُ المبدع، الذي خلق السموات والأرض في مقدار ستة أيام ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى العَرْشِ﴾ علا فوق العرش علواً يليق بجلاله[1] ﴿يُغْشي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ يورد الليل على النهار حتى يُذهب نضرته ونوره، يطلبه سريعاً. ﴿والشَّمْس والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بأمرِهِ﴾ وخلق الشمس والقمر والنجوم، كلُّها تحت قهره وتسخيره ومشيئته. ﴿ألَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ﴾ له جل وعلا الخلق كلُّه، وله الأمر كلُّه، لا يُخالف ولا يُردُّ أمرُه، دون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان ﴿تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالمينَ﴾ تعالى اللهُ وتمجَّد، ربُّ الإنس والجن والملائكة، الذي له عبادة كل شيء. ﴿ادْعُوا ربكم

---

(١) قال ابن كثير: نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييفٍ ولا تشبيه ولا تعطيل، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبِّهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثله شيء﴾ والأمر كما قال شيخ البخاري نعيم بن حماد: «من شبَّه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه، فمن أثبت ما وردت به الآيات على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائص، فقد سلك سبيل الهدى» مختصر ابن كثير ٢ / ٢٥

إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

* * *

﴿تَضَرُّعاً وخُفْيَةً﴾ أخلصوا الدعاءَ لربكم، تذللاً واستكانةً لطاعته، لا جهاراً ومراءاةً. ﴿إنَّهُ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ﴾ لا يحب المجاوزين الحدَّ في الدعاء، برفع الصوت والصياح ﴿ولا تُفْسِدُوا في الأرضِ بَعْدَ إصْلَاحِهَا﴾ ولا تُفسدوا في الأرضِ بالإشراك والعصيان، بعد إصلاح الله لها ببعثة الأنبياء والرسل ﴿وادْعُوهُ خَوْفاً وطَمَعاً﴾ وادعوا ربكم بإخلاص الدعاء والعمل، خوفاً من عقابه، وطمعاً في ثوابه ﴿إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَريبٌ منَ المُحْسِنينَ﴾ إنَّ ثوابَ الله الذي وعد به المحسنين قريبٌ منهم. ﴿وهو الذي يُرسلُ الرياحَ بُشْراً بين يَدَيْ رحمتِهِ﴾ وهو تعالى الذي يرسل الرياح تُبشّر بالمطر، أمام نزول غيثه على خلقه ﴿حتّى إذا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقالاً﴾ حتى إذا حملت الرياح سحاباً مثقلاً بالماء. ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ ميِّتٍ﴾ سقناه لإحياء بلدٍ ميِّت، أجدب أهلُه. ﴿فأَنْزَلْنَا بِه الْمَاءَ فأخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَمَرَاتِ﴾ فأنزلنا في ذلك البلد الميت المطر، فأخرجنا بذلك الماء من جميع أنواع الثمرات ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ المَوْتَى﴾ كما نحيي هذا البلد الميّت بإنزال الماء بعد موته وجدبه، كذلك نخرج الموتى من قبورهم بعد فنائهم ودروسهم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لتعتبروا وتتذكروا فتعلموا قدرة الله. ﴿والبَلَدُ الطيِّبُ يخرج نباته بإذنِ ربه﴾ والبلدُ الطيبةُ تربتُه يخرج نباته بإذن الله، طيّب الثمر في وقته وحينه. ﴿والّذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً﴾ والذي خبثت تربتُه لا يخرج نباته إلا بعسرٍ ومشقة. ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ لقوم يشكرونَ﴾ كذلك نبيّن الحجج ونضرب الأمثال، لقوم يشكرون الله على إنعامه. وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن وعمله الطيب، والكافر وعمله الخبيث، فالبلد الطيبُ مثلٌ للمؤمن، والذي خَبُث مثلٌ للكافر.

﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا اللهَ مالكم من إلَهٍ غيرُهُ﴾ أقسم الله أنه أرسل نوحاً إلى قومه لينذرهم بأسه، ويخوّفهم سخطه على عبادتهم غيره، فقال يا قوم: اعبدوا الله وحده، ودَعُوا عبادة ما سواه من الأصنام والآلهة، فليس لكم معبود غيرُه ﴿إني أَخَافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم﴾ إني أخاف

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾

* * *

عليكم - إن لم تؤمنوا - عذاب يوم يعظم فيه بلاؤكم، بسخط ربكم عليكم. **﴿قال الملأ من قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾** قال رؤساؤهم وأشرافهم - حين دعاهم إلى عبادة الله وحده - إنَّا لنراكَ يا نوحُ في ذهابٍ عن الحقِّ، وضلالٍ عن سبيل الصواب، ظاهرٍ واضح. **﴿قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بي ضَلَالَةٌ ولكنّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** قال لهم نوح: ليس بي ما تظنون من الضلال، ولكنّي مرسلٌ إليكم من رب العالمين، لدعوتكم إلى الإقرار بوحدانية الله، والبراءة من الأنداد والآلهة **﴿أبلِّغكم رسالاتِ ربي وأنصح لكم﴾** أبلِّغكم أوامر ربي، وأنا لكم ناصح أمين. **﴿وأعلم من الله ما لا تعلمونَ﴾** وأعلم أن عقاب الله لا يردُّ عن القوم المجرمين. وقد ردَّ قومه عليه النصيحة، وأنكروا أن يكون الله بعثه نبياً فقال لهم: **﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبكُمْ عَلَى رَجُلٍ منكُمْ﴾** أتعجبون أيها القوم أن يأتيكم عظةٌ من الله وتذكير مع رجلٍ منكم؟ **﴿لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمونَ﴾** ليخوِّفكم بأس الله، وكي تتقوا عقابه، وليرحمكم ربكم إن خفتموه وأطعتموه **﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذينَ مَعَهُ في الْفُلْكِ﴾** فكذبوا نوحاً ولجُّوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في السفينة ومن معه من المؤمنين، وما آمن معه منهم إلا قليل[1]. **﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا﴾** وأغرقنا المكذبين بآياتنا بالطوفان. **﴿إنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾** كانوا عُمياً عن الحقِّ، لا يبصرونه ولا يهتدون له.

﴿وإلى عَادٍ أخاهُمْ هُوداً﴾ ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً. **﴿قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾** قال لهم هود: يا قوم أفردوا العبادة للهِ، ولا تجعلوا معه إلَهاً غيره، فإنه ليس لكم إلَهٌ غيره. **﴿أفلا تتقون﴾** أفلا تخافون عقاب الله بعبادتكم غيره؟ وهو خالقكم ورازقكم دون من سواه؟ **﴿قالَ الْمَلأُ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إنَّا لَنَرَاكَ في سَفَاهَةٍ﴾** قال أشراف قومه وسادتهم الذين أنكروا رسالته: إنا لنراكَ يا هود في ضلالةٍ عن الحق والصواب، بتركك ديننا وعبادة آلهتنا. **﴿وإنا لنظنُّك من الكاذبين﴾** وإنا لنعتقد أنك من

---

(١) قال الطبري: وكان مع نوح في السفينة أنفساً عشرة.

قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

* * *

الكاذبين في دعواك الرسالة. ﴿قَالَ يا قوم لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ ليس بي ضلالة عن الحق والصواب. ﴿ولكنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ولكنَّ الله أرسلني إليكم لهدايتكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وأنَا لكم نَاصِحٌ أمينٌ﴾ أبلغكم ما أمرني به ربي، وأنا لكم ناصح - في دعوتكم إلى عبادة الله - فاقبلوا نصيحتي، وأنا أمين على ما ائتمنني الله من الوحي، لا أكذب ولا أزيد فيه ولا أبدِّل. ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رِبكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ أتعجبون أن يأتيكم عظةٌ من الله وتذكيرٌ، مع رجلٍ منكم لينذركم بأس الله، ويخوِّفكم عقابه؟ ﴿واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحٍ﴾ واذكروا ما حلَّ بقوم نوحٍ من العذاب حين عصوا رسولهم، وجعلكم بدلاً منهم تخلفونهم في الأرض، فاتقوا أن يحل بكم نظير ما حل بهم من العقوبة، فيهلككم الله ويستبدل غيركم. ﴿وَزَادَكُمْ في الخَلْقِ بَسْطَةً﴾ وزادكم عِظَماً في الأجسام، وقوةً في الأبدان على قوم نوح. ﴿فاذكُروا آلاءَ الله لعلكُمْ تُفْلِحونَ﴾ فاذكروا نعم الله وفضله عليكم، واشكروه بإخلاص العبادة، لكي تنعموا في الآخرة، وتنجحوا بنيل السعادة الأبديَّة. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذر ما كان يعبدُ آباؤُنَا﴾ قالوا له: أجئتنا تتوعَّدنا بالعقاب، كي نعبد الله وحده، ونهجر عبادة الآلهة والأصنام التي عبدها آباؤ نا؟ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ من الصَّادِقينَ﴾ فأتنا بالعذاب إن كنت صادقاً فيما تقول ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عليكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ قال لهم هود: قد حلَّ بكم عذابٌ وغضبٌ من الله، قال ابن عباس: الرجسُ: السَّخطُ. ﴿أتجادلونني في أسماءٍ سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أتخاصمونني في هذه الأصنام، التي سميتموها أنتم وآباؤ كم آلهة، وهي لا تضر ولا تنفع؟ ﴿مَا نَزَّلَ اللهُ بهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ما جعل الله لكم في عبادتها حجة ولا دليلاً، لأن العبادة لمن ضرٌّ ونفع، لا للجماد من الحجارة والنحاس والحديد!؟ ﴿فَانْتَظِرُوا إنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ فانتظروا حكم الله وقضاءه فينا وفيكم، إني من المنتظرين لذلك[1] ﴿فَأَنجيناه والَّذينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ فأنجينا هوداً وأتباعه المؤمنين من العذاب

(١) في هذا وعيدٌ وتهديد من نبي الله «هود» لقومه، ولهذا عُقِّب بقوله تعالى ﴿فأنجيناه والذين معه﴾

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾

* * *

برحمتنا. ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الذينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وأهلكنا المكذبين بآياتنا من قوم هود، فلم نبق منهم أحداً، لأنهم لم يكونوا مصدِّقين بالله ولا برسوله هود.

﴿وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً[1]. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فقال لهم صالح: يا قوم اعبدوا الله وحده، فما لكم إلَهٌ يجوز أن تعبدوه غيرُه. ﴿قد جاءتكم بيِّنَةٌ من ربكم﴾ قد جاءتكم حجة وبرهان من عند ربكم، على صدق ما أقول، وحجتي إليكم. ﴿هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةً﴾ هذه الناقة التي أخرجها الله من صخرةٍ صمَّاء، هي معجزتي لكم لا يقدر على مثلها أحدٌ إلا اللهُ. ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ في أَرْضِ اللهِ﴾ اتركوها تأكل في أرض الله. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فيأخذكم عذابٌ أليمٌ﴾ ولا تمسُّوا ناقة الله بعقرٍ ولا نحر، فيأخذكم عذابٌ موجع. ﴿واذكروا إذْ جعلكم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ واذكروا نعمة الله عليكم، حين جعلكم تخلفون عاداً من بعد هلاكهم. ﴿وَبَوَّأَكُمْ في الأرضِ تتخذونَ من سهولها قصوراً﴾ وجعل لكم في الأرض مساكن، تبنون في سهولها القصور المشيدة. ﴿وتنحتون الجبال بيوتاً﴾ وتنقبون في الجبال البيوت. ﴿فاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ﴾ فاذكروا نعمة الله التي أنعم بها عليكم. ﴿ولا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تسيروا في الأرض بالإفساد ﴿قَالَ الملأُ الذينَ استكبروا من قومِهِ﴾ قال الجماعة الذين استكبروا عن الإيمان بالله من قوم صالح. ﴿للذينَ اسْتُضْعِفُوا لمن آمنَ منهم﴾ للمستضعفين من المؤمنين ـ أهل المسكنة ـ من أتباع صالح. ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أتعلمون أن صالحاً نبيٌ أرسله الله إلينا وإليكم؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ قال المستضعفون: إنا بما أرسل الله به صالحاً من الحقِّ والهدى مصدِّقون ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ قال المتكبرون عن الإيمان: إنَّا بالذي صدَّقتم به من نبوَّة صالح جاحدون منكرون

---

(١) كانت مساكنهم «الحِجْر» بين الحجاز والشام، وقد مرَّ على ديارهم رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك، ونهى أصحابه أن يدخلوا على المعذَّبين إلا أن يكونوا باكين، كما في المسند

فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

* * *

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فقتلوا ناقة[1] صالح، وتكبَّروا واستعلوا عن الحقّ واتّباع أمر الله. **﴿وقالوا يا صالح آئتنا بما تعدنا إن كنتَ من المرسلينَ﴾** ائتنا بالعذاب إن كنت رسولاً حقاً **﴿فأخذتهم الرجفةُ﴾** فأخذتهم الصيحةُ التي زعزعتهم وأهلكتهم. **﴿فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾** فأصبحوا ساقطين صرعى لا يتحركون. **﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبلغتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾** فأدبر صالح عنهم خارجاً من بين أظهرهم، وقال لقومه: لقد بلَّغتكم ما أمرني به ربي، ونصحتكم في التحذير من عذابه بعبادتكم الأوثان. **﴿وَلَكِنْ لا تُحبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾** ولكنكم لا تحبون الناصحين لكم، الناهين لكم عن شهوات النفس.

﴿ولوطاً إذْ قال لقومِهِ أتأتون الفاحشة﴾ واذكر لوطاً حين قال لقومه: أتأتون الفعل القبيح، وهو إتيان الذكور في أدبارهم؟ **﴿ما سبقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾** ما سبقكم بفعل هذه الفاحشة أحدٌ من الناس، قال ابن دينار: ما رؤي ذكرٌ على ذكر حتى كان قوم لوط. **﴿إنَّكُمْ لَتَأْتُون الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُون النِّسَاءِ﴾** إنكم لتأتون الرجال في أدبارهم، شهوةً منكم لهذا الفعل القبيح، دون ما أحله الله لكم من النساء **﴿بل أنتم قومٌ مسرفون﴾** بتجاوزكم الحدَّ في العصيان والطغيان. **﴿وما كان جواب قومه إلاَّ أَنْ قالوا أَخرجُوهم من قريتكم﴾** وما كان جواب قومه له، حين وبخهم على فعلهم القبيح، إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطاً ومن كان على دينه من بلدتكم **﴿إنهم أناسٌ يتطهَّرون﴾** يتنزهون عن إتيان الرجال في الأدبار، قال قتادة: عابوهم بغير عيب وذمُّوهم بغير ذمٍّ **﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابرينَ﴾** فأنجينا لوطاً وأهله المؤمنين، إلاَّ امرأته الكافرة كانت من الهالكين، الباقين في العذاب. **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾** وأمطرنا على قوم لوط حجارةً من سجِّيل منضود. **﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمينَ﴾**

---

(١) الناقة: أنثى الجمل، وإنما أضيفت إلى الله﴿هذه ناقةُ الله﴾تشريفاً لأن الله خلقها بقدرته من صخر أصم معجزة لصالح عليه السلام.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

* * *

فانظر يا محمد إلى عاقبة هؤلاء المكذبين، الذين ركبوا الفواحش واستحلوا المحارم، كيف كانت؟ وماذا صارت؟ هل كانت إلا البوار والدمار؟

﴿وَإِلى مدينَ أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ ولقد أرسلنا إلى قبيلة مَدْين أخاهم شعيب بن ميكيل. **﴿فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلَهٍ غيرُهُ﴾** ليس لكم إلَه يستوجب العبادة، غير الإلَه الذي خلقكم، وبيده نفعكم وضركم. **﴿قَدْ جَاءَتكُمْ بيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** قد جاءتكم حجةٌ وعلامة من الله، على صدق رسالتي إليكم **﴿فَأَوْفُوا الكَيْلَ والميزَانَ﴾** فأتموا للناس حقوقهم بالكيل والميزان. **﴿ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشياءَهُمْ﴾** ولا تُنْقصوا الناس حقوقهم. **﴿ولا تُفْسِدُوا في الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾** ولا تعملوا في الأرض بمعاصي الله، بعد أن أصلحها الله ببعثة الأنبياء والمرسلين. **﴿ذلكم خيرٌ لكُمْ إن كنتم مؤمنين﴾** هذا الذي أمرتكم به ـ من إخلاص العبادة لله وإيفاء الناس حقوقهم في الكيل والوزن ـ خيرٌ لكم عند الله إن كنتم مصدقين لما أقول. **﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِ صِرَاطٍ﴾** ولا تجلسوا بكل طريق. **﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾** تتوعدون المؤمنين بالقتل، وتردُّون عن دين الله من صدَّق بالله ووحَّده، قال ابن عباس: كانوا يجلسون في الطريق، فيخبرون من مرَّ عليهم أن شعيباً كذاب، ويتوعَّدون ويُخوِّفون من أراد الإيمان به **﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾** وتلتمسون لمن سلك طريق الله العوجَ عن الحق، إلى الزيغ والضلال. **﴿واذكروا إذْ كنتم قليلاً فكثَّركم﴾** اذكروا حين كنتم قليلي العدد، فكثَّر جماعتكم ورفعكم من الذلة والخسَّة، فاشكروا الله على نعمه، وأخلصوا له العبادة. **﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾** وانظروا ما حلَّ بالأمم المفسدين من العذاب والنكال. **﴿وإنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِه وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾** وإن كانت جماعة منكم صدَّقوا بما جئتهم به، وجماعة أخرى لم يصدِّقوا بذلك ولم يتَّبعوني **﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾** فانتظروا حتى يفصل الله بيننا وبينكم بحكمه العادل، وهو خير من يفصل ويقضي

* قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾

* * *

لأنه لا محاباة عنده لأحد. ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ قال الرؤساء والأشراف من قومه، الذين تكبروا عن الإيمان بالله واتباع رسوله ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ لنخرجنك[1] وأتباعك المؤمنين من بلدتنا، أو لَترجعُنَّ إلى ديننا. ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كارهينَ﴾ أتخرجوننا من قريتكم، وتصدوننا عن دين الله، ولو كنا كارهين لذلك؟ ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا في مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانا اللهُ مِنْهَا﴾ قد اختلقنا على الله كذباً وباطلاً، إن رجعنا إلى دينكم، بعد أن هدانا الله إلى الإيمان، وبصَّرنا طريق الهدى والصَّواب. ﴿وما يكونُ لَنا أَنْ نَعُودَ فيها إلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ وما ينبغي ولا يصح لنا أن نرجع إلى ملتكم، إلاّ أن يسبق في علم الله ذلك، فيمضي فينا قضاءُ الله، وتنفذ مشيئته. ﴿وَسِعَ رَبُّنا كُلَّ شيءٍ عِلْماً﴾ أحاط علم الله بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء مما كان أو يكون. ﴿عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ على الله وحده اعتمدنا في جميع أمورنا. ﴿رَبَّنا افْتَحْ بيننا وبين قومنا بالحقّ﴾ ربنا احكم بيننا وبين هؤلاء الكافرين بحكمك العادل[2]. ﴿وأنتَ خيرُ الفاتحينَ﴾ وأنت خيرُ الحاكمين ﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ قال الرؤساء والأشراف من كفرة قوم شعيب: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إنكمْ إذاً لَخَاسِرُونَ﴾ لئن أجبتم شعيباً إلى ما يدعوكم إليه، من توحيد الله، وأقررتم بنبوَّته، إنكم حينئذٍ لهالكون ومغبونون في فعلكم هذا. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دَارِهِمْ جَاثمينَ﴾ فأخذتهم الصيحة والزلزلة، فأصبحوا موتى صَرْعى جاثمين على ركبهم. ﴿الذينَ كذَّبوا شعيباً كأنْ لم يَغْنَوْا فيها﴾ كأن لم يقيموا في ديارهم منعمين ﴿ الذين كَذَّبوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرين ﴾ لم يكن أتباع

---

(١) المرادُ بالإخراج الطردُ والإبعاد من بلده الذي يسكنه كما قال تعالى لرسوله﴿وإذْ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك..﴾ الآية.

(٢) لما يئس من فلاحهم، وانقطع رجاؤه من إيمانهم، وخاف على نفسه والمؤمنين منهم، دعا عليهم ﷺ فاستجاب الله دعاءه.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

* * *

شعيب الخاسرين، كما قالوا للمؤمنين «لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون» بل الذين كذبوه كانوا هم الخاسرين، بحلول العذاب عليهم **﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾** فأدبر شعيب عنهم خارجاً من بين أظهرهم، وقال حزناً عليهم لما أيقن نزول العذاب عليهم: لقد أديت إليكم رسالة ربي، ونصحتكم بطاعة أمره **﴿فَكَيْفَ آسَى على قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾** فكيف أحزن وأتوجَّع على قوم جحدوا وحدانية ربهم، وكذَّبوا رسوله؟ **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا في قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيّ إلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بالبأساءِ والضَرَّاءِ﴾** وما أرسلنا في قرية نبياً قبلك يا محمد، إلا أخذنا أهلها بضيق العيش وسوء الحال[1] **﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾** ليتضرعوا إلى ربهم، وينيبوا إليه من ذنوبهم. **﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئةِ الْحَسَنَةَ حتى عَفَوْا﴾** ثم بدَّلنا أهل القرية مكان الشدَّة والبلاء النعمةَ والرخاءَ، حتى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم[2]. **﴿وقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ﴾** وقالوا: هذه أحوال قد أصابت من قبلنا من آبائنا، ونالت أسلافنا، ونحن مثلهم يصيبنا ما أصابهم من الشدَّة والرخاء. **﴿فَأَخَذناهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾** فأخذناهم بالعذاب فجأةً، وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون **﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَقَوْا﴾** ولو أن أهل المدن صدَّقوا بالله ورسله، واتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المحرمات[3]. **﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ والأَرْضِ﴾** لأغدقنا عليهم القطر من السماء، وأخرجنا لهم نبات الأرض، فجمعنا لهم بين خيرات السماء وخيرات الأرض. **﴿ولكِنْ كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾** ولكنهم كذَّبوا رسلهم فأهلكناهم بذنوبهم **﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وهم نَائمونَ﴾** هل أمنَ المكذبون أن يأتيهم عذابنا ونكالنا ليلاً وهم نائمون؟

---

(١) البأساء: ما يصيبهم في أبدانهم من الأمراض والأسقام، والضُّراء: الفقر والجوع.

(٢) هذا بيان لسنة الله في المكذبين، أنه يأخذهم بالشدَّة وضيق العيش حتى يتوبوا ويرجعوا، ثم يغيِّر حالهم إلى السعة والرخاء ليشكروا النعمة، فإذا أصرُّوا على الكفر والتكذيب أخذهم بغتةً وهم لا يشعرون.

(٣) اقتبسنا تفسير الآيات الثلاث من تفسير ابن كثير وغيره لعدم وجودها في الطبري.

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾

* * *

﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى أن يأتيهم بأسنا ضُحًى وهم يلعبون﴾ أو هل أمنوا أن يأتيهم عذابنا في حال شغلهم وغفلتهم وهم لاهون؟ ﴿أفأمنوا مكرَ اللهِ﴾ أفأمنوا استدراج الله لهم، برخاء العيش وصحة الأبدان؟ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكرَ اللهِ إلَّا الْقَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾ فلا يأمن ذلك إلَّا القوم الهالكون، الذين خسروا سعادتهم وأنفسهم ﴿أو لم يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أو لم يتبيَّن ويظهر للذين يُسْتخلفون في الأرض بعد هلاك أهلها. ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بذنوبِهِمْ﴾ أن لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم، فعجلنا لهم العقاب؟! ﴿وَنَطْبَعُ على قلوبهم فهم لا يسمعون﴾ ونختم على قلوبهم، فلا يسمعون ـ سماع انتفاع ـ موعظة ولا تذكيراً. ﴿تلك القُرَى نَقُصُّ عليكَ من أَنْبائِهَا﴾ هذه القرى التي قصصتُ عليك أمرها يا محمد ـ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب ـ نخبرك عن أخبار أهلها، وما كان من أمرهم وأمر رسلهم، لتعلم أن النصرة لرسلنا على أعدائنا. ﴿وَلَقَدْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ولقد جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فما كان أولئك المشركون ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل، لسبق علمه تعالى[١]. ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين﴾ كما طبع على قلوب الأمم الماضية، كذلك يطبع على قلوب الكافرين من قومك. ﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهدٍ﴾ وما وجدنا لأكثر أهل هذه القرى التي أهلكناها، وفاءً بما وصَّيناهم به، من توحيد الله والعمل بطاعته. ﴿وإنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ ولقد وجدنا أكثرهم فَسَقَة، خارجين عن طاعة ربهم، تاركين عهده ووصيته.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بآياتِنَا إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ثم أرسلنا من بعد الرسل المذكورين، «موسى بن عمران» بحججنا وأدلتنا البيِّنة إلى فرعون وقومه، فكفروا بها. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فانظر يا محمد كيف كان عاقبة هؤلاء المفسدين ـ فرعون وقومه ـ ألم نغرقهم في البحر

(١) هذا ما رجحه الطبري أن المراد أنَّ من سبق في علم الله تعالى أنه لا يؤمن فلن يؤمن أبداً، واختار ابن كثير أن الباء في قوله﴿بما كذبوا﴾سببيّة أي فما كانوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم بالحقِّ أول ما ورد عليهم، ولكلٍ وجهةٌ، ورأيُ ابن كثير اظهر والله أعلم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

* * *

جميعاً؟ **﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** وقال موسى لفرعون: إني مرسل من ربّ العالمين، أرسلني اللهُ إليك. **﴿حقيقٌ على أن لا أقولَ عَلَى اللهِ إلاَّ الْحَقَّ﴾** حقيقٌ بأن لا أقول على الله إلا الحق. **﴿قَدْ جِئْتُكُمْ ببيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** قد جئتكم ببرهان من ربكم يشهد بصدق رسالتي. **﴿فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** فأطلقهم من أسرك وقهرك وأرسلهم معي. **﴿قال إنْ كنتَ جئتَ بآيةٍ فَأْت بها إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** قال فرعون: إن كنتَ جئتَ بحجة وعلامة شاهدة على صدق ما تقول، فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً في دعواك. **﴿فألقَى عَصَاهُ فإذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾** فألقى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة ظاهرة لمن يراها[1] **﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإذَا هِيَ بَيْضَاءُ للنَّاظِرِينَ﴾** وأخرج يده من جيبه، فإذا هي بيضاء تلوح لمن نظر إليها، من غير برص ولا مرض. **﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾** قال السادة والأشراف من قوم فرعون: إن موسى لساحرٌ كبير، يخدع الناس بسحره. **﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾** يريد أن يخرجكم من أرض مصر معشر الأقباط **﴿فماذا تأمرون﴾** بأيِّ شيءٍ تشيرون فيه؟ وهذا من قول فرعون للملأ. **﴿قالوا أَرْجِهْ وأخاهُ﴾** أخِّره وأخاه. **﴿وَأَرْسِلْ في الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾** وأرسل في مدائن ملكك، من يحشر السحرة فيجمعهم إليك، قال ابن عباس: أي أرسلْ الشُّرَط. **﴿يأتوكَ بكل ساحر عليم﴾** يجمعون لك كل ساحر عليمٍ بالسِّحر. **﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إنَّ لَنَا لأجْراً إنْ كُنَّا نحنُ الْغَالِبِينَ﴾** قال السحرة: إنَّ لنا لثواباً وعطاءً إن نحنُ غلبْنا موسى؟ **﴿قَالَ نعمْ وَإِنَّكُمْ لَمَنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾** قال: نعم لكم ذلك، وإنكم ممَّن أقرِّبُه وأدنيه مني. **﴿قَالُوا يَا مُوسَى إمَّا أَنْ تُلْقِيَ وإمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾** قال السحرة:

---

(١) قال ابن عباس: ألقى عصاه فتحولت حية عظيمة، فاغرةً فاها مسرعة إلى فرعون، فلما رآها مقبلةً نحوه، رمى بنفسه عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه، فأخذها موسى بيده فعادت عصا كما كانت. اهـ. والثعبانُ: الذَّكر من الحيَّات.

قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

* * *

اختر يا موسى إمَّا أن تُلقي عصاك، أو نلقي نحنُ قبلك؟ ﴿قال أَلْقُوا﴾ قال لهم موسى: ألقُوا ما أنتم ملقون! ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاس﴾ فلما ألقوا ذلك، خيِّلوا إلى أعين الناس أنها حياتٍ تسعى، حتى خافوا من العصي والحبال ﴿واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم﴾ وأخافوا الناس فأدخلوا عليهم الفزع، وجاءوا بسحر عظيم، بطريق الخداع والتخييل. ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِي تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فألقى موسى عصاه فإذا هي تبتلع ما يسحرون كذباً وباطلاً. ﴿فوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ ما كانوا يعملون﴾ فظهر الحقُّ، وبطل إفكُ السَّحرة وكذبُهم. ﴿فغُلبوا هُنالِكَ وانْقَلَبُوا صَاغِرينَ﴾ فغلب موسى فرعونَ وجموعه عند ذلك، وانصرفوا مقهورين ذليلين. ﴿وأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجدينَ﴾ ووقع السحرة سُجَّداً لله جل وعلا ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ يقولون: صدَّقنا بالله رب العالمين، ربِّ موسى وهارون، لا فرعون، قال ابن عباس: لما رأت السحرة ما رأتْ عرفت أن ذلك من السماء وليس بسحر، فخرُّوا سجداً لله. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ قال فرعونُ للسحرة حين آمنوا بالله: أصدَّقتم بموسى وأقررتم بنبوَّته قبل أن آذن لكم بالإيمان به؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ في الْمَدِينَةِ لتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إن هذه لخدعةٌ خدعتم بها مَنْ في مدينتنا لتخرجوهم منها، فسوف تعلمون ما أفعل بكم على صنيعكم هذا. ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأقطعنَّ من أحدكم يده اليمنى ورجله اليسرى أو بالعكس، ثم لأصلبنكم على جذوع النخل أجمعين حتى تموتوا[1]. ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ قال السحرة حين توعَّدهم فرعون: إنا راجعون إلى الله، ومصيرنا إليه فلا نخشاك. ﴿وما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لمَّا جاءتنا﴾ وما تُنكر علينا إلَّا من أجل أن صدَّقنا بحجج ربنا وأدلته، ، التي لا يقدر على مثلها إلا الله. ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوفَّنَا مُسْلِمينَ﴾ ربنا أنزل

(١) أول من سنَّ هذا القطع والقتل، قال ذلك عندما رأى خذلان الله له، وغلبة موسى وقهره له.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

* * *

علينا صبراً عند تعذيب فرعون لنا، واقبضنا على الإسلام دين خليلك إبراهيم، **قال ابن عباس**: كانوا في أول النهار سحَرة، وفي آخره شهداء بررة. **﴿وَقَالَ المَلأُ من قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا في الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وآلِهتَكَ﴾** وقال الأشرافُ من جماعة فرعون لفرعون: أتترك موسى وقومه، كي يفسدوا خدمك وعبيدك في أرض مصر، وقد تركك وترك عبادتك وعبادة آلهتك؟ **﴿قالَ سَنُقَتِّلُ أبناءهم ونَسْتَحْيي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾** قال فرعون: سنقتل الذكور من أولاد بني إسرائيل، ونستبقي الإناث، ونحن عالون فوقهم بالقهر والسلطان. **﴿قال موسى لقومه استعينوا باللهِ واصْبِرُوا﴾** قال موسى لبني إسرائيل: استعينوا بالله على فرعون وقومه، واصبروا على ما ينالكم منهم من المكاره. **﴿إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ﴾** لعل الله أن يورثكم أرض مصر إن صبرتم واستقمتم، فإن الله يورث أرضه من يشاء من عباده. **﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** والعاقبةُ المحمودة لمن اتقى الله وراقبه. **﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تأتينا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا﴾** قال بنو إسرائيل، لموسى: لقد أوذينا من قبل أن تأتينا بالرسالة، ومن بعد ما جئتنا برسالة الله[1] **﴿قال عَسَى ربكم أن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾** لعل ربكم أن يهلك عدوكم فرعون وقومه!! **﴿ويَسْتَخْلِفَكُمْ في الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْملونَ﴾** ويجعلكم تخلفونهم بعد هلاكهم، فيرى ما تعملون بعدهم، من طاعته أو عصيانه. **﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بالسِّنِينَ ونَقْصٍ مِنَ الثَّمرَاتِ﴾** ولقد اختبرنا قوم فرعونَ بالقحط والجدب، وبذهاب الثمار والغلَّات **﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾** لينزجروا عن ضلالتهم، ويفزعوا إلى ربهم. **﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾** فإذا أصاب آلَ فرعون الرخاءُ والخِصْبُ وكثرةُ الثمار، قالوا نحن أَحَقُّ بها، ونحن نستحق هذا الإنعام. **﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَهُ﴾** وإن نالهم جدب وقحطٌ وبلاء، تشاءموا بموسى ومن معه، يقولون: هذا بسبب شؤم هؤلاء **﴿أَلا إِنَّما طَائِرُهُمْ عِنْدَ**

---

(١) كان فرعون يقتل أولادهم الذكور قبل بعثة موسى، وأراد تجديد العذاب لهم بعد إيمان السَّحرة.

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

* * *

الله ﴿ولكنَّ أكْثَرَهُمْ لا يعلمُون﴾[١] ما يصيبهم من خير أو شر فبتقدير الله لا بشؤم موسى ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بمؤمنين﴾ وقال آل فرعون لموسى: مهما جئتنا به من معجزة لتصرفنا بها عن دين فرعون فما نحن لك بمصدّقين. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والجراد والقُمَّلَ والضَّفادِعَ والدَّمَ﴾ فأرسلنا عليهم المطر الشديد المغرق للزروع والثمار، والجراد المتلف للزرع، والقُمَّل- السُّوس- الذي يخرج في الحبوب، والضفادع تسقط في أطعمتهم وأشربتهم، والدَّم يكون في ثيابهم ومائهم وطعامهم ﴿آياتٍ مفصَّلاتٍ﴾ واضحة دالة على صدق نبوة موسى، يتبع بعضها بعضاً[٢] ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ فاستكبروا عن الإيمان بالله، وتصديق موسى ﷺ، وكانوا قوماً عتاةً متمردين على الله، يعملون بالفسق والمعاصي. ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عليهمُ الرِّجْزُ قَالُوا يا موسى ادْعُ لنا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ ولما نزل بهم عذاب الله وسخطه، فزعوا إلى موسى فقالوا يا موسى: ادع لنا ربك بما أوصاك وأمرك به، ليكشف عنا العذاب، ثم أقسموا فقالوا. ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لنؤمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بني إسْرَائيلَ﴾ والله لئن رفعتَ عنا العذاب الذي نحن فيه، لنصدّقنَّ برسالتك، ولنخلينَّ بني إسرائيل يذهبوا معك حيث شاءوا. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إلى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ فلما كشفنا عنهم العذاب إلى حدٍّ من الزمان هم واصلون إليه لا محالة، هو وقت هلاكهم ﴿إذا هُمْ يَنْكُثون﴾ إذا هم ينقضون عهودهم، ويقيمون على كفرهم وضلالهم. ﴿فَانْتَقَمْنَا منهم فأغْرَقْنَاهُمْ في اليَمِّ﴾ فانتقمنا منهم بالإغراق في البحر. ﴿بأنهم كَذَّبُوا بآياتنا وَكَانُوا عنها غَافِلِينَ﴾ بسبب تكذيبهم

---

(١) قال ابن عباس: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ مصائبهم عند الله، والمعنى الأول رواية عنه، والمراد أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم الذي يعملونه.

(٢) روي أنهم لما كذبوا موسى، سلَّط الله عليهم ألوان البلاء والعذاب، فأرسل عليهم الطوفان المدمِّر، والجراد بتلف الزروع، والسُّوس ينخر الحبوب، والضفادع تملأ البيوت، فلم يبق لهم طعامٌ ولا شراب إلا وفيه الضفادع، وكانوا يستقون من الأنهار والآبار فيخرج لهم بدل الماء الدم، وفي كل مرة يعاهدون موسى ثم ينكثون العهد معه بعد أن يدعو الله لهم بكشف البلاء، كما قال تعالى ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

* * *

بحجج الله وآياته، وغفلتهم عنها، حيث لم يؤمنوا بها ولم يقبلوها. ﴿**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ وأورثنا بني إسرائيل ـ الذين كان يستضعفهم ويستخدمهم فرعون وقومه ـ مشارق الأرض ومغاربها، وهي بلاد الشام[١] التي جعلنا فيها الخير ثابتاً دائماً. ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنى على بني إسْرائيلَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ ووفَّى الله وعده لبني إسرائيل بتمكينهم في الأرض، ونصرهم على عدوهم بسبب صبرهم. ﴿**وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ**﴾ وخرَّبنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع، وما كانوا يبنونه من الأبنية والقصور. ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيلَ البحرَ**﴾ وقطعنا ببني إسرائيل البحر، بعد تلك الآيات والعبر التي شاهدوها، فلم تزجرهم تلك العبر والبيِّنات. ﴿**فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ**﴾ فمرُّوا على قوم يعبدون أصناماً على صور البقر. ﴿**قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة**﴾ اجعلْ لنا صنماً نتخذه إلَهاً، كما لهؤلاء أصنامٌ يعبدونها[٢] ﴿**قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ قال لهم موسى: إنكم أيها القوم جهلة، تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن يُنَزَّه عنه من الشريك والمثيل. ﴿**إنَّ هؤلاءِ مُتَبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون**﴾ إن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام هالكٌ ما يعبدونه، وباطلٌ عملهم ومضمحلٌّ، لأنه لا ينفعهم ولا ينقذهم من عذاب الله. ﴿**قالَ أغيرَ اللهِ أبغيكم إلَهاً وهو فضَّلكم على العالمينَ**﴾ أألتمس لكم إلَهاً، وأطلب لكم معبوداً غير الله تعبدونه، وهو خالقكم الذي فضَّلكم على عالمي دهركم وزمانكم؟ إن هذا

---

(١) البلادُ التي بارك الله فيها هي الشامُ في قول الجمهور، وإنما قال «وأورثنا» لأنه أورث ذلك بني إسرائيل بعد مهلك من كان فيها من العمالقة، وأما من قال إنها بلاد مصر فذلك ـ كما قال الطبري ـ قول بعيدٌ عن المفهوم، مع خروجه عن أقوال أهل التأويل والتفسير.

(٢) ما أبشع طباع اليهود، وما أشدَّ طغيانهم!! فبعد أن ورَّثهم الله مشارق الأرض ومغاربها، ورفعهم من حضيض الذل إلى أوج العزِّ، وخلَّصهم من جبروت فرعون وطغيانه، عادوا إلى الإفساد والإجرام، فطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنماً يتخذونه إلَهاً، ويعبدونه من دون الله ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة﴾ فما أشدَّ حماقتهم وأسفه عقولهم!! وهؤلاء الأحفاد من سُلالة أولئك الأجداد، شتَّت الله شملهم وقطع دابرهم، وطهَّر الأرض من رجسهم.

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

* * *

منكم لجهلٌ.. ثم ذكَّرهم بنعمه تعالى عليهم لينزجروا عن طلبهم القبيح فقال **﴿وإذْ أَنْجيناكُم مِنْ آل فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العذاب﴾** واذكروا حين أنجاكم الله من قوم فرعون، يذيقونكم أشدَّ العذاب وأسوأه **﴿يُقتِّلون أبْناءَكُمْ وَيَسْتحيونَ نساءَكُمْ﴾** يذبّحون الذكور ويستبقون الإناث **﴿وفي ذلكم بلاءٌ مِنْ ربكم عظيم﴾** وفي هذا الإنجاء اختبارٌ من الله لكم، ونعمة عظيمة منه عليكم. **﴿وَوَاعَدْنَا مُوسى ثلاثين لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْر﴾** وعدنا موسى لمناجاتنا ثلاثين ليلة، وأتممنا الثلاثين بعشر ليالٍ، **قال مجاهد:** هي ذو القِعدة وعشرٌ من ذي الحجة **﴿فتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعينَ ليلةً﴾** فكمل الوقت الذي وعد الله به موسى لمناجاته أربعين ليلةً[1] **﴿وَقَالَ موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي﴾** وقال موسى لأخيه هارون: كن خليفتي على بني إسرائيل إلى أن أرجع إليهم. **﴿وَأَصْلِحْ ولا تَتَّبِعْ سبيلَ المُفْسِدينَ﴾** وأصلحهم بحملهم على طاعة الله، ولا تسلك طريق المفسدين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون[2]. **﴿ولمَّا جَاءَ مُوسى لِميقَاتنا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾** ولما جاء موسى للوقت الذي وعدناه أن يلقانا فيه، وناجاه ربه. **﴿قال رَبِّ أرني أَنْظُرْ إليكَ﴾** قال موسى لربه: يا ربِّ أرني نفسك لأنظر إليك **﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾** قال الله مجيباً له لن تراني في الدنيا. **﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إلى الْجَبَلِ فَإنِ اسْتقرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَاني﴾** ولكنْ انظر إلى الجبل، فإنه أكبر منك وأشدُّ، فإن ثبت مكانه فسوف تراني. **﴿فَلَمَّا تَجلَّى رَبُّه لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً﴾** فلما اطَّلع الرب للجبل صار الجبل تراباً مستوياً بالأرض[3] **﴿وَخرَّ مُوسى صَعِقاً﴾** وسقط موسى مغشياً عليه[4]. **﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إليك﴾**

---

(١) وعد الله موسى أن يكلمه وينزل عليه التوراة بعد ثلاثين ليلة، فصامها موسى فلما تمَّ الميقاتُ استاك بلحاء شجرة، فأمره تعالى أن يكملها بعشر، فكملت أربعون ليلة، وهذا هو السرُّ في زيادة المدة على موسى، لأن ـ خُلُوف ـ فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، أي تغير رائحة الفم من أثر الجوع والعطش.

(٢) هذا تنبيه وتذكيرٌ، وإلا فهارون نبيٌ شريف كريم على الله.

(٣) روي عن ابن عباس أنه قال: ما تجلى منه إلا قدر الخنصر.

(٤) فسَّر ابن عباس «صَعِقاً» مغشياً عليه، وفسره قتادة ميتاً، وما قاله ابن عباس أظهر لقوله تعالى ﴿فلما أفاق﴾ فإن الإفاقة لا تكون إلا عن الغشيّ لا عن الموت.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

* * *

فلما أفاق من غشيته، قال: تنزيهاً لك يا رب أن يراك أحدٌ في الدنيا، تبتُ إليك من سؤالي لك الرؤية. ﴿**وَأَنَا أَوَّلُ المؤمنينَ**﴾ وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل. ﴿**قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي**﴾ اخترتك على الناس بالرسالة وبالمناجاة ﴿**فَخُذْ ما آتيتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ فخذ ما أعطيتك من الشريعة، وكن من الشاكرين لله على الرسالة والمناجاة. ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكل شيءٍ**﴾ وكتبنا لموسى في الألواح كل ما يحتاج إليه من المواعظ والأحكام، موعظة لقومه، وتبييناً لكل شيء من الحلال والحرام. ﴿**فَخُذْها بِقُوَّةٍ**﴾ فخذها بجد وعزم. ﴿**وأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا**﴾ وكلِّف بني إسرائيل أن يعملوا بأحسن ما يجدون[1] فيها. ﴿**سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ**﴾ سأريكم في الآخرة ما يصير إليه حال[2] الفاسقين، بإدخالهم نار الله التي أعدها لأعدائه، وهذا على وجه «التهديد والوعيد» لمن عصى أمر الله ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يتكبَّرون في الأرض بغير الحَقِّ**﴾سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، عقوبة لهم على تكبرهم، فهم عن الاعتبار والادِّكار مصروفون. ﴿**وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بهَا**﴾ وإن ير هؤلاء المتكبرون عن الإيمان بالله ورسوله، كلَّ حجةٍ لله على ربوبيته ووحدانيته، لا يصدقوا بها، ويقولون: هي سحرٌ وكذبٌ ﴿**وَإِنْ يَرَوْا سبيل الرُّشْدِ لا يتَّخِذُوهُ سبيلاً**﴾ وإن يروا طريق الهدى والسداد، لا يسلكوه ولا يتخذوه طريقاً لهم. ﴿**وَإِنْ يَرَوْا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلاً**﴾ وإن يروا طريق الضلال والفساد سلكوه ﴿**ذلك بأنهم كَذَّبوا بآيَاتِنا**﴾ صرفناهم عن أن يعقلوا آياتنا، ويفهموها ويعتبروا بها فيُنيبوا، عقوبةً لهم منا على تكذيبهم. ﴿**وكانُوا عنها غَافِلين**﴾وكانوا عن آياتنا لاهين، لا يتفكرون فيها

---

(١) المراد أن فيها الحسن والأحسن، كالقصاص مثلاً والعفو، فالعفو أحسن من القصاص.

(٢) هكذا فسرها الطبري، وقال غيره من المفسرين المعنى: سأريكم دار فرعون وقومه ـ وهي مصر ـ كيف أقفرت منهم لما هلكوا، وهذا ما اختاره في التسهيل وهو الأظهر والأرجح.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ

* *

ولا يعتبرون. ﴿**والَّذِينَ كَذَّبوا بآياتِنَا ولقاء الآخرة**﴾ والذين جحدوا حججنا وأدلتنا، وأنكروا لقاء الله في الآخرة. ﴿**حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ**﴾ بطلت أعمالهم وذهبت، وصارت عليهم وبالاً ﴿**هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ هل نجازيهم إلاَّ بأعمالهم التي أسلفوها؟ فقد كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، فصار جزاؤ هم الخلود في النيران ﴿ **واتّخذ قومُ موسى من بَعْدِه** ﴾ واتخذ بنو إسرائيل من بعد ما فارقهم موسى لمناجاة ربه ﴿ **مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً** ﴾ اتخذوا من الحليّ عجلاً ـ ولد البقرة ـ جسداً لا روح له فعبدوه ﴿ **لَهُ خُوَارٌ** ﴾ له صوتُ البقر، وهذا خبرٌ من الله بأنهم ضلوا بما لا يضلُّ بمثله أهل العقل، فإن الربَّ جل وعلا لا يجوز أن يكون جسداً له خوار[1] بل هو الربُّ الذي له ملك السموات والأرض، ومدبّر الكون ﴿ **ألم يَرَوْا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً** ﴾ ألمْ ير هؤلاء الذين عبدوا العجل، أنه لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى طريق؟ فكيف يكون إلّهاً وهو أبكم لا يتكلم؟ ﴿ **اتخذوه وكانوا ظالمينَ** ﴾ اتخذوا العجل إلّهاً، وكانوا ظالمين لأنفسهم، باتخاذهم إياه رباً معبوداً ﴿**وَلَمَّا سُقِطَ في أيديهِمْ**﴾ ولما ندموا على جنايتهم، واشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل سفهاً وجهلاً ﴿**وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا**﴾ وعرفوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وكفروا بربهم. ﴿**قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِينَ**﴾ قالوا تائبين إلى الله منيبين: لئن لم يتغمدنا ربنا بالرحمة والتوبة، لنكونن من الهالكين

﴿**وَلَمَّا رجع موسى إلى قومه غضبانَ أسِفاً**﴾ ولما رجع موسى إلى بني إسرائيل، غضبانَ شديد الغضب، لعبادتهم العجل. ﴿**قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي**﴾ بئس الفعل الذي فعلتمـوه بعد فراقي لكم، حيث خلفتموني في قومي بشرٍّ ﴿**أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ**﴾ أعجلتم عن أمر ربكم؟ بانتظار نبيكم حتى يرجع من الطور؟ ﴿**وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ برأسِ أخِيهِ يَجُرُّهُ إليْهِ**﴾ وطرح الألواح غضباً على قومه لعبادتهم العجل، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه، خوفاً من أن يكون قد قصَّر في نهيهم ﴿**قَالَ ابنَ أُمَّ إِنَّ القَوْمَ**

---

(١) إني لأعجب من سخافة عقول هؤلاء الجهلاء «اليهود» فقد تركوا عبادة الربّ الحقّ، القادر على كل شيء، وعبدوا عجلاً من البقر، له صورة البقر و«عجْلاً جسداً» أي لا روح فيه وإنما هو في الشكل يشبه العجل وله صوت كخوار البقر، فعبدوا العجل من دون الله، لصوته الرخيم، فما أضلهم وما أشقاهم؟

وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ

* * *

اسْتَضْعَفُوني وكادوا يقتلونني﴾ قال هارون: يا ابن أمّاه[١] - أي يا أخي - إن الذين عكفوا على عبادة العجل استضعفوني وقاربوا أن يقتلوني. **﴿فلَا تُشْمِتْ بي الأعداء﴾** فلا تجعل الأعداء يُسرُّون بي ويفرحون بإهانتي. **﴿ولا تَجْعَلْني مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾** لا تجعلني من جملة الظالمين - أصحاب العجل - الذي عبدوا غير الله. ولـمّا تبيَّن له عذر أخيه، **﴿قالَ ربِّ اغفرْ لي وَلأخي﴾** استر ذنبي بفضلك وكرمك، واعف عمَّا سلف مني ومن أخي. **﴿وأَدْخِلْنَا في رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ﴾** وارحمنا برحمتك الواسعة، فإنك أرحم الراحمين. **﴿إنَّ الذينَ اتَّخذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** إن الذين عبدوا العجل وجعلوه إلٰهاً، سيلحقهم غضبٌ من الله، وذلة وهوان في الدنيا قبل الآخرة. **﴿وَكَذلِكَ نَجْزِي المُفْتَرينَ﴾** وكذلك نجزي كل من كذب على الله، فعبد غيره بعد إقراره بوحدانية الله. **﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا﴾** والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم تابوا وأنابوا بعدها وصدَّقوا بالله. **﴿إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيمٌ﴾** إن ربك ساتر لذنوبهم، رحيمٌ بهم وبالتائبين **﴿ولما سكتَ عن موسى الغضبُ﴾** ولما سكن غضب موسى وهدأ. **﴿أخذ الألواحَ وفي نسختها هدىً﴾** أخذ الألواح بعدما ألقاها، وفيما كُتب فيها بيانٌ للحق، وهداية من الضلالة. **﴿ورحمةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾** ورحمة للذين يخافون الله، ويخشون عقابه. **﴿واخْتَارَ موسى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لميقَاتِنَا﴾** واختار موسى من قومه سبعين رجلاً، للوقت الذي وعده الله فيه، للتوبة والإعتذار مما فعله سفهاؤهم في عبادتهم العجل **﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾** فلما أخذتهم الرجفة عقاباً لهم على قولهم: «أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً» وماتوا بتلك الرجفة[٢] **﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وإيَّايَ﴾** قال موسى: يا رب لو

---

(١) دعاه بأمه مع أنه أخوه الشقيق لأنه أدعى إلى العطف والحنو.

(٢) في رواية السُّدي: إن السبعين الذين اختارهم موسى، ليعتذروا إليه من عبادة العجل، لما أتوا المكان قالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: ربِّ ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم! لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي!! فما زال يتضرع حتى أحياهم الله له وذلك قوله تعالى ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾

ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ

* * *

شئت أن تهلكنا قبل ذلك لفعلت، فإنا عبيدك وتحت قهرك، قال ذلك على وجه التضرع والرغبة. **﴿أتهلكنا بما فعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾** أتهلكنا يا رب بذنوب من عبد العجل؟ **﴿إنْ هي إلاَّ فتنتُكَ﴾** ما هذا إلاَّ ابتلاءٌ واختبارٌ منك. **﴿تُضِلُّ بها من تَشاءُ وَتَهْدي مَنْ تَشاءُ﴾** ابتليتهم بها ليتبيَّن الذي يضل عن الحق والذي يهتدي إليه. **﴿أنتَ ولينا فاغفر لنا وارحمنا﴾** أنت ناصرنا ومتولي أمرنا، فاستر ذنوبنا، وتعطَّف علينا برحمتك **﴿وَأنتَ خيرُ الغافرينَ﴾** وأنت خير من صفح وستر. **﴿واكتبْ لنا في هذه الدنيا حسنةً وفي الآخرة إنَّا هُدْنا إليكَ﴾** اجعلنا ممن كتبتَ له في الدنيا الصالحات من الأعمال، وفي الآخرة المغفرة من الذنوب، إنَّا تبنا إليك. **﴿قَالَ عَذَابي أصيبُ به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيءٍ﴾** قال الله لموسى: عذابي أصيب به من أشاء من خلقي، ورحمتي عمَّت خلقي كلهم. **﴿فسأكتبها للذينَ يتقون ويؤتون الزكاة﴾** فسأكتب رحمتي وأجعلها للذين يخافون الله، ويجتنبون معاصيه، ويؤدون زكاة أموالهم لمستحقيها. **﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾** والذين هم بآياتنا يُقرّون ويُصدِّقون. ثم بيَّن وفصَّل هؤلاء فقال: **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾** الذين يتبعون الرسول محمداً ﷺ النبي الأميَّ[1] المبشَّر به، **قال ابن عباس:** هم أمة محمد ﷺ **﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾** الذي يجدون نعته وصفته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل. **﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾** يأمر هذا النبي أتباعه بالإيمان بالله وطاعته، وينهاهم عن الشرك بالله والمعاصي. **﴿ويُحلُّ لهم الطيبات ويُحرِّم عليهم الخبائث﴾** ويحل لهم الطيبات التي أحلها الله، ويُحرم عليهم الخبائث كلحم الخنزير والخمر[2] **﴿وَيَضَعُ عنهم إصْرَهُمْ﴾** ويضع عنهم العهد[3] الذي كان أُخذ على بني إسرائيل، بالعمل بما في التوراة

---

(١) الأميُّ: الذي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك من أعظم دلائل نبوته ﷺ. وليس معناه الجاهل الذي لم يتعلم، فتنبه لهذا هداك الله

(٢) المراد بالطيبات والخبائث: الحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها، وهذا مذهب مالك، وقال الشافعي: الطيبات المستلذات، والخبائث المستقذرات كالخنافس والعقارب.

(٣) تفسير الإصر بالعهد منقولٌ عن ابن عباس ورجحه الطبري، وقال بعض المفسرين: الإصرُ الأحكام الشاقة والتكاليف التي يضعف عن حملها الإنسان كقوله تعالى ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ وهذا هو الأظهر والأرجح

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

* * *

من الأعمال الشديدة. ﴿**والأغلال التي كانتْ عليهمْ**﴾ والتكاليف الشاقة التي كانت عليهم ثم نسخها القرآن، كتحريم الغنائم، وقتل النفس في التوبة. ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ**﴾ فالذين صدَّقوا بالنبي الأمي وأقرُّوا بنبوته. ﴿**وعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ**﴾ ووقَّروه وعظَّموه، ونصروا دينه بجهادهم معه أعداء الله. ﴿**واتَّبعوا النُّورَ الذي أُنْزِلَ مَعَه**﴾ واتبعوا القرآن الذي أنزله الله عليه. ﴿**أولئك هم المفلحون**﴾ أولئك هم الناجحون الظافرونَ بما طلبوا. ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إني رسولُ اللَّهِ إليكم جميعاً**﴾ قل يا محمد للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم كما كان من قبلي من الرسل. ﴿**الذي له مُلْكُ السمواتِ والأرضِ**﴾ الذي له سلطان السموات والأرض وما فيهما وتدبير ذلك وتصريفه. ﴿**لا إلَـهَ إلاَّ هُوَ يُحْيِي ويُميتُ**﴾ لا معبود بحقٍ إلا هو جل ثناؤه، القادر على الخلق والإفناء. ﴿**فآمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ النبيِّ الأُمِّيِّ**﴾ فصدِّقوا بوحدانية الله، وبرسالة رسوله محمد ﷺ النبي الذي لا يقرأ ولا يكتب ﴿**الَّذي يُؤْمنِ باللَّهِ وكلماته**﴾ الذي يُصدِّق بالله وآياته[1] ﴿**واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُم تَهْتَدُونَ**﴾ اسلكوا طريقه، واقتدوا به لكي تهتدوا. ﴿**وَمِنْ قَوْمِ مُوسى أُمَّةٌ يَهْـدُونَ بالْحَقِّ**﴾ ومن بني إسرائيل جماعة يتَّبعون الحقَّ ويستقيمون عليه. ﴿**وبه يَعْدِلُونَ**﴾ وبالحقِّ يُنصفون فلا يجورون. ﴿**وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً**﴾ وفرَّقنا بني إسرائيل فجعلناهم قبائل شتَّى، اثنتيْ عشرة قبيلةً[2] ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بعَصَاكَ الحَجَرَ**﴾ وأوحينا إلى مُوسَى حين كان بنو إسرائيل في التيه، واستسقوا موسى من العطش، أن يضرب بعصاه الحجر، فضربه ﴿**فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً**﴾ فانفجرت من الحجر اثنتا عشرة عيناً من الماء ﴿**قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ**﴾ قد علم كل جماعة من الأسباط مكان شربهم. ﴿**وظللنا عليهم الغمامَ**﴾ يسترهم من حرِّ الشمس وأذاها. ﴿**وأنزلنا عليهم المنَّ والسلوى**﴾ طعاماً لهم. ﴿**كلوا من طيبات ما رزقناكم**﴾ وقلنا لهم:

---

(١) فسَّر الطبري «الكلمات» و«كلماته» بالآيات، وفسَّرها غيره بأنها التي أنزلها الله على أنبيائه.

(٢) إنما فرَّقهم قبائل لاختلافهم في دينهم، كما حكم عليهم بالتيه ﴿قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

* * *

كلوا من حلال ما رزقناكم وطيَّبناه لكم. ﴿وما ظَلَمُونا ولكنْ كانوا أنفسهم يَظْلِمونَ﴾ في الكلام محذوفٌ تقديره: فكرهوا ذلك وملُّوا منه وقالوا «لن نصبر على طعام واحد» فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وما ظلمونا بفعل ذلك، ولكن ظلموا أنفسهم لاستبدالهم الأدنى بالخير، والأرذل بالأفضل. ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ واذكر أيضاً من عصيانهم لأمر نبيِّهم موسى، حين قال لهم الله: اسكنوا قرية بيت المقدس، وكلوا من ثمارها وحبوبها ونباتها، من أين شئتم منها ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وقولوا: حُطَّ عنا ذنوبنا ـ أي اغفرها لنا ـ ﴿وادخلوا البابَ سُجَّداً﴾ ادخلوا باب «بيت المقدس» ساجدين لله، شكراً على نعائمه ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ نعفو لكم عما سلف من ذنوبكم، فلا نؤاخذكم بها ﴿سنزيدُ المحسنينَ﴾ سنزيد المطيعين لله تعالى ـ على ما وعدتهم من غفران الخطايا ـ الأجر والمثوبة. ﴿فبدَّل الذينَ ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فغيَّرالذين كفروا بالله منهم ما أمرهم الله به فقالوا بدل حِطَّة «حنطةٌ في شعيرة»[1] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ بعثنا عليهم عذاباً من السماء أهلكناهم به، بسبب ما كانوا يُغيِّرون أوامر الله، ويفعلون غير ما يؤمرون ﴿وَاسْأَلْهُمْ عن الْقَرْيَةِ الَّتي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ اسأل اليهود يا محمد ـ سؤال تقرير وتوبيخ ـ عن أمر القرية[2]، التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه. ﴿إِذْ يَعْدُونَ في السَّبْتِ﴾ إذ يعتدون أمر الله يوم السبت، ويتجاوزونه إلى ما حرَّم الله فيصطادون فيه السمك. ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ حين تأتيهم الأسماك، يوم السبت الذي نهوا عن العمل فيه[3]، ظاهرةً على الماء من كل مكان. ﴿ويومَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ﴾ وفي غير يوم السبت لا تأتيهم الحيتان. ﴿كذلكَ نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ كذلك نختبرهم ـ بإظهار السمك على ظهر الماء، في اليوم المحرَّم عليهم صيدُه، وإخفائه عنهم في اليوم المحلَّل صيدُه ـ بسبب فسقهم عن طاعة الله،

---

(١) قالوا ذلك استهزاءً وسخرية بأمر الله، لعنهم الله وشتَّت شملهم.

(٢) قال ابن كثير: هذه القرية هي «أيلة» وهي على شاطىء بحر القلزم، وقيل هي مدين.

(٣) كانت الأسماك تخرج من البحر يوم السبت، وتظهر قريبةً منهم كثيرة ابتلاءً لهم، إذ كان صيدها عليهم حراماً، وتغيب عنهم سائر الأيام.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾

* * *

وخروجهم عنها[١] ﴿وإذْ قالَتْ أمةٌ منهم لم تعظونَ قوماً اللهُ مهلكهم أوْ معذبُهم عذاباً شديداً﴾ واذكر حين قالت جماعة منهم للجماعة الأخرى التي نهتهم عن معصية الله: لم تنصحون قوماً الله سيهلكهم في الدنيا بعصيانهم أمره، أو يعذبهم عذاباً شديداً في الآخرة؟ ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إلى رَبكُمْ﴾ قالوا: إنما نعظهم لنعذر عند الله، بأداء ما فرض علينا، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ولكي يتوبوا من معصيتهم، وينزعوا عمَّا هم عليه. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّروا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ فلمَّا ضيَّعوا أمر الله، واستحلوا ما حرَّم الله عليهم، أنجينا الذين ينهون منهم عن معصية اللّهِ ﴿وَأخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ وأهلكنا الذين ظلموا بعذاب أليم شديد. ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب عصيانهم وخروجهم عن طاعة الله ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عمَّا نُهُوا عنه﴾ فلما تمردُوا عن طاعة الله، وتكبروا عمَّا نُهوا عنه. ﴿قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ مسخناهم قردة[٢] ذليلين حقيرين مهانين، قال قتادة: لما أصرَّ القوم على المعصية، صاروا قردة تَعاوى لها أذناب، بعد أن كانوا رجالاً ونساءً. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ واذكر حين أعلم ربك. ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ليسلطنَّ على اليهود إلى يوم القيامة ﴿من يسومهم سوء العذاب﴾ من يذيقهم أسوأ أنواع العذاب[٣]، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله، واحتيالهم على المحارم. ﴿إنَّ رَبكَ لَسَريعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب وأناب، ورجع إلى طاعة الله. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَماً﴾ وفرَّقناهم في الأرض جماعات شتَّى[٤] ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ومنْهُمْ دُونَ

(١) هؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله فعاقبهم تعالى بأنواع العقاب الأليم.

(٢) مسخهم الله حقيقة إلى قردة وخنازير، بسبب طغيانهم كما قال تعالى﴿وجعل منهم القردة والخنازير﴾

(٣) هذا حكمٌ من الله تعالى قاطعٌ، بقهر اليهود وإذلالهم في الأرض، عقوبة لهم على إجرامهم، وقد أذلهم الله فسلَّط عليهم «الملوك» من اليونانيين والكلدانيِّين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم، وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية، ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام آخر الزمان.

(٤) المراد أن الله فرقهم في البلاد، فليس لهم إقليمٌ يملكونه، وفي كل بلدةٍ فرقة منهم، وإنما تجمَّعوا في فلسطين اليوم ليذبحوا بأيدي المسلمين إن شاء الله كما وعد رسول الله ﷺ.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

* * *

ذَلِكَ﴾ من بني إسرائيل الصالحُ، ومنهم دون الصالح، وهذا قبل كفرهم وارتدادهم عن دينهم. **﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ والسَّيئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** واختبرناهم بالسَّعة والضيق، والرخاء والشدَّة في العيش، لينيبوا إلى ربهم، ويرجعوا إلى طاعته. **﴿فخلف من بعدهم خَلْفٌ ورثوا الكتابَ﴾** فحدث من بعد هؤلاء القوم الذين قصَّ الله قصصهم، خَلْفَ آخر لا خير فيهم، ورثوا التوراة وضيَّعوا العمل بها. **﴿يأخذون عَرَضَ هَذَا الأَدْنى﴾** يأخذون عَرَض الدنيا القريب العاجل، فيرتشون في حكم الله. **﴿ويقولونَ سيُغْفَر لنا﴾** ويقولون ـ تمنياً على الله الأباطيل ـ سيغفر الله لنا ذنوبنا. **﴿وَإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾** وإن جاءهم مال حرام من الرشوة أخذوه واستحلوه، **قال مجاهد**: لا يُشرف لهم شيءٌ من الدنيا إلَّا أخذوه، حلالاً كان أو حراماً، ويتمنَّون المغفرة[١] **﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الكِتَابِ أَلاَّ يَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحقَّ﴾** ألم يؤخذ على هؤلاء المرتشين عهدُ اللهِ، بإقامة التوراة والعمل بما فيها، وألَّا يكذبوا على الله[٢]؟ **﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾** والحال أنهم قرأوا ما في الكتاب ودرسوه؛ ولكنهم تركوا العمل به وضيَّعوه، وخالفوا عهد الله. **﴿والدارُ الآخرة خيرٌ للذين يَتَّقُونَ أفلا تعقلونَ﴾** وما أعدَّ الله لأوليائه في الآخرة، خير من هذا الحُطَام العاجل، للذين يراقبون الله في أمره ونهيه، أفلا تعقلون ذلك؟ **﴿ والَّذينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتَاب وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾** والذين يعملون بما في كتاب الله ويعتصمون به، وأقاموا الصلاة بحدودها وفي أوقاتها. **﴿إنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحينَ﴾** إني لا أضيع أجرعملهم الصالح[٣] **﴿وَإذْ نَتَقْنَا الجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾** واذكر يا محمد حين اقتلعنا الجبل فرفعناه فوق بني إسرائيل، كأنه ظُلَّة سحاب فوقهم. **﴿وَظَنّوا أَنَّهُ واقعٌ بهِمْ﴾** وأيقنوا أنه واقع بهم إن لم ينفّذوا أمر الله[٤]. **﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾** وقلنا لهم: خذوا ما ألزمناكم من أحكام كتابنا فاقبلوه، واعملوا باجتهادٍ منكم وعزم، واذكروا ما فيه من العهود

---

(١) قال الطبري: أخبر تعالى أنهم أهل إصرار على ذنوبهم، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة.

(٢) في الآية إشارة إلى كذبهم في قولهم﴿سيُغفر لنا﴾فإن هذا قول على الله بغير الحق.

(٣) أقامَ ذكر المصلحين مقام الضمير فقال﴿أجر المصلحين﴾إشادةً بفضل من يستمسك بكتاب الله من جميع الأمم.

(٤) كان بنو إسرائيل قدرفضوا العمل بالتوراة، فأمر الله جبريل أن يقتلع الجبل ويرفعه فوق رؤوسهم، وقال لهم: لتقبلنَّ التوراة بما فيها أو لأرمينكم بهذا الجبل!! قال الحسن البصري: لمَّا نظروا إلى الجبل انقادوا خوفاً من أن يسقط عليهم فكذلك اليوم لا تجد يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ

* * *

والمواثيق. ﴿لعلكم تتَّقُونَ﴾ كي تتقوا ربكم وتخافوا عقابه.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ﴾ اذكر يا محمد حين استخرج ربك وَلَدَ آدم من أصلاب آبائهم. ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ فقرَّرهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض بذلك، وقال لهم: ألست ربكم وخالقكم؟ قالوا: بلى شهدنا على ذلك[١] ﴿أَنْ تقولوا يوم القيامة إنَّا كنَّا عن هذا غافلين﴾ كي لا تقولوا يوم القيامة لقد كنا عن التوحيد والإيمان غافلين لا نعلم ذلك ﴿أو تقولوا إنَّما أشرك آباؤنا منْ قبلُ وكُنَّا ذُرِّيةً من بعدهم﴾ أو تقولوا إنما أشرك آباؤ نا قبلنا، فاتبعنا منهاجهم على جهلٍ منا بالحقِّ. ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أفتهلكنا بإشراكِ من أشرك من آبائنا الضالين، في دعواهم إلٰهاً غير الله؟! ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وكما وضَّحناما فعلنا بالأمم السابقة، وأحللنا بهم من العقوبات بكفرهم وإشراكهم، كذلك نبيِّن ونوضِّح الآيات لقومك، لينزجروا ويرتدعوا عن الكفر والشرك، ويرجعوا إلى التوحيد والإيمان. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذي آتَيْنَاهُ آيَاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ واتل يا محمد على قومك، خبر وقصة الرجل الذي أعطيناه آياتنا[٢]، فخرج من الآيات وتبرأ منها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فلحقه الشيطان فصار من الهالكين لضلاله ومخالفته أمر ربه. ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ ولو شئنا لرفعنا منزلته بالآيات التي كانت عنده. ﴿وَلَكنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ ولكنه سكن إلى الدنيا ومال إليها، وآثر لذتها وشهوتها على الآخرة، واتبع هوى نفسه ورفض

---

(١) اختار بعض المفسرين أن هذا على الحقيقة، واستدلوا بما روي عن ابن عباس أنه قال: إن الله مسح صلب آدم، فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، وأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفَّل لهم بالأرزاق. واختار ابن كثير أن ذلك على سبيل التمثيل، وأن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما فسره بذلك الحسن البصري، واستدل على ذلك بقوله تعالى﴿من بني آدم﴾ولم يقل من آدم، وقال﴿من ظهورهم﴾ولم يقل من ظهره. ثم قال: وما روي عن ابن عباس فهو موقوف لا مرفوع، ومما يدل على أن المراد ما ذكرنا أن الله جعل هذا الإشهاد حجةً عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع كما قاله من قال، لكان لكل أحد أن يذكره ليكون حجة عليه. ا هـ ابن كثير ٢ / ٦٤

(٢) كان رجل في بني إسرائيل يسمى « بلعم بن باعوراء » أعطاه الله العلم والحكمة فمال إلى الدنيا وخلد إلى نعيمها، وباع دينه بعرضٍ من الدنيا قليل، وهو مَثَلٌ لعلماء السُّوْء الذين يختلون الدنيا بالدين، ويسايرون أهواء الحاكمين تملقاً وتزلفاً، فما أسوأ مصيرهم، وما أبشع حالهم حين صورهم القرآن بصورة الكلب اللاهث ﴿فمثله كمثل الكلب﴾!!

كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ

* * *

طاعة مولاه. ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إنْ تَحملْ عليهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ فمثل هذا الشخص كمثل الكلب، إن طردته لهث أو تركته لهث، فإنه لا يدع اللهث سواء طُرد، أم لم يُطرد[١] ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذينَ كذَّبُوا بآياتِنَا﴾ هذا المثل الذي ضربتُه هو مثل القوم الذي كَذبوا بحججنا وأدلتنا، وسلكوا سبيل الضلال. ﴿فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فاقصص يا محمد على قومك هذه الأخبار، ليتفكروا فيعتبروا ويُنيبوا. ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنَا وأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمونَ﴾ بئس مثل القوم المكذبين بآياتنا، وما ظلموا إلا أنفسهم بتكذيبهم بآيات الله. ﴿مَنْ يَهْدِ الله فهو المهتدي﴾ المهتدي من هداه الله فوفقه في دينه. ﴿ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ والضالُّ من خذله الله فلم يوفقه لطاعته، فهو الخاسر الهالك. ﴿ولقد ذَرأْنَا لجهنَّمَ كثيراً من الجنّ والإنس﴾ ولقد خلقنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس ـ وهم الذين علم الله دخولهم النار بكفرهم ـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بهَا﴾ لهم قلوبٌ لا يعتبرون بها، ولا يتفكرون في أدلة وحدانية الله. ﴿ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها﴾ لا ينظرون بها إلى آيات الله[٢]. ﴿ولهم آذانٌ لا يسمعون بها﴾ لا يسمعون بها ـ سماع تدبر وتفكر ـ القرآن. ﴿أولَئِكَ كَالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ هؤلاء كالبهائم التي لا تفقه الخير من الشر، ولا تفهم النافع من الضار، بل هم أضلُّ من البهائم، لأن البهائم لا عقل لها ولا تمييز، وهؤلاء ـ مع ما أعطوا من العقول والأفهام ـ لا يميزون بين المصالح والمضارّ ﴿أولئكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ عن آيات الله وحججه.

﴿وَللهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فادْعُوهُ بِهَا﴾ وللهِ أشرف الأسماء وأحسنها فسمُّوه بها. ﴿وَذَرُوا الذينَ

---

(١) هذا من النوع الذي يسمى في البلاغة «التشبيه التمثيلي» وهو تمثيل في غاية الخسة والدناءة، فإن مَثَل هذا الذي ترك دينه من أجل دنياه، ورضي بحطام الحياة الفاني عن النعيم الباقي، كمثل الكلب الذي يلهث، سواء طردته أو تركته على حاله، لأن ذلك طبعه، وهو تمثيل بادي الروعة ظاهر الإعجاز.

(٢) ليس المراد نفي العقل والسمع والبصر بالكلّية وإنما المراد نفيها عمّا ينفعهم في دينهم وآخرتهم، وهذه الحواسُّ جعلها الله سبباً للهداية والسعادة، فمن لم يستفد منها كان كالبهائم بل شراً منها، ولهذا ختم تعالى الآية بقوله﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾

يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا

* * *

يُلحدون في أسمائِهِ﴾ وَدَعُوا المشركين الذين يُلحدون في أسماء الله ويكذبون بها. قال مجاهد: اشتقوا «اللات» من الله، «والعُزَّى» من العزيز، وأصل الإلحاد العدولُ عن القصد، والميلُ والجورُ **﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** سينالون جزاء ما عملوا في الآخرة، وفي الآية وعيدٌ وتهديد[1] **﴿وَمِمَّنْ خلقنا أمةٌ يَهْدُونَ بالحقِّ وبه يَعْدِلون﴾** ومن الخلق الذين خلقناهم، جماعةٌ يهتدون بالحق، وبه يقضون ويُنصفون الناس. **﴿والَّذينَ كذَّبوا بآياتِنا﴾** كذبوا بأدلتنا وحججنا **﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمونَ﴾** سنمهلهم ونستنزلهم بإحسانٍ منا ولطف من حيث لا يشعرون، ليغتروا ويظنوا أنهم على حقٍّ، ثم نعاقبهم على أعمالهم السيئة. **﴿وأُمْلي لهم إن كيدي متينٌ﴾** وأؤخر هؤلاء المكذبين فلا أعجّل لهم العقوبة، إن مكري بهم قويٌ شديد[2] **﴿أَوَلَمْ يتفكروا ما بصاحبهم من جِنَّةٍ﴾** أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون ويتدبَّروا بعقولهم، أن محمداً ﷺ الذي أرسلناه لهم، ليس به خَبَل ولا جنون، وأن ما دعاهم إليه هو الدينُ القويم والحقُّ المبين؟ **﴿إن هو إلاَّ نذيرٌ مبينٌ﴾** ما هو إلا منذر، ينذركم عقاب الله وعذابه إن لم تنيبوا إلى الإيمان **﴿أَوَ لَمْ يَنْظُروا في مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** أو لم ينظر هؤلاء المكذبون في ملك الله، وسلطانه الواسع في السموات والأرض؟ **﴿وما خلق الله من شيءٍ﴾** وفيما خلق الله فيهما، ليعتبروا ويعلموا أن ذلك من فعل الله جلَّ وعلا؟ **﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَب أَجَلُهُمْ﴾** وأن يحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت، فيموتوا على الكفر. **﴿فبأي حديثٍ بعده يؤمنون﴾** فبأي كلام وبأي تخويف وترهيب يصدِّقون، إن لم يصدقوا بهذا الكتاب؟ **﴿من يُضْلِلِ اللَّهُ فلا هَادِيَ لَهُ﴾** من أضله الله عن الرشاد فلا هادي له. **﴿ويذرهم في طغيانهم يَعْمهون﴾** ويتركهم في كفرهم يترددون حيارى. **﴿يَسْأَلونَكَ عَن السَّاعةِ أَيَّانَ**

(١) روي أن أبا جهل لعنه الله، سمع بعض الصحابة يقرأ فيذكر الله مرة والرحمن أخرى، فقال: يزعم محمد أن الإلٰه واحد وها هو يعبد آلهة كثيرة فنزلت الآية الكريمة مبيِّنة أن تلك الأسماء الكثيرة هي لمسمًّى واحد.

(٢) سمَّى فعله بهم كيداً تشبيهاً بالكيد في أن ظاهره إحسانٌ وباطنه خذلان.

عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

* * *

﴿مُرْسَاهَا﴾ يسألك القوم عن الساعة[1] متى قيامُها؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِي﴾ قل لهم: علمها عند الله. ﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ﴾ لا يُظهرها لوقتها ولا يعلم زمنها غيره جلَّ ذكره. ﴿ثَقُلَتْ في السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ ثقل علمها على أهل السموات والأرض، لأن الله أخفاها عن خلقه، فلا يعلمها مَلَكٌ مقرَّب ولا نبي مرسل. ﴿لا تأتيكم إلاَّ بغتةً﴾ لا تجيء إلا فجأةً ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ يسألونك كأن عالم بها ومهتمّ بالسؤال عنها فتعلمها. ﴿قُلْ إنَّما علمها عند الله﴾ ليس لي علم بوقتها، وإنما علمها عند عالم الغيب. ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ لا يعلمون أن ذلك مختص بالله ﴿قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً﴾ لا أقدر على جلب نفع لنفسي، ولا دفع ضر عنها ﴿إلاَّ ما شاء الله﴾ إلا بعون الله وقوته. ﴿ولو كنتُ أعلم الغيبَ لاستكثرتُ منَ الخير﴾ ولو كان لي علمٌ أمر الغيب، لأعددتُ الكثير من الخير، قال مجاهد: لاستكثرتُ من العمل الصالح. ﴿وما مَسَّني السُّوءُ﴾ وما أصابني الضُّر. ﴿إنْ أنا إلاَّ نذيرٌ وبشيرٌ﴾ ما أنا إلا رسول، أخوِّف الناسَ من عقاب الله، وأبشرهم بثوابه وكرامته. ﴿لقـوم يؤمنون﴾ يصدّقون بأني رسول من عند الله ﴿هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة﴾ خلقكم من آدم عليه السَّلام. ﴿وجعل منها زوجها﴾ وخلق من النفس الواحدة حواء. ﴿ليسكن إليها﴾ ليأوي إليها لقضاء لذته وحاجته. ﴿فلما تَغَشَّاها حملت حملاً خفيفاً﴾ فلما تدثرها[2] وقضى حاجته منها، حملت في رحمها ماءً خفيفاً منه وهو النطفة ﴿فمرَّتْ به﴾ فاستمرَّت بالحمل وقامت وقعدت به. ﴿فلما أثقلتْ﴾ فلما صار ما في بطنها من الحمل ثقيلاً ودنت ولادتها ﴿دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ناديا ربهما قائلين: يا ربنا لئن أعطيتنا غلاماً بشراً سوياً، لنكونن ممن يشكرك على نعمائك. ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾

---

(١) الساعة المراد بها القيامة، سميت ساعة لأنها تأتي في ساعة من الزمن.

(٢) فسّر الطبري «تَغَشَّاها» بمعنى تدثرها والمراد به جامعها، والكنايات في مثل هذه المواطن أدبٌ من الآداب الرفيعة التي نبهنا عليها القرآن. ولهذا قال ابن عباس: إن الله حييٌّ ستّير يكني.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

* * *

فلما رزقهما ولداً صالحاً، جعلا لإبليس فيه شِركاً بتسميته «عبد الحارث» بالإسم لا في العبادة(١).

﴿فتعالى الله عمَّا يُشركون﴾ فتنزَّه وتعظَّم اللَّهُ عما يقول فيه المبطلون من مشركي العرب، وما يدّعون معه من الآلهة والأوثان. **﴿أَيُشرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقونَ﴾** أيشركون فيعبدون معه حجراً أو خشباً أو نحاساً، ممَّا لا يخلق شيئاً، واللهُ يخلقها وينشئها؟ **﴿ولا يَسْتَطِيعُونَ لهم نَصْراً﴾** ولا تملك هذه الآلهة لعابديها أن تنصرهم إن أراد الله بهم سوءاً. **﴿ولا أنفسَهُمْ يَنْصرون﴾** ولا تملك أن تجلب إلى نفسها نفعاً، ولا تدفع عنها ضراً وفي هذا تعجيبٌ من عظيم خطأ هؤلاء المشرلاكين **﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إلى الهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾** وإن دعوتَ الأصنام إلى خيرٍ أو رشاد لا تسمع ، لأنها جمادات لا تَفْقَهْ ولا تعقل **﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾** يتساوى دعاؤكم لها وسكوتكم ، في عدم الإفادة **﴿إِنَّ الَّذِين تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾** إن الذين تعبدونهم من دون الله من الأوثان والأصنام ، مخلوقاتٌ مثلكم بل أنتم أكمل منها (٢). **﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لكُمْ إنْ كُنْتُمْ صادقين﴾** فادعوهم لجلب نفع أو دفع ضرّ ، إن كنتم صادقين في دعوى إنها آلهة **﴿ألهم أرجلٌ يمشون بها﴾** ألهذه الأصنام أرجلٌ يمشون بها في حوائجكم؟ **﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾** فيدفعون عنكم من يقصدكم بشرٍّ ومكروه؟ **﴿أَمْ لَهُمْ أعينٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾** فيعرِّفونكم ما يغيب عنكم؟ **﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾** فيخبِّرونكم ما لم تسمعوه؟ فإذا كانت آلهتكم ليس فيها شيء من هذه الآلات ، فما وجه عبادتكم لها؟ **﴿قُل ادْعُوا شُهَدَاءكُمْ ثُمَّ كيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ادعوا آلهتكم واستنصروا بها

---

(١) روي أن حواء كان لا يعيش لها ولد، فلما حملت أتاها إبليس فقال: «سمِّيه «عبد الحارث» فإنه يعيش، فسمَّته «عبد الحارث» فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» رواه أحمد والترمذي قال ابن كثير: وهذا الحديث معلول وهو موقوف على الصحابي، والصحيح في الموضوع ما رُوي عن الحسن البصري أن هذا كان في أهل الملل «اليهود والنصارى والمشركين» رزقهم الله أولاداً فهوّدوهم ونصّروهم بدليل قوله تعالى ﴿فتعالى الله عما يُشركون﴾ لأن المراد بالصيغة ذرية آدم أقول: هذا هو الراجح والصحيح ،لأن نسبة الشرك إلى آدم ـ الذي اصطفاه الله بنص الكتاب ـ لا يصح ،لأنه من الأنبياء الكرام، وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين كالفخر الرازي والزمخشري وابن كثير.

(٢) الغرض بيان أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها، بل الإنسانَ أكمل منها وأشرف، لأنه يسمع ويبصر ويعقل، وهذه دُمَى لا يرجى منها شيء من الخير فكيف تكون آلهة مع الله؟!

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

* * *

عليَّ، فلا تؤخروني بالكيد والمكر طرفة عين، فإن الله قد عصمني منكم. ﴿إنَّ وَلِيِّي اللهُ الَّذِي نَزَّل الكتابَ﴾ إنَّ نصيري ومعيني عليكم، اللهُ الذي نزل القرآن عليَّ بالحقِّ ﴿وهو يتولّى الصالحينَ﴾ وهو وليُّ كل صالح. ﴿والذين تدعون من دونه﴾ والذين تعبدونهم من الآلهة ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ لا يقدرون على نصركم ولا على نصر أنفسهم، فأيُّ هذين أحقُّ بالعبادة؟ من ينصر وليَّه، أم من لا يستطيع أن ينصر نفسه ووليه؟ ﴿وإنْ تَدْعُوهُمْ إلى الهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ وإن تدعوا آلهتكم إلى الإستقامة والسَّداد لا يسمعوا دعاءكم. ﴿وتراهم ينظرونَ إليك وهم لا يُبصرونَ﴾ وترى يا محمد آلهة المشركين، ينظرون[1] إليك وهم لا يبصرونك، لأنه لا أبصار لهم ﴿خذ العَفْوَ﴾ خذ يا محمد بالعفو والصفح عن المشركين، واترك الغلظة عليهم ﴿وَأْمُرْ بالعُرْفِ﴾ وأمر بالمعروف من كل قولٍ وعمل، دعا الله له أو ندب إليه. ﴿وَأَعْرِضْ عن الجاهِلينَ﴾ وأعرضْ عمن جهل عليك باحتمال الأذى منه[2] ﴿وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشيطانِ نَزْغٌ﴾ وإما يغضبنَّك من الشيطان غضبٌ، يصدُّك عن الإعراض عن الجاهل ويحملك على مجازاته. ﴿فاستعذْ باللهِ إنَّهُ سَميعٌ عليمٌ﴾ فاستجر بالله من نزغه[3] ووساوسه، إن الله سميعٌ لجهل الجاهل، عليمٌ بما يُذهب عنك نزغ الشيطان. ﴿إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا﴾ إن الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب نواهيه، إذا ألمَّ بهم لممٌ من الشيطان، تذكَّروا عقاب الله وثوابه، ووعده ووعيده. ﴿فإذا هم مبصرونَ﴾ فإذا هم منتهون عن معصية الله، مبصرون هدى الله. ﴿وإخوانهم يَمُدُّونهم في الغيِّ﴾ وإخوان الشياطين من المشركين، تزيدهم الشياطين غياً وضلالاً ﴿ثم

(١) يريد أنهم يقابلونك بعيون مصوَّرة، كأنها ناظرة لأنها جماد، على صور بني آدم.

(٢) روي أن الآية لما نزلت سأل النبي ﷺ جبريل عنها فقال له: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمَّن ظلمك» رواه ابن أبي حاتم.

(٣) أصل النزغ الفسادُ، يقال: نزغ الشيطان بين القوم إذا أفسد بينهم.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۩﴾

* * *

لا يُقْصِرون﴾ ثم لا يكفُّون ولا يرعوون عن تماديهم في الغيّ والضلال. أخبر سبحانه عن فريق أهل الإيمان أنهم إذا استزلهم الشيطان، تذكروا عظمة الله وعقابه، فكفتهم رهبته عن معاصيه، وردتهم إلى التوبة والإنابة، وأهل الكفر يزيدهم الشيطان غياً إلى غيهم، فهم دائماً في زيادة من ركوب الإثم، والشيطان يزيدهم ضلالاً أبداً **﴿وإذَا لم تَأتِهِمْ بآيَةٍ﴾** وإذا لم تأت المشركين بمعجزة من عند الله، وخارقٍ من العادة. **﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَها﴾** قالوا: هلاَّ أحدثتها من قِبَل نفسك؟ **﴿قل إنما أتَّبِعُ ما يُوحى إليَّ من ربي﴾** قل لهم يا محمد: إنما أنا عبدُ للهِ، أتَّبع ما يوحيه إليَّ ربي. **﴿هذا بصائر من ربكم﴾** هذا القرآن حججُ وبيان لكم من عند ربكم. **﴿وهدى ورحمة﴾** وهداية للمؤمنين إلى الطريق المستقيم، ورحمة لعباده أنقذهم به من الهلاك والضلالة **﴿لقومٍ يؤمنون﴾** يصدقون بالقرآن ويعملون بما فيه **﴿وإذا قُرِىءَ القرآن فاستمعوا له﴾** وإذا قرىء عليكم ـ أيها المؤمنون ـ القرآنُ فاصغوا لتلاوته، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه[1] **﴿وأنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾** واسكتوا ولا تلغوا عند قراءته، ليرحمكم ربُّكم بتأدبكم بآدابه **﴿واذكر ربك في نفسك﴾** اذكر ربك أيها السامع للقرآن في سِرِّك. **﴿تَضرُّعاً وخِيفَةً﴾** تخشعاً وتواضعاً لله، وخوفاً من عقابه. **﴿وَدُونَ الجَهْرِ من القَوْلِ﴾** وليكن دعاؤك باللسان في سرٍّوخفاء،لاجهاراً**﴿بالغُدُوِّ والآصَالِ﴾** في أول النهار وآخره **﴿ولا تكن من الغافلين﴾** ولا تكن من الساهين اللاهين عن عِبَر القرآن وعظاته **﴿إنَّ الَّذينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾** إن الملائكة الأبرار **﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾** لا يستكبرون عن التواضع والعبادة والخشوع لله سبحانه. **﴿ويسبحونه وله يسجدون﴾** ويعظمون ربهم وله تعالى يصلّون، فعظموا ربكم بالعبادة كما تفعله الملائكة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأعراف»

***

(١) أمر المؤمنون بالإنصات والسكوت عند تلاوة القرآن، إعظاماً له واحتراماً، ومخالفة للمشركين الذين قالوا﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

* * *

﴿**يسألونك عن الأنفالِ**﴾ يسألك أصحابك يا محمد عن الغنائم لمن هي؟ ﴿**قل الأنفالُ للهِ والرسولِ**﴾ قل لهم: هي لله ولرسوله دونكم، يجعلها حيث شاء ﴿**فاتقوا الله**﴾ فخافوا الله واتقوه بامتثال أوامره، واجتناب معاصيه ﴿**وأصلحوا ذاتَ بينكم**﴾ وأصلحوا الحال التي بينكم ﴿**وأطيعوا اللّهَ ورسوله**﴾ انتهوا إلى أمر الله وأمر رسوله. ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ إن كنتم مصدّقين بما جاءكم من عند ربكم ﴿**إنَّما المُؤْمنونَ الَّذينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ**﴾ ليس المؤمن الذي يترك اتباع ما أنزله الله في كتابه من حدوده وفرائضه، والانقياد لحكمه، ولكن المؤمن الذي إذا ذُكر الله خاف قلبه، وخضع لذكره، خوفاً منه وفَرَقاً من عقابه. ﴿**وإذَا تُليتْ عليهم آياتُه زَادتهم إيماناً**﴾ وإذا قرئت عليهم آيات القرآن، صدَّقوا بها وأيقنوا أنها من عند الله، فازدادوا بذلك إيماناً. ﴿**وعلى ربهم يتوكلونَ**﴾ وعلى ربهم يعتمدون، فلا يرجون غيره، ولا يرهبون سواه. ﴿**الذين يقيمون الصلاة**﴾ يؤدون الصلاة المفروضة بحدودها ﴿**وممَّا رزقناهم ينفقون**﴾ وينفقون مما رزقهم الله في وجوه البر: من زكاة، وجهاد، وحج، وعمرة، ونفقةٍ، فيؤدون حقوقهم على من تجب عليهم نفقتُه ﴿**أولئك هم المؤمنونَ حقاً**﴾ هؤلاء هم الذين استحقوا الإيمان بحق، لا الذين

---

(١) عن عبادة بن الصامت قال: نزلت فينا أصحاب بدر، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسوله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين على السواء. «رواه أحمد»

لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ

* * *

يقولون بألسنتهم آمنا، وقلوبُهم منطويةٌ على النفاق. ﴿لهم درجاتٌ عند ربهم﴾ لهم مراتب رفيعة عند الله ﴿ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ﴾ وعفوٌ عن ذنوبهم، ورزق كريم في الجنة، وهو ما أعده الله لهم، من المآكل والمشارب وهنيء العيش.

﴿كما أخرجكَ ربُّك من بيتكَ بالحقِّ﴾ على كرهٍ من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحقِّ بعدما تبيَّن. ﴿وإنَّ فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ وإن جماعة من المؤمنين كارهون للقاء أعدائهم. ﴿يُجَادِلُونَكَ في الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ هوقولهم: إنماخرجناللعير، ولم تخبرنابأنناسنلقى عدونا حتى نستعدَّ لقتالهم. ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إلى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرونَ﴾ كأن هؤلاء المجادلين يُساقون إلى الموت، وهم ينظرون أهواله. ﴿وإذْ يعدكم اللهُ إحدى الطائفتين أنها لكم﴾ واذكروا أيها القوم حين يعدكم الله إحدى الفرقتين: فرقة أبي سفيان والعير، وفرقة المشركين الذين نفروا لمنع عيرهم، أن ما معهم غنيمة لكم ﴿ وتودُّونَ أنَّ غير ذاتِ الشوكةِ تكون لكم ﴾ وتحبون أن تكون لكم العير التي ليس فيها قتال ﴿ ويريدُ الله أنْ يُحقَّ الحقَّ بكلماتِه ﴾ ويريد الله أن يُعلي الإسلام بقتالكم الكفار، وأنتم تريدون الغنيمة والمال. ﴿ ويقطع دابر الكافرينَ ﴾ ويستأصل جماعة الجاحدين بالله ورسوله، فلا يبقي منهم أحداً. ﴿ لِيُحِقَّ الحقَّ ويُبطل الباطل﴾ يريد أن يقطع دابر الكافرين، كي يُعبد اللهُ وحده ويعز الإسلام، ويبطل عبادة الآلهة والأصنام. ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ولو كره الذين أجرموا ذلك ﴿إذْ تَسْتَغيثُونَ ربكُمْ﴾ حين تستجيرون بربكم من عدوكم، وتدعونه أن ينصركم عليهم[1] ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أني ممدكم بألفٍ من الملائكةِ مُرْدِفينَ﴾ فأجاب دعاءكم بأني معينكم بألفٍ من الملائكة، يتلو بعضُهم بعضاً ﴿وما جعله اللهُ إلاَّ بشرى ﴾ وما جعل إمدادكم بالملائكة إلاَّ بشارة

(١) روي أن النبي ﷺ نظر إلى أصحابه يوم بدر وهم ثلاثمائة ونيِّف، ونظر إلى المشركين وهم يزيدون على ألف، فاستقبل القبلة ومدَّ يديه يدعو: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلن تعبد في الأرض، فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فنزلت ﴿إذ تستغيثون ربكم. . ﴾ الآية.

قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾

* * *

لكم بالنصر ﴿ولتطمئنَّ بهِ قلوبكم﴾ ولتسكن قلوبكم وتوقن بنصر الله لكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إلَّا مِنْ عِنْد اللهِ﴾ وما النصر على الحقيقة إلا من عند الله، فثقوا بنصره ولا تتكلوا على قوتكم ﴿إنّ الله عَزيزٌ حَكِيمٌ﴾ لأن الله عزيز لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب، حكيم في تدبيره وصنعه. ﴿إذْ يُغشِّيكُمُ النُّعَاس أمَنَةً مِنْهُ﴾ اذكروا حين يُلقي عليكم النعاس أماناً من الله لكم. ﴿ويُنَزِّل عليكم من السَّماءِ مَاءً ليطهِّركم بِهِ﴾ وينزّل عليكم المطر من السماء، ليطهّركم من الأحداث والجنابات. ﴿ويُذهِبَ عنكم رجْس الشَّيْطانِ﴾ ويدفع عنكم وسوسة الشيطان، وتخويفه إياكم من العطش[1] ﴿ولِيَرْبطَ على قُلوبِكُمْ﴾ وليقوي قلوبكم بالثقة بنصر الله. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ ويثبّت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ فيها. ﴿إذْ يُوحي رَبُّكَ إلى المَلائِكَةِ أنّي معكم﴾ بأني معكم أنصركم. ﴿فثبِّتوا الذين آمنوا﴾ فقوّوا عزائم المؤمنين في قتال المشركين. ﴿سألقي في قلوب الذين كفروا الرعبَ﴾ سأرعب قلوب الكفار، واملأها خوفاً حتى ينهزموا. ﴿فاضربوا فوقَ الأعناقِ واضربوا منهم كل بنان﴾ فاضربوا رؤوس المشركين وأيديهم، واضربوا منهم كل طرف ومفصل ﴿ذلك بأنهم شاقُّوا الله ورسولَه﴾ذلك الجزاء لهمبمخالفتهم وعصيانهم أمر الله ورسوله. ﴿ومن يُشاقِق اللهَ ورسولَه فإن اللهَ شديدُ العقاب﴾ ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله، فإن عذاب الله شديدٌ له، في الدنيا بالنقم، وفي الآخرة بالخلود في نار جهنم. ﴿ذلكم فذوقوه وأنَّ للكافرين عذابَ النَّار﴾ هذا العقاب الذي عجلته لكم فذوقوه يا معشر الكفار، واعلموا أن للكافرين في الآخرة عذاب النار. ﴿يا أيها الذينَ آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً﴾ إذا لقيتم أعداءكم في القتال زاحفين نحوكم، دانين متقاربين منكم. ﴿فلا تُوَلُّوهم الأدبارَ﴾ فلا تنهزموا أمامهم ولكن اثبتوا لهم.

(١) روي أن المسلمين نزلوا في كثيب ـ رمل ـ تسوخ فيه الأقدام على غير ماء، وناموا فاحتلم بعضهم، فوسوس إليهم الشيطان: كيف تُنصرون وقد غُلبتم على الماء، وأنتم تصلّون محدثين مجنبين، وتزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله؟ فأنزل الله المطر، فشرب المسلمون وتطهروا، وثبتت أقدامهم، وأذهب الله عنهم وسوسة الشيطان.

﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾

* * *

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ﴾ ومن يولِّهم يوم اللقاء ظهره منهزماً، إلا مستطرداً لقتال عدوه يريد العودة، يفرُّ خداعاً لعدوه ليكرَّ عليه. **﴿أو متحيزاً إلى فئةٍ﴾** أو منضماً إلى جماعة المسلمين ليقاتل معهم. **﴿فقد باءَ بغضب مِنَ الله﴾** فقد رجع بغضب من الله. **﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وبئس المصيرُ﴾** ومصيره يوم القيامة جهنم، وبئس الموضع والمآل. **﴿فلم تقتلوهم ولكنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾** فلم تقتلوا المشركين - أيها المؤمنون - بقوتكم، ولكنَّ الله قتلهم بنصركم عليهم **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾** وما رميتَ أنت يا محمد، حين حصبتَ أعين المشركين[1]، ولكنَّ الله رمى بإيصال ذلك إليهم، فالأمر من الله، لأنه تعالى هو الموصل ذلك إليهم،والمسبِّب الرمية لرسوله **﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً﴾** وكي يُنعم على المؤمنين بالظفر والغنيمة، ويكتب لهم أجور أعمالهم وجهادهم مع رسول الله ﷺ **﴿إنَّ الله سَمِيعٌ عَلِيم﴾** سميعٌ لدعاء النبي ﷺ ولقول جميع خلقه،عليمٌ بما فيه صلاح عباده **﴿ ذلكم وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كيدِ الكافرينَ ﴾**ذلك الذي حدث - من قتل المشركين، ورميهم حتى انهزموا ، ونصر المؤمنين عليهم - حقٌّ فعلناه[2]، واعلموا أن الله مع ذلك مضعف مكر الكافرين، حتَّى يذلوا فينقادوا للحق، أو يهلكوا. **﴿إنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُم الْفَتْحُ﴾** إن تطلبوا يا معشر الكفار الفتح والنصر على المؤمنين، وتطلبوا حكم ربكم، فقد جاءكم حكم الله وهو نصره المظلوم على الظالم، والمحقَّ على المبطل[3] **﴿وإنْ تنتهوا فهو خيرٌ لكم﴾** وإن تكفُّوا يا معشر قريش، عن حرب الرسول والكفر بالله ورسوله، فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم **﴿وَإنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾** وإن تعودوا لحربه وقتاله، نعد للانتقام منكم كما فعلنا ببدر. **﴿ولن تغني عنكم فئتكم شَيْئاً ولو كَثُرَتْ﴾** ولن تدفع عنكم جماعتكم شيئاً من عذاب الدنيا، مهما كثر الأعوان والأنصار، كما لم تنفعكم يوم بدر. **﴿وأنَّ الله مع المؤمنين﴾** بالنصر والتأييد.

---

(١) عن ابن عباس قال: أخذ رسول الله ﷺ قبضةً من التراب، فرمى بها في وجوه المشركين، وقال: شاهت الوجوه، فلم يبق أحد منهم إلا أصاب عينيه ومنخريه من تلك الرمية، فولَّوا مدبرين.

(٢) اسم الإشارة «ذلكم» مبتدأ حُذف خبره تقديره: ذلكم الذي حدث حقٌّ.

(٣) روي أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أفجر، وأقطع للرحم، فأحنه - أهلكه - اليوم !! فكان أبو جهل هو المستفتح، فأنزل الله﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾وهو على سبيل التهكم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾

* * *

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسولَه﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، أطيعوا الله ورسوله، فيما أمركم به ونهاكم عنه. ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُم تَسْمَعُونَ﴾ ولا تُعْرضوا عن رسول الله، مخالفين أمره ونهيه، وأنتم تسمعون أمره ونهيه[1]. ﴿ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ ولا تكونوا في الإعراض عن رسول الله ﷺ كهؤلاء المشركين، الذين يسمعون مواعظ القرآن بآذانهم ولا ينتفعون بما سمعوا ﴿إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عِنْدَ الله﴾ إن شرَّ من دبَّ على الأرض، وشرَّ الخلق عند الله. ﴿الصُمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ الصمُّ الذين يصمُّون عن الحق لئلا يستمعوه، الخُرْس الذين ينكصون عن النطق به، الذين لا يعقلون أمر الله ونهيه[2]، ولا يتبعون ما جاءهم به الرسول ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ ولو علم الله في هؤلاء المشركين خيراً، لأسمعهم مواعظ القرآن وعِبره. ﴿ولو أسمعهم لتولَّوْا وهم معرضونَ﴾ ولو أفهمهم ذلك[3]، لتولَّوْا وهم معرضون عن الإيمان، معاندون للحقِّ بعد العلم به. ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحييكم﴾ أجيبوا دعاء رسوله، إذا دعاكم للإيمان والحقِّ، الذي به تحيا النفوس، **قال قتادة**: هو القرآن فيه الحياةُ، والثقةُ، والنجاةُ، والعصمةُ في الدنيا والآخرة. ﴿واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ واعلموا أن الله تعالى هو المالك والمتصرف في الأشياء، يُصرِّف القلوب كيف يشاء، فهو أملك لقلوب عباده منهم يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان. ﴿وأنه إليه تُحشرونَ﴾ إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة، فيوفيكم جزاء أعمالكم. ﴿واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذِينَ ظَلموا منكم خاصة﴾ احذروا أيها المؤمنون فتنةً، إن نزلت بكم لم تقتصر على الظالم خاصة، بل تعمُّ الصالح والطالح، يحذرهم أن يركبوا معصية، أو يأتوا مأثماً يستحقون به العقوبة. ﴿واعلموا أنَّ الله شديدُ

---

(١) قال بعض المفسرين: ﴿وأنتم تسمعون﴾ القرآن والمواعظ، وهذا القول أظهر.

(٢) نزلت في جماعة من بني عبد الدار، كانوا يقولون: نحن صمٌّ بكمٌ عما جاء به محمد، وفي الآية غاية الذم للمشركين، فقد أخبر بأنهم شر من يدب على وجه الأرض، فهم شر من الكلاب والخنازير والحمير، ! لأنهم لم يستفيدوا من حواسهم وهذا منتهى الذم والتقبيح.

(٣) هذا على سبيل الفرض والتقدير: أي لو فرض أن الله أسمعهم ـ وقد علم أن لا خير فيهم ـ لكفروا وجحدوا، وفي الآية تسليةٌ للنبي ﷺ على عدم إيمان المشركين، لئلا يتفجع عليهم.

وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾

* * *

العقاب﴾ واعلموا ان الله شديدٌ عقابه لمن خالف أمره ، وهو تحذيرٌ ووعيد **﴿واذكروا إذْ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأَرْضِ﴾** اذكروا نعمة الله عليكم ، وأنتم قليلٌ يستضعفكم الكفار ، يفتنونكم عن دينكم ، وينالونكم بالمكروه والأذى في أنفسكم **﴿تخافون أن يتخطفكم النّاسُ﴾** تخافون المشركين أن يتخطفوكم فيقتلوكم. **﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدكُمْ بِنَصْرِهِ﴾** فجعل لكم المدينة مأوى تتحصَّنون بها من أعدائكم، وقوَّاكم بالأنصار حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر **﴿ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾** وأطعمكم غنيمتهم حلالاً طيّباً ، لتشكروا ربكم على ما رزقكم **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ﴾** لا تخونوا الله ورسوله بإطلاع المشركين على عورات المؤمنين ، وإخبارهم عن أسراركم[1] **﴿وتخونوا أماناتِكُمْ وأنتم تعلمونَ﴾** وتخونوا ما ائتمنكم الله عليه من الفرائض والتكاليف الشرعية ، وأنتم تعلمون أنها لازمة عليكم بالحجج الواضحة **قال ابن عباس** خيانة الله سبحانه بترك فرائضه ، والرسول بترك سنته وارتكاب معصيته ، والأمانات هي الأعمال ـ الفرائض ـ التي ائتمن الله عليها العباد **﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ﴾** واعلموا أيها المؤمنون أن أموالكم وأولادكم اختبارٌ وبلاء ، ليختبركم بها فينظر كيف تعملون ، من أداء حق الله ، والانتهاء إلى أمره ونهيه **﴿وَأَنَّ اللَّهَ عنده أجرٌ عظيم﴾** وأن الله عنده خير وثواب عظيم ، فأطيعوا الله تنالوا الجزيل من الثواب **﴿يا أيها الذين آمنوا إنْ تتقوا اللَّهَ﴾** إن تتقوا الله بطاعته ، واجتناب معاصيه **﴿يجعل لكم فرقاناً﴾** يجعل لكم نوراً تفرقون به بين الحق والباطل ، **قال ابن عباس** « فرقاناً » مخرجاً في الدنيا والآخرة كقوله تعالى « ومن يتّقِ الله يجعل له مخرجاً » **﴿ويُكفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم﴾** ويمحو عنكم ما سلف من ذنوبكم ، ويغطيها فيسترها عليكم **﴿واللَّهُ ذو الفضل العظيم﴾** والله ذو الفضل العظيم على خلقه **﴿وإذْ يمكرُ بِكَ الذين كفروا﴾** اذكر يا محمد حين تآمر عليك المشركون بمكة في دار الندوة **﴿لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أو**

---

(١) كان المنافقون يسمعون من النبي ﷺ الحديث فيفشونه إلى المشركين، وروي أن الآية نزلت في «أبي لبابة» بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة حين طلبوا الصلح، فاستشاروه هل ينزلون على حكم سعد؟ فأشار إلى حلقه يعني الذبح، ففيه نزلت الآية.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

* * *

﴿يُخْرِجُوكَ﴾ ليحبسوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك من وطنك **﴿ويمكرون ويمكر اللهُ﴾** ويتآمرون عليك يا محمد، ويدبِّر لك ربك ما يُبطل مكرهم[1] **﴿واللهُ خيرُ الماكرينَ﴾** وربك خير الماكرين بمن كفر به، وعبد غيره، وخالف أمره. **﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثلَ هَٰذَا﴾** وإذا قرئت على هؤلاء الكافرين، آيات كتاب الله الواضحة، قالوا جهلاً منهم وعناداً: قد سمعنا ما تقول، ولو أردنا لقلنا مثل هذا الذي تُلي علينا. **﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾** ما هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد، إلا ما كتبه الأولون وسطَّروه من أخبار الأمم، وليس بوحي من الله **﴿وَإِذْ قَالُوا اللهمَّ إِنْ كانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾** واذكر حين قال رؤساء قريش: اللهم إن كان ما يقوله محمد هو الحقُّ من عندك[2] **﴿فَأَمْطِرْ علينا حِجَارَةً من السَّماءِ﴾** فأنزل علينا حجارة من السماء كما أنزلتها على قوم لوط. **﴿أوِ ٱئْتِنَا بعذابٍ أليمٍ﴾** أو ائتنا ببعض ما عذبت به الأمم قبلنا. **﴿وما كان اللهُ ليعذبهم وأنت فيهم﴾** وما كان الله ليعذبهم وأنت يا محمد مقيم بين أظهرهم إكراماً لك. **﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾** وما كان الله معذِّبهم لو استغفروا، **قال ابن عباس**: كان فيهم أمانان: نبي اللهِ، والاستغفار، أما النبي فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باقٍ إلى يوم القيامة. **﴿وما لهم ألَّا يعذبهم اللهُ﴾** وما يمنعهم أن يعذبهم الله، وهم لا يتوبون من كفرهم!! **﴿وهم يصدُّون عن المسجد الحرام﴾** وهم يمنعون المؤمنين عن المسجد الحرام[3]! **﴿وما كانوا أولياءَه﴾** ولم يكونوا أولياء الله، وليسوا أهلاً لذلك **﴿إِنْ أولياؤُهُ إلَّا المُتَّقُونَ﴾** ما أولياء الله إلَّا المتقون، الذين يؤدون فرائضه ويجتنبون معاصيه. **﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** يحسبون أنهم أولياءُ الله. **﴿وما كان صلاتُهم عند البيتِ إلَّا مُكَاءً وتصديةً﴾** وما كان صلاة المشركين عند البيت العتيق، إلا

(١) نزلت الآية تذكِّر الرسول ﷺ بنعمة الله عليه، حين اجتمع رؤساء قريش بدار الندوة بمكة وتآمروا على الرسول عليه السلام بحبسه، أو قتله، أو طرده من مكة، وحضر معهم إبليس بصورة شيخ ناصح، وانظر تفصيل القصة في الطبري.

(٢) هذا قول «النضر بن الحارث» وسفهاء قريش، وهذا يدل على مدى طغيانهم وجبروتهم، ولو كانوا عقلاء لقالوا: اللهم اهدنا إلى الحقّ، ولكنهم قوم سفهاء آثروا الضلالة على الهدى.

(٣) كما صدُّوا رسول الله ﷺ والمؤمنين عام الحديبية عن أداء العمرة واضطروهم إلى العودة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ

* * *

صفيراً وتصفيقاً. قال ابن عباس: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عُرَاة يصفّرون ويصفّقون[1] **﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾** فذوقوا عذاب القتل والأسر، بجحودكم وحدانية ربكم ورسالة نبيكم. **قال الضحَّاك**: عذبهم الله يوم بدر بالقتل والأسر. **﴿إنَّ الَّذينَ كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيلِ الله﴾** يصرفون أموالهم وينفقونها، ليمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام[2] **﴿فسينفقونها ثم تكون عليهم حَسْرةً﴾** فسينفقون هذه الأموال ثم تصير ندامةً عليهم، لأن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما كانوا يؤملون، من إطفاء نور الله وإعلاء كلمة الكفر. **﴿ثم يُغلبونَ﴾** ثم يغلبهم المؤمنون، فأعظمْ بها حسرةً وندامة لمن عاش منهم وهلك! أما الحيُّ فحرم مالَه، ورجع مقهوراً مغلوباً في غير نفع، وأما الهالك فقُتل وسُلب، وعُجِّل به إلى نار الله المؤبدة. **﴿والذينَ كفروا إلى جهنم يُحْشَرُونَ﴾** والذين جحدوا بوحدانية الله يُساقون إلى جهنم ليكونوا وقوداً لها. **﴿لِيَميزَ اللهُ الْخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾** يحشر هؤلاء إلى جهنم، ليفرق بين الكافرين وهم أهل الخبث، وبين المؤمنين وهم الطيبون، فيسكن المؤمنين جناته، والكافرين نار الجحيم. **قال ابن عباس**: ليميِّز أهل السعادة من أهل الشقاوة. **﴿ويجعل الخبيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾** ويجعل الكفار بعضهم فوق بعض. **﴿فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم﴾** فيجعلهم رُكاماً بعضهم فوق بعض لشدة الزحام، فيقذف بهم في نار جهنم جميعاً. **﴿أولئكَ هم الخاسرونَ﴾** الكاملون في الخسران، لأنهم شروا بأموالهم عذاب الآخرة، وتعجلوا فيما أنفقوا الخزيَ والذل. **﴿قُلْ لِلَّذينَ كَفَرُوا إنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لهم ما قد سَلَفَ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن ينتهوا عن كفرهم وقتالهم للنبي والمؤمنين، يغفر لهم ما قد خلا من الذنوب والآثام **﴿وإن يعودوا فقد مضتْ سُنَّةُ الأولينَ﴾** وإن يعودوا لقتالك، فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لرسلي، فكذلك أحلُّ بهؤلاء عاجل النِّقم. **﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ﴾** قاتلوهم حتى لا يكون شرك، ولا يعبد إلا الله وحده، فترتفع الفتنة ـ البلاءـ عن عباد الله **﴿ويكونَ الدين كلُّه للهِ﴾** وتكون العبادة والطاعة خالصة لله دون غيره **﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾** فإن انتهوا عن الشرك بالله،

(١) الطبري ٩/٥٢٤

(٢) لما أصيب كفار قريش ببدر، ورجع الفارون منهم إلى مكة، قالوا يا معشر قريش: إن محمداً قد قتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا، فنزلت الآية.

ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ * وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

* * *

وصاروا إلى الدين الحقِّ ﴿فإنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا تخفى عليه أعمال العباد، ولا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن أبوا إلا الإصرار على الكفر وقتالكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ﴾ فقاتلوهم وأيقنوا أن الله ناصركم ومعينكم عليهم. ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ نعم المعينُ ونعم الناصر ﴿واعْلَمُوا أنَّما غنمتم من شيءٍ﴾ واعلموا ـ أيها المؤمنون ـ أن ما غنمتموه من غنيمة، قليلاً كان أو كثيراً، حتى الخَيْط والمِخْيط. ﴿فَأَنَّ للهِ خُمُسَه وللرسول﴾ فأن للرسول ولمن ذكر الله تعالى الخمس منه، والباقي يُوزَّع على الغانمين، واسمُ الله مفتاح كلامٍ لأن لله الدنيا والآخرة وما فيهما[١] ﴿ولذي القربى﴾ وهم قرابة الرسول ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. ﴿واليتامى﴾ أطفال المسلمين الذين هلك آباؤهم ﴿والمساكين﴾ أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، ﴿وابن السبيل﴾ المنقطع في سفره، ﴿إن كنتم آمنتم بالله﴾ إن كنتم أقررتم بوحدانية الله ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان﴾ وبما أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ يوم بدر، يوم فرق الله بين الحق والباطل ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المؤمنين وجمع الكافرين. ﴿والله على كل شيءٍ قديرٌ﴾ لا يمتنع عليه شيء أراده. ﴿إذْ أنتم بالعُدْوةِ الدنيا﴾ حين أنتم بناحية الوادي القريب إلى المدينة ﴿وهم بالعُدْوَةِ القُصْوَى﴾ وأعداؤكم بناحية الوادي الأقصى إلى مكة ﴿والرَّكْبُ أسفلَ منكم﴾ والعيرُ التي فيها أبو سفيان وأصحابُه، في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر[٢] ﴿ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعادِ﴾ ولو كان اجتماعكم عن ميعادٍ منكم ومنهم، لاختلفتم في الميعاد لكثرتهم وقلتكم. ﴿وَلَكِنْ ليقضيَ الله أمراً كَانَ مَفْعُولاً﴾ ولكنَّ الله جمعكم على غير ميعادٍ، ليقضي ما أراد بقدرته، من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه. ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَن بيِّنةٍ﴾ فعل

---

(١) اتفق العلماء على أن الغنيمة تقسم خمسة أقسام، فيعطى الخمس لمن ذكر الله تعالى في هذه الآية، والباقي يوزع على الغانمين، ويقسم الخمس خمسة أسهم، سهم للرسول، وسهم لذوي القربى. الخ وإنما ذكر اسم الله على جهة التعظيم، فهو افتتاح كلام كما رجح الطبري لأن لله الدنيا والآخرة.

(٢) انظر إلى الوصف الدقيق والتصوير الشامل للمعركة، وتمعَّن دقة القرآن في تصوير جوّ المعركة، وما يُحيط بها من أحداث عجيبة، كأن السامع ينظر إليها رأي العين.

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

* * *

ذلك، ليموت من مات عن حجةٍ لله وعبرةٍ[١] قد عاينها، وليعيش من عاش عن حجةٍ لله ظهرت له. **﴿وإنَّ اللهَ لسَميعٌ عليمٌ﴾** سميعٌ لأقوالكم، عليمٌ بأحوالكم. **﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ في مَنَامِكَ قليلاً﴾** إذْ يُريك الله عدوك في نومك قليلاً، حتى تقوى قلوب أصحابك على حربهم. **﴿ولَو أَرَاكَهم كثيراً لَفَشِلْتُمْ ولتنازعتم في الأمر﴾** ولو أراك ربك عدوك كثيراً، لجبن أصحابك ولم يقدروا على حرب القوم، ولتنازعوا في ذلك[٢] **﴿ولكنَّ اللهَ سَلَّم﴾** ولكنَّ الله سلَّمهم من ذلك. **﴿إنه عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ﴾** عليمٌ بما تُخفيه الصدور وتضمره القلوب، قال مجاهد: أراه الله إياهم في منامه قليلاً، فأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لقلوبهم. **﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التقيتُمْ في أعينكُمْ قَليلاً وَيُقَلِّلُكُمْ في أَعْيُنِهِمْ﴾** واذكروا حين التقيتم في المعركة فقلَّل الله عدوكم في أعينكم، لتهون شوكتهم عليكم، وقلَّلكم في أعينهم ليتركوا الاستعداد لكم. **﴿ليقضي اللهُ أمراً كان مفعولاً﴾** حتّى يقضي الله بينكم وبينهم، بإظهار المؤمنين على المشركين، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السفلى. **﴿وإلى اللهِ تُرْجع الأمورُ﴾** مصير الأمور كلها إلى الله في الآخرة، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئةً فاثبتوا﴾** إذا لقيتم جماعة من الكفار في الحرب، فاثبتوا لقتالهم ولا تنهزموا أمامهم **﴿واذكروا اللهَ كثيراً لعلكم تفلحونَ﴾** أكثروا من ذكر الله بقلوبكم وألسنتكم، كيما تنجحوا وتفوزوا بالظفر بعدوكم. **﴿وأطيعوا اللهَ ورسولَهُ ولا تنازعوا فتفشلوا﴾** وأطيعوا ربكم ورسولكم فيما أمركم ونهاكم، ولا تختلفوا فتضعفوا وتجبُنوا **﴿وتذهب ريحكم﴾** وتذهب قوتكم وبأسكم، ويدخلكم الوهن والخلل. **﴿واصبروا إنَّ الله مع الصابرينَ﴾** واصبروا عند لقاء عدوكم فإني معكم. **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَراً وَرِئَاءَ**

---

(١) قال في تفسير الجلالين: المعنى ليكفر من كفر عن وضوح وبيان، ويؤمن من آمن عن وضوح وبيان، وهذا أظهر مما قاله الطبري والله أعلم.

(٢) انظر إلى محاسن القرآن فقد كان الخطاب موجهاً إلى الرسول ﷺ ﴿إذ يريكهم الله﴾ ولمّا جاء الحديث عن الفشل والنزاع لم يسنده إليه ﷺ لأنه معصوم وإنما قال ﴿لفشلتم﴾ إشارةً إلى اصحابه، وهذا أدبٌ رفيعٌ يعلمنا إيّاه القرآن لنعرف كيف نخاطب الرسول ونتأدب في خطابه ﷺ

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾

* * *

النَّاس﴾ ولا تكونوا كجيش أهل الكفر، الذين خرجوا من منازلهم علواً وتكبراً، وطلباً للفخر والثناء[1] ﴿ويصدُّون عن سبيلِ الله﴾ ويمنعون الناس عن الدخول في الإسلام ﴿والله بما يعملون محيطٌ﴾ والله عالم بجميع أعمالهم وسيجازيهم عليها. ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ واذكر حين حسَّن لهم الشيطان خروجهم لحرب الرسول ﷺ والمؤمنين. ﴿وقَالَ لا غالِبَ لكمُ اليومَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقال لهم: لن يغلبكم أحد فاطمئنوا وأبشروا. ﴿وإني جارٌ لكم﴾ وإني أجيركم وأمنعكم منهم، فلا تخافوا محمداً وأصحابه. ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَان نَكَص عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ فلما تلاقى الفريقان؛ جند الله وجند الشيطان، ونظر بعضهم إلى بعض، رجع الشيطانُ القهقرى مدبراً هارباً. ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ منكُمْ﴾ بريءٌ من عهد جواركم ﴿إني أرى ما لا تَرَوْنَ﴾ إني أرى الملائكة نازلين لنصرة المؤمنين، وأنتم لا ترون ذلك ﴿إني أخافُ اللَّهَ﴾ إني أخاف عقاب الله ﴿وَاللَّهُ شَديدُ العِقاب﴾ شديدٌ عقابُه لمن عصاه ﴿إذْ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ حين قال المنافقون، والذين في قلوبهم شك في الإسلام ﴿غرَّ هؤلاء دينُهم﴾ اغترَّ هؤلاء المسلمون بدينهم، فقدموا للحرب مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ﴿ومَنْ يتوكلْ عَلَى الله فإنَّ اللهَ عَزيزٌ حكيمٌ﴾ ومن يُسلم أمره إلى الله ويثق به، فإن الله حافظه وناصره، لأنه عزيزٌ لا يغلبه غالب ولا يقهره أحد، حكيم في تدبير أمر خلقه[2].

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كفروا الملائكةُ﴾ ولو تُعاين يا محمد، حين تتوفى الملائكة أرواح الكفار، فتنزعها من أجسامهم[3]!! ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ تضربهم الملائكة على وجوههم وأستاههم[4] بمقامع من حديد ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الحريق﴾ ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم

(١) أشارت الآية إلى خروج كفار قريش إلى بدر لحرب رسول الله ﷺ والمؤمنين، وإلى قول أبي جهل: «والله لا نرجع حتى نأتي بدراً فنشرب فيها الخمور، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان ـ المغنيات ـ وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبداً فسقوا مكان الخمر كؤوس المنايا.

(٢) في الحديث «ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر، ولا أحقر، ولا أدحر، ولا أغيظ من يوم عرفة، إلا ما رأى يوم بدر، فإنه رأى جبريل يزع الملائكة» «رواه مالك» ومعنى «يَزَعُ» أي يصفُّ الملائكة قال في لسان العرب أي يرتِّبهم ويسوِّيهم ويصفُّهم للحرب

(٣) جواب «لَوْ» محذوف للتهويل تقديره: لرأيتَ أمراً فظيعاً، وشأناً هائلاً لا يكاد يوصف.

(٤) المراد بالأدبار الأستاهُ ـ مقعد الإنسان ـ قال مجاهد ولكنَّ الله كريمٌ يكني، ولو شاء لقال: أستاههم.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

* * *

في جهنم. ﴿ذلكَ بما قَدَّمتْ أيديكم﴾ هذا العذاب بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار. ﴿وأنَّ الله ليس بظلَّامٍ للعبيدِ﴾ وبأن الله لا يعذب أحداً بغير ذنب، لأن الظلم لا يجوز أن يقع منه ﴿كدأب آلِ فرعونَ والذينَ من قبلهم كفروا بآياتِ اللهِ﴾ فعَل هؤلاء المشركون، كصنيع وفعل من سبقهم، من قوم فرعون والأمم الخالية، جحدوا بحجج الله ورسله ﴿فأخذهم اللهُ بذنوبهم﴾ فعاقبهم الله بمعصيتهم وتكذيبهم ﴿إنَّ اللهَ قويٌّ شديد العقاب﴾ قويٌّ لا يغلبه غالب ولا يفوته هارب، شديدٌ عقابه لمن كفر بآياته. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حتَّى يُغيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فعلنا ذلك بهم بسبب أنهم غيَّروا ما أنعم الله به عليهم، فغيَّرنا نعمتنا عليهم بإهلاكهم، كفعلنا ذلك في الماضين قبلهم، ممن طغى وعصى أمرنا ﴿وأنَّ الله سميعٌ عليمٌ﴾ سميعٌ لما يقولون، عليمٌ بما تضمره صدورهم. ﴿كدأب آلِ فرعونَ والذينَ من قبلِهم كَذَّبُوا بآياتِ رَبِّهِمْ﴾ شأنُ وعادة هؤلاء المشركين، كشأن آل فرعون وعادتهم، وعادة من قبلهم من الأمم المكذبين لرسلهم. ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ أهلكناهم بسبب ذنوبهم، بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالخسف، وبعضهم بالريح. ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ في البحر. ﴿وكلٌّ كانوا ظالمينَ﴾ وكل هؤلاء الأمم الذين أهلكناهم، كانوا ظالمين لأنفسهم بتكذيبهم رسل الله، وجحودهم لآياته. ﴿إنَّ شرَّ الدَوَابِّ عند اللهِ﴾ إن شر من يدبُّ على الأرض عند الله[1] ﴿الذين كفروا فهم لايؤمنونَ﴾ الذين جحدوا وحدانية الله وعبدوا غيره، فهم لا يصدِّقون بوحي الله وتنزيله، ثم وضَّحهم بقوله ﴿الذين عاهدت منهم﴾ الذين أخذتَ عهودهم ومواثيقهم ألَّا يحاربوك. ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ في كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقونَ﴾ ثم كلما عاهدوك نقضوا العهد، وهم لا يتقون الله ولا يخافون عذابه. ﴿فَإمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ فإن ظفرت بهم في الحرب بالأسر، فنكِّل بهم تنكيلاً شديداً، يُشرِّد غيرهم من المجرمين، حتى

(١) نزلت في بني قريظة من اليهود، منهم «كعب بن الأشرف» وأصحابه، عاهدهم رسول الله ﷺ ألا يحاربوه، فنقضوا العهد ومالئوا على محمد ﷺ أعداءه يوم الخندق.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ * وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ

* * *

لا يجترئوا على مثل ما اجترأ عليه هؤلاء. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ كي يتعظوا فيحذروا نقض العهد. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ وإن خفت يا محمد من عدو بينك وبينه عهد، أن يغدر بك وينقض العهد. ﴿فانْبِذْ إليهمْ على سَوَاءٍ﴾ فناجزهم الحرب، وأعلمهم أنكَ قد فسخت العهد، حتى تصير أنتَ وهم على سواءٍ في العلم، وتبرأ من الغدر[1] ﴿إنَّ الله لا يحبُّ الخائنين﴾ الغادرين. ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ ولا يظنن الكفار الذين جحدوا وحدانية الله سبقونا بأنفسهم ففاتونا ﴿إِنَّهُمْ لا يُعجزونَ﴾ إنهم لا يعجزون ربهم، ولا يقدرون على الهرب منه. ﴿وَأَعِدُّوا لهم ما استطعتم منْ قوةٍ﴾ وأعدوا لهؤلاء الكفار، ما أطقتم أن تُعدوه لهم من الآلات والسلاح. ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ﴾ ومن الخيل التي تُربط في سبيل الله. ﴿تُرْهبونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ تخيفون بتلك القوة أعداء الله، وأعداءكم من المشركين. ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم اللهُ يعلمهم﴾ وتُرهبون آخرين ـ وهم المنافقون[2] ـ لا تعرفونهم، لأنهم يقولون: لا إلٓه إلا الله، ويغزون معكم، ولكنَّ الله يعلمهم، ويعلم ما انطوت عليه قلوبهم من النفاق. ﴿وما تُنْفِقُوا مِنْ شيءٍ في سبيلِ اللهِ﴾ وما أنفقتم أيها المؤمنون من شيءٍ من النفقات، في جهاد أعداء الله من المشركين. ﴿يُوَفَّ إليكمْ وأنتم لا تُظلمونَ﴾ يخلفه الله عليكم في الدنيا، ويدّخر لكم أجوركم، فلا يضيع لكم شيء منها يوم القيامة. ﴿وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ وإن مالوا إلى الصلح والمسالمة، فمل إليها وابذل لهم ما طلبوا[3]، وفوِّضْ أمرك إلى الله. ﴿إنَّه هو السميعُ العليمُ﴾ إن ربك الذي تتوكل عليه، هو السميع لأقوالكم، العليم بنيّاتكم، وبما يضمره كل فريق منكم للآخر. ﴿وإنْ يُريدُوا أنْ يخدعوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ﴾ وإن يرد هؤلاء بالصلح خداعك والمكر بك، فإن الله يكفيك شرهم وخداعهم، وهو متكفل

---

(١) قال النحاس: هذا من معجز ما جاء في القرآن، مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه، والمعنى إن خفت من قومٍ بينك وبينهم عهدٌ خيانةً، فانبذ إليهم العهد أي قل لهم: قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواءً، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد فيكون ذلك خيانة وغدراً، فاختصر ذلك كلّه بقوله ﴿فَانْبِذْ إليهم على سَوَاءٍ﴾

(٢) هذا قول ابن زيد، وقال مجاهد: هم اليهود من بني قريظة، والأول أرجح لقوله تعالى ﴿لا تعلمونهم﴾.

(٣) هذا السَّلْمُ مشروطٌ بكون العزة والسيادة فيه للمسلمين، وأن يكون فيه مصلحة ظاهرة، وإلاّ فيحرم الصلح والمهادنة لقوله تعالى ﴿ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ وقال قتادة: هذا كان قبل نزول الجهاد وقبل آية براءة ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

* * *

بإظهار دينك على الأديان. **﴿هو الذي أَيَّدَكَ بنصره وبالمؤمنينَ﴾** هو الذي قوَّاك بنصره، وشدَّ أزرك بالأنصار. **﴿وألَّفَ بين قلوبهم﴾** وجمع بين قلوب الأوس والخزرج ـ الأنصار ـ بعد التفرق والتشتت، فجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً. **﴿لو أنفقتَ ما في الأرْضِ جميعاً ما أَلَّفْتَ بين قلوبهم﴾** لو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضةومتاع ،ماجمعت أنت بين قلوبهم. **﴿ولكنَّ اللهَ أَلَّفَ بينهم﴾** ولكنَّ الله جمعها على الهدى تأييداً لك، وعوناً لكَ على عدوك. **﴿إِنَّهُ عَزيزٌ حكِيمٌ﴾** عزيزٌ لا يقهره شيء، حكيم في تدبير خلقه. **﴿يا أيها النبيُّ حسبُكَ اللهُ ومن اتَّبعَكَ من المؤمنينَ﴾** كافيك اللهُ وكافي من اتبعك من المؤمنين[1]، فلا يهولنكم كثرةُ الأعداء، فإن الله مؤيدكم بنصره. **﴿يا أيها النبيُّ حرِّضِ المؤمنينَ على القتال﴾** حُثَّ المؤمنين على قتال المشركين **﴿إنْ يكنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين﴾** إن يكن منكم عشرون رجلًا يثبتون عند لقاء العدو، يغلبوا مائتين من عدوهم بعون الله **﴿وإن يكن منكم مائةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾** وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الكفار **﴿بأنهم قومٌ لا يفقهون﴾** من أجل أن المشركين جهلة يقاتلون على غير رجاء ثواب، فهم لا يثبتون عند اللقاء، خشية أن يُقتلوا فتذهب دنياهم، لأنهم لم يعرفوا ما أعدَّ الله للمجاهدين. . ثم خفَّف تعالى عن المؤمنين فقال: **﴿الآن خَفَّفَ اللهُ عنكم وَعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً﴾** الآن رفع الله عنكم المشقة وعلم ضعفكم فرحمكم، **قال ابن عباس**: كان ثبات الواحد للعشرة فرضاً، ثم لما شقَّ ذلك عليهم نُسخ وأصبح ثبات الواحد للإثنين فرضاً[2] **﴿فإن يكن منكم مائة صابرةٌ يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله﴾** يغلبوهم بمعونة الله وتيسيره.

---

(١) وقال الحسن: المعنى كافيك الله والمؤمنون، وما ذكره الطبري أرجح لأن الله وحده يكفي عبده ﴿أليس الله بكافٍ عبده﴾؟!

(٢) قال ابن جرير: وهذه الآية ﴿إن يكن منكم عشرون..﴾ وإن كان مخرجها مخرج الخبر، فإن معناها الأمر بدليل قوله تعالى ﴿الآن خفَّف الله عنكم﴾ فلم يكن التخفيف إلا بعد التثقيل، ولو كان ثبوت العشرة منهم للمئة غير فرضٍ لم يكن للتخفيف وجه.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ

* * *

﴿والله مع الصابرين﴾ بالحفظ والنصرة على الأعداء. **﴿مَا كَانَ لنبيٍّ أَنْ يكونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ في الأَرْضِ﴾** لا ينبغي لنبي وقع تحت يديه أسرى، أن يأخذ منهم الفداء[١]، حتى يبالغ في قتل المشركين، ويقهرهم غلبةً وقسراً!! يعرِّفه أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم، كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم ثم إطلاقهم. **﴿تُريدونَ عَرَضَ الدنيا﴾** تريدون بأخذكم الفداء من المشركين متاع الدنيا وحطامها الزائل؟ **﴿واللهُ يريدُ الآخرةَ﴾** والله يريد لكم زينة الآخرة، وما أعدَّ لأوليائه في جناته، فاطلبوا ما يريد الله لكم، لا ما تدعوكم إليه أنفسكم من الرغبة في الدنيا وأسبابها. **﴿واللهُ عزيزٌ حكيمٌ﴾** عزيزٌ لا يُقهر ولا يُغلب، حكيم في تدبير شؤون خلقه **﴿لولا كتابٌ من الله سَبَقَ﴾** لولا قضاءٌ من الله سابق، بإحلال الغنائم، وألَّا يُعذِّب أحداً شهد[٢] بدراً. **﴿لَمَسَّكُمْ فيماأَخَـذْتُمْ عَذَابٌ عظيم﴾** لنالكم من الله - بأخذكم الغنيمة والفداء - عذاب عظيم[٣] **﴿فكلوا ممَّا غنمتم حلالاً طيباً﴾** فكلوا أيها المؤمنون مما غنمتم من أموال المشركين، حلالاً بإحلال الله لكم، طيباً لأنه ثمرة جهادكم[٤] **﴿واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾** وخافوا الله أن تخالفوا أمره، كما فعلتم بأخذ الفداء، إن الله غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيمٌ بهم. **﴿يا أيها النبيُّ قل لمن في أيديكم من الأسرى﴾** قل لهؤلاء الذين وقعوا في الأسر يوم بدر من أسرى المشركين **﴿إنْ يعلم ِ الله في قلوبكم خيراً﴾** إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً وإخلاصاً، وصدقاً في دعوى الإيمـــان **﴿يؤتكم خيراً مما أُخذ منكم﴾** يعطكم أفضل مما أخذ منكم من الفداء **﴿ويغفر لكم﴾** يمحو عنكم ما سلف من الذنوب **﴿واللهُ غفورٌ رحيمٌ﴾** غفور لذنوب عباده إذا تابوا، رحيم بهم، وكان العبَّـاس يقول: فيَّ والله نزلت هذه الآية[٥] **﴿وَإنْ يُريدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ﴾** وإن يرد هؤلاء

---

(١) في الآية عتاب للنبي ﷺ وأصحابه على أخذ الفداء يوم بدر، لكنه عتاب لطيف رقيق.

(٢) اختار الإمام الرازي أن المعنى: لولا كتاب من الله سابق بألا يعذِّب المخطىء في اجتهاده.

(٣) روي أن الآية لمَّا نزلت قال ﷺ: لو نزل عذابٌ من السماء لما نجا منه غير عمر.

(٤) في الصحيح «وجُعل رزقي تحت ظل رمحي».

(٥) قال البيضاوي: نزلت هذه الآية في العباس رضي الله عنه، حين كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابنيْ أخويه «عقيل» و«نوفل» فقال يا محمد: لقد تركتني أتكففُ قريشاً ما بقيتُ! فقال ﷺ له: أين الذهب الذي دفعته إلى «أم الفضل» - زوجة العباس - وقت خروجك =

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾

* * *

الأسرى الغدر والخداع بك، بإظهارهم لك خلاف ما في نفوسهم، فقد خالفوا أمر الله تعالى قبل وقعة بدر. ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ فأمكنك الله منهم. ﴿وَاللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾ عليمٌ بما يضمرونه في نفوسهم، حكيمٌ في تدبير أمور خلقه. ﴿إنَّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيلِ اللهِ﴾ إن الذين صدَّقوا الله ورسوله، وهجروا قومهم وعشيرتهم حباً في الله ورسوله، وجاهدوا أعداء الله بالأموال والأنفس لإعزاز دين الله[1] ﴿والذين آوَوْا ونصروا﴾ والذين آووا رسول الله والمهاجرين معه فأسكنوهم في منازلهم[2] ﴿أولئكَ بعضهُمْ أولياءُ بعضٍ﴾ هؤلاء المهاجرون والأنصار بعضهم إخوان وأنصار لبعض، وهم أعوان على من سواهم، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وقيل عنى به الإرث، فورَّث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة، دون القرابة والأرحام، ثم نسخ ذلك[3] ﴿وَالَّذينَ آمَنُوا ولم يُهَاجِرُوا﴾ والذين آمنوا ولم يفارقوا دار الكفر إلى دار الإسلام. ﴿ما لكم من وَلَايتِهِمْ من شيء حتَّى يُهاجروا﴾ ليس لكم من نصرتهم وميراثهم شيءٌ، حتى يهاجروا من بلد الكفر إلى دار الإسلام. ﴿وإنِ استنصروكم في الدِّين فعليكم النَّصرُ﴾ وإن طلبوا منكم النصرة على أعدائكم وأعدائهم من المشركين، فعليكم نصرتهم لأنهم إخوانكم. ﴿إلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ميثاق﴾ إلا أن يستنصروكم على قومٍ بينكم وبينهم عهدٌ فلا تعينوهم عليهم. ﴿واللهُ بما تعملون بصيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم. ﴿وَالَّذينَ كفروا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ والذين كفروا بعضهم أعوانُ بعضٍ وأنصاره فلا يتولاهم مؤمن. ﴿إلَّا تفعلوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير﴾ إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين، يحدث في الأرض بلاءٌ

وقلت لها: إني لا أدري ما يصيبني في خروجي هذا، فإن أصابني حَدَث ـ قتلٌ أو أسرٌ ـ فهو لكِ ولعيالك!! فقال العباس: ما يدريك؟ قال: أخبرني به ربي، قال: فأشهد أنك صادق وأنك رسول الله، والله لم يطَّلع عليه أحد ولقد دفعته إليها في سواد الليل، قال العباس: فأبدلني الله خيراً من ذلك، أعطاني زمزم، وأنا أنتظر المغفرة من ربي» تفسير البيضاوي ١ / ٢١٧

(١) المراد بهم المهاجرون.

(٢) المراد بهم الأنصار.

(٣) قال ابن عباس: جعل الميراث للمهاجرين والأنصار، دون ذوي الأرحام، ثم صار الميراث لذوي الأرحام.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ۝٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ۝٧٥﴾

* * *

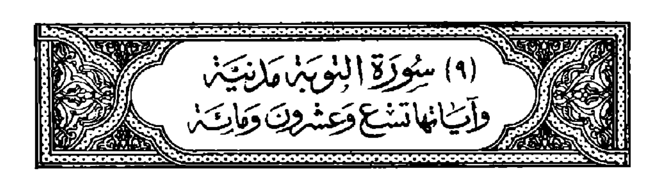
عظيم وفساد كبير بسبب[١] ذلك ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله﴾ وهم المهاجرون أصحابُ السبق إلى الإسلام. ﴿والذينَ آوَوْا ونصروا﴾ آووا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه وهم الأنصار. ﴿أولئك هم المؤمنون حقاً﴾ هم أهل الإيمان حقاً، لا من أقام بين أظهر أهل الشرك، ولم يغز مع المسلمين. ﴿لهم مغفرةٌ ورزق كريمٌ﴾ لهم مغفرة لذنوبهم، ورزق هنيء في الجنة. ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾ والذين آمنوا بعد الهجرة الأولى، وهاجروا من دار الكفر، وجاهدوا معكم أعداء الله، فأولئك يجب عليكم نصرتهم وموالاتهم لأنهم منكم. ﴿وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ في كتاب الله﴾ وأصحاب القرابة بعضُهم أحقُّ ببعض في الميراث، في حكم اللَّهِ وقضائه. ﴿إنَّ الله بكل شيءٍ عليمٌ﴾ عالمٌ بما يُصلح عباده، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء[٢].

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنفال»

***

(١) ذلك لأنه يترتب عليه قوة الكفار وضعف المسلمين، فلا بدَّ من اعتبار الولاية بأخوة العقيدة والإيمان، لا بوحدة الديار والأوطان.

(٢) هذا ختم للسورة في غاية البراعة، ببيان أن كل هذه الأحكام قد شرعها الحكيم العليم، الذي يعلم مصالح العباد ولا تخفى عليه خافية من شئونهم، فهو يشرّع لهم ما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة



بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

***

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ هذه براءة من الله ورسوله ، من عهود المشركين التي عاهدهم عليها رسول الله[١] ﷺ **﴿فسيحوا في الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾** فسيروا في الأرض آمنين غير خائفين أربعة أشهر **﴿واعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي الله﴾** واعلموا أيها المشركون أنكم لا تفوتونه تعالى ـ وإن أمهلكم هذه المدة ـ لأنكم في قبضته وسلطانه **﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾** مذلُّ الكافرين في الدنيا بالأسر والقتل ، ومورثهم النار في الآخرة **﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسولِهِ إِلَى النَّاسِ يومَ الحجِّ الأكبرِ﴾** وإعلامٌ من اللهِ ورسولِهِ إلى جميع الناس في يوم « الحج الأكبر » يوم عرفة[٢] . **﴿أَنَّ اللَّهَ بريءٌ من المشركين ورسولُهُ﴾** إن اللَّه بريء من عهد المشركين ، ورسوله بريءٌ منهم أيضاً **﴿فإِنْ تُبْتُمْ فهو خيرٌ لكم﴾** فإن تبتم من كفركم ، ورجعتم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فهو خيرٌ لكم من الإقامة على الشرك **﴿وإن توليتم فاعلموا أنكم غيرُ معجزي الله﴾** وإن أعرضتم عن الإيمان ، وأبيتم إلاَّ الاستمرار على الشرك ، فاعلموا أنكم لا تفوتون الله بإنزال عقابه الشديد بكم . **﴿وَبَشِّرِ الذينَ كفروا**

---

(١) أخذت العرب تنقض عهودها مع رسول الله ﷺ ، فأمره الله أن ينبذ إليهم عهودهم ، وأن يمهلهم مدة أربعة أشهر ثم يحاربهم ، وهذا من محاسن دين الإسلام ألا يقاتل قوماً إلا بعد الإنذار .

(٢) قال مجاهد : الحج الأكبر هو الحج ، والحج الأصغر هو العمرة ، لأن عملها أقل من الحج

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا

***

بعذاب أليم﴾ وبشر الكافرين بعذاب موجع يحلُّ بهم ﴿إلاَّ الَّذينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المشركين ثم لم يَنْقُصُوكُمْ شيْئاً﴾ إلا الذين عاهدتموهم ولم ينقضوا العهد ، ولم ينقصوا من شروطه شيئاً ﴿ولم يُظَاهِرُوا عليكُمْ أَحداً﴾ ولم يُعينوا عليكم أحداً من عدوكم بسلاحٍ أو رجال ﴿فأَتِمُّوا إليهمْ عَهْدَهُمْ إلى مُدَّتهم﴾ فوفُّوا لهم العهد كاملاً إلى انقضاء مدته ﴿إنَّ اللَّهَ يحبُّ المتقينَ﴾ يحبُ الموفّين بعهدهم فقد أمر أن يؤدي إليهم عهدهم ويفي به ﴿فإذا انسلخ الأشْهُرُ الحُرُمُ﴾ فإذا انقضت الأشهر الحُرُم الثلاثة ـ ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرَّم ـ ﴿فاقْتُلُوا المشركين حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ﴾ اقتلوهم حيث لقيتموهم في حلٍ أوحرم ، في الأشهر الحُرُم أوغيرها ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وأسروهم وامنعوهم من التصرف في البلاد ، واقعدوا لهم في كل طريق يسلكونه لقتلهم أو أسرهم ﴿فإنْ تَابُوا وأَقامُوا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكَاةَ﴾ فإن تابوا عن الشرك وجحود نبوة محمد ﷺ ، وأدّوا ما فرض عليهم من الصلاة وأعطوا الزكاة ﴿فَخَلُّوا سبيلَهُمْ﴾ فدعوهم يتصرفون في البلاد ، ويدخلون البيت الحرام ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ غفور لمن تاب وأناب ، رحيم بالعباد ﴿وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأَجِرْهُ حتى يسمع كلامَ اللَّهِ﴾ وإن استأمنك أحدٌ من المشركين ليسمع كلام الله منك ، فأمِّنه حتى يسمع القرآن ويتدبره[١] ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ثم ردَّه إلى حيث يأمن منك ـ إن أبى الإسلام ـ حتى يلحق بقومه المشركين ﴿ذَلِكَ بأنهُمْ قومٌ لا يعلمونَ﴾ ذلك الأمان لسماع القرآن ، من أجل أنهم قوم جهلة لا يفقهون حجة ، ولا يعلمون ما لهم بالإيمان ﴿كيف يكونُ للمشركينَ عَهْدٌ عند الله وعند رسولِه﴾ بأي معنى يكون للمشركين عهد وذمة عند الله يوفَّى لهم به ، ويُتركوا من أجله آمنين يتصرفون بالبلاد ؟! بمعنى لا عهد لهم والواجب قتلهم أينما وُجدوا ﴿إلاَّ الذينَ عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ إلا الذين أعطيتموهم العهد عند المسجد الحرام ـ وهم قبائل بني بكر ـ فما داموا

---

(١) هذا غايه في كرم الأخلاق وحسن المعاملة ، لأن الغرض من الدعوة الهداية والإرشاد لا النيل من الكفار بالقتل والأسر، بل إقناعهم وهدايتهم ثم ترك الخيار لهم أن يُسلموا أو يكفروا ﴿وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ فللّه ما أسمى تعاليم الإسلام!!

ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

***

مستقيمين على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء ﴿إنَّ الله يحب المتَّقين﴾ يحب من اتَّقى ربه ، ووفَّى عهده ، وترك الغدر بمن عاهده ﴿كيفَ وإنْ يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذِمَّةً﴾ كيف يكون لهؤلاء المشركين عهدٌ وذمة ، وهم إن يغلبوكم لا يراعوا فيكم عهداً ، ولا قرابةً ولا ميثاقاً !! ﴿يُرْضونكُمْ بأفواهِهِمْ﴾ يعطونكم بألسنتهم من الكلام الجميل ، خلاف ما في نفوسهم من العداوة والبغضاء ﴿وتأبى قلوبُهم﴾ وتمتنع قلوبهم أن يُذعنوا للوفاء بما أظهروه لكم ﴿وأكثرهم فاسقون﴾ وأكثرهم ناقضون للعهد ، كافرون بربهم ، خارجون عن طاعته يحذِّر جل ثناؤه المؤمنين أمرهم ، ويحثهم على قتلهم واجتياحهم حيثما وُجدوا في أرض الله ﴿اشترَوْا بآياتِ الله ثَمناً قليلاً فَصَدُّوا عَنْ سبيلِهِ﴾ اشتروا بالقرآن قليلاً من عَرَض الدنيا الخسيس ، فمنعوا الناس من الدخول في الإسلام ﴿إنَّهُمْ ساء ما كانوا يعملونَ﴾ ساءَ عملهم القبيح باشترائهم الكفر بالإيمان ، والضلالة بالهدى ، وصدِّهم عن سبيل الله ﴿لا يَرْقُبُونَ في مُؤْمِنٍ إلاًّ ولا ذِمَّةً﴾ لايتقون في قتل مؤمن ـ لو قدروا عليه ـ عهداً ولا ذمة ، فلا تُبقوا عليهم ، كما لا يُبقون عليكم لو غلبوكم ﴿وأولئك هم المعتدون﴾ المتجاوزون فيكم الأمر الى حدِّ الظلم والإعتداء ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاةَ﴾ فإن تابوا عن الكفر ، وأدوا الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأعطوا الزكاة المفروضة لأهلها[1] ﴿فإخوانكم في الدين﴾ فهم إخوتكم في الإسلام ﴿ونُفَصِّلُ الآياتِ لقوم يَعْلَمُونَ﴾ ونبين حجج الله وأدلته ، فنشرحها مفصلة لأهل العلم والفهم ، دون الجهال الذين لا يعقلون بيان الله ﴿وَإنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا في دِينِكُمْ﴾ وإن نقض هؤلاء المشركون عهودهم معكم ، وقدحوا في الإسلام فعابوه وثلموه ﴿فقاتلوا أئمةَ الكفر إنهم لا أيمانَ لهم﴾ فقاتلوا رؤساء الكفر ، فإنهم لا عهد لهم ولا ميثاق ﴿لَعَلَّهم يَنْتَهُونَ﴾ لكي ينتهوا عن

(١) انظر إلى السرّ الدقيق في قرن الصلاة مع الزكاة، فإن الصلاة حقُّ الله ، والزكاة حقُّ العبد، ولا يمكن للمجتمع أن يسعد ويهنأ إلَّا إذا أدّى الإنسان فيه حق الخالق والمخلوق ، ولهذا قال ابن زيد افترضت الصلاة والزكاة جميعاً لم يُفرِّق بينهما ، وقرأ الآية ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فأبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال: رحم الله أبا بكر ما كان أفقهه !!

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾

***

الطعن في الإسلام ، ويكفُّوا عن الإجرام **﴿أَلا تُقاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمانَهُمْ وَهَمُّوا بإخراج الرَّسُولِ﴾** هذا حضٌ على جهاد الأعداء أي ألا تقاتلون يا معشر المؤمنين هؤلاء المشركين الذين نقضوا العهد ، وطعنوا في دينكم ، وظاهروا عليكم أعداءكم ، وهمُّوا ـ عزموا ـ على إخراج الرسول من وطنه فأخرجوه !! **﴿وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** وهم بدءوكم بالقتال حيث قاتلوا حلفاءكم خزاعة ، فما يمنعكم من قتالهم ؟ **﴿أتخشونهم فاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تخشوه إن كنتم مؤمنينَ﴾** أتخافونهم فتتركوا قتالهم خوفاً على أنفسكم منهم ، فالله أحقُّ أن تخافوا عقوبته ، إن كنتم مصدِّقين بذلك **﴿قاتلوهم يُعذِّبهم اللَّهُ بأيديكُمْ ويُخزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾** قاتلوهم يا معشر المؤمنين يقتلهم الله بأيديكم ، ويذلهم بالأسر والقهر ، ويعطيكم الظفر والغلبة عليهم **﴿وَيَشْفِ صُدورَ قَوْمٍ مؤمنينَ﴾** ويشف داء صدور المؤمنين بقتلهم ، لما كانوا ينالونه من الأذى والمكروه منهم **﴿ويُذهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾** ويُذهب ما في قلوبهم من الغمِّ والكرب **﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشاءُ﴾** ويمنُّ الله على من يشاء منهم بالتوبة والدخول في الإسلام ، وهو كلامٌ مستأنف ولذلك رفع الفعلُ ولم يجزم **﴿واللَّهُ عليمٌ حكيمٌ﴾** عليمٌ بسرائر العباد ، حكيمٌ في تصريف أحوال عباده وأمورهم

﴿أم حسبتم أَنْ تُتْرَكوا﴾ أحسبتم يا معشر المؤمنين أن يترككم الله بغير محنة واختبار ، فيعرف الصادق منكم في دينه من الكاذب ؟ **﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الذين جاهدوا منكم﴾** ولمَّا يتبيَّن منكم[١] المجاهدون في سبيله ، من المضيّعين المفرِّطين في دينه **﴿ولم يتخذوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنينَ وَلِيجَةً﴾** ولم يتخذوا بطانة من المشركين ، يوالونهم ويُفشون إليهم أسرارهم[٢] **﴿واللَّهُ خبيرٌ بما تعملونَ﴾** لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وسيجازيكم عليها **﴿مَا كَانَ للمشركينَ أَنْ يَعْمُروا مَساجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بالكُفْرِ﴾** ما ينبغي للمشركين أن يعمروا مساجد الله ، وهم مقرُّون على أنفسهم

(١) المراد معرفة المؤمنين لذلك ، لأن الله عالم أزلاً بالمؤمن والمنافق ، ولهذا قال الطبري : ولما يعرف أهل ولايته المجاهدين منكم ، وقيل : المراد بالعلم هنا علم الظهور لا علم الخفاء ، أي ولما يُظهر تعالى علمه للناس بالمجاهد والمنافق.

(٢) الغرض من الآية بيان أن الله تعالى لا يترك الناس دون اختبار وتمحيص ، يظهر فيه الطيبُ من الخبيث

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ

***

بالكفر ،لأن من كان كافراً بالله فليس من شأنه أن يعمر مساجد الله[١] ﴿أولئك حبطتْ أعمالُهم وفي النَّارِ هُمْ خالِدُونَ﴾ بطلت وذهبت أجورها لأنها كانت للشيطان ، وهم ماكثون في النار أبداً ﴿إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لا يعمر مساجد الله إلا المصدِّق بوحدانية الله وباليوم الآخر . ﴿وأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ولم يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ وأقام الصلاة المكتوبة بحدودها ، وأدى الزكاة الواجبة في ماله ، ولم يرهب أحداً سوى الله ﴿فَعَسَى أولئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ فخليقٌ بأولئك أن يكونوا ممن هداهم الله للحق ، قال ابن عباس كل « عسى » من الله فهي واجبة[٢] ، قال الله لنبيه «عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » يقول إن ربك سيبعثك مقاماً محموداً ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ في سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أجعلتم يا معشر المشركين سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كإيمان من آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله ؟ وهذا توبيخ لقوم افتخروا بالسقاية وسدانة البيت ، فأعلمهم تعالى أن الفخر في الإيمان بالله ، واليوم الآخر، والجهاد في سبيله[٣]. ﴿لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ لا يستوي هؤلاء المشركون مع المؤمنين،ولا تعتدل أحوالهما ومنازلهما عند الله . ﴿ وَاللَّهُ لا يهدي القوم الظالمينَ﴾ لا يوفق لصالح الأعمال من كان به كافراً. ﴿الَّذِينَ آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالِهِمْ وأنفسهم أعظمُ درجةً عند اللهِ﴾ الذين صدَّقوا بوحدانية الله ، وهجروا أوطانهم، وجاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم لإعزاز دين الله، هؤلاء أرفع منزلة عند الله ، من سقاة الحجيج، وعُمَّار المسجد الحرام، وهم مشركون بالله ﴿وأولئِكَ هم الفائزونَ﴾ وهؤلاء هم الفائزون بالجنة ، الناجون من النار ﴿يبشرهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوانٍ﴾ يبشرهم ربهم برحمته لهم ، ورضوانه

(١) كان المشركون يقولون في تلبيتهم :« لبيك لا شريكَ لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما مَلَكَ» يعنون الأصنام ، فذلك شهادتهم على أنفسهم بالكفر، وقال السدي: إذ سئل النصراني ما دينك؟ فيقول نصراني، واليهود يقول: يهودي، والمشرك يقول: مشرك،فذلك إقرارهم بالكفر.

(٢) الطبري ١٠/٩٤.

(٣) روي أن العباس لما أسر مع أصحابه يوم بدر، أقبل المسلمون عليهم يعيِّرونهم بالشرك، فقال العباس :أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ، ونفك العاني ـ الأسير ـ ونسقي الحاج ، فأنزل الله ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ الآية .

أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم

* * *

عليهم[1] ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فيهَا نعيمٌ مقيمٌ﴾ وبساتين ناضرة لهم فيها نعيمٌ ثابت دائم، لا يزول ولا يفنى. ﴿خالدينَ فيها أبداً﴾ ماكثين في تلك الجنات إلى ما لا نهاية ﴿إن اللّهَ عنده أجرٌ عظيم﴾ عنده في الآخرة ثواب عظيم للمؤمنين، على طاعتهم لربهم، وأدائهم صالح الأعمال.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمنوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أصدقاء تفشون إليهم أسراركم. ﴿إنِ اسْتَحَبُّوا الكُفْرَ عَلَى الإيمانِ﴾ إن اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله ﴿ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ومن يتخذهم بطانة ويُؤثر المُقام معهم، فأولئك هم الظالمون الذين خالفوا الله وعصوا أمره، قال ابن عباس هو مشركٌ مثلهم لأن من رضي بالشرك فهو مشرك. ﴿قُلْ إنْ كانَ آباؤُكم وَأَبْنَاؤُكُمْ وإخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرتُكُمْ﴾ قل يا محمد للمتخلفين عن الهجرة إن كان المُقامُ مع آبائكم، وأبنائكم، وإخوانكم، وأزواجكم، وقبيلتكم التي تستنصرون بها ﴿وأموالٌ اقترفتموها﴾ وأموالكم التي اكتسبتموها ﴿وتجارةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ وتجارة تخافون عدم نفاقها بفراقكم بلدكم ﴿ومساكنُ تَرْضونها﴾ ومنازل سكنتموها تعجبكم الإقامة فيها ﴿أحبَّ إليكم منَ اللّهِ ورسولِهِ وجهادٍ في سبيلِهِ﴾ إن كانت هذه الأمور أحبَّ إليكم من الهجرة إلى الله ورسوله من دار الشرك، ومن الجهاد لنصرة دين الله ﴿فتربصوا حتَّى يأتي اللّهُ بأمره﴾ فانتظروا حتى يأتي الله بفتح مكة[2] ﴿واللّهُ لا يهدي القومَ الفاسقين﴾ لا يوفق للخير الخارجين عن طاعته تعالى

﴿لقد نصركم اللّهُ في مواطنَ كثيرةٍ﴾ نصركم في مشاهد كثيرة وحروبٍ عديدة ﴿ويومَ حنينٍ إذْ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً﴾ ونصركم في يوم حنينٍ أيضاً ـ وهو وادٍ بين مكة والطائف ـ حين أعجبكم كثرة عددكم فقلتم لن نغلب اليوم من قلة ـ وكنتم اثنيْ عشر ألفاً وأعداؤكم أربعة آلاف ـ فلم

---

(١) أعظم نعيم أهل الجنة رؤية الباري جل وعلا ونيل رضوانه كما جاء في الصحيح «أحلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»

(٢) هذا وعيدٌ شديد لمن آثر أهله، أو ماله، أو ولده، أو وطنه على الهجرة والجهاد، وقد فسّر الطبري أمر الله بفتح مكة، وقال غيره من المفسرين المراد به العقوبة العاجلة أو الآجلة، وهو الأظهر لأن الآية وردت مورد التهديد والوعيد، لا مورد الإخبار.

مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

* * *

تدفع عنكم كثرتكم شيئاً ﴿وَضَاقَتْ عليكم الأرضُ بما رَحُبَتْ﴾ وضاقت عليكم الأرض على رحبها وكثرة اتساعها ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مدبرينَ﴾ وليتم الأدبار منهزمين يخبرهم تعالى أن النصر من عند الله وبيده ، وليس بكثرة العدد ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سكينتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمنينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَ وْها﴾ ثم كشف الله البلاء عنكم ، بإنزال الطمأنينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وإنزال الملائكة الذين لم تروهم ﴿وَعذَّبَ الذينَ كَفَرُوا﴾ وعذَّب الكافرين بالقتل والأسر ، والذلة وسلب الأموال ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرينَ﴾ وهذا عقوبة الكافرين بالله ورسوله ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ من بعدِ ذلكَ على مَنْ يَشَاءُ﴾ ثم يتفضل الله على من يشاء من الأحياء ، فيوفقه للتوبة والإنابة ويتوب عليه ﴿واللَّهُ غفور رحيمٌ﴾ غفور لذنوب عباده ، رحيمٌ بهم ﴿يَا أَيُّها الذينَ آمنوا إنَّما الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ ما المشركون إلا قذر ورجسٌ ، لخبث باطنهم ومعتقدهم[1] ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فلا تَدَعوهم يدخلوا الحرم ، بعد سنة تسع من الهجرة ، وهو العام الذي حجَّ فيه أبو بكر بالناس ، ونزلت فيهِ سورة براءة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إن شاءَ﴾ وإن خفتم أيها المؤمنون فقراً وفاقةً ، بمنع المشركين من دخول الحرم ، فإن الله سيغنيكم من فضله وعطائه عما فاتكم منهم ، مما هو خير لكم بإرادته ومشيئته ﴿إنَّ اللَّهَ عليمٌ حكيمٌ﴾ عليمٌ بما يصلح عباده ، حكيم في تدبيره. ﴿قاتلوا الذينَ لا يؤمنون باللَّهِ ولا باليوم الآخرِ﴾ قاتلوا أيها المؤمنون اليهود والنَّصارى ، الذين لا يؤمنون بالله ولا يُصدِّقون بجنة ولا نار . ﴿ولا يُحرِّمونَ ما حَرَّم اللَّهُ ورسولُه﴾ ولا يُحرمون ما حرَّمه الله في كتابه ، ولا رسولُه محمد ﷺ ، بل يأخذون ما شرعه لهم الأحبارُ والرهبان ﴿ولا يَدينُونَ دينَ الحقِّ﴾ ولا يطيعون طاعة أهل الإسلام ﴿من الذين أوتوا الكتاب﴾ من الذين أعطوا التوراة والإنجيل وهم « اليهود والنصارى » ﴿حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرونَ﴾ حتى يدفعوا لكم الجزية بأيديهم طائعين أو كارهين ، وهم أذلاء

---

(١) وقيل: إنهم نجسٌ لأنهم يُجنبون فلا يغتسلون، ورُوي عن ابن عباس قال: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير ، والصحيحُ أن المراد نجاسة الباطن والمعتقد ، فكفرهم بالله منزَّل منزلة النجس ، كما أشار الإمام الطبري، والله أعلم

صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

***

مقهورون ﴿وقالت اليهودُ عُزيرٌ ابن اللَّهِ وقالت النصارى المسيحُ ابن اللَّهِ﴾ نسب اليهود اللعناء إلى الله الولد ، فقالوا عُزيرٌ ابن الله ، وزعم النصارى - أعداء الله - أن المسيح ابن الله كذباً وزوراً ﴿ذلكَ قولُهم بأفواههم يُضاهئون قول الذين كفروا من قبلُ﴾ ذلك القول الشنيع مجرد دعوى بألسنتهم ، يشابهون قول أهل الأوثان ، الذين قالوا اللاّت والعُزّى آلهتنا قال ابن عباس قالوا مثل ما قال أهل الأوثان ﴿قاتَلَهُمُ الله أنّى يُؤْفكون﴾ أهلكهم الله ولعنهم ، كيف يحيدون عن الحقِّ ويصدُّون عنه ؟ والصيغة للتعجب ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دونِ اللَّهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ﴾ اتخذ اليهود علماءهم ، والنصارى رهبانهم - وهم أهل الصوامع المترهبون - أرباباً من دون[1] الله ، يطيعونهم فيما يحلّلون ويُحرِّمون ، واتخذ النصارى المسيح ابن مريم رباً ﴿وَمَا أُمروا إلاَّ ليعبدوا إلٰهاً واحداً﴾ وما أُمر اليهود والنصارى ، إلاَّ أن يعبدوا ويطيعوا رباً واحداً ، لا أرباباً شتّى ، وهو الله المستحقُّ على جميع خلقه الإقرار له بالوحدانية والربوبية ﴿سبحانه وتعالى عمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً لله ، وتطهيراً له عمَّا يُشرك به هؤلاء ، القائلون عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله ﴿يُريدون أنْ يُطفئوا نورَ اللَّهِ بأفواههم﴾ يريد هؤلاء الكفار ، أن يطفئوا نور الإسلام بأفواههم ، بتكذيبهم به ، وصدِّهم الناس عنه ، وهو النور الذي جعله الله لخلقه ضياءً[2] ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إلاَّ أنْ يُتمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرونَ﴾ ويأبى الله إلا أن يعلو الدينُ ، ويتم الحقُّ ، ولو كره الجاحدون ذلك ﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدين الْحَقِّ﴾ الله الذي أرسل محمداً ﷺ بالهداية التامة ، والدين الحقُّ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾

---

(١) عن عدي بن حاتم قال: «أتيتُ رسول الله ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب ، فقال يا عدي: اطرح هذا الوثن من عنقك ، فطرحته وانتهيتُ إليه وهو يقرأ في سورة براءة ، فقرأ هذه الآية. ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فقلت يا رسول الله: إنَّا لا نعبدهم ، فقال: أليس يُحرِّمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويُحلُّون ما حرَّم الله فتحلّونه ؟ قلت : بلى ، قال: فتلك عبادتهم». الطبري ١٠/١١٤.

(٢) انظر إلى روعة التمثيل وجمال البيان في آيات القرآن، فقد مثَّل لهؤلاء السفهاء الذين يكيدون للإسلام،بالإنسان الذي يريد أن يطفىء نور الشمس بفمه الحقير ، فهو بنفخةٍ يريد أن يطمس نور الشمس ويُذهب ضياءها عن الخلق ، وأين نور الله من نور الشمس !! وهذا من أعظم البشائر بأن دين الإسلام سيعلو ويظهر، وينتشر في الآفاق والبلاد، انتشار الشمس في الكائنات .

* ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ

***

ليُعليَ الإسلام على الأديان كلها ، ولو كره المشركون ظهوره ﴿يا أيها الذين آمنوا إنَّ كثيراً من الأَحْبَارِ والرُّهْبَانِ ليأكلون أموال النَّاسِ بالباطل﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ، إن كثيراً من علماء اليهود « الأحبار » وعلماء النصارى « الرهبان » يأخذون الرشاوى في أحكامهم ، ويُحرِّفون كتاب الله ، ليأخذوا به ثمناً قليلاً من سَفَلتهم ﴿وَيَصُدُّونَ عن سبيلِ اللَّهِ﴾ ويمنعون من أراد الدخول في الإسلام عن الدخول فيه

﴿والذينَ يكنزونَ الذَّهبَ والفضة ولا يُنفقونها في سبيل اللَّهِ فبشّرهم بعذاب أليم﴾ والذين يجمعون الأموال الكثيرة ، ولا يؤدون زكاتها فبشرهم(١) بعذاب أليم موجع يوم القيامة ﴿يَوْمَ يُحْمَى عليها في نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوى بها جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهم وظهورُهم﴾ يوم يوقد على الأموال التي كنزوها في نار جهنم ، فتحرق بها الجباه ، والجنوبُ ، والظهور(٢) ، بكيِّها بها ويُقال لهم ﴿هَذَا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزونَ﴾ هذا ما ادَّخرتم لأنفسكم في الدنيا من الأموال ، فذوقوا عذاب ما كنتم تكنزونه منها مكاثرةً ومباهاةً . ﴿إنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً في كِتَابِ اللَّهِ يومَ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ﴾ إنَّ عدد شهور السنة عند الله تعالى اثنا عشر شهراً ، في كتاب الله الذي كتب فيه كل ما هو كائن ، يوم خلق السمواتِ والأرضَ . ﴿منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ من هذه الشهور أربعة أشهر حُرُم ، يحرم القتال فيهن ، وهنَّ ـ رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرَّم ـ كانت الجاهلية تعظِّمهنَّ وتُحرِّمهنَّ . ﴿فلا تَظْلِمُوا فيهنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ فلا تعصوا الله فيها ، ولا تُحلّوا ما حرَّم الله ، فإن الله عظَّمها وعظَّم حرمتها ﴿وَقَاتِلُوا المُشْركِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلونَكُمْ كَافَّةً﴾ وقاتلوا المشركين جميعاً مجتمعين غير متفرقين ، كما يقاتلونكم

---

(١) وضع البشارة موضع الإنذار للسخرية والتهكم، وانظر كيف قرن القرآن بين جريمة الأحبار والرهبان وبين جريمة مانع الزكاة لأن الجميع يشتركون في أكل المال الحرام ، نعوذ بالله من سخطه.

(٢) إنما ذكرت هذه الأعضاء «الجباه ، والجنوب، والظهور» لأن البخيل يرى الفقير فيقطّب جبهته فيه ، فإذا وصل إليه أعرض عنه بجانبه ، فإذا مدَّ يده إليه بالإحسان ولاَّه ظهره ومشى ، فعوقب بكيِّها في نار جهنم

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ

***

جميعاً ﴿واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مع المتَّقينَ﴾ إذا اتقيتم الله كان الله معكم ، ومن كان الله معه لم يغلبه شيء ﴿إنَّمَا النَّسيءُ زِيَادَةٌ في الكُفْرِ﴾ إنما تأخير حرمة شهر لشهرٍ آخر ، زيادة في كفر المشركين[1] ﴿يُضَلُّ به الذينَ كفروا﴾ يُضِلُّ الله بما ابتدعوه وأحدثوه هؤلاء الكفار ﴿يُحِلُّونَهُ عَاماً ويُحَرِّمونه عاماً﴾ يُحلُّون الشهر المحرَّم عاماً ويحرمونه عاماً ﴿لِيُوَاطِئُوا عِدَّة ما حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ليوافقوا بتحليلهم وتحريمهم عدة الأشهر الأربعة الحرم ﴿فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ﴾ فيستحلوا ما حرَّمه الله تعالى ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ حَسَّنَ وحبَّبَ إليهم الشيطان قبيح أعمالهم ﴿واللَّهُ لا يهدي القوم الكافرينَ﴾ لا يوفق لمحاسن الأفعال ، الجاحدين توحيده ، المنكرين لنبوَّة رسوله محمد ﷺ

﴿يا أيها الذينَ آمنوا﴾ يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله﴾ أيُّ شيءٍ جعلَكُمْ إذا قال لكم رسول الله ﷺ اخرجوا غُزاة في جهاد أعداء الله ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ تثاقلتم إلى الجلوس في مساكنكم ؟ ﴿أرضيتُم بالحياة الدنيا منَ الآخرةِ﴾ أرضيتم بحظ الدنيا والدَّعة فيها ؛ عوضاً من نعيم الآخرة ﴿فما مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلا قليلٌ﴾ فما الذي يستمتع به المتمتعون من عيش الدنيا ولذَّاتها في نعيم الآخرة إلَّا يسير والآية حثٌّ من الله تعالى للمؤمنين على غزو الروم في تبوك ﴿إلَّا تنفروا يُعَذِّبْكُمْ عذَاباً أَليماً﴾ إن لم تخرجوا إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ يعذبكم الله عذاباً موجعاً في الدنيا ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ ويستبدل الله بكم قوماً غيركم ، يطيعون الله ورسوله ﴿وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئاً﴾ ولا تضروا الله بترككم النفير ، لأنه لا حاجة به إليكم ﴿واللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قادر على كل ما يشاء ، ومنه إهلاككم واستبدال قومٍ غيركم ﴿إلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ إلَّا تنفروا مع رسوله فتنصروه ، فالله ناصره ومعينه على عدوه ، ومغنيه عن نصرتكم ومعونتكم ﴿إذْ

---

(١) كان العرب أهل حروب وغارات ، لا ينفكُّون عن الإغارة ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شقَّ عليهم ترك القتال، فاستقرضوا حرمة شهر لشهرٍ آخر، فيقولون مثلاً: حرمنا صفر وأخرنا المحرم ، حتى يكملوا أربعة أشهر محرمة فذلك هو النسيء الذي ذكره القرآن الكريم

هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

***

أَخْرَجَهُ الذين كفروا﴾ كما نصره حين أخرجه كفار قريش من داره ووطنه ﴿ثَانِيَ اثنين﴾ هو أحد الاثنين : رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ﴿إِذْ هُمَا فِي الغَارِ﴾ حين كانا مختبئين في النقب العظيم في جبل ثور . ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا﴾ حين قال الرسول لأبي بكر لا تخف فاللَّهُ معنا روي أن أبا بكر قال وهو في الغار يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه أبصرنا ، فقال يا أبا بكر : ما ظنُّك باثنين اللَّهُ ثالثهما ؟ ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فأنزل الله طمأنينته وسكونه على رسوله[1] ﴿وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ وقوّاه بجنودٍ من الملائكة لم تروها أنتم ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ وأبطل كلمة الشرك ومحق أهلها ، لأنها قُهرت وأُذلَّت ، وكل مقهور ومغلوب فهو ذليل ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا﴾ وكلمة التوحيد « لا إلَهَ إلا اللَّهُ » ودينُه وتوحيدُه ، هو الغالبُ على الشرك وأهله ﴿واللَّه عزيزٌ حكيمٌ﴾ والله قاهر لا يغلبه غالبٌ ، حكيم في تدبير شؤون خلقه ﴿آنْفِرُوا خِفَافاً وثِقَالاً﴾ إنفروا أيها المؤمنون لجهاد أعداء الله ، شباباً وشيوخاً ، ركباناً ومُشاةً ، أغنياء وفقراء ، أصحاء وضعفاء[2] ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللهِ﴾ وجاهدوا الكفار بالأموال والأنفس ، لإعلاء دين الله .﴿ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون﴾ هذا النفير والجهاد ، خيرٌ لكم من التثاقل إلى الأرض ، إن كنتم من أهل العلم بفضل الجهاد في سبيل الله ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ﴾ لو كان ما تدعو إليه المتخلفين عنك غنيمةً حاضرة ، وموضعاً قريباً سهلاً ، لنفروا معك طمعاً في الغنيمة لا لوجه الله ، والآيةُ نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عليهمُ الشُّقَّةُ﴾ ولكنك كلفتهم سفراً شاقاً ، واستنهضتهم في زمن الحر ، ولذلك اعتذروا عن الخروج لما في قلوبهم من النفاق ﴿وَسَيَحْلِفُونَ باللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ وسيحلف لك هؤلاء المعتذرون بالباطل لتقبل منهم عذرهم قائلين: لو أطقنا الخروج بوجود المراكب والظهور ، لخرجنا معكم إلى عدوكم ﴿يُهْلِكُونَ أنفسهم﴾ يوجبون لأنفسهم الهلاك والعطب ، بحلفهم بالله كاذبين ، لأنهم يكسبونها سخط الله وأليم

(١) وقيل: على «أبي بكر» وما ذكره الطبري أرجح لقوله تعالى بعده ﴿ وأيده بجنود لم تروها﴾

(٢) اختار الطبري العموم أي أنفروا في جميع الأحوال والظروف، شيباً وشباباً، أصحاة وضعفاء، الخ وهو الأرجح .

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ * وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ

***

عقابه ﴿واللَّهُ يعلم إنَّهمْ لكاذبونَ﴾ والله يعلم أنهم كاذبون في دعواهم ، لأنهم كانوا مستطيعين للخروج بصحة الأبدان ، وقوى الأجسام ﴿عَفَا الله عنك لم أذنت لهم﴾ عفا الله عنك يا محمد ، لأي شيءٍ أذنت لهؤلاء المنافقين[1] ؟ ﴿حتّى يتبيَّنَ لكَ الذينَ صَدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبين﴾ما كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التخلف ، حتى تعرف من له عذر منهم ، ومن لا عذر له ، وتعرف الكاذب المتخلف منهم نفاقاً ، وشكاً في دين الله ﴿لا يستأذنك الذين يُؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ لا يستأذنك يا محمد عن التخلف عن الجهاد في سبيل الله ، من يصدّق بالله ووحدانيته ، ويُقرُّ بالبعث والدار الآخرة . ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ لا يستأذنوك في ترك الغزو ، وجهاد أعداء الله بالمال والنفس ﴿واللَّهُ عليمٌ بالمتقينَ﴾ والله عالم بمن خافه واتقاه ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿إنما يستأذنكِ الذينَ لا يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إنما يستأذنك في ترك الجهاد ، الذين لا يصدِّقون بالله ، ولا يُقرّون بتوحيده . ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فهم في رَيْبِهِمْ يتردَّدونَ﴾ وشكّت قلوبهم في وحدانية الله ، وثوابه وعقابه ، فهم في شكهم متحيرون ، لا يعرفون حقاً من باطل . ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأعدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ ولو أرادوا الخروج معك لجهاد أعدائك ، لتأهبوا للسفر ولقاء العدو ، وأعدُّوا للخروج العُدَّةَ بالسلاح والعتاد ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ ولكنَّ الله تعالى كره خروجهم معك . ﴿فَثَبَّطَهُمْ وقيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ﴾ فثقَّل عليهم الخروج حتى تركوه ، وقيل لهم اقعدوا مع المرضى والضعفاء ، ومع الصبيان والنساء ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خَبَالاً﴾ لو خرج هؤلاء المنافقون معكم ، ما زادوكم إلا فساداً وضرّاً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولأسرعوا بالإفساد بينكم ﴿يبغونكم الفتنةَ﴾ يطلبون لكم الفتنة بتثبيطكم عن الجهاد . ﴿وفيكم سَمَّاعونَ لهم﴾ وفيكم عيونٌ لهم ، يسمعون لحديثكم ليبلِّغوه لهم[2] ﴿واللَّهُ عليمٌ

---

(١) هذا عتابٌ لطيف رقيق من الله سبحانه لرسوله ﷺ ، وفيه تكريمٌ ظاهر حيث قدم العفو على العتاب له عليه السلام . فقد وجَّهه تعالى الى الأفضل في معاملة المنافقين بالعتاب اللطيف الرقيق الذي ينمّ عن لطف الله ورحمته برسوله .

(٢) هذا الذي اختاره الطبري قول مجاهد ، واختار ابن كثير أن المعنى : وفيكم من يسمع ويصغي إلى قولهم ويطيعهم ، وهذا المعنى أظهر وهو قول قتادة لأن الغرض عتاب بعض المؤمنين على طاعتهم وإصغائهم لأعدائهم الكافرين .

ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ

***

بالظالمينَ﴾ عالمٌ بالمنافقين لا يخفى عليه شيء من سرائرهم ﴿لقد ابتغوا الفتنةَ من قَبْلُ﴾ لقد التمس المنافقون الفتنة لأصحابك من قبل هذا ، كفعل عبد الله بن أُبيّ « يوم أحد » حين انصرف عنك بقومه ﴿وقلّبوا لكَ الأمورَ﴾ وأجالوا الآراء في إبطال دينك ﴿حتى جاء الحقُّ﴾ حتى جاء نصر الله ﴿وظهر أمرُ الله وهم كارهونَ﴾ وظهر دين الله ـ وهو الإسلام ـ وهم كارهون لظهوره ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي﴾ ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ائذن لي في القعود ، ولا تبتلني برؤية نساء بني الأصفر ، قال مجاهد قال رسول الله ﷺ أغزوا تغنموا بنات الأصفر ـ يعني الروم ـ فقال « الجدُّ بن قيس » ائذن لنا ولا تفتنا بالنساء فنزلت ﴿ألاَ في الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ ألا إنهم قد سقطوا في عين الفتنة ؛ بتخلفهم عن رسول الله ﷺ ، فما وقعوا فيه من الإثم أعظم ﴿وإنَّ جهنمَ لمحيطةٌ بالكافرين﴾ وإن النار لمحدقة بالكافرينَ بالله وآياته ، جامعةٌ لهم يوم القيامة ﴿إنْ تُصِبْكَ حسنةٌ تسؤهم﴾ إن أصابك يا محمد سرورٌ ، بفتح اللّهِ عليك أرض الروم ، ساء المنافقين ذلك ﴿وإن تُصبْكَ مصيبةٌ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبلُ﴾ وإن تصبك مصيبة بهزيمة جيشك ، يقول المنافقون قد أخذنا حذرنا بتخلفنا عن محمد ، من قبل هذه المصيبة ﴿ويتولّوْا وهم فرحونَ﴾ وينصرفوا عن محمد ، وهم فرحون بما أصابه من انهزام أصحابه ، وقتل من قُتل منهم ﴿قُلْ لَنْ يُصيبنا إلاّ ما كَتَبَ اللّهُ لَنَا﴾ قل يا محمد لهؤلاء المنافقين لن يصيبنا إلا ما كتبه الله وقضاه علينا في اللوح المحفوظ ﴿هو مولانا﴾ هو ناصرنا على أعدائنا ﴿وَعلى اللّهِ فلْيَتوكّلِ المؤمنونَ﴾ وعلى الله وحده فليعتمد المؤمنون ، حتى يكفيهم أمورهم ، وينصرهم على من بغى عليهم ﴿قُلْ هل تَرَبَّصُونَ بنا إلاَّ إحدى الحُسْنَيَيْنِ﴾ قل لهمْ يا محمد هل تنتظرون بنا إلاَّ إحدى الخلَّتين الحميدتين إما الظفر بالعدو وفيه الأجر والغَنيمة ، وإما قتلنا وفيه الشهادة والفوز بالجنة !! ﴿ونحنُ نتربصُ بكم أن يُصيبكم اللّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بأيْدينا﴾ ونحن ننتظر أن يصيبكم الله بعقوبة عاجلة من عنده فتهلككم ، أو بأيدينا فنقتلكم ﴿فتربصوا إنَّا معكم متربصونَ﴾ فانتظروا إنَّا معكم منتظرون ما الله فاعلٌ بنا وبكم ، وما يصير إليه أمر كل فريق منا ومنكم ﴿قل أنْفِقُوا طَوْعاً أو كَرْهاً﴾ قل

إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ

* * *

لهم أنفقوا يا معشر المنافقين أموالكم كيف شئتم ، وعلى أي حالٍ شئتم من حال الطوع والكره ﴿لَنْ يُتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقينَ﴾ فإنكم إن تنفقوها لن يتقبلها الله منكم ، لشكّكم في دينكم ، وخروجكم عن طاعة ربكم. ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ منهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إلاّ أنهم كفروا باللهِ وبرسوله﴾ وما منع من قبول النفقات منهم ، إلاّ كفرهمْ بالله وبرسوله ﴿ولا يَأْتونَ الصَّلاَةَ إلاَّ وهم كُسَالَى﴾ لا يأتونها إلا متثاقلين ، مخافةً على أنفسهم من المؤمنين ، لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً ، ولا يخافون بتركها عقاباً ﴿وَلاَ يُنْفقُونَ إلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ ولا ينفقون من أموالهم شيئاً ، إلاَّ وهم كارهون إنفاقه ، ممَّا فيهِ تقويةٌ للإسلام وأهله ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ﴾ فلا تُفْتنْ بما أُوتوا من زينة الدنيا ، وبما أنعمنا عليهم من الأموال والأولاد ﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا في الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بإلزامهم ما أوجب عليهم من حقوقه وفرائضه ، بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله ، وهذا من عظيم العذاب عليهم ، لأنها تؤخذ منهم من غير طيب النفس ، على ضجرٍ منهم وكُره[1] ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ويموتوا على كفرهم وضلالهم ﴿وَيَحْلِفُونَ باللهِ إنَّهُمْ لمنكم﴾ ويحلف هؤلاء المنافقون بالله كذباً وباطلاً ، إنهم منكم في الدين والملَّة ﴿وما هم منكم﴾ وليسوا من أهل دينكم وملتكم ، بل هم أهل شكٍ ونفاق ﴿ولكنَّهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ولكنهم قومٌ يخافون منكم أن تقتلوهم، فلذلك يقولون بألسنتهم إنَّا منكم ليأمنوكم. ﴿لو يجدون ملجأً﴾ حصناً ومعقلاً يتحصنون به منكم. ﴿أو مَغَاراتٍ أو مُدَّخلاً﴾ أو مغاراتٍ في الجبال، أو سَرَباً في الأرض يدخلون فيه ﴿لَوَلَّوْا إلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ لأقبلوا إليه وهم يُسرعون هرباً منكم[2] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ في الصَّدَقَاتِ﴾ ومن المنافقين من يعيبك يا محمد ، ويطعن عليك في أمر

(١) فإن قيل كيف يعذبهم الله بأموالهم في الدنيا، وهي لهم فيها سرورٌ ومتْعة ؟ فالجوابُ أن همَّ الكافر في جمع المال وتكديس الثروات ، من أعظم العذاب له ، فإنه كلما زاد مالُه زاد تكالبه على الدنيا ، فلا يزال في همّ وغمّ، وإذا نقص شيء من ماله أقلق ذلك مضجعه ، ثم إن الكفار بهذه الأموال يسعون إلى إفناء بعضهم بعضاً ، بالأسلحة الفتاكة والقنابل الذرية والهدروجينية وكفى بذاك عذاباً لهم ، ويتحقق بذلك صدق القرآن في قوله تعالى ﴿إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾.

(٢) شبههم تعالى بالفرس الجموح ﴿وهم يجمحون﴾ لأنهم في شرودهم عن الإيمان والحق ، يشبهون الفرس الجموح التي تضطرب في مشيها ، والغرضُ من الآية تنبيه المؤمنين إلى أن هؤلاء المنافقين لو استطاعوا الهرب منهم ، ولو في شرِّ الأمكنة وأخسِّها لفعلوا ، لشدة بغضهم لهم ، فلا يغتروا بأيمانهم الكاذبة .

أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ

* * *

الصَّدقات ﴿فَإِنْ أُعْطُوا منها رَضُوا﴾ فإن أنت أعطيتهم منها ما يُرضيهم رضوا عنك ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطوا مِنْها إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وإن أنتَ لم تعطهم منها سخطوا عليك وعابوك[١] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ ولو أن هؤلاء الذين عابوك ، رضوا بما قَسَم الله لهم من قَسْم وعطاء ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وقالوا كافينا اللَّهُ ﴿سيؤتينا اللَّهُ من فضلِهِ ورسولُهُ﴾ سيعطينا الله من خزائن فضله ، ورسولُه من الصَّدقة ﴿إنَّا إلى الله راغبون﴾ إنا نرغب إلى الله أن يوسّع علينا من فضله ، فيغنينا عن الصدقات وغيرها من الصِّلات

﴿إنَّما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين﴾ لا تُنال الصدقات إلا للفقراء والمساكين ، ومن سمَّاهم الله تعالى في هذه الأصناف الثمانية ، والفقيرُ هو المحتاج المتعفف ، والمسكينُ هو المحتاج الذي يسأل الناس ﴿والعاملين عليها﴾ والسُّعاة « الجُباة » الذين يجمعونها من أهلها ، أغنياء كانوا أو فقراء . ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلوبُهُمْ﴾ الذين يُتألفون على الإسلام نصرةً للدين ، واستصلاحاً به نفسه وعشيرَته[٢] ﴿وَفي الرِّقاب﴾ وهم المكاتبون يُعطون لفكّ رقابهم ﴿والغارمينَ﴾ والمديونون الذين استدانوا في غير معصية الله ، ثم لم يجدوا قضاءً لدينهم ، **قال مجاهد** : هم قوم ركبتهم الديون في غير فسادٍ ولا تبذير ﴿وفي سبيلِ الله﴾ وفي غزو الكفار ، **قال ابن زيد** هو الغازي في سبيل الله ﴿وابنِ السبيل﴾ الغريب الذي انقطع في سفره ﴿فريضة من الله﴾ قسمةً فرضها الله وأوجبها في أموال الأغنياء ﴿والله عليمٌ حكيمٌ﴾ عليمٌ بمصالح خلقه ، حَكيمٌ في تدبير شؤونهم

﴿ومنهم الذينَ يُؤْذونَ النبيَّ ويقولون هو أُذُنٌ﴾ ومن هؤلاء المنافقين أُناسٌ يؤذون رسول الله ﷺ ويعيبونه ، ويقولون هو أذن[٣] سامعة ، يسمع من كل أحدٍ فيقبله

---

(١) نزلت الآية في رجل من المنافقين يقال له « ذو الخويصرة » قال للرسول اعدل يا محمد الخ وانظر قصته في الطبري ١٠ / ١٥٧

(٢) قال ابن جرير : إن الله جعل الصدقة في معنيين : ١ ـ أحدهما سدُّ خلَّة المسلمين ٢ ـ والآخر معونة الإسلام وتقويته ، فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه ، فإنه يُعطاه الغنيُّ والفقير ، كالمجاهد في سبيل الله ، يعطى للغزو لا لسدِّ خلَّته ، غنياً كان أو فقيراً ، وكذلك المؤلفة قلوبهم يعطون ذلك وإن كانوا أغنياء ، استصلاحاً لأمرهم ، وطلباً لتقوية الإسلام وتأييده ، وقد أعطى النبي ﷺ من أعطى من المؤلفة قلوبهم ، بعد أن فتح الله عليه الفتوح ، وفشا الإسلام وعزّ أهله ؛ فلا حجة لمن يقول ، لا يتألف اليوم على الإسلام أحد اهـ ، وهو رأي وجيه

(٣) يقال : رجل أُذُنٌ إذا كان يسمع مقال كل واحد ، قال الشاعر : « قد صرتَ أذناً للوشاة سميعةً » .

مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ

* * *

ويُصدِّقه ﴿قُلْ أُذُنُ خيرٍ لكم﴾ قل لهم هو أذن خيرٍ لا أذن شرٍّ . ﴿يؤمنُ باللَّهِ ويُؤمنُ للمؤمنينَ﴾ يُصدِّق بالله ويُصدِّق المؤمنين ، لا أهل النفاق والكفر بالله ، وهذا تكذيبٌ للمنافقين الذين قالوا إن محمداً أذن ، نقول ما شئنا ثم نحلف له فيصدِّقنا ﴿ورحمةٌ للذينَ آمنوا منكم﴾ وهو رحمةٌ للمؤمنين ، الذين اتبعوه واهتدوا بهداه ، لأنه أنقذهم من الضلالة ﴿والذينَ يؤذون رسولَ اللَّهِ لهم عذابٌ أليمٌ﴾ والذين يعيبون الرسول ﷺ ويقولون فيه الهُجْر والباطل ، لهم عذاب موجع في نار جهنم ﴿يحلفون باللَّهِ لكم ليُرْضوكم﴾ يحلف لكم هؤلاء المنافقون الأيمان الفاجرة ، أنهم ما فعلوا ذلك ، يبتغون بذلك رضاكم ﴿واللَّهُ ورسولهُ أحقُّ أن يُرْضوه إن كانوا مؤمنين﴾ واللَّهُ ورسوله أحقُّ بالإرضاء ، بالتوبة والإنابة مما قالوا ونطقوا ، إن كانوا مصدِّقين بتوحيد الله ، ووعده ووعيده ﴿ألم يعلموا أنَّه من يحادِدِ اللَّهَ ورسولَه فأنَّ له نارَ جهنم خالداً فيها﴾ ألم يعلم هؤلاء المنافقون ، أنه من يحارب الله ورسوله ويخالفهما ، فأن له في الآخرة نار جهنم ، مقيماً فيها إلى غير نهاية ؟ ﴿ذَٰلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ﴾ ذلك هو الهوان والذل العظيم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّل عليهمْ سورةٌ تُنَبِّئُهُمْ بما في قلوبهم﴾ يخشى المنافقون أن تنزل فيهم سورة ، تُطلع المؤمنين على ما في قلوبهم ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ﴾ قل لهم متهدداً متوعداً استهزئوا بدين الله ، إن الله مظهرٌ ما تخفونه من النفاق وفاضحكم ، فكانت هذه السورة تُدعى الفاضحة ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ولئن سألت هؤلاء المنافقين عمَّا قالوا من الكذب والباطل ، ليقولنَّ لك إنما قلنا ذلك لعباً وهُزُواً ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وآياتِهِ ورسولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[1] قل يا محمد أتستهزئون بالله ، وآيات كتابه ، ورسوله ؟ ﴿لا تَعْتَذروا قد كفرتم بعدإيمانكُمْ﴾ لا تعتذروا بالباطل ، فقد جحدتم الحقَّ بالطعن في رسولكم ، بعد تصديقكم ﴿إنْ نَعْفُ عن طائفةٍ منكم﴾ إن نعف عن طائفةٍ منكم

(١) روي أن الرسول ﷺ بينا كان يسير في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه ناسٌ من المنافقين ، فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل ، يريد أن يفتح قصور الشام وحصونها ، هيهات هيهات ، فنزلت الآية .

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

***

لتوبتهم ﴿نعذِّبْ طائفةً﴾ نعذّب طائفةً بترك التوبة ﴿بِأَنَّهُمْ كانوا مجرمينَ﴾ لاكتسابهم الجرم بكفرهم بالله ، وطعنهم في رسول الله ﷺ ﴿المنافقون والمنافقاتُ بعضُهم من بعضٍ﴾ المنافقون والمنافقاتُ صنفٌ واحد ، في إعلان الإيمان ، واستبطان الكفر ﴿يَأْمُرُونَ بالمُنْكر وَيَنْهَوْنَ عَن الْمَعْرُوفِ﴾ يأمرون بالكفر بالله ورسوله ، وينهون الناس عن الإيمان بالله ورسوله ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ ويمسكون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ تركوا طاعة الله ، فتركهم من رحمته وهدايته ﴿إِنَّ المُنافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ إن المنافقين هم الخارجون عن طاعة الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ المُنافِقِينَ والمُنافِقاتِ والكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وعد الله أهل النفاق والكفر بالله ، نار جهنم يصلونها جميعاً ﴿خالدينَ فيها﴾ ماكثين فيها أبداً ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ هي كافيتُهم عقاباً على كفرهم ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ وأبعدهم الله من رحمته. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مقيمٌ﴾ ولهم عذاب دائم لا ينقطع ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ منكُمْ قُوَّةً﴾ كالذين من قبلكم من الأمم ، الذين فعلوا فعلكم فأهلكهم الله ، فاحذروا أن يحلَّ بكم مثل ما حلَّ بهم ، فإنهم كانوا أشدَّ منكم قوةً وبطشاً ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾ وأكثر منكم أموالاً وأولاداً ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ﴾ فتمتعوا بنصيبهم وحظّهم من الدنيا ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ﴾ وقد سلكتم سبيلهم في استمتاعكم بالدنيا ، وفعلتم كما فعل الذين من قبلكم بنصيبهم منها ﴿وَخُضتمْ كَالَّذي خاضوا﴾ وخضتم في الكذب والباطل ، كخوض تلك الأمم قبلكم ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ ذهبت أعمالهم باطلاً ، فلا ثواب لها إلا النَّارُ ، لأنها كانت فيما يُسخط الله ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ لبيعهم نعيم الآخرة ، باليسير الزهيد من الدنيا ﴿أَلَمْ يأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قومِ نُوحٍ وَعَادٍ وثَمودَ﴾ ألم يأتِ هؤلاء المنافقين خبر « قوم نوح » ألم أغرقهم بالطوفان ؟ وخبر عادٍ ألم أهلكهم بريح صَرْصرٍ عاتيةٍ ؟ وخبر ثمود ألم أهلكهم بالرجفة ؟ ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾

***

﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وخبر قوم إبراهيم ألم أسلبهم النعمة وأهلكْ ملكهم نمرود ؟ وخبر أصحاب مدين ألم أهلكهم بعذاب يوم الظُّلة ؟ وخبر المنقلبة بهم أرضهم - قوم لوط - ألم أجعل عاليها سافلها ؟ ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرات فكذبوهم ﴿فَمَا كَانَ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فما أهلكهم الله ظلماً ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بمعصية الله وتكذيبهم رسله ، أفأمن هؤلاء المنافقون أن يُسلك بهم في الانتقام سبيل أسلافهم من الأمم ؟!

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالمؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ بعضُهم أنصار بعضٍ وأعوانُهم . ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يأمرون الناس بالإيمان بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، وينهونهم عن الكفر بالله ورسوله[١] ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ويؤدون الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل ، ويعطون الزكاة لمستحقيها ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أمرٍ ونهي ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ هؤلاء سيرحمهم الله ، فينقذهم من عذابه ويدخلهم جنّته ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ عزيزٌ في انتقامه ممَّن عصاه ، حكيمٌ في جميع أفعاله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الْأَنْهارُ﴾ وعد الله هؤلاء المؤمنين من الرجال والنساء ، بساتينَ تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيها﴾ مقيمين فيها أبداً ، لا يزول عنهم نعيمُها ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ ومنازل يسكنونها طيبة ، في جنات خلدٍ وإقامة[٢] ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ورضى الله عنهم أكبرُ من ذلك كلِّه ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ هذا هو الظفر العظيم ، الذي لا شيء أعظم منه

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيهِمْ﴾ جاهد أهل الكفرِ والنفاق بالسيف

---

(١) هؤلاء المؤمنون على عكس المنافقين ، الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، والفرق بينهم كالفرق بين النور والظلام

(٢) سميت ﴿جنات عدنٍ﴾ لأنها جناتُ الخلد والإقامة ، من دخلها لم يخرج منها ، يقال : عدن فلان بأرض كذا إذا أقام بها ، وقال أبو الدرداء هي دار الله التي لم ترها عينٌ ، لا يسكنها إلا النبيّون والصدّيقون والشهداء وقال الحسن هي قصورٌ من اللؤلؤ والياقوت الأحمر .

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ * وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾

***

والسلاح ، واشدُدْ عليهم بالجهاد والقتال[١] ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ومسكنهم جهنَّمُ ، وبئس المكانُ الذي يصيرون إليه ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ يحلف المنافقون كذباً أنهم ما قالوا كلمة الكفر ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكُفْرِ﴾ ولقد قالوا كلمة الكفر وهي قول ابن سلول « لَئِنْ رَجَعْنَا إلى الْمدينةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ »[٢] ﴿وكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ وكفروا حقاً بعد إظهارهم الإسلام ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ وهمُّوا بالفتك بالنبي ﷺ ﴿وَمَا نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ من فَضْلِهِ﴾ وما أنكروا على رسول الله ﷺ شيئاً إلاَّ أنَّ الله تعالى أغناهم من فضله ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾ فإن يرجعوا عن النفاق يكن رجوعهم خيراً لهم ﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وإن يُصرّوا على الكفر ، يعذبهم الله عذاباً شديداً موجعاً ﴿في الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾ في الدنيا بالأسر والقتل ، وفي الآخرة بعذاب النار ﴿وَمَا لَهُمْ في الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ وليس لهم من ينقذهم في الدنيا من عقاب الله وأليم عذابه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهداً بقوله لئن رزقنا مالاً ، ووسَّع علينا من فضله ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لنعملنَّ فيه بعمل أهل الصلاح ، من صلة الرحم ، والإنفاق في سبيل الله[٣] ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ فلمَّا رزقهم الله من فضله ، بخلوا فلم يتصدقوا ، ولم ينفقوا منه ﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أدبروا عن العهد ، وهم معرضون عن طاعة الله ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً في قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ فجعل الله في قلوبهم النفاق ، إلى يوم مماتهم ﴿بِمَا أَخْلَفُوا الله ما وَعَدُوهُ

---

(١) قال ابن عباس جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان، واختار الطبري العموم للفريقين وهو الأرجح

(٢) اقتتل رجلان : جهنيٌ وغفاريٌ ـ وكانت جهينة حلفاء الأنصار ـ وغلبَ الغفاري الجهني،فقال ابن سلول: انصروا أخاكم، والله ما مثلنا ومثلُ محمد إلا كما قال القائل «سَمِّنْ كلبك يأكلْك»، وقال الخبيث عدوُّ الله ﴿لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾ ثم حلف أمام الرسول ﷺ أنه لم يقلها

(٣) روي أنها نزلت في «ثعلبة» وهو غير «ثعلبة بن حاطب» الصحابي المشهور، فإن هذا من المؤمنين، وذاك من المنافقين، بدليل أن الآية وردت في سياق أوصاف المنافقين.

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

***

﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ببخلهم وإخلافهم الوعد الذي وعدوا به الله ، وكذبهم في قولهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ ألم يعلم هؤلاء المنافقون ، أن الله يعلم ما يخفونه في أنفسهم من الكفر بالله ورسوله ، وما يتناجون به بينهم من الطعن في الإسلام وأهله ؟ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يعلم ما غاب عن أسماع خلقه ، وأبصارهم ، وحواسّهم ؟ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ يعيبون المتطوعين في صدقاتهم من المؤمنين ، ويطعنون فيهم بقولهم إنما تصدَّقوا به رياءً وسمعة ، ولم يريدوا وجه الله[1] ﴿وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ويطعنون في الذين لا يجدون إلا طاقتهم ،فيقولون: لقد كان الله غنياً عن صدقة هؤلاء، سخريةً بهم ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جازاهم على سخريتهم بما يستحقون ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلمٌ موجع ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ ادع لهم يا محمد بالمغفرة أو لا تدع لهم ، إن سألت الله لهم العفو والغفران سبعين مرة ، فلن يعفو الله عنهم ، بل سيفضحهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ ترك العفو عنهم ، من أجل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة نبيِّه ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ لا يوفّق للإيمان من خرج عن طاعته ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فرح الذين تخلفوا عن الجهاد ، بجلوسهم في منازلهم خلافاً لأمر الرسول ﷺ ، حيث أمرهم بالنفر فخالفوا أمره ﴿وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ وكرهوا أن يغزوا بأموالهم وأنفسهم نصرةً لدين الله ، إيثاراً للراحة ، وشُحّاً بالمال ﴿وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ وقال بعضهم لبعض: لا تخرجوا للغزو في الحرّ ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَراً لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ قل لهم يا محمد : نار جهنم أشد حراً من هذا الحرّ ، لو كانوا يفهمون وعظ الله ، ويتدبرون آيات كتابه

---

(١) روي أن رجلاً من الأنصار تصدّق بمال كثير، فقال المنافقون: إنه مراءٍ، وتصدّق رجل بصاعٍ من تمر، فقالوا : إن الله غنيٌّ عن صدقة هذا ، فنزلت الآية، «أخرجه البخاري».

فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾

***

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾ فليضحكوا قليلاً في هذه الدنيا الفانية ، فإنهم سيبكون طويلاً في جهنم **﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** جزاءً بما كانوا يجترحون من الذنوب **﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾** فإن ردّك الله من غزوة تبوك ، إلى جماعة من هؤلاء المنافقين ، فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى **﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَداً وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوّاً﴾** فقل لهم لن تخرجوا معي للجهاد أبداً ، ولن تقاتلوا معي أحداً من الأعداء **﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** حين لم تخرجوا إلى تبوك **﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾** فاقعدوا مع المتخلفين عن الجهاد من الضعفاء والنساء **﴿وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبداً﴾** ولا تصلِّ على أحد مات من هؤلاء المنافقين أبداً[1] **﴿وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾** ولا تتولَّ دفنه وتقبره[2] **﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾** إنهم جحدوا توحيد الله ورسالة نبيّه **﴿وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾** وماتوا وهم خارجون من الإسلام **﴿وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ﴾** ولا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين وأولادهم . **﴿إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بها في الدنيا﴾** فإني إنما أعطيت المنافق ذلك ، لأعذبه بها في الدنيا بالغموم والهموم ، والرزايا والمصائب **﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وهم كافرون﴾** وليموت فيفارق المال والولد ، فيكون ذلك حسرةً ووبالاً عليه **﴿وإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمنوا بالله وجاهدوا مع رسولِهِ﴾** وإذا أُنزلت عليك يا محمد سورة من القرآن ، بأن آمنوا بالله واغزوا مع رسوله **﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾** استأذنك أصحاب الغنى والمال في التخلف عن الجهاد **﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مع القاعدين﴾** وقالوا دعنا نكن مع ضعفاء الناس ومرضاهم ، ممن لم يخرج معك في السفر **﴿رَضُوا بأَنْ يكونُوا مَعَ الخَوَالِفِ﴾** رضوا بأن يكونوا مع الذين تخلفوا في البيوت ، من النساء والمرضى ، والعَجَزة

---

(١) نزلت في عبد الله بن سلول ، رأس المنافقين ، حين طلب ابنه من رسول الله ﷺ أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه ، وأن يصلي عليه ، فقال عمر : يا رسول الله أتصلي على رجلٍ من المنافقين ؟ فنزلت الآية . (٢) أي لا تشهد جنازته ولا تحضر دفنه .

رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا

***

﴿وَطَبَعَ اللَّهُ على قُلُوبهمْ فهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ وختم الله على قلوبهم ، فهم لا يفقهون مواعظ الله فيتعظون بها ، **﴿لَكِنِ الرَّسُولُ والَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ﴾** لكنْ محمد ﷺ والذين صدَّقوا الله ورسوله ، هم الذين جاهدوا المشركين بأموالهم وأنفسهم ، فبذلوا أموالهم ، وأتعبوا أنفسهم نصرةً لدين الله **﴿وأُولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾** هؤلاء لهم خيراتُ الآخرة ، نساؤها ، وجناتها ، ونعيمها ، وهم المخلدون في الجنات ، الفائزون بها **﴿أَعَدَّ اللَّهُ لهم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ﴾** أعد الله لرسوله وللمؤمنين معه ، بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار **﴿خَالِدِينَ فيها ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** لابثين فيها أبداً ، ذلك النجاءُ العظيم ، والحظُّ الجزيل **﴿وَجَاءَ المُعَذِّرونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾** وجاء المعتذرون من الأعراب رسول الله ﷺ ، ليأذن لهم في التخلف عن الجهاد **﴿وَقَعَدَ الَّذينَ كَذَبُوا الله وَرَسُولَهُ﴾** وقعد عن المجيء إلى الرسول ﷺ والجهاد معه ، الذين قالوا الكذب واعتذروا بالباطل **﴿سَيُصِيبُ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** سينال هؤلاء المتخلفين الجاحدين توحيد الله ، عذابٌ مؤلم موجع **﴿لَيْس عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى المَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذينَ لَا يَجِدُون ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾** ليس على أهل العجز عن الجهاد ، ولا على المرضى ، ولا على من لا يجد نفقةً للغزو ، إثمٌ في التخلف عن الجهاد **﴿إذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ﴾** إذا أخلصوا لله ولرسوله **﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سبيلٍ﴾** ليس على من أحسن عمله فتخلَّفَ لعذر ، طريقٌ إلى عقابه[1] **﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾** غفورٌ لذنوبهم ، رحيمٌ بهم حيث لا يعذبهم **﴿وَلَا عَلَى الَّذينَ إذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾** ولا سبيل أيضاً على النَّفر الذين جاءوا يسألونك أن تحملهم لجهاد أعداء الله **﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأعينهم تفيضُ من**

---

(١) هذا من بليغ الكلام ، وهو جارٍ مجرى المثل، لأن معناه لا سبيل لعاتبٍ عليهم لأنهم محسنون

يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ * إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

***

الدَّمعُ حَزَناً﴾ قلت لهم لا أجد حمولةً أحملكم عليها ، أدبروا عنك وهم يبكونَ من شدة الحزن(١) **﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾** لأنهم لم يجدوا ما ينفقونه للجهاد في سبيل الله **﴿إِنَّما السَّبِيلُ عَلَى الَّذينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾** ليس الإثم على أهل العذر ، ولكنَّ الإثم على الذين يستأذنونك في التخلف وترك الجهاد ، وهم أهل غنى وطاقة للغزو . **﴿رَضُوا بأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾** رضوا بأن يجلسوا مع النساء في البيوت ، ويتركوا الغزو معك **﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾** وختم الله على قلوبهم بما كسبوا من الذنوب ، فهم لا يعلمون سوء عاقبتهم **﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إذا رجعتم إليهم﴾** يعتذر إليكم هؤلاء المتخلفون من المنافقين ، إذا رجعتم إليهم من سفركم وجهادكم **﴿قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾** قل لهم يا محمد لا تعتذروا فلن نصدِّقكم فيما تقولون **﴿قَدْ نَبَّأَنا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾** قد أخبرنا الله وأعلمنا بكذبكم **﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عملكم ورسولُهُ﴾** وسيرى الله ورسوله عملكم فيما بعد ، أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ؟ **﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الذي يعلم السرَّ والعلانية ، فيجازيكم بأعمالكم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته **﴿سَيَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾** سيحلف هؤلاء المنافقون لكم ، إذا انصرفتم إليهم من غزوكم ، لتعرضوا عنهم فلا تؤنبوهم **﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾** فَدَعُوا تأنيبهم ، وخلُّوهم وما اختاروا من الكفر والنفاق ، لأنهم نجسٌ **﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** مصيرهم ومسكنهم جهنمُ ، جزاءً على معاصيهم **﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾** يحلفون لكم باللّهِ ، اعتذاراً بالباطل والكذب لترضوا عنهم **﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾** فإن رضيتم عنهم وقبلتم معذرتهم ، فإن رضاكم لا ينفعهم عند الله ،لأنهم كافرون بالله ، خارجون عن طاعته

---

(١) نزلت الآية في «البكّائين» وهم سبعة من الأنصار، أتوا رسول الله ﷺ وقالوا : قد نذرنا الخروج فاحملنا نغزو معك ، فقال ﷺ: لا أجد ما أحملكم عليه ، فتولَّوْا وهم يبكون .

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾

***

إلى معصيته ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفَاقاً**﴾ الأعرابُ ـ أهل البَدْو ـ أشدُّ جحوداً لتوحيد الله ، وأشدّ نفاقاً من أهل الحضر والأمصار ، لجفائهم[1] وقسوة قلوبهم ﴿**وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ**﴾ وأخلقُ بألّا يعلموا سُنَنَ الرسول عليه السلام قال قتادة هم أقلُّ علماً بالسُّنَنِ ﴿**واللَّهُ عَلِيمٌ حكيمٌ**﴾ عليمٌ بخلقه ، حكيمٌ في صنعه وتدبيره ﴿**وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَماً**﴾ ومن الأعراب من يَعُدُّ نفقته التي يُنفقها غرماً لزمه ، لا يرجو له ثواباً ، ولا يدفع به عقاباً ﴿**وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ**﴾ وينتظر بكم مصائب الدهر ، وما تدور به الليالي والأيام من المكروه ﴿**عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ**﴾ جعل الله نزول المكروه عليهم ﴿**وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ سميعٌ لأقوالهم ، عليمٌ بتدبيرهم ﴿**وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ باللَّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ ومن الأعراب من يُصدِّق بوحدانية الله ، وبالبعث بعد الموت ، والثواب والعقاب ﴿**وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ**﴾ وينوي بما ينفقُ ما يُقرِّبه من رضى الله ، ومن دعاء الرسول واستغفاره له ﴿**أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ**﴾ ألا إن دعاء الرسول قربةٌ لهم عند الله ﴿**سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ في رَحْمتِهِ**﴾ سيدخلهم الله الجنة . ﴿**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ غفور لما اجترموا ، رحيمٌ بهم مع توبتهم ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ**﴾ والذين سبقوا إلى الإيمان من المهاجرين والأنصار ﴿**وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحسانٍ**﴾ والذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة ، طلب رضى الله ﴿**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ رضي الله عنهم جميعاً لطاعتهم ، ورضوا عنه لما أجزل لهم من الثواب ﴿**وَأَعَدَّ لهم جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأنهارُ**﴾ وأعدَّ لهم بساتين تجري من تحتها أنهار الجنة ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً**﴾ مقيمين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يُخرجون منها ﴿**ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾ هذا هو الظفر بالمطلوب ، والنَّجاء

(١) إنما وُصفوا بذلك لأنهم عاشوا بعيدين عن مشاهدة العلماء ، ومخالطة الأتقياء ، ونشأوا بلا مربٍّ ولا مؤدب ، ولهذا ظهرت فيهم الغلظةُ والجفاء .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

***

العظيم ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾ ومن القوم الذين حول مدينتكم من الأعراب منافقون ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ ومن أهل المدينة أيضاً أقوام منافقون أمثالُهم ، مَرَنوا على النفاق وتدرَّبوا عليه . ﴿لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا تعلمهم أنت يا محمد ، ولكنَّا نحن نعلمهم ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثم يُرَدُّونَ إلى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ سنعذب هؤلاء المنافقين مرتين بالأسر ، وعذاب القبر ، ثم يُردُّون في الآخرة إلى عذاب جهنم ﴿وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ ومنهم آخرون أقرُّوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيىء ، فتابوا من ذنوبهم بعد تخلفهم عن الجهاد[1] ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عليهم﴾ لعلَّ الله أن يتوب عليهم ، و« عسى » من الله واجبة بمعنى سيتوب الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ عفوٌّ عن ذنوب من تاب ، رحيمٌ بالعباد ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ خذ يا محمد من هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، صدقةً تطهرهم بها من دنس الذنوب ، وترفعهم بها عن خسيس منازل أهل النفاق ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وادع لهم بالمغفرة واستغفر لهم ، لأن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميعٌ لكلامهم ، عليمٌ بأحوالهم ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَاده وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ ألم يعلم هؤلاء المتخلفون عن الجهاد ، أن الله هو الذي يقبل توبة التائب أو يردُّها ، ويأخذ صدقة المتصدِّق أو يردُّها عليه ؟ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هو التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾ ويعلموا أن الله هو الذي يعفو عن عباده ، ويرحمهم إذا أنابوا ؟ ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنونَ﴾ قل لهم يا محمد اعملوا بما يُرضي الله ، فسيرى الله إن عملتم عملكم ، ويراه رسولهُ والمؤمنون في الدنيا ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

---

(١) هم قوم تخلَّفوا عن غزوة تبوك ، لا لنفاقهم بل لكسلهم، ثم ندموا على ما فعلوا وتابوا ، وكان منهم «أبو لبابة» الذي ربط نفسه بسارية ، وحلف ألا يفكَّ نفسه حتى يتوب الله عليه .

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ

* * *

وستُردّون يوم القيامة إلى من يعلم سرَّكم وعلانيتكم ، فيخبركم بما عملتم ، ويجازيكم عليها ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ ومن هؤلاء المتخلفين آخرون مؤخرون لأمر الله وقضائه[1] ، أرجأ الله أمرهم إلى أن صَحَّت توبتُهم ، فتاب عليهم وعفا عنهم ﴿إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إمَّا أن يُعذبهم بذنوبهم ، وإما أن يوفقهم للتوبة فيغفر لهم ﴿واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليمٌ بما يصلح شؤون العباد ، حكيمٌ في تدبيره وصنعه ، لا يدخلُ حكمَه خَلَل

﴿وَالَّذينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً﴾ والذينَ ابتنوا مسجداً ضِراراً لمسجد رسول الله[2] ﷺ ﴿وَكُفْراً وتفريقاً بين المؤمنينَ﴾ وكفراً بالله لمحادَّتهم رسوله ، وليفرِّقوا به جماعة المؤمنين ﴿وَإرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وإعداداً وانتظاراً لمن قاتل رسول الله من قبل ، وهو « أبو عامر الفاسق » الذي حزَّب الأحزاب لقتال رسول الله ﷺ ، ثم لحق بالروم وكتب إلى أهله يأمرهم ببناء مسجد الضِّرار ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنَا إلاَّ الحُسْنَى﴾ وليحلفنَّ ما أردنا ببنائه إلا المنفعة والتوسعة على المسلمين ﴿والله يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ والله يعلمُ كذبهم في حلفهم ذلك . ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾ لا تُصلِّ يا محمد في هذا المسجد ، الذي بناه المنافقون أبداً ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ والله لمسجد الرسول[3] ، الذي بُني على تقوى الله وطاعته ، من أول يوم ابتدىء في بنائه ، أولى أن تقوم فيه مصلياً من مسجد الضرار ﴿فيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ في هذا المسجد رجالٌ ، يحبُّون أن يتنظفوا بالماء ، إذا أتوا الغائط ﴿واللَّهُ

---

(١) هؤلاء هم الثلاثة المذكورون في قوله تعالى ﴿وعلى الثلاثة الذينَ خُلِّفوا﴾ وقد كانوا شهدوا بدراً ، وتخلفوا عن غزوة تبوك ، فنهى النبي ﷺ عن الكلام معهم والسلام عليهم ، فصاروا مرجئين لأمره تعالى ، وستأتي قصتهم في آخر السورة .

(٢) هم قوم من المنافقين بنوا مسجداً بجانب مسجد قُباء ، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يصلي فيه ، وأرادوا ببنائه أن يكون وكراً لهم ليتآمروا على الإسلام والمسلمين ، فأمر رسول الله ﷺ بهدمه وإحراقه ، وانظر تفصيل القصة في كتابنا «صفوة التفاسير» ج ١ ص ٥٥٧

(٣) رجح الطبري أن المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى هو «مسجد الرسول» وهو قول ابن عمر وسعيد بن المسيِّب ، ورجح ابن كثير أنه «مسجد قباء» وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة والشعبي ، ولعل هذا القول أرجح ، والله أعلم .

مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ

* * *

يحبُّ المُطَّهِّرِينَ﴾ واللَّهُ يحب المتطهرين بالماء **﴿أَفَمَنْ أَسَّس بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوى مِنَ اللهِ ورِضْوَانٍ خيرٌ أَمَّنْ أَسَّس بُنْيَانه على شَفَا جُرُفٍ هارٍ﴾** هل من ابتدأ أساس بنائه على طاعة الله ، واللَّهُ عنه راض خيرٌ أَمَّنْ ابتدأ أساس بنائه على طرف حفرةٍ هائرة ؟ أي الفريقين خيرٌ ، وأيُّ البناءين أثبت ؟ **﴿فَانْهَارَ بِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ﴾** فسقط به البناء في نار جهنم[1] **﴿والله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمينَ﴾** لا يوفق الظالمين ولا يرشدهم إلى طريق السعادة **﴿لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذي بَنَوْا رِيبَةً في قُلُوبهمْ﴾** لا يزال بنيان هؤلاء المنافقين لمسجد الضِّرار ، شكاً ونفاقاً في قلوبهم ، يحسبون أنهم كانوا فى بنائه محسنين **﴿إلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهمْ﴾** تتصدَّع قلوبهم فيموتوا **﴿والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** عليمٌ بأفعال خلقه ، حكيم في تدبير شؤونهم

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنَّةَ﴾ إن الله ابتاع أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة **﴿يُقَاتِلُونَ في سبيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾** فيقتلون الكفار نصرةً لدين الله ، ويُقْتلون في سبيل الله **﴿وَعْداً عَلَيْه حَقاً في التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ وَالقُرْآنِ﴾** وعدهم وعداً حقاً أن يوفّي لهم به في كتبه المنزَّلة « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن » إذا هم وَفَوْا عهدهم **﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾** ومن أحسنُ وفاءً بما شَرَط من الله ؟ **﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾** فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع ، الذي بعتموه من ربكم **﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** وذلك الفوز الذي لا فوز أعظم منه ثم وضَّح تعالى أوصاف هؤلاء المؤمنين فقال **﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾** التائبون من الذنوب ، العابدون لربهم ، الحامدون لله في السَّراء والضَّراء **﴿السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾** الصائمون[2] ، المصلُّون الراكعون في صلاتهم ، والساجدون فيها **﴿الآمرون بالمعروف**

---

(١) هذا مثلٌ ضربه الله عز وجل لعمل أهل الإخلاص والإيمان ، وعمل أهل النفاق والضلال، وياله من مثل رائع ، يصوِّر عملَ المؤمن بالبناء المشيَّد على أرضٍ صلبة ، وقد أُتقن الأساس والبناء ، وعمل المنافق الذي أسس بنيانه على طرف حفرة متصدّعة فانهار به البناء في هاوية الجحيم

(٢) فسَّر الطبري «السائح» بالصائم وهو قول ابن عباس ومجاهد، وقد روي عن عائشة أنها قالت: «سياحة هذه الأمة الصيام» وذهب =

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ

* * *

والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله﴾ الذين يأمرون الناس باتباع الرُّشد والهدى ، وينهونهم عن كل فعلٍ أو قولٍ قبيح نهى الله عباده عنه ، والمحافظون على فرائض الله المتمسكون بشريعته ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وبشّر المصدّقين بوعد الله بجنات النعيم

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبى﴾ لا ينبغي للنبي محمد ﷺ والمؤمنين ، أن يدعوا بالمغفرة للمشركين ، ولو كانَ المشركون ذوي قربى لهم . ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ من بعد ما ظهر لهم أنهم من أهل النار ، وقد نزلت في «أبي طالب» (١) ﴿وما كان اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ ما أقدم إبراهيم على الاستغفار لأبيه ، إلاّ من أجل موعدةٍ كان قد وعده بها وهي قوله « سأستغفر لك ربي » ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فلما ظهر لإبراهيم أن أباه مصرٌّ على الكفر ، ومات على شركه تبرأ منه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾إن إبراهيم كثير التضرع والدعاء إلى الله مع الحزن والإشفاق ، حليمٌ عمن سبّه وسَفِه عليه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ ما كان الله ليقضي على قومٍ بالضلال ، بعد أن رزقهم الهداية ووفقهم للإيمان ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ حتى يُبيِّن لهم ما يجتنبوه ﴿إِنَّ الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عالم بجميع الأشياء ، يعلم سرائر أموركم وظواهرها ﴿إِنَّ الله لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرضِ يُحْيي ويُميتُ﴾ إن الله له سلطان السمواتِ والأرض وملكهما ، وكلُّ الخلق عبيدُه ، بيده حياتهم وموتُهم ، يُحيي من يشاء منهم ويميتُ من يشاء منهم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ وما لكم أحد غير الله يستنقذكم من عقابه ، ولا نصيرٌ ينصركم منه إن أراد بكم سوءاً ،

= الإمام الفخر إلى أن المراد به المسافر للغزو أو طلب العلم وهو قول عطاء ، وهذا قول أرجح لأن معنى السياحة السفر في المدن والقفار للعظة والاعتبار ويؤيده ما رواه أبو داود في سُنَنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سياحةُ أمتي الجهادُ في سبيل الله» والله أعلم

(١) لما حضرت أبا طالب الوفاةُ ، دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده صناديد قريش ، فقال يا عم قل « لا إله إلا الله » كلمةً أشهد لك بها عند الله ، فقال أبو جهل يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال رسول الله ﷺ «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فنزلت

وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا

***

فبالله فثقوا ، وإيَّاه فارهبوا ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ والمُهاجِرينَ والأَنْصَارِ الَّذين اتَّبَعُوهُ في سَاعَةِ العُسْرَةِ﴾ تاب على نبيه محمد ﷺ وأصحابه المهاجرين والأنصار ، الذين رافقوه في «غزوة تبوك» ، على عُسرة الظهر ، وعسرة الزاد ، وعُسرة الماء[1] ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ من بعد ما كادت قلوب بعضهم تشكُّ في الدين وترتاب لما نالهم من الشدة والمشقة في سفرهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ ثم رزقهم الإنابة والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لطيفٌ رحيم بالمؤمنين ، لا ينزع منهم الإيمان ، بعدما أبلوا في الله ما أبلوا ، وصبروا على البأساء والضراء.

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وتاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو وهم « كعب ، وهلال ، ومُرارة »[2] ﴿حتَّى إذَاضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ضاقت عليهم الأرض بسعتها ، ندما على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ضاقت أنفسهم بما اعتراها من الهمِّ والغمِّ ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا ملجأ من اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ وأيقنوا أنه لا شيء ينجيهم من عذاب الله ، إلَّا بالرجوع والإنابة إلى الله ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِم لِيَتُوبُوا﴾ ثم رزقهم الإنابة والرجوع إلى ما يرضيه ، لينيبوا ويرجعوا إلى طاعته ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحِيمُ﴾ إن الله هو الوهاب لعباده الإنابة ، الرحيمُ بهم ﴿يا أيها الذينَ آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقينَ﴾ راقبوا الله بأداء فرائضه وتجنب محارمه ، وكونوا في الدنيا من أهل طاعته ، لتكونوا في الآخرة مع الصادقين في الجنة ، الذين صدقوا اللَّهَ في إيمانهم ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ المَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ لم يكن لأهل المدينة المنورة ، ومن حولهم من سُكَّان البوادي ، أن يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عن نَفْسِهِ﴾ ولا أن يرغبوا عن صحبته في سفره ، ومشاركته فيما يُعانيه في

---

(١) سميت غزوة«العسرة» لأنها كانت في حر شديد، مع قلة الظهر، وقلة الزاد والماء ، حتى أصابهم جهد شديد، كما قال عمر خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش، حتى ظننَّا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر يا رسول الله . إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً فادع لنا، قال: تحبُّ ذلك؟ قال نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء فأظلت ثم سكبت ، فملأوا ما معهم، فرجعناننظر فلم نجدها جاوزت العسكر اهـ ، الطبري ١١/ ٥٥.

(٢) المتخلفون عن غزوة تبوك هم « كعب بن مالك » و« هلال بن أمية » و « مُرارة بن ربيعة » وقد تاب الله عليهم ، وانظر قصتهم في رياض الصالحين ١ / ٢١

يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ

***

غزوه ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمأٌ وَلاَ نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لم يكن لهم أن يتخلفوا ، بسبب أنهم لا يصيبهم في سفرهم عطشٌ، ولا تعبٌ ، ولامجاعةٌ، في سبيل نصرة دين الله ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ﴾ ولا يطئون أرضاً يغيظ الكفار وطؤهم لها ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ولا يُصيبون من عدوهم شيئاً في أموالهم وأنفسهم، إلاَّ كُتب لهم به عمل صالح. ﴿إنَّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ لا يترك محسناً أن يجازيه على إحسانه ، ويثيبه على عمله. ﴿ولا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولا كَبِيرَةً ولا يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ﴾ وذلك بأنهم لا ينفقون شيئاً في سبيل الله، ولا يقطعون مع رسول الله في غزوة وادياً، إلا كُتب لهم أجر عملهم بأحسن الجزاء ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ليجزيهم الله على أعمالهم الصالحة ، أحسن ما يجزيهم على أحسن أعمالهم. ﴿وَمَا كَانَ المُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ لا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا جميعاً ويتركوا رسول الله ﷺ وحده[١]. ﴿فلولا نَفَرَ من كل فرقةٍ منهم طائفةٌ﴾ فهلاَّ نفر من كل جماعةٍ كثيرةٍ فئةٌ وطائفةٌ قليلة ﴿لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ﴾ ليتفقه الخارجون للجهاد ، بما يعاينون من نصر الله ، لأهل دينه وأصحاب رسوله[٢]. ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وليحذِّروا قومهم أن ينزل بهم عذاب الله كما نزل بالمشركين ، لعلهم يؤمنون بالله ورسوله . ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ﴾ ابدأوا بقتال الكفار الأقربَ فالأقرب إليكم داراً ، دون الأبعد فالأبعد. ﴿وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً﴾ ولْيجدْ هؤلاء الكفار منكم شدةً عليهم. ﴿واَعْلَمُوا أَنَّ الله مَعَ المتَّقينَ﴾ وأيقنوا أن الله معكم وناصركم ، إن اتقيتم ربكم بأداءفرائضه، واجتناب نواهيه. ﴿وَإِذَا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فمنهُمْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً﴾ وإذا أنزل الله سورة من سور القرآن على نبيه عليه السلام، فمن هؤلاء المنافقين من يقول

---

(١) نهى الله المؤمنين أن يخرجوا في غزوٍ وجهادٍ، ويتركوا رسول الله ﷺ وحيداً، لئلا يطمع في الاعتداء عليه أحد من الكفار، قال ابن عباس: لما شدد تعالى على المتخلفين، قالوا: لن يتخلف منا أحدٌ عن جيش أوسرية أبداً، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، وأرسل السرايا إلى الكفار، نفر المسلمون جميعاً إلى الجهاد وتركوه وحده بالمدينة فنزلت هذه الآية .

(٢) هكذا اختار الطبري في تفسير الآية الكريمة، واختار غيره أن المعنى: ليتفقه القاعدون من النبي ﷺ أمور الدين، ليعلِّموا المجاهدين إذا رجعوا إليهم ما تفقهوه من رسول الله، وهذا اختيار ابن كثير وجمهور المفسرين وهو الأرجح .

﴿هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

***

استهزاءً: أيكم أيها الناسُ زادته هذه السورة تصديقاً باللّهِ وآياته؟ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فأما المؤمنون فزادهم الله إيماناً وتصديقاً ، وهم يفرحون بما أعطاهم الله من الإيمان واليقين. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وأمَّا الذين في قلوبهم نفاقٌ وشكٌ في دين الله. ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ فزادتهم نفاقاً إلى نفاقهم ، وشكاً فوق شكهم ، فازدادوا بذلك نَتْناً فوق نَتْن نفاقهم. ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ وهلكوا وهم جاحدون بالله وآياته. ﴿أَوَ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أَوَلا يرى هؤلاء المنافقون ، أن الله يختبرهم في كل عام مرةً أو مرتين ، بالجوع والقحط ، والبلاء والعذاب؟ ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ثم هم مع البلاء والاختبار الذي يعرض لهم ، لا يُنيبون في نفاقهم ولا يتعظون ويعتبرون ، وهذا تعجيبٌ للمؤمنين ، وتوبيخٌ للمنافقين بقلّة تذكرهم وسوء تنبههم لمواعِظ الله. ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ وإذا أُنزلت سورة من القرآن فيها عيب المنافقين ، وهم في مجلس الرسول ﷺ نظر بعضهم إلى بعض بالإيماء والتنبيه ، هل يراكم أحدٌ من المسلمين ، ثم قاموا فانصرفوا من عند الرسول ﷺ ولم يستمعوا قراءة السورة. ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ صرف الله قلوب هؤلاء المنافقين عن الخير والتوفيق ، من أجل أنهم قوم لا يفقهون مواعظ الله استكباراً ونفاقاً ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ لقد جاءكم أيها القومُ رسولُ الله ، من أنفسكم لا من غيركم ، لئلا تتهموه في النصيحة لكم ، يشق عليه عنتكم ، وهو المكروه والأذى والمشقة. ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ حريصٌ على هدايتكم. ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ رفيقٌ بالمؤمنين ، رحيمٌ بهم. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فإن أدبروا عنك ، ولم يقبلوا النصيحة ، وما جئتهم به من النور والهُدى ، فقل : يكفيني ربي وهو حسبي. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه اعتمدت ، وبه وثقت ، وإلى نصره استندت ، وهو ناصري ومعيني ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وهو سبحانه مالِكُ كل شيء وخالقُه ، الملوكُ كلهم عبيده ، وهو ربُّ العرش العظيم ، وكل من دونه في سلطانه ومُلكه

«تم بعونه تعالى تفسير سورة التوبة»

***



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

***

﴿الٓر﴾ قال بعضهم: تأويله أنا الله أرى[١] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ هذه آيات القرآن المحكم، الذي أحكمه وبيّنه الله لعباده ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ هل كان عجباً للناسِ، إيحاؤ نا القرآن على رجلٍ منهم، لينذرهم ويخوفهم عقاب الله؟ تعجبوا من وحينا إليه، كأنهم لم يعلموا أن الله قد أوحى إلى مثله من البشر. ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾وأن بشِّرالمؤمنين بالله ورسوله، بأن لهم أجراً حسناً، على ما قدَّموا من صالح الأعمال. ﴿قَالَ الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مبينٌ﴾ فلما بشرهم وأنذرهم، قال المنكرون توحيد الله: إن محمداً لساحرٌ مبينٌ، يظهر أنه مبطلٌ فيما يدَّعيه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذي خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ في ستة أيامٍ﴾ انفرد بخلقهما في ستة أيام، بغير شريكٍ ولا ظهير ﴿ثُمَّ اسْتَوَى على العرش﴾ ثم استوى على عرشه[٢]، مدبّراً أمورخلقه ﴿يُدَبِّرُ الأمر﴾يدبّر الأمور، لا يتعقّب تدبيره متعقب﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدَ إِذْنِهِ﴾لا يشفع عنده

(١) هذا القول مرويٌ عن ابن عباس والضحاك، وقد ذكرنا في أول سورة البقرة أن الحروف المقطّعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وهو قول جمع من المحققين، وانظر تفصيل البحث هناك والله يرعاك.

(٢) استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله، دون تمثيل، ولا تشبيه، ولا تعطيل، وهذا مذهب السلف الصالح، نؤمن بها كما أخبر القرآن، دون تأويلٍ للصفات، ولا تمثيلٍ وتشبيهٍ بالمخلوقات.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾

***

يوم القيامة شافع، إلاّ من بعد أن يأذن له في الشفاعة. ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه﴾ هذا هو ربكم، فأخلصوا له العبادة، وأفردوه بالربوبية، لا من لا يسمع، ولا يُبصر، ولا يُدرك. ﴿أفلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتعظون وتعتبرون؟ ﴿إليه مَرْجعكُمْ جَمِيعاً﴾ إلى ربكم معادكم يوم القيامة جميعاً. ﴿وَعْدَ اللهِ حَقّاً﴾ وعدكم به الله وعداً حقاً. ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه﴾ إن ربكم يُنشىء الخَلْقَ، ثم يُعيده بعد فنائه وبلائه ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمنوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بالقِسْطِ﴾ ليثيب المؤمنين الذين عملوا ما أمرهم اللهُ به بالعدل والإنصاف، ويجازيهم أحسن الجزاء في الآخرة. ﴿والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ والذين جحدوا وحدانية الله لهم في جهنم شَرَابٌ قد اشتد حرُّه[1] ﴿وَعَذَابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون﴾ ولهم مع ذلك عذاب موجع بسبب كفرهم بالله ورسوله.. أخبر تعالى أن إعادتهم ليجزي كل فريقٍ بما عمل، المحسن منهم بالإحسان، والمسيء بالإساءة. ﴿هُوَ الذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُوراً﴾ إن ربكم هو الذي أضاء الشمس، وأنار القمر. ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ﴾ وسوَّى القمر منازل[2] لا يُقصِّر دونها ولا يجاوزها، لتعلموا دخول السنين وانقضاءها وحساب أيامها. ﴿ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إلاّ بالْحَقِّ﴾ لم يخلق الله الشمس والقمر عبثاً، وإنما خلقهما بالحقِّ ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ يُبيِّنُ الحجج والأدلة، لقوم يتدبرون وحدانية الله. ﴿إنَّ في اخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهار﴾ إن في تعاقب الليل والنَّهار، إذا جاء هذا ذهب هذا، وبالعكس. ﴿وَمَا خَلَقَ اللهُ في السَّموات والأَرْض ﴾ وفيما خلق الله في السموات والأرض من عجائب الخلق، الدالة على أن لها صانعاً[3]. ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ لأدلة وحججاً واضحة، لقومٍ يخافون وعيد الله ويخشون عقابه ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يكذِّبون بالثواب والعقاب ولا يخافون لقاءنا ﴿وَرَضُوا بالحَيَاةِ الدُّنْيَا واطْمَأَنُّوا

---

(١) وفي الصحيح «أنه إذا أُدني منه ذلك الشراب تتساقط فروةُ وجهه» كما وصفه تعالى بقوله ﴿كالمهل يشوي الوجوه﴾

(٢) إنما وحَّد الضمير وأعاده للقمر، لأن بالأهلَّة يعرف انقضاء الشهور والسنين لا بالشمس، فتدبرْ سرَّ القرآن

(٣) ذكر تعالى في هذه الآيات دلائل القدرة والوحدانية، لينبِّه العباد على ربوبيته، وأنه خالق كل شيء، ويقيم الحجة على المشركين في عبادتهم لغير الله.

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ

***

﴿بِهَا﴾ ورضوا بهذه الحياة الدنيا عوضاً عن الآخرة، وسكنوا إلى زينتها وزخارفها. ﴿والَّذينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ والذين هم عن أدلة وحدانية الله وحججه معرضون لاهون. ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ مصيرهم في الآخرة نار جهنم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بما اجترحوا في الدنيا من الآثام والإجرام. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمنوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ﴾ يرشدهم ربهم بسبب إيمانهم إلى الجنة. ﴿تَجْري مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ في جَنَّاتِ النَّعِيم﴾ تجري أمام هؤلاء المؤمنين أنهارُ الجنة، في بساتين النعيم التي نعَّمهم الله بها. ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ دعاؤ هم فيها سبحانك اللهم أي تنزيهاً لك يا رب عن السوء ﴿وتَحِيتُهُمْ فيها سَلامٌ﴾ وتحية بعضهم بعضاً في الجنة سلامٌ أي سلمتَ وأمنتَ مما ابتُلي به أهلُ النَّار ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالمينَ﴾ وآخر دعائهم أن يقولوا: الحمدُ لله رب العالمين.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ ولو يعجل الله إجابة دعاء الناس، فيما عليهم فيه مضرَّة في نفس أو مال، كاستعجاله بالإجابة لهم في الخير إذا دعوه، لهلكوا وعُجّل لهم الموتُ[١] ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فندع الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور في تمردهم وعتوِّهم يتردَّدون حيارى. ﴿وَإِذَا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائماً﴾ وإذا أصاب الإنسانَ الشدَّةُ والجُهْدُ، استغاثَ بنا في كشف ذلك عنه، مضطجعاً لجنبه، أو قاعداً، أو قائماً[٢] ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ فلما فرَّجنا عنه ما أصابه، نسي ما كان فيه من الجهد والبلاء أو تناساه، وترك شكر مولاه، وعاد للشرك والضلال. ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرفينَ مَا كَانُوا يَعْمَلونَ﴾ كما زُيِّن لهذا الإنسان استمراره على الكفر بعد كشف الضُر، كذلك زُيِّن للذين أسرفوا في الكذب على الله، ما كانوا يعملون من معاصي الله. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ ولقد

---

(١) قال مجاهد: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه.

(٢) يريد أنه استغاث بربه على الحال التي كان عليها عند نزول الضُرّ، مضطجعاً على جنبه، أوواقفاً على قدميه، أو جالساً على الأرض، فلما كشف الله عنه ضُرَّه رجع إلى كفره وضلاله.

وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

***

أهلكنا الأمم التي كذَّبت رسلها قبلكم أيها المشركون، لمَّا كفروا وخالفوا أمر الله ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وجاءتهم رسلهم بالحجج والآيات البينات، التي تُظهر صدقهم. ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فلم تكن هذه الأمم ليصدِّقوا رسلهم، إلى ما دعوهم إليه من توحيد الله. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ كما أهلكناهم بتكذيبهم الرسل، كذلك أفعل بكم أيها المجرمون لتكذيبكم رسولي محمداً ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم جعلناكم ـ أيها الناسُ ـ تخلفونهم في الأرض من بعد هلاكهم ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ لينظر ربكم عملكم، أتحذون مثالهم فتستحقون العقاب، ! أم تخالفون سبيلهم فتستحقون الثواب؟ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ وإذا قرىء على المشركين آيات القرآن، بيِّناتٍ واضحات، دالاتٍ على الحقِّ. ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقرآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ قال الذين لا يصدِّقون بالبعث: ائتنا يا محمد بقرآنٍ غير هذا القرآن، أو غيِّره فاجعل الحرامَ حلالاً ،والحلال حراماً ﴿قُلْ ما يكُونُ لي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسي﴾ قل لهم: ما يكون لي أن أغيِّره من عندي، وليس ذلك إليَّ، وإنما هو بيد من لا يردُّ حكمُه ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إِليَّ﴾ قل لهم: ما اتَّبع إلا ما يُنزله إليَّ ربي ويأمرني به ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إني أخشى إن خالفتُ أمر الله، وبدَّلتُ وحيه، عذاب يوم عظيم هولُه ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾ قل لهم: لو شاء الله ما تلوتُ هذا القرآن عليكم، ولا أعلَمَكم وأشعَرَكم ربكُم به. ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ﴾ فقد مكثتُ فيكم أربعين سنة، من قبل أن يوحيه إليَّ ربي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أني لو كنت متنحلاً ذلك، لانتحلته في أيام شبابي[1]؟ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أيُّ إنسان أشرُّ وأوضعُ ممن اختلق الكذب على الله،

---

(١) الغرض من الآية بيان صدقه ﷺ، فقد عاش ﷺ بين أظهر المشركين أربعين سنة عَلَماً بارزاً وطوداً شامخاً، يُشار إليه بالبنان في صدقه، وأمانته، وعقله، وسمو نفسه، فكيف يكذب على الله بعد بلوغه هذا السنَّ من العمر؟ إن هذا مستحيل، ولا يمكن لعاقلٍ أن يصدِّقه، ولهذا قال «هرقل» ملك الروم لأبي سفيان حين سأله: أكنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: ما كان ليَدَع الكذب على الناس ويكذب على الله، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

***

وافترى عليه باطلاً، أو كذَّب بحججه وآيات كتابه؟ فما وصفتموني به ليس بأعجب من كذبكم على ربكم، وافترائكم عليه. ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ لا ينجح ولا ينال الفلاح، من اجترم الكفر في الدنيا. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ ويعبد المشركون الأصنام التي يعبدونها، وهي لا تضرُّ ولا تنفع. ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ ويقولون: إنما نعبدها رجاء شفاعتها لنا عند الله. ﴿قل أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ في السَّمَواتِ وَلاَ في الأَرْضِ﴾ قل لهم: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيهاً لله تعالى عن شركهم وكفرهم ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ وما كان الناس إلا أهل دين واحد، فاختلفوا في دينهم وتفرَّقت بهم السُّبُل. ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ولولا أنه سبق من الله، ألاَّ يُهلك قوماً إلا بعد انقضاء آجالهم، لَفَصَلَ بينهم، بأن يهلك أهل الباطل، ويُنجي أهل الحقِّ. ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ويقول المشركون: هلاَّ أُنزل على محمد آية ـ معجزة ـ نعلم بها أنه محقٌّ فيما يقول؟ ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ فَانْتَظِرُوا إِني مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فقل لهم يا محمد: لا يعلم ذلك إلا اللهُ، فانتظروا قضاءَ الله بتعجيل العقوبة للمبطل منا، فإني ممن ينتظر ذلك. ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رحمةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ﴾ إذا أصابهم فرجٌ بعد كرب، ورخاء بعد شدة. ﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ في آيَاتِنَا﴾ استهزأوا وكذَّبوا. ﴿قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْراً﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين: اللهُ أشدُّ استدراجاً لكم، وعقوبة منكم لمكركم[1].

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إن حفظتنا ـ الملائكة ـ يكتبون أعمالكم، واستهزاءكم بآياتنا. ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ اللهُ جل وعلا يسيّركم في البرّ على الإبل، وفي البحر على السُّفن ﴿حَتَّى

---

(١) الغرض بيان أن الله يمهل المجرم والظالم استدراجاً له، حتى يظهر أنه ليس بمعذَّب، ثم يأخذه على حين غِرَّة منه، كما قال ﷺ: «إنَّ الله ليُمْلي للظالم ـ يُمهله ـ حتى إذا أخذه لم يُفلته» رواه البخاري ومسلم.

وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

* * *

إِذَا كُنْتُمْ في الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ حتى إذا كنتم في السُّفن، وجرت بهم في البحر بالريح الطيبة، وفرح الركبان بتلك الريح. ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ من كُلِّ مَكَانٍ﴾ جاءت السفنَ ريحٌ شديدة، وجاء ركبانَ السفينةِ الموجُ من كل مكان. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ وأيقنوا أن الهلاك أحاط بهم. ﴿دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أخلصوا الدعاء لله قائلين. ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لئن أنقذتنا من هذه الشدة التي نحن فيها، لنشكرنك على نعمك بإخلاص العبادة لك.

﴿فلما أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾ فلما أنجاهم الله من الجُهد الذي كانوا فيه، أخلفوا الوعد، وبَغَوْا في الأرض، بالكفر والعمل بمعاصي الله. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إنما اعتداؤكم على أنفسكم مدة استمتاعكم في الحياة الدنيا. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم مصيركم إلينا بعد الممات، فنخبركم بأعمالكم ونجازيكم عليها. ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أنزلناه من السَّمَاءِ﴾ إنما مثل ما يتفاخرون به من زينة الدنيا وأموالها، كمطر أنزلناه من السماء إلى الأرض. ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ﴾ فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضها ببعض، مما يأكله الناس من بقولٍ وثمار، وما تأكله البهائم من حشيش ومرعى. ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ حتى إذا ظهر حسن الأرض وبهاؤها وتزيَّنت ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ وظنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ على ما أنبتت ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾ جاءها قضاؤنا بالهلاك، إما ليلاً أو نهاراً، فجعلناها محصودة مقطوعة من أصولها. ﴿كَأَنْ لم تَغْنَ بالأَمْسِ﴾ كأن تلك الزروع والنباتات، لم تكن بالأمس نابتةً ظاهرة على ظهر الأرض. فكما أهلكنا نبات هذه الأرض بعد حسنها وبهجتها، فكذلك يأتي الفناءُ على الدنيا وزخارفها فيُفْنيها ويُهلكها[1]. ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ

(١) نبَّه تعالى عباده ألا يطلبوا الدنيا وزينتها، فإن مصيرها إلى فناء وزوال،كما مصير النبات إلى هلاك وبوار وأن يطلبوا الآخرة فإنها باقية.

وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾

* * *

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ كذلك نبيِّن حججنا وأدلتنا، لقوم يتفكرون ويعتبرون. **﴿واللهُ يَدْعُو إلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتقيم﴾** والله يدعوكم إلى داره، وهي جناته التي أعدَّها لأوليائه، وما فيها من النعيم والكرامة، ويوفِّق من يشاء من خلقه إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾** للذين أحسنوا عبادة الله في الدنيا الجنةُ، والنظرُ إلى وجه الله الكريم. **قال قتادة**: «الحُسْنى» الجنة، وأما «الزيادة» فالنظر إلى وجه الرحمن[1] **﴿وَلاَ يَرْهَقُ وَجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ﴾** ولا يغشى وجوهَهم غبارٌ ولا هوان، ولا كآبة ولا كسوف. **﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾** ماكثون فيها أبداً، لا يُخرجون منها فتنغَّص عليهم لذتهم. **﴿والَّذينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾** والذين عملوا السيئات في الدنيا، فلهم جزاء السيئة بمثلها من عقاب الله، وتغشاهم ذلةٌ وهوان. **﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾** ما لهم مانعٌ يمنعهم من عقاب الله. **﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾** كأنما أُلبست وجوههم قِطَعاً من الليل المظلم **﴿أولئِكَ أصحابُ النار هم فيها خالدون﴾** هؤلاء أهل النار، ماكثون فيها أبداً **﴿ويوم نحشرهم جميعاً﴾** نجمع الخلق لموقف الحساب جميعاً **﴿ثم نقول للذين أشركوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾** ثم نقول للذين أشركوا بالله: امكثوا مكانكم، وقفوا في موضعكم، مع شركائكم الذين عبدتموهم من الآلهة والأوثان **﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾** ففرَّقنا بين المشركين وشركائهم وبين غيرهم. **﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾** وقالت آلهتهم: لا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا، فوالله ما كنا نسمع، ولا نبصر، ولا نعقل. **﴿فَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾** حسبُنا الله شاهداً بيننا وبينكم أيها المشركون. **﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾** ما كنا نشعر بعبادتكم ولا نعلم بها، **قال مجاهد**: تُنْصب لهم الآلهة التي كانوا يعبدونها، فيقال هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله، فتقول الآلهة، والله ما كنا نسمع ولا نبصر، ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا، فيقولون: بلى قد كنا نعبدكم، فتقول لهم الآلهة «فكفى

---

(١) قال ابن كثير: روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم الجمهور من السلف والخلف، وقد رُوي هذا مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم.

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

***

بالله شهيداً بيننا وبينكم[١]» **﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾** عند ذلك تختبر كل نفسٍ بما قدَّمت من خيرٍ أو شرٍّ **﴿وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ﴾** ورجعوا إلى ربهم ومالكهم الحقّ، دون ما كانوا يزعمون أنهم أرباب **﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانوا يَفْتَرُونَ﴾** وبطل عن المشركين ما كانوا يدعون معه من الآلهة والأنداد[٢] **﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين: من الذي ينزل لكم القطر من السماء، ويُخرج لكم أقواتكم وغذاءكم. **﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ﴾** من الذي يملك أسماعكم وأبصاركم، فيزيد في قواها أو يسلبكم إياها، فيجعلكم صماً وعمياً لا تسمعون ولا تبصرون؟ **﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ من الْمَيِّتِ ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾** ومن يُخرج الشيء الحيَّ من الميِّت، ويُخرج الشيء الميت من الحيّ؟ **﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾** ومن يُدبِّر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمرَ الخلق؟ **﴿فَسَيَقُولُونَ اللهُ﴾** فسيجيبونك بقولهم: اللهُ يفعل ذلك كله. **﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾** فقل لهم: أفلا تخافون عقاب الله على كفركم، وعبادتكم من لا يرزقكم شيئاً، ولا يملك لكم ضراً ولا نفعاً؟ **﴿فذلكم اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾** فهذا الذي يفعل هذه الأفعال، هو ربكم الحقُّ الذي لا شك فيه. **﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾** فأيُّ شيء سوى الحقِّ إلا الضلالُ؟ فادعاؤكم غيره إلٰهاً ورباً هو الضلال، والذهابُ عن الحق. **﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾** فكيف تُصرفون عن الهدى والحق؟ **﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كلمةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾** كذلك وجب قضاء الله وحكمُه، على الذين كفروا به وخرجوا عن طاعته، لأنهم لا يصدِّقون بوحدانية الله ولا بنبوة رسوله ﷺ **﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُم يُعيدُهُ﴾** قل يا محمد: هل من الأوثان والأصنام، من يقدر على خلق شيءٍ ابتداءً، ثم إفنائه بعد إنشائه، ثم إعادته كما كان[٣]؟ **﴿قل اللهُ يبدأ الخَلْقَ ثم يُعيده**

(١) الطبري ١١ / ١١١

(٢) في هذه الآيات تبكيتٌ وتوبيخٌ عظيم للمشركين، في عبادتهم لغير الله، حيث تتبرأ منهم الآلهة وقت الضيق والشدة.

(٣) في الآية الكريمة إقامة حجة على المشركين، فإنهم لا يقدرون على دعوى أن الأوثان تخلق شيئاً من العدم، ثم تفنيه ثم تعيده كما كان، وفي ذلك الحجة القاطعة والدلالة الواضحة على أنهم في دعوى أن هذه الأصنام أرباب كاذبون مفترون.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن﴾

* * *

﴿فَأَنَّى تؤفكون﴾ قل لهم: الله يقدر على ذلك، فأيَّ وجهٍ عن طريق الرشد تصرفون وتُقْلبون؟ **﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ﴾** قل لهم: هل من آلهتكم وأوثانكم من يرشد ضالاً، أو يهدي حائراً إلى الطريق المستقيم، **﴿قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾** قل لهم: الله يهدي الضَّال إلى الحقِّ. **﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إلاَّ أَنْ يُهْدَىٰ﴾** أفمن يهدي ضالاً إلى الرشد، أحقُّ أن يُتَّبع إلى ما يدعو إليه، أم من لا يهتدي إلى شيء إلاَّ أن يُهْدى[1]؟ **﴿فما لكم كيف تحكمونَ﴾** ما لكم كيف سوَّيتم بين الله وخلقه؟ وهلاَّ أخلصتم العبادة لله وحده؟ **﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنّاً﴾** وما يتَّبع أكثر هؤلاء المشركين إلا ما لا حقيقة له ولا صحة **﴿إنَّ الظنَّ لا يُغْني مِنَ الحقِّ شيئاً﴾** إن الشَّكَّ لا يغني من اليقين شيئاً **﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** إن الله عالم بما يفعله هؤلاء المشركون، وهو لهم بالمرصاد. **﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللهِ﴾** ما ينبغي لهذا القرآن أن يختلقه أحد، لأن ذلك لا يقدر عليه أحدٌ من الخلق. **﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يديهِ﴾** ولكنَّه أنزله الله مصدِّقاً لما سبقه من الكتب، كالتوراة والإنجيل وغيرهما. **﴿وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لا رَيْبَ فيهِ مِنْ رَبِّ العَالمينَ﴾** وتبيان الفرائض التي فرضها الله على المؤمنين، لا شك فيه أنه من عند رب العالمين، بلا افتراء ولا اختلاق. **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾** أم يقول هؤلاء المشركون: اختلق محمد هذا القرآن من نفسه. **﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾** قل لهم يا محمد: جيئوا بسورةٍ من مثل هذا القرآن، إن كان كما تزعمون أني اختلقتُه وافتريتُه. **﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** وادعوا من قدرتم عليه من أوليائكم وشركائكم من دون الله ليعينوكم، إن كنتم صادقين في أن محمداً افتراه. **﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾** بل كذَّب هؤلاء بالقرآن، ولمَّا يأتهم ما يئول إليه ذلك

---

(١) قال ابن كثير: المعنى: أفيَتْبَعُ العبدُ الذي يَهْدي إلى الحقِّ ويُبصِر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلَّا أن يُهدى لعماه وبكمه؟

قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

* * *

الوعيد الذي توعدهم به القرآن. ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ﴾ كذلك كذبت الأمم التي خلت قبلهم بوعيد الله. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالمينَ﴾ فانظر يا محمد كيف كانت عاقبة من كفر بالله؟ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ومن قومك من يُصدِّق بالقرآن، ومنهم من لا يُصدِّق ولا يُقرُّ به أبداً. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدينَ﴾ واللهُ أعلم بالمكذبين به، لا يخفى عليه أحدٌ منهم. ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ وإن كذبك هؤلاء المشركون، وردُّوا عليك دعوتك، فقل لهم: لي ديني وعملي، ولكم دينكم وعملكم. ﴿أَنْتُمْ بريئُونَ ممَّا أعملُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْملونَ﴾ لا تؤاخذون بجريرة عملي، ولا أؤاخذ بجريرة عملكم، وإنما يُجازى كلُّ عاملٍ بعمله. ﴿ومِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ومن المشركين من يستمع إلى قولك. ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ فهل أنت تخلق لهم السمع ولو كانوا لا يعقلون؟ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إليكَ﴾ ومن المشركين من ينظر إليك يا محمد، ويرى أعلام نبوتك. ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي العُمْيَ ولو كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾ أفانت تُحدث لهؤلاء أبصاراً،ولو كانوا عُمياً لا يُبصرون[1]؟ وهذا تسليةٌ للنبي ﷺ عمن كفر وكذَّب من قومه، وتعزيةٌ له برفع طمعه من إيمانهم ﴿إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ لا يظلم أحداً من خلقه بعقابه بذنبٍ لم يفعله ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ولكنَّ النَّاس هم الذين يظلمون أنفسهم، بارتكابهم ما يورثها غضب الله وسَخطه. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ويوم نجمع المشركين في موقف الحساب، كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا ساعةً من نهار[2]، يتعارفون فيما بينهم، ثم انقضت تلك الساعة وانقطعت المعرفة. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بلِقَاءِ اللهِ ومَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ قد هلك الذين جحدوا ثو ب الله وعقابه،

(١) هذا إرشادٌ من الله لعباده، أن التوفيق للإيمان بيده سبحانه، لا إلى أحدٍ سواه، فكما لا يقدر محمد ﷺ على خلق السمع للأصم، والبصر للأعمى، فكذلك لا يقدر أن يبصرهم سبيل الرشاد إلا بمشيئة الله عزَّ وجل

(٢) هذا دليل على قصر الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة كما قال تعالى ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاعٌ﴾.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾

***

وما كانوا موفقين لإصابة الرشد. ﴿**وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**﴾ وإمَّا نرينَّك يا محمد بعض الذي نعد هؤلاء المشركين به من العذاب، أو نتوفينَّك قبل أن نريك[١] ذلك. ﴿**فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ**﴾ فمصيرهم بكل حالٍ إلينا. ﴿**ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَى ما يَفْعَلُونَ**﴾ أنا شاهد على أفعالهم ومجازيهم بها، لا يخفى عليَّ شيء منها ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ**﴾ ولكل أمةٍ خلَتْ رسولٌ يدعو إلى دين الله وطاعته. ﴿**فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ**﴾ فإذا جاء رسولهم في الآخرة[٢]، قُضي حينئذٍ بينهم بالعدل. ﴿**وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ من جزاء أعمالهم شيئاً. ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ ويقول المشركون[٣]: متى قيام الساعة الذي تعدونا به، إن كنتم صادقين في ذلك؟ ﴿**قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إلَّا مَا شَاءَ اللهُ**﴾ قل لهم يا محمد: لا أقدر لنفسي على ضُرٍّ ولا نفع، إلا بإذنه تعالى، فكيف أقدر على الوصول إلى علم الغيب؟ ﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلُ**﴾ لكل قومٍ ميقاتٌ لانقضاء أجلهم. ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ فإذا جاء وقتُ فناء أعمارهم، لا يُمهلون فيؤخرون ساعة - برهةً من الزمن - ولا يتقدمون ذلك قبل الحين، الذي قدَّره الله وقضاه. ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً**﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً، وجاءت الساعة. ﴿**مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ**﴾ لماذا يستعجل من نزول العذاب المجرمون الذين كفروا بالله ورسوله؟ وهم الذين يَصْلون حرَّه دونَ غيرهم، أيقدرون على دفعه عن أنفسهم؟ ﴿**أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ**﴾ أهنالك إذا

---

(١) الغرضُ تسلية الرسول ﷺ لتكذيب قومه والمعنى إما أن ننتقم منهم في حياتك لنقرَّ عينك، أو نترك عقابهم إلى الآخرة لننتقم منهم أشد الإنتقام.

(٢) كل أمةٍ تُعرض على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر شاهدٌ عليها، وحفظتُهم من الملائكة كذلك شهود، وهذه الأمة - وإن كانت آخر الأمم في الخلق - إلا أنها أول الأمم يُقضى لهم يوم القيامة، وقد حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله عليه. «مختصر ابن كثير ٢ / ١٩٦»

(٣) يريد بهم كفار مكة، فقد كانوا لفرط إنكارهم يقولون متى القيامة التي يعدنا بها محمد وأصحابه؟!

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ

* * *

وقع عذابُ الله بكم صدَّقتم به، في حالٍ لا ينفعكم التصديق. ﴿الآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ويُقال لكم: الآن تُصدِّقُون به، وقد كنتم قبل الآن تكذّبون بنزوله؟ فذوقوا ما كنتم به تكذّبون. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ﴾ تجرَّعوا عذاب الله الدائم، الذي لا فناء له ولا زوال. ﴿هَلْ تُجْزَونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ انظروا هل تُثابون إلا بما كنتم تعملونه في حياتكم من معاصي الله؟ ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ ويستخبرك هؤلاء المشركون فيقولون: أحقٌّ ما تَعِدنا به من عذاب الله؟ ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ قل نعم وربي، إنه لحقٌ لا شك فيه. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لا تفوتون ربكم، وأنتم في قبضته وملكه وسلطانه. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولو أنَّ لكل نفس عبدتْ غير الله، وتركت طاعته، ما في الأرض من قليلٍ وكثير، لافتدت بذلك كله من عذاب الله إذا عاينَتْه. ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأخفى رؤساهم الندامة، حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وحكم الله بين الأتباع والرؤساء بالعدل، ولا يُظلم أحد فيعاقب بذنب غيره، ولا يُعذَّب إلا بعد الإعذار والإنذار. ﴿أَلَا إِنَّ للهِ ما في السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كلُّ ما في السموات والأرض ملكٌ لله، لا شيء فيه لأحدٍ سواه، فليس للكافر شيءٌ يملكه حتى يفتدي به من عذاب الله ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عذابُ الذي أوعد به المشركين حقٌّ لا شكَّ فيه، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون حقيقة الأمر، فهم من أجل ذلك مكذّبون. ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ اللهُ هو المحيي المميت، وإليه مرجع الخلق بعد مماتهم، فيلقون ما كانوا به مكذبين من عذاب الله وعقابه.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يا أيها الناس قد جاءكم القرآن ذكرى من عند ربكم، يذكّركم عقاب الله ويخوّفكم وعيده. ﴿وَشِفَاءٌ لما في الصُّدُورِ﴾ ودواءٌ لما في الصدور من الجهل. ﴿وَهُدىً ورحمة للمؤمنينَ﴾ وبيان للحلال والحرام، ورحمة يرحم الله به من شاء من خلقه، فينقذهم به من الضلالة إلى الهدى[1]، وينجيهم من الهلاك والرَّدى. ﴿قُلْ بفَضْل اللهِ وَبرَحْمَتِهِ فبذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ قُلْ:

(١) القرآن علاج للأمراض، وشفاء من الأسقام، يشفي الله به جهل الجهال فيبرىء داءهم، وينقذهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والعرفان، ويهدي به من شاء من خلقه، قال القرطبي شفاء من الشك والنفاق، والخلاف والشقاق

هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

* * *

بالإسلام وبالقرآن فبذلك فليفرحْ هؤلاء المشركون ﴿هُوَ خيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هو خير مما يجمعون من حُطام الدنيا وكنوزها. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ لكم من رزقٍ﴾ قل يا محمد: أرأيتم أيها الناس ما خلق الله لكم من الرزق والأطعمة. ﴿فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً﴾ فحلَّلتم بعضه وحرَّمتم بعضه، كالبحيرة والسائبة ونحو ذلك. ﴿قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أم عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾ قل لهم: هل الله أذن لكم بأن تُحرِّموا ما حرَّمتم منه، أم على الله تقولون الباطل وتكذبون؟ ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ وما ظنُّ الذين يتخرصون الكذب على الله، أنه فاعلٌ بهم يوم القيامة؟ أيظنون أنه يصفح عنهم ويغفر؟ كلَّا بل يصليهم سعيراً. ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ ذو تفضل على خلقه بترك معاجلة عقوبتهم، ولكنَّ أكثرهم لا يشكرونه على نعمه. ﴿وَمَا تَكُونُ في شَأْنٍ﴾ وما تكون يا محمد في عملٍ من الأعمال. ﴿وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ وما تقرأ من كتاب الله من قرآن. ﴿وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ ولا تعملون من عملٍ من خير أو شرّ، إلا ونحن شهود على أعمالكم وشؤونكم، نعلمها ونحصيها عليكم حين تعملونها وتأخذون فيها. ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأَرْضِ وَلاَ في السَّمَاءِ﴾ وما يغيب عن ربك يا محمد ولا يخفى عليه، أصغرُ الأشياء ولا أكبرها، من زنة نملةٍ[1] صغيرةفي الأرض ولا في السماء. ﴿وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ في كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ولا أصغر من مثقال الذرة ولا أكبر منها، إلا هو في كتابٍ عند الله واضح هو اللوح المحفوظ. أخبر تعالى أنه لا يخفى عليه أصغر الأشياء وإن خفَّ في الوزن، ولا أكبرها وإن ثَقُلَ وزنهُ، وأنه لا يغيب عن اللهِ علمُ شيء من خلقه، حيث كان من سمائه وأرضه. ﴿أَلَا إِنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ألا إن أنصار الله وأحبابه، لا خوفٌ عليهم في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا

---

(١) وقيل: المراد بها الذرة من التراب أو الهباءة التي تدخل من كوة النافذة مع شعاع الشمس، وهو الأرجح والأظهر.

لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى

* * *

﴿يَتَّقُونَ﴾ الذين صدَّقوا الله ورسوله، واتَّقوا ربهم بأداء فرائضه واجتناب معاصيه[1] ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لهم البشارة من الله في الدنيا، بالرؤيا الصالحة، وتبشير الملائكة له عند قبض روحه برحمة الله ورضوانه. ﴿وفِي الآخرةِ﴾ وفي الجنة[2] ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ لا خُلْف لوعد الله ولا تغيير. ﴿ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ ذلك هو الظفر العظيم ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ ولا يحزنك يا محمد قول هؤلاء المشركين في ربهم القول الباطل، وإشراكهم معه الأصنام والأوثان. ﴿إِنَّ العِزَّةَ للهِ جميعاً﴾ هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، المنتقم من هؤلاء المشركين. ﴿هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ السميع لأقوالهم، العليم بنيَّاتهم، وهو لهم بالمرصاد ﴿أَلَا إِنَّ للهِ مَنْ فِي السَّموَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ ملكاً وعبيداً، فكيف تكون الأصنام آلهةً وهي لله ملك؟ وإنما العبادةُ للرب دون المربوب ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ﴾ وأيُّ شيء يتَّبع من يقول: لله شركاءُ في سلطانه وملكه كاذباً؟ والله المنفرد بملك كل شيء. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ما يتَّبعون في دعواهم إلَّا الشَّكَّ، وما هم إلا يتقوَّلون الباطل، تخرصاً عن غير علم بما يقولون. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ والنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ ربكم هو الربُّ الذي خلق لكم الليل، لتسكنوا فيه من التَّعب والنَّصَب، وجعل النهار مضيئاً لمعاشكم ومصالحكم. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يسمعون هذه الحجج ويتفكرون فيها، فيعتبرون ويتَّعظون.. فهذا الذى يفعل ذلك هو ربكمُ الذي خلقكم وما تعبدون، لا ما لا ينفع ولا يضرُّ. ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ قال المشركون من قومك: الملائكةُ بناتُ الله. ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الغَنِيُّ﴾ تنزيهاً للهِ عما يقولون، فإن الله غنيٌّ عن خلقه، لا حاجة به إلى ولد. ﴿لَهُ مَا فِي السَّموَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾

(١) هذا هو القول الفصل في تعريف الولي، وهو المؤمن المتقي لله ﴿الذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾ فكلُّ مؤمن تقي هو وليٌّ لله، وفي الحديث «إنَّ من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يَغْبطهم الأنبياءُ والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا يا رسول الله: أخبرنا مَن هم؟ وما أعمالهم؟ قال: هم قوم تحابُّوا في الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ الآية ﴿ألا إن أولياء الله..﴾ الآية، الطبري ١١ / ١٣٢.

(٢) وقيل المراد بالآخرة هنا القبر، لأنه أول منازل الآخرة، وفيه يُبشِّر المؤمن برضوان الله عند سؤال الملكين، والله أعلم

ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ * وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

* * *

له جلَّ وعلا ملك جميع ما في السموات والأرض، فكيف يكون له ولد مما خلق وكلُّ شيء عبدٌ مملوكٌ له؟ أفلا تعقلون خطأ ما تقولون؟ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ ما عندكم من حجة تحتجون بها. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أتضيفون إلى الله ما لا يجوز إضافته بغير حجة ولا برهان؟ وتقولون قولاً لا تعلمون صحته؟ ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ قل لهم يا محمد: إن الذين يقولون على الله الباطل، ويزعمون له ولداً، لا يبقون في الدنيا ولا يُخلَّدون. ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ لهم متاعٌ في الدنيا، يتمتَّعون به إلى انقضاء آجالهم. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم إذا انقضى أجلهم، فإلينا مصيرهم ومنقلبهم. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ثم نُصليهم جهنم، بكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ واقصص على هؤلاء المشركين خبر نوح عليه السلام. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ﴾ حين قال لقومه: إن كان عَظُمَ عليكم مقامي بين أظهركم، ووعظي إياكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ فاعزموا أمركم، وادعوا شركاءكم ـ آلهتكم وأوثانكم ـ ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ لا يكن أمركم مستوراً، بل مكشوفاً مشهوراً ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ أنفذوا ما تحدِّثون به أنفسكم ولا تؤخرون.. وهذا خبرٌ من الله عن نوح أنه بنصر الله واثق، ومن كيدهم غير خائف، وأن آلهتهم لا تضرُّ ولا تنفع، وفيه حثٌّ لنبيه محمد ﷺ على التأسي به عليه السلام ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ فإن أعرضتم عمَّا دعوتكم إليه من الحقِّ، فإني لم أسألكم عليه أجراً، ولا طلبت منكم ثواباً ولا جزاءً. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ ما جزائي وثوابي إلا على ربي. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المنقادين لأمره، المتذللين له بالخشوع

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ

***

والطاعة ﴿فَكَذَّبُوهَ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ في الفُلْكِ﴾ فكذبوا نوحاً فنجيناه ومن ركب معه في السفينة. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ﴾ وجعلنا الذين ركبوا في السفينة خلائف في الأرض. ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وأغرقنا الذين كذبوا بحججنا وأدلتنا. ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ فانظر يا محمد كيف كانت عاقبة تكذيبهم لرسولهم، ألم نهلكهم حين تمادوا في كفرهم وطغيانهم؟ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إلى قَوْمِهِمْ﴾ ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم .﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فأتوهم بالحجج والأدلة الدالة على صدقهم. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ فما كانوا ليصدِّقوا بما جاءتهم به رسلهم، بما كذَّب به قوم نوح والأمم الخالية قبلهم[1] ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ كما طبعنا على قلوب أولئك، وختمنا عليها بما اجترموا من الذنوب والآثام، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى فجاوز أمر الله، وخالف رسله.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهَرُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ بِآيَاتِنَا﴾ ثم بعثنا من بعد هؤلاء الرسل موسى وهارون، إلى فرعون مصر وأشراف قومه وسادتهم، بحججنا وبراهيننا الدالة على صدقهما. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾ فاستكبروا عن الإقرار بدعوة موسى وهارون، وكانوا آثمين بكفرهم بربهم. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ فلما أتتهم الحجج من عند الله، قالوا: إنَّ هذا لسحرٌ ظاهر، يبين لمن عاينه أنه سحر. ﴿قَالَ موسى أتقولون للحقِّ لَمَّا جاءكم أسحرٌ هذا﴾ قال لهم موسى: أتقولون للآيات التي جاءتكم من عند الله أنها سحر؟ أسحرٌ هذا الحقُّ الذي ترونه[2]؟ ﴿ولا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ ولا يفوز بالمطلوب ولا ينجح من تعاطى السحر ﴿قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قال فرعون وملؤه لموسى: أجئتنا لتصرفنا وتلويَنا عن الدين الذي كان

(١) هكذا فسره الطبري، وقال ابن كثير: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أُرسلوا إليهم. ولعل هذا المعنى أظهر والله أعلم.

(٢) نبه الشيخ الطبري على أن في الآية محذوفاً، حُذف اكتفاءً بدلالة الكلام عليه، تقديره: أتقولون إنه سحر، فحذف لدلالة قوله ﴿أسحرٌ هذا﴾؟ وهو كلام وجيه.

لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

* * *

عليه آباؤ نا. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ في الأَرْضِ﴾ وتكون لكما العظمة والسلطان في الأرض ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ وما نحن بمقرين بنبوتكما. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُوني بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيم﴾ وقال فرعون لقومه: ائتوني بكل ساحرٍ عليم بالسحر ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ألقوا ما أنتم ملقون من حبالكم وعصيكم. ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ فلما ألقوا حبالهم وعصيَّهم قال لهم موسى: إن الذي جئتم به أيها السحرة هو السِّحرُ بعينه، وإن الله سيذهبه. ﴿إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدِينَ﴾ لا يصلح عمل من سعى في الأرض بالفساد، وعمل فيها بمعاصي الله ﴿وَيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ﴾ ويُثبت اللهُ الحقَّ ويُعليه على الباطل بأمره، ولو كره المجرمون ذلك. ﴿فما آمَنَ لِمُوسَى إلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ فلم يؤمن لموسى - مع ما أتاهم به من الحجج والأدلة - إلاَّ فئة قليلة من بني إسرائيل[1] خوفاً من بطش فرعون وأشراف قومه، وخشية أن يفتنوهم عن دينهم ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ في الأَرْضِ﴾ جبار مستكبر على الله في أرضه. ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الكفر والضلال ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُم بِاللَّهِ﴾ إن كنتم أقررتم بوحدانية الله، وصدَّقتم بربوبيته. ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ فبالله فثقوا، ولأمره فسلِّموا، إن كنتم مذعنين له بالطاعة. ﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فقالوا على الله اعتمدنا، وإليه فوضنا أمرنا. ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لا تجعلنا محنةً لقوم فرعون وبلاءً، قال مجاهد: لا تُسلِّطهم علينا فيفتنونا ويُضلُّونا[2]. ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وخلِّصنا يا ربنا من

---

(١) هذا هو الظاهر أن الضمير «قومه» يعود على موسى أي قوم موسى وهو اختيار الطبري، وذهب ابن كثير إلى عود الضمير على فرعون أي من قوم فرعون، والأول أظهر والله أعلم.

(٢) هذه إحدى الروايتين عن مجاهد، والأخرى: ربنا لا تعذبنا بأيدي قوم فرعون ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كانوا على حق ما =

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ * وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾

* * *

أيدي القوم الكافرين، قوم فرعون ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ اتَّخذا لقومكما بمصر بيوتاً. ﴿واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ واجعلوا بيوتكم مساجد تُصلُّون فيها. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ وأدُّوا الصلاة بحدودها في أوقاتها. ﴿وَبَشِّرِ المؤمنينَ﴾ بالثواب الجزيل والنصر المبين ﴿وقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ﴾ أعطيت فرعون وكبراء قومه وأشرافهم. ﴿زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زينة من أثاث الدنيا ومتاعها، وأموالاً من الذهب والفضة في هذه الحياة. ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سبيلِكَ﴾ ربنا أعطيتهم ما أعطيتهم، كي يُضِلُّوا عبادك عن دينك. ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ربنا أهلكْ أموالهم ودمِّرها، واطبع على قلوبهم حتى لا تلين، ولا تنشرح بالإيمان. ﴿فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ فلا يؤمنوا حتى يَرَوْا الغرق[1] ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ أجيبت دعوتكما على فرعون وأشراف قومه، فامضيا لأمري، واثبتا على دعوة فرعون وقومه، إلى أن يأتيهم عقابُ الله[2] ﴿ولا تَتَّبِعَانِّ سبيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ولا تسلكان طريق الجهلة فتستعجلان قضائي، فإن وعدي لا يُخلف. ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إسرائيلَ البَحْرَ﴾ وقطعنا ببني إسرائيل البحر حتى جاوزوه. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً﴾ فتبعهم فرعون وجنوده، ظلماًواعتداءً عليهم. ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكهُ الغَرَقُ﴾ حتى إذا أحاط به الغرق، وأيقن بالهلاك. ﴿قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسْلِمِينَ﴾ قال فرعون: آمنتُ بالله الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المعترفين له بالعبودية، المنقادين له بالطاعة[3]. ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسدينَ﴾ الآن تُقرُّ لله بالعبودية، وتُخلص له الألوهية،

=عُذِّبوا ولا سُلِّطنا عليهم فيفتنوا بنا، وهذه أظهر.

(١) هذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، حيث تبيَّن له انه لا خير فيهم، ولا يُرجى منهم الإيمان، وخشي إن استمروا على طغيانهم أن يضلوا بني إسرائيل، ولذلك دعا عليهم.

(٢) قال ابن جريج: مكث فرعون بعد هذه الدعوة أربعين سنة، حتى أهلكه الله.

(٣) آمن فرعون حين لا ينفعه الإيمان، وقد كان قبل ذلك طاغياً متمرداً على الله، وقد بلغ ذروة الجبروت والطغيان حين قال «أنا ربكم=

فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

* * *

وقد عصيته قبل ذلك، وكنت من المفسدين في الأرض؟ ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ فاليوم نجعلك ناجياً بجسدك، ينظر إليك هالكاً من كذَّب بهلاكك، لتكون لمن بعدك عبرةً، **قال ابن عباس**: إن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يُلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا موته وهلاكه. ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُون﴾ وإن كثيراً من الناس، عن حججنا وأُدلتنا لساهون، لا يتفكرون فيها ولا يعتبرون ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل صدق ـ مصر والشام ـ ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقناهم من الرزق الحلال. ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فما اختلفوا في أمر نبوة محمد، إلَّا من بعد ما جاءهم كتابُ الله الذي أنزله[1] ﴿بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ اعتداءً بينهم أهلِ الأهواء. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إن ربك يفصل بينهم يوم القيامة، فيما اختلفوا فيه من أمر محمد ﷺ فيدخل المؤمنين الجنة، والمكذبين النار. ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ فإن كنت يا محمد في شكٍ[2] من حقيقة ما أخبرناك به ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فاسأل أهل التقوى وأهل الإيمان من أهل الكتاب، ممن أدرك حياتك كعبد الله بن سلام ونحوه. ﴿لقد جاءك الحقُّ من ربكَ﴾ والله لقد جاءك الحقُّ اليقين من الخبر، بأنك رسول الله، وأن اليهود والنصارى يجدون نعتك في كتبهم. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ من الممترينَ﴾ فلا تكونن من الشاكين في صحة ذلك. **قال قتادة**: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: لا أشكُّ ولا أسأل ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ولا تكوننَّ من الذين كذَّبوا بحجج الله وأدلته، فتكون ممن

= الأعلى» فلما علته أمواج البحر وغشيته كرب الموت آمن بالله ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾ وروي عن ابن عباس أن جبريل كان يدسُّ في فم فرعون الطين مخافة أن تدركه رحمة الله

(١) كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته، والإقرار بمبعثه، للوصف الذي يجدونه عندهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

(٢) هذا من أساليب العرب في التفنن في تفهيم المخاطب، لإقامة الحجة عليه والبرهان، يقول الرجل لابنه: إن كنت ابني فلا تعص أمري، وهو لا يشك أنه ابنه، فكذلك رسول الله ﷺ لم يكن شاكاً في حقيقة خبر الله، وإنما خاطبه ربه بلسان قومه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ﴾

***

خسر آخرته، لأنه باع رحمة الله ورضاه بسخطه وعقابه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إن الذين وجبت عليهم لعنة الله وسخطه، لا يصدّقون بوحدانية ربهم، ولا يُقرّون برسالتك. ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأليمِ﴾ ولو أتتهم كل موعظةٍ وعبرة، حتى يعاينوا العذاب الموجع، كما لم يؤمن فرعون وقومه حتّى عاينوا العذاب الأليم. ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ فما كانت قرية آمنت عند معاينتها العذاب، فنفعها إيمانها في ذلك الوقت، إلا قوم يونس خاصةً فقد نفعهم إيمانهم بعد نزول العقوبة من بين سائر الأمم. ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لمَّا صدَّقوا رسولهم وأقرُّوا بما جاءهم به، كشفنا عنهم عذاب الهوان والذل في حياتهم الدنيا. ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ وأخرنا في آجالهم، يستمتعون في الدنيا إلى حين مماتهم، وفناء أعمارهم. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ ولو شاء ربك يا محمد لآمن جميعُ أهل الأرض، ولكن لم يشأ ذلك، لأنه سبق في قضاء الله، أنه لا يؤمن بك إلا من سبقت له السعادة في الكتاب الأول ـ اللوح المحفوظ ـ ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أفأنت تلزمهم أن يؤمنوا بك بالإكراه؟ ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بقضاء الله، فلا تُجهدنَّ نفسك في طلب هداهم. ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ ويجعل الله سخطه وغضبه، على الذين لا يعقلون حجج الله ومواعظه، الدالة على توحيده، ونبوة رسوله محمد ﷺ ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: انظروا ماذا في السموات، من الآيات الدالة على توحيد الله، من شمسها وقمرها، وليلها ونهارها، ونزول غيثها من سحابها؟ وماذا في الأرض، من جبالها وأنهارها، وتصدّعها بنباتها، وسائر عجائبها؟ فإن في ذلك لكم ـ إن عقلتم وتدبرتم ـ موعظةً ومعتبراً. ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُر عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وماذا تغني الحجج والعبر، والرسل المنذرة عقاب الله، عن قومٍ قد سبق لهم من الله الشقاء، فهم لا يؤمنون ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ

ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ

***

﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فهل ينتظر هؤلاء المشركون، إلا يوماً يعاينون فيه عذاب الله، مثل وقائع أسلافهم الذين مضوا قبلهم، كقوم نوح، وعادٍ، وثمود؟ ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ قل لهم: انتظروا عقاب الله، إني من المنتظرين هلاككم وبواركم. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم نُنجّي هناك رسولنا محمداً ﷺ، ومن آمنَ به وصدَّقه، كما فعلنا قبل ذلك برسلنا، فأنجيناهم من عذابنا. ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ المؤمنين﴾ كذلك نُنجي المؤمنين حقاً من غير شك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن كنتم في شكٍّ من ديني الذي أدعوكم إليه. ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ فإني لا أعبد الآلهة والأوثان، التي تعبدونها من دون الله، التي لا تسمع ولا تُبصر[1] ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ولكن أعبد الله الذي يقبض أرواحكم، فيميتكم عند انتهاء آجالكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمرني ربي أن أكون من المصدِّقين بما جاءني من عنده. ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً﴾ وأمرني أيضاً بأن أستقيم على دين الإسلام، غير معوجّ إلى يهوديةٍ ولا نصرانيةٍ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولا تكونن ممن أشرك في عبادة ربه غيره. ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ ولا تعبدَ غير الله، ممَّا لا يضر ولا ينفع كالآلهة والأصنام. ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإن فعلت ذلك فعبدتها من دون الله، فقد ظلمت نفسك بتعريضها لعذاب الله. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ وإن يُصبك الله بشدةٍ أو بلاء، فلا كاشف لذلك إلاَّ ربك، دون الآلهة والأنداد. ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وإن يردك بنعمةٍ ورخاء، فلا يقدر أحدٌ أن يحول بينك وبين ذلك ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يصيب بالرخاء والبلاء، والسَّراء والضرَّاء، من يريد من عباده

(١) في الآية الكريمة منزعٌ لطيف، وتعريضٌ بالمشركين ظريف، في غاية الحسن والجمال، فكأنه يقول: إن كنتم في شكٍّ في ديني، فلا ينبغي لكم أن تشكُّوا فيه، وإنما ينبغي أن تشكُّوا فيما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، التي لا تسمع ولا تضر ولا تنفع، فأما ديني فلا ينبغي لكم أن تشكُّوا فيه، لأني أعبد الخالق القادر الرازق، الذي يحيي ويميت، وينفع ويضرُّ، وهو القاهر فوق عباده، وأما أنتم فتعبدون ما لا يسمع ولا ينفع، وهذا ما يهدف اليه النص الكريم

وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

* * *

﴿وهوالغفورُالرحيمُ﴾وهو الغفورُلذنوب من تاب وأناب، الرحيمُ بمن آمن وأطاع. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءكم الحقُّ من ربكم﴾ قد جاءكم القرآن فيه الهدى والبيان. ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ فمن سلك سبيل الحق واستقام، فإنما بغى الخير لنفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومن اعوجَّ عن الحقِّ وزاغ، فإنما جنى على نفسه لا على غيرها. ﴿وَمَا أنا عليكم بوكيلٍ﴾ ولست بمسلَّط على تقويمكم، وإنما أنا رسول مبلِّغ. ﴿وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إليكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ﴾ تمسَّك يا محمد بما أوحاه الله إليك وأنزله عليك، واصبر على ما نالك من الأذى والمكاره، حتى يقضي الله بينك وبينهم ﴿وَهُوَ خيرُ الحاكمين﴾وهو خير الفاصلين بين عباده، يقضي بالحق، ويحكم بالعدل.

«تمَّ بعونه تعالى تفسير سورة يونس»

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾

***

﴿الٓر﴾ تقدم تفسيره[١] ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه﴾ هذا القرآن كتابٌ أُحكمت آياتُه من الخلل والباطل[٢] ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خبيرٍ﴾ ثم بُيِّنَتْ ووضّحت بالحلال والحرام، والأمر والنهي، من عند الله الحكيم بتدبير الأمور، الخبير بمصالح العباد. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ﴾ بأن لا تعبدوا إلا الله وحده، وتخلعوا عبادة الآلهة والأنداد. ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ إني لكم نذير من عند الله، أنذركم عقابه على معاصيه، وأبشركم ثوابه على طاعته ﴿وَأَنِ استغفروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ وأن استغفروا ربكم من الشرك والمعاصي ثم ارجعوا إليه بإخلاص العبادة. ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حسناً إلى أجلٍ مُسَمًّى﴾ يمتعكم في الدنيا بالأرزاق، والنِّعم، والخيرات، ويُؤخّـرْ لكم في آجالكم إلى الموت. ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعطي كل محسنٍ متفضلٍ بماله ومعروفه، أجزل الثواب وأفضله في الآخرة. ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وإن أعرضوا عمَّا دعوتهم إليه، فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم

---

(١) التحقيق أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز، الذي أفحم العلماء والأدباء، والفصحاء والبلغاء، منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية.

(٢) أحكم الشيء: أصلحه وأتقنه، وفصّله: بيّنه ووضحه،قال قتادة: أحكم الآيات من الباطل، ثم فصّلها بعلمه، فبيّن حلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته.

إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ

***

الهول، كبير الشأن. ﴿إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إلى الله مصيركم فاحذروا عقابه، وهو القادر على ما يشاء، من الإحياء والإفناء، والثواب والعقاب. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ ألا إن المشركين يحنون صدورهم جهلاً منهم بالله، وظناً أن الله يخفى عليه ما تضمره نفوسهم، ليستخفوا من الله[1]. ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ألا حين يتغطى هؤلاء الجهلة بثيابهم، فإن الله لا يخفى عليه حالهم، سواءً تغشّوا بالثياب أو ظهروا بالعراء، لأنه تعالى يعلم سرائر العباد وعلانيتهم، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فاحذروا أن تضمروا في صدوركم الشك والنفاق فتهلكوا. ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾ وما من دابة تدبُّ على الأرض - إنسان أو حيوان - إلا وقد تكَفَّل الله برزقها، وقوتها، وغذائها. قال الضحاك: كلُّ دابة تدب على الأرض، والنَّاسُ منهم. ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ ويعلم مأواها الذي تأوي إليه ليلاً أو نهاراً، وموضعها الذي تُودع فيه بعد موتها، قال ابن عباس: المستقر حيثُ تأوي، والمستودع حيثُ تموتُ. ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كلُّ ذلك مثبتٌ مكتوب عند الله في اللوح المحفوظ، قبل أن يخلق الخلائق ويوجدها. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ اللهُ جل وعلا هو الذي خلق السمواتِ والأرض في ستة أيام، أفيعجز أن يُعيدكم أحياء بعد أن يُميتكم؟ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ﴾ وكان عرشه على الماء[2] قبل أن يخلق السمواتِ والأرض. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ليختبركم أيكم أحسنُ له طاعة[3] ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ﴾ ولئن قلت لهؤلاء المشركين: إنكم ستبعثون أحياء بعد مماتكم. ﴿لَيَقُولَنَّ

---

(١) الضمير في «منه» يعود إلى الله أي ليستخفوا من الله، وهذا ما رجحه الطبري، وهو الظاهر، وروي أن المنافقين كان أحدهم إذا مرَّ بالنبي ﷺ ثنى صدره، وتغطى بثوبه، كي لا يراه النبي ﷺ فالضمير على هذا يعود على النبي ﷺ، وما ذكره الطبري أرجح لأن ما بعده يدل عليه﴿يعلم ما يسرون﴾ فإن الضمير ههنا يعود على الله عز وجل، والتناسق بين الكلام أنسب والله أعلم.

(٢) في الآية دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل خلق الأرض والسماء.

(٣) قال ابن كثير: لم يقل: أيكم أكثر عملاً بل ﴿أحسنُ عملاً﴾ ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد واحداً من الشرطين حبط العمل وبطل. المختصر ٢ / ٢١٢

هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

***

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مبينٌ﴾ ليقولُنَّ: ما هذا الذي تتلوه علينا إلَّا سحرٌ، ظاهرٌ أنه سحرٌ لسامعه. **﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾** ولئن أخرنا عن هؤلاء المشركين العذاب إلى وقت محدود **﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾** ليقولن: أيُّ شيء يؤخر هذا العذاب عنَّا يقولونه سخريةً واستهزاءً، وتكذيباً منهم بوعيد الله. **﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾** ألا يوم يأتيهم العذاب الذي يكذبون به، فلن يصرفه عنهم صارف، ولن يدفعه عنهم دافع. **﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** ونزل بهم وأصابهم العذاب، الذي كانوا يسخرون منه بقولهم «ما يحبسه»؟ **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾** ولئن بسطنا على الإنسان الرزق، والرخاء، وسعة العيش. **﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾** ثم سلبناه ذلك. **﴿إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ﴾** فإنه يظلُّ قانطاً من رحمة الله، يائساً من الخير، قليل الشكر لربه، جاحداً لنعمه. **﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاه نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾** ولئن رزقناه رخاءً في العيش، ووسَّعنا عليه في الرزق، بعد العسرة وضيق العيش. **﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾** ليقولَنَّ عند ذلك: زالت الشدائد والمكاره عني. **﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾** فرحٌ بالنِّعم[1]، فخورٌ بمال نال، غيرُ شاكر لله. **﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾** إلا الذين صبروا عند البلاء والشدَّة[2]، وعملوا الصالحات في الرخاء والعافية أولئك لهم مغفرةٌ لذنوبهم، وجزاء عظيم على أعمالهم الصالحة **﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾** فلعلك يا محمد تاركٌ تبليغ بعض ما أوحاه الله إليك. **﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾** ويضيق صدرك عن تبليغه[3] **﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عليه كَنْزٌ﴾** مخافة أن يقولوا: هلاَّ أُنزل على محمد كنزٌ؟ **﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾** مصدقٌ له بأنه رسول الله. **﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾** ليس عليك إلا البلاغ

---

(١) المراد بالفرح فرح الأشر والبطر، والآية ذمٌّ لمن يقنط عند الشدائد، ويتكبر عند النعم.

(٢) «ال» في الإنسان للجنس ولهذا صحَّ الاستثناء ﴿إلا الذين صبروا﴾ لأن الجنس فيه معنى الجمع.

(٣) المقصود بالآية تسلية النبي ﷺ عن قول المشركين، حتى يبلِّغ الرسالة ولا يبالي بهم، وإنما قال «ضائق» ولم يقل: ضيِّق، ليدل على اتساع صدره عليه السلام وقلة ضيقه.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ

***

والإنذار. ﴿واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ بيده تدبير كل شيء، فبلِّغ ما أُمرتَ به. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أيقول المشركون: اختلق محمد هذا القرآن ونسبه إلى الله؟ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ قل لهم: إن كان ما أتيتكم به من القرآن مفترى، فأتوا بعشر سور مثل هذا القرآن مختلقاتٍ[1] ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ واستعينوا بمن شئتم من الخلق سوى الله، إن كنتم صادقين في دعواكم. ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ﴾ فإن لم تُطيقوا أنتم وأعوانكم على ذلك، فاعلموا وأيقنوا أنه إنما أُنزل من السماء على محمد ﷺ بعلم الله وإذنه، وأن محمداً لم يفتره ولا يقدر أن يفتريه. ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وأيقنوا أنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله. ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم مذعنون لله بالطاعة، ومخلصون له العبادة؟ ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَهَا﴾ من كان يقصد بعمله الصالح نعيم الدنيا فقط، ولا يعتقد بنعيم الآخرة ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فيها وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ﴾ نوفِّ إليهم أجور أعمالهم فيها، ولا يُنقصون شيئاً منها. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ هؤلاء ليس لهم إلا نار جهنم يصلونها ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وذهب ما عملوه في الدنيا، فأبطله الله وأحبط أجره، لأنهم كانوا يعملون لغير الله. ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ أفمن كان على برهانٍ من ربه وهو محمد ﷺ ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ ويتلو القرآن عليه شاهدٌ من الله وهو جبريل[2] عليه السلام. ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ ومن قبل القرآن كتاب

---

(١) كفى حجة على صدق محمد وصحة نبوته هذا القرآن المعجز، إذ هو ﷺ رجل واحد منهم، وقد تحداهم أن يأتوا بعشر سور، ثم بسورة من مثل القرآن، فعجزوا وانقطعوا، ومُحالٌ في العقل أن يقدر رجلٌ على أن يختلق مائة وأربع عشرة سورة، وهو واحد منهم، ولا يقدروا بأجمعهم أن يفتروا سورة من مثل القرآن مع التحدي لهم، ولا سيما وهم أرباب الفصاحة والبيان، فسبحان من أنزل هذا القرآن معجزةً لمحمد عليه السلام.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره الطبري، وقيل المعنى: ويتبع ذلك البرهان شاهد من الله وهو القرآن واختاره صاحب التسهيل

فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾

***

موسى ـ التوراة ـ إماماً لبني إسرائيل يأتمُّون به، ورحمةً من الله تلاه على موسى.. وفي الكلام محذوفٌ تقديره «أفمن كان على بيِّنةٍ من ربه» كمن هو في الضلالة متردِّد؟ ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ هؤلاء يُصدِّقون ويُقرّون بالقرآن. ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ ومن يجحد بهذا القرآن، من المشركين الذين تحزَّبوا على الباطل، فإنه يصير إلى النار بتكذيبه. ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ فلا تك في شكٍ من هذا القرآن. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ إنه حقٌ من الله لا شك فيه، ولكنَّ أكثر الناس لا يصدِّقون بذلك. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ أيُّ النَّاس أشدُّ عذاباً ممن اختلق الكذب على الله؟ ﴿أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ليسألهم عمَّا عملوا في الدنيا. ﴿وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ وتقول الملائكة والأنبياءُ[١] الذين شهدوا أعمالهم: هؤلاء الذين كذبوا في الدنيا على ربهم ﴿أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ألا غضب الله على الكافرين. ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ الذين يردُّون النَّاس عن الإيمان ويفتنونهم عن دينهم، ويلتمسون أن تكون سبيل الله ـ الإسلام ـ زيغاً وميلاً عن الاستقامة. ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم جاحدون بالبعث بعد الموت، منكرون له. ﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾ هؤلاء المشركون في قبضة الله وملكه، لا يعجزون ربهم هرباً، ولا يفوتونه طلباً، إذا أراد عقابهم والانتقام منهم. ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وليس لهم أنصار ينصرونهم من الله، ويحولون بينهم وبين عقابه. ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ يُزاد في عذابهم. ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ كانوا لا يستطيعون أن يسمعوا الحقَّ سماع منتفعٍ، ولا يُبصرونه إبصار مهتدٍ[٢]، لاشتغالهم بالكفر عن طاعة الله. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

---

(١) هذا قول مجاهد والضحاك واختاره الطبري، وقيل: الأشهاد الخلائق كلهم

(٢) قال ابن كثير: إن الله جعل لهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم، بل كانوا صماً عن سماع الحق، عمياً عن اتباعه، كما قالوا﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ مختصر ابن كثير ٢ / ٢١٦

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

***

يَفْتَرُونَ﴾ هؤلاء الذين خسروا أنفسهم، لأنهم أدخلوها ناراً حامية، وذهبت عنهم الأنداد والأصنام فلم تُغن عنهم شيئاً، ويطل كذبهم وإفكهم على الله، بادعائهم له شركاء. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ في الآخِرَةِ هُمُ الأَخسَرُونَ﴾ حقاً إن هؤلاء القوم هم الأخسرون، لأنهم باعوا منازلهم في الجنان بمنازل أهل النار ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ إن الذين صدَّقوا الله ورسوله، وعملوا بطاعة الله، وخشعوا وأنابوا إلى ربهم. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فيها خَالِدُونَ﴾ هؤلاء هم سكان الجنة، لابثون فيها إلى غير نهاية. ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كالأعمى وَالأَصَمِّ﴾ مثلُ فريقيْ أهل الكفر وأهل الإيمان: كمثل الأعمى الذي لا يرى شيئاً، والأَصم الذي لا يسمع شيئاً، فكذلك فريق أهل الكفر، لا يبصرون الحق، ولا يسمعون داعي الله إلى الرشاد، ﴿والبصِير والسَّمِيع﴾فكذلك فريق أهل الإيمان، أبصروا حجج الله، وسمعوا داعي الله فأجابوه وعملوا بطاعة الله. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ هل يستوي هذان الفريقان؟ فكذلك حال الكافر والمؤمن لا يستويان عند الله[1]. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون وتتفكرون؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إني لكم نذير من الله، أنذركم بأسه وعقابه. ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ بأن تخلصوا له العبادة، فإني أخاف عليكم عذاب يوم مؤلم عقابُه[2] ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ فقال الأشراف والكبراء من قومه، الذين جحدوا نبوة نوح: أنتَ آدميٌّ مثلنا في الخَلْق، والصورة، والجنس. ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ وما نرى أتباعك إلَّا السَّفلة[3]، دون الكُبراء والأشراف، فيما نرى ويظهر[4] لنا. ﴿وَمَا نَرَى لكم علينا مِنْ فَضْلٍ﴾ وما نرى لكم من مزية وشرف علينا فنتبعكم من أجله

(١) قال قتادة: هذا مثلٌ ضربه الله للكافر والمؤمن، فأما الكافر فصمٌّ عن الحق فلا يسمعه، وعمي عنه فلا يُبصره، وأما المؤمن فسمع الحق فانتفع به، وأبصره فحفظه وعمل به.

(٢) وصف اليوم بالأليم على وجه المجاز، لوقوع الألم فيه، فهو من باب المجاز العقلي.

(٣) إنما وصفوهم بذلك لفقرهم، جهلاً منهم وسفهاً، حيث اعتقدوا أن الشرف بالمال والجاه.

(٤) فسَّر الطبري «باديَ الرأي» فيما نرى ويظهر لنا، وفسَّره غيره بمعنى أول الرأي من غير نظرٍ ولا تدبُّر، فكأنهم قالوا: اتبعك الأرذال =

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾

***

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ بل نظنك يا نوح كاذباً في دعوى النبوَّة ـ أنت وأتباعك ـ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ قال لهم نوح: أخبروني إن كنت على علمٍ ومعرفة وبيانٍ من الله، يوجب عليَّ إخلاص العبادة له. ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ ورزقني منه النبوَّة والحكمة ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ فعمي عليكم إبصارُ الحقِّ. ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أنجبركم على الدخول في الإسلام، وأنتم كارهون لذلك. ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً﴾ لا أسألكم على نصيحتي أجراً فتتهموني في ذلك ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ﴾ ما ثوابي على نصيحتي إلا على الله، فهو الذي يجازيني ويثيبني عليه ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إنهم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ ولستُ بمقصٍ ومبعدٍ[1] من آمن بالله، إنهم صائرون إلى الله فسائلهم عن أعمالهم، لا عن شرفهم وحسبهم ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾ ولكني أراكم قوماً جهلة ولذلك سألتموني طردهم ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ويا قوم من يمنعني من الله، إن عاقبني على طرد المؤمنين الموحِّدين؟ أفلا تتفكرون فيما تقولون فتعلمون خطأه؟ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ﴾ ولا أقول لكم عندي خزائن الله، التي لا يُفنيها شيء فتتَّبعوني عليها. ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ولا أعلم ما خفي من سرائر العباد، فأدعي الربوبية ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ ولا أقول إني مَلَك أرسلتُ إليكم، بل أنا بشر مثلكم. ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً﴾ ولا أقول للذين آمنوا بالله، واحتقرتموهم فقلتم إنهم أراذلكم، لن يعطيهم الله الإيمان. ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الله أعلم بضمائر صدورهم، وهو وليُّ أمرهم ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ إني إن طردتهم أكون من المعتدين لأوامر الله. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فأتِنا بالعذاب الذي وعدتنا به، إن كنت صادقاً في

= من غير فكر ولا نظر، ولعل هذا القول أرجح والله أعلم.

(١) هذا يقتضي أنهم طلبوا من نوح طرد الضعفاء، وقالوا: إن أحببت أن نتّبعك فاطردهم، كما طلب كفار مكة من رسول الله ﷺ طرد المؤمنين، فنزل قوله تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه﴾.

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

***

دعواك ﴿قالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ قال لهم نوح: إنما يأتيكم بالعذاب الله إن شاء، ولستم بفائتيه هَرَباً، لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ ولا يفيدكم نصحي في تحذيركم من عقابه، لأن نصحي لا تقبلونه. ﴿إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ إن كان الله يريد أن يهلككم بعذابه ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو مالككم والمتصرف في شؤونكم، وإليه تُردُّون بعد الهلاك. ﴿أم يقولون افتراه﴾ أم يقول المشركون من قومك: اختلق محمد هذا القرآن[١]؟ ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ قل لهم: إن اختلقته وافتريته، فعليَّ إثمي في هذا الافتراء، ولا تؤاخذون بذنبي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وأنا بريءٌ من إجرامكم، لا أؤاخذ بذنبكم. ﴿وَأُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ أوحى الله ذلك إليه بعد ما دعا عليهم نوح بالهلاك، والمعنى: لن يُصدِّق بك ويتّبعك على دعوتك، إلا من قد آمن من أتباعك. ﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فلا تأس ولا تحزن عليهم، فإني مهلكهم ومنقذك منهم. ﴿وَاصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ واصنع السفينة كما نأمرك بعين[٢] الله ووحيه. ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ولا تسألني العفو عن هؤلاء الظالمين، إنهم مغرقون بالطوفان. ﴿وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ ويصنع نوحٌ السفينة، وكلما مرَّ عليه جماعة من كبراء قومه هزأوا منه، يقولون له: تحوَّلت نجاراً بعد النُبوَّة؟ ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فيقول لهم نوح: إن تهزأوا منا اليوم، فإنا نهزأ منكم في الآخرة[٣] كما

---

(١) الآية جيء بها اعتراضاً في ثنايا قصة نوح، للتنبيه على انَّ ما جاء به محمد ﷺ من القرآن، وما فيه من قصص الأنبياء، إنما هو بطريق الوحي من عند الله لا من وضع محمد كما زعموا.

(٢) معنى قوله﴿بأعيننا ووحينا﴾أي تحت نظرنا وحفظنا، وبتعليمنا لك كيف تصنعها.

(٣) هكذا فسَّرها الطبري، والظاهر أن المعنى فسنسخر منكم بعد قليل، حين نركب في السفينة فننجو وتغرقون بالطوفان، بدليل قوله بعدها﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾.

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾

***

تهزأون منا ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فسوف تعلمون إذا عاينتم عذاب الله من الذي كان مسيئاً إلى نفسه، ومن الهالكُ الذي يأتيه عذابٌ يهينه ويُذلّه ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ وينزل به في الآخرة عذابٌ دائم لا انقطاع له. ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ حتى إذا جاء وعدنا بالطوفان، وفار تنور الخبز[١]، الذي جعلنا فَوَرانه علامةً على مجيء عذابنا ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قلنا له: احمل في السفينة من كل صنفٍ من صنوف المخلوقات، زوجين ذكراً وأنثى. ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ واحمل أهلك أيضاً ـ أولادك ونساءك وأزواجك ـ إلاَّ من قضيتُ عليه بالهلاك منهم. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ واحمل معك من صدَّقك واتَّبعك من قومك ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ وما أقرَّ بوحدانية الله، وآمن مع نوح إلا قليلٌ من قومه[٢]. ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا﴾وقال نوح: اركبوا في السفينة، بسم الله حين تجري، وحين تقف. ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رحِيمٌ﴾ غفورٌ لذنوب من تاب رحيمٌ بهم. ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ في مَوْجٍ كالجِبَالِ﴾ والسفينة سائرة بنوح والمؤمنين، وسط أمواج كالجبال. ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ في مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ اركبْ مَعَنَا ولاَ تَكُنْ مَعَ الكَافِرِينَ﴾ ونادى نوح ابنه «يام»[٣] وكان في معزلٍ عنه يا بُنيَّ اركب معنا السفينة، ولا تكن مع الكافرين المغرقين. ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ قال ابن نوح: سأصير إلى جبل أتحصن به، فيمنعني من الغرق. ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ لا مانع يعصم[٤] اليوم من الغرق والهلاك، إلاَّ اللهُ إذا رحمنافأنجانا من عذابه. ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ

---

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالتنور وجهُ الأرض، وهذا القول مرويٌ عن ابن عباس، واختار الطبري أن المراد به التنور الذي يخبز فيه لأن ذلك هو الأغلب الأشهر عند العرب، فقد جعله الله علامة على هلاكهم، ويشهد للأول قوله تعالى﴿وفجرّنا الأرض عيوناً﴾ والله أعلم.

(٢) روي عن ابن عباس أنهم كانوا ثمانين نفساً، وقيل: عشرة، واختار الطبري عدم التحديد.

(٣) المشهور عند المفسرين أن اسمه «كنعان» فهو الذي لم يؤمن وكان من المغرقين.

(٤) وقيل:﴿لا عاصم﴾ أي لا معصوم إلا من رحمه الله تعالى.

وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ

***

﴿مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ وحال بين نوح وابنه الموج، فكان ممن أهلكه الله بالغرق. ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابلعي مَاءَكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعي﴾ وقال الله للأرض بعد هلاك قوم نوح: اشربي ماءك، ويا سماءُ أمسكي عن المطر. ﴿وَغِيضَ الماءُ وَقُضِي الأَمْرُ﴾ ونشف الماءُ، وقُضِي أمرُ الله بهلاك قوم نوح. ﴿واستَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ وأرست السفينة على جبل الجودي[1] ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ هلاكاً وخساراً للقوم الظالمين، الذين كفروا بالله من قوم نوح. ﴿وَنَادَى نوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إنَّ ابني مِنْ أَهْلِي﴾ إنَّ ابني من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الحقُّ وأنتَ أَحْكَمُ الحَاكِمينَ﴾ ووعدك الحقُّ الذي لا يُخلف، وأنت الحاكم بالحقّ، فاحكم لي بما وعدتني من نجاة أهلي. ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غيرُ صَالِح﴾ إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك، إنه عمِلَ عملاً غير صالح ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ أخبرتك عن سبب إهلاكي ابنك، فلا تسألن بعدها عمّا قد طويت علمه عنك، إني أعظك أن تكون من الجاهلين في سؤالك ذلك. ﴿قَالَ رَبِّ إنّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ﴾ أستجير بك أن أتكلّف مسألتك مما قد استأثرت بعلمه. ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لي وَتَرْحَمْني أَكُنْ مِنَ الخَاسِرينَ﴾ وإن لم تغفر لي زلتي، وتنقذني من غضبك، أكن من الهالكين. ﴿قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ قال الله لنوح: اهبط من السفينة إلى الأرض بأمن منا، وببركاتٍ عليك وعلى قرونٍ تجيء من ذرية من معك، ممن سبقت لهم من الله السعادة. ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ وقرونٌ وجماعة سنمتّعهم في الحياة الدنيا، ونرزقهم فيها إلى انتهاء آجالهم، ثم نذيقهم في الآخرة عذاباً مؤلماً موجعاً، وهم الذين سبق لهم في علم الله وقضائه الشقاوة ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ هذه

---

(١) هو جبلٌ بناحية الموصل في العراق كذا ذكر المفسرون.

لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

***

القصة هي من أخبار الغيب التي لم تشهدها، نوحيها إليك يا محمد. ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها، من قبل هذا الوحي الذي أوحيناه إليك. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فاصبر يا محمد على ما تلقى من مشركي قومك، فإن العاقبة لمن اتقى الله.

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ وأرسلنا إلى قوم عاد أخاهم هوداً. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي اعبدوا الله وحده، فليس لكم معبود يستحق العبادة غيره. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ما أنتم في إشراككم الأوثان مع الله، إلا أهلُ فِرية، تختلقون الباطل على الله. ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ لا أسألكم على ما أدعوكم إليه جزاءً وثواباً ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ ما ثوابي وجزائي إلا على الذي خلقني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُون﴾ أني لو كنت أبتغي غيرَ النصيحة لكم، لالتمستُ بعض أعراض الدنيا؟ ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ استغفروا ربكم من الإشراك، ثم توبوا إليه من سالف الذنوب. ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً﴾ يرسلِ عليكم المطر متتابعاً، تحيا به بلادكم من القحط والجدب. ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ ويزدكم شدةً فوق شدتكم، وقوةً مع قوتكم ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ولا تدبروا عما أدعوكم إليه كافرين بالله ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ما أتيتنا ببيانٍ وبرهانٍ، حتى نُقرَّ لك بالنبوة. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ ولسنا بتاركي آلهتنا من أجل قولك. ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولسنا بمصدقين لك بما تدَّعي من النبوة والرسالة. ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بعضُ آلهتنا بسوءٍ﴾ ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا ـ يعنون الأوثان ـ بجنونٍ وخَبَلٍ في عقلك، بسبب ذمك لها ونهيك عن عبادتها. ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ واشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ قال لهم هود: إني أُشهد الله على نفسي[1] وأشهدكم أيضاً أني بريءٌ من آلهتكم وأوثانكم، التي تعبدونها من دون الله. ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا

(١) انظر إلى المغايرة اللطيفة في «الأسلوب القرآني» البديع، فإن اللفظ قد جاء في غاية الدقة في التعبير ﴿إني أُشهد الله واشهدوا﴾ ولم يقل: إني أُشهد الله وأُشهدكم، حتى لا يساوي بين شهادة الله وشهادة الخلق، ويا لها من لفتةٍ عجيبة نبَّه عليها القرآن!!

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ * وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ

***

﴿تُنْظِرُونِ﴾ فاحتالوا أنتم وآلهتكم في إيذائي وضرِّي، ثُمَّ لا تؤخرون إن قدرتم. ﴿إنّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ إني اعتمدت على الله، مالكي ومالككم، من أن تصيبوني بسوء. ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بنَاصِيَتِهَا﴾ ما من شيءٍ يدبُّ على الأرض، إلا واللهُ مالكُه، وهو في قبضته وسلطانه ذليلٌ خاضع ﴿إنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إن ربي على طريق الحقِّ، يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ولا يظلم أحداً. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إلَيْكُمْ﴾ فإن أعرضتم عن دعوتي، فقد أبلغتكم رسالة ربي، وما على الرسول إلا البلاغ. ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قوماً غَيْرَكُمْ﴾ يهلككم ثم يستبدل ربي قوماً غيركم، يوحدونه ويُخلصون له العبادة. ﴿وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾ ولا تضرون ربكم إذا أهلككم. ﴿إنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ حافظٌ لجميع خلقه، وهو الذي يحفظني من أن تنالوني بسوء. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ ولمَّا جاء أمرنا بالعذاب، نجينا منه هوداً والذين آمنوا بالله، بفضل منَّا عليهم ونعمةٍ ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غليظٍ﴾ ونجيناهم من السَّخط والعذاب النازل بعاد. ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بآياتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ وهؤلاء عادٌ الذين أحللنا بهم نقمتنا وعذابنا، جحدوا بحجج الله الدالة على وحدانيته، وعصوا رسل الله[1] ﴿واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ واتبعوا أمر كل مستكبر على الله، مشركٍ معاندٍ لربه. ﴿وأُتْبِعُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وتبعهم سخطٌ من الله ولعنةٌ في الدنيا والآخرة. ﴿أَلاَ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ جحدوا وحدانية الله. ﴿أَلاَ بُعْداً لعادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أبعدهم الله من الخير.

﴿وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ﴾ اعبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة. ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ هو ابتدأ

---

(١) إنما قال ﴿وَعَصَوْا رسله﴾ بصيغة الجمع، لأن من كفر بنبيٍّ فقد كفر بجميع الأنبياء.

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾

***

خلقكم من الأرض، وأسكنكم فيها. ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ استغفروا ربكم واتركوا ما يكرهه، فإنه قريبٌ ممن أخلص له العبادة، مجيبٌ له إذا دعاه. ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ قالوا لنبيِّهم: كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً، قبل هذا القول الذي قلته. ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ أتنهانا أن نعبد الآلهة التي كانت تعبدها آباؤ نا؟ ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ وإننا لفي شكٍ من صحة ما تدعونا إليه موجبٍ للتهمة. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ قال لهم صالح: أخبروني إن كنتُ على برهانٍ وبيانٍ من الله، قد علمتُه وأيقنتُه. ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ وأعطاني منه النبوة والإسلام. ﴿فَمَن ينصرني مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ فمن يخلّصني من عقاب الله إن عصيتُ أمره؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ فما تزيدونني بعذركم، غير تخسير لكم من رحمة الله[1] ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً﴾ ويا قوم هذه الناقة حجة ودلالة، على حقيقة ما أدعوكم إليه ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ اتركوها فليس عليكم رزقها ولا مؤنتها، ولا تعقروها فيصيبكم عذاب من الله غير بعيد فيهلككم. ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ فكذبوه فعقروها فقال لهم صالح: استمتعوا بحياتكم في الدنيا ثلاثة أيام. ﴿ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ هذا وعدٌ صادقٌ لم أكذبكم فيه. ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ برحمةٍ مِنَّا﴾ فلما جاء أمرنا بعذابهم، نجينا صالحاً والمؤمنين معه، بنعمةٍ وفضلٍ منا. ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ ونجيناهم من ذل العذاب وهوانه في ذلك اليوم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ القويُّ في بطشه، العزيز في انتقامه، لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب. ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ وأصاب من عقر الناقة صيحة

---

(١) ما فسَّره به الطبري هو قول مجاهد حيث قال: ما تزدادون أنتم إلا خساراً، وذهب ابن كثير إلى أن المعنى: لو تركت دعوتكم إلى الحق لما نفعتموني ولما زدتموني غير خسارة، وهذا المعنى أرجح والله أعلم.

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

* * *

العذاب، فأصبحوا هالكين بأفنيتهم. ﴿كَأَنْ لم يَغْنَوْا فيها﴾ كأن لم يعيشوا فيها. ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ ألا إن ثمود جحدوا بآيات ربهم، ألا فأبعدهم الله من رحمته.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ جاءت الملائكة إبراهيم بالبشارة، تُبشِّره بإسحاق[1] ﴿قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ﴾ فسلَّموا عليه سلاماً، قال: عليكم السلام. ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ فما تأخر حتى جاءهم بعجل ـ ولد البقرة ـ مشوي نضيج ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ فلما رأى أنهم لا يأكلون من الطعام الذي قُدِّم اليهم، أنكر ذلك عليهم. ﴿وَأَوْجَس مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وأحسَّ منهم في نفسه خوفاً. ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلى قَوْمِ لُوطٍ﴾ قالت الملائكة: لا تخف منَّا فإنَّا ملائكة ربك، أرسلنا الله إلى قوم لوط لإهلاكهم. ﴿وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ وامرأته «سارة» قائمة من وراء الستر، تسمع كلامهم، فضحكت تعجباً من غفلة قوم لوط، وقد أحاط بهم العذاب[2]، فبشرناها بإسحاق ولداً لها[3]، ومن خلْف إسحاق يعقوب ابن ابنها. ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾ قالت تعجباً ممَّا قيل لها: يا ويلتا كيف يكون لي ولدٌ وأنا عجوز، وزوجي هذا شيخ كبير؟ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ إن الولد من مثلي ومثل بعلي، على السنِّ التي نحن بها لأمرٌ عجيب، وكانت سارة لما بُشِّرتْ بإسحاق ابنة تسعين سنة، وإبراهيم ابن عشرين ومائة سنة. ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ قالوا: أتعجبينَ من أمر أَمَرَ الله به، وقضاء قضاه؟ ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ رحمةُ الله وإنعامُه عليكم أهل بيت إبراهيم. ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ إن الله محمودٌ ممجَّد في صفاته

---

(١) وقيل: تبشِّره بهلاك قوم لوط.

(٢) ضحكت استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم، وقيل: ضحكت تعجباً من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسنّ زوجها، وقيل: ضحكت بمعنى حاضت، وهو ضعيف لأنه لا معنى لمجيء الحيض ههنا.

(٣) في هذه الآية دلالة ظاهرة على أن الذبيح هو «إسماعيل» لا إسحاق، لأن البشارة كانت بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغيرٌ، ولم يولد له بعد يعقوب، ووعدُ الله حقٌ لا يُخلف!؟

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً

***

وأفعاله ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عن إبرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا في قَوْمِ لُوطٍ﴾ فلما ذهب عن إبراهيم الخوف، وجاءته البشرى بإسحٰق، ظلَّ يُخاصمنا في قوم لوط، يقول للملائكة: أتهلكون قريةً فيها خمسون من المؤمنين؟ قالوا: لا حتى بلغ إلى العشرة فقال: ما قومٌ لا يكون فيهم عشرة من المؤمنين فيهم خيرٌ. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ إن إبراهيم «لحليمٌ» عمَّن سفه عليه «أوَّاه» كثير التضرع لربه «مُنيب» رجَّاع إلى طاعته. ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ يا إبراهيم دع عنك الجدال في أمرهم، فقد جاء أمر ربك بعذابهم. ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وإن قوم لوط نازلٌ بهم عذابٌ من الله غير مدفوع. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سيء بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ ولمَّا جاءت ملائكتنا لوطاً ساءه مجيئُهم، وضاقت نفسه غمّاً بمجيئهم، خوفاً على ضيوفه من قومه[1] ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ وقال: هذا يوم بلاء وشدة، شديدٌ شرُّه وبلاؤه. ﴿وَجَاءَه قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إليهِ﴾ وجاء قوم لوط يُسرعون إليه ويهرولون طلباً للفاحشة. ﴿وَمِنْ قَبْلُ كانوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ ومن قبل ذلك كانوا يأتون الذكران في أدبارهم. ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤلَاءِ بَنَاتي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قال لهم لوط: يا قوم هؤلاء النساء[2] انكحوهن فهنَّ أطهر لكم. ﴿فَاتَّقُوا الله ولا تُخْزُونِ في ضَيْفِي﴾ فاخشوا الله وخافوا عقابه، ولا تذلوني في ارتكاب الفاحشة في ضيوفي. ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ أليس فيكم أيها القوم رجل فيه رشدٌ ينهى عن المنكر؟! ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا في بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لقد علمت أنه لا رغبة لنا في النساء، ولا مطمع لنا فيهنَّ. ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ وإنك لتعلم أن حاجتنا في غير النساء، وأننا نريد الرجال. ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لي بكُمْ قُوَّةً﴾ قال لهم لوط حين أبوا إلا الفاحشة:

---

(١) خاف على ضيوفه من قومه الفُجَّار أن يفحشوا بهم، لأنه لم يعرف أنهم ملائكة.

(٢) لم يرد بقوله «بناتي» بناته من صلبه، وإنما أراد بهم نساء أمته، لأن كل نبيّ كالوالد لأمته.

﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٖ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾﴾

***

لو أن لي أنصاراً وأعواناً يعينونني عليكم ﴿أَوْ آوي إلى رُكْنٍ شديدٍ﴾ أو أنضمُّ إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم[١]. . وجواب «لو» محذوفٌ تقديره: لحلت بينكم وبين ما تريدونه في أضيافي. ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ قالت الملائكة: يا لوط إنا رسل ربك، أُرسلنا لإهلاك قومك، وإنهم لن يصلوا إليك ولا إلى ضيفك بمكروه، فهوِّن عليك الأمر. ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ فاخرجْ من بين أظهرهم ببقيةٍ من الليل أنت وأهلك. ﴿ولا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ ولا ينظر منكم أحد وراءه، إلا امرأتك فلا تخرج بها[٢] ﴿إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ إنَّ امرأتك سيصيبها ما أصاب قومَك من العذاب ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ إن موعد هلاكهم الصبحُ ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ أليس الصبح قريباً[٣]؟ ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ ولما جاء أمرنا بالعذاب والهلاك، جعلنا عالي قريتهم سافلها[٤]. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ وأرسلنا عليها حجارة من طينٍ مصفوفة، قد نُضِد بعضُها على بعض. ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ معلَّمة عند الله عز وجل. ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وما هذه الحجارة من مشركي قومك يا محمد، ببعيدة أن يُمطروها إن لم يتوبوا من شركهم.

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً. ﴿قَالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أطيعوه وتذلَّلوا له بالطاعة، فما لكم معبودٌ سواه يستحق العبادة. ﴿وَلَا تَنْقُصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ﴾ ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والميزان. ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ إني أراكم في سعةٍ ونعمة، وإني أخاف عليكم بمخالفتكم أمر الله، عذاباً شديداً يحيط بكم

(١) في الصحيح «رحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديد» يريد أن الله ناصره ومؤيده فهو ركنه الشديد.

(٢) قال الطبري: قراءة النصب «إلا امرأتك» على معنى فأسر بأهلك إلا امرأتك، فقد نُهي أن يسرى بها، وأُمر أن يخرج بأهله سوى زوجته، وقرىء بالرفع بمعنى ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك.

(٣) حين قالت الملائكة: موعدُ هلاكهم الصبح، استبطأ لوطٌ ذلك وقال لهم: بل عجِّلوا لهم الهلاك، فقالوا: أليس الصبح بقريب؟

(٤) أي قلبنا بهم القرية فجعلنا أعلاها أسفلها، ودمرناها ومن فيها.

وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾

***

من كل جانب. ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيَالَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ﴾ أوفوا الناس الكيل والميزانَ بالعدل، بغير بخسٍ ولا نقصٍ ﴿ولا تَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تُنقصوا الناس حقوقهم. ﴿ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين﴾ ولا تسيروا في الأرض بالفساد. ﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ﴾ما يبقى لكم من الربح[1] ـ بعد وفاء الكيل والميزان ـ خيرٌ لكم في الدنيا والآخرة، من المال الحرام بظلمكم الناس. ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ وما أنا عليكم برقيب، أرقبكم هل توفُّون أم تظلمون؟ ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ قالوا يا شعيبُ: أصلاتُك ودينك[2] يأمرك أن نترك عبادة الأوثان؟ ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ في أموالنا ما نَشَاءُ﴾ ودينك يأمرك أن نترك تطفيف الكيل والميزان؟ ﴿إنك لأنت الحليمُ الرشيدُ﴾ أأنت الحليمُ الرشيدُ؟ قالوا ذلك استهزاءً به[3]. ﴿قَالَ يا قوم أَرَأَيْتُمْ إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ أرأيتم إن كنت على بيانٍ وبرهانٍ من ربي، فيما أدعوكم إليه وأنهاكم عنه، ورزقني الله رزقاً حلالاً طيباً. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ ما كنت لأنهاكم عن أمرٍ وأفعل خلافه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ما أريد إلا إصلاحكم ما قدرتُ، لئلا ينالكم من الله عقوبة ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ باللهِ﴾ وما توفيقي في إصابة الحق، إلا بعون الله تعالى. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ على الله اعتمادي، وإليه أرجع بالتوبة. ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أو قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ ويا قوم لا تحملنكم عداوتي وبغضي، على الإصرار على الكفر بالله، فيصيبكم من النقمة والعذاب مثل ما أصاب قوم نوحٍ أو قوم هود أو قوم صالح! ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ وليس هلاك قوم لوطٍ ببعيدٍ أمرهم عنكم، أفلا تتَّعظون

(١) وقيل معنى «بقية الله خيرٌ لكم» أي طاعة الله خير لكم، وهو قول مجاهد.
(٢) عبَّر عن الدين بالصلاة أي دينك وإيمانك يأمرك بذلك، لأن الصلاة عماد الدين، فعبَّر عن الشيء بأهم أركانه.
(٣) قالوا ذلك على سبيل التهكم والسخرية بشعيب عليه السلام.

وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

***

وتعتبرون؟! ﴿واستغفروا ربَّكم ثم توبوا إليه﴾ استغفروا ربكم من ذنوبكم، ثم ارجعوا إلى طاعته وأمره ونهيه. ﴿إنَّ ربِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ إن ربي رحيم بعباده، ذو محبةٍ لمن تاب وأناب. ﴿قالُوا يا شعيبُ مَا نَفْقَهُ كَثيراً مِمَّا تَقُولُ﴾ ما نفهم كثيراً من قولك. ﴿وَإِنَّا لنراكَ فينَا ضعيفاً﴾ ضعيفاً بيننا[١] لا حول لك ولا طوْل. ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ ولولا جماعتك وعشيرتك لرجمناك بالحجارة[٢] ﴿وما أنتَ علينا بعزيزٍ﴾ ولست بمكرَّم عندنا فيعظم علينا هوانك ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ اللهِ﴾ قال لهم شعيب: أقومي تُعزونهم أكثر من الله؟ ﴿واتخذتموه وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً﴾ واستخففتم بربكم فجعلتموه خلف ظهوركم[٣]، لا تُعظِّمونه ولا تخافون عقابه!! قال ابن عباس: كان قوم شعيب ورهطه أعزَّ عليهم من الله، وصغُر شأن الله عندهم، عزَّ ربنا وجلَّ ﴿إنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُون مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ من عملكم، وهو مجازيكم عليه. ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ﴾ اعملوا على تمكنكم من العمل، إني عامل على تُؤَدةٍ من عملي[٤] ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخزيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ سوف تعلمون أيُّنا الجاني على نفسه والمخطىء؟ ومن يأتيه عذابٌ يذله ويهينه، ومن هو الكاذب منا ومنكم؟ ﴿وارْتقِبُوا إنِّي معكُمْ رَقِيبٌ﴾ وانتظروا بمن ينزل به العذابُ، إني منتظر لذلك. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ ولما جاء أمرنا بهلاكهم، نجينا شعيباً والذين آمنوا معه من عذابنا، رحمة منَّا بهم. ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ وأخذت الظالمين صيحةٌ من السماء أخمدتهم فأهلكتهم. ﴿فَأَصْبَحُوا في دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ جاثمين على ركبهم، هامدين لا حراك بهم. ﴿كَأَنْ لم يَغْنَوْا فيهَا﴾ كأن لم يعيشوا ويُقيموا في ديارهم. ﴿أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ ألا أبعدهم الله من رحمته،

(١) الظاهر أن المراد ضعف القوة والمنعة، وقيل: كان ضرير البصر، وقد ردّه المحققون من المفسرين.

(٢) أي قتلناك رمياً بالحجارة، وقيل «رجمناك» أي سببناك وشتمناك والأول أظهر.

(٣) يقال لمن استخفَّ بأمر ولم يلتفت له: جعله وراء ظهره، وإذا اهتم به يُقال: جعله نُصْب عينيه.

(٤) قال ابن كثير: أي اعملوا على طريقتكم إني عامل على طريقتي، وهذا المعنى أظهر.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾

***

كما بعدت قبلهم ثمود من رحمة الله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسى بآياتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أرسلناه بأدلتنا وحجتنا الظاهرة. ﴿إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ فَاتَّبعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى أشراف جنده وأتباعه، فأطاعوا أمر فرعون وكذبوا موسى. ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ برشيدٍ﴾ وليس في قول فرعون ولا عمله رُشْدٌ ولا هُدى. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ القِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ يقود فرعون قومه فيمضي بهم إلى النار، حتى يدخلهم فيها ويصليهم سعيرها. ﴿وَبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ﴾ وبئس الدخول الذي يدخلونه نار جهنم. ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ وأتبعهم الله في هذه الدنيا مع العذاب لعنته. ﴿ويومَ القيامةِ﴾ ويوم القيامة يُلعنون لعنةً أخرى، قال مجاهد: زيدوا لعنة أخرى فتلك لعنتان ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ بئس العون المُعان[1]، لعنةُ الدنيا والآخرة. ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ هذا القصصُ الذي أنبأناك عنه يا محمد، من أخبار القرى المهلكة نقصُّه عليك. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ منها بنيانه عامرٌ، ومنها خراب داثر، قال قتادة: منها قائم يُرى مكانه، ومنها حصيدٌ لا يُرى له أثر. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ وما عاقبناهم بغير استحقاق للعقوبة، فنكون قد ظلمناهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم ومعصيتهم لله، فأوجبوا لها العقوبة والعذاب. ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فما دفعت عنهم آلهتهم من عقاب الله وعذابه شيئاً. ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ لما جاء قضاؤه بعذابهم. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب﴾ وما زادوهم غير تخسير وتدمير. ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ وكما أخذتُ أهل تلك القرى بالعذاب، فكذلك أخذي أهل القُرى إذا أخذتهم بعقابي وهم ظلمة. ﴿إنَّ أخذه أليمٌ شديدٌ﴾ إن عقابه موجعٌ شديد الإيجاع. وهذا تحذيرٌ لهذه الأمة، أن يسلكوا طريق من قبلهم من الأمم الفاجرة، فيحلَّ بهم ما حلَّ بهم من العقوبات. ﴿إنَّ في ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ﴾ إن في ما ذُكر لعبرةً وعظةً، لمن خاف عقاب الله وعذابه في الآخرة.

---

(١) الوِردُ: الدخول، والرِّفدُ: العونُ، فقد أصابتهم لعنتان، لعنةٌ في الدنيا، ولعنةٌ في الآخرة، رَفَدت إحداهما الأخرى.

وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ

***

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ وهذا اليوم - يوم القيامة - يومٌ حقٌ، يجمع له الناسُ للجزاء والثواب والعقاب، وهو يوم تشهده الخلائق كلهم، لا يتخلف منهم أحد ﴿وما نؤخره إلاَّ لأجلٍ مَعْدُودٍ﴾ وما نؤخر مجيئه إلاَّ لزمنٍ معيَّن، لا يتقدم مجيئه ولا يتأخر. ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يوم يجيء يوم القيامة، لا تتكلم نفسٌ إلاَّ بإذنِ ربها. ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فمن هذه النفوس نفسٌ شقيةٌ ،ونفس سعيدة. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففي النَّار لَهُمْ فيها زَفيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ فأما الذين شقوا فهم في نار جهنم، لهم فيها «زفيرٌ» وهو أوّلُ نُهاق الحمار «وشهيقٌ» وهو آخرُ نهيقه ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ والأَرْضُ﴾ لابثين في النار أبداً، دوام السمواتِ والأرض [١] ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إلاَّ ما شاء ربك من أهل التوحيد والإيمان، فإنهم يُتركون في النّار، ثم يخرجهم اللّهُ فيدخلهم الجنة[٢]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ يفعل ما يشاء في خلقه، لا يمنعه مانع من الانتقام ممن عصاه. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وأما الذين سُعدوا برحمة الله، فهم في الجنة خالدين فيها على الأبد، دوام السمواتِ والأرض، سوى ما زادهم من الخلود والأبد. ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ عطاءً دائماً غير مقطوع. ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ فلا تكن في شكٍ مما يعبد هؤلاء المشركون أنه باطل وضلال. ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ ما يعبدون الأوثان إلاّ اتباعاً لآبائهم، واقتفاءً بآثارهم. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ وإنّا لموفوهم ما قُدِّر لهم من الخير والشر، على التمام والكمال. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ آتيناه التوراة فصدَّق بها بعضهم، وكذَّب بها بعضهم، كما فعل قومك بالقرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ولولا أنه سبق من

---

(١) قال الطبري: العربُ إذا أرادت أن تصف شيئاً بالدوام أبداً، قالوا: هذا دائمٌ دوام السموات والأرض، بمعنى أنه دائم ابدا، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون ،وانظر تفصيل القول في كتابنا «صفوة التفاسير» ٢ / ٣٤

(٢) هذا ما رجحه ابن جرير أن الاستثناء في أهل التوحيد فإنهم يُطهَّرون من الذنوب ثم يُخرجون من النار فيدخلون الجنة، وليست في الكفار أهل الشرك والضلال، وهذا القول هو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون، وهو الأظهر والأرجح

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا

***

الله، ألا يعجّل العذاب على خلقه، لأهلك المكذبين منهم. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ وإنهم لفي شكٍ من هذا القرآن، أهو أحقٌ أم باطل؟ ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وإنَّ كلَّ هؤلاء ـ الذين قصصنا عليك يامحمد قصصهم ـ لمن[1] ليوفينَّهم ربك أعمالهم، فيعطيهم بالصالح الثواب، وبالطالح العقاب ﴿إنه بما يعملون خبيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من عملهم ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ فاستقم على ما أمرك به ربك، أنت وأتباعك. ﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولا تخالفوا أمره بارتكاب معاصيه، إن ربكم مطّلعٌ على أعمالكم، وهو لكم بالمرصاد. ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ ولا تميلوا إلى قول هؤلاء الكفار، فترضوا أعمالهم وتقبلوا منهم فتمسّكم النار. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ وليس لكم ناصرٌ ينصركم إن خالفتم أمره، ولا وليٌّ يتولّى أموركم. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ وصلِّ يا محمد بالغداة والعشيِّ[2]. ﴿وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ﴾ وساعاتٍ من الليل وهي صلاة العشاء. ﴿إن الحسناتِ يُذْهِبْنَ السيئاتِ﴾ إنَّ الصلوات الخمس[3] يُذهبن آثام الذنوب. ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ ذلك تذكرة للمتقين الذين يرجون ثواب الله، ويخافون عقابه[4]. ﴿وَاصْبِرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنينَ﴾ واصبرْ على ما تلقى من الأذى في الله، فإن الله لا يضيع أجر من أطاعه وأحسن عمله. ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ فهلاّ كان من الأمم السابقة، ذَوُو بقيةٍ من العقل والفهم، ينهون أهل المعاصي عن معاصيهم. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ إلاّ قليلاً منهم كانوا ينْهون عن الفساد في الأرض، وهم أتباع الرسل، فنجّاهم الله من

---

(١) هذا على قراءة التخفيف «لَمَا» أما على قراءة التشديد فمعناه: وإن كلاً من هؤلاء المكذبين لَمَّا يوفيهم الله جزاء أعمالهم، وسيوفيهم جزاءهم في الآخرة، أفاده صاحب البحر.

(٢) أي في الصباح والمساء، صلاة الفجر وصلاة المغرب، فهما طرفا النهار.

(٣) هذا أرجح الأقوال عند الطبري، أن المراد بالحسنات الصلوات الخمس المكتوبات، واختار ابن كثير أن المراد بالحسنات الأعمال الصالحة.

(٤) روي أنها نزلت في رجل قبَّل امرأة ثم ندم، فجاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يطهره من الذنب فنزلت الآية.

فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

***

عذابه. ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ واتَّبع الظالمون من كل أمة لذّات الدنيا وشهواتها، فاستكبروا عن أمر الله وتجبَّروا، وكانوا مجرمين بكفرهم بالله. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ما أهلك ربك قرية ظلماً، وأهلها مصلحون في أعمالهم، ولكنه أهلكها بكفر أهلها، وتكذيبهم رسله. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس كلهم على دين واحد. ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتّى، من بين يهودي، ونصراني، ومجوسي، إلاّ أهل الإيمان فإنهم غير مختلفين. **قال قتادة**: أهل رحمة الله أهلُ جماعة وإن تفرَّقتْ دورهم وأبدانُهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت دورهم وأبدانهم. ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ وعلى ذلك خلقهم[1]، شقيٌّ وسعيد، ومؤمنٌ وكافر، **قال مالك**: خلقهم ليكونوا فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير[2]، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ إنما قصصنا عليك يا محمد كل هذا القصص، من أخبار الرسل وأخبار أممهم، لتعلم ما لقيت الرسل قبلك، فلا تجزع من تكذيب من كذَّبك. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ وجاءك في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء، الحقُّ من ربك. ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وموعظة وتذكرة للمؤمنين، كي لا يغفلوا عن طاعة الله. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ وقل للذين لا يصدقون بوحدانية الله! اعملوا على هيئتكم[3] وتمكنكم ما تريدون. ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ فإنَّا عاملون ما أمرنا به الله. ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾

---

(١) قال الطبري: اللام بمعنى على كقول الرجل: أكرمتك لبرّك بي، وعلى برّك بي.

(٢) قال الطبري: علم الله نافذ، وقد علم الله قبل أن يخلقهم أنه يكون فيهم المؤمن والكافر، والشقي والسعيد، وقد خلقهم على ذلك، فلا ينبغي أن يُقال: إن المختلفين غير ملومين على اختلافهم.

(٣) قال ابن كثير: المعنى: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم إنا عاملون على طريقتنا ومنهجنا، وهذا المعنى أوضح والله أعلم.

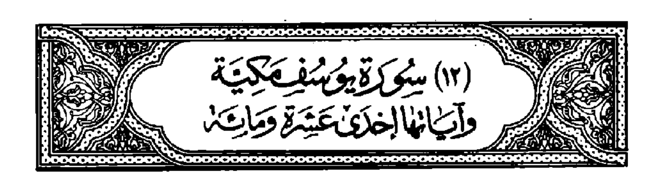
﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

***

وانتظروا ما يحلّ بنا وبكم، إنَّا منتظرون لذلك. ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ ولله ملك كل ما غابَ وخفي في السموات والأرض، كلٌّ ذلك بيده وبعلمه، لا يخفى عليه منه شيءٌ. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ وإلى الله معاد كل عامل، فيقضي بينهم بحكمه العادل. ﴿فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فاعبد ربك وفوِّض أمرك إليه، فإنه كافي من توكل عليه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وما ربك بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون، وهو لهم بالمرصاد.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة هود»

***



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

* * *

﴿الٓر﴾ تقدم الكلام على الحروف المقطعة بما أغنى عن إعادته. ﴿**تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبين**﴾ هذه آيات الكتاب الواضح لمن تدبره وتلاه، الواضح في حلاله، وحرامه، وسائر معانيه. ﴿**إنَّا أنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً**﴾ أنزلناه عربياً بلسان العرب ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ ليعقلوه ويفقهوا ما فيه ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أحْسَنَ القَصَص**﴾ نحن نقص عليك يا محمد أحسن القصص، فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية، وأنباء الأمم السالفة، والكتب التي أنزلناها في العصور الخالية ﴿**بِمَا أوْحَيْنَا إلَيْكَ هَذَا القُرآنَ**﴾ بوحينا إليك هذا الكتاب المعجز ﴿**وإنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ**﴾ وقد كنت قبل أن نوحيه إليك، لا تعلمه ولا شيئاً منه ثم شرع في ذكر قصة يوسف فقال ﴿**إذْ قَالَ يُوسُفُ لأبِيهِ**﴾ حين قال يوسف لأبيه يعقوب ﴿**يَا أبتِ إنِّي رَأيْتُ أحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً والشَّمْس وَالْقَمَرَ رَأيْتُهُمْ لي سَاجِدينَ**﴾ إني رأيت في منامي أحد عشر كوكباً والشمس والقمر[1] رأيتهم سجوداً لي ﴿**قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إخْوتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً**﴾ لا تقصص رؤياك هذه على إخوتك، فيحسدوك ويُناصبوك العداوة ﴿**إنَّ الشَّيْطَانَ لِلإنْسَانِ عَدُوٌّ مُبينٌ**﴾ إن الشيطان عدوٌّ لآدم وبنيه، ظاهر العداوة، فاحذر أن يُغري إخوتك بك،

(١) قيل إن رؤيا الأنبياء كانت وحياً، وروي عن قتادة قال: الكواكب إخوته، والشمس والقمر أبواه.

وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾

* * *

إن قصصت عليهم رؤياك. ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يصطفيك ربك. ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ ويعلمك تعبير الرؤيا[١] ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَقَ﴾ ويُتم اختياره وتعليمه لك تأويل الأحاديث، وعلى ذرية يعقوب، كما أتمها على إبراهيم وإسحاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليمٌ بمن هو أهل للإجتباء ، حكيم في تدبير خلقه.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائلينَ﴾ لقد كان في يوسف وإخوته الأحد عشر، عِبَر وعظاتٌ للسائلين عن قصصهم وأخبارهم[٢]. ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ حين قال إخوة يوسف والله ليوسفُ وأخوه « بنيامين » أحبُّ إلى أبينا منا ونحن جماعة ذوو عددٍ كبير . ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ إنَّ أبانا يعقوب لفي خطأٍ واضح[٣] ، في إيثاره يوسف وأخاه علينا بالمحبَّة. ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ قال بعضهم لبعض: اقتلوا يوسف أو اطرحوه في مكان من الأرض. ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يخل لكم وجهه الذي صُرف عنا من شُغله بيوسف. ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ وتتوبون مما صنعتم بيوسف، فتكونون قوماً صالحين ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وأَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ قال واحد من إخوة يوسف[٤]: لا تقتلوا يوسف وألقوه في قعر الجبِّ يغيب فيه. ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يأخذه بعض المارَّة المسافرين، إن كنتم فاعلين ذلك. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا على يوسفَ﴾ لماذا لا تأمننا على يوسف، فتتركه معنا إذا خرجنا إلى الصحراء. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ نحوطه ونحفظه.

---

(١) الرؤيا : بالألف المقصورة الحُلُم ويُراد بها الرؤيا المنامية ، وبالتاء المربوطة الرؤية بالعين .
(٢) قال الطبري: هذه تسلية للنبي ﷺ اراد تعالى أن يطلعه على ما لقي يوسف من إخوته من الأذى والحسد، ليتأسى به النبي ﷺ.
(٣) قصدوا بالضلال هنا الخطأ ﴿ لفي ضلال ﴾ أي لفي خطأٍ واضح ، ولو قصدوا الضلال في الدين لكفروا
(٤) كان اسمه «روبيل» وقيل اسمه «شمعون»

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا

* * *

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ أرسل يوسف معنا غداً إلى الصحراء، نلهو ونلعب وننعم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ونحن حافظوه مما يكرهه ويؤذيه. ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ قال لهم يعقوب: إنني ليشقُّ عليَّ أن تذهبوا به معكم إلى الصحراء. ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ مخافة أن يأكله الذئب، وأنتم لا تشعرون[١] ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ قالوا: لئن أكل الذئب يوسف، ونحن أحد عشر رجلاً معه نحفظه، إنَّا إذاً لَعَجَزَةٌ هالكون. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ﴾ في الكلام محذوف تقديره: فأرسله معهم، فلما ذهبوا به وعزموا على أن يجعلوه في قعر البئر. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وأوحينا إلى يوسف لتخبرنَّ إخوتك بفعلهم هذا، وهم لا يعلمون ولا يدرون أنك يوسف. ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ جاءوا أباهم في ظلمة الليل - بعدما ألقوا يوسف في الجب - يبكون[٢]. ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق في الرمي، وتركنا يوسف عند ثيابنا وأمتعتنا، فأكله الذئب. ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ولست بمصدِّق لمقالتنا ولو كنَّا من أهل الصدق، لسوء ظنِّك بنا وتُهْمتك لنا. ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ بدم مكذوب لم يكن دم يوسف، وإنما كان دم سخلة[٣] ذبحوها ثم لطخوا بدمها القميص[٤]. ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفسكم أمراً﴾ ليس الأمر كما تقولون، بل زيَّنتْ وحسَّنتْ لكم أنفسكم أمراً، ففعلتموه في يوسف. ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

---

(١) كأنَّ يعقوب عليه السلام بقوله﴿وأخاف أن يأكله الذئب﴾نبَّههم إلى شيءٍ كانوا عنه غافلين، فأخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما صنعوا به، وربَّ كلمةٍ نبَّهت غافلاً !!

(٢) إنما جاءوا أباهم في ظلمة الليل ليكون ذلك أستر لمؤامرتهم ودموعهم الكاذبة التي سكبوها وفي المثل «الليلُ أخفى للويل»

(٣) السَّخلة: ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى.

(٤) لما جاءوا بقميص يوسف إلى أبيهم، نسوا أن يخرقوه، فجعل يقلِّبه ويقول لهم: ما أرحم هذا الذئب؟ أكل ولدي ولم يخرق قميصه؟ فاستدل بذلك على كذبهم، وحبلُ الكذب قصيرٌ.

تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

* * *

﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ فصبري صبرٌ جميل، لا شكوى فيه ولا جزع، وأستعينُ اللهَ على كفايتي من شر ما صنعتم.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ ومرَّت جماعة من المسافرين بالطريق، فأرسلوا واردهم ـ وهو الذي يطلب الماء لإخوانه ـ فأرسل دلوه في البئر، فتعلَّق به يوسف فخرج. ﴿قَالَ يَا بُشْرى هَذَا غُلَامٌ﴾ قال المُدْلي: يا بشرايَ[1] هذا غلامٌ. ﴿وَأَسَرُّوه بِضَاعَةً﴾ وأخفوه من الرفقة مخافة أن يشاركوهم فيه، وقالوا: هذا بضاعة أرسلها معنا أهل الماء لنبيعه لهم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ عالمٌ بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه، لا يخفى عليه شيءٌ من أمورهم. ﴿وَشَرَوْه بِثَمَنٍ بَخْسٍ دراهم مَعْدُودَةٍ﴾ وباع إخوة يوسف أخاهم يوسف[2] بثمن قليل ناقص، دراهم معدودة[3] غير موزونة. ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ وكانوا من الزاهدين في يوسف، لا يعرفون كرامته ومنزلته عند الله. ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ وقال عزيز مصر[4] ـ قطفير ـ الذي اشترى يوسف من بائعه لامرأته: أكرمي منزلته ومُقامه. ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ عسى أن يكفينا أمورنا إذا كبر أو نتبنَّاه[5] ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾ وكما أنقذناه من إخوته حين همُّوا بقتله، كذلك مكنَّا له في أرض مصر فجعلناه على خزائنها، مع الكرامة والمنزلة الرفيعة. ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ ولنعلِّمه تعبير الرؤيا. ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ والله فعَّال لما يشاء، يدبِّر أمر يوسف ويسوسه ويحوطه. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله وتدبيره.

---

(١) نادى البشرى على عادة العرب كما تنادى الحسرة ﴿يا حسرة على العباد﴾ وأضافها الى نفسه، وكأنه يقول: يا بشرايَ ويا سعادتي بهذا الغلام.

(٢) هذا ما رجحه الطبري أن المراد باعه إخوته بثمن بخس، ورجح غيره أن الذين باعوه هم المارَّة باعوه بمصر بثمن قليل وهذا القول أظهر.

(٣) قيل: كانت عشرين درهماً وقيل: أربعين، واختار الطبري عدم التحديد.

(٤) قال ابن عباس: كان اسمه «قطفير» وكان على خزائن مصر والملك يومئذٍ «الريَّان بن الوليد».

(٥) قال هذا القول لامرأته لأنه لم يكن له ولد، وكانت امرأته حسناء ناعمة طاعمة في مُلكٍ ودنيا.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا

* * *

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّه آتَيْنَاه حُكْماً وَعِلْماً﴾ ولمَّا بلغ منتهى شدته وقوته في شبابه، أعطيناه حينئذٍ العلم والفهم[١]. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنينَ﴾ وكذلك نجزي من أحسن عمله، وأطاع ربه ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ﴾ وراودت امرأة العزيز يوسف الذي كان في بيتها عن نفسه، وطلبت منه أن يُواقعها[٢] ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ وغلَّقت أبواب البيوت عليه، باباً بعد باب. ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ وقالت: هلُمَّ لك، أدْنُ وتقرَّبْ، قال ابن عباس: تدعوه إلى نفسها. ﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ ربِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ قال يوسف: أعتصمُ وأستجير بالله، إن صاحبك وزوجك سيِّدي، أحسن منزلتي، وأكرمني وائتمنني، فلا أخونه في أهله. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ لا يفوز ولا ينجح من ظلم وخان سيِّده. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولقد همَّتْ امرأة العزيز بيوسف، فجعلت تذكر له محاسنها، وتشوِّقه إلى نفسها ليضاجعها، وهمَّ يوسف بها لولا أنَّ الله أراه آيةً من آيات الله زجرته عن فعل الفاحشة، قيل: نودي يا يوسف: أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء!! وقيل: إنه رأى أباه يعقوب عاضاً على أصابعه، فاستحيا[٣] منه ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ كما

(١) قال مجاهد: أعطيناه العقل والعلم قبل النبوَّة، وقال ابن كثير: المراد بالحكمة النبوَّة.

(٢) أحبته لجماله وشبابه وطلبت منه أن يُجامعها، ولم تراع حرمة زوجها بصيانة شرفه، وهكذا شأن الحب يُعمي ويُصمُّ.

(٣) غفر الله للشيخ ابن جرير هذه الزلَّة، فقد ذكر بعض الروايات التي لا يصح الاستشهاد بها، لأنها تُعارض وتُصادم ما اتفق عليه أئمة العلم من «عصمة الأنبياء» فيوسف الصدِّيق نبيٌّ كريم لا يجوز أن يُنسب إليه أمثال هذه الروايات الضعيفة التي لا زمام لها ولا خطام، ومنها أنه جلس بين رجليها وحلَّ ثيابه، ثم رأى صورة أبيه يعقوب على الجدار يعض على أصابعه، فقام عنها حياءً منه الخ. . والصحيح أن هذا من باب المشاكلة ـ وهي الاتفاق في اللفظ فقط مع الاختلاف في المعنى ـ فالهمُّ منها غير الهمِّ منه، فقد كان همُّها عزماً وتصميماً، غلَّقت الأبواب ودعته إلى نفسها، بالترغيب تارةً والتخويف أخرى، وكان همُّه خطراتٍ جالت بذهنه، وحديث نفس، حدثته بذلك نفسه بمسايرتها، ولكنْ سرعان ما عاد عن هذا الخاطر ورجع، وتاب وأناب، مِمَّا ألَمَّ به من الميل النفسي، متذكراً عظمة الله وجلاله وهيبته ﴿إن الذين اتَّقَوْا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هم مبصرون﴾ ومثل هذه الخواطر لا تُنقص من قدره، ولا تحطُّ من شأنه، ومثالُه في ذلك مثال المؤمن الصائم، في اليوم الشديد الحر، يرى الماء البارد أمامه، فتحدِّثه نفسُه بالشرب منه، ويمنعه خوف الجبار من الإفطار. فهذا مأجورٌ مثابٌ، لأنه يغالب نفسه وهواه طلباً لرضى مولاه، وفي الحديث: «من همَّ بسيئةٍ فلم يعملها كُتبت له حسنة» فهذا الذي همَّ به يوسف من هذا الباب هو حديثُ نفس من غير عزم ولا تصميم، بدليل أنه آثر السجن على عمل الفاحشة ﴿قال ربِّ السجنُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾ أو نقول كما قال أبو حيان في البحر المحيط: إنَّ جواب «لولا» مقدَّمٌ عليها كقول القائل: قارفتَ الذنبَ لولا أن عصمكَ الله، ويكون المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها، وهذا قول حسنٌ، وانظر القول مفصلاً في كتابنا الجديد «صفوة التفاسير» حيث بيَّنا من عشرة وجوه عصمته عليه السلام، وكلها من القرآن الكريم.

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

* * *

أريناه برهاننا كذلك نقيه السوء والفحشاء، ونطهِّره من دَنَس المعصية. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المخْلَصِينَ﴾ إنه من عبادنا الذين أخلصناهم لأنفسنا، واخترناهم لنبوَّتنا. ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ استبق يوسف وامرأة العزيز باب البيت، يوسفُ هَرَباً وفراراً، وامرأة العزيز طلباً لقضاء حاجتها منه، وشقَّت قميصه من خلف، لأنه كان الهارب، وكانت هي الطالب. ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَها لَدَى البَاب﴾ وصادفا زوجها عند الباب. ﴿قَالَتْ ما جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بأَهْلِكَ سُوءاً﴾ قالت امرأة العزيز لزوجها مخافة أن يتهمها بالفجور: ما جزاء من أراد بأهلك الزنا. ﴿إلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلاّ أن يُحبس في السجن، أو يناله عذاب مؤلمٌ موجع[١] ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْني عَنْ نَفْسي﴾ قال يوسف مكذباً لها: بل هي راودتني عن نفسي. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وشهد شاهد من أهل المرأة ـ وكان طفلاً في المهد[٢] ـ فقال. ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ إن كان قميصه ـ ثوبُه ـ شُقَّ من أمام فصدقت في قولها وهو كاذب، لأن الشقَّ لو كان من الأمام لم يكن هارباً ولكن كان طالباً. ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وإن كان ثوبُه شُقَّ من خلف، فكذبت في قولها وهو صادقٌ، لأن الإنسانَ إذا كان هارباً، فإنما يؤتى من قبل دبره. ﴿فَلَمَّا رأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ فلمَّا رأى زوجها ثوب يوسف قد شُقَّ من خلف، قال: إن هذا من صنيع النساء ومكرهن، إن كيدكن يا معشر النساء عظيم. ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ يا يوسف أعرضْ عن هذا فلا تذكره لأحد. ﴿وَاسْتَغْفِري لِذَنبِكِ﴾ توبي من مقارفة هذا الذنب القبيح ﴿إنك كنتِ مِنَ الخاطِئينَ﴾ [٤] إنك كنت من المذنبين في مراودة

(١) لما شعرت بالفضيحة عكست القضية، فادَّعت أن يوسف راودها لتوقع به العقاب وتدفع التهمة عن نفسها، وهكذا ببراعةٍ ومكر يفوق مكر إبليس، أصبح البريء متهماً والمتهم بريئاً ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أنْ يُسجن أو عذاب أليمٌ﴾

(٢) الرواية الشهيرة أنه كان طفلاً صغيراً في المهد، ويؤيده ما روي مرفوعاً «تكلم أربعة وهم صغار» وذكر منهم شاهد يوسف، وكونه طفلاً في المهد تكلم، وكونه من أهلها أوجبُ للحجة عليها، وأوثقُ في براءة يوسف.

(٣) قال ابن كثير: كان زوجها ليِّن العريكة سهلاً، أو أنه عذرها لأن رأت ما لا صبر لها عنه.

(٤) هذا من باب التغليب، تغليب الذكور على الإناث، ولم يقل من الخاطئات مراعاة لرؤوس الآيات.

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ

* * *

يوسف. ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ في الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ العَزِيز تُرَاودُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ وتحدَّث النساء في مدينة مصر، لما شاع أمرهما فلم ينكتم، قلن: امرأة الملك تُراوِدُ عبدها عن نفسه. ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾ وقد وصل حبُّ يوسف إلى شغاف قلبها ـ وهو غلافه ـ حتى غلب على قلبها. ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا في ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إنا لنراها في مراودتها لعبدها، لفي خطأ وجور عن قصد السبيل واضح. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكرِهِنَّ﴾[1] فلما سمعت امرأة العزيز بقولهن. ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً﴾أرسلت إلى النسوة، وهيأت لهنَّ مجلساً للطعام، وما يتَّكئن عليه من الوسائد والنمارق. ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ وأعطت كل واحدة من النسوة سكيناً لتقطع به الطعام. ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وقالت امرأة العزيز ليوسف: اخرج عليهنَّ فخرج عليهن[2] ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾فلما رأين يوسف، أعظمْنه وأجللْنه لحسنه وجماله، وحززْن أيديهنَّ بالسَّكاكين وهنَّ لا يشعرن. ﴿وَقُلْنَ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَراً﴾ وقلن: معاذ الله وتنزيهاً له، ما هذا من البشر. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ما هذا إلا مَلَك من الملائكة، لأنهن لم يرين في حسن صورته من البشر أحداً. ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمتُنَّنِي فيهِ﴾ قالت امرأة العزيز: هذا الذي لمتنني في حبي إياه، فقلتن ما قلتنَّ عنِّي[3]، ثم أقرَّت بمروادتها له فقالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ ولقد طلبتُ منه مواقعتي فامتنع ﴿وَلَئِنْ لم يَفْعَلْ ما آمُرُهُ ليسجنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِين﴾ ولئن لم يطاوعني على ما أدعوه إليه، لَيُحْبَسَنَّ في السجن، وليكوننَّ من الذليلين، تريد لأحبسنَّه ولأهيننَّه ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يا ربِّ الحبسُ أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه من الفاحشة. ﴿وَإِلَّا تصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ

---

(١) سمّى حديثهنَّ مكراً لأنه كان في خفية، وقيل: استكتمتهنَّ سرَّها فأفشينه.

(٢) إنما أطاعها يوسف لأنه كان عبداً مملوكاً لزوجها وهي سيدته، ولم يدر في خُلده أنهن يتآمرن عليه

(٣) لما رأينه جعلن يحززن بالسكاكين أيديهن، فلما أحسَسْن بالألم رفعن أصواتهن فقالت: أنتنَّ من نظرةٍ واحدة فعلتنَّ هذا، فكيف ألام أنا؟فقلن عند ذلك ﴿حاش لله ما هذا بشراً﴾، ثم قلن لها: وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا اهـ.من مختصر ابن كثير ٢ / ٢٤٨

إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ الْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا

* * *

أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ وإن لم تدفع عني يا ربِّ شرهُنَّ، أمِلْ إليهنَّ وأتابعهنَّ على ما يَهْوَيْنَ، وأكنْ جاهلاً إذا ركبت معصيتك. **﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عنه كَيْدهُنَّ﴾** فاستجاب الله ليوسف دعاءه[١]، فنجّاه من كيد النسوة. **﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾** السميعُ لدعاءِ خلقه، العليم بحوائجهم وما يصلحهم.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ﴾ ثم ظهر لعزيز[٢] مصر ـ ومن استشارهم من خاصته ـ من بعد ما رأوا الأدلة على براءة يوسف **﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾** ليحبسنَّه إلى الوقت الذي يرونه، وكانت تلك الآيات في شق القميص، وخمش الوجه، وتجريح الأيدي. **﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَان﴾** ودخل مَع يوسف السجنَ غلامان: أحدهما صاحب شراب الملك، والآخر صاحب طعامه. **﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾** في الآية محذوف تقديره: فلما أُدخل السجن سألوه عن عمله فقال: إني أُعبِّر الرؤيا، فقال أحدهما: إني أرى في نومي أني أعصر عنباً[٣] **﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾** وقال الفتى الآخر: إني أرى في منامي أني أحمل على رأسي خبزاً تأكل منه الطير. **﴿نَبِّئْنَا بتأويلِهِ إِنَّا نَرَاكَ من المحسنينَ﴾** أخبرنا بتأويل رؤيانا، فإنا نراك محسناً في معاملتنا. **قال الضحاك**: كان إذا مرض إنسان في السجن قام عليه، وإذا احتاج جمع له، وإذا ضاق عليه المكانُ أوسع له. **﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بتأويلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾** قال لهما: لا يأتيكما طعام في المنام[٤]، إلا

---

(١) قال ابن كثير: إن يوسف عليه السلام عصمه الله عصمةً عظيمة وحماه فامتنع منها أشدَّ الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا غاية مقامات الكمال، أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال والرياسة، ويمتنع من ذلك ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ورجاء ثوابه. وذلك من عصمة الله له عليه السلام.

(٢) قال الطبري: بدا للعزيز وهو واحد وقيل﴿بَدَا لَهُمْ﴾ لأنه لم يقصد بعينه نظير قوله﴿قال لهم الناسُ﴾ وكان القائل واحداً.

(٣) سمي العنب خمراً﴿أعصر خمراً﴾ باعتبار ما يئول اليه، ففيه مجاز مرسل..

(٤) وصف لهما نفسه بكثرة العلم ـ ولا سيما في تفسير الرؤيا ـ ليجعل ذلك طريقاً لدعوتهما لتوحيد الله.

ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾

* * *

أخبرتكما بتفسيره في اليقظة، قبل أن يظهر تأويله في الدنيا[1] ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ هذا الذي أخبرتكم عنه من تعبير الرؤيا، ممَّا علمني ربي إيَّاه. ﴿إنِّي تركْتُ مِلَّةَ قوم لا يؤمنون باللهِ﴾ لأني اجتنبت ملة من لا يُصدِّق بالله ولا يُقر بوحدانيته ﴿وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وهم جاحدون بالبعث والمعاد، والثواب والعقاب. ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إبْراهيمَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوب﴾ واتبعتُ دين آبائي، لا دين أهل الشرك. ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيءٍ﴾ ما جاز لنا أن نجعل لله شريكاً في عبادته وطاعته. ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ هذا ممَّا أكرمنا الله به، وتفضَّل به علينا وعلى سائر الناس. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ لا يشكرون الله على نعمه. ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أأَرْبَابٌ مُتَفرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾ يا من هما في السجن[2]: أعبادة أرباب شتَّى، لا تَضرُّ ولا تنفع، خيرٌ أم عبادة الواحد الأحد؟ الذي قهر كل شيء فأطاعه؟ ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ ما تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام، إلا مسمَّيات لا تستحق الألوهية سميتموها أرباباً وآلهة. ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ ما أنزل الله بها من حجة، ولكنها اختلاق منكم وافتراء. ﴿إنِ الْحُكْمُ إلاَّ للهِ﴾ ما الحكم والتصرف إلا لله وحده. ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاه﴾ أمر عباده بألاَّ يعبدوا إلاَّ إياه. ﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا هو الدين القويم، الذي لا اعوجاج فيه، ولكنَّ أكثر الناس يجهلون ذلك فلا يعلمون حقيقته ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ أمَّا الذي رأى أنه يعصر خمراً، فيسقي الملك الخمر ويكون صاحب شرابَه. ﴿وأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فتأكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ وأمَّا الذي رأى أن على رأسه

---

(١) هذا ما اختاره الطبري، وذهب غيره إلى أن المراد أنه يخبرهما بكل ما يأتيهما في الدنيا من طعام، قبل أن يأتيهما ذلك، وهذا من الإخبار بالغيوب التي هي من خصائص الأنبياء كما قال عيسى﴿وأنبئكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم﴾

(٢) نسبهما إلى السجن﴿يا صاحبي السجن﴾ لأنهما سكناه، كما سمَّى الله سُكَّان الجنة أصحابها في قوله﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ لأنهم سكان الجنة.

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

* * *

خبزاً، فيصلب فتأكل الطير من رأسه. ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الذي فيه تستفتيانِ﴾ فُرِغ من الأمر الذي استفيتما فيه[1] ﴿وقال لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وقال يوسف للذي أيقن أنه ناج من صاحبيه: اذكرني عند الملك، وأخبره أني محبوس بغير جُرم. ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ في السِّجنِ بِضْعَ سنين﴾ فأنسى الشيطان الساقي[2] ذكر ذلك للملك، فمكث يوسف في السجن سبع سنين. ﴿وقالَ المَلِكُ إني أرى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَاف﴾ وقال ملك مصر: إني أرى في المنام سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع بقرات هزيلة في غاية الهُزال. ﴿وَسَبْعَ سُنْبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخر يَابِسَاتٍ﴾ وأرى كذلك في منامي سبع سنبلات خضر، وسبعاً أخرى يابسات. ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي في رُؤْيَايَ﴾ يا أيها الأشراف من رجالي، عبروا لي هذه الرؤيا. ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُون﴾ إن كنتم تعرفون تأويلها[3]. ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ قالوا: هذه أخلاط رؤيا كاذبة ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾ وما نعرف تأويل الأحلام الكاذبة ﴿وقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَر بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ وقال الذي نجا من القتل ـ ساقي الملك ـ وتذكَّر بعد حينٍ ما كان نسي من أمر يوسف ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ أنا أخبركم بتعبير هذه الرؤيا فأرسلوني الى السجن ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا في سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وأُخر يَابِساتٍ﴾ في الكلام محذوف تقديره فأرسلوه فأتى يوسف فقال له يا يوسف يا أيها الصدِّيق، أفتنا في هذه الرؤيا، في سبع بقراتٍ سمان، رئين في المنام يأكلهن سبعٌ منها عجاف، وفي سبع سنبلاتٍ خضر رئين أيضاً قد التفَّت بها سبع

(١) ذُكر أنه لما عبَّر لهما الرؤيا قال له: ما رأينا شيئاً فقال لهما﴿تقضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾

(٢) وقيل الضمير يعود ليوسف والمعنى: نسي يوسف أن يذكر الله واعتمد على غيره، فعاقبه الله على ذلك بأن مكث في السجن بضع سنين، والأول أظهر وأرجح وهو الذي رجحه الطبري واختاره جمهور المفسرين

(٣) قال السدي: رأى الملك في منامه رؤيا هالته، رأى سبع بقراتٍ سمان يأكلهن سبع ضعاف، وسبع سنبلات خضرٍ وأُخر يابساتٌ، فجمع السحرة والكهنة فقصها عليهم فقالوا له: ﴿أضغاث أحلام﴾

يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

* * *

أُخر يابسات[1] ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ كي أرجع إلى الناس فأخبرهم، ليعلموا تأويل ما سألتك عنه من الرؤيا ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ قال يوسف تزرعون هذه السنين السبع ، على عادتكم كما كنتم تزرعون من قبل ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ فما حصدتم من الزرع ، فاتركوه في سنبله ليبقى محفوظاً من التلف ، إلا المقدار الذي تأكلونه[2] ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ ثم يأتي من بعد تلك السنين الخِصبة ، سبع سنين ذات قحطٍ وجدب . ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تأكلون[3] فيها ما أعددتم في السنين الخِصْبة من الأقوات ، إلا يسيراً مما تخزنون . ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ثم يجيء بعد الجدب ، عامٌ فيه يُغاث الناس بالمطر، وفيه يعصرون الزيتون والعنب وسائر الثمرات ﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ وقال الملك ـ بعد سماعه تأويل الرؤيا ـ ائتوني بيوسف، فلما جاءه رسول الملك يدعوه إليه، قال: ارجع إلى سيّدك. ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فسله ما شأن النسوة اللاتي جرحْنَ أيديهنَّ[4]؟ وما شأن المرأة التي سُجنتُ بسببها؟ ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ إنَّ الله تعالى عالمٌ بصنيعهن ومكرهنَّ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ قال الملك ما كان شأنكن حين راودتن يوسف عن نفسه؟ ﴿قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ قلن: تنزَّه الله أن يكون يوسف متهماً، والله ما علمنا عليه من سوء. ﴿قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ الآن تبيَّن الحق وانكشف ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ

---

(١) قال الطبري: أما السمان من البقر فهي السنون المخصبة، وأما العجاف فهي السنون المجدبة.

(٢) علّمهم عليه السلام طريقة يحفظون بها الحبَّ، من السنين المخصبة إلى السنن المجدبة، فإن الحبة إذا بقيت في غشائها حُفظت من التسوس.

(٣) وصف السنين بأنهن يأكلن، والمرادُ يأكل أهلها بطريق المجاز، ففيه مجاز عقلي.

(٤) أبى يوسف أن يخرج من السجن إلا بعد أن تنزَّه ساحته من التهمة التي رمي بها، وهذا من كمال عفته ونزاهته عليه السلام.

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

***

عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أنا دعوته إلى نفسي، وإنه لصادقٌ في قوله «هي راودتني عن نفسي» **﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ﴾** لم أخرج من السجن، ذلك ليعلم العزيز بأني لم أخنه في حال غيبته[1] **﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾** وأن الله لا يرشد إلى الخير والسداد من كان خائناً. **﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾** يقول يوسف: وما أُبرِّىء نفسي من الخطأ والزَّلل فأزكّيها، فإنَّ النفس تأمر باتّباع الهوى. **﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾** إلّا من رحمه الله من خلقه، فأنجاه من اتّباع الهوى. **﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** يصفح عن ذنوب التائبين، رحيم بعباده المؤمنين. **﴿وَقَالَ المَلِكُ ائْتُوني بِهِ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾** ائتوني بيوسف أجعله من خلصائي وخاصّتي. **﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾** فلما كلّمه الملك، وعرف براءته وعظم أمانته، قال له: إنك اليوم عندنا متمكنٌ من كل شيء، أمينٌ على كل ما ائْتُمنتَ عليه. **﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾** ولّني على خزائن أرض مصر. **﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾** إني حافظٌ لما استودعتني، عالمٌ بما أوليْتني[2] **﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾** وهكذا وطّأنا ليوسف في أرض مصر. **﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾** يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الحبس والضيق. **﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾** نصيب برحمتنا من نشاء من خلقنا، كما مكّنا ليوسف بعد العبودية والإلقاء في الجبّ. **﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾** ولا نُبطل جزاء من أحسن فأطاع ربه **﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾**

---

(١) اختار الطبري أن هذه الآية والتي بعدها من كلام يوسف وهو قول ابن عباس، ورجح ابن كثير وبعض المفسرين أنها من كلام امرأة العزيز نظراً لسياق الكلام، وما اختاره الطبري هو الأظهر والأرجح، إذ كيف يصح لامرأة العزيز أن تقول﴿ذلك ليعلم أني لم أخُنْه بالغيب﴾ وقد عزمت على خيانة زوجها في غيبته بكل طرق الفتنة والإغراء وبجميع الوسائل، ولولا حفظ الله وعصمته ليوسف لوقع في شباكها، وأما قول يوسف﴿وما أُبرِّيء نفسي﴾ فإنما قال ذلك على سبيل التواضع والاعتراف بفضل الله ورحمته ،وهكذا شأن الأنبياء يعلمون أن كل شيء من الله وبفضله، فلا ينسبون شيئاً من الفضل إلى أنفسهم.

(٢) ليس هذا من باب التزكية للنفس، وإنما هو ـ كما يقول الطبري ـ إعلامٌ بأن عنده المعرفة التامة والخبرة الكافية، في إدارة الشؤون الإقتصادية والمالية.

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾

***

ولثواب الله في الآخرة ـ للذين صدَّقوا الله ورسوله، وكانوا يخافون عقابه فيطيعونه ـ خيرٌ مما أعطى يوسف في الدنيا.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ جاءوا فدخلوا على يوسف[1]، فعرفهم وهم لا يعرفونه ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ ولما جهَّزهم بالطعام وملأ لكل رجلٍ منهم بعيره، قال لهم: ائتوني بأخيكم من أبيكم[2]، كيما أحمل لكم بعيراً آخر. ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ألا ترون أني لا أبخس الناس شيئاً، وأنا خير من أكرم الضيف في هذه البلدة؟ ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فإن لم تأتوني بأخيكم، فليس لكم عندي طعام أكيله لكم، ولا تقربوا بلادي. ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ قالوا: سنسأل أباه أن يُخلِّيه معنا ونجتهد في ذلك. ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ وقال يوسف لغلمانه: اجعلوا ثمن الطعام الذي أخذتموه منهم في أمتعتهم[3] من حيث لا يشعرون. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ لعلَّهم يعرفونها إذا عادوا إلى أهلهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ليرجعوا إلينا. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ فلما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم، قالوا يا أبانا: مُنع منا الكيل[4] فوق الكيل الذي أخذناه على عددنا ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فأرسلْ معنا أخانا «بنيامين» يكتلْ

---

(١) كان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم، فخرجوا إلى مصر ليشتروا منها الطعام.

(٢) إنما قال ﴿من أبيكم﴾ لأن يوسف لم يكن أخاهم الشقيق، وروي أنهم لما دخلوا عليه قال كالمنكر عليهم: من أنتم؟ وما الذي أقدمكم بلادي؟ فقالوا: قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون ـ جواسيس ـ قالوا معاذ الله، وأخبروه بأنهم أولاد يعقوب وحدثوه بقصتهم، فقال لهم عند ذلك ائتوني بأخ لكم من أبيكم.

(٣) قصد من وراء ذلك الكرم والتفضل عليهم، ليكون ذلك أدعى إلى العود والرجوع إليه.

(٤) في قوله ﴿مُنِع منا الكيلُ﴾ إشارة إلى قوله تعالى ﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي﴾ فهو خوف من المنع في المستقبل، وإلى هذا ذهب ابن كثير وهو الأرجح.

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

* * *

لنفسه كيل بعير زيادةً على كيلنا، ونحن نحفظه من أن يناله مكروه. ﴿قال هَلْ آمَنُكُمْ عليهِ إلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ على أخيه مِنْ قبل﴾ هل أئتمنكم على أخيكم «بنيامين» إلاَّ كما أمنتكم على أخيه «يوسف» من قبل؟ ﴿فالله خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين﴾ فالله خيركم حفظاً، وهو أرحم بخلقه، وسيرحم ضعفي وكبري، فلا يُضيِّعه ولكن يحفظه. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُم وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إليهم﴾ ولمَّا فتحوا متاعهم الذي حملوه من مصر، وجدوا ثمن الطعام الذي اكتالوه رد اليهم. ﴿قَالُوا يا أبانا ما نَبْغِي هَذِهِ بضاعَتُنَا رُدَّتْ إلينا﴾ قالوا لأبيهم: ماذا نبغي بعد هذه الكرامة[1]؟ فهذه بضاعتنا قد رُدَّت إلينا. ﴿وَنَمِيرُ أهلنا ونحفظُ أخانا﴾ ونشتري لأهلنا الطعام، ونحفظ أخانا بنيامين ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ ونزداد حمل بعيرٍ فوق أحمالنا. ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ فهذا حمل يسيرٌ لا يكلفنا إلاَّ أن ترسل معنا أخانا[2] ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَه مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُون مَوْثِقاً مِنَ الله﴾ قال لهم يعقوب: لن أرسل معكم أخاكم إلى مصر، حتَّى تعطوني عهداً ويميناً بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ لتأتنني بأخيكم إلاَّ أن تُغْلبوا، وتُصابوا بأمرٍ يذهب بكم جميعاً. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ فلما أعطوه عهودهم قال: الله شهيد علينا جميعاً[3] ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وقال يعقوب لبنيه: لا تدخلوا مصر من طريقٍ واحد، وادخلوا من طرقٍ متفرقة، **قال الضحاك**: خاف عليهم العين. ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وما أقدر أن أدفع عنكم من قضاء الله شيئاً. ﴿إنِ الْحُكْمُ إلاَّ للهِ﴾ ما القضاءُ والحكمُ إلاَّ للهِ، يحكم بما يشاء في خلقه. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ على الله اعتمدتُ وبه وثقتُ في حفظكم، وعلى الله فليعتمد

---

(١) «ما» في قوله ﴿ما نبغي﴾ استفهامية أي ماذا نطلب بعد هذه الكرامة؟ وقالوا ذلك لأبيهم تطييباً لنفسه حتى يرسل معهم أخاهم.

(٢) كان يوسف عليه السلام يعطي كل رجل حمل بعير، فلذلك طلبوا أن يرسل معهم أخاهم.

(٣) قال ابن إسحاق: وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بُدّاً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها.

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾

* * *

المتوكلون. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ ولما دخل أولاد يعقوب من الطرق المتفرقة كما أوصاهم أبوهم ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ من اللهِ مِنْ شَيْءٍ إلَّا حاجةً في نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ ما كان دخولهم ليدفع عنهم من قضاء الله شيئاً، إلا خشية العين عليهم، وهي حاجةٌ[1] اطمأنت بها نفس يعقوب. ﴿وَإنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وإنه لعالمٌ بتعليمنا له، ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون حكمة الله في فعله. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ولما دخل إخوته عليه ضمَّ إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿قَالَ إنِّي أَنَا أَخُوكَ﴾ قال: إني أنا أخوك يوسف[2] ﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلا تحزن على ما فعلوا بك وبأخيك. ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجِهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ في رَحْلِ أَخِيهِ﴾ ولمَّا قضى حاجتهم وأخذوا ميرتهم، جعل السِّقاية ـ الإناء الذي كان يشرب فيه الملك ويكيل به الطعام ـ في متاع أخيه بنيامين ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا العِيرُ إنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ثم نادى منادٍ: يا أيتها القافلة إنكم لسارقون[3]. ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ قالوا وأقبلوا على المنادي: ما الذي تفقدونه حتى اتهمتمونا بالسرقة؟ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ﴾ قال لهم القوم: نفقد مَشْربة الملك، قال ابن عباس: الصُّواع: إناءٌ من فضة كان الملك يشرب فيه. ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ولمن جاء بالصُّواع[4] حمل بعيرٍ من الطعام، وأنا ضامنٌ وكفيل بذلك. ﴿قَالُوا تاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ في الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ قالوا: واللهِ ما جئنا لنعصي اللهَ في أرضكم، ولو كنا سُرَّاقاً لم نردَّ عليكم البضاعة التي وجدناها في

---

(١) الحاجة هنا هي شفقته عليهم، ووصيتُه لهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة خوفاً عليهم من العين.

(٢) لما قدموا على يوسف ومعهم أخوهم «بنيامين» أدخلهم دار كرامته، ومنزل ضيافته، وأفاض عليهم الألطاف والإحسان، واختلى بأخيه فاطلعه على شأنه وما جرى له، وعرَّفه أنه أخوه يوسف، وقال له: لا تأسف على ما صنعوا بي، وأمره بكتمان ذلك، وتواطأ معه أنه سيحتال على إبقائه عنده. ا هـ مختصر ابن كثير ٢ / ٢٥٦

(٣) إنما استحلَّ أن يرميهم بالسرقة، لما فيه من المصلحة بإمساك أخيه بنيامين.

(٤) السقاية والصُّواعُ شيء واحد، يسمَّى سقايةً لأنه يشرب به، وصاعاً لأنه يُكال به.

﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾

* * *

رحالنا. ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُم كاذِبِينَ﴾ قالوا ما جزاء آخذ الصُّواع إن كنتم كاذبين في قولكم؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ قال إخوة يوسف: جزاء السارق أن يُسلَّم إلى من سرق منه ليسترقَّه ويستعبده[1] ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ كذلك نصنع بمن سرق منا. أخبروا بما يُحكم في بلادهم أنه من سَرَق أُخذ عبداً. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ فبدأ يوسف بتفتيش أوعية إخوته، فجعل يفتّشها وعاءً وعاءً، ثم فتّش وعاء أخيه الشقيق آخرها[2]، فاستخرج الصواع من وعاء أخيه بنيامين ﴿كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ هكذا صنعنا ليوسف ليحتبس أخاه عنده ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ﴾ ما كان ليأخذ أخاه في حكم الملك وسلطانه، لأنه لم يكن في شريعة الملك أن يُسْتعبد السارقُ، ولكن هذا الحكم كان في شريعة يعقوب ﴿إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ لكنْ صنعنا له ذلك بإرادتنا. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ نرفع مراتب ومنازل من نشاء بالعلم، كما رفعنا مرتبة يوسف على إخوته ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ وفوق كل عالم مَنْ هو أعلمُ منهُ، حتى ينتهي إلى الله عزَّ وجل. ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾ قالوا: إن يسرق «بُنْيامين» فقد سرق أخوه يوسف من قبلُ ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ فأضمر يوسف في نفسه تلك الكلمة، ولم يظهرها لهم. ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً واللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ قال يوسف: أنتم شرٌّ منزلةً عند الله ممن وصفتموه بالسرقة، والله أعلم بما تكذبون في شأن يوسف وأخيه، قال ابن عباس: أسرَّ في نفسه هذه الجملة «أنتم شرٌّ مكاناً والله أعلم بما تصفون»

---

(١) معنى ﴿فهو جزاؤه﴾ أي فنفسه مسترقةٌ بالسرقة، وهكذا أفتى إخوة يوسف أن جزاء السارق أن يستعبد ويؤخذ في سرقته عملاً بشريعة يعقوب، وقد نسخ الحكم بقطع اليد في شريعتنا.

(٢) هذا تمكينٌ للحيلة ودفعٌ للتهمة، ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه.

(٣) قصدوا بذلك رفع التُهمة عن أنفسهم، ورموا بها يوسف وشقيقه، وهذا تهمةٌ للبريء وكذبٌ صريح، مِمَّا يُثبت أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء على الصحيح، لأنهم فعلوا ما يتنافى مع النبوة، كالإقدام على القتل، والحسد، والكذب وغيرها.

قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

***

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً﴾ قالوا يا أيها الملِكُ إنَّ أباه شيخ كبيرٌ[1] وهو يحبه حباً شديداً، يتسلَّى به عن ولده الذي فقده. **﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾** فخـذ واحداً منا بدلاً من بنيامين، إنا نراك محسناً في أفعالك، أحسنت إلينا فيما فعلت معنا **﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إلا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾** قال يوسف: نستجير بالله أن نأخذ بريئاً بمتهم، وأن نأخذ غير من وجدنا متاعنا عنده. **﴿إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾** إنا إن فعلنا ذلك نكون ظالمين **﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾** فلما يئسوا من تخليص أخيهم «بنيامين» خَلاَ بعضُهم ببعض يتناجوْن بينهم **﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾** قال كبيرهم في السنِّ[2] - روبيل - ألم تعلموا أيها القوم، أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم العهـد والميثاق أن تأتوا بأخيكم، ومن قبل هذا تفريطكم في يوسف. **﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حتَّى يَأْذَنَ لي أَبي﴾** فلن أفارق أرض مصر، حتى يأذن لي أبي بالخروج منها. **﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمينَ﴾** أو يقضي ربي لي بالخروج منها، وهو خير من فصل وحكم بين الناس. **﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾** ارجعوا إلى أبيكم يعقوب، فقولوا له: إن ابنك «بنيامين» سَرَق وأُخذ بسرقته. **﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾** وما شهدنا بأن ابنك سرق، إلا برؤيتنا للصُّواع في وعائه. **﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾** وما كنا نظن أنه سيسرق، ويصير أمرنا إلى هذا **﴿واسْأَلِ الْقَرْيَةَ التي كُنَّا فيها﴾** واسأل أهل القرية - مصر - التي كنا فيها. **﴿وَالْعِيرَ الَّتي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾** والقافلة التي كنَّا معها. **﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾** وإنَّا لصادقون فيما أخبرناك عنه من أمر بنيامين. **﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكم أَمْراً﴾** قال: بل زيَّنت لكم أنفسكم أمراً أردتموه. **﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾** فصبري صبرٌ جميلٌ، لا جزع فيه ولا شكاية **﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾** لعلَّ الله يردُّ أولادي عليَّ جميعاً. **﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾**

---

(١) هذا استعطافٌ منهم ليوسف من أجل ان يرقّ قلبه فلا يحتجزه عنده.

(٢) وقيل كبيرهم في الرأي، واختار الطبري الأول وهو الأرجح لأنه الظاهر والمتبادر عند الإطلاق.

وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ

* * *

العالم بأمري، الحكيمُ في تدبيره. ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ وأعرض عن أولاده وقال: يا حزنا على يوسف[١] ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزْنِ﴾ وابيضَّتْ عينا يعقوب من شدة الحزن ففقد بصره ﴿فهو كظيمٌ﴾ مملوءُ القلب بالحزن والكمد ﴿قَالُوا تالله تَفْتأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ قالوا: نقسم بالله لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أو تكونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ حتَّى تكون ضعيف الجسم، مخبول العقل[٢]، أو تكون من الهالكين بالموت.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحُزْني إلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ قال لهم يعقوب: لا أشكو همّي وحزني إلّا إلى الله وحده، وأعلم أن رؤيا يوسف صادقة وأني سأسجد له ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فتحسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأخيهِ﴾ اذهبوا إلى الأرض التي تركتم بها أخويكم، وتعرَّفوا[٣] خبر يوسف وأخيه بنيامين. ﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ ولا تقنطوا من رحمة الله، أن يردَّ علينا يوسف. ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ من رَوْح اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ إنه لا يقنط من فرجه ورحمته، إلا القوم الجاحدون بقدرته. ﴿فَلَمَّا دَخلُوا عليه قَالُوا يَا أَيُّها الْعَزيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ فلمَّا دخلوا على يوسف قالوا له: يا أيها العزيزُ أصابنا وأهلنا الشدة من القحط والجدب. ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ وجئنا ببضاعةٍ رديئةٍ[٤] لا تصلح ثمناً. ﴿فَأَوْفِ لَنَا الكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ فأعطنا بهذا الشيء الرديء ما كنت تعطينا بالثمن الجيد، وتفضَّل علينا بإحسانك، فلا تُنقصنا الكيل لرداءةِ بضاعتنا. ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ إن الله يثيب المتفضّلين على أهل الحاجة[٥]. ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قال لهم: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه!

---

(١) هيَّج عنه فقدُ «بنيامين» حزنه على يوسف، وذكَّره بمصابه الأول، كما قيل: «إن الأسى يبعثُ الأسى».

(٢) أصل الحَرَض: الفسادُ في الجسم والعقل من الحزن أو العشق. اهـ الطبري ١٣ / ٤٢

(٣) التحسُّس طلب الشيء بالحواس كالسمع والبصر ويكون في الخير، والتجسُّس يكون في الشر.

(٤) المزجاة: الرديئة وهذا قول ابن عباس، وقال مجاهد والحسن: القليلة اليسيرة.

(٥) لمَّا شكَوْا إليه حالهم، وما أصابهم من الجهد والبلاء، رقَّ لهم وأخذته الرحمة والشفقة على أبيه، وباح لهم بالسرِّ وأخبرهم بانه أخوهم يوسف.

وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

* * *

حين فرَّقتم بينهما وصنعتم ما صنعتم، في حال جهلكم بقبح فعلكم؟ ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ قالوا: هل أنت يوسف؟ ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ قال نعم: أنا يوسف، وهذا أخي «بنيامين» قد جمع الله بيننا بعدما فرَّقتمونا ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إنه من يتَّق ربه، ويصبر فيكفَّ نفسه عما حرَّم الله، فإن الله لا يُبطل ثواب إحسانه ﴿قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا﴾ قالوا: واللهِ لقد فضَّلك الله علينا بالعلم والحلم والفضل. ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾[1] وما كنا في صنيعنا إلَّا مخطئين ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ قال لهم يوسف: لا تأنيب عليكم اليوم فيما صنعتم. ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ عفا الله عن ذنبكم، وهو أرحم الراحمين بعباده. وهذا دعاءٌ من يوسف لإخوته بالمغفرة. ﴿إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً﴾ إذهبوا بهذا القميص، فألقوه على وجه أبي يعد بصيراً. ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وجيئوني بجميع أهلكم ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ ولمَّا خرجت العير ـ القافلة ـ من مصر متوجهةً إلى يعقوب. ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال يعقوب إني لأجد ريح ولدي يوسف، لولا أن تسفِّهون[2]. ﴿قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ قالوا: نقسم بالله إنك لفي خطئك[3] القديم، بحبك ليوسف لا تنساه ولا تَسْلاه. ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ فلما جاء المبشِّر[4] برسالة يوسف. ﴿أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ ألقى القميص على وجه يعقوب،

---

(١) قوله (لخاطئين) الخاطىء: العاصي المتعمد للإثم، والمخطىء الذي لا يتعمد الإثم، ويدل عليه قوله تعالى ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ ولم يقل المخطئون، فتدبره فإنه دقيق.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد، وقيل المعنى: لولا أن تلوموني أو تكذبوني، وأصل الفند: ذهاب العقل والخرَف.

(٣) أرادوا بقولهم ﴿في ضلالك القديم﴾ خطئك القديم بحبك يوسف، ولو أرادوا حقيقة الضلال لكفروا.

(٤) المبشِّر هو «يهوذا بن يعقوب» قال لإخوته: أنا ذهبت اليه بالقميص ملطخاً بالدم، وأنا اليوم أذهب إليه بقميصه مبشراً فأفرحه كما أحزنته.

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ

* * *

فعاد مبصراً بعدما عمي. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال يعقوب لمن بحضرته: ألم أقل لكم إن الله سيردُّ عليَّ يوسف، ويجمع بيني وبينه؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ قالوا يا أبانا: سل لنا ربك أن يعفو عن ذنوبنا، فلا يعاقبنا بها في القيامة. ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ مخطئين وقد اعترفنا بذنوبنا. ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال: سوف أسأل لكم ربي المغفرة، قال ابن مسعود: أخَّرهم إلى السحر[1] ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الساتر لذنوب التائبين، الرحيم بالمؤمنين. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ فلما دخل يعقوب وأولاده على يوسف، ضمَّ إليه أبويه. ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ وقال لهم: ادخلوا بلدة مصر[2] آمنين إن شاء الله من كل مكروه. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ورفع أباه وأمه[3] على سرير المُلْك. ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ وخرَّ يعقوب وأولاده وأمه ليوسف سجوداً، سجود تحية[4] لا سجود عبادة. ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ وقال يوسف: يا أبتِ هذا تفسير ما رأيته في منامي، حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر يسجدون له ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ قد حقَّقها ربي على وجه الصحة. وكان بين الرؤيا وتأويلها أربع وأربعون سنة، وقال الحسن: أُلقي يوسفُ في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان بين فراق يوسف ليعقوب أربعون سنة، لم يفارق الحزنُ قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض يومئذ عبدٌ أحبُّ إلى اللهِ من يعقوب. ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ وقد أحسن الله بي في إخراجي من السجن، الذي كنت محبوساً فيه. ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ وفي مجيئه بكم من البادية - بادية فلسطين - قال ابن جريج: كانوا أهل بادية وماشية[5] ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ من بعد أن أفسد الشيطان وأغوى بيني وبين إخوتي. ﴿إِنَّ رَبِّي

---

(١) إنما أخرهم لوقت السحر، لأن الدعاء فيه مستجاب كما في الصحيح «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل»

(٢) قال لهم ذلك قبل دخولهم مصر، حين تلقَّاهم تكرمة لهم، فآوى اليه أبويه ثم قال لهم ذلك.

(٣) هذا هو الصحيح أن المراد بأبويه أباه وأمه، وقيل: خالته لأن أمه قد ماتت، وقد ردَّه ابن جرير.

(٤) كان ذلك السجود تشرفة وتكرمة ليوسف، كما سجدت الملائكة لآدم تشرفة، وكان ذلك مباحاً في شريعتهم.

(٥) أي كانوا أصحاب إبل وغنم يسكنون البادية، فعدَّ مجيئهم إلى الحاضرة من النعم الكبيرة.

هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

* * *

﴿لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ لطيف التدبير لما يشاء، لَطَفَ بيوسف فأخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه تحريش الشيطان. ﴿إنه هو العليمُ الحكيمُ﴾ العليمُ بمصالح خلقه، الحكيمُ في تدبيره ﴿ربِّ قد آتيتني من المُلْكِ﴾ هذا من دعاء يوسف الصدِّيق، حين اشتاق إلى لقاء ربه، وأحبَّ أن يلحق بآبائه الصالحين[1] والمعنى: يا رب قد أعطيتني من ملك مصر. ﴿وَعَلَّمْتَني مِنْ تَأْويلِ الأَحَاديثِ﴾ وعلمتني تعبير الرؤيا. ﴿فَاطِرَ السَّمواتِ وَالأَرْضِ﴾ يا خالق السموات والأرض وبارئها. ﴿أَنْتَ وَلِيِّ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ﴾ أنت ناصري ومتولي أمري في دنيايَ وآخرتي ﴿تَوَفَّني مُسْلِماً وَأَلْحِقْني بالصَّالِحينَ﴾ اقبضني إليك مسلماً، وألحقني بالصالحين من أنبيائك ورسلك[2].

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إليكَ﴾ هذا الخبر من أخبار الغيب التي لم تشاهدها[3] يا محمد، نوحيها إليك ونعرِّفك بها. ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرونَ﴾ وما كنتَ حاضراً معهم، حين أجمع إخوةُ يوسف وعزموا على إلقائه في الجبِّ. ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بمؤمنينَ﴾ وما أكثر المشركين من قومك، بمصدِّقيك ولا متبعيك، ولو حرصت على إيمانهم ﴿وما تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ولستَ تسألهم أجراً على الإيمان ﴿إنْ هُوَ إلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالِمينَ﴾ ما هذا إلاَّ عظةٌ وتذكيرٌ للعالمين. ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وكم من حجة وعبرة للهِ في السموات والأرض، كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار والأشجار. ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عنها مُعْرِضُونَ﴾ يعاينونها فلا يعتبرون بها ولا يُفكِّرون. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ وما يؤمن أكثر هؤلاء الكفار بالله، إلاَّ وهم يعبدون

---

(١) قال ابن كثير: هذا دعاء من يوسف الصدِّيق، دعا به ربه عز وجل، لما تمت نعمته عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والمُلْك، سأل ربه أن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين.

(٢) قال ابن عباس: اشتاق إلى لقاء ربه، وأحب أن يلحق بآبائه، فدعا ربه أن يتوفاه، ولم يسأل نبي قطُّ الموت غير يوسف.

(٣) في الآيات احتجاجٌ على صحة نبوّة محمد ﷺ بإخباره بالغيوب، حيث لم يشهدها وأخبر عنها.

أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

* * *

الأوثان، يُقِرُّون بالله ويعبدون معه غيره، قال عطاء: يعلمون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يُشركون[1] به. **﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾** أفامن هؤلاء المشركون أن تأتيهم عقوبة من عذاب الله تغشاهم. **﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾** أو تأتيهم القيامة فجأةً وهم لا يدرون بمجيئها، فيخلَّدون في نار جهنم. **﴿قُلْ هَذِهِ سبِيلي أَدْعُو إلى اللهِ عَلَى بَصيرَةٍ﴾** قل يا محمد هذه طريقتي ودعوتي، أدعو بها إلى الله عزَّ وجلَّ، على يقينٍ وحجةٍ واضحة. **﴿أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَني﴾** أدعو إليها أنا، ويدعو إليها من صدَّقني واتبعني وآمن بي. **﴿وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكينَ﴾** وأقول تنزيهاً وتعظيماً لربي «سبحان الله» أن يكون له شريك في ملكه، وأنا بريءٌ من أهل الشرك، ولستُ منهم وليسوا مني. **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾** وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً - لا نساءً ولا ملائكة - أوحينا إليهم آياتنا، من أهل المدن دون أهل البوادي[2]. **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** أفلم يسافر هؤلاء المشركون، المكذبون لرسالتك، فينظروا في آثار الأقوام المهلكين، ماذا حلَّ بهم من العقوبة، فيعتبروا ويتفكروا؟ **﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾** وللآخرةُ خيرٌ للذين اتقوا ربهم، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه. **﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾** أفلا تعقلون الحقيقة؟ **﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾** حتى إذا يئس الرسلُ من إيمان قومهم **﴿وظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبوا﴾** وظنَّ الأقوام أن الرسل قد كذبوهم فيما أخبروهم[3]. **﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾** جاء نصرنا لرسلنا وأتباعهم، فنجينا من نشاء من عبادنا المؤمنين. **﴿وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمينَ﴾** ولا تُردُّ عقوبتنا وعذابنا عن القوم الذين

---

(١) كان المشركون في تلبيتهم يقولون: «لبَّيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

(٢) لم يبعث الله رسولاً من أهل البادية لجفائهم، لأنهم أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً.

(٣) هكذا فسره الطبري فأعادا الضمير إلى الأقوام، والراجح أن الضمير يعود الى الرسل، ويصبح المعنى: وأيقن الرسل أن قومهم قد كذَّبوهم، ولم يعدلهم أملٌ بإيمانهم، جاءهم النصر والفرج، ففي الآية إشارة إلى أن الفرج يأتي بعد الضيق والشدة والله أعلم.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

* * *

أجرموا، فكفروا بالله وخالفوا رسله. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ لقد كان في قصة يوسف وإخوته، عبرةً وعظة لأهل العقول يتّعظون بها. ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرى﴾ ما كان هذا القرآن حديثاً يُختلق ويُكذب. ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بين يَدَيْهِ﴾ ولكنه تصديق كتب الله التي قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور، يشهد لها ويُصدِّقها. ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وفيه تفصيل كل ما يحتاج العباد إليه، من حلال وحرام، وأمرٍ ونهي. ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهدىً ورشاد لمن جهل سبيل الحق، ! ورحمة لمن آمن به وعمل بما فيه، من وعدٍ ووعيد، وأمرٍ ونهي، لقومٍ يُصدِّقون بالقرآن.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة يوسف»

* * *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

* * *

﴿الٓمٓر﴾ بيَّنا القول في حروف المعجم بما فيه الكفاية[١] ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكتابِ﴾ هذه آيات الكتاب الذي أنزلتُه إليك. ﴿والَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ وهذا القرآن هو الحقُّ، فاعمل بما فيه واعتصمْ به. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ ولكنَّ مشركي قومك لا يُصدِّقون بهذا القرآن ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الله هو الذي رفع السموات السبع بغير عَمَد، ترونها كذلك بغير أعمدة، وجعلها للأرض سقفاً. ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ ثم علا على العرش[٢]. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْس وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وذلَّل الشمس والقمر، يجريان في السماء لمصالح الخلق ومنافعهم، لوقت فناء الدنيا. ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ يقضي أمور الدنيا وحده، بلا ظهير ولا معين. ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ يُبيِّن لكم آيات كتابه ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لتوقنوا بلقاء الله ووحدانيته، وتصدّقوا بوعده ووعيده ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾ والله سبحانه بسط الأرض طولاً وعرضاً، وجعل فيها جبالاً ثابتة وأنهاراً من ماء. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فيها زوجين اثنين﴾ وجعل فيها نوعين[٣] اثنين من كل

(١) قدمنا في أول سورة البقرة أن الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن

(٢) علا على العرش علواً يليق بجلاله، من غير تجسيم ولا تشبيه ولا تعطيل، والحقُّ أن نؤمن بما أخبر به القرآن، من غير تكييف ولا تشبيه كما قال الإمام مالك رحمه الله: الإستواء معلومٌ، والكيفُ مجهولٌ، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب

(٣) المراد أنه خلق من كل الثمرات صنفين من الثمر: كالأسود والأبيض، والحلو والحامض، وقيل المرادُ بالزوجين الذكر والأنثى

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ

* * *

الثمرات. ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ يجلّل الليلَ النهار فيُلبسه ظلمته ويجلّل النهارَ الليل بضيائه. ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَومٍ يَتَفكَّرُونَ﴾ إن في عجائب خلق الله وعظيم قدرته، لدلالات وعظات لقومٍ يتفكرون فيعتبرون، ويعلمون أن القدرة التي أبدعت ذلك، هي القدرة التي لا يتعذَّر عليها إحياء من هلك وإعادة من فني ﴿وفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ وفي الأرض قِطَع متقاربات، وتختلف بالجودة والرداءة، فمنها سَبْخة لا تنبت شيئاً، بجوار قطعة طيبة تنبت وتنفع[1] قال ابن عباس: يعني الأرض السبخة، والأرض العذبة وهما متجاورتان. ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ وفي الأرض ـ مع اختلافها بالملوحة والعذوبة، والخبيث والطيِّب، وتجاورها وتقاربها ـ بساتينُ من أعنابٍ، وفيها أيضاً زرعٌ ونخيلٌ مجتمعٌ ومفترقٌ، منه ما هو صِنْوَان ـ وهو النخلتان أو النخلات أصلها واحد ـ وغير صنوان وهي النخلة الواحدة قال ابن عباس: عنى بالصِّنوان النخلة يخرج من أصلها النخلات، فأصلها واحد ورءوسُها متفرقة، وغير صنوان النخيلُ المتفرّق فرداً فرداً ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ في الأُكُلِ﴾ يُسقى الزرعُ والنخيلُ والأعناب بماءٍ واحدٍ عذب، ونخالف بين طعومها، فهذا حلوٌ وهذا حامضٌ[2]. قال ابن جبير الأرضُ الواحدة يكون فيها الخوخ والكمّثر، والعنب الأبيض والأسود، بعضه حلو وبعضه حامض، وبعضُه أفضل من بعض. ﴿إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن في اختلاف هذه الثمار والجنات، لدليلاً واضحاً وعبرة ظاهرة لقوم يعقلون قدرة الله ﴿وَإنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُراباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جديدٍ﴾ وإن تعجب يا محمد من هؤلاء المشركين، الذين يعبدون ما لا يضر ولا ينفع، فاعجب من قولهم: أئـذا عُدمنا وبلينا، هل سنعود خلقاً جديداً كما كنا قبل وفاتنا؟ تكذيباً بقدرة الله، وجحوداً للثواب والعقاب ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ هؤلاء المنكِرون للبعث، هم الذين جحدوا قدرة ربهم ﴿وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ في أَعْنَاقِهِمْ﴾ وهم الذين في

---

(١) في هذه الآيات الدلائل والبراهين على قدرة الله ووحدانيته، فإن الصنعة تدل على الصانع

(٢) هذا أعظم برهان على قدرة الرحمن جل وعلا، فإن الماء واحد، والأرض واحدة، والأشجار متقاربة، فهذه ثمرةٌ حلوة، وهذه مُرَّة، وتلك بيضاء، وأخرى حمراء أو سوداء، فاختلاف المذاق والأشكال والألوان، مع اتفاق الماء الذي تسقى به دليلٌ على القدرة الباهرة.

أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

***

أعناقهم الأغلال يوم القيامة ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهم سكان النار ، ماكثون فيها أبداً ، لا يموتون فيها ولا يخرجون منها أبداً ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قبل الحسنَةِ﴾ ويستعجلك المشركون بالبلاء والعقوبة ، قبل الرخاء والعافية[1] ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ وقد مضت عقوبات من قبلهم ، من الأمم التي عصت ربها وكذّبت رسلها ، وما حلَّ بهم من عظيم بلائه[2] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ وإن ربك يا محمد لذو ستر وصفح ، على ذنوب من تاب من الناس ﴿وَإِنَّ ربك لشديد العقَابِ﴾ لمن هلك مصراً على معاصيه[3] ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ويقول الكافرون من قومك : هلَّا أُنزل على محمد حجةٌ وعلامة تدل على نبوته !! ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ما أنت يا محمد إلا منذر ، تنذرهم بأس الله ، ولكل قوم نبيٌّ يدعوهم إلى الله ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرحَامُ وما تَزْدَادُ﴾الله يعلم ما تحمل كلُّ أُنثى من خلق الله أذكرٌ هو أم أنثى ، وما تنقصه الأرحام من حملها في الأشهر التسعة ، وما تزداد على الأشهر التسعة[4] ﴿وَكُلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ وكل شيء عند الله تعالى بقدرٍ محدَّد، لا يجاوزه ولا يقصر عنه. ﴿عالِمُ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ﴾ عالم ما خفي عن الأبصار ، وما تشاهدونه ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ الكبير الذي كل شيء دونه ، المستعلي على كل شيء بقدرته. ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ يتساوى عند الله من أخفى القول منكم ، ومن جهر به ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ ومن هو مستخفٍ بمعصية الله في ظلمة الليل ، وظاهر بالنهار في ضوئه ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، **قال مجاهد** : السرُّ والجهر عنده سواء ،

---

(١) طلب كفار مكة العذاب على وجه الاستخفاف فقالوا «أمطرْ علينا حجارة من السماء» وهذا من سفههم وطغيانهم

(٢) فمنهم من أُهلك بالرجعة، وبالخسف، وبالمسخ، وغير ذلك من عقوبات الله

(٣) قال الطبري : وهذا الكلام ظاهره خبرٌ، وحقيقته وعيدٌ وتهديد للمشركين إن لم ينيبوا ويتوبوا من كفرهم .

(٤) الظاهر أن المراد بالغيض السِّقط والولادة لأقل من تسعة أشهر، والزيادة إبقاؤه أكثر من تسعة أشهر، وهذا القول مرويٌّ عن ابن عباس .

لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

* * *

والمستخفي في بيته، والخارجُ بالنهار عنده سواء. ﴿له مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ للإنسان حرسٌ من الملائكة، يتعاقبونه[1] من أمامه ومن وراء ظهره. ﴿يَحْفَظُونَهُ من أمر اللَّهِ﴾ يحفظونه بأمر الله، قال ابن عباس: مع الإنسان ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء القَدَر تخلَّوْا عنه[2] ﴿إنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ لا يُزيل ما بقوم من عافيةٍ ونعمة، حتَّى يَغيِّروا ما بأنفسهم من ذلك، بظلم بعضهم بعضاً واعتداء بعضهم على بعض، فتحلُّ بهم عقوبةُ الله ﴿وَإذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقومٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ وإذا أراد الله بقومٍ خزياً وهلاكاً، فلا يقدر على ردّ ذلك عنهم أحد غير الله. ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ وليس لهؤلاء القوم من يليهم، ويلي أمرهم غير الله تعالى.. أخبر تعالى أن حرسه لا يغني عنه شيئاً إذا جاء أمر الله. ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمعاً﴾ الله جلّ ثناؤه هو الذي يُري عباده البرق، خوفاً للمسافر من أذاه[3]، وطمعاً للمقيم في منفعته بالمطر. ﴿وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ ويُبدىء ويُثير السُّحب المثقلة بالماء. ﴿ويُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ ويُمجِّد ويعظِّم الرعد ربه، وينزّهه عن صفات النَّقص، وتسبِّح الملائكة ربها من خيفته ورهبته. ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ويُرسل الصواعق المحرقة، فينتقم بها ممن يشاء. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ في اللَّهِ﴾ وهؤلاء الكفار يخاصمون[4] في الله عزَّ وجل وفي صفاته ﴿وَهُوَ شَدِيدُ المِحَالِ﴾ والله جلَّ وعلا شديد العقوبة والقوة، وشديد الأخذ لمن طغى وتمادى في كفره ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لله جلَّ وعلا دعوة التوحيد «لا إلـه إلا الله» وهي دعوة الحقّ ﴿والَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ والآلهة التي يدعوها المشركون أرباباً من دون الله، لا تجيب من دعاها، ولا تنفع في جلب نفع، أو دفع ضُرٍّ. ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى

---

(١) وفي الحديث «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر..» الحديث أخرجه الشيخان

(٢) وهؤلاء الملائكة للإنسان كالحرس للسلطان، يحفظونه بتكليف الله تعالى، فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه.

(٣) الخوف من البرق يكون من الصواعق والأمور الهائلة، ولهذا كان ﷺ إذا سمع الرعد قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك» والطمع يكون في المطر الذي معه

(٤) روي أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى شخص من فراعنة العرب، فقال: اذهب فادعه لي، فذهب إليه فقال له يدعوك رسول الله ﷺ فقال: من رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو أم من فضة أم من نحاس؟. الحديث. وانظر كتابنا صفوة التفاسير ٢/٧٦

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ (١٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾

* * *

الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ لا تنفعه إلا كما ينفع الرجل العطشان ، يَمدُّ يده إلى البئر ، ويدعوه بلسانه ويُشير إليه بيده ليرتفع الماء إلى فمه فلا يصل إليه وهذا مثلٌ ضربه الله لمن يدعو من دونه آلهة لا تضر ولا تنفع . **﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلاَّ في ضَلَالٍ﴾** وما دعاءُ الكافرين بالله ، إلاَّ في غير استقامة ولا هُدى **﴿وَلله يَسْجُدُ مَنْ في السَّمَواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً﴾** ولله يسجد من في السموات من الملائكة الكرام ،ومن في الأرض، المؤمنون طوعاً، والكافرون يسجدون للّهِ كَرْهاً[١] **﴿وَظِلَالُهُمْ بالغُدُوِّ والآصَالِ﴾** وتسجد أيضاً ظلالُهم[٢] في أول النهار وآخره[٣] **﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين: مَنْ خالق السمواتِ والأرضِ ومنشئُها ومدبِّرُها ؟ قل لهم : الله الذي خلقها وأنشأها، هو الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له **﴿قُلْ أفاتَّخَذْتُم مِنْ دُوْنِهِ أوْلِياءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأنْفُسِهم نَفْعاً ولا ضَرّاً﴾** قل لهم أعبدتم من دون الله خالق السموات والأرض آلهة ، لا تضر ولا تنفع ، وتركتم عبادة من بيده النفع والضُرُّ، والحياة والموت ؟ ثم ضرب تعالى لهم مثلاً فقال: **﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾** قل لهم هل يستوي الكافر الذي لا يُبصر الرُّشْد، والمؤمن الذي يبصر الحقَّ فيتَّبعه ؟ أم هل يستوي الكفر والإيمان ، والهدى والضلالة ؟ **قال مجاهد** :أما الأعمى والبصير فالكافرُ والمؤمن، وأما الظلمات والنور فالهدى والضلالة **﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾** هل خلقت الأوثان كخلق الله ، حتى اشتبه عليكم أمرها ، فجعلتموها شركاء مع الله من أجل ذلك[٤] ؟ **﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾** قل لهم الله خالقكم وخالق كل شيء، وهو

---

(١) المؤمن يسجد طائعاً باختياره ، والكافر يسجد لله مكرهاً وقت الضيق والشدَّة فإنه يلجأ إلى الله ويعترف بوجوده ، عندما تدهمه كارثة أو تصيبه حادثة كما قال تعالى ﴿وإذا غشِيهم موجٌ كالظلل دعوا اللهَ مخلصين له الدين ﴾ الآية

(٢) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه ، الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين، وكرهاً من الكافرين ، وظلالهم كذلك تسجد بالغدوّ أي البكور ، والآصال وهو آخر النهار

(٣) وقيل إن سجود الأشخاص وظلالها هو انقيادها للتصرف بمشيئة الله سبحانه وتعالى

(٤) في هذا سخرية وتهكم بالمشركين في عبادتهم للأوثان والأصنام، وهو من قبيل الأسلوب «التهكمي اللاذع» الذي يزيد الكلام جمالاً وبياناً، فإنه لا يشكل على ذي عقل أن الله خالق كل شيء، وأن الأصنام لا تسمع ولا تنفع فكيف تخلق وتبدع ؟ ﴿هذا خَلْقُ الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾؟

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

* * *

الفرد الذي لا ثاني له ، القهَّار الذي لا يقهره شيء ، لا الأوثان والأصنام التي لا تضر ولا تنفع ثم ضرب تعالى مثلاً للحقِ والباطل ، والإيمان والكفر فقال ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ مثل الحقّ في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، مثل ماءٍ أنزله الله من السماء إلى الإرض ، فاحتملته الأودية بملئها ، الكبيرُ بكبره ، والصغيرُ بصغره[1] ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً﴾ فحمل السيل الذي حدث من الماء ، زبداً عالياً منتفخاً فوق ذلك السيل فهذا مَثَل الحقِّ والباطل ، فالحقُّ هو الماء الباقي ، والزَّبَدَ الذي لا يُنتفع به هو الباطل ، ثم ذكر تعالى مثلاً آخر فقال ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ في النَّار ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ ومَثَلٌ آخر للحق والباطل ، مثل فضةٍ أو ذهبٍ ، يُوقد الناس عليها في النار ، طلب حليةٍ يتخذونها ، أو متاع ينتفع به ، زبدٌ مثل زَبَد السيل ، لا ينتفع به ويذهب باطلاً ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ والْبَاطِلَ﴾ كذلِكَ يُمثِّل اللَّهُ للحقّ والباطل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ فَأَمَّا الزَّبَدُ الذي علا السيل ، والذهب والفضة ، والنحاس والرصاص ، فيذهب متلاشياً لا يبقى منه شيءٌ ، بدفع الرياح وقذف الماء ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاس فَيَمْكُثُ في الأَرْضِ﴾ وأما ما ينفع الناس من الماء ، والذهب ، والفضة ، والنحاس ، فيمكث في الأرض لمنفعة النَّاس ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ كما مثَّل هذا المثل للإيمان والكفر ، كذلك يبيِّن اللَّهُ الأمثال ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الحُسْنَى﴾ للذين أطاعوا الله ورسوله[2] ، وصدَّقوا ما جاءهم به من عند الله ، فإنَّ لهم الجنة ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ والذين لم يطيعوا الله ورسوله ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا في الأَرْض جَمِيعاً ومِثْله مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ﴾ لو كان لهم ملك الأرض جميعاً ، ومثله معه ، لافتدوا به أنفسهم من عذاب الله ، ولكنْ لا يُتقبَّل منهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسَابِ﴾ بأن يأخذهم الله بذنوبهم كلها ، ويعذبهم على جميعها[3]. ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْس المِهَادُ﴾

---

(١) هذا مثلٌ ضربه الله للحقّ وأهله، والباطل وحزبه ، فمثَّل للحقّ وأهله بالماء النازل من السماء، فتسيل به الأودية، وينتفع به أهل الأرض، ومثَّل للحق أيضاً بالذهب والفضة والحديد والنّحاس، وغيرها من المعادن التي ينتفع بها الناس، وشبَّه الباطل في سرعة اضمحلاله وزواله، بالزبد الذي يقذف به السيل، وبالخبث الذي يطفو فوق المعادن إذا أذيبت، وليس في الزبد منفعة وليس له دوام لأنه غثاء، كذلك مثل الباطل مع الحقّ

(٢) الذين استجابوا لربهم هم المؤمنون ، والذين لم يستجيبوا له هم الكافرون .

(٣) قال ابن كثير :﴿سوء الحساب﴾ أي يناقشون على النقير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عُذِّب .

* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

* * *

ومسكنهم يوم القيامة جهنم ، وبئس الفراش نار جهنم ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ هل الذي يعلم أنَّ ما أنزله الله عليك يا محمد حقٌّ ،فيؤمن به ويعمل بما فيه، كالذي هو أعمى عن الخير فلا يُبصره[1] ؟ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ إنما يتعظ ويعتبر بآيات الله أهل العقول ثم نبَّه إلى أوصافهم الحميدة فقال ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ﴾ الذين يوفون بوصية الله ، ولا يخالفون العهد الذي عاهدوا الله عليه ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّه به أَنْ يُوصَلَ﴾ والذين يصلون الرحم فلا يقطعونها ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾ ويخافون الله ويحذرون مناقشته لهم في الحساب ، فهم لرهبتهم جادُّون في طاعته ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ صبروا على الوفاء بعهد الله ، طلب تعظيم الله ومرضاته ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ﴾ وأدَّوا الصلاة المفروضة في أوقاتها بحدودها ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيةً﴾ وأدَّوا زكاة أموالهم في الخفاء والعلانية ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون إساءة من أساء بالإحسان إليهم[2] ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ هؤلاء المتصفون بالصفات الحسنة ، لهم دار الجنان على طاعتهم ربهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ جنات إقامة يدخلونها ، هم ونساؤ هم وأهلوهم وذُرِّياتهم ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب من أبوابها يقولون: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ سلامٌ عليكم بما صبرتم على طاعة ربكم في الدنيا ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ نعمت الجنة داراً للأبرار بدل النار ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ والَّذين ينقضون عهد الله ، من بعد ما عاهدوه على الطاعة ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ويقطعون الرحم التي أمرهم الله بوصلها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بالعمل بمعاصي الله ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الطرد من رحمته ﴿وَلَهُم سُوءُ

(١) قيل إن الآية نزلت في « حمزة » عم الرسول ، و « أبي جهل » لعنه الله ، وهي على العموم

(٢) إذا آذاهم أحدٌ قابلوه بالجميل صبراً وصفحاً وعفواً . « مختصر ابن كثير ٢/٢٧٩ » .

سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

***

﴿الدَّار﴾ ولهم ما يسوءهم في الآخرة **﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** الله يوسع الرزق على من يشاء من خلقه ، ويُضيِّق الرزق على من يشاء حسب المصلحة **﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** وفرحوا بما بُسط لهم من الدنيا على كفرهم[1] ، وجهلوا ما عند الله لأهل طاعته من الكرامة والنعيم **﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾** وليس ما بُسط لهم من الرزق ورغد العيش في الدنيا ، إلا قليلٌ وشيء حقير بالنسبة للآخرة **﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾** ويقول مشركو مكة هلاَّ أُنزل على محمد مَلكٌ أو كنزٌ ؟ **﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾** قل لهم إن الهداية والإضلال بيد الله ، يُضلُّ من يشاء عن الإيمان ، ويهدي من أناب فرجع إلى طاعة الله ، وليس الضلال والهداية بإرسال آية **﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾** الذين آمنوا وتسكن قلوبهم ، وتستأنس بذكر الله **﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** ألا بذكره تعالى تسكن وتستأنس قلوبُ المؤمنين **﴿الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات طوبى لهم﴾** فرحٌ وقرةُ عين لهم ، ونعم مالهم ، وقيل « طوبى » اسم شجرة في الجنة **﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾** وحسن منقلب **﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾** هكذا أرسلناك يا محمد إلى جماعة من الناس ، قد مضت من قبلها جماعاتٌ من الأمم **﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾** لتبلِّغهم ما أرسلتك به من وحيٍ. **﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرحْمن﴾** وهم يجحدون بوحدانية الله **﴿قُلْ هُو رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾** قل لهم اللَّهُ ربّي ، لا معبود بحقٍ سواه **﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾** عليه اعتمدتُ ، وإليه مرجعي وأوبتي **﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أو كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾** ولو أن قرآناً سوى هذا القران ، سيرت به الجبال[2] عن أماكنها ، أو قُطِّعت به الأرض فكانت

---

(١) إخبارٌ في ضمنه ذمٌ وتسفيه لمن فرح بالدنيا واغترَّ ببهرجها الخادع ، ولذلك حقَّرها بقوله ﴿وما الحياةُ الدنيا في الآخرة إلاَّ متاع﴾.

(٢) قال المشركون للنبي ﷺ إن كنت صادقاً فسيِّر عنا هذه الجبال ، واجعل بلادنا سهولاً كأرض مصر والشام ، وابعث لنا موتانا حتى يخبرونا عما جرى لهم ، فنزلت الآية

أَن لَّوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ

***

سهولاً ، أو قام به الناسُ من قبورهم فتكلموا ، لكان هذا القرآن[١] ، ولو فُعِل بقرآنٍ قبل هذا لفُعل بهذا القرآن ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ أفلم يتبيَّن ويعلم[٢] المؤمنون أن الأمر كله بيد الله ، يهدي من يشاء فيوفقه ، ويُضلُّ من يشاء فيخذله ؟ وأنه لو شاء لهدى أهل الأرض جميعاً ؟ ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ ولا يزال كفار قريش ، يصيبهم البلاء والعذاب والنِّقم ، بالقتل أحياناً ، والقحط أحياناً ، بكفرهم وتكذيبهم ، وإخراجهم لك من بين أظهرهم ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ أو تنزل أنت يا محمد[٣] ، بجيشك وأصحابك قريباً من دارهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ حتى يأتي فتح مكة الذي وعدك الله به ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الميعادَ﴾ لا يخلف وعده ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ولقد استهزأ أقوام من قبلك برسلهم ، وسخروا منهم ، كما استهزأ هؤلاء المشركون بك يا محمد ، فاصبر على أذاهم ﴿فأمليتُ للذين كفروا ثم أخذتم﴾ فأمهلتهم ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي ، حين تمادوا في الغيّ والضلال ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فكيف كان عقابي لهم ؟ ألم أذقهم أليم العذاب وأجعلهم عبرة لأولي الألباب ؟ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هل الربُّ الدائم الذي لا يهلك ، القائم بحفظ أرزاق جميع الخلق ، العالم بما يكسبونه من الأعمال ، كمن هو هالك[٤] بائد ، لا يسمع ولا يبصر ، ولا يدفع عن نفسه ، ولا عن عابده ضُرّاً ؟ هل كلاهما سواءٌ ؟ ﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ وجعلوا للَّهِ شركاء من خلقه ، قل لهم سمُّوا هؤلاء الذين أشركتموهم مع الله !! فإن قالوا آلهة ، فقد كذبوا لأنه لا إله إلاّ الواحد القهّار ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ أم تخبرونه بأن في الأرض إلَهاً ، ولا إلَهَ غيرُه ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ القَوْلِ﴾ أم بظاهرٍ من القول مسموع ، وهو في الحقيقة[٥] باطل ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ ولكنْ زيِّن للمشركين كذبهم

---

(١) جوابُ « لو » محذوف تقديره كما ذكره الطبري « لكان هذا القرآن » وقيل جوابه لم يؤمنوا

(٢) هكذا فسّره الطبري، وقيل: المعنى أفلم ييأس المؤمنون من إيمان الكافرين، ويعلموا أن الهداية والإضلال بيد الله وحده ؟ ! وهذا أرجح

(٣) وقيل الضميرُ يعود على القارعة والمعنى اما أن تصيبهم القارعة أو تقرب منهم ، وهو الأظهر

(٤) أشار الطبري إلى أن الجواب محذوف اكتفاءً بعلم السامع ، والمعنى هل من هو قائم على كل نفس ،حفيظ رقيب على كل أحد ، أحقُّ أن يعبدأم هذه الشركاء ؟ ويدل على ذلك قوله ﴿وجعلوا لله شركاء﴾

(٥) المراد أتسمونهم شركاء بظاهر اللفظ من غير أن يكون له حقيقة ؟

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

* * *

وافتراؤ هم على الله ﴿وَصُدُّوا عن السَّبيل﴾ وصُدُّوا عن طريق الإيمان والهدى بكفرهم ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومن أضلَّه الله عن الحق والهدى ، فليس له أحد يهديه ﴿لهم عَذَابٌ في الحَياةِ الدُّنْيا﴾ لهؤلاء الكفار عذابٌ في الدنيا بالقتل والأسر ﴿ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ ولعذابهم في الآخرة أشدُّ من عذاب الدنيا ﴿وَمَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ وليس لهم حميمٌ ولا نصيرٌ ، يقيهم من عذاب الله ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ صفةُ الجنة التي وعد بها المتقون ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ﴾ أنها تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّها﴾ ما يؤكل فيها من الثمراتِ دائم لا ينقطع ، وظلُّها أيضاً دائمٌ لا ينقَطع ﴿تِلْكَ عُقْبى الَّذينَ اتَّقَوْا﴾ هذه عاقبة الذين اتقوا ربهم ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿وعُقبى الكافرينَ النَّارُ﴾ وعاقبة الكافرين بالله نارُ جهنم ﴿والَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنـزِلَ إِلَيك﴾ والذين أنـزلنا إليهم الكتاب ، ممن آمن بك واتَّبعك(١) ، يفرحون بكتاب الله المنزل عليك يا محمد ﴿ومِنَ الأَحْزابِ مِنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ ومن أهل الملل ـ اليهود والنصارى ـ من ينكر بعض القرآن ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله ولا أشرِكَ به﴾ قل لهم يا محمد إنما أمرني ربي أن أعبده وحده دون ما سواه ، ولا أجعل له شريكاً من الآلهة والأصنام ﴿إليه أدعُوا وَإِلَيْهِ مَآب﴾ إلى عبادته أدعو الناس ، وإليه مصيري ومرجعي ﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِياً﴾ وكذلك أنزلنا الكتاب حكماً عربياً على نبيٍّ عربي ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ﴾ ولئن سايرتهم على أهوائهم وآثرت رضاهم ومحبتهم ، وانتقلت إلى دينهم ، بعد الحق الذي جاءك من الله ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ليس لك من يقيك من عذاب الله ، ولا من ينصرك إن هو عاقبك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ

---

(١) هذا قول قتادة أنهم أصحاب رسول الله الذين آمنوا به واتبعوه ، واختاره الطبري ، وقيل : هم من أسلم من اليهود والنصارى كعبد الله بن سلام والنجاشي ، وهو قول ابن زيد ، وهو الأظهر لأن المتبادر عند إطلاق وأهل الكتاب ، انهم اليهود والنصارى

يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ

* * *

﴿وَجَعَلْنَا لهم أزواجاً وَذُرِّيةً﴾[1] ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً إلى أممهم ، فجعلناهم بشراً مثلك ، لهم أزواجٌ ينكحون وينسلون ، ولم نجعلهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون **﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** وما كان لرسول أن يأتي بآيةٍ ـ معجزة ـ كتسيير الجبال ، وإحياء الموتى ، إلا بأمر الله له بذلك **﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾** لكل أمر قضاه الله كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ **﴿يَمْحُو الله ما يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾** يمحو الله من أمور عباده ما يشاء فيغيِّره ، ويُثبت ما يشاء فلا يمحوه ولا يُغيره[2] **﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتابِ﴾** وعنده أصل الكتاب وجملتُه ، وهو اللوح المحفوظ **﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾** وإن أريناك يا محمد بعض العقاب الذي وعدناهم به ، أو قبضناك قبل أن نريك ذلك **﴿فإنَّما عَلَيْكَ البَلَاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾** فإنما عليك تبليغهم رسالة ربك ، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾** أولم ير المشركون أنا نفتح للمسلمين أرض الكفار ، أرضاً بعد أرض ، حتى يقهروا أهلها ، أفلا يعتبرون بذلك ويتعظون ؟ **﴿واللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّب لحكمه﴾** واللَّهُ يحكم ويقضي ، لا رادَّ لحكمه **﴿وَهُوَ سرِيعُ الْحِسَابِ﴾** يُحصي الأعمال لا يخفى عليه منها شيءٌ **﴿وَقَدْ مَكَر الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهَمْ فَللَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾** وقد مكر الأمم قبل هؤلاء المشركين بأنبياء الله ورسله ، فللَّه أسباب المكر كلها ، لا يضر مكرهم أحداً إلا إذا أراد الله **﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كلُّ نَفْسٍ﴾** يعلم جميع أعمال الخلق ، وما يسعى إليه المشركون من المكر بك **﴿وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبى الدَّارِ﴾** وسيعلم الكفار ـ إذا قدموا على ربهم ـ لمن تكون له العاقبةُ الحسنة **﴿وَيقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْت مُرْسَلاً﴾** ويقول كفار مكة من قومك : لست يا محمد مرسلاً من عند

(١) هذا ردٌّ على المشركين الذين اعترضوا على الرسول ﷺ وقالوا : ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾؟ فأخبره تعالى أنه ليس ببدع في ذلك ، بل هو كبقية الرسل

(٢) اختلف المفسرون في معنى « المحو والإثبات » اختلافاً كبيراً ، فقيل : يمحو ما يشاء من الأحكام ويثبت ما يشاء منها ، وقيل : يمحو ما يشاء من أمور العباد إلا الشقاوة والسعادة ، والأجل والموت ، فقد فُرغ منها ، وقيل : إنه يمحو كل ما يشاء ويثبت كل ما أراد ، فقد روي أن عمر رضي الله عنه كان يطوف بالبيت ويبكي ويقول : اللهم إن كنت كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحه واجعله سعادة ومغفرة ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب . ويظهر لي والله أعلم ـ أن المحو والإثبات عامٌ ولكن من صحف الملائكة ، فيمحو ما يشاء فيها ويثبت ما يشاء ، وعنده اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها ، وفيه علمه الذي لا يتغير .

وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

***

﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بيني وبينكم﴾ قل لهم حسبي أن يكون ربي ، شاهداً بيني وبينكم على صدق رسالتي . ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ومن عنده علم الكتاب شاهداً بصدقي أيضاً، كعبد الله بن سلام ومن أسلم من اليهود والنصارى، الذين يجدون نعت محمد ﷺ في كتبهم، قال ابن عباس : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى[1]

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد »

***

(١) أمر الله رسوله ﷺ أن يستشهد على صحة نبوته ، بشهادة الله تعالى له بذلك ، بما أظهره على يديه من المعجزات وخوارق العادات ، وبعلماء اليهود والنصارى ممن أسلموا بعد رؤية الحق ، كعبد الله بن سلام وأصحابه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

***

﴿الٓر﴾ مضى تفسيره[1] ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ هذا القرآن أنزلناه إليك يا محمد. ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ لتخرج الناس من ظلمات الضلال والكفر، إلى نور الإيمان وضيائه. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيق ربهم ولطفه. ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعزيز الْحَمِيدِ﴾ إلى طريق الله المستقيم، وهو دين الإسلام. ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ تدعوهم الى عبادة الله الذي له ملكُ جميع ما في السموات وما في الأرض، وأن يتركوا عبادة من لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، من الآلهة والأوثان. ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ وويلٌ لمن جحد وحدانية الله وعَبَدَ غيره، من عذاب الله الشديد. ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ يختارون الحياة الدنيا ومتاعها الفاني، على الآخرة وما يُقربهم من رضى الله. ﴿وَيَصُدُّونَ عن سَبيلِ اللَّهِ﴾ ويمنعون من أراد الإيمان، عن دين الله الذي ابتعث به رسوله. ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ ويلتمسون لدين الله، التحريف والتبديل بالكذب والزور. ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ هؤلاء الكفار في ذهاب عن الحق بعيد. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ﴾ وما أرسلنا رسولاً إلاّ بلغة قومه ﴿لِيُبَيِّنَ لهم﴾ ليفهمهم أمر الله ونهيه، لتقوم عليهم الحجة. ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

(١) قد وضّحنا فيما سبق، أن الحروف المقطّعة للتنبيه على «إعجاز القرآن» وأنّ هذا الكلام الذي أفحم العلماء، والفصحاء، والبلغاء، منظومٌ من أمثال هذه الحروف، وهو قول المحققين من أئمة التفسير.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ

***

﴿يَشَاءُ﴾ ثم التوفيق والخذلان بيد الرحمن، فيخذل من شاء منهم، ويوفّق من شاء منهم. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ العزيزُ في مُلْكه، الحكيمُ في صُنْعه.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسى بِآيَاتِنَا﴾ أرسلناه بأدلتنا وحججنا الباهرة، وهي الآياتُ التسع. ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أخرج قومك من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ وعظهم بنعم الله عليهم، في الأيام التي خلت. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن فيما ذُكر لعبراً ومواعظ، لكلصابرعلى طاعة الله، شاكر لنعمه. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ اذكروا نِعمه التي أنعم بها عليكم. ﴿إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين أنجاكم من أهل فرعون ـ الأقباط ـ ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يذيقونكم أشدَّ أنواع العذاب. ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ وهذا العذاب[1] أنهم كانوا يذبّحون الذكور، ويبقون الإناث على قيد الحياة فيتركون قتلهنَّ ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ وفيما يصنع بكم آل فرعون، ابتلاءٌ واختبارٌ لكم من ربكم عظيم. ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ واذكروا حين أعلم ربكم: لئن شكرتموني لأزيدنكم من نعمي. ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ولئن كفرتم نعمتي وركبتم معصيتي، فإن عذابي شديد. ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ إن تجحدوا نعمة الله أنتم وأهل الأرض جميعاً. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فإن الله غنيٌّ عن خلقه، لا حاجة به إليهم، وهو المحمود في عباده بما أنعم به عليهم.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ألم يأتكم يا قوم خبر الذين من قبلكم، من الأمم الماضية، قوم نوح، وعادٍ وثمود، والذين بعد هؤلاء الأقوام. ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا

---

(١) إنما أدخلت الواو في هذا الموضع ﴿ويذبّحون﴾ للتنبيه على أنهم كانوا يعذبون بني إسرائيل بأنواع كثيرة من العذاب، ومنها التذبيح، وإذا حذفت الواو كان تفصيلاً للعذاب، فالآية هنا دلت على معنى زائد وهو تنوع العذاب وكثرته

أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

* * *

اللهُ﴾ لا يُحْصي عددهم، ولا يعلم مبلغهم إلا الله تعالى. ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاءت هؤلاء الأمم رسلُهم، بالحجج الواضحات، والدلائل الظاهرات. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ فردُّوا أيديهم في أفواههم، وعضوا عليها غيظاً على الرسل[1] ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ وقالوا لرسلهم: إنا كافرون برسالتكم وبمن أرسلكم. ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ونحن في شكٍّ ممَّا تدعوننا إليه من توحيد الله، موجب للريبة والتُّهمة. ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ أفي وجود الله، وأنه المستحق للعبادة شكٌّ؟ ﴿فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالق السموات والأرض. ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ يدعوكم إلى توحيده، ليستر عليكم بعض ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها. ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ويؤخركم إلى الوقت الذي كُتب لكم لانتهاء آجالكم. ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا.[2] ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ تريدون أن تصرفونا بقولكم هذا عن عبادة الأوثان، التي كان يعبدُها آباؤ نا. ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ فأتونا بحجةٍ واضحة على صحة ما تقولون. ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ قالت لهم الرسل: ما نحن إلا بشرٌ من بني آدم مثلكم. ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولكنَّ الله يتفضَّل على من يشاء من خلقه، فيوفقه للحقِّ ويهديه إليه. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وليس لنا أن نأتيكم بحجة وبرهان إلَّا بأمر الله. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وباللَّهِ فليثق المؤمنون. ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ وما لنا لا نثق بكفاية اللَّهِ ودفاعه عنَّا، وقد بصَّرنا طريق النجاة من عذابه؟ ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ولنصبرنَّ على ما نلقاه منكم من المكروه، بسبب دعائنا لكم إلى توحيد الله. ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وعلى الله

---

(١) هذا ما رجحه الطبري وهو مرويٌ عن ابن مسعود، وقال بعضهم المعنى ردُّوا عليهم قولهم وكذبوهم وهو قول مجاهد

(٢) هذا استبعادٌ منهم لتفضيل بعض البشر على بعضٍ بالنبوَّة

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

* * *

فليعتمد من كان واثقاً به من خلقه. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ وقال الكافرون لرسلهم الذين دعوهم إلى توحيد الله. ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أو لَتَعُودُنَّ في مِلَّتِنَا﴾ لنطردنكم[١] من بلادنا إلاَّ أن تعودوا إلى ديننا وتعبدوا الأصنام. ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمينَ﴾ فأوحى الله إلى الرسل، أنه سيهلك أعداءهم الكافرين. ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ولنسكننكم ديارهم من بعد إهلاكهم. ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامي﴾ ذلك فعلي بمن خافَ مقامه بين يديَّ فاتَّقاني ﴿وَخَافَ وعيدِ﴾ وخاف سخطي وعقابي. وهذا وعدٌ من الله بنصر رسله على الكفرة، وتهديدٌ لمشركي قريش على كفرهم بالله وجراءتهم على نبيِّه، وتعريفٌ للرسول ﷺ أن عاقبته النصرُ، وعاقبة من كفر به الهلاكُ. ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنيدٍ﴾ واستنصرت الرسل بربها على قومها، وهَلَكَ كلُّ متكبر حائدٍ عن الحق، لا يُقرُّ بوحدانية الله. ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ من أمام كل جبَّار جهنم يَرِدُهَا ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صديدٍ﴾ ويسقى من القيح والدم الذي يسيل منه. ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ يتحسَّاه ـ يشربه قهراً ـ ولا يكاد يزدرده[٢] من شدَّة كراهته. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بميِّتٍ﴾ ويأتيه الموت من كل موضع من أعضاء جسده، ولكنه لايموتُ فيستريح، **قال ابن عباس**: أنواع العذاب يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم، لو كان يموت لمات ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ومن وراء هذا العذاب، عذاب شديد أدهى منه وأمرُّ. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ مَثَلُ أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا، ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يومٍ عَاصِفٍ﴾ كمثل رمادٍ عصفت به الريح، في يوم ريحٍ شديدة، فنسفته وذهبت به، فكذلك أعمال الكفار يوم القيامة ﴿لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ لا يجدون منها شيئاً ينفعهم عند الله، لأنهم لم يكونوا يعملونها للهِ خالصاً، بل كانوا يشركون فيها الأوثان والأصنام. ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ البعيد

---

(١) توعَّد الكفار الرسل، بالطرد والإخراج من الأوطان والديار، إن لم يكفُّوا عن دعوتهم، وهكذا شأن كل طاغيةٍ في كل عصر وزمان، وللدعاة أسوةٌ بالرسل الكرام.

(٢) أي يبتلعه وفي الحديث «يُقرَّب إليه فيتكرَّهه، فإذا أُدني منه شَوي وجهه ووقعت فروة رأسه» أخرجه أحمد

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ

***

عن الهدى والاستقامة ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ**﴾ ألم تر بعين قلبك فتعلم، أن الله أنشأ السموات والأرض، بغير ظهير ولا معين[1]؟ ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ لو شاء لأفناكم وأتى بخلقٍ آخر مكانكم. ﴿**وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**﴾ وليس إفناؤكم وإنشاء خلقٍ سواكم، بممتنع ومتعذّر على الله، لأنه القادر على ما يشاء.

﴿**وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً**﴾ وظهر هؤلاء الكفار أمام الله يوم القيامة كلهم ﴿**فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً**﴾ فقال الأتباع للمتبوعين، الذين استكبروا عن اتّباع الرسل: إنا كنا لكم أتباعاً، نأتمر بأمركم، وننتهي بنهيكم ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ فهل أنتم دافعون عنا من عذاب الله شيئاً؟ ﴿**قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ**﴾ قال القادة: لو بيَّن الله لنا ما ندفع به عنا العذاب، لبيَّنا لكم[2] ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا**﴾ يستوي علينا الجزع والصبر[3] ﴿**مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ**﴾ ليس لنا من منجى ولا مهرب. ﴿**وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ**﴾ وقال إبليس لما فُرِغَ من الأمر، فأُدخِلَ أهلُ الجنة الجنة، وأهلُ النار النّارَ[4] ﴿**إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ**﴾ وعدكم وعد الحق بإدخال الكفار النار، فوفّى لكم بوعده. ﴿**وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ**﴾ ووعدتكم النصرة فأخلفتكم وعدي. ﴿**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**﴾ وما كان لي عليكم حجة تثبت صدق قولي، ولكنْ دعوتكم إلى معصية الله فاستجبتم لدعائي ﴿**فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ**﴾ فلا تلوموني على إجابتكم إيَّايَ ولوموا أنفسكم عليها. ﴿**ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ**﴾ ما أنا بمغيثكم ومنجيكم من عذاب الله، ولا أنتم بمغيثيَّ من

---

(١) الآية كبرهان على إمكان البعث والمعاد، فإن الذي خلق السموات في اتساعها وعظمتها، وما فيها من الآيات الباهرة، لا يعجزه أن يعيد خلق الإنسان

(٢) قال ابن عباس أي لو أرشدنا الله لأرشدناكم، يعني لو هدانا الله طريق النجاة لهديناكم إليه؛ وهذا القول أرجح والله أعلم

(٣) يريدون أن الحزن لا ينفع، والصبر لا يرفع عنهم شيئاً من العذاب

(٤) هذا إنما يكون عند استقرار أهل النار في النار، فيقوم إبليس فيهم خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وهذه هي الخطبة البتراء التي يُعلن فيها إبليس لأتباعه حقيقة الأمر، ويصدقهم فيها بأنه كان لهم مخادعاً في الدنيا ليزيدهم حسرة وألماً

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

* * *

عذابه . ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ إني جاحد بإشراككم لي في الدنيا مع الله . ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إن الكافرين بالله لهم عذاب موجع . ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وأُدْخِل المؤمنون الذين عملوا بطاعة الله ، بساتين تجري من تحت أشجارها أنهار الجنة . ﴿خَالِدِينَ فيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ماكثين فيها أبداً بأمر الله لهم بدخولها . ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلَامٌ﴾ تسلّم عليهم الملائكة في الجنة .

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كشجرةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ألم تعلم كيف مثّل اللهُ مثلاً وشبَّه شبهاً ، كلمةً طيبة وهي كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » كشجرةٍ طيّبة الثمرة[1] ﴿ أصلُها ثابتٌ وفرعها في السَّماء ﴾ أصل الشجرة راسخ في الأرض ، وأعلاها مرتفعٌ نحو السَّماء ﴿ تُؤْتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ تُطعم من ثمرها كل وقتٍ بأمر ربها ﴿ ويَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ للنَّاس ﴾ ويُمثِّل اللهُ ويُشبِّه الأشباه للنَّاس ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ليتذكروا حجة الله فيعتبروا ويتّعظوا بها . ﴿ وَمَثَلُ كلمةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ ومَثَل الشركِ بالله كشجرة الحَنْظل الخبيثة ﴿ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ ﴾ استؤصلت من فوق الأرض ﴿ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ ليس لها أصلٌ ولا ثبات ، فكذلك الكافر لم يجعل الله فيه بركة ولا منفعة ، ولا يصعد له عمل ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ ﴾ يُثبِّتُ الله المؤمنين بالإيمان في الحياة الدنيا ، وفي قبورهم حين يُسألون عن التوحيد والإيمان ، كما صحَّ به الخبر عن رسول الله ﷺ [2] ﴿ ويُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ لا يوفّق الكافر والمنافق عند السؤال في القبر إلى ما وفق له

---

(١) هذا مثلٌ ضربه الله للإيمان والمؤمن ، فالإيمان هو الشجرة الطيبة أصلها راسخ في قلب المؤمن ، وفرعها في السماء وهو العمل الصالح يرفعه الله إليه ويتقبّله

(٢) في صحيح البخاري عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : المسلم إذا سُئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى ﴿ يثبِّتُ الله الذين آمنوا . . ﴾ الآية ، قال ابن كثير : وكذا روي عن غير واحدٍ من السلف ، أن تثبيتهم في الدنيا على العمل الصالح وقول « لا إله إلا الله » وفي الآخرة عند السؤال في القبر ، وفي سنن أبي داود عن عثمان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الرجل وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾

* * *

المؤمن ﴿ ويَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ ﴾ وبيده تصريف أمور خلقه ، يفعل بهم ما يشاء ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً** ﴾ ألم تنظر يا محمد إلى الذين غيَّروا نعمة الله ؟ وهم كفار قريش[1] ، أنعم الله عليهم بمحمد فكفروا به وكذبوه ﴿ **وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ** ﴾ وأنزلوا قومهم دار الهلاك ﴿ **جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ** ﴾ جهنم يذوقون حرَّها ، وبئس المستقر جهنم ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ** ﴾ وجعلوا لربهم شركاء عبدوهم معه ، كي يضلوا النَّاس عن دين الله ﴿ **قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ** ﴾ قل لهم يا محمد استمتعوا في الحياة الدنيا ، فإنها سريعة الزوال ، وعمَّا قريبٍ تصيرون إلى النار ، وهو وعيدٌ وتهديد

﴿ **قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ** ﴾ قل لعبادي الذين صدَّقوا ما جئتهم به من عندي فلْيقيموا الصلوات المفروضة عليهم بحدودها ﴿ **وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً** ﴾ ولْينفقوا مما أعطيناهم من فضلنا سِرّاً وإعلاناً ﴿ **مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ ولا خِلالٌ** ﴾ من قبل أن يجيء يومٌ لا يقبل اللهُ فيه الفدية والعوض ، وليس هناك صداقة خليل ، فيدفع عقاب الله عمن استوجب العقوبة ، بل هناك العدلُ والقسطُ ، **قال قتادة** لينظرْ رجلٌ من يصاحب ، فإن كان للهِ فلْيداومْ ، وإن كان لغير الله فإنها ستنقطع ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ** ﴾ أنشأهما من غير شيءٍ ﴿ **وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ** ﴾ وأنزل من السماء غيثاً ، أحيا به الشجر والزرع ، فأثمرت رزقاً لكم تأكلونه ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ** ﴾ وسخَّر لكم السفن ﴿ **لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ** ﴾ لتسير بإذنه تعالى ، تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ** ﴾ وسخر لكم الأنهار ، ماؤها شرابٌ لكم ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ** ﴾ يتعاقبان عليكم بالليل والنهار ، لصلاح أنفسكم ومعاشكم ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ** ﴾ الليل للسكن تسكنون فيه ، والنهار لمعاشكم **فالذي**

---

(١) هذا قول ابن عباس وعطاء ورجحه الطبري

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

* * *

يستحق العبادة من هذه صفتُه، لا من لا يقدر على ضَرٍّ ولا نفع من الأوثان والآلهة ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ وأعطاكم من كل شيءٍ سألتموه ورغبتم فيه[١] ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ وإن تعدُّوا نعم الله التي أنعمها عليكم ، لا تطيقوا إحصاء عددها والقيام بشكرها ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ ظالمٌ لنفسه بعبادة غير الله ، جاحدٌ نعمة الله

﴿ وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ اذكر يا محمد حين قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا الحرم ، بلداً آمناً أهلُه وسكانُه ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ وأبْعدني وأبنائي عن عبادة الأصنام ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾ إن الأصنام أضلَّت كثيراً من النَّاس عن طريق الهدى والحقِّ ، حتى عبدوها وكفروا بك ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ فمن تبعني على الإيمان وترك عبادة الأوثان ، فإنه على سنتي وطريقتي ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رحِيمٌ ﴾ ومن خالف أمري ، فإنك غفور لذنوب المذنبين ، رحيم بعبادك ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عند بيتِك المحرَّم ﴾ أسكنتُ إسماعيل وأمه هاجر في مكة ، بوادٍ ليس به ماءٌ ولا زرع ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ﴾ فعلتُ ذلكَ كي يؤدوا الصلاة في بيتك المحرم ﴿ فاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ فاجعل قلوب بعض خلقك تحجُّ إلى البلد الحرام[٢] ﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ وارزقهم من ثمرات الأشجار ، ما رزقت سكان الأرياف والأمصار ، ليشكروك على نعمك ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ﴾ أنت يا رب تعلم قصدي في دعائي ، وهو رضاك والإخلاص لك ، وتعلم ما تخفي قلوبنا ، وما يظهر من أعمالنا ﴿ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ في الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ وكلُّ شيءٍ في الأرض

---

(١) المراد من كل ما سألتموه بلسان الحال أو المقال ، فالشمس والقمر والكواكب والأنهار خلقها لنا وإن لم نسأله إياها لحاجتنا إليها .

(٢) إنما قال﴿ أفئدةً من الناس﴾ ولو قال : « أفئدةَ النَّاس » لحجت اليهود والنصارى وفارس والروم وازدحموا عليه ، كما روى عن ابن عباس ومجاهد ، ومعنى ﴿تهوي﴾ تطير وتسرع نحوهم شوقاً إليهم ، فتدبَّرْ أسرار القرآن

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

* * *

والسماء ظاهرٌ بادٍ لك، لأنك خالقه ومدبره، فكيف يخفى عليك؟ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ**﴾ الحمد لله الذي رزقني على كبر سنّي ولداً إسماعيلَ وإسحاق . ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ إن ربي لسميعٌ لدعائي ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾ اجعلني مؤدياً للصلاة مقيماً لحدودها ، واجعل أيضاً من ذريتي من يقيم الصلاة ﴿**رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ**﴾ تقبَّلْ عملي وعبادتي ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ**﴾ وهذا استغفارٌ منه لأبيه ، قبل أن يتبيَّن له أنه عدوٌ لله « فلمَّا تبيَّن له أنه عدوٌ للَّهِ تبرأ منه »[1] ﴿**وَلِلْمُؤْمِنينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ واغفر لمن تبعني على الدين الـذي أنا عليه ، يوم يقوم النَّاس للحساب

﴿**ولا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ**﴾ ولا تظنن يا محمد الله ساهياً عَمَّا يعمل المشركون من قومك[2] ﴿**إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**﴾ إنما يؤخر عقابهم ، إلى يوم تشخص[3] فيه أبصار الخلق ﴿**مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ**﴾ مسرعين رافعي رءوسهم ﴿**لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ**﴾ لا ترجع إليهم أبصارهم لشدة النظر ، قال الحسن وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحدٌ إلى أحد ﴿**وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ**﴾ وقلوبهم خالية ليس فيها شيء من الخير ، ولا تعقل شيئاً ﴿**وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ العَذَابُ**﴾ وأنذر الناس ما هو نازل بهم ، يوم يأتيهم العذاب في القيامة ﴿**فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ**﴾ فيقول الكفار ربنا أمهلنا إلى حدٍّ من الزمان قريب ﴿**نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِع الرُّسُل**﴾ نؤمن بك ، ونُصدِّق رسلك ﴿**أَوَلَمْ تَكُـونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ**﴾ أقسمتم أنكم لا تنتقلون من الدنيا إلى الآخرة ، وأنكم تموتون ثم لا تُبعثون ؟ وهذا تقريع من الله

---

(١) سورة التوبة آية « ١١٤ » .

(٢) الآية عامة في كل كافرٍ وظالم ، فهي وعيدٌ للظالم ، وتسليةٌ للمظلوم

(٣) شَخَصَ البصر : إذا سَكَن من شدة الهول والحيرة فلم تطرف عين الإنسان

وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾

* * *

لهم وتوبيخ ﴿ وَسَكَنْتُمْ في مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وسكنتم في مساكن الذين كفروا بالله ، من الأمم التي كانت قبلكم[١] ﴿ وتبيَّن لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بهم ﴾ وعلمتم كيف أهلكناهم حين تمادوا في طغيانهم ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴾ ومثَّلنا لكم الأشباه فلم تُنيبوا ولم تتوبوا ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ وقد أشرك هؤلاء الظالمون ، وافتروا على الله أعظم الفِرى ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ وعند الله علم ذلك ، وهو معاقبهم عليه ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ وما كان شركهم لتزول منه الجبال[٢] ، فما ضرُّوا بذلك إلاَّ أنفسهم ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ فلا تظننَّ أن الله مخلف رسله وعده ، بإهلاك من كذَّبهم وجحد رسالتهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ عزيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ غالبٌ لا يمتنع عليه شيءٌ أراده ، منتقمٌ من أعدائه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ و السَّموات ﴾ يوم تتبدَّل الأرض غير هذه الأرض ، وتتبدَّل السموات كذلك[٣] ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وظهروا من قبورهم أحياء لموقف القيامة ، لِلَّهِ المنفرد بالربوبية ، الذي قهر كل شيءٍ وغلبَه ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ في الأَصْفادِ ﴾ وترى المجرمين يوم القيامة مقيَّدين بالقيود ، قد قُرنت أيديهم وأرجلهم بالسلاسل ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ ثيابهم التي يلبسونها من قطران[٤] ، وهو الذي تُطلى به الإبل ﴿ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ وتحرق وجوههم[٥] النار ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ فعل الله ذلك بهم ،

---

(١) المراد كما قال قتادة سكنتم في مساكن قوم نوحٍ وعاد وثمود من الأمم الطاغية ، فلم تعتبروا ولم تتعظوا

(٢) أي محال أن تزول الجبال بمكرهم ، وهو تمثيل لشرائع الله وآياته البيِّنات بالجبال الراسخات الثابتة على حالها أبد الدهر ، فكما لا تزول الجبال بالأعاصيف ، فكذلك لا يزول الإسلام بالأراجيف، وقيل المعنى : وإن كان مكرهم من القوة والتأثير بحيث يؤدي إلى زوال الجبال .

(٣) تبديل الأرض بتسيير جبالها وتفجير بحارها ، حتى لا يرى فيها عوجٌ ولا أمتٌ ، وتبديل السماء بانتثار كواكبها ، وكسوف شمسها ، وخسوف قمرها وانشقاقها ، وفي الصحيحين « يُحشر الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاءَ عفراء كقرصة النقيّ ، ليس فيها مَعْلم لأحد »

(٤) لا يُستغرب أن تكون الثياب من قطران ، ففي عصرنا الحديث ظهرت أنواع من الملابس والأقمشة هي من مواد بترولية ، فلا غرابة أن تكون ثياب أهل النار من نار كما قال تعالى :﴿ فالذين كفروا قطِّعت لهم ثيابٌ من نار﴾ والقطران أسود اللون منتن الريح ، يحرق الجرب بحرِّه ، فيجمع عليهم اللذع والحرقة والاشتعال والنتن ، وروي عن ابن عباس أنه قال القطران نحاس مذاب حار قد انتهى حرُّه

(٥) خصَّ الوجه بالذكر لأنه أعز موضع وأشرفه في البدن ، فعبَّر بالوجه عن الكل ، وهو مجاز مشهور يسمى « المجاز المرسل »

هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

* * *

جزاءً لهم بما كسبوا في الدنيا من الآثام ، كيما يُثيب كل نفسٍ بما عملت من خيرٍ وشر ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ سريعٌ حسابهُ لأعمالهم ، لأنه يعلم كل شيء ، ولا تخفى عليه خافية ، فلا يحتاج في إحصاء أعمالهم إلى معاناة ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ هذا القرآن تذكيرٌ للناس بمواعظه وعِبَره ، وليحذروا عقاب الله ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وليعلموا أن الله واحد أحد ، لا آلهة شتّى كما يقول المشركون ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ وليتّعظ وينزجر بحججه أصحاب العقول فإنهم أهل الاعتبار ، دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام ، فهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً !!

« تم بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم »

* * *



(١٥) سورة الحجر مكية وآياتها تسع وتسعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ

* * *

﴿الر﴾ تقدم بيانه[١]﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ هذه الآيات آيات الكتاب التي كانت قبل القرآن[٢]. ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾وقرآن واضحٍ رُشدُه وهداه، لمن تأمله وتدبَّره ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ربما تمنَّى الذين جحدوا وحدانية الله، لو كانوا في دار الدنيا مسلمين[٣]. قال ابن عباس: ذلك يوم القيامة يتمنى الكفار لو كانوا موحّدين، وذلك أن ناساً من أهل «لا إله إلا الله» يدخلون النار بذنوبهم، فيقول لهم المشركون: ما أغنى عنكم قولكم «لا إله إلا الله» وأنتم معنا في النار؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم منها، فعند ذلك يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ اتركهم يأكلوا في هذه الدنيا[٤]، ويتمتعوا من لذّاتها وشهواتها ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾ ويشغلهم الأمل عن التزود لمعادهم، والأخذ بحظّهم من طاعة الله. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فسوف يعلمون حين يعاينون عذاب الله - أنهم كانوا في تمتعهم باللذات والشهوات في خسار وتباب ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ وما أهلكنا من أهل قريةٍ من القرى التي أهلكناها ﴿إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ إلا ولها أجل موقّتٌ لإهلاكها[٥]. ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ

---

(١) أسلفنا بيان أرجح الأقوال في الحروف المقطعة، وأنها للتنبيه على إعجاز القرآن

(٢) هذا قول قتادة ومجاهد ولم يذكر الطبري غيره، ورجح غيره من المفسرين أن الكتاب والقرآن المبين شيء واحد، وهو الكتاب الذي وعد الله محمداً ﷺ والمعنى تلك الآيات آيات ذلك الكتاب الكامل الذي أنزل عليك يا محمد، وهو الأظهر.

(٣) قال ابن كثير والآية إخبار عنهم، أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين

(٤) الآية وردت بأسلوب الوعيد والتهديد، وفيها تنبيه على أن إيثار التلذذ والتمتع ليس من صفات المؤمنين

(٥) كقوله تعالى﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ سورة الكهف آية ٥٩.

مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

* * *

أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ لا يتقدم هلاك أمةٍ قبل أجلها ولا يتأخر[١]. **﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾**وقال المشركون يا أيها الذي نُزِّل عليه القرآن[٢]. **﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾** في دعائك إيَّانا إلى اتباعك. **﴿لَوْ ما تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾** هلَّا تأتينا بالملائكة شاهدة على صدقك، وآيةً على نبوتك !! **﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾** إن كنت صادقاً في أنَّ الله بعثك إلينا رسولاً **﴿مَا نُنَزِّلُ الْملاَئكةَ إلاَّ بِالْحقِّ﴾** ما ننزّل ملائكتنا إلا بالرسالة إلى رسلنا ، وبالعذاب لمن أردنا تعذيبه. **﴿وَمَا كَانُوا إذاً مُنْظَرين﴾** ولو أرسلنا إليهم ما طلبوا ثم كفروا ، لم نمهلهم ولم نؤخرهم ، بل عاجلناهم بالعذاب ، كما فعلنا بمن قبلهم من الأمم **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾** نزلنا القرآن**﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** وإنا لحافظون له من الزيادة والنقصان، والتغيير والتبديل[٣]. **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾** ولقد أرسلنا قبلك رسلاً في أمم الأولين **﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهزِءُونَ﴾** وما يأتيهم رسولٌ من الله ، يدعوهم إلى توحيده وطاعته ، إلا كانوا يسخرون بالرسول، عتواً وتمرداً **﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُه فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمينَ﴾** كما سلكنا[٤] الكفر والاستهزاء بالرسل في قلوب الأولين، كذلك نفعل في قلوب مشركي قومك المجرمين **﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾** لا يُصدّقون بالقرآن المنزل عليك **﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأولين﴾** وقد مضت طريقة أسلافهم الذين كذبوا رسلهم فأهلكهم الله **﴿ولو فَتَحنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾** ولو فتحنا على هؤلاء المشركين باباً من السَّماء. **﴿فظلُّوا فيه يَعْرُجُونَ﴾** فظلُّوا يصعدون فيه ويرقون[٥] **﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾** لقالوا إنما

---

(١) في الآية تنبيه وإرشاد لأهل مكة أن يقلعوا عن كفرهم وعنادهم ، فإنَّ إمهال الله لهم لا ينبغي أن يغتروا به ، لأن لكل أمةٍ وقتاً معيناً لنزول العذاب لا يتقدم ولا يتأخر

(٢) قولهم﴿يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر﴾ إنما هو على سبيل الاستهزاء والتهكم، لأنهم لا يصدّقون بنبوَّته.

(٣) في الآية نكتة هي أنه سبحانه تولى حفظ القرآن ولم يكله إلى غيره، فبقي محفوظاً على مر الدهور ، بخلاف الكتب المتقدمة فإنه لم يتول حفظها وإنما استحفظها الربانيِّين والأحبار ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ فاختلفوا فيما بينهم ووقع التحريف والتبديل.

(٤) السَّلْكُ: إدخالُ الشيء في الشيء كالخيط في الإبرة

(٥) المراد لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج ، وينظرون إلى ملكوت الله وقدرته وسلطانه، لتشككوا في تلك الرؤية ، وبقوا مصرين على كفرهم وجهلهم ، كما جحدوا سائر المعجزات كانشقاق القمر، وقيل الضمير في «ظلُّوا» يعود إلى الملائكة والأول أظهر .

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

* * *

أُخذت أبصارنا وسُحرت ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ سحرنا محمد بمكره ، فلا نبصر الشيء على حقيقته ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازل للشمس والقمر تنزل فيها ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ وحفظنا السماء من كل شيطان لعين، قد رجمه الله ولعنه .﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ لكن من استرق من الشياطين السمع[1] ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثاقِبٌ﴾ فأدركه ولحقه شهاب من النار فأحرقه ، قال ابن عباس الشهب لا تقتل ولكن تُحرق وتجرح . ﴿والأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ والأرض بسطناها . ﴿وَأَلْقَيْنَا فيها رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت . ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ وأنبتنا في الأرض من كل شيء من الفواكه والثمار والنبات ، مقدّرٍ بمقدار الحاجة وبحدٍ معلوم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فيها مَعَايِشَ﴾ وجعلنا لكم فيها ما تعيشون به . ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ وللعبيد والإماء، والدواب والأنعام.﴿وَإِن مَنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزائِنُه﴾ وما من شيءٍ من الأمطار إلاَّ عندنا خزائنه .﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ بقدرٍ محدَّد ، عندنا حدُّه ومبلغه ، قال ابن مسعود ما من عامٍ بأمطر من عام ، ولكنَّ الله يصرفه عمن يشاء ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ وأرسلنا الرياح تُلقّح السحاب والشجر ﴿فأنزلنا من السَّماء مَاءً فَأَسْقَيْنَاكموه﴾ فأنزلنا مطراً من السماء لشرب أرضكم ومواشيكم ، وجعلناه لكم سقيا ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ولستم بخازنين للماء ، فتمنعوه من أسقيه ، لأن ذلك بيدي أسقيه من أشاء ، وأمنعه من أشاء[3] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيي وَنُميتُ﴾ نُحيي الميِّت ونميتُ الحيَّ ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثونَ﴾ نحن الباقون بعد هلاك الخلق « نرث الأرض وَمَن عليها وإلينا يُرْجعون » ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مَنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ علمنا الأموات والأحياء ، من مضى من الخلق ، ومن هو حيٌّ[4] ومن سيخلق

---

(١) المراد من استراق السمع الخطفة اليسيرة لقوله تعالى﴿إلاَّ من خطِفَ الخَطْفَةَ﴾وهو قول ابن عباس.

(٢) أراد ولمن لستم له برازقين ، وهم العيال والمماليك والخدم والدواب والأنعام ، الذين رازقهم في الحقيقة هو الله تعالى لا الآباء والسادات .

(٣) هكذا فسّره الطبري وقال غيره المعنى نحن الخازنون للماء نحفظه في ينابيع الأرض وفي العيون والآبار والأنهار، ولوشئنا لجعلناه غائراً فهلكتم عطشاً، وهذا أظهر

(٤) قال ابن كثير: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حيٌّ ومن سيأتي إلى يوم القيامة ، وهذا قول ابن=

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾

* * *

بعد ، وأحصينا جميع ذلك ﴿وإنَّ رَبَّكَ هو يَحْشُرُهُمْ﴾ يجمعهم يوم القيامة للحساب والجزاء ﴿إنَّه حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حَكيمٌ في تدبيره ، عليمٌ بأعمال خلقه

﴿ولَقَدْ خلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ﴾ خلقنا آدم من طينٍ يابس[1] ، إذا نقرته سمعت له صلصلة أي صوتاً ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ من طينٍ متغيرٍ إلى السواد ، قال ابن عباس «مسنون» منتن ، وقال قتادة قد تغيَّر وأنتن ﴿والجَانَّ خلقناهُ من قبلُ﴾ وخلقنا إبليس من قبل الإنسان ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ من لهب النار وهي نار السموم التي تقتل ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ اذكر حين قال ربك للملائكة ﴿إنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ إني سأخلق إنساناً من طينٍ متغيرٍ منتن ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فإذا صوَّرتُه وعدَّلتُ صورته ، ونفخت فيه من روحي[2] ، فصار بشراً حياً ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فاسجدوا له ، سجود تحيةٍ وتكرمة لا سجود عبادة ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فسجدت الملائكة لآدم كلهم جميعاً[3] ﴿إلَّا إبْليس أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ إلا إبليس أبى أن يسجد لآدم تكبراً وحسداً ﴿قَالَ يَا إبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ما منعك من أن تكون مع الساجدين ؟! ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ قال إبليس لا يصح لي أن أسجد لبشر ، خلقته من طين يابس متغيِّر ، وأنا من نار والنارُ تأكل الطين ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ اخرج من السماء فإنك مشتومٌ

=عباس واختيار الطبري.

(١) هذه إحدى الأطوار التي مرَّ بها خلق «آدم» فإن الله سبحانه خلق آدم من تراب ، ثم من طين ، ثم من حمأ مسنون ، ثم من صلصال كالفخار ، ثم نفخ فيه الروح وجعله بشراً سوياً ، وخلقه بهذه الأمور أظهر في الإعجاز.

(٢) الإضافة ﴿ من روحي ﴾ للتشريف والتكريم مثل ناقة الله ، وبيت الله

(٣) قوله «أجمعون» توكيدٌ بعد توكيد ، وأما قوله ﴿إلا إبليس﴾ فإنه استثناء منقطع ، أي لكنْ إبليس لم يسجد ، وليس إبليس من الملائكة ، لأن الملائكة لا يعصون أمر الله ، وإنما توجَّه له الخطاب بأمرٍ خاصٍ بالسجود لآدم ، والدليل قوله تعالى في تقريعه وتوبيخه : ﴿قال ما مَنَعَك ألَّا تسجد إذْ أمرتك﴾ ؟ وقد سبق التحقيق في موضوع إبليس هل هو من الملائكة أم من الجن ؟ والأدلة الظاهرة القاطعة على ذلك في أول سورة البقرة

وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾

* * *

ملعون ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ وإنَّ غضب الله عليك إلى يوم القيامة ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ قال إبليس رَبِّ فأخِّرني إلى يوم تبعث فيه الخلق من قبورهم ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِين﴾ قال اللَّهُ له فإنك ممن أُخِّر هَلاَكُه ﴿إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُوم﴾ إلى يوم هلاك جميع الخلق[١] ، وذلك حين لا يبقى على الأرض ديَّارٌ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ قال إبليس رَبِّ بإغوائك لي ، لأحسِّننَّ لهم معاصيك ، ولأحبِّبنها لهم في الأرض ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولأضلنَّهم جميعهم عن سبيل الرشاد ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصين﴾ إلاَّ من عصمته بتوفيقك فهديته ، فإنه لا سلطان لي عليه ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قال الله هذا طريق إليَّ مستقيم ، ومرجعكم إليَّ فأجازيكم بأعمالكم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إن عبادي ليس لك عليهم حجة[٢] ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ﴾ إلاَّ من اتبعك في الضلالة ممن غوى وهَلك ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِين﴾ وإن جهنم موعد جميع من اتبعك ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ لها سبعة أطباقٍ ﴿ لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ لكل طبقة من أتباع إبليس نصيبٌ مقسوم ، قال علي إن أبواب جهنم هكذا أطباقٌ بعضها فوق بعض ، فيمتلىء الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، حتى تمتلىء كلها ، وقال ابن جريج أولها جهنم ، ثم لظى ، ثم الحطمة ، ثم السعير ، ثم سقر ، ثم الجحيم ، ثم الهاوية ﴿إِنَّ المتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ إن الذين اتقوا ربهم بطاعته واجتناب معاصيه ، في بساتين وعيون الماء ، يُقال لهم ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾ سالمين من الآفات ، آمنين من عقاب الله ﴿ونَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ وأخرجنا ما في صدور أهل الجنة من شحناء وضغائن ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ إخواناً في الله ، على سررٍ من ذهب مكللة بالدُرِّ والياقوت ، يقابل

---

(١) طلب اللعين أن يؤخره الله ﴿إلى يوم يُبعثون﴾ حتى يتخلص من الموت ،فأجابه الله ﴿فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ أي الذي يموت فيه الخلائق كلهم ، فظهر من هذا أن الموت سيشمل إبليس كما يشمل سائر الخلق، بعد أن تنتهي مهمته في الدنيا.

(٢) فسَّر الطبري السلطان بالحجة وهو صحيح من حيث اللغة ، وفسَّره غيره بأنه لا قدرة ولا طاقة له على إغوائهم وهو أظهر

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾

* * *

بعضهم وجه بعض ، لا يستدبره فينظر في قفاه ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فيها نَصَبٌ﴾ لا يصيبهم في الجنة تعبٌ ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرجِينَ﴾ وهم دائمون فيها أبداً ، لا يُخرجون من الجنة ونعيمها ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخبر يا محمد عبادي[1] أني أنا الساتر لذنوبهم إذا تابوا ، الرحيم بهم فلا أعذبهم بعد توبتهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ وأخبرهم أيضاً بأن عذابي لمن عصاني هو العذاب الموجع الذي لا يشبهه عذاب وهذا تحذيرٌ للخلق وأمرٌ لهم بالتوبة والإنابة

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إبراهيمَ﴾ وأخبرهم عن الملائكة ضيوف خليل الرحمن إبراهيم ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً﴾ حين دخلوا عليه فسلَّموا بقولهم السلام عليكم ﴿قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ قال إبراهيم إنَّا منكم خائفون[2] ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾ قال الضيوف لا تخفْ إنا نبشِّرك بولدٍ عالم ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُوني عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الكِبَرُ﴾ قال متعجباً أبشرتموني لأن مسَّني الكبر ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فبأيِّ شيء تبشرونني[3] ؟ عَجِب من كِبَره وكبر امرأته ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ﴾ قالوا بشرناك بيقينٍ وعلمٍ منا بأن الله قد وهب لك غلاماً ، فلا تكن ممَّن ييأسون من فضل الله ، ولكنْ اقبل البشرى ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إلَّا الضَّالُّونَ﴾ قال إبراهيم ومن ييأس من رحمة الله ، إلا الذين أخطأوا سبيل الصواب ، فضلُّوا بذلك عن دين الله ؟ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّها الْمُرْسَلُونَ﴾ قال فما شأنكم أيها الملائكة[4] ؟ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ قالت الملائكة إنَّ الله أرسلنا إلى قوم كفار لنهلكهم

(١) الآية تدل على مقاميْ «الرجاء والخوف» وفيها وعدٌ ووعيد، وترغيبٌ وترهيب، وهي تشير إلى أن جانب الرحمة أغلب كما ورد في الصحيح «إن رحمتي سبقت غضبي»

(٢) خافهم لامتناعهم من الأكل. ولم يكن يعرف أنهم ملائكة لا ياكلون حتى أخبروه

(٣) استفهم منكراً للولادة في حالة الشيخوخة والهرم، لأنها أمرٌ عجيب في العادة ،لا شكاً في قدرة الله ،فلذلك قال: ﴿فبم تبشرون﴾ كأنه يقول: فبأي أعجوبة تبشروني ؟

(٤) الخطب :الشأن العظيم وإنما سألهم عن سبب مجيئهم لأنه عرف أن الغرض لو كان مجرد البشارة بالغلام لكان الملك الواحد كافياً، فلما جاءوه جماعة عرف أنهم جاءوا لأمرٍ خطير ، فلذلك أنكرهم لوط عليه السلام

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا

***

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلَّا أتباع لوطٍ المؤمنين ، فإنا لن نهلكهم بل ننجّيهم أجمعين ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ إلَّا امرأة لوطٍ ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ قضى الله وحكم أنها من الهالكين ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ فلما أتت الملائكة أهل لوط ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ إنكم جماعة ننكركم ولا نعرفكم ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ جئنا بالعذاب الذي كان يشكُّ فيه قومك ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ وجئناك بالخبر اليقين من عند الله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من هلاكهم ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فاخرج من بين أظهرهم أنت وأهلُك ﴿بِقِطْعٍ من اللَّيْلِ﴾ ببقيَّةٍ من الليل ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ وسِرْ خلف أهلك واجعلهم أمامك ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ ولا ينظر أحد منكم وراءه ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ وسيروا حيث يأمركم الله ﴿وقضَيْنا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ وأوحينا إليه ذلك الأمر ﴿أَنَّ دابِرَ هؤُلاء مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ أن آخر قومك وأولهم مستأصلون بالهلاك حين يصبحون ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وجاء أهل مدينة «سدوم» مستبشرين بنزول الضيوف ، طمعاً بركوب الفاحشة ﴿قَالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ قال لهم لوط هؤلاء ضيوفي فلا تفضحوني[1] بالتعرض لهم بالمكروه ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ولا تُخْزُونِ﴾ وخافوا الله أن يحل بكم عقابُه ، ولا تهينوني بتعرضكم لهم ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ألم ننهك أن تُضيف أحداً ؟ ﴿قَالَ هؤُلاءِ بَنَاتي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ تزوجوا النساء ولا تفعلوا ما حرَّم الله عليكم ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وحياتك يا محمد إن قومك لفي ضلالتهم وجهلهم يتردَّدون[2] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ فأخذتهم الصاعقة عند شروق الشمس ﴿فَجَعَلْنا عَالِيَها سَافِلَها﴾ فجعلنا عالي أرضهم سافلها

---

(١) الضيف يجب إكرامه ، فإذا أسيء إليه في دار المُضيف، كان ذلك إهانة وفضيحة للمضيف

(٢) قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ ،وما سمعتُ الله أقسم بحياة أحد غيره يقول ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾، وقد أعاد الطبري الضمير «إنهم» على أهل مكة ، والراجح أنه يعود على قوم لوط

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

* * *

﴿وأمْطَرْنا عَلَيْهِم حِجَارةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ حجارة من طين ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِلْمَتوسِّمينَ﴾ إن فيما أحللنا عليهم من العذاب ، لدلالات وعلامات للمعتبرين ﴿وإنّها لَبِسبيلٍ مُقِيم﴾ وإن هذه المدينة لبطريقٍ واضح ، يراها المجتازون في أسفارهم ﴿إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنينَ﴾ إن في إهلاكنا لهم ، لدلالة بيِّنة لمن آمن بالله ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لظَالِمينَ﴾ وقد كان أصحاب الشجر الملتف[1] ـ وهم قوم شعيب ـ ظالمين لأنفسهم بكفرهم بالله ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿وَإِنَّهُمَا لبإمامٍ مُبين﴾ وإن المدينتين لبطريقٍ ظاهر يهتدون به في سفرهم ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ المُرْسَلِينَ﴾ ولقد كذب سُكَّان الحِجْر ـ مدينة ثمود ـ رسولهم صالحاً عليه السلام[2] ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آياتِنا فكانوا عَنْهَا مُعْرِضينَ﴾ وأريناهم حججنا وأدلتنا[3] على صدق صالح ، فلم يعتبروا ولم يتَّعظوا ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً آمِنينَ﴾ وكان قوم صالح ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين من عذاب الله ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ فأخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع ، كما توعدهم نبيهم صالح « قال تمتَّعوا في داركم ثلاثة أيام » ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فما دفع عنهم عذاب الله[4] ، ما كانوا يجترحون من الأعمال الخبيثة

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمواتِ والأرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ﴾وما خلقنا الخلائق كلها ، سماءها وأرضها وما فيهما ، إلا بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور ، فلم نهلك أحداً ظلماً بغير استحقاق ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتيةٌ﴾ وإن القيامة لكائنة لا محالة ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فأعرض عن المشركين إعراضاً جميلاً ،

---

(١) الأيكة: الشجر الملتف وهم قوم شعيب

(٢) قال ابن كثير: إنما قال « المرسلين» لأن من كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين

(٣) أراد بالآيات «الناقة» لأن فيها آيات باهرة، منها خروجها من صخرة صمَّاء بدعوة صالح ، وعظم خلقها، وكثرة لبنها إلى غير ذلك

(٤) المراد لم يدفع عنهم شيئاً من عذاب الله ما كانوا يعدونه من بناء البيوت الوثيقة ومن جمع الأموال والعُدَد .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾

* * *

واعف عنهم عفواً حسناً ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ إن ربك هو الذي خلقهم ، وهو عالمٌ بهم وبتدبيرهم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيم﴾ ولقد أعطيناك يا محمد سبع آياتٍ هي فاتحة الكتاب[١] ، وسائر القرآن العظيم ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِه﴾ لا تتمنينَّ ما جعلناه متاعاً للأغنياء الكفار من زينة هذه الدنيا ، فإن من ورائهم عذاباً غليظاً ﴿أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تحزن على ما مُتِّعوا به ، فإن لك في الآخرة ما هو خيرٌ منه ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمنينَ﴾ وألنْ جانبك وارفق بالمؤمنين ، ولا تغلظ عليهم ﴿وَقُلْ إنِّي أنا النَّذِيرُ المُبِينُ﴾ وقل للمشركين أنا المنذر لكم من عقاب الله ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى المُقْتَسِمِينَ﴾ أنذركم مثل الذي أنزلنا من البلاء والعقاب على الذين اقتسموا القرآن ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عضِينَ﴾ فجعلوه أجزاء متفرقة ، بالإقرار بالبعض والتكذيب بالبعض ، وهم اليهود والنصارى آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ، وقيل هم المشركون[٢] عضهوا كتاب الله أي فرَّقوه ، فزعم بعضهم أنه سحر ، وزعم بعضهم أنه شعر ، وزعم بعضهم أنه كهانة ، وروي عن ابن عباس أنهم المشركون ، اقتسموا طرق مكة ومداخلها أيام الموسم ـ وكانوا قريباً من أربعين ـ فقعدوا في كل مدخل متفرقين ، لينفّروا الناس عن الإيمان بالله ورسوله ، يقول بعضهم إنه ساحر ، ويقول الآخر كذّاب ، والآخر شاعر ، فأهلكهم الله يوم بدر ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعينَ﴾ فوربك يا محمد لنسألنَّ جميع الخلق ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلون﴾ في الدنيا من الأعمال ، وعن أمر التوحيد والإيمان ، **قال ابن عباس** لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا ، لأنه أعلم بذلك منهم ، ولكن يقول لهم لِمَ عملتم كذا وكذا ؟ ﴿فَاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ﴾ فامض يا محمد لما تؤمر به من تبليغ القرآن ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ المشرِكينَ﴾

---

(١) أكثر المفسرين على أن المراد بالسبع المثاني «فاتحة الكتاب» فهي سبع آيات تثنى أي تكرَّر في كل صلاة، لأنها جمعت أصول الشريعة ومقاصدها الأساسية كما ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد بن المعلى أن النبي ﷺ قال له : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن . .ثم قال له ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، الحديث وقيل: هي السبع الطوال سميت بالمثاني لما فيها من تكرار القصص والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك، والقول الأول أرجح والله أعلم .

(٢) هذا القول اختاره الطبري ورجحه، لأن ما قبل هذه الآيات وما بعدها في مشركي قومه وليس في أهل الكتاب، ولأن المشركين لم يكن فيهم من يؤمن ببعض القرآن ويكفر ببعض ؛ وإنما كان منهم مؤمن بجميعه أو كافر بجميعه ، فالصحيح من القول أن المعنى أنهم فرقوا القرآن فقال بعضهم هو شعر ، وقال بعضهم هو سحر ، وقال بعضهم هو كهانة ، وهذا القول هو قول عطاء ومقاتل وهو الأظهر والله أعلم

إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

* * *

واكفف عن حرب المشركين ، ثم نُسخ بقتالهم ، **قال ابن عبيدة** : ما زال النبي ﷺ متخفياً حتى نزلت « فاصدعْ بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه **﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾** كفيناك يا محمد الساخرين منك ، الذين استهزأوا بكتاب الله ونبيِّه[1] **﴿الَّذين يَجْعَلُون مَعَ الله إلٰهاً آخر﴾** الذين يجعلون شريكاً لله في عبادته **﴿فَسَوْفَ يعلمون﴾** ما يلقون من عذاب الله ، وما يحل بهم من البلاء ، وهو وعيدٌ من الله وتهدُّد للمستهزئين **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بما يَقُولُونَ﴾** يضيق صدرك باستهزائهم وتكذيبهم لك **﴿فَسبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾** فافزع إلى الشكر لله ، فيما نابك من أمرٍ تكرهه **﴿وكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾** لربك يكفك الله ما أهمك ، وفي الحديث أنه ﷺ كان إذا حَزَبه أمرٌ فزع إلى الصلاة **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾** واعبد ربك حتى يأتيك الموت[2]

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر »

* * *

(١) المستهزئون خمسة من أشراف قريش وصناديدها، وكانوا يهزأون من الرسول ويسخرون وهم «الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن عبد المطلب، والحارث بن الطلاطلة» وقد أهلكهم الله جميعاً .

(٢) سمي الموت يقيناً لأنه أمر متيقن من نزوله لا مفر منه ﴿كل نفسٍ ذائقة الموت﴾ وقد أرشدت الآية الكريمة لدفع ما ناب الإنسان من ضر ومكروه بأربعة أشياء: بالتسبيح، والتحميد، والسجود، والعبادة حتى الموت . وهي بلسمٌ لكل مكروب ومهموم.



بسم الله الرحمن الرحيم

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

***

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ قَرُب أيها الناس ودنا عذابُ الله فلا تستعجلوا وقوعه ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزَّه الله وعلا عن الشرك ، الذي كانت قريش تدين به ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ يُنزِّل الله ملائكته[1] بالوحي والرحمة ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على من يشاء من رسله ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ بأن أنذروا عبادي عقابي ، فإنه لا يصلح أن يعبد شيءٌ سواي ﴿فَاتَّقُونِ﴾ فاحذروني بأداء فرائضي ، وإفراد العبادة لي ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ خلق ربكم السمواتِ والأرض بالعدل ، لم يشركه في خلقها وإنشائها شريك ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تمجَّد وارتفع عن أن يكون له مثيلٌ أو شريك ، وهو الواحد الأحد الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ خلق الناس من ماء مهين ، خلقاً عجيباً في ظلمات ثلاث ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ فإذا هذا الإنسان يخاصم ربه بمنطقه ويجادله بلسانه ، بعد أن خلقه خلقاً سوياً من ماء مهين ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ وخلق الأنعام فسخَّرها لكم - وهي الإبل والبقر والغنم - ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ لكم من أصوافها وأوبارها ملابس تدفأون بها ﴿وَمَنَافِعُ﴾ من ألبانها وركوب ظهورها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ لحومها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ولكم في الأنعام زينةٌ

---

(١) أراد بالملائكة ههنا «جبريل» لأنه هو المختص بنزول الوحي على الرسل الكرام ، وسمَّى الوحي «روحاً» لأنه به تحيا القلوب الميتة من الجهل بإشراق أنوار العرفان.

وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾

***

وجمال ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ وقت تردُّونها إلى منازلها بالمساء[١] ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ووقت خروجها صباحاً للمرعى ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ وتحمل هذه الأنعام أمتعتكم ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ﴾ إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتبلغوه ﴿إِلاَّ بِشِقِ الْأَنْفُسِ﴾ إلا بجهدٍ شديد ، ومشقةٍ عظيمة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إنَّ ربكم لذو رأفةٍ ورحمةٍ بكم ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ وخلق الخيل والبغال والحمير لكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ لتركبوا ظهرها ، وجعلها زينة لكم ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ويخلق لكم ربكم في الجنة[٢] ، ما لم تره عينٌ ولا يخطر على قلب بشر ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ وعلى الله بيانُ طريق الحق المستقيم وهو الإسلام ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ ومنها طريقٌ معوجةٌ كاليهودية والنصرانية ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولو شاء الله لوفقكم جميعكم للإيمان ، وهداكم قصد السبيل ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ هو تعالى الذي أنزل لكم مطراً[٣] ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ لكم من ذلك الماء شرابٌ تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ ومنه شربُ أشجاركم ، وحياةُ غروسكم ونباتها ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ في الشجر والنبات ترعون أنعامكم ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ ينبت لكم ربكم بالماء زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ومن كل الفواكه أرزاقاً لكم وأقواتاً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ إن في إخراج ذلك لكم لدلالة واضحة ، وعلامة بيِّنة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعتبرون بمواعظ الله ، ويتفكرون في حججه ، فيتذكَّرون وينيبون ﴿وَسَخَّرَ لَكُم اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ يتعاقبان عليكم ، هذا لسكنكم وهذا لتصرفكم في معاشكم ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمعرفة أزمنتكم وشهوركم وصلاح معايشكم ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ والنجوم

---

(١) الإراحة ردُّ الإبل إلى مكانها الذي تأوي إليه ليلاً ، والسَّرحُ إخراجها في الصباح للمرعى

(٢) لقد جدَّت في عصرنا وسائل للنقل في غاية السرعة كالقطارات ، والسيارات ، والطائرات النفَّاثة وهي بخلق الله تعالى لأنها بتعليمه سبحانه للإنسان ، وقد فسر الطبري بأن ذلك في الجنة، والصحيح أنها في الدنيا لأنه تعالى عطفها على المركوبات التي خلقها فدل على أن ذلك في الدنيا

(٣) لما استدل على وجود الخالق الحكيم بعجائب أحوال الحيوانات ، أراد أن يستدل بغرائب أحوال النبات ، فذكر إنزال الأمطار وخروج النبات والثمار ،وكلها دلائلُ باهرة على قدرة الواحد القهار !!

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

***

تجري في فلكها بأمر الله ، لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ لدلالات واضحات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حجج الله ويفهمون تنبيهه ﴿وَمَا ذَرَأَ لكم فِي الْأَرْضِ﴾ وما خلق لكم في الأرض من الدواب والأشجار والثمار ﴿مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ مختلفة الأشكال والألوان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ حجةً وعلامةً واضحة ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يتذكرون نعم الله فيشكرونه عليها ﴿وَهُوَ الَّذِي سخَّر الْبَحْرَ﴾ ذلَّله لكم ويسَّره لركوبكم ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾لتأكلواالسمك الذي يُصطاد منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وتستخرجوا منه اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فيهِ﴾ وترى السفن تشق الماء في البحر مقبلةً ومدبرة ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولتتصرفوا بالتجارة في طلب معايشكم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جعل في الأرض جبالاً ثوابت ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ لئلا تميل وتضطرب بكم[١] ﴿وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وجعل فيها أنهاراً وطرقاً تسلكونها ، لكي تهتدوا بها إلى الأماكن التي تقصدونها ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ ومعالم للطرق تستدلون بها نهاراً في أسفاركم ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وبالنجوم تهتدون بها ليلاً في سبلكم ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ﴾ أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة[٢] ، ويُنعم عليكم بهذه النعم العظيمة ، كالأصنام التي لا تخلق شيئاً ؟ ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتذكرون قدرة الله وعظيم سلطانه ، فتعرفوا خطأ عبادتكم لها[٣] ؟ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ وإن تعدُّوا نِعم الله عليكم ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا إحصاء عددها والقيام بشكرها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رحيمٌ﴾ يصفح عن تقصيركم ، ويرحمكم فلا يعذبكم ﴿واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ ومَا تُعْلِنُونَ﴾ ما تخفونه في

(١) الميْد الاضطراب يقال مادت السفينة ميداً إذا مالت واضطربت باهلها

(٢) لما عدَّد الآيات الدالة على كمال قدرته ووحدانيته ، أراد أن يوبخ أهل الشرك والعناد فقال﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾؟ وهو سخرية وتهكم بمن عبد الأوثان والأصنام

(٣) في الآية مزيد توبيخ وتجهيل لهم في عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع ، فإن الأمر لوضوحه وجلائه يدركه من له أدنى عقل أو حسّ، ولهذا قال «أفلا تذكَّرون» ؟

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ

* * *

أنفسكم ، وما تعلنونه بألسنتكم وجوارحكم ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وأصنامكم التي تدعونها آلهة من دون الله ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة ، فكيف تكون آلهة وهي مصنوعة ؟ ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ وهذه الأصنام أموات لا أرواح فيها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ وما تدري أصنامكم متى تُبعث[1] ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ معبودكم الذي يستحق العبادة معبودٌ واحد ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ فالذين لا يصدّقون بوعد الله ووعيده ، ولا يُقرّون بالمعاد بعد الممات ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ لقدرة الله وعظمته ووحدانيته ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن قبول الحق والإقرار بالوحدانية ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ ما يخفون من الاستكبار ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وما يظهرونه من الكفر والافتراء ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عن توحيده ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ وإذا قيل لهؤلاء المشركين أيَّ شيء أنزله ربكم ؟ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ قالوا أحاديث الأولين وما سطَّروه من الأباطيل ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ ليحملوا ذنوبهم التي اقترفوها ﴿كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾ تامةً يوم القيامة من غير أن يُخفَّف من عقابهم شيء[2] ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومن ذنوب الذين يصدُّونهم عن الإيمان[3] جهلاً منهم ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بئس الإثم الذي يتحملون ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قد مكر الذين من قبل هؤلاء المشركين ، فراموا مغالبة الله ببناء بنوه[4] يريدون الارتفاع إلى السماء لحرب من فيها ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيهِمُ السَّقْفُ﴾ فسقط عليهم السقف من فوقهم ، وانقلبت بهم منازلهم ﴿وَأَتَاهُمُ

---

(١) وقيل الضمير يعود على الكفار والمعنى وما تدري أصنامكم متى تبعثون من قبوركم ، فكيف يرتجى منها النفع والثواب ؟ وفي الآيات تعريضٌ وتوبيخ للمشركين من وجوه الأول: أن الإلّه يجب أن يكون عالماً بالسرِّ والعلن ، والأصنام التي عبدوها جمادات لا شعور لها. الثاني: أنهم أعجز من عبدتهم لأنهم لا يخلقون شيئاً وهم مخلوقون. الثالث أنهم أمواتٌ غير أحياء لأنهم من الحجارة التي لا تقبل الحياة أصلاً. الرابع أن الآلهة لا تدري متى يبعث عابدوها فكيف يرجى خيرها ؟

(٢) قال مجاهد يحملون ذنوبهم وذنوب من أطاعهم ، ولا يخفف ذلك عمن أطاعهم من العذاب شيئاً

(٣) في الحديث الصحيح «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء»

(٤) قيل إنه «النمرود» بنى صرحاً عظيماً ورام الصعود إلى السماء فأهلكه الله

ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ * وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

***

﴿الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ وأتاهم عذاب الله من حيث لا يدرون ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلهم بعذابٍ أليم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِم﴾ ويقول لهم توبيخاً أين الآلهة الذين عبدتموهم من دوني وخالفتموني فيهم[1] ؟ ما لهم لا يحضرونكم فيدفعوا عنكم العذاب ؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ والسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قال العلماء إن الذلة والهوان وعذاب الله في هذا اليوم ، على من كفر بالله وجحد وحدانيته ، ثم بينهم تعالى بقوله ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ الذين تقبض أرواحهم الملائكة وهم على كفرهم وإشراكهم بالله ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ فاستسلموا لأمر الله وانقادوا له حين عاينوا الموت قائلين﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ما كنا نعمل شيئاً من المعاصي والمنكرات ، قال الله مكذباً لهم: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بلى قد كنتم تعملون السوء ، والله عالم بما كنتم تعملونه من المعاصي ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ فادخلوا طبقات جهنم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ماكثين فيها أبداً ﴿فلبئس مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بئس جهنم منزل من تكبّر ، ولم يصدّق بوحدانية الله ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وهم فريق أهل الإيمان وتقوى الرحمن ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾ أيّ شيء أنزل ربكم على رسوله؟ قالوا أنزل خيراً[2] ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ للذين أطاعوا الله في الدنيا كرامةٌ على إحسانهم ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من دار الدنيا ، وكرامتُه لهم فيها أعظم ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ونعمت الآخرة داراً للمتقين ، الذين أطاعوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ بساتين إقامة يدخلونها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿لَهُمْ فِيهَا ما يَشَاءُونَ﴾ ممّا تشتهيه أنفسهم وتلذُّ به أعينهم ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ المتَّقِينَ﴾ كما جزى المحسنين في الدنيا ، كذلك يجزي الله الذين اتقوه بأداء فرائضه

---

(١) معنى الشقاق المخالفة ، وأصله أن يفعل كل واحد بصاحبه ما يشقُّ عليه

(٢) قولهم هذا بمقابلة قول الكفرة الفجّار عن القرآن إنه أساطير الأولين.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم

***

واجتناب نواهيه ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ تقبض أرواحهم الملائكة وهم طيِّبون بنظافة الإيمان وطُهر الإسلام ﴿يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ تقول لهم السلام عليكم[1] ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ادخلوا جنة الخلد ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من طاعة الله وطلب مرضاته ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ هل ينتظر هؤلاء المشركون إلاّ أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم ؟ ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أو يأتي أمر الله بحشرهم لموقف القيامة ؟ ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذلك فعل أسلافهم من الكفرة المجرمين ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بإحلال سخطه بهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بمعصيتهم ربهم وكفرهم به ، فجعل لهم عقابه ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فأصابهم عقوبة ذنوبهم التي اكتسبوها ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ونزل بهم من عذاب الله ما كانوا يسخرون به ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ قال الذين عبدوا الأوثان والأصنام ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لو أراد الله ما عبدنا هذه الأصنام ﴿نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ لا نحن ولا آباؤ نا ، وما عبدناها إلا لأن الله قد رضي بذلك ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولا حرمنا البحائر والسوائب إلا بمشيئته تعالى ورضاه تحريمها[2] ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾) كذلك سلك من قبلهم في تكذيب رسل الله ، واتباع آبائهم الضالين ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ فهل على رسلنا إلا تبليغ رسالتنا، وإنذار عقوبتنا على الكفر ؟ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ ولقد أرسلنا لكل أمة سلفت رسولاً ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ بأن اعبدوا الله وحده ، وابتعدوا من

---

(١) هذه البشارة للمؤمنين بجنات النعيم ، تكون لهم عند الاحتضار ووقت الوفاة ، تبشرهم بذلك الملائكة كما أخبر تعالى بقوله ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزّل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾ قال ابن عباس الملائكة يأتونه بالسلام من قبل الله ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين

(٢) أرادوا بذلك الاحتجاج بالقضاء والقدر ، وأن إشراكهم واقع بإرادة الله ، وأنه تعالى لو كان كارهاً لفعلهم لعجّل لهم العقوبة ، وهو احتجاج باطل، لأن الله تعالى بعث الرسل مبشرين ومنذرين .

مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

***

الشيطان ، احذروا أن يصدكم عن سبيل الله **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَىٰ اللَّهُ﴾** فمن هؤلاء الأمم من هداه الله ، ووفقه للإيمان ففاز وأفلح **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾** ومنهم من كفر وكذَّب ، واتَّبع الطاغوت فهلك **﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾** فسيروا - أيها المكذبون - في البلاد التي كانوا يسكنونها **﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** فانظروا ماذا حلَّ بهم من سخط الله وعقابه[١] **﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾** إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء المشركين **﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾** فلا تُجهد نفسك في أمرهم ، فمن أضلَّه اللهُ فلا هادي له **﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾** ليس لهم ناصر ينقذهم من عقاب الله **﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾** حلف المشركون باللَّه أغلظ الأيمان[٢] **﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾** لا يحيي الله من يموت بعد مماته **﴿بَلَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾** بلى سيبعثهم الله ، وعد بذلك عباده وعداً حقاً **﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** لا يعلمون أن الله يُحييهم بعد مماتهم **﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾** ليبيّن لهؤلاء - الذين يزعمون أن الله لا يبعث من يموت - ما كانوا يختلفون فيه من إحيائهم بعد فنائهم[٣] **﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾** وليعلم الذين أنكروا حقيقة البعث، أنهم كانوا كاذبين في قولهم لا بعث بعد الموت **﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾** إنَّا إذا أردنا خلق شيءٍ أو إنشاءه[٤] **﴿أَنْ نَقُولَ له كُنْ فَيَكُونُ﴾** فإنما نقول له كن فيكون بلا معاناةٍ ولا كلفة **﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾** فارقوا ديارهم وأوطانهم في سبيل الله **﴿مِنْ بَعْدِمَا ظُلِمُوا﴾** من بعدما نالتهم المكاره والشدائد **﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾** لنسكننهم في الدنيا مسكناً صالحاً

---

(١) الغرض الاعتبار بما حلَّ بالسابقين من الأمم الكافرة ، وتحقق صحة ما أخبرهم به محمد ﷺ.

(٢) معنى «جهد الأيمان» أغلظها وآكدها ، وهي أن يقسم قسماً مؤكداً بالله تعالى بأغلظ اليمين

(٣) المعنى أن الله يبعث كل من يموت من المؤمنين والكافرين ، ليبين لهم الحق الذي اختلفوا فيه بياناً عياناً لا يشتبه فيه المطيع بالعاصي ، والمحق بالمبطل ، والمظلوم بالظالم

(٤) الآية كالبرهان على إمكان البعث ، فإنه سبحانه لا يعجزه شيء ، ولا تتوقف آثار قدرته إلا على مجرد الإرادة والمشيئة ، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو أهون من الإبداء والإنشاء !!

ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾

***

يرضونه ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ولثواب الله لهم على هجرتهم في الآخرة أعظم ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك لأن ثوابه الجنة التي يدوم نعيمها ولا ينقطع ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما نالهم في الدنيا ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وبالله يثقون في أمورهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر لا ملائكة ﴿نوحي إليهم﴾ ننزل عليهم وحينا ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ فاسألوا أهل الكتب الماضية ـ التوراة والإنجيل ـ هل كانت الرسل بشراً أم ملائكة ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أن الرسل إنما تكون من البشر ﴿بالبيِّنات﴾ أرسلناهم بالحجج الشاهدة على نبوَّتهم ﴿والزُّبر﴾ والكتب السماوية ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ وأنزلنا إليك يا محمد هذا القرآن، تذكيراً للنَّاس وعظةً لهم ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ لتبيِّن الأحكام والشرائع للناس ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وليتفكروا ويعتبروا بما فيه ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أفأمن كفار قريش الذين آذوا الرسول وأصحابه ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾ على كفرهم وشركهم ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ﴾ أو يأتيهم عذاب الله من مكانٍ لايدرون به ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ في تَقَلُّبِهِمْ﴾ أو يهلكهم في أسفارهم وقت تصرفهم في البلاد ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فإنهم لا يعجزون الله ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أو يهلكهم بطريق التنقُّص شيئاً فشيئاً في ديارهم وأموالهم ، حتى يهلكهم جميعاً ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رحِيمٌ﴾ بخلقه ، ولذلك لم يعجّل لهم العذاب ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أو لم ينظر هؤلاء المشركون ـ نظر اعتبار ـ إلى ما خلق الله من شجر أو جبل أو غير ذلك ﴿يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينَ وَالشَّمَائِلِ﴾ يرجع ظله من موضع إلى موضع ، ويتقلص ثم يعود إلى حال أخرى ، في أول النهار وآخره ﴿سُجَّداً لِلَّهِ﴾ تميل من جانب إلى جانب[1] ﴿وهم داخرون﴾ وهم صاغرون

---

(١) سجودها ميلانها ودورانها من ناحية إلى ناحية ، وانقيادُها لأمر الله من غير امتناع

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

***

ذليلون(١) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ﴾ ولله يخضع ويستسلم لأمره كل ما في السموات والأرض ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الدواب التي تدب على الأرض(٢) ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ﴾ والملائكة يخضعون لأمره ﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن التذلل له بالطاعة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يخافون عذاب الله إن عصوا أمره ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ويفعلون ما أمرهم الله به ﴿وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ وقال الله لعباده لا تجعلوا لي شريكاً ، ولا تعبدوا معبودين اثنين ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ إنما إلهكم معبودٌ واحدٌ ﴿فَإِيَّايَ فارهَبُون﴾ فإيَّاي فاتقوا ، وخافوا عقابي إن عصيتموني وعبدتم غيري ﴿وَلَهُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولله مُلك جميع ما في السموات وما في الأرض ، لا شريك له، هو خلقهم وهو رزقهم ، وبيده حياتُهم وموتُهم ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ وله الطاعة دائمة ثابتة ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أفترهبون وتحذرون غير الله ؟ وما لكم نافعٌ سواه !؟ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وما يكن بكم من عافية وصحة ونماءٍ في المال ، فالله المنعم عليكم بذلك لا غيره ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ ثم إذا أصابكم السقم والمرض وشدة العيش ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ فإلى الله تصرخون بالدعاء ، ليكشف عنكم الضر ﴿ثُمَّ إذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ﴾ ثم إذا رفع الشدة ، وفرّج البلاء عنكم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ إذا جماعة منكم يجعلون للَّهِ شريكاً في عبادتهم ،فيعبدون الأوثان شكراً لغير من أنعم عليهم بالفرج ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ليجحدوا نعمة الله بكشف الضر عنهم ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فتمتعوا في هذه الدنيا إلى انتهاء آجالكم ، فستصيرون إلى ربكم، وتعلمون وبال ما كسبت أيديكم ، وتندمون حين لا ينفع الندم وهذا من الله وعيدٌ وتهديدٌ لهم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ ويجعل المشركون للأصنام جزءاً مما

(١) إنما جمعت الظلال بالواو النون «وهم داخرون» لأنهم أشبهوا العقلاء من حيث طاعتها لله سبحانه

(٢) الوجه في تخصيص الدواب والملائكة بالذكر ، أن الله تعالى ذكر في الآية السابقة أن الجمادات بأسرها منقادة له تعالى ، فذكر هنا أن الحيوانات بأسرها أيضاً منقادة له ، ثم عطف عليهم الملائكة لشرفها.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

***

رزقناهم من الأموال ﴿تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ والله ليسألنكم الله يوم القيامة ، عما كنتم تختلقونه من الإفك والباطل ، بدعواكم لله الشريك ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ ويجعل هؤلاء المشركون البنات لمن خلقهم وأنعم عليهم ، ولا ينبغي أن يكون له ولد ذكرٌ ولا أنثى[1] ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تَنَزَّه جل جلاله عمَّا نسبوا إليه من البنات ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ولهم البنون الذين يشتهونهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى﴾ وإذا بُشِّر أحد هؤلاء المشركين بولادة البنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً﴾ صار وجهه مسوداً من كراهته لها ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وهو مملوءٌ غماً وحزناً ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّر بِهِ﴾ يستخفي من القوم من مساءته من الأنثى ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أيمسكه على ذل وهوانٍ! ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أم يدفنه حياً في التراب فيئده[2] !! ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ساء الحكم الذي حكموا به ، حيث جعلوا لله ما لا يرضون لأنفسهم ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ لهؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالمعاد، القبيحُ من المثل[3] ، الذي يسوء صاحبه ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ ولله جل وعلا الأفضل والأطيب ، والأحسنُ والأجمل من الأمثال وصفات الكمال ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو العزيز الذي لا يُغالب ، الحكيمُ في تدبيره فلا يدخله خللٌ ولا خطأٌ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ ولويؤاخذ الله العصاة بمعاصيهم ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ ما ترك على الأرض دابةً تدب عليها ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ولكن يؤخر هؤلاء الظلمة إلى الوقت الذي حدَّده لهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فإذا جاء وقت هلاكهم فلا يؤخر ساعةً ولا يُقدَّم ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ ويجعل هؤلاء المشركون لله ما يكرهونه لأنفسهم وهو البنات ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ وتفتري ألسنتهم الكذب بأن

(١) هذا نوع آخر من قبائح المشركين فقد قالوا الملائكةُ بناتُ الله ، فنسبوا للّهِ البنات وجعلوا لهم البنين وهذا منتهى السُّفه حيث جعلوا لله ما يكرهونه ولهم ما يحبونه

(٢) قال قتادة : كان أحدهم يغذو كلبه ، ويئد ابنته، أقول يا لها من سفاهةٍ وحماقة !!

(٣) المراد أن للمشركين أسوأ الأوصاف وهي الضعف والعجز ، والحاجة إلى الذكور ، وكراهة الإناث ، ووأدهنَّ خشية الإملاق ، ولله صفات الكمال من الغنى والقدرة والقوة ، والعزة والحكمة ، وسائر صفات الكمال والجلال

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

***

لهم الذكور من الأولاد[١] ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ حقاً إن لهؤلاء المفترين يوم القيامة النار ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ وأنهم متروكون في النار منسيُّون فيها ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ والله يا محمد لقد أرسلنا رسلاً من قبلك إلى أممهم ، بمثل ما أرسلناك به فكذبوهم ، وردُّوا عليهم ما جاءوهم به من عند الله ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فحسَّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ فالشيطان ناصرهم في الدنيا وبئس الناصر ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذابٌ موجع ، فلم تنفعهم ولاية الشيطان في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وما أنزلنا عليك يا محمد كتابنا ، وبعثناك رسولاً إلى خلقنا ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ إلَّا لتبيّن لهم ما اختلفوا فيه من الدين ، فتعرفهم الحقَّ من الباطل، وتقيم عليهم الحجة به ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وبياناً من الضلالة، وهدى لقوم يُصدِّقون بما فيه ويعملون به ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مطراً[٢] ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بعد مَوْتِهَا﴾ فأنبت بالماء الأرض الميتة ، التي لا زرع فيها ولا عشب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ إن في إحياء الأرض لحجةً قاطعة ، لقوم يسمعون القول فيتدبرونه ويعقلونه ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ وإن لكم - أيها الناس - في الإبل والبقر والغنم لعِظَةً ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ نسقيكم من بطون هذه الأنعام ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً﴾ من بين الروث والدم نسقيكم لبناً خالصاً ، لم يخالط الدم والفرث[٣]. ﴿سائغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ لا يغصُّ به شاربه ﴿وَمِنْ ثمراتِ النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ ومن ثمرات النخيل والأعناب كذلك عبرةَ لكم ، تتخذون منه النبيذ[٤] والخلَّ ، والزبيب والتمر ﴿إِنَّ في

(١) هكذا فسَّر الطبري «الحسنى» بأنها الذكور من الأولاد ، وفسَّرها غيره بأنها الجنة أي أنهم مع ضلالهم حكموا لأنفسهم بالجنة ورضوان الله ، وهذا أقرب

(٢) الآيات الكريمة سيقت لإثبات دلائل القدرة والوحدانية

(٣) الفرثُ الفضلات التي تخرج من الحيوان وتسمى الروث والثفل

(٤) رجح الطبري أن المراد بالسُّكر النبيذُ والخلُّ وأن الآية غير منسوخة ، ورجح غيره أن المراد السكر الخمر ، وبالرزق الحسن التمر والزبيب ، وأن الآية نزلت قبل تحريم الخمر ، وهذا قول ابن عباس وهو الأظهر

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم

***

﴿ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إن فيما ذكر لدلالة واضحة ، لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون مواعظه ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وألهم ربك النحل ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ومن الشَّجرِ﴾ بأن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ومن الشجر[1] ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ وممَّا يبنون من السقوف ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ ثم كلي من كل ثمرةٍ تشتهينها ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ فاسلكي طرق ربك مذللة ، لا يتوعر عليك سبيل ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يخرج من بطون النحل عَسَلٌ مختلف الألوان ، منه الأبيض والأصفر والأحمر ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ في العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم ﴿إنَّ في ذلك لآية لقوم يتفكَّرون﴾ إن فيما ذكر لدلالة وحجة واضحة ، لقوم يتفكرون في عظمة خالقها وبديع صنعه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ خلقكم ولم تكونوا شيئاً ، ثم يقبضكم عند انقضاء آجالكم ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ ومنكم من يهرم فيصير إلى أردأ العمر. قال علي هو سنُّ خمس وسبعين ﴿لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ ليعود جاهلاً كما كان في حال طفولته وصباه ، وينسى ويضعف عقله من الكبر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ عليم بكل مايكون ، قديرٌ لا يعجزه شيء أراده ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ والله فضَّل بعض الناس على بعض ، في الرزق في الدنيا ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ فليس السادة بمشركي مماليكهم في أموالهم حتى يستووا في ذلك، فإذا كانوا لا يرضون أن يكونوا هم ومماليكهم فيما رزقهم سواء، فكيف جعلوا عبيدي شركائي في ملكي وسلطاني ؟ ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أيجحدون نعمة الله التي أنعمها عليهم، بإشراكهم مع الله غيره في سلطانه وملكه ؟ وهذا مثلٌ ضربه الله للمشركين يقول كيف ترضون لي ما لا ترضونه لأنفسكم؟ ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ

---

(١) مملكة النحل مملكة عجيبة، فإنها تبني بيوتاً مسدسة من الأضلاع المتساويات ، التي لا يمكن للعقلاء تركيب أمثالها إلا بالمساطر والأشكال الهندسية، ومن عجائب أمرها أن لها رئيساً هو أعظم جثة من الباقين ، وهي تخدمه وتتبع أمره ونهيه ، ومن كان عاطلاً عن العمل قتله النحل ، وربما أجدب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد من أجل الطعام ثم ترجع دون أن تضل الطريق ، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى !!

مِنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

***

لكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ خلق لكم من آدم وحواء أزواجاً لتسكنوا إليها ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بنينَ وَحَفَدَةً﴾ وجعل لكم من أزواجكم أولاداً وأولاد أولاد[1] وأصهاراً ،يُسرعون في خدمتكم ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ورزقكم من حلال الأرزاق والأقوات ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أفيصدقون بالباطل الذي أحله لهم الشيطان من البحائر والسوائب ، ويكفرون بما أحله الله لهم من المطاعم والمشارب ؟ ﴿وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً﴾ ويعبد هؤلاء المشركون أوثاناً ، لا تملك لهم رزقاً من السموات بإنزال القطر والمطر ، ولا من الأرض بإخراج الزرع والثمر ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا تقدر على شيء من ذلك أصلاً ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فلا تُمثّلوا لله الأمثال ، فإنه تعالى لا مِثْل له ولا شَبَه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعلم خطأ ما تُمثّلون ، وأنتم لا تعلمون ذلك ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ شبَّه تعالى مثلاً للكافر من عبيده والمؤمن منهم، فأما مَثَل الكافر فإنه كالعبد المملوك الذي لا يَقْدِرُ على شيء فينفقه ، فهو لا يعمل بطاعة الله ، ولا يفعل خيراً ، ولا ينفق شيئاً في سبيل الله ، لخذلان الله له ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فهو يُنْفِقُ منه سِرّاً وَجَهْراً﴾ وأمّا المؤمن فإنه يعمل بطاعة الله ، وينفق ماله في سبيله، كالحر الذي آتاه الله مالاً فهو ينفقه في السِّر والعلن[3] ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ هل يستوي العبد الذي لا يملك شيئاً ، والحر الذي ينفق ماله في سبيل الله ؟ فكذلك لا يستوي الكافر والمؤمن[4] !! ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحمد لله على ظهور الحق ووضوحه ، بل أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون ، فهم بجهلهم يجعلون الأوثان شركاء الله في العبادة

---

(١) الحَفَدة جمع حفيد وهو ولد الولد ، ويطلق في اللغة على الخادم والصهر أيضاً واختار الطبري العموم

(٢) معنى﴿فلا تضربوا للَّهِ الأمثال﴾أي لا تشبّهوه بخلقه ، فإن ضارب المثل مشبّه حالاً بحال

(٣) قال ابن عباس وقتادة هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، فالكافر رزقه الله مالاً فلم يقدّم فيه خيراً ، ولم يعمل فيه بطاعة الله ، والمؤمن أعطاه الله مالاً فعمل بطاعة الله فيه وشكر ربه، فأثابه الله الرزق المقيم الدائم في الجنة

(٤) توضيح المثل أننا لو فرضنا عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، وفرضنا حراً كريماً غنياً كثير الإنفاق ، فصريح العقل يشهد بأن لا يجوز التسوية بينهما مع استوائهما في الخلقة والصورة ، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء ؟

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

***

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لنفسه وللآلهة التي تُعبد من دونه ، يقول شبَّه الله لكم أيها الناس مثلاً برجلين ، أحدهما أخرس لا يسمع شيئاً ولا ينطق ، وهو مثل للصنم ، لأنه إما خشبٌ منحوتٌ ، أو نحاسٌ مصنوع ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لا يقدر على نفع من يخدمه ولا دفع ضر عنه ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ وهو عيال على من يلي أمره ، فكذلك الصنم يحتاج إلى من يحمله ويضعه ويخدمه ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ حيثما يوجهه ويبعثه لا ينجح في مسعاه، لأنه لا يفهم ما يُقال له ، ولا يقدر أن يعبر عن نفسه بما يريد لخرسه وبكمه ، فكذلك الصنم لا يعقل ولا ينطق ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾والآخر إنسان ناطق متكلم يدعو إلى الحق والرشاد ، هل يستوي الأبكم الذي لا يأتي بخير حيث توجَّه ، ومَنْ هو ناطق متكلم يأمر بالحقّ ويدعو إليه ؟ ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو على طريق مستقيم غير معوج لا يزول عنه ؟ وهو الله الواحد القهار ، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته[(١)] ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولله ملك ما غاب عن أبصاركم أيها الناس في السموات والأرض ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ البَصَرِأوهو أَقْرَبُ﴾ وما أمر القيامة إلا كطرف العين ، أو هو أقرب من ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾لا يمتنع عليه شيءٌ أراده ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾أخرجكم من بطون الأمهات لا تعقلون شيئاً ولا تعلمون ﴿وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ فرزقكم السمع الذي تسمعون به الأصوات ، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص ، والقلوب التي تعرفون بها الأشياء وتفكّرون بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لتشكروا الله على ما أنعم به عليكم ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ ألم ير المشركون إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعلها تطير بجناحين في هواء السماء ؟ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾ ما تطير إلاَّ بتسخيره تعالى ، ولو سلبها القدرة لم تقدر على النهوض ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في تمكينها من الطيران في جو السماء ، لعلامات

---

(١) المراد أنه كما لا يتساوى الأبكم من الناس، الذي لا ينجح في مطلبه أينما توجّه ، مع الإنسان الناطق السميع البصير ، الداعي إلى الهدى والرشاد ، فكذلك لا يتساوى الصنم الأجوف ، مع الإله الحق والقدير

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

***

ودلالات على وحدانية الله ، لقوم يُصدِّقون بقدرة الله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ والله جعل لكم من الحجر والمدر ، سكناً تسكنون فيه أيام مقامكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ وجعل لكم بيوتاً من الأنطاع والفساطيط[1] ، تستخفون حملها يوم سفركم ويوم إقامتكم ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً﴾ وجعل لكم من أصواف الضأن ، وأوبار الإبل ، وأشعار المعز متاعاً للبيت كالطنافس والبسط والثياب ﴿وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ وبلاغاً لكم إلى حين الموت ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً﴾ ومن نعمه عليكم أن جعل لكم من الأشجار ظلالاً ، تستظلُّون بها من شدَّة الحرِّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ وجعل لكم من الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وجعل لكم ثياباً من القطن والكتان والصّوف تحفظكم من الحر والبرد[2] ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ تقيكم الحرب ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ كما أنعم عليكم بهذه الأشياء ، فكذلك يتمُّ نعمته عليهم ، لكي تخضعوا لله بالطاعة ، وتُخلصوا له العبادة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فإن لم يستجيبوا لك وأعرضوا عنك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فما عليك لومٌ لأنك بلَّغت الرسالة بوضوح ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثم يُنْكِرُونَهَا﴾ يعرفون نعمة الله عليهم ببعثة محمد ﷺ إليهم ، ثم ينكرون نبوَّته عناداً ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وأكثر قومك جاحدون لنبوَّتك[3] ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ ويوم نبعث من كلّ أمةٍ نبيَّها ، ليشهد عليها بما أجابت به داعي الله ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لا يُؤذن لهم في الاعتذار فيعتذروا[4] ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يُترك لهم الرجوع إلى الدنيا لينيبوا ويتوبوا

(١) الأنطاع : جمع نِطع وهو الجلد الرقيق ، والفساطيط جمع فسطاط وهو الخيمة المضروبة كالقبة ، وهي للمسافر كالبيت للمقيم

(٢) ذكرُ الحرِّ دون البرد من باب الاكتفاء ، والأصل أن يُقال «تقيكم الحرَّ والبرد» فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر

(٣) هذا ما رجحه الطبري في تفسير الآية ، لأن ما قبلها وما بعدها خبر عن الرسول ﷺ ، واختار ابن كثير العموم في النعمة فقال: يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره

(٤) لأنه لا حجة لهم ولا عذر .

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

* * *

كقوله تعالى «هذا يومُ لا يَنْطقون . ولا يُؤْذن لهم فيعتذرون» ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ وإذا عاين المشركون عذاب الله ﴿فلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ فلا يُخفف عنهم العذاب بالاعتذار ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا يُؤخر عنهم العقاب ، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ وإذا رأى المشركون يوم القيامة ، الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، من الآلهة والأوثان ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ هؤلاء الآلهة الذين كنا نعبدهم من دونك ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ﴾ فقالت لهم الآلهة[1] ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ إنكم كاذبون أيها المشركون ، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ واستسلموا يومئذٍ لله وذلُّوا لحكمه ، ولم تغن عنهم آلهتهم شيئاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وغاب عنهم ما كانوا يؤمِّلونه من شفاعة الآلهة لهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين جحدوا نبوتك يا محمد ، ومنعوا الناس عن الإيمان بالله وبرسوله ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ زدناهم في جهنم عذاباً فوق العذاب الذي هم فيه[2] ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ بعصيانهم أمر الله وأمرهم الناس بمعصيته ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ نبعث في كل أمة نبيّها الذي بعثناه إليهامن نفسها أي منها ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ وجئنا بك يا محمد شاهداً على أمتك[3] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ ونزلنا عليك القرآن ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شيءٍ﴾ بياناً لكل ما لهم به حاجة ، من معرفة الحلال والحرام ، والثواب والعقاب ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ وهدى من الضلالة ، ورحمةً لمن صدَّق به ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وبشارةً لمن أطاع الله وخضع لحكمه، يبشره بجزيل الثواب وعظيم الكرامة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ إن الله

(١) قال الطبري العرب تقول: ألقيتُ إليه كذا ، تعني بذلك قلتُ له

(٢) العذاب الأول بسبب ضلالهم ، وزيادة العذاب بسبب الإضلال ، وفي الآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون في درجاتهم ومنازلهم في الجنة

(٣) قال ابن كثير المعنى اذكر ذلك اليوم وهوْله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع

وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

***

يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله عليك يا محمد بالقسط والإنصاف ، ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ بأداء فرائض الله في الشدة والرخاء ، والمنشط والمَكْره ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ وإعطاء القريب الحقَّ الذي أوجبه الله عليك ، بسبب القرابة والرحم ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ وينهى عباده عن الزنى ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ وعن المنكر الذي تنكره العقول ، ولا يُعرف في شريعةٍ ولا سنة[1] ﴿وَالْبَغْيِ﴾ وعن التعدّي والظلم ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يوصيكم ربكم لتتذكَّروا فتنيبوا ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ أوفوا بكل عهدٍ أوجبتموه على أنفسكم ، حقاً لمن عاقدتموه عليه ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تنقضوا الأيمان بعد توثيقها باسم الله وبعد إبرامها ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وقد جعلتم الله شاهداً ورقيباً عليكم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ﴾ يعلم أتبرَّون في العقود أم تنقضونها ؟ وسيجازيكم عليها ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ ولا تكونوا في نقضكم العهود مثل التي غزلت ثم نقضت غزلها أنقاضاً من بعد إبرامه وهذا مثلٌ ضربه الله لمن نقض العهد[2] ، وكل شيءٍ نُقض بعد الفتل فهو أنكاثٌ ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ تجعلون أيمانكم التي تحلفون بها لمن عاقدتموه خديعةً وغروراً ، وأنتم تضمرون له الغدر وترك الوفاء ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾ أن يكون قومٌ أعزَّ وأكثر من قوم[3] ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ إنما يختبركم الله بأمره لكم بالوفاء بالعهد ليظهر المطيع من العاصي ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وليبيننَّ لكم ربكم في القيامة جزاء كل فريق منكم ، فيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته[4] ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً﴾ ولو شاء ربكم لوفقكم أيها الناس، فصرتم جميعاً أهل ملةٍ واحدة ، لا تختلفون ولا تفترقون ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ولكنه تعالى جعلكم أهل مِلَل شتَّى مؤمنين وكافرين ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وليسألنكم الله جميعاً عن

(١) قال قتادة لو سمعتم بامرأةٍ نقضت غزلها من بعد إبرامه لقلتم ما أحمق هذه ؟ وهذا مثلٌ ضربه الله لمن نكث عهده.

(٢) نزلت في قوم بايعوا النبي ﷺ على الإسلام ، ثم أرادوا أن ينقضوا البيعة لكثرة المشركين

(٣) قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء ، ثم يجدون من كان أعزَّ منهم وأشرف ، فينقضون حلف الأولين ويحالفون الذين هم أعزُّ وأمنع

(٤) المراد باختلافهم هو اختلافهم في الإيمان والكفر

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾

***

أعمالكم يوم القيامة ، ثم يجازيكم عليها جزاء المطيع بطاعته ، والعاصي بمعصيته ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ ولا تتخذوا أيمانكم خديعةً بينكم تغرُّون بها النَّاس ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ فتهلكون بعد أن كنتم آمنين من الهلاك[3] ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وتذوقوا عذاب الله الذي يُعذِّب به أهل المعاصي ، بسبب ما فتنتم الناس عن الإيمان بالله ورسوله[2] ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولكم في الآخرة نار جهنم ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ولا تنقضوا عهودكم تطلبون بذلك عرضاً من الدنيا قليلاً ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فإنَّ ما عند الله لكم من الثواب على الوفاء بالعهد هو خيرٌ لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ ما تملكونه أيها الناس من الدنيا ففانٍ ، وما عند الله فهو الباقي ، فاحرصوا على الباقي الذي لا يفنى ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولنثيبنَّ الصابرين على طاعتهم لله ، بأحسن الأعمال التي عملوها في الدنيا ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ من عمل من بني آدم بطاعة الله ، ذكراً كان أو أنثى ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهو مصدِّقٌ بثواب الله ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فلنحيينَّه في الدنيا حياة طيبة[3] ، بالرضى بما قسم الله له وبالقناعة ، فلا يتكدَّر عيشه ولا يكثر تعبه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الآخرة إذا صاروا إلى الله جازاهم بأحسن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ وإذا أردت يا محمد قراءة القرآن ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فقل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير وأحتمي بالله من شرّ الشيطان المرجوم أن يصدني عن الهدى[4] ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إن الشيطان ليس له

---

(١) هذا مَثَلٌ يضرب لمن وقع في بلاء بعد عافية ، أو سقط في ورطةٍ بعد سلامة فيقال : زلَّت قدمُه

(٢) إنما سمي هذا صدّاً عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى أن المؤمن قد عاهده ثم غدر به، لم يبق له وثوق بالدين، فيصده ذلك عن الدخول في الإسلام

(٣) اختلف في الحياة الطيبة فقيل: هي في الجنة وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة، لأن الإنسان في الدنيا لا يخلو من مشقة وأذية ومكروه ، وأما الآخرة فحياة بلا موت، وغنى بلا فقر، وصحة بلا مرض، وملك بلا زوال، وسعادة بلا انتقال، والأكثرون على أنها في الدنيا لقوله بعده ﴿ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ وهو اختيار الطبري وهو الأرجح ، والحياة الطيبة أن يعيش سعيداً ، هنيئاً في حياته ولو كان قليل الزاد .

(٤) قال الطبري : وليست الاستعاذة بالأمر اللازم ، وإنما هي إعلام وندب ، وذلك أنه لاخلاف بين الجميع أن من قرأ ولم يستعذ =

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤)﴾

***

تسلُّطٌ ولا حجة على الذين صدَّقوا بالله ورسوله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيما نابهم من مهمات الأمور ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ إنما حجته وتسلُّطه على الذين يطيعونه ويعبدونه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ والذين هم يشركون بالله[1] ، ويعدلون الشيطان برب العالمين ، قال ابن عباس: السلطان على من تولَّى الشيطان وعمل بمعصية الله ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ وإذا نسخنا حكم آية ، فأبدلناه بحكم أخرى ﴿واللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ والله أعلم بما هو أصلح لخلقه من الأحكام ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ قال المشركون: ما أنت يا محمد إلَّا كاذب ، تتقوَّل على الله الباطل[2] ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر هؤلاء جُهَّال ، لا يعلمون حقيقة الأمر ﴿قُلْ نَزَّلَه رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ قل لهم يا محمد جاء بالقرآن جبريل من عند ربي بالحقّ ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تثبيتاً للمؤمنين ، وتقويةً لإيمانهم بناسخه ومنسوخه ﴿وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وهداية لهم من الضلالة ، وبشرى للذين استسلموا لأمر الله ، وانقادوا لحكمه ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ نحن نعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلاً منهم إنما يُعلِّم محمداً هذا القرآن بشرٌ ، وما هو من عند الله ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ لسانُ الرجل[3] الذي يميلون إليه ، ويزعمون بأنه علَّم محمداً القرآن أعجميٌ[4] ﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ وهذا القرآن لسانٌ عربيٌّ ظاهر، ذو بيانٍ وفصاحة ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ إن الذين لا يصدّقون بحجج الله وأدلته ، لا يوفقهم الله لإصابة الحق ، ولا يهديهم لسبيل الرشد ﴿وَلَهُمْ

=بالله ، لم يضيّع فرضاً واجباً ، وإنما ذلك بطريق الندب

(١) الضمير في قوله ﴿والذين هم به﴾ يعود على الله تعالى وهو ترجح الطبري ، وقيل يعود على الشيطان والمعنى والذين هم بسبب الشيطان يشركون بالله

(٢) قال ابن عباس كان إذا أُنزلت آية فيها شدة ، ثم نزلت آية ألينُ منها ، قال كفار قريش إن محمداً يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً ، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه ، فنزلت الآية «غرائب القرآن للنيسابوري ج ١٤ ص ١١٦».

(٣) المراد باللسان اللغة كقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾ أي بلغة قومه

(٤) كان المشركون يزعمون أن محمداً ﷺ يتعلم القرآن من «جبر الرومي» وهو غلام نصراني ، كان يجلس عنده ﷺ في بعض الأحيان ، وقد ردَّ القرآن عليهم بالحجة الدامغة والبرهان القاطع فقال: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ فكيف يعقل للعجمي أن يعلم العربية وهو لا يعلمها ؟!

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن

***

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ولهم في الآخرة عذاب موجع **﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾** إنما يتقوَّل الكذب والباطل ، الذين لا يُصدّقون بحجج الله وأدلته **﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾** وهؤلاء هم أهل الكذب لا المؤمنون **﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾** من أشرك بالله وارتد عن دينه من بعد إيمانه[١] **﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾** إلا من أُكره على الكفر ، فنطق بلسانه بكلمة الكفر ، وقلبه موقن بالإيمان ، لينجو بذلك من عدوه فلا حرج عليه **﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾** لَكِنْ من اختار الكفر وآثره على الإيمان طائعاً **﴿فعليهم غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾** فعليهم سخطٌ من ربهم **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** في الآخرة **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾** ذلك العذاب ، من أجل أنهم اختاروا زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة **﴿وأن اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾** لا يوفقهم للإيمان ولا إلى طريق الجنة **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾** أولئك الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يؤمنون ، وأصمَّ أسماعهم فلا يسمعون الهدى ، وأعمى أبصارهم فلا يرون حجج الله ، رؤية معتبر ومتَّعظ **﴿وأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾** السَّاهون عمَّا أعدَّ الله لهم من العذاب[٢] **﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** حقاً إنهم في الآخرة هم الهالكون **﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾** ثم إن ربك يا محمد للذين هجروا ديارهم ومساكنهم ، من بعد ما فتنهم المشركون **﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾** ثم

---

(١) نزلت هذه الآية ـ كما قال ابن عباس وغيره في «عمَّار بن ياسر» وذلك أن المشركين بمكة أخذوه وأباه «ياسراً» وأمه «سُمَّية» فعذبوهم ليفتنوهم عن الدين ، فأما «سميَّة» فإنها ربطت بين بعيرين ، ووجيء قبُلُها ـ فرجها ـ بحربة وقيل لها : إنك أسلمت من أجل الرجال وماتت تحت العذاب ، وقتل زوجها «ياسر» وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، وأُخبر رسولُ الله بأن عماراً كفر فقال كلا إن عماراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي ، فقال كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان . فقال ﷺ إن عادوا فعد ، وفي بعض الروايات أنه سبَّ النبي ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، ثم شكا ذلك إلى النبي ﷺ فنزلت

(٢) المراد أنهم الكاملون في الغفلة ، إذ غفلوا عن تدبر العواقب

بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ

***

جاهدوا بالسيف واللسان ، وصبروا على جهادهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ غفور لهم ما كان منهم ، رحيم بهم أن يعاقبهم مع توبتهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أنذرهم يوم تأتي كلُّ نفسٍ تخاصم وتحتج عن نفسها ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ وتنال كلُّ نفسٍ جزاءها كاملاً، على ما عملت في الدنيا من طاعة ومعصية ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينالون إلاَّ ما يستوجبونه من خير أو شر ، فلا يُبخس محسنٌ جزاء إحسانه ، ولا يُثاب مسيءٌ إلاَّ بعمله ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ ومثَّل الله مثلاً لمكة وأهلها المشركين بالله ، وهي البلدة التي كانت آمنةً مطمئنةً لا يغار عليها أحد ، ولا يُحاربون في بلدهم[1] ، والعربُ يقتل بعضهم بعضاً ،ويسبي بعضهم بعضاً ﴿يأتيها رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ تأتيها المعايش والأرزاق واسعة كثيرة من كل ناحية ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ فكفر أهل هذه القرية بنعم الله ، التي أنعم بها عليهم ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ فأذاقهم الله جوعاً خالط أذاه أجسامهم[2] ، وخوفاً شديداً ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بكفرهم بنعم الله ، وجحودهم بآياته وتكذيبهم لرسوله ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ ولقد جاء أهل مكة رسولٌ من أنفسهم ، يعرفون نسبه وصدقه ، وهو محمد ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فلم يقبلوا ما جاءهم به من عند الله ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فأخذهم الله بالجوع والخوف ، وسلبهم الأمن والطمأنينة ، وهم مشركون قد قُتل عظماؤ هم يوم بدر وهم على الشرك ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ فكلوا أيها الناسُ من بهائم الأنعام، التي أحلَّها الله لكم ﴿حَلَالاً طَيِّباً﴾ مُذكَّاة غير محرَّمة عليكم ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ واشكروا الله على نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم تعبدون ربكم ، بطاعته فيما أمركم ونهاكم ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ الْخِنْزِير﴾ ما حرَّم

---

(١) هذا مثل ضربه الله لأهل مكة ، كانوا في الأمن والطمأنينة ، والخصب والسعة ، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظمى وهي بعثة محمد ﷺ فكفروا بها وبالغوا في إيذائه ، فسلط الله عليهم البلاء ، وعذبهم بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام والوبر.

(٢) قال الطبري سلَّط الله عليهم الجوع سنين متوالية ، بدعاء رسول الله ﷺ عليهم ، حتى أكلوا الجيفَ والعِلْهز - الوبر يعجن بالدم - والقُراد ، وأما الخوف الذي أصابهم فهو خوفهم من سرايا رسول الله ﷺ التي كانت تطيف بهم

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

***

الله عليكم إلا الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ وما ذبح للأنصاب وسمي عليه غير اسم الله ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غير بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ فمن احتاج إلى أكل شيء من ذلك، لمجاعةٍ حلَّت به ، فأكله غير باغٍ في أكله ، ولا متعدٍ الحلال إلى الحرام[1] ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لا يؤاخذه بأكله حال الضرورة ، رحيم به فلا يعاقبه عليه ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ ولا تقولوا فيما رزق الله عباده من المطاعم هذا حلالٌ وهذا حرام ، لوصف ألسنتكم الكذب على الله[2] ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ كي تفتروا بقولكم ذلك الكذبَ على الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ إن الذين يختلقون الكذب على الله ، لا ينجحون في الدنيا ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لهم متاعٌ قليلٌ في الدنيا ، ولهم عند معادهم ومصيرهم إلى الله عذاب موجعٌ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ وعلى اليهود حرمنا ما أنبأناك عنه من قبلُ في سورة الأنعام[3] ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما ظلمناهم بتحريمنا ذلك عليهم، ولكنْ جازيناهم فعاقبناهم ببغيهم وظلمهم أنفسهم بالمعاصي ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ إن ربك للذين عصوا الله ، وجهلوا بركوبهم معصية الله[4] ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم ندموا وتابوا من بعدما سلف منهم من المعاصي ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ فعملوا بما يحبه الله ويرضاه ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إن ربك من بعد توبتهم ، ساترٌ لذنوبهم، رحيم بهم ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إنَّ إبراهيم خليلُ الله ، كان معلِّماً للخير ، وإماماً يأتم به أهل الهدى ﴿قَانِتاً

---

(١) الباغي من يأكل فوق حاجته ، والعادي من يأكل هذه المحرمات وهو يجد غيرها

(١) معناه لا تحرِّموا ولا تحلِّلوا لأجل قولٍ تنطق به ألسنتكم من غير حجة ولا دليل ، وقال﴿تصف ألسنتكم﴾ولم يقل تقول ألسنتكم ، فإن التعبير من فصيح الكلام وبليغه ، كأنَّ ماهية الكذب مجهولة وكلامهم يكشف عن حقيقته ، ونظيره قولهم وجههٌ يصف الجمال، وعينُه تصف السحر ،وهذا في ذُروة الحسن والجمال

(٣) وهي قوله تعالى﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما. .﴾الآية،الأنعام آية ١٤٦

(٤) قوله﴿عملوا السوء بجهالة﴾أي جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه ، أو غير متأملين في وخامة عاقبة الأمر.

شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

***

﴿لِلَّهِ﴾ مطيعاً للّهِ **﴿حَنِيفاً﴾** مستقيماً على دين الإسلام **﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** وما كان مشركاً بالله[1] **﴿شَاكِراً لأَنْعُمِهِ﴾** شاكراً لله فيما أنعم عليه ، يخلص الشكر لله **﴿اجتباه﴾** اصطفاه واختاره لخلته **﴿وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾** وأرشده إلى الطريق المستقيم ، وهو دين الإسلام ، لا اليهودية والنصرانية **﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾** وأعطيناه في الدنيا على شكره ، وإخلاصه العبادة لله ذكراً حسناً ، وثناءً جميلاً باقياً على الأيام **﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾** وهو يوم القيامة ، ممن علَتْ منزلته وكرامته عند الله ، وصلح أمره وشأنه **﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾** ثم أوحينا إليك يا محمد بأن تتّبع الملّة الحنيفة ، مسلماً على الدين الذي كان عليه إبراهيم **﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِين﴾** بريئاً من الأوثان والأنداد ، كما كان بريئاً منها إبراهيم **﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾** ما جعل الله تعظيم يوم السبت إلا على الذين اختلفوا فيه ـ وهم اليهود ـ اختاروا السبت[2] وتركوا يوم الجمعة ، الذي فرض الله عليهم تعظيمه **﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾** وإن ربك يا محمد ليفصل بينهم يوم القيامة بحكمه العادل ، فيجازي كلاً بما هو أهلهُ **﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾** أدع يا محمد الناس إلى شريعة ربك ، التي شرعها لخلقه وهي الإسلام **﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾** بالكتاب الذي أنزله عليك ـ الذي هو الحكمةُ[3] ، والحجج والعبادات الجميلة **﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** وخاصمهم بالطريقة التي هي أحسن من غيرها ، بأن تصفح عمَّن آذاك **﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سبِيلِهِ﴾** أعلم بمن جار عن قصد السبيل ، وحادَّ الله ورسوله **﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾** وهو أعلم بمن سلك محجة الحق

---

(١) وفي الآية تنبيهٌ للمشركين ولليهود والنصارى أن إبراهيم بريءٌ منهم ، لأنه كان مسلماً ولم يكن مشركاً ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكنْ كان حنيفاً مسلماً﴾ فهو رئيس الموحدين ، وقدوة أكابر النبيّين ، فمن انحرف عن ملته غوى وهوى

(٢) إنما اختار اليهود السبت ليكون عيداً لهم ، لأنه ـ على زعمهم يوم استراحة الرب ـ حيث قالوا إن الله فرغ من خلق الأشياء يوم الجمعة ثم استراح يوم السبت، فنحن نعظم هذا اليوم لأنه يوم استراحة الرب جل وعلا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً

(٣) فسَّر الطبري الحكمة بأنها الكتاب الذي أنزله الله عليه ، وأرى أن المراد بالحكمة هنا ، الطريقة الحكيمة التي يعرضها الشخص لإقناع خصمه ، ولا شك أن طريقة القرآن هي الطريقة المثلى في الإقناع.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

***

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ وإن عاقبتم من ظلمكم واعتدى عليكم، فعاقبوه بمثل ما نالكم من العقوبة[1] ﴿ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصابرينَ﴾ ولئن صبرتم واحتسبتم ما نالكم من الظلم ، ابتغاء ثواب الله ، كان ذلك خيراً لكم ﴿واصْبِرْ وماصَبْرُكَ إلاّ بِاللّهِ﴾ واصبر يا محمد على الأذى في سبيل الله ، وما صبرك إلا بمعونته وتوفيقه ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عليهم﴾ ولا تحزن على إعراض المشركين عن دعوتك ﴿وَلاَ تَكُ في ضَيْقٍ مما يمكرون﴾ ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل ، وبما يحتالون في الصدّ عن سبيل الله﴿إنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا والَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ إن الله مع المتقين والمحسنين، بالنصر والتأييد، وهم الذين اتقوا محارم الله ، وأحسنوا القيام بطاعته

«تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل»

***

(١) روي أن المشركين لما مثّلوا بقتلى المسلمين في أُحد ، قال المسلمون لئن أظفرنا الله عليهم لنفعلنّ ولنفعلنّ،فنزلت الآية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾

***

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ تنزيهاً لله وتعظيماً له ، مما نسبه إليه المشركون من الصاحبة والولد ، الذي سار بعبده محمد في الليل ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ من بيته الحرام إلى مسجد بيت المقدس ، أسرى به يقظةً لا مناماً ، بجسده وروحه(١) ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ الذي جعلنا البركة حوله لسكانه ، في معايشهم وغروسهم ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ كي نري محمداً ﷺ من عجائب العبر والمواعظ ﴿إِنَّهُ هو السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إن الله هو السميع لأقوال الكفار ، البصير بأعمالهم ، وهو لهم بالمرصاد ﴿وَآتَيْنَا مُوسى الْكِتَابَ﴾ أعطيناه التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وجعلنا الكتاب هداية لبني إسرائيل على محجة الصواب ، يخرجهم من الظلماتِ إلى النور ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ بألَّا تتخذوا يا بني إسرائيل شريكاً لله في ملكه . قال مجاهد « وكيلاً » شريكاً ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ

(١) اتفق العلماء على أن الإسراء كان بالروح والجسد ، يقظةً لا مناماً ، هذا هو الصحيح الذي ذهب اليه الطبري وجمهور المفسرين ، والذي دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة ، ونذكر هنا أدلة الجمهور بإيجاز فنقول أولاً إن بدء السورة بالتسبيح يدل على أن الأمر كان خارقاً وعجيباً . ثانياً : إن الله قال ﴿أسرى بعبده﴾ والإسراء هو السيرُ ليلاً وقطع المسافات فعلاً ولفظ « العبد » مجموع للروح والجسد ، فلم يقل بروح عبده . ثالثاً ركوبه ﷺ على البُراق كما في صحيح البخاري ، والدابةُ تحمل الجسد لا الروح . رابعاً لو كان الإسراء بالمنام لما كذبته قريش ، فإن أمر المنام ليس فيه شيءعجيب ، وكل واحدمنا يرى أشياء وأشياء لا تخطر على البال . خامساً ذكر الله الزمان فقال « ليلاً » والمكان فقال ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ والحكمة والغاية فقال ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي من عجائب قدرتنا ، فلا بدَّ إذاً أن تكون رؤ ية الآيات حقيقية ، وأنها وقعت فعلاً باليقظة لا بالمنام ، وأن الإسراء كان بالجسد والروح ، وذلك ما تدل عليه نصوص القرآن

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ

***

نُوحٍ﴾ يا ذرية من حملنا في السفينة مع نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ إن نوحاً كان شاكراً للهِ على نعمه ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائيلَ في الْكِتَابِ﴾ وأعلمنا بني إسرائيل وأخبرناهم وقلنا لهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ في الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ لتفسدن في أرض مصر مرتين[1] ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبيراً﴾ ولتستعلن على الناس علواً كبيراً بالبغي والتسلط ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا﴾ فإذا جاء وعد أولى المرتين ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لنا﴾ سلطنا عليكم عباداً لنا ﴿أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ذوي بطش في الحروب شديد ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ﴾ فترددوا بين الدور والمساكن ، ذاهبين وجائين ﴿وَكَانَ وَعْداًمَفْعُولاً﴾ محققاً لا محالة ، لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ رددنا لكم الدولة والغلبة على أعدائكم ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ ورددنا ما أعطيناكم من الأموال والبنين ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ وجعلناكم أكثر عدداً منهم ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأنفسكم﴾ إن أحسنتم يا بني إسرائيل فأطعتم ربكم ، وأصلحتم أمركم ، نفعتم أنفسكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ وإن عصيتم ربكم فإنما تسيئون لأنفسكم ﴿فإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ فإذا جاء وعد المرَّة الآخرة ، من إفسادكم في الأرض ﴿لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ﴾ ليسوء العباد وجوهكم فيقبِّحوها ﴿وَلِيَدْخُلوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وليدخل أعداؤ كم مسجد بيت المقدس ، كما دخلوه أول مرة حين أفسدتم في الأرض ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ وليدمِّروا بلادكم تدميراً ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ لعلَّ ربكم يرحمكم بعد انتقامه منكم ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ وإن عدتم لمعصيتي وقتل رسلي ، عدنا عليكم بالقتل والأسر ، وإحلال الذل والصَّغار ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ مهاداً وفراشاً للكافرين[2] ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي

---

(١) كان أول الفسادين قتلهم نبي الله « زكريا » فبعث الله لهم ملك فارس « بختنصَّر » فقتلهم وخرَّب بيت المقدس ، والفساد الثاني قتلهم « يحيى بن زكريا » عليه السلام ، فسلط الله عليهم من قتلهم وشرَّدهم ، وأسر منهم ما يزيد على سبعين ألفاً ، بقوا في الذل والهوان ، إلى أن قيَّض الله لهم من نجَّاهم ، وكلُّ ذلك بسبب الكفر والعصيان ، والمقصود الأصلي من الآيات أنهم كلما عصوا وأفسدوا ، سلَّط الله عليهم أعداءهم ، وفيه تحذيرٌ للعقلاء من عصيان أوامر الله وارتكاب محارمه

(٢) هذا قول الحسن واختاره الطبري ويشهد له قوله تعالى ﴿لهم من جهنم مهادٌ﴾ وقال ابن عباس أي سجناً يسجنون فيها ويُحصرون

أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا

***

هِيَ أَقْوَمُ﴾ إنَّ هذا القرآن يرشد ويسدِّد للطريق التي هي أقوم الطرق ، وهو الإسلام الذي بعث الله به أنبياءه **﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾** ويُبشِّر ـ مع هدايته ـ أهل الإيمان والعمل الصالح **﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾** بأنَّ لهم ثواباً عظيماً وجزاءً جزيلاً ، وهو الجنة التي أعدها الله لأوليائه **﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾** وأن الذين لا يصدِّقون بالثواب والعقاب ولا بالمعاد إلى الله **﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾** أعددنا لهم يوم القيامة عذاباً موجعاً في جهنم **﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾** ويدعو الإنسان على نفسه وولده عند غضبه ، كدعائه بالخير فيلعن نفسه وولده ، ولو استجيب له بالشر كما يُستجاب له بالخير لهلك **﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾** ضجراً لا صبر له على سرَّاء ولا ضرَّاء **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾** جعلنا الليل والنَّهار علامتين دالتين على كمال قدرتنا **﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾** فطمسنا علامة الليل فجعلنا الليل مظلماً ، وجعلنا علامة النهار منيرة مضيئة **﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾** لتسكنوا في الليل ، وتتصرفوا في النَّهار طلباً لرزق الله **﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾** ولتعلموا باختلافهما دخول السنين وانقضاءها ، وحساب ساعات الليل والنهار **﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾** وكل شيء بيَّناه بياناً شافياً[1] **﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾** وكل إنسان ألزمناه عمله ، وما قُدِّر له من خير أو شر[2] **﴿وَنُخْرِجُ له يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً﴾** ونخرج له إذا وافانا كتاباً ، يصادفه منشوراً بأعماله التي عملها في الدنيا ، قد أحصى عليه كل ما سلف **﴿إِقْرَأْ كِتَابَكَ﴾** يُقال له إقرأ كتاب عملك الذي عملته في الدنيا **﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾** حسبُك أن تكون نفسك اليوم شاهداً على أعمالك.قال **الحسن** عَدَلَ واللَّهِ من جعلَك حسيب نفسك **﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾** من استقام على طريق الحق واتَّبعه ، فليس ينفع غير نفسه **﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾** ومن جار عن قصد السبيل وكفر بالله

---

(١) المراد أن كل ما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا ، بيَّنه تعالى بياناً واضحاً شافياً حتى تزول الأعذار

(٢) قال الطبري هذا مثل لما كانت العرب تتفاءل أو تتشاءم به من الطير ، فأعلمهم جل وعلا أن كل إنسان قد قلَّده ربه طائره في عنقه ، نحساً كان ذلك يورده سعيراً ، أو كان سعداً يورده جنات عدن

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

***

ورسوله ، فليس يضرُّ غير نفسه ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحمل نفسٌ ذنب نفسٍ أخرى **قال قتادة** والله ما يحمل عبدٌ ذنب غيره ، ولا يُؤاخذ إلاَّ بعمله ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ وما كنا لنهلك قوماً ، إلاَّ بعد إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ وإذا أردنا أن نهلك أهل بلدةٍ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فيها﴾ أمرنا مترفيها بالطاعة[١] ، فعصوا وفسقوا فيها بمخالفتهم أمر الله ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها وعيد الله بالهلاك ، بعد الإعذار إليها والإنذار ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ فخربناها تخريباً ، وأهلكنا أهلها إهلاكاً﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ وكم أهلكنا قبلكم أيها القوم أمماً كثيرين ، من بعد نوح إلى زمانكم ، كذَّبوا رسلهم كما كذبتم رسولكم ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ وحسبك يا محمد أن الله عالمٌ بذنوب خلقه ، ومطَّلع على أعمالهم لا يخفى عليه منها شيءٌ وهذا وعيدٌ وتهديدٌ لمشركي قريش ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ من كان طلبه الدنيا ، لها يعمل وإيَّاها يبتغي ، لا يرجو ثواباً ولا عقاباً ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ عجَّلنا له في الدنيا ما شئنا من بسط النعيم ، لمن نريد أن نفعل به ذلك[٢] ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ ثم أصليناه في الآخرة جهنم ، مذموماً على قلة شكره ، مبعداً مقصيًّا في النار ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ ومن طلب الآخرة ، وعمل له عملها ، وذلك بطاعة الله وما يرضيه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهو مصدِّقٌ بثواب الله وعظيم جزائه ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ فهؤلاء يجزيهم الله أحسن الجزاء على أعمالهم الصالحة ، ويتجاوز لهم عن سيِّئها برحمته ﴿كُلًّا نُمِدُّ﴾ كلا الفريقين نزيدهم من عطائنا ﴿هؤلاء وهؤلاء﴾

---

(١) هذا ما رجحه الطبري وهو قول ابن عباس وسعيد بن جبير ، وهو الصحيح لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء ، ففي الكلام محذوف تقديره أمرناهم بطاعة اللهِ فعصوا وفسقوا فيها ، وقيل إن المراد أكثرنا مترفيها أي جبابرتها ، وقرىء بالتشديد « أمَّرنا » أي جعلناهم أمراء وسلَّطنا أشرارها فعصوا فيها ، والقول الأول هو الراجح وهو الصحيح

(٢) قيِّد المعجَّل بقيدين أولاً المشيئة الإلَهية « ما نشاء » فكثيراً ما يتمنَّى أرباب الدنيا شيئاً ولا يحصل لهم أو يعطون بعضه ، فليس كل ما يتمناه الإنسان يناله ، والثاني الإرادة « لمن نريد » ولهذا ترى كثيراً منهم يتمنون البعض اليسير من الدنيا ولا يؤتونه ، فيجتمع عليهم فقر الدنيا وحرمان الآخرة

﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾

***

مريد العاجلة ، ومريد الآخرة ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ نرزقهما جميعاً من رزقنا إلى بلوغ أجلهما ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ وما كان عطاء ربك ممنوعاً عن أحدٍ من خلقه . **قال قتادة** قسم الله الدنيا بين البرِّ والفاجر ، وجعل الآخرة خصوصاً للمتقين ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أنظر يا محمد كيف فضَّلنا أحد الفريقين على الآخر ، فبصَّرنا هذا بالطريق الأقوم ، وخذلنا هذا فأضللناه عن طريق الحق والرشد[1] ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ ولتفاوتُهم في الآخرة أكبر من الدنيا ، لتفاوت منازلهم بأعمالهم في الجنة ، بتفضيل الله بعضهم على بعض ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ لا تجعل مع الله شريكاً في ألوهيته وعبادته ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ فتصير ملوماً على إشراكك ، مخذولاً من ربك ، قد أسلمك إلى من لا ينصرك ويدفع عنك ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وحكم ربك وأمر ، بألَّا تعبدوا إلا الله ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ وأمركم أن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً وأن تبرُّوهما ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ إن أدركا سنَّ الشيخوخة والكبر ، أو صار أحدهما عاجزاً هرماً[2] ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ فلا تغلظ لهما القول فتقول « أُفٍّ » تقذرهما ، ولكنْ اصبرْ على ذلك منهما ، واحتسب الأجر كما صبرا عليك في صغرك[3] ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ولا تزجرهما ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ وقل لهما قولاً جميلاً حسناً ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ كن لهما ذليلاً رحمةً بهما ، ولا تخالفهما فيما أحبَّا ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ ادع لهما بالرحمة وقل يا رب ارحمهما وتعطَّف عليهما ، كما رحماني في صغري ، وربياني صغيراً حتى استغنيتُ عنهما ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من تعظيم أمر الآباء والأمهات والبرِّ بهم ، أو الاستخفاف بحقوقهم والعقوق لهم ، وهو مجازيكم على ذلك ﴿إِنْ

---

(١) جعل الشيخ الطبري التفضيل بين الفريقين في الدين ، وذهب غيره من المفسرين إلى أن التفضيل في الدنيا ، حيث أغنى هذا وأفقر هذا ، وأعزَّ هذا وأذلَّ ذاك ، وهو اختيار ابن كثير وهو الأرجح لأن سياق الآية في إمداد الرزق، والله أعلم

(٢) قال في الكشاف معنى « عندك الكِبَرُ » هو أن يكبرا ويعجزا ، ويكونا كلّاً على ولدهما لا كافل لهما غيره

(٣) قال مجاهد : ﴿لا تقل لهما أفٍّ﴾ حين ترى الأذى منهما ، وتميط عنهما الخلاء والبول ، كما كان يميطانه عنك صغيراً ، وقال ابن كثير لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ، أقول وهذا أبلغ أنواع التحذير ، فإذا نهي الإنسان عن التأفف ، فكيف بالضرب والشتم واللعن !!

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾

***

تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ إن أصلحتم نياتكم ، وأطعتم الله بالبِرّ بهم ثم فرطت منكم بادرة في حقهم ، فأنبتم واستغفرتم منها **﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غفُوراً﴾** يغفر زلّات التائبين ، الراجعين عن معصيته إلى طاعته **﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾** وأعط قرابتك حقهم من الصلةِ والبِرّ ، وكذلك ذا الحاجة المسكين ، والمسافر المنقطع في سفره **﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾** ولا تنفق المال وتفرّقه في معصية الله[١] **﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾** إن المنفقين أموالهم في غير طاعة الله ، كانوا أولياء الشياطين[٢] **﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾** جاحداً لنعمة ربه **﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾** وإن تعرض بوجهك عن هؤلاء الذين أمرتك بالإحسان إليهم **﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾** انتظار رزقٍ من الله يأتيك **﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾** قولاً ليناً سهلاً بأن تقول سيرزق الله فأعطيكم **﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾** ولا تُمسك يدك بخلاً عن الإنفاق ، كالمغلولة يده إلى عنقه لا يستطيع بسطها ولا قبضها[٣] **﴿وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾** ولا تبسطها بالعطاء كلَّ البسط ، وتبذِّر المال **﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾** فتبقى ملوماً عند الناس ، منقطعاً لا شيء عندك تنفقه ، نادماً على ما فرط منك **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾** يوسّع الرزق على من يشاء من عباده ، ويُضيِّق على من يشاء منهم[٤] **﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾** عالمٌ بمن تُصلحه السَّعة ومن يصلحه الإقتار ، بصيرٌ بتدبير شئون الخلق **﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾** خوف الفاقة والفقر **﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾** فإن رزقكم ورزق أولادكم على الله **﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ**

---

(١) قال قتادة التبذيرُ النفقة في معصية الله ، وفي غير الحقّ ، وفي الفساد

(٢) قال الطبري العرب تقول لكل ملازم سنة قوم ، وتابع لأثرهم هو أخوهم

(٣) هذا مثل ضربه الله للبخل كالمشدودة يده إلى عنقه ، بحيث لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء ، ومثل للإسراف كالذي ينفق كل ما في يديه من أموال ويبذرها ثم يتحسر ويتألم

(٤) نبَّه تعالى إلى أن البسط والتضييق ، إنما هو لرعاية المصلحة ، وأنه تعالى لا يفعل إلا ما فيه الحكمة كما قال تعالى ﴿ولو بسط الله الرزقَ لعباده لبغوا في الأرض ، ولكنْ يُنزِّل بقدرٍ ما يشاء ، إنه بعباده خبيرٌ بصيرٌ﴾.

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾

***

﴿كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ إن قتلهم إثمٌ وخطيئةٌ عظيمة ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ ولا تقربوا أيها الناس الزنى[١] ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ متناهياً في القبح ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ وساء طريقاً ، لأنه يورد صاحبه نار جهنم ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بالحق ، وذلك إذا كفرت بعد إيمان ، أو زنت بعد إحصان ، أو قتلت نفساً ، فتقتل بها قصاصاً[٢] ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ فقد جعلنا لولي المقتول سلطاناً على القاتل ، إن شاء اقتصَّ ، وإن شاء عفا ، وإن شاء أخذ الدية ﴿فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ فلا يقتل غير القاتل[٣] ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ الولي هو المنصور حيث سلطناه على القاتل ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ ولا تأكلوا مال اليتيم ﴿إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إلاَّ بالطريقة التي هي أحسن ، وذلك بالتثمير والإصلاح ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ باكتمال عقله وتدبير ماله وصلاح حاله ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ وأوفوا بالعقود في البيوع والإجارات والصلح وغيرها ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ مطلوباً يُسأل ناقض العهد عنه ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ وأوفوا الكيل إذا كلتم للناس حقوقهم ، ولا تبخسوهم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ وزنوا بالميزان العدل ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ ذلك الوفاء بالكيل والوزن خيرٌ من التطفيف ، وأحسن ثواباً وعاقبة ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ولا تقل في الناس[٤] ما لا علم لك به ، فترميهم بالباطل وتشهد عليهم بغير الحق ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ إنَّ الله سائل هذه الأعضاء عمَّا قال صاحبها ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ مختالاً مستكبراً

---

(١) قوله « ولا تقربوا الزنى » آكد وأبلغ من قوله ولا تزنوا ، لأنه نهي عن الزنى وعن مقدماته من النظر والاختلاط ومحادثة النساء

(٢) أشار إلى الحديث الشريف « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »

(٣) نهى تعالى الوليَّ أن يقتل غير القاتل ، فقد كانوا في الجاهلية يقتلون بالرجل رجالاً ، وكانوا يعتدون بقتل غير القاتل من أخ وأب وقريب

(٤) وقيل المعنى ولا تتبع ما ليس لك به علم ، من قولك قفوت فلاناً أي اتبعت أثره ، والمراد النهي عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، أو يعمل بما لا علم له به ، قال ابن عباس لا تشهد إلا بما رأته عيناك ، وسمعته أذناك ، ووعاه قلبك

كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ

***

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ لن تثقبها بشدة وطأتك ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ بفخرك وكبرك[١] ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ كل هذا الذي ذكرناه مكروه عند الله ، يكرهه ولا يرضاه ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ، من الحكمة التي أوحيناها إليك في القرآن ﴿وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾ لا تجعل مع الله شريكاً في عبادتك[٢] ، فتلقى في جهنم ملوماً يلومك الناس ، مبعداً مقصياً في النار ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثاً﴾ أفخصكم ربكم أيها المشركون بالذكور من الأولاد ، واختار لنفسه البنات ، وأنتم لا ترضونهن لأنفسكم ؟ ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ بنسبتكم البنات إليه وافترائكم عليه ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ ولقد بيَّنا في هذا القرآن الحجج والآيات[٣] ، وضربنا لهم فيه الأمثال ، ليتذكروا ويعتبروا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ وما يزيدهم تذكيرنا إلاّ بعداً عن الحق ، وهرباً منه ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ قل لهم لو كان الأمر كما تقولون من أن معه آلهة أخرى ﴿إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ إذاً لطلبت تلك الآلهة القرب من الله ، والتمست الزلفى إليه ، وما يقرّبهم منه[٤] ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ تنزيهاً لله وعلواً عما يصفه به المشركون من الكذب والبهتان ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمواتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ تُنَزِهِ اللَّهَ إعظاماً له وإجلالاً السمواتُ السبع والأرضُ ، ومن فيهنَّ من الملائكة والإنس والجن[٥] ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وما من شيء من خلقه إلا

---

(١) في الآية نهي عن التكبر والخيلاء ، فالإنسان مخلوق ضعيف لا يقدر على خرق الأرض ، ولا على الوصول إلى رؤوس الجبال ، فلا يليق به أن يتكبر ، وكيف يتكبر من أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة« قذرة »

(٢) بدأ سبحانه هذه التكاليف بالنهي عن الشرك ، وكذلك ختمها به لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ، فإذا فقده الإنسان لم ينفعه شيء

(٣) المراد بقوله « صرَّفنا » أي بيَّنا أحسن بيان ، لان من أراد بيان شيء فإنه يصرِّف كلامه من مثال إلى مثال ، ومن نوع إلى نوع ، حتى ينتهي به إلى مراده من الإيضاح

(٤) وقيل المراد لطلبوا مغالبة ذي العرش ، كما يفعل الملوك بعضهم ببعض ، وانظر الكشاف ـ ٢/٥٢٨

(٥) قال ابن كثير : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات وتنزهه وتعظمه ، وتشهد له بالوحدانية في ألوهيته =

كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

***

يسبح بحمده ﴿وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ولكن لا تفهمون تسبيحهم لأنها بخلاف ألسنتكم ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ لا يعجل العقوبة لخلقه الذين يخالفون أمره ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ جعلنا بينك وبين هؤلاء المشركين ، الذين لا يصدّقون بالبعث ، ولا يقرُّون بالثواب والعقاب ﴿حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ حجاباً مخفياً عن أبصارهم فلا يرونه[1] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أغشية وأغطية لئلا يفهموا القرآن ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ صمماً عن سماعه ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ وإذا قلت « لا إله إلا الله » وأنت تتلو القرآن ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ انفضوا ونفروا عنك نفوراً ، استكباراً واستعظاماً من توحيد الله ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ نحن يا محمد أعلم بما يستمع به هؤلاء المشركون من قومك ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ حين يستمعون إليك وأنت تقرأ كتاب الله ، ويتشاورون في أمرك سراً في دار الندوة ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ حين يقول المشركون ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ، سُحِر فاختلط عقله وزال ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا﴾ انظر يا محمد واعتبر كيف مثّلوا لك الأمثال ، فقالوا شاعر ، ساحر ، مجنون ، فضلوا عن قصد السبيل ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ فلا يهتدون لطريق الحق ، لضلالهم وبعدهم عنه ، ولا يقدرون على المخرج من الكفر ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ وقال المشركون أئذا متنا وصرنا عظاماً وتراباً في قبورنا[2] ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ هل سنبعث ونعاد خلقاً جديداً ، كما كنا قبل الممات ؟ قالوا ذلك إنكاراً منهم للبعث ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ قل لهم يا محمد كونوا كما تشاءون من الحجارة أو الحديد[3]

= وربوبيته ، وما من شيء إلا يسبح بحمده ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات ، وقيل ما كان فيه روح من حيوان ونبات

(١) عن ابن عباس أن النضر بن الحارث ، وأبا سفيان ، وأبا جهل وغيرهم ، كانوا يجالسون الرسول ﷺ ويسمعون حديثه ، فقال النضر يوماً ما أدري ما يقول محمد ؟ غير أني أرى شفتيه تتحركان بشيء ، وقال أبو سفيان إني أرى بعض ما يقوله حقاً ، وقال أبو جهل هو مجنون ، فنزلت ﴿وإذا قرأت القرآن﴾ الآية

(٢) الرُفات الأجزاء المفتّتة من كل شيء كالرُضاض والفتات

(٣) هذا الأمر يُراد به التعجيز والتبكيتُ

أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

***

﴿ أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أو كونوا خلقاً آخر يعظم في صدوركم كالسماء ، والأرض ، والجبال ، فإني أُحييكم ، وأبعثكم قال ابن عباس لو كنتم الموت لأحييتكم[٢] ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ فسيقولون من يعيدنا خلقاً جديداً ، إذا كنا حجارة أو حديداً ؟ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قل لهم يعيدكم الذي خلقكم أول مرة ، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ ﴾ فسيهزّون إليك رءوسهم ، ويحركونها سخريةً واستهزاء ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ ويقولون متى البعث ؟ ومتى يعيدنا الله خلقاً جديداً ؟ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ قل لهم هو قريب كما في الحديث « بُعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار بالسبابة والوسطى[٣] » ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ يوم يدعوكم ربكم لموقف القيامة ، فتستجيبون لأمره ودعائه ، حامدين الله في كل حال ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وتحسبون من هول ما تشاهدون ، أنكم ما لبثتم في الأرض إلا قليلاً[٤] ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وقل لعبادي المؤمنين يقولوا في خطابهم الكلام الأحسن كقوله يرحمك الله ، يغفر الله لك ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ إن الشيطان يفسد بينهم ، ويُهيج بينهم الشر ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾ ظاهر العداوة ، بحسده لآدم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ ربكم أيها القوم أعلم بكم[٥] ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ إن يشأ يرحمكم بتوفيقه لكم للهداية والتوبة ، أو إن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ وما أرسلناك يا محمد عليهم رقيباً ، وإنما أرسلناك نذيراً ، فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار ﴿وَرَبُّكَ

---

(١) ذكر الحجارة والحديد لأنهما أبعد شيء من الحياة ، وأشد امتناعاً من الرفات والعظام ، وهذا على الفرض والتقدير أي لو فرض وصرتم من مادة صلبة كالحجارة والحديد فإن الله سيبعثكم

(٢) المعنى لو صارت أجسامكم نفس الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله ، وهذا إنما يحسن على سبيل المبالغة

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم

(٤) كقوله تعالى ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلاَّ عشيةً أو ضحاها﴾ .

(٥) أي أعلم بمن يستحق منكم الهداية ومن يستحق الضلالة

بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

***

أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وربك أعلم بخلقه وما يُصلحهم ، فإنه خالقهم ورازقهم ومدبرهم **﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ على بَعْضٍ﴾**(١) برفع بعضهم على بعض درجات(٢) **﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾** وأعطينا داود الزبور(٣) كما أعطيناك القرآن **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾** قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ادعوا الذين زعمتم أنهم أرباب من الملائكة وعزير والمسيح وغيرهم **﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾** لا يقدرون على دفع الضُّرِّ عنكم ، أو تحويله إلى غيركم ، حتى تدعوهم آلهة ؟ وإنما يقدر على ذلك الله وحده ، الذي له الخلقُ والأمرُ **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾** هؤلاء الذين تدعونهم أرباباً يطلبون الزلفة والقربة من الله **﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾** أيهم بطاعته أقرب عنده زلفة **﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾** ويرجون بطاعتهم وعبادتهم رحمته ، ويخافون من عذابه **﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾** جديراً بأن يُتَّقى ويُحذر منه **﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** وما من أهل قرية من القرى ، إلا نحن مهلكوها بالفناء أو عذاب الاستئصال قبل يوم القيامة **﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾** أو معذبوها بالقتل والسبي وأنواع العذاب ، إذا تركوا أمر الله وكذَّبوا رسله(٤) **﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾** كان ذلك مكتوباً في اللوح المحفوظ **﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾** وما منعنا أن نأتي بالآيات التي سألها قومك **﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾** إلَّا تكذيب من سبقهم من الأمم ، فلو أعطينا قومك ما اقترحوا ثم كذبوا ، لسلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم(٥) **﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾** وأعطينا ثمود الناقة ـ كما سألوا ـ حجةً بيِّنة أنها من عند الله **﴿فَظَلَمُوا**

---

(١) الآية ردٌّ على أهل مكة ، في إنكارهم أن يكون يتيم أبي طالب نبياً مفضلاً على الخلائق ، دون صناديد قريش وأكابرهم

(٢) كما رفعنا درجتك يا محمد بإرسالك للناس كافة ، وجعلناك خاتم الأنبياء ، وأمتك خير الأمم

(٣) التفضيل ليس بالمال والملك ، وإنما هو بالعلم والدين ، فإن داود كان ملكاً عظيماً ولم يذكره الله سبحانه إلا بمزية إيتاء الكتاب

(٤) إنما يكون هلاكهم بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال عبد الرحمن بن عبد الله إذا ظهر الزنا والربا في أهل قرية أذن الله في هلاكها ، ويؤيده قوله تعالى ﴿وكأيِّنْ من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذَّبناها عذاباً نُكراً﴾.

(٥) قال ابن عباس سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يُنحّي عنهم الجبال فيزرعوا ، فأخبره ربه أنهم لو أعطوا =

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ

***

بِهَا﴾ فقتلوها وعقروها **﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾** وما نرسل بالعبر إلَّا تخويفاً للعباد ، لعلهم يعتبرون ويذكَّرون **﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾** واذكر يا محمد حين قلنا لك إنا سنمنعك من الناس فلا تتهيَّب منهم في تبليغ رسالتنا ، فهم في قبضتنا ومشيئتنا[١] **﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾** وما جعلنا ما شاهدتَه ليلة الإسراء[٢] من الآيات والعبر ، إلَّا ابتلاءً واختباراً للناس **﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾** وكذلك شجرة الزقوم جعلناها فتنة للناس ، أما فتنتهم في الرؤ يا فارتداد من ارتد عن الإسلام ، واستهزاء المشركين حين أخبرهم عما رآه في إسرائه ، وأما فتنتهم في الشجرة فقولهم كيف تنبت شجرةٌ في النار ، والنارُ تأكل الشجر[٣] ؟ **﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾** ونخوِّف المشركين بالعقوبات ، فما يزيدهم تخويفنا إلَّا تمادياً وغيَّاً في كفرهم **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾** اسجدوا لآدم سجود تحيةٍ وتكريم **﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيس﴾** أبى السجود حسداً واستكباراً[٤] **﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾** قال أأسجد لمن خلقته من طين ؟ **﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾** أرأيت « آدم » الذي كرَّمته عليَّ فأمرتني بالسجود له **﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾** فأقسمُ لئن أخَّرت إهلاكي إلى يوم القيامة **﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قليلاً﴾** لأستولينَّ عليهم ولأستأصلنهم إلا قليلاً منهم **﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾** قال الله لإبليس اذهب فقد أخَّرتك ، فمن أطاعك من ذرية آدم **﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً﴾** فإن جزاءهم عذاب جهنم على معصيتي ، جزاءً وافراً مكمَّلاً **﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ**

= ما سألوا ثم كذبوا ، لأهلكهم الله بعذاب الاستئصال

(١) هذا وعدٌ من الله بنصرة رسوله على المشركين ، وعصمة له من شرهم وكيدهم كقوله تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾

(٢) أخرج البخاري عن ابن عباس قال هي رؤ يا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به

(٣) هذا إشارة إلى ما قاله أبو جهل اللعين يزعم صاحبكم أن في النار شجرة ، والنارُ تأكل الشجر ، وكان يدعو بالتمر والزبد ، ويأكل هذا بهذا ويقول هذا الزقوم الذي أوعدكم به محمد فتزقموا

(٤) انظر التحقيق العلمي في أن إبليس من الجن وليس من الملائكة والأدلة على ذلك في أول سورة البقرة

(٥) هذا ما رجحه الطبري أن المراد بالصوت كل داع إلى معصية الله ، وقيل المراد به اللهو والغناء

ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ

***

﴿اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ استخفَّ من استطعت منهم بدعائك لهم إلى معصية الله ﴿وَأَجْلِبْ عليهم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ واجمع عليهم كل ما تقدر من جندك من الركبان والمشاة[1] ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ﴾ وشاركهم في كل ما اكتُسب من حرام ، أو أُنفق في حرام ﴿وَعِدْهُمْ﴾ بالنصرة على الأعداء ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ ما يعدهم إلا الباطل والخديعة ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْس لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ إنَّ عبادي المؤمنين الذين أطاعوا أمري ، ليس لك عليهم حجة ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ حافظاً ومؤيداً ونصيراً ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ ربكم أيها القوم هو الذي يسيّر لكم السفن في البحر ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ لتلتمسوا من رزقه بالتجارة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رحِيماً﴾ وذلك من رحمته بكم ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضرُّ فِي الْبَحْرِ﴾ وإذا نالتكم الشدَّة والجهد في البحر ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إِيَّاهُ﴾ فقدتم من تدعون من الأنداد والآلهة ، ولم تجدوا مغيثاً يغيثكم غير الله تعالى ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ فلما أغاثكم ونجَّاكم من هول البحر ، أعرضتم عن دعائه كفراً لنعمته ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ جاحداً لنعم ربه ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أفأمنتم أيها الناس أن يخسف بكم ربكم ناحية البر ، وقد كفرتم نعمته ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أو يمطركم حجارةً من السماء تقتلكم ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ ثم لا تجدوا لكم مانعاً ولا ناصراً ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أم أمنتم أن يعيدكم في البحر مرةً أخرى ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ﴾ فيرسل عليكم ريحاً قاصفاً تكسر ما مرت به وتحطمه ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ فيغرقكم بسبب كفركم ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ مطالباً يأخذ بثأركم ، ويتبعنا بما فعلنا[2] ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ بتسخيرنا لهم سائر المخلوقات ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ على ظهور

---

(١) الرَّجِل بكسر الجيم جمع راجل وهو الماشي ، وهو تمثيل لجند الشيطان من الركبان والمشاة

(٢) تبيعاً بمعنى تابعاً يتبعنا بما فعلنا، قال ابن عباس : نصيراً. وقال مجاهد نصيراً ثائراً

وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

***

الدواب والمراكب ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطيِّبَاتِ﴾ من طيبات المطاعم والمشارب ، الحلال اللذائذ ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ وفضلناهم على سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات ، بأن خلقنا للإنسان يدين يأكل بهما [١] ، ويأخذ بهما الأطعمة والأشربة ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ بإمامهم الذي كانوا يقتدون[٢] به ، ويأتمون به في الدنيا ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فمن أعطي كتاب عمله بيمينه ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ ليسرُّوا بما فيه من العمل الصالح ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ولا يظلمهم الله من جزاء أعمالهم قدر الخيط الذي في شقّ النواة ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ ومن كان في هذه الدنيا أعمى عن حجج الله ، وآياته ، وعجائبه ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾ فهو في أمر الآخرة[٣] التي لم يعاينها أعمى ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وأضلُّ طريقاً منه في أمر الدنيا ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ كاد المشركون أن يفتنوك يا محمد عن بعض ما أوحاه الله إليك[٤] ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ لتعمل بغير ما أوحيناه إليك ﴿وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك صديقاً ووليا ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ ولولا تثبيتنا وعصمتنا لك ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِليهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ لقد كدت تميل إليهم ميلاً قليلاً ﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ إذاً لأذقناك ضعف عذاب الدنيا والآخرة ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ ثم لا تجد من ينقذك ويمنعك من عذابنا ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ وإن كاد المشركون ليستخفونك[٥] من أرض مكة لإخراجك منها ﴿وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ ولو أخرجوك

---

(١) وقيل التفضيل بالعقل ، والنطق ، والتمييز ، وحسن الصورة ، وانتصاب القامة ، والأكل بيديه الخ وهذا أظهر

(٢) هذا ما رجحه الطبري لأنه الأشهر في معنى الإمام ، ورجح ابن كثير أن الإمام هو كتاب أعمالهم لقوله تعالى ﴿وكل شيءٍ أحصيناه في إمام مبين﴾ ويؤيده ما بعده ﴿فمن أوتي كتابه﴾

(٣) وقيل فهو في الدار الآخرة كذلك يكون أعمى كقوله تعالى ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾

(٤) طلب المشركون من رسول الله ﷺ أن يكف عن عيب دينهم وشتم آلهتهم ، وأن يطرد الفقراء من مجلسه فنزلت الآية.

(٥) فسّر الطبري الاستفزاز بمعنى الاستخفاف ، والأظهر أن معناه الإزعاج حتى يخرج من بلده.

سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَٰطِلُ إِنَّ الْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ

***

لم يمكثوا بعدك إلا زمناً قليلاً ، حتى أهلكهم بعذاب عاجل[١] ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مَنْ رُسُلِنَا﴾ هكذا نفعل بالأمم إذا خرجت رسلهم من بين أظهرهم ﴿وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ ولا تبديل لسنة الله ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أقم يا محمد الصلاة المفروضة حين تميل الشمس عن كبد السماء لوقت الظهر ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إلى ظلمة الليل ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ وصلاة الفجر[٢] ﴿إنَّ قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ إن ما تقرأه في صلاة الفجر من القرآن ، تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فتهجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ ومن الليل فاسهر بالقرآن خالصة لك دون أمتك.قال ابن عباس كُتب عليه قيام الليل خاصةً ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ لعل ربك أن يبعثك يوم القيامة مقاماً تُحمد فيه وتُغبط ، وهو مقام الشفاعة[٣] ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخرِجْني مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أدخلني المدينة مدخل صدق[٤] ، وأخرجني من مكة مخرج صدق ﴿واجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ واجعل لي ملكاً وعزاً تنصرني بهما على جميع من خالفني ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ وقل يا محمد جاء الإسلام واضمحلَّ الشرك[٥] ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ إن الباطل ذاهب غير ثابت ﴿ونُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ وننزِّل عليك يا محمد من القرآن ، ما فيه شفاء من الجهل والضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ونعمةٌ ورحمة للمؤمنين ، يبصِّرهم به من العمى ، وينجيهم من عذاب الله ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ ولا يزيد الكافرين به إلاّ هلاكاً ودماراً ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ﴾ وإذا أنعمنا على الإنسان فنجيناه من الكرب

---

(١) لم يبقوا بعد إخراجه ﷺ من مكة إلا مرة يسيرة حتى أهلكهم الله ببدر ، وصدق الله وعده

(٢) قال ابن كثير : دلوكُ الشمس زوالها ، وهذه الآية دخلت فيها الصلوات الخمس ، فدلوك الشمس يدخل فيه الظهر والعصر ، وغسق الليل يدخل فيه المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر هي صلاة الفجر

(٣) المقام المحمود هو « الشفاعة العظمى » لرسول الله ﷺ يحمده عليها الخلائق كلهم يوم القيامة ،كما صحت بذلك الأحاديث

(٤) وصف الإدخال والإخراج بالصدق للمبالغة كأنه يقول أدخلني إدخالاً ليس فيه شيء من المكروه ، والمراد إدخال المدينة والإخراج من مكة ، وذلك حين آذاه المشركون وأمره ربه بالهجرة إلى المدينة المنورة

(٥) حين فتح رسول الله ﷺ مكة كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فحطَّمها رسول الله وهو يقرأ هذه الآية الكريمة .

يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾

***

والشدة ، وغير ذلك من نعمنا ﴿أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ أعرض عن ذكرنا ، وبَعُد منا بنفسه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ وإذا أصابته الشدَّة كان قنوطاً من الفرج[١] ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ قل يا محمد للناس كلكم يعمل على ناحيته وطريقته ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ فربكم أعلم بمن هو أهدى منكم طريقاً إلى الحق ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ ويسألك أهل الكتاب[٢] عن الروح ما هي ؟ ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ قل لهم الروح مما استأثر الله بعلمه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ وما أعطيتم أيها الناس من العلم إلا قليلاً ممَّا يعلمه الله[٣] ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ لو أردنا يا محمد لسلبنا هذا الذي أعطيناك من القرآن فلا تعلمه ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ ثم لا تجد لك ناصراً ينصرك ، فيحول بيننا وبين ما نريد بك ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ لكنه تعالى لم يشأ ذلك تفضلاً منه عليك ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ باصطفائه لك بالرسالة ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ قل يا محمد للذين يزعمون أنهم يأتون بمثل هذا القرآن لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لعجزوا ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ ولو كان بعضهم عوناً لبعض ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد بيَّنا للناس في القرآن الأمثال ، تذكيراً لهم وتنبيهاً على الحق ليتبَّعوه ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ جحوداً للحق ، وإنكاراً لحجج الله وأدلته ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ وقال المشركون لن نصدقك يا محمد حتى تخرج لنا من أرضنا هذه عيناً تنبع بالماء[٤] ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ أو يكون لك بستان من النخيل والكروم

---

(١) الآية للتنبيه على ضعف الإنسان وعجزه وإنكاره للفضل ، فإنه إن ظفر بالمطلوب نسي المنعم الحقيقي ، وإن فاته شيء من النعم استولى عليه الأسف والندم حتى كاد يتلف .

(٢) قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ؟ فقالوا سلوه عن الروح ، فسألوه فنزلت الآية

(٣) الإنسان وإن أوتي حظاً من العلم وافراً فإنه قليل جداً بالنسبة إلى علم علام الغيوب جل وعلا

(٤) الينبوع العين الغزيرة التي تنبع بالماء من غير انقطاع

أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

***

﴿فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً﴾ فتفجرّ الأنهار بين أصول الأشجار تفجيراً[1] ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً﴾ أو تسقط السماء علينا قِطَعاً ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ أو تأتي بالله والملائكة عياناً ، نعاينهم ونقابلهم ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أو يكون لك يا محمد بيتٌ من ذهب ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّماءِ﴾ أو تصعد في سُلَّم إلى السماء ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾ ولن نصدقك من أجل صعودك إلى السماء ، حتى تنزّل علينا كتاباً منشوراً نقرؤه ، فيه أمرُنا باتباعك ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي﴾ قل لهم يا محمد تنزيهاً لله عمّا تقولون من الإتيان به وملائكته ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ هل أنا إلّا عبدٌ من عبيده ، فكيف أقدر أن أفعل هذه الأمور ؟ ﴿وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ وما منع المشركين من الإيمان بالله وبما جئتهم به من الحق ﴿إِذْ جاءَهُمُ الْهُدَى﴾ إذ جاءهم البيان من عند الله بصدق ما جئتهم به ﴿إِلَّا أَنْ قالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ إلّا قولهم جهلاً منهم أبعث الله رسولاً من البشر ؟ ﴿قُلْ لَوْ كانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ قل لهم يا محمد لو كان سكان الأرض ملائكة[2] ، يمشون عليها ساكنين ﴿لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ، فإن البشر لا يقدرون على رؤ ية الملائكة ، فكيف يبعث إليهم الرسل من الملائكة ؟ ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ كفى أن يكون الله شاهداً على صدق رسالتي ﴿إِنَّهُ كانَ بِعِبادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ إنه عالم بشئون العباد ، بصيرٌ بتدبير أمورهم وأحوالهم ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ ومن يوفقه الله للإيمان ، فهو الرشيد المصيب للحق ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ﴾ ومن يضلله الله ويخذله عن إصابة الحق ،

---

(١) المراد تدفق مياه الأنهار بين الأشجار ، لأن بلاد الحجاز ليس فيها أنهار جارية

(٢) اجتمع كفار مكة وطلبوا من الرسول ﷺ ان يخرج لهم عيوناً دافقة من الماء ، أويجري لهم الأنهار ، أويسقط عليهم السماء قطعاً قطعاً ، أو يأتي لهم بالله والملائكة ليشهدوا بصدق نبوته وأن يروهم عياناً، فنزلت الآية

(٣) في الآية ردٌّ على المشركين ، حيث طلبوا أن يكون الرسول من الملائكة لا من البشر ، فأخبرهم تعالى أنه لو كان أهل الأرض من الملائكة لبعث الله لهم رسولاً من الملائكة ، حتى يمكنهم رؤ يتهم والأخذ عنهم

عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

***

فلن تجد لهم من ينصرهم وينقذهم من عقابه ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ ونجمعهم بموقف القيامة ونسوقهم على وجوههم ﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ لا يرون شيئاً يَسرُّهم ، ولا ينطقون بحجة ، ولا يسمعون شيئاً يسرهم[1] ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مصيرهم ومسكنهم في جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ كلما سكن لهبها زدناهم تأججاً ولهيباً في أجسامهم ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بأنهم كفروا بآياتنا﴾ ذلك الجزاء الذي وصفناه ، بسبب أنهم جحدوا بأدلتنا وحججنا الدالة على صدق رسلنا ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ وبقولهم إذا دُعوا إلى الإيمان بالمعاد هل إذا صرنا عظاماً بالية ، ورفاتاً أي تراباً ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ هل سنبعث بعد ذلك مرةً أخرى ، كما كنا في الدنيا ؟ استنكاراً واستعظاماً لذلك ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ﴾ أو لم ينظر هؤلاء المنكرون بعيون قلوبهم، فيعلمون أن الذي ابتدع خلق السموات والأرض من غير شيء ، وأقامها بقدرته ﴿قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ قادرٌ على أن يخلق أمثالهم وأشكالهم بعد فنائهم ؟ ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وجعل لهلاكهم وعذابهم وقتاً لا شك فيه ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً﴾ فأبى الكافرون إلا جحوداً بوعيده تعالى ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين لو كنتم تملكون خزائن أموال ربي ﴿إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ إذاً لبخلتم فلم تجودوا على غيركم خشية الفقر ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ وكان الإنسان بخيلاً ممسكاً ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولقد أعطينا موسى تسع حجج واضحات ، شاهدة على صدقه وحقيقة نبوته ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ فاسأل يا محمد بني إسرائيل حين جاءهم موسى

(١) السبب في حشرهم يوم القيامة «عمياً وبكماً وصُماً»، أنهم كانوا في الدنيا متعامين عن الحقِّ لا يسمعونه ، ولا ينطقون به ، فجوزوا على ذلك جزاءً وفاقاً ، وإنما فسَّر الشيخ الطبري الآية بذلك ، جمعاً بين النصوص الكريمة ، فإن الله قد أخبر بأنهم يرون وينطقون ويسمعون حيث قال ﴿ورأى المجرمون النار﴾ وقال ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ففسره الطبري بأنهم لا يسمعون شيئاً يسرهم

(٢) الآيات التسع هي كما قال ابن عباس « اليد ، والعصا ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والحجر ، والبحر ، والطور » وعن الحسن الطوفان ، والسنون ، ونقص الثمرات مكان الحجر والبحر والطور ، وهي آيات باهرات ظهرت تأييداً من الله لرسوله الكريم موسى الكليم .

قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ۩ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ

***

﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ فقال فرعون لموسى إني أراك تتعاطى السحر ، وهذه العجائب التي تفعلها من سحرك ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ قال له موسى لقد علمتَ يا فرعون أنَّ هذه الآيات التسع التي رأيتها آيات معجزات ، لا يقدر عليهن سوى رب السموات والأرض ، وهنَّ بصائر لمن استبصر بهن ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ وإني لأظنك يا فرعون هالكاً ملعوناً ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرضِ﴾ فأراد فرعون أن يستخفَّ بني إسرائيل فيخرجهم من أرض مصر ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جميعاً﴾ فأغرقناه ومن معه من جنده ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ وقلنا لبني إسرائيل من بعد هلاك فرعون اسكنوا أرض الشام ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ فإذا جاءت القيامة حشرناكم من قبوركم جميعاً ، مختلطين قد التف بعضكم على بعض ﴿وَبِالْحَقِّ أنزلناه وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ وبالحق أنزلنا هذا القرآن ، نأمر فيه بالعدل والإنصاف والأخلاق الجميلة ، وبذلك نزل من عند الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ وما أرسلناك يا محمد إلاّ مبشراً لمن أطاعنا بالجنة ، ومنذراً لمن عصانا بالنار ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ وقرآناً فصَّلناه وبيَّناه ، لتقرأه على الناس على تؤدةٍ ومُهل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تنزيلاً﴾ وأنزلناه شيئاً بعد شيء ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْلاَ تُؤْمِنُوا﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين آمنوا بهذا القرآن أولا تؤمنوا ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ فإن المؤمنين من أهل الكتاب ، الذين قرأوا التوراة والإنجيل من قبل القرآن ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ إذا يُتلى عليهم هذا القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ يخرون على وجوههم سجداً لله ، تعظيماً له وتكريماً ، لعلمهم أنه من عند الله ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ ويقولون : تنزيهاً لربنا ، ما كان وعده بالثواب والعقاب إلا حقاً يقيناً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدهُمْ خُشُوعاً﴾ ويخرُّون ساجدين على وجوههم يبكون ، ويزيدهم ما في القرآن من مواعظ خضوعاً لله ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَو ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء

وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

***

المشركين ، المنكرين لاسم الرحمن[١] ادعوا الله أيها القومُ ، أو ادعوا الرحمن ﴿**أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ بأيّ أسمائه جلَّ وعلا تدعو ربكم فإنما تدعون إلٰهاً واحداً ، له الأسماء الحسنى ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ ولا تجهر يا محمد بقراءتك في صلاتك فيؤذيك المشركون[٢] ، ولا تخفض صوتك حتى لا يسمع أصحابك ﴿**وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا**﴾ واطلب طريقاً وسطاً بين الخفض والإعلان ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾ وقل يا محمد الثناء الكامل لله ، الذي لم يكن له ولد[٣] ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ**﴾ فيكون عاجزاً محتاجاً إلى معين ﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ**﴾ ولم يكن له حليف ولا ناصر يحتاج إلى نصرته ، فيكون ذليلاً مهيناً ﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ وعَظِّم ربك تعظيماً يليق بجلاله

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الإسراء»

***

---

(١) سمع أبو جهل الرسول ﷺ يدعو في صلاته : يا ألله ، يا رحمن ، فقال : إن محمداً ينهانا أن نعبد إلٰهين وهو يدعو إلٰهاً آخر ، فنزلت ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن . . ﴾ الآية

(٢) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة ، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ، فنزلت ﴿ولا تجهر بصلاتك . . ﴾ الآية

(٣) نبهت الآية إلى صفات ذي العظمة والجلال ، فالذي يكون له شريك في الملك قد يمنعه من فعل الخير ، والذي يكون له وليّ من الذل يكون محتاجاً إليه ، أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك وعن الناصر كان مستوجباً للمحامد

فهرس

الموضوع	الصفحة
كلمة مدير عام دار القرآن الكريم الاستاذ محمد بسام الأسطواني.	هـ - و
كلمة سعادة الدكتور راشد بن راجح بن محمد مدير جامعة أم القرى . .	ح
كلمة سعادة الدكتور علي عباس الحكمي عميد كلية الشريعة	ي
المقدمة لفضيلة الشيخ محمد علي الصابوني	٥ - ٦
تفسير الاستعاذة والبسملة	٧ - ٨
تفسير سورة البقرة	١٠ - ٩٣
تفسير سورة آل عمران	٩٣ - ١٣٨
تفسير سورة النساء	١٣٩ - ١٨٥
تفسير سورة المائدة	١٨٦ - ٢٢٠
تفسير سورة الأنعام	٢٢١ - ٢٥٦
تفسير سورة الأعراف	٢٥٧ - ٢٩٧
تفسير سورة الأنفال	٢٩٨ - ٣١٤
تفسير سورة التوبة	٣١٥ - ٣٤٥
تفسير سورة يونس	٣٤٦ - ٣٦٧
تفسير سورة هود	٣٦٨ - ٣٩٠
تفسير سورة يوسف	٣٩١ - ٤١٣
تفسير سورة الرعد	٤١٤ - ٤٢٥
تفسير سورة إبراهيم	٤٢٦ - ٤٣٦
تفسير سورة الحجر	٤٣٧ - ٤٤٦
تفسير سورة النحل	٤٤٧ - ٤٧٠
تفسير سورة الإسراء	٤٧١ - ٤٩٠

انتهى بتوفيق الله تعالى ومنّه الجزء الأول من مختصر تفسير الطبري

ويليه الجزء الثاني من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس


دار القرآن الكريم
بيروت ص . ب . ٧٤٩٢